

غابريل غارسيا ماركيز

عشت لأروي

www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^



ترجمة: صالح علماني



إلى ماريا

الحياة ليست ما يعيشه أحدنا ،
وإنما هي ما يتذكره ، وكيف يتذكره ليرويه .

طلبت مني أمي أن أرافقها من أجل بيع البيت. كانت قد وصلت في ذلك الصباح إلى بارانكيًا قادمة من القرية النائية حيث تعيش الأسرة، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن كيفية العثور عليّ. فراحت تسأل هنا وهناك بين المعارف، فأشاروا عليها بأن تبحث عني في مكتبة "موندو" أو في المقاهي المجاورة، حيث أذهب مرتين في اليوم لتبادل الحديث مع أصدقائي الكتاب. ومن أخبرها بذلك حذرًا قائلاً: "كوني متيقظة، لأنهم مجانين تمامًا". وصلت في الثانية عشرة تمامًا. شقت طريقها بمشيئها الخفيفة بين مناضد الكتب المعروضة، وولفت أمامي، تنظر إلى عيني مباشرة بابتسامة مأكرة من اهتمامات أفضل أياها، وقالت لي قبل أن أتكن من الإتيان بأي رد فعل:

- أنا أمك.

ثمة شيء قد تغير فيها منعتني من التعرف عليها للوهلة الأولى. كانت في الخامسة والأربعين، وإذا ما أضفنا إلى سنوات عمرها ولادتها الإحدى عشرة، تكون قد أمضت عشر سنوات تقريباً وهي حلي، ومثلها على الأقل وهي ترضع أبنائها. كانت قد شابت تمامًا قبل الأوان، وبدت عيناها كبيرتين جداً وذاهلتين وراء نظائرها الأولى ثنائية المؤدة، وهي

تلتزم جداً كاملاً وجدياً على موت أمها، ولكنها ما زالت تحتفظ بالجمال الروماني الذي تبدو عليه في صورة من حفل زفافها، وقد اكتسبت الآن جلال نسمة خرافية. قالت لي قبل أي شيء آخر، وحتى قبل أن تعانقني، بأسلوبها الاحتفالي المعهود:

- جئت أطلب منك معروفاً يرافقني لبيع البيت.

ولم تكن مضطرة لأن تقول أي بيت هو، ولا أين، لأنه لم يكن لنا سوى بيت واحد في هذا العالم: بيت الجددين القديم في أراكاتكا، الذي حالني الحظ بالولادة فيه، ولم أهد للحيش هناك منذ بلوغي السنة الثامنة من عمري. كنت آنذاك قد هجرت كلية الحقوق بعد ستة فصول دراسية، أمضيتها، ليل أي شيء آخر، في لراة كل ما يلح تحت يدي، وفي ترديد أشعار العصر الذهبي الإسباني الفريدة من الذاكرة. كنت قد قرأت، مترجمة وفي طبعات مستعارة، كل الكتب التي تكفيني لتعلم تقنية قص الروايات؛ وكنت قد نشرت ست قصص قصيرة في ملاحق صحيفة، استحققت حماس أصدقائي واهتمام بعض النقاد. وكنت أكمل الثالثة والعشرين من عمري في الشهر التالي؛ وكنت متخلفاً عن الخدمة العسكرية، ومُجبراً في حالتي سيلاز زهري، وأدخن كل يوم دون هواجس، ستين سيجارة من صنف تبغ رهيب، وأقضي بظالتي بالتناوب بين بارانكيّا وكارنخينا دي إندياس، على ساحل الكارايبي الكولومبي، بالبقاء حياً على أحسن وجه بما يدفعونه لي مقابل ملاحظاتي الصحفية اليومية في جريدة "الهيرالدو"، وهو أقل من لا شيء تقريباً. وأنام مع أفضل رفقة ممكنة حبشاً يفاجتني الليل. وكما لو أن عدم البقيين بأسر طموحاتي وغوصي حياتي لم يكونا كافيين، فقد كنا نعدّ العدة، أنا

وجماعة من الأصدقاء المحميين، لإصدار مجلة جريئة، ودون موارد، خطط ألفرتسو فوينتايير لها منذ ثلاث سنوات، ما الذي يمكنني أن أرغب فيه أكثر من ذلك؟

وسيب القلة، أكثر مما هو بدافع الإعجاب، سبقت الموضة بعشرين سنة؛ شارب كشيف خشن، وشعر مشعث، بنظال رعاة بقر، وقمصان مزركشة بأزهار غير مناسبة، وصندل حاج، وفي ظلمة إحدى دور السينما، كان أحد أصدقاء ذلك الزمن يقول لأحدهم، دون أن يدري أنني قريب منه: "يا لفابيو المسكين، إنه حالة مبشوس منها". وهكذا، حين طلبت مني أمي أن أذهب معها لبيع البيت لم أجد أي عائق يمنعني من أن أقول لها نعم. أخبرتني أنها لا تملك ما يكفي من النقود، فقلت لها، بدافع الكرامة، إنني سأؤتي دفع ثقتاني.

لم يكن ممكناً حل الأمر في الصحيفة التي أعمل فيها، فقد كانوا يدفعون لي ثلاثة بيزوات مقابل زاويتي اليومية وأربعة بيزوات عن كل المتشاحية أكتبها، حين يتغيب أحد المحررين الشابين. ولكن ذلك كان يكاد لا يكفي. حاولت الحصول على سلفة، فخير أن المدير ذكرني بأن ديوتي الأصلية تزيد على خمسين بيزو، وفي ذلك المساء التشرلت لمهاوذاً لا يمكن لأي واحد من أصدقائي أن يقدم عليه؛ فحدث صطرح صلبه كولومبيا، الملائق للمكتبة، ألتقيت بدون رامون فينيس، المعلم والمكتبي الكتلاتي العجوز، وطلبت منه عشرة بيزوات ديناً. فكان لديه ستة فقط، لم يكن بإمكان أمي ولا بإمكانني طبعاً، أن ننصوّر، صجرة تصوّر، أن تلك الرحلة البريئة التي استمرت يومين فقط، ستكون حاسمة إلى ذلك الحد بالنسبة لي، حتى إنه لا يمكن لأطول حياة وأكثرها اجتهداً، أن

تكون كافية لروايتها. والآن. وقد تجاوزت الخامسة والسبعين. أعرف أن ذلك القرار كان الأهم بين كل القرارات التي توجب عليّ اتخاذها في حياتي ككاتب. هذا يعني: في حياتي كلها.

حتى سن المراهقة، يكون اهتمام الذاكرة متصباً على المستقبل. أكثر من الماضي. ولهذا لم يكن الحنين قد حول ذكرياتي عن القرية إلى المثالية. كنت أتذكرها مثلما كانت عليه: مكان جيد للعيش، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضاً، على ضفة نهر ذي مياه صافية تنساب فوق غرسة من حصي مصلولة، بيضاء وكبيرة مثل بيوط خرافية. وعند الغروب، وخاصة في شهر كانون الأول، بعد أن تلتفي الأمطار وصير الهواء المائساً، تبدو سلسلة جبال سييرا ليفادا في سانتا مارتا كأنها تدنو بقسمها البيضاء. حتى مزارع المؤز على الضفة المقابلة. ومن هناك يظهر الهنود الأروهاكون مهوليين في أوتال بل على دوروب سلسلة الجبال الضيقة، وهم يحملون أكياس الزنجبيل على كواهلهم، ويضعون كرات من أروان الكوكا، ليحملوا الحياة. وكنا نحن الأطفال نعلم آنذاك بأن نصنع كرات من تلك الثلوج الدائمة، وبأن نلعب لعبة الحرب في الشوارع الملتهبة. لقد كان الحر غير معقول، ولا سيما خلال القيولة، إلى حد أن الكبار يشكون منه كما لو أنه مفاجأة جديدة في كل يوم. كنت أسمع منذ صولتي، باستمرار ودون هوادة، أن خط سكة الحديد ومحركات اليونايته قروت كومباتي، بُنيت في الليل، لأنه من المستحيل إمساك المعدات المعدنية المسخنة تحت الشمس.

الطريقة الوحيدة للوصول إلى أراكاتاكا، للقدام من بارانكيا، هي في مركب متعلق ذي محرك، عبر بحر ماني حفرته أذرع العبيد في العهد

الاستعماري. ثم بعد ذلك عبر مستنقع فسيح، مياهه عكرة وكثيرة، حتى بلوغ بلدة نيتاغوا القاصية. ومن هناك يركب القطار العادي الذي كان في أيام عزه، الأفضل في البلاد، وفيه تقطع المسافة الأخيرة عبر مزارع المؤز الشاسعة، مع مواقف كثيرة عابرة في ضياع معبرة وملتهبة، ومحطات متوحدة. كان هذا هو الطريق الذي انطلقنا فيه أنا وأمي في المباحة السابعة ليلاً من يوم السبت، الثامن عشر من شباط سنة ١٩٥٠ - عشية الكرنفال - تحت وابل طوفاني في غير أوانه، ودون أن يكون معنا سوى اثنين وثلاثين بيزو نقداً تكفيهما بشقة للمعدة إذا لم يُبع البيت في الظروف المترددة.

كانت رياح الصايبات الشمالية قوية جداً في تلك الليلة، فتكلفتُ جهداً كبيراً في الرمي النهري لإقناع أُمي بالصعود إلى المركب. وقد كانت على حق. فمثل المركب هي تقليد مُصنَّع لسفن نيسو أورليانز البخارية، ولكن بمحركات تعمل بالبنزين، تبحث رجفة حمى خبيثة في كل من هو على متنها. وكانت في المركب قاعة صغيرة فيها حلقات من الجبال على مستويات متعددة، لتعطين أراجيح النوم، ومقاعد خشبية يمكن لكل واحد أن يرتاح عليها، مزاحماً بالمناكب، كيفما يستطيع مع أمتعته المفرطة، وحزم البطائح، وأقفاص الدجاج، وحتى الخنازير الحية. وكان هناك عدد ضئيل من القصرات الخائفة، في كل واحدة منها سربان عسكريان، وتشغل تلك القصرات، على الدوام تقريباً، عاهرات بالسمات يوشن لهن، يتقدمن خدمتات مستعجلة خلال الرحلة. وبما أننا لم نجد في نهاية الأمر أي قسرة فارغة، ولم نكن نحصل كذلك أراجيح نوم، فقد هجمنا، أنا وأمي، على كرسيين معدنيين في المسر الأوسط، وتهيأنا لقضاء الليل هناك.

ومثلما حدثت أمي، لقد ضربت العاصفة المركب المشهور بينما نحن نعبّر نهر مجدليشا، الذي يتحول إلى مزاج محيطي عند مصبه. كنت قد اشترت في المرقأ مؤونة جيدة من أرخص أصناف السجائر، مصنوعة من تبغ أسود، ويورق ينقصه القليل ليصبح أسمر. وبدأت أدخن على طريقتي آنذاك، بإشعال سيجارة من عقب أخرى، بينما أنا أعيد قراءة رواية ويليم فوكتر "تور في آب". وكان فوكتر آنذاك أوفى شياطيني الأوصياء. نشبت أمي بسببها، وكأنها تتسلق بلفاف رائعة روحية يمكنها أن تسحب جراثيم أو أن تحمل طائرة في الجو، وكما هي عاداتها، لم تطلب شيئاً لنفسها، وإنما الازدهار والحياة المديدة لأبنائها الأحد عشر. ولا بد أن صلاتها قد وصلت إلى حيث يجب أن تصل. لأن المطر تحول إلى الرذاذ، عندما دخلنا القنال. وتحرك الهواء بنقطة تكفي فقط لإبعاد البعوض. خبات أمي عندئذ المسبحة وراحت تراقب، مطولاً وبصوت، جلبة الحياة التي تدور في ما حولنا.

كانت قد ولدت في بيت مشواضع، ولكنها ترعرعت في الازدهار العابر الذي وفرته شركة الموز. وقد بقي لها من كل ذلك، على الأكل، القريبية الجيدة التي تلفتها كطفلة غنية في مدرسة تقديمه الصنوا المقدسة، في سانتا مارتا. وكانت، خلال عطلات عيد الميلاد، تفرّج على الطائرة مع صديقاتها، وتعزف على الكلافيكورد في الأسواق الحزينة، وتحضر مع عمة صرافقة، أشد حفلات الرقص انتقائية من تلك التي تقبضها الأرستقراطية المحلية الوردية. ولكن أحداً لم يكن يعرف لها أي خطيب عندما تزوجت، رغم إرادة أبيها، من عامل التلغراف في القرية، وكانت أبرز مزاياها منذ ذلك الحين هي حس الصغرية والصحة الحديدية

التي لم تستطع حكايات الرزايا والشعائد أن تهزمها خلال حياتها المديدة. أما أكثر مزاياها مفاجأة، وأقلها منذ ذلك الحين إثارة للشبهة أيضاً، فهي موهبة واقفا التي أتاحت لها إخفاء قوة طبعها الرهيب: إنها هرج آسد مكتمل. وقد وقر لها ذلك فرض سلطة أوصية تصل سميرتها إلى أبعد الأكارب المقومين في أماكن لا تخطر على بال، مثل نظام كوكبي تتحكم به من مطبخها، بصوت خافت، ودون أن يرف لها جفن تقريباً، بينما هي تملق قدر فاصوليا.

لدى رؤيتها تتحمل تلك الرحلة القاسية، دون أن يطرأ عليها أي تبدل، تسألت كيف استطاعت الإذعان لمظالم الفقر بكل تلك السرعة، وكل ذلك التحكم بالنفس. ولم يكن هناك مثل تلك اللبقة للتأكد من ذلك. فالبعوض الضاري، والحرق الكثيف المفزع، بسبب وحل الفئوات الذي كان المركب يحركه في مروره، وجلبة المسالين المزدحمين الذين لا يجدون راحة ضمن جلدهم. كان كل شيء يبدو وكأنه معدّ عمداً لزعزعة أشد الطباع فولدة. كانت أمي تتحمل كل ذلك، وهي ثابتة في كرسيها. بينما فتيات الاستخبار يجتنبن حصاد كرفال في القمترات القريبة، متكررات كرجال أو "مانولات"^(١). كانت إحداهن لد دخلت وخرجت من قمرتها عدة مرات، وفي كل مرة مع زبون مختلف، بجوار مقعد أمي بالضبط. وقد فنتت أنها لم تلحظ ذلك، ولكنها بعد المرة الرابعة أو الخامسة لدخول الفتاة وخروجها، لاحظتها بنظرة رثاء، حتى نهاية المساء، وتنهت قائلة:

(١) مانولا manola: صيغة ثلاثية باسم "مانولا" الشائع، وهي تسمية كانت تطلق في أواخر القرن الثامن عشر ووسط القرن التاسع عشر، على نساء بعض الأنحاء الشعبية الفلواتي يرتدين ملابس تشبه بالثقل. وتحول استخدام الكلمة فيما بعد لتصبح تسمية مهذبة، مع بسة صغرية، للدهرات.

- يا للفتيات البائسات ما عليهن عمله لكي يعشن أسوأ من الشغل.
 بقيت أمني على تلك الحال حتى منتصف الليل، عندما تعبت من
 القراءة مع الاحتزاز الذي لا يطاق وشع أنوار المسر. فجلست أذعن
 بجانبها، محاولاً الخروج من روعة ومال كوتشبة بكنائباتها^(١). كنت قد
 هجرت الجامعة في السنة السابقة، محملاً النفس بالوهم الجري. في
 العيش من الصحافة والأدب دون حاجة إلى تعلمهما، متحمساً لعبارة
 أظن أنني قرأتها لبرنارد شو: "منذ طفولتي المبكرة اضطررت إلى قطع
 تعلمي لكي أذهب إلى المدرسة". ولم أجرو على مناقشة الأمر مع أحد،
 لأنني كنت أشعر. دون أن أتمكن من تفسير ذلك، بأن مسوغاتي لن
 تكون نافعة إلا لي أنا بالذات.

محاولة إقناع أبيي بثل ذلك التصرف الجتري، بعد أن عقدا عليّ
 آمالاً كبيرة وأنفقا نفوداً كثيرة لم يكونا يملكانها، هو إضاعة للوقت. ولا
 سيما أبي الذي يمكن له أن يفسر لي أي شيء، باستثناء عدم تعليق
 شهادة جامعية، لم يستطيع هو الحصول عليها، على الجدار. انقطع
 الاتصال بيننا. وبعد مرور سنة تقريباً، كنت ما أزال أفكر في زيارته
 لأقدم له تبرعاتي، عندما ظهرت أمني لتطلب مني مرافقتها لبيع البيت.
 ومع ذلك، لم تأت هي على أي ذكر للمسألة إلى ما بعد منتصف الليل،
 في المركب، عندما أحست، كوحى خارق، بأنها وجدت أخيراً الفرصة
 المناسبة لتقول لي ما كان، دون ريب، السبب الحقيقي لرحلتها. وبدأت
 بالطريقة والنبرة والكلمات المؤزوة بدقة، والتي لا بد أنها قد أنتجت
 في وحدة أرقها. قبل وقت طويل من بدتها الرحلة.

(١) المكان الذي تدور فيه أحداث رواية "تور في لب".

- أبوك حزين جداً - قالت.

ها هو ذا إذا الجحيم المزهوب، بدأت كعادتها، في وقت لا يخطر
 على بال، ويصوت هادئ لا يمكن لأي شيء أن يبدله، لمجرد أن تستكمل
 اللطوم، لأنها كانت تعرف جواهي جيداً، فسالها:

- ولماذا هو حزين؟

- لأنك تركت الدراسة.

- لم أتركها - قلت لها - وإنما غيرت الدراسة فقط.

- أبوك يقول إنه الشيء نفسه.

فقلت لها، وأنا أعرف أن ما أقوله زائف:

- وهو نفسه ترك الدراسة أيضاً ليعرف الكمان.

- الأمر ليس بمثل - ردت بحدة كبيرة - لقد كان يعزف الكمان

في الحفلات والسرناوات فقط. وإذا كان قد ترك دراسته، فلأنه لم يكن
 يملك ما يأكله. ولكنه في أقل من شهر، تعلم مهنة التلفراف، وهي مهنة
 جيدة آنذاك، ولا سيما في أراكاتانكا.

- وأنا أيضاً أعيش من الكتابة للصحف - قلت لها.

- أنت تقول هذا كي لا تعذبن. ولكن سوء حالك يظهر عليك من

بعيد. وإلا كيف لم أتعرف عليك عندما رأيتك في المكتبة.

- وأنا أيضاً لم أتعرف عليك.

- ولكن ليس للسبب نفسه. لقد ظننت أنك مشغول صدقات.

ونظرت إلى صندلي، وأضافت: - ودون حورب.

فقلت لها:

- هذا مريح أكثر. قميصان وسروالان داخلان؛ واحد آرتهبه وآخر

يجف. ما الذي أحججه أكثر من هذا؟

- قليل من الكرامة - قالت هي. ولكنها لطفت ذلك على الفور
ببرة أخرى: - أقول لك هذا لأنتا تحبك كثيراً.

- أعرف ذلك. ولكن أخبرني، لو أنك مكاني، أما كنت ستفعلين
الشيء نفسه؟

- ما كنت لأفعله - قالت - إذا كنت سأخالف أبوي بذلك.
تذكرت عنادها الذي تمكنت به من كسر معارضة أسرتها للزواج.
قللت لها ضاحكاً:

- تجرّكي على النظر في عيني.
ولكنها نحاسفتني بجديّة، لأنها كانت تعرف تماماً ما الذي أفكر
فيه، وقالت:

- لم أتزوج إلا بعد أن حصلتُ على مباركة أبوي. بالقوة، أجل،
ولكنني حصلت عليها.

قطعت النقاش، ليس لأن حجبتي ألتفتتها، وإنما لأنها أرادت
الذهاب إلى المرحاض وهي لا تثق بطروقه الصحية. فتحدثتُ إلى معاون
الربان، لأسأله إذا ما كان هناك مكان أكثر نظافة، لكنه أوضح لي أنه
هو نفسه يستخدم المرحاض العمومي. ثم قال، كما لو أنه قد انتهى ثراً
من فراثة كونراد: "جميعنا متساوون في البحر". وهكذا خضعت أُمّي
إلى قانون الجميع. وعندما خرجت، وعلى عكس ما كنتُ أعتقد، ثم
تستطيع منع نفسها من الضحك إلا بصحبة وهي تقول لي:

- تصور، ما الذي سيظنه أبوك بي إذا ما رجعت إليه مصابة بأحد
أمراض الحياة الخبيثة؟

بعد انقضاء منتصف الليل، تعرضتُ لتأخير دام ثلاث ساعات، ذلك

أن تشابهك الزينقيات والأعشاب المائية في القنال عطل مراوح الدفع،
فعاد المركب إلى متبت أشجار مانفي وكان على مسافرين كثيرين أن
يسحبوه من الضفاف، بحبال أراجيح النوم. صار الحر والبعض لا
يطاقان. ولكن أُمّي تخلّصت منهما، بوميض إغفالات آنية ومقطعة.
وهي حالة مشهورة في الأسرة، أتاحت لها الاستراحة دون أن تفقد خيط
المعاداة. وعندما استؤثقت الرحلة وهبت النسمة الباردة، استعادت
صبرها كاملاً. وتنهت:

- لا بد لي، على كل حال، من أن أحمل جواباً إلى أبوك.
قللتُ لها بالبراعة نفسها:

- من الأفضل ألا تقضي. في شهر كانون الأول سأذهب بنفسي،
وعندهذا سأوضح له كل شيء.

- ما زالت هناك عشرة شهور.

- لا يمكن في نهاية المطاف إصلاح أي شيء بشأن الجامعة هذه
السنة - قلتُ لها.

- هل تعني حقاً أنك ستذهب؟

- أعدك - قلتُ لها، ولمحتُ لأول مرة، شيئاً من الجزع في صوتها:

- هل يمكنني أن أقول لأبوك إنك ستقبل له نعم؟

فأجبتها بحزم:

- لا، هذا لا.

بدا جلياً أنها تبحث عن مخرج آخر. ولكنني لم أضعها إياه.

- من الأفضل إذاً أن أقول له الحقيقة كلها منذ الآن. وهكذا لن

يبدو أن هناك خدعة.

فقلت لها براحة:

- حسناً، أخيراً.

اتفقنا على ذلك. ويمكن لمن لا يعرفها أن يفكر في أن كل شيء قد انتهى عند ذلك الحد، ولكنني كنت أعرف أنها مجرد هدنة لاستعادة الأتقاس. بعد قليل نامت بصق، حيث نسمة خفيفة أهدت البعوض وأغصمت النهر. الجديده برائحة أزهار. وعندئذ اكتسب المركب وشاقة سطينة شراعية.

كنا في ثينانغا غراندي^(١) (المستنقع الكبير)، وهو أسطورة أخرى من أساطير طلولتي. لقد أبحرْتُ فيه عدة مرات، عندما كان جدي الكولونيل نيكولاس ريكاردو ماركيز ميخيا - الذي كنا، نحن أحفاده، نسميه باباليلو - يأخذني من أراكاتاككا إلى بارانكيا لزيارة أبوي. "يجب عدم الخوف من الثينانغا (المستنقع)، وإنما احترامه". كان قد قال لي، متحدثاً عن نزوات مياحه غير المتوقعة، فهي قد تنصرف مثل مستنقع راكد أو مثل محيط هائج. في فصل الأمطار يكون تحت رحمة عراصف سلسلة الجبال. وعند كانون الأول حتى نيسان، عندما يهضر أن يكون الطقس هادئاً، تفسده الروائح الكريهة وريح الشمال بهبات قوية، لجعل كل ليلة فيه مغامرة. لم تكن جدي لأمي، ثرانكيلينا إيفاران - مينا - تتجرأ على اجتيازها، إلا في الحالات المستعجلة والطائرة الكبرى. بعد ما حدث، إثر رحلة مرعبة اضطررنا خلالها إلى البحث عن ملجأ حتى الفجر في مصب نهر ريوغريو.

(١) Chénaga Grande نوع من البحيرات أو المستنقعات الشامية، تتشكل في المنطقة المعروفة باسم ثينانغا، وتملأها من البحر كيان رملية ضيقة.

لحسن الحظ أن المستنقع كان هادئاً في تلك الليلة. فمن نوافذ مقعدة المركب، حيث خرجت للتنفس، قبل الفجر بقليل، كنت أرى أنوار مراكب الصيد التي لا يحصى عددها، تطفو مثل لهجوم على سطح الماء. وكان الصيادون غير المرئيين يتبادلون الحديث كما في الزيارات، إذ كان للأصوات وقع خاص في جو الثينانغا. وبينما أنا متكن على الهاجز، أحاول أن أتبين شبح سلسلة الجبال، فجاءتني، على حين غرة، ضربة مغلب الحنين الأولى.

في فجر يوم آخر مثل هذا، بينما كنت أجتاز ثينانغا غراندي، تركني باباليلو نائماً في القمرة، وذهب إلى حانة المركب. لست أدري كم كانت الساعة، عندما أيقظني جلبة أناس كثير من خلال أزيز المروحة الصدئة واهتزاز صلفانج القمر. لم أكن، على ما أظن، قد تجاوزت الخامسة من عمري. وأحسيت برعب شديد، ولكن الهدوء ما لبث أن ساد من جديد. وفكرت في أنه قد يكون خطأ. وفي الصباح، وكنا قد وصلنا مرسى ثينانغا، كان جدي يحلق ذننه بموسى حلاقة، والباب مفتوح والمرأة معلقة في إطاره. الذكرى دقيقة، لم يكن قد ارتدى قميصه بعد، ولكنه كان يضع فوق قميصه الداخلي حمارتي بنطاله المطاطيتين الأبديتين، المرصتين الموشايتين مخطوط خضراء. وبينما هو يحلق، كان يواصل الحديث مع رجل، صا ذال بإسكانتي. حتى اليوم، التعرف عليه من النظرة الأولى، كان له بروفيغر غراب، لا يمكن الخطأ فيه؛ ووشم بهار على اليد اليمنى، ويعلق حول عنقه عدة سلاسل ذهبية ثقيلة، وأساور وسلاسل أخرى، من الذهب أيضاً، في معصيه كليهما. كنت قد انتهيت من ارتداء ملابس، وجلست على السرير لأتفعل حفااتي، عندما قال الرجل لجدي:

- لا تشك في ذلك أيها الكولونيل. ما كانوا يريدون فعله بك، هو
إلقاءي إلى الماء.

فايتسم جدي دون أن يتوقف عن الحلاقة، ورد بترقع هو من خصاله
الخاصة جداً:

- لحسن حظهم أنهم لم يتجرؤوا.
عندئذ فهمت فضيحة اللهة السابقة، وأحسست بالتأثير لفكرة أن
هناك من كان يمكن له أن يلقى بجدي إلى البحيرة.

ذكرى هذه الحادثة التي لم تتضح أبداً، فاجأتني في ذلك الصباح
الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيض، بينما أنا أتأمل تلوج سلسلة الجبال
التي تهدو، في الحجر، زرقاء مع أول خبوط الشمس، الشاطئ في
القنوات، أفتح لنا أن نرى في وضع النهار، حاجز الرمال المشعة التي
تفصل البحر عن البحيرة، حيث توجد قرى صيادين، الشباك فيها معلقة
لتجف على الشاطئ، والأطفال المسترخون والضاغرون يلعبون كرة القدم،
بكرة من الخرق، كان من المؤثر وقوة صيادين كثيرين في الشوارع،
مبتسوري الأذرع، لأنهم لم يلقوا قطع الدنناميت في الوقت المناسب.
ولدى مرور المركب، راح الأطفال يصرخون في الماء، بحثاً عن القطع
النفعية التي يلقي بها المسافرون.

كانت الساعة توشك على بلوغ الساعة، عندما بدأنا الرسو في
مستنقع متق على مفرقة من بلدة نيناها. تلقفنا جصاعات من الصالحين
الفائضين في الوحل حتى ركبهم. وحملونا حتى وصل المرسى، وسط
زحام تسور وخمة تتنازع قذارات المستنقع الموحد. كنا نجلس إلى إحدى
موائد المرقأ، نتناول بشمعل، فطوراً من أسماك البحيرة اللذيذة وشرائح

صور أخضر مقلية، عندما جددت أمي هجوم حريها الشخصية. فقالت
دون أن ترفع بصرها:

- قل إذن مرة واحدة، ما الذي سأقوله لأبيك؟

حاولتُ كسب وقت للتفكير.

- حول أي شيء؟

فجالت بتي من الترق:

- حول الشيء الوحيد الذي يهمه، دراستك.

وقد حاولتني الحظ بوجود زبون فضولي، مشدود إلى حدة الحوار،
أراد أن يعرف سروراتي. وجواب أمي الغوري لم يخفي قليلاً فقط، وإنما
فاجأتني إقدامها عليه، وهي الفهورة جداً على حياتها الخاصة، قالت:

- المسألة أنه يريد أن يصير كاتباً.

فرد الرجل بجدي:

- يمكن للكاتب الجيد أن يكسب مائلاً ونيراً، ولا سيما إذا كان
يعمل مع الحكومة.

ولا أدري إذا ما كانت أمي قد تحاشت الموضوع بدافع الحذر
والتحفظ، أم خوفاً من حجب محاروها الطارئ. ولكنهما انتهيا إلى
الناسي حالة الشدد التي يعيشها أبناء جيلي، وتبادل الحنين إلى
الماضي. وأخيراً، جرجر أَسَاء مصادره مشتركين، وانتهى بهما الأمر إلى
اكتشاف أننا أقرباء من ناحية، من ناحية آل كوتيس، وناحية آل
إغواران. وكان ذلك يحدث لنا في تلك الحقبة، مع كل شخصين من كل
ثلاثة أشخاص نلتقي بهم في منطقة ساحل الكاريسي. وكانت أمي
تحتفل بذلك في كل مرة، كحدث فريد.

ذهبنا إلى محطة القطار، في عربة من طراز فيكتوريا، يجرها حصان واحد، ربما هو الأخير من سلالة منقرضة في بقية العالم. كانت أمي تمضي ساهمة، تنظر إلى السحب القاحل والمشكل بلح البارود الذي يبدأ من مرحلة الرقأ ويصبح في المدى. لقد كان أفكان تاريخياً بالنسبة إلي: ففي الثالثة أو الرابعة من عمري، في أثناء رحلتي الأولى إلى بارانكيا، أخذني الجد من يدي، عبر ذلك القفر المتهيب، سائراً بسرعة ودون أن يقول لي لماذا، ولجأة وجدنا أنفسنا قبالة امتداد شاسع من الماء الأخضر فيه لمخشوات زبد، ويظهر فيه عالم كامل من الدجاج الفارق. وقال لي:

- هذا هو البحر.

لسألته، وقد خاب أصلي، عما يوجد في الضفة الأخرى، فأجابني دون أن يتردد في الأمر:

- في الجانب الآخر، لا توجد ضفة.

اليوم، بعد وظيفتي لبحار كثيرة من الوجه والقفا، ما زلت أفكر بأن ذلك الجواب هو إحدى إجاباته العظيمة، وعلى أي حال، لم يكن أي من تخيلاتي المسبقة، يتفق مع ذلك البحر الواسع، الذي يستحيل النسي على شاطئه التبراني، ما بين أغصان أشجار المانجلي المتعفنة وشظايا فئات الأصداف: لقد كان رهيباً.

لا بد أن أمي كانت تحمل الفكرة نفسها عن بحر شينغا، لأنها، ما إن رآته يظهر إلى يسار العربة، حتى تنهدت:

- ليس هناك بحر مثل بحر ويوهانشا!

رويتُ لها، في تلك المناسبة، ذكري عن الدجاجيات الفارقة، فيما

لها ذلك، مثل جميع الكبار، أنه من تهيؤات الطفولة. ثم واصلتُ بعد ذلك تأمل كل مكان تصادفه في طريقنا، وكنتُ أعرف، من تبدلات صحتها، ما الذي تفكر فيه، وهي ترى كل مكان، مروراً قبالة "حي التماسيح" على الجهة الأخرى من خط القطار، ببيوت الصغيرة الملوثة ذات السقوف الصنتة، وبيئاته الهرمة من بارامامبر التي تدعو الزبائن بالترغالية، من الحلقات المعلقة بأفاريز الأسطح، مروراً بنهل القاطرات، في القبة الحديدية الهائلة التي تأوي إلى النوم فيها الطيور المهاجرة والنوارس الشائكة. مروراً بمحاذاة المدينة، دون أن ندخل إليها، ولكننا رأينا انشراح القسحة والكتيبة، وبيوت الازدهار العابر، المؤلفة من طابق واحد وذات النوافذ الكبيرة، حيث كانت السيارات على السببان، تتوالى دون توقف منذ الفجر. ولجأة أشارت أمي بإصبعها، وقالت لي:

- انظر. هناك انتهى العالم.

تابعت الاتجاه الذي أشارت إليه، ورأيتُ المحطة: بناء من أخشاب منها الكفة، بسقف من التوتياء الموج، وشرفات ناتئة، وأمامها ساحة صغيرة مغلقة لا يمكن لها أن تستوعب لأكثر من مئتي شخص. لقد قتل الجيش هناك في سنة ١٩٢٨. كما أكدت لي أمي في ذلك اليوم، عدواً لم يتم تحديده قط من عمال مزارع الموز الميامين. وكنتُ أعرف ذلك الحدث، كما لو أنني قد عشته، بعد أن سمعتُ جدي يحكيه ويكرره ألف مرة، منذ أن صار لي ذاكرة: الضابط يقرأ القرار الذي اعتُبر فيه العمال المضربون عصبة من الأشرار! والثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل ظلوا نائمين في أماكنهم، تحت الشمس الرهيبية، بعد أن منحهم الضابط مهلة خمس دقائق لإخلاء الساحة: أمر إطلاق النار، أزيز زخات الرصاص

المتأججة، أصيب الحشد المتحاصر بالهلع، بينما هم يقصصونه شبراً شبراً بمقص الرشاشات المنهجي والنهم.

يصل القطار، عادة إلى ثيناغنا في التاسعة صباحاً، فيحمل ركاب المركب ومن ينزلون من سلسلة الجبال، ويواصل طريقه، مشغولاً داخل منطقة مزارع الموز، بعد ربع ساعة من ذلك. وصلنا أنا وأمي إلى المحطة، بعد الساعة الثامنة، لكن القطار تأخر. ومع ذلك، فقد كنا الركاب الوحيدين. وقد انتهت هي إلى ذلك، مدخلنا المرة الحادية، فلهنت بزجاج احتفالي:

- يا لثرفا القطار بكامله لنا وحدنا!

لقد نكرت على اليوم في أنه كان ابتهاجاً متكلفاً توارى به خيبة أمليها. لمصروف الزمن كانت بداية للعبان بكل وضوح في حالة المرات. إنها عربات الدرجة الثانية القديمة، ولكن دون مقاعد الحيزوان، ودون الزجاج الذي يمكن رفعه وإنزاله في النوافذ، وإنما بمقاعد خشبية ديفتها مؤخرات القفراء المساء والباشقة. وقد بدأ القطار بكامله، وليس تلك العربة وحدها، شعباً لنفسه بالمقاومة مع ما كان عليه في الماضي. لقد كانت فيه من ليل ثلاث درجات. الدرجة الثالثة التي يسافر فيها أفقر الناس، وعرباتها هي الأكفاس نفسها، المصنوعة من ألواح خشبية، تنقل الموز أو مواشي الذبوع. وقد كُتبت للمسافرين بمقاعد طولانية من الخشب الحام. والدرجة الثانية، فيها مقاعد من الحيزوان وإطارات برونزية. أما الدرجة الأولى التي يسافر فيها أناس الحكومة وكبار موظفي شركة الموز، فهناك سجاد في عمرها ومقاعد قارحة مغلقة بغطىة حمراء، يمكن تبديل أماكنها. وعندما يسافر مراقب الشركة الأعلى أو أسرته، أو

ضيوفه البارزون، تشبه في آخر القطار، عربة فاخرة ذات نوافذ من البلور الشمسي وأقاريز مذهبة، وشرفة مكشوفة فيها مناضد صغيرة من أجل تناول الشاي. أثناء السفر، ولم أعرف على كائنات فإن رأى عربة الأحلام تلك من الداخل. لقد كان جندي عمدة مرتين، ولديه لوق ذلك مفهوم سعيد عن التقود. ولكنه لم يكن يسافر في الدرجة الثانية، إلا إذا كانت برفقته إحدى نساء الأسرة. وعندما يسألونه لماذا يسافر في الدرجة الثالثة، يجيب: "لأنه لا وجود لرابعة". ومع ذلك، فإن أهم ما يذكر من القطار، هي أرصفة أخرى، هو دقة مواعيده. فساعات القرى كانت تضبط على صفيره.

في ذلك اليوم، لسبب أو لآخر، انطلق القطار متأخراً ساعة ونصف الساعة. وعندما بدأ انطلاقه، بطء شديد وصيرير كثيب، رسمت أمي إشارة الصليب. ولكنها عادت على الفور إلى الواقع، وقالت:

- هذا القطار بحاجة إلى زيت في ثرابعه.

كنا المسافرين الوحيدين. وبما في القطار كله، ولم يكن هناك حتى تلك اللحظة، أي شيء يثير في اهتماماً حقيقياً. غرقت في سمات "نور" في "أب"، مدخناً دون توقف، مع نظرات سريعة ألقبها بين حين وآخر لتعرف على الأماكن التي تخلفها ورائها. اجتاز القطار، بصغير طويل، مستنقعات ثيناغنا، ودخل بسرعة قصوى في عمر متجرجح من صخور مائلة إلى الحمرة. فصارت قرعة العربات لا تطاق. ولكن السرعة خفت بعد نحو خمس عشرة دقيقة، ودخل في لهات مكثوم، إلى هلال برودة المزارع، وصار الطقس أشد كشافاً، وتلاشى الإحساس بنسيم البحر. لم أكن مضطراً إلى قطع النظرة، لأعرف أننا قد دخلنا مملكة مناطق الموز الكتيبة والغامضة.

تبدل العالم. فعلى جانبي مكة الحفيد، راحت تحت هبوب المزارع المتناسقة وغير المتناهية، حيث كانت تضي عريبات تجرها الجواميس، محملة بقطوف الموز الخضراء. وفجأة، وفي فراغات مباحثة خالية من الزرع، تظهر هناك معسكرات من الآجر الأحمر، ومكاتب لنوافذها زوائد ملحقة، فيها مراوح ذات أذرع معلقة في السقوف، ومستشفى متردد في حفل شقائق نعمان، كل نهر وله قريته وجسره الحديدي، حيث يمر القطار مطلقاً ولولائه، فتقفز الفتيات اللواتي يستعمن في المياه الجبلية، مثل أسماك شابل، لدى مروره. لبسوشن المسافرين بنهودهن العابرة.

في قرية ويولرو، صعدت عدة أسر من هنود أروهاكو، محملين بحفائب ظهر متربعة بنهار الأغواكاثي الجبلية. وهي الأشهى مذاقاً في البلاد. ذرعوا العربة متقافزين في كلا الاتجاهين، باحثين عن مكان يجلسون فيه. ولكن لم يبق في العربة، عندما استأنف القطار سيره، سوى امرأتين يمشون، معهما طفل حديث الولادة، وخوري شاب، لم يتوقف الطفل عن البكاء، طوال بقية الرحلة. أما الخوري فكان يشغل بزمرة ويمنصر قبعة كشاف، مثل شراع، وكان يتكلم، في الوقت الذي كان فيه الطفل يبكي، وراثياً، كما لو أنه على منبر الحكمة. وموضوع موقعه هو احتمال عودة شركة الموز. منذ غابرت هذه الشركة لم يكن هناك حديث آخر في المنطقة، وكانت وجهات النظر متقسمة بين من يريدون أن تعود، ومن لا يريدون. ولكن الجميع يعقبون عودتها أمراً مؤكداً. الخوري كان ضد عودتها، وقد فسر ذلك بسبب شخصي جداً، إلى حد يده معه جوتونياً للمرأتين:

- الشركة تخلف الخراب أينما حُرّت.

كان هذا هو الشيء الأصيل الوحيد الذي قاله. ولكنه لم يتمكن من شرحه. وقد انتهى الأمر بالمرأة التي تحمل الطفل إلى تخطئته، بحجة أنه لا يمكن للرب أن يكون متفقاً معه.

لقد محا الحنين، كالعادة، الذكريات السيئة، وضخم الطيبة. ليس هناك من ينجو من آثاره المخرية. كان الرجال الجالسون عند أبواب بيوتهم، يظهرون من نافذة العربة، وكانت رؤية وجوههم كافية لمعرفة ما ينتظرونه. والغسالات على الشواطئ النهرية ينظرون إلى مرور القطار بالأهل نفسه. فهم جميعهم يرون في كل غريب يأتي حاملاً حليمة وجل أعمال، رجل البرنابند فروت كومباني المائد لإعادة إقرار الماضي. في كل لقاء، وفي كل زيارة، وفي كل رسالة، تُطل عاجلاً أو آجلاً، الجملة الفعسية: "يقولون إن الشركة واجعة". ليس هناك من يعرف من قال ذلك، ولا عني، ولا لماذا قاله، إنما لم يكن هناك من يشك فيه.

كانت أمي تظن أنها قد شغبت من كل دعر مفاجئ، فبعد صوت أبيها لطمت كل علاقة لها بأراكاتاك، ومع ذلك، كانت أحلامها تخونها. فعلى الأقل، عندما يكون لديها حلم، بهما كثيراً أن ترويه أننا، الفطور، يكون مرتبطاً دوماً بحياتها إلى منطقة الموز. كانت قد تجاوزت بشقة أفسى فقرات حياتها، دون أن تباع البيت، يوم الحصول، مثاليه، على مبلغ يزيد أربعة أضعاف، عندما ترجع الشركة. وأجبراً هزمها ضغط الواقع الذي لا يطاق. ولكنها حين سمعت الخوري يقول في القطار إن الشركة على وشك الرجوع، أومأت بحركة مكروية، وقالت لي في أذني:

- من المؤسف أننا لا نستطيع الانتظار لوقت آخر قصير. كي نبيع البيت بسحر أعلى.

بينما الخوري يتكلم، مررنا، غرضاً، بقرية يجتمع في ساحتها حشد من الناس، وغرلة موسيقية تعزف لحناً مرحاً، تحت الشمس المشرقة. جميع تلك القرى كانت تبدو لي حشابة على الدوام. وعندما كان باليلو بأخفتي إلى سينما أولبيا التي يملكها دون أنطونيو داكوتي. كنتُ ألاحظ أن محطات القطارات، في أفلام رعاة البقر، تشبه محطات قطارنا. وفيما بعد، عندما بدأتُ بقراءة فوكتر، وجدت أيضاً أن قمرى رواياته تبدو ماثلة لقرانا. ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن هذه الأخيرة بُنيت تحت الإشراف المخلص لليونانيات فروت كوسباتي. وبأساليبها المؤقت نفسه، في بناء معسكرات غارة، إنني أتذكر تلك القرى جميعها، بكنيسستها التي في الساحة، وبجولتها الصغيرة، كما في قصص الطوربات، المطبوعة بالورق الأبيض. أتذكر فرق البايومين السود. وهم يمشون عند الغروب، وغالبوناً^(١) المزارع، حيث يجلس العمال لرؤية مرور قطارات الشحن، والحدود بين المزارع، حيث كان يطلع الصباح على عمال القطارات يتجاهل المشيشي متطوعي الرووس في عصابات السكر. أهام السبت. أتذكر المدن الخاضعة بالفرنسيين في أراكاتاكا، وفي سيبيا، على الجانب الآخر من مكة الحديد، مبهجة بشماله معدنية كأنها أقباص دجاج هائلة مكهمة، يطلع عليها الصباح في أيام الصيف الباردة وقد اسودت بمصافير الصنوبر المحروقة. أتذكر مروجها البطيئة المزروعة بالطواويس وطيور السماني، ومساكنها ذات السقوف الحمراء والنوافذ المشبكة، والمنازل المستديرة، مع كراس قابلة للطي من أجل تناول

(١) غالون galpon اعتبر كبير لمبة للميد في المزارع. وله يكون مستوفاً قط. ودون جدران في أغلب الأحيان.

الطعام على الشرفة، بين أشجار نخيل وشجيرات ورد معطرة. وأحياناً، تظهر من خلال سياج الأسلاك، نساء جميلات وضامرات، يلبسن من المسلمين ولحمة كبيرة من الشب، يقطفن أزهار حدائقهن بقصات ذبابة.

منه طفولتي، لم يكن سهلاً تمييز بعض القرى عن غيرها، وبعد مرور عشرين سنة، كان الأمر أصعب، فقد سقطت، عن يرايات المحطات، اللوحات الخشبية التي تحمل الأسماء، الشاعرية - توكورينكا، غاماشيمو، نيرلاندا، غواكاماهال - وجميعها كانت أكثر وحدة وحرارة مما هي عليه في الذاكرة. تولف القطار في سببها في حوالي الحادية عشرة والنصف صباحاً، لاستبدال القاطرة والتزود بالماء. خلال خمس عشرة دقيقة بدت لانهائية. وهناك بدأ الحر، وعندما تجدد السير، كانت القاطرة الجديدة تقلدنا عند كل منعطف بدفقة من هباب الفحم، تدخل من النافذة التي لا زجاج لها، وتقلبت بثلج أسود. كان الخوري والمراتان قد نزلوا في إحدى القرى، دون أن ننسبه إلى نزولهم، فزاد ذلك من إحساسي بأنني أنا وأمي نسافر وحيدتين في قطار لا أحد. وبينما هي جالسة قبائلي، تنظر من النافذة، أراحت عنها إغفائتين أو ثلاثاً، ولكنها تشطت فجأة، وأفلتت مرة أخرى السؤال المربوب:

- والآن، ما الذي سأقوله لأبيك؟

كنت أفكر في أنها لن تستلم أبداً، وستواصل البحث عن خاضرة ضميعة تكسر من خلالها قراري. كانت قبل قليل من ذلك قد اقترحت بعض صيغ الالتزام التي استبعدتها دون تقديم حجج. ولكنني كنت أعرف أن تراجعها لن يكون طويلاً. ومع ذلك، فقد أخذتني على حين غرة

في هذه المحاولة الجديدة. فأجبتها بهدوء أكبر من المرات السابقة، وأنا أعد نفسي لحركة عقيمة أخرى:

- قولني له إن النسيء الوحيد الذي أريده في الحياة، هو أن أكون كاتباً، وسوف أصبح كذلك.
فقلت:

- هو لا يعترضني على أن تكون ما تشاء، على أن تنال شهادة في أي شيء.

كانت تتكلم دون أن تنظر إليّ، متظاهرة بأنها مهتمة بمحادثة، أقل من اهتمامها بالحياة التي تمر من خلال النافذة.

- لا أدري لماذا تلحين إلى هذا الحد، مع أنك تعرفين جيداً أنني لن أستسلم - لذت لها.

فنظرت إلى عيني على الفور وسألني مبهورة:

- ولماذا تظن أنني أعرف؟

- لأننا أنا وأنت مشابهان.

ترقفت الفطار في محطة دون قرية. وبعد قليل من ذلك، حرّ قهالة مزرعة الموز الوحيدة على الطريق التي يظهر اسمها مكتوباً على النواصي:

ماكرونديو. لقد استرعت هذه الكلمة اهتمامي منذ الرحلات الأولى مع جدي، ولكنني لم أتنبه، إلا بعد أن كبرت. إلى أن إبقاعها الشعري

بروقتي. لم أكن قد سمعت أحداً ينطق الكلمة. حتى أنني لم أسأل عن معناها، وكنت قد استخدمتها في ثلاثة كتب كاسم قرية متخيلة، عندما

عرفت من موسوعة مصادفة أن الكلمة هي اسم شجرة استوائية تشبه شجرة السيبا، وأنها لا تتج أزهاراً ولا ثماراً. وخشيها الإسفنجي ينفج

في صنع زوارق الكانوا^(١) وفي نحت أدوات مطبخية. وقد اكتشفتُ فيما بعد، في الموسوعة البريطانية، أنه توجد في تنجانيقا قبيلة الماكرونديو (makonde) الرحالة، وفكرت في أن ذلك قد يكون أصل الكلمة. ولكنني لم أتقص الأمر قط، ولم أتصرف على الشجرة، فقد سألت عنها كثيراً في منطقة الموز، ولم يستطع أحد إخباري بشيء عنها، ربما ليس لها وجود على الإطلاق.

القطار يمر في الساعة الحادية عشرة بمزرعة ماكرونديو، وبعد عشر دقائق من ذلك، يتوقف في أراكاتانكا. أما في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، فسر متأخراً ساعة ونصف الساعة. كنتُ في المرحاض عندما بدأ بصرع، ودخلتُ من النافذة المكسورة ربع لافعة وحافة، مختلطة بصجيج المرميات العتيقة، وصغير القاطرة المفرع. كان قلبي يهوي في صدري، وجمد عشيان جليدي أحشائي، خرجتُ بالصرع سرعة، مدفوعاً مرعب مشاهد لما يشعر به المرء لدى حدوث هزة أرضية، فوجدتُ أمي مستقرة بلباث في مكانها، تعدد بصوت هال، الأماكن التي ترمى مروعها من خلال النافذة، مثل مضات أنية وسريعة من الحياة التي كانت، ولن تعود مطلقاً وإلى الأبد. وقالت:

- هذه هي الأراضي التي باعوها لأبي، بخديعة أن ليها ذهاباً.

مر، مثل نيزك، بيت المعلمين الجيئيين^(٢)، بعددته المزهرة واللوحة

التي على البرابطة: The sun shines for all. فقلتُ أمي:

- كان هنا هو أول ما تعلمتُ بالإنكليزية.

(١) الكانوا: canoe. نوع من الزوارق كان يستخدمه السكان الأصليون قبل مجيء الإنسان.

وهو يصنع من قشرة واحدة بنحت جذع شجرة.

(٢) الجيئية adventitious: مذهب يقول إن مجيء المسيح صار تعريباً.

نقلت لها:

- ليس الأول، بل الوحيد.

مرَّ البحر الإسفنجي والساقية بياهاها الفسكرة، منذ أن حوَّك
الغريزيون النهر، لإيصاله إلى المزارع. وقالت هي:

- هذا هو حي نساء الحياة، حيث كان الصباح يطلع على الرجال،
وهم يرقصون رلصة الكومبيامبا حاملين زماً من الأوراق النضفة
المشعللة بدل الشموع.

مصاطب مورو الأيتار، أشجار اللوز الصفرة بفعل الشمس، حديقة
مدرسة مونتيوريانا الصغيرة حيث تعلمت القراءة، ولبرة، ومضت من
النافذة صبرة شاملة للقرية، في ذلك الأحد المشع من شباط.

- المحطة: - هفت أُمي، ثم قالت: - لقد تغير العالم إلى حد لم
يعد فيه من ينتظر الفطار.

مندلة انتهت الفاطرة من الصغير، وخفت سرعتها، وتوقفت بآنة
طويلة.

أول ما أثر فيَّ هو الصمت، صمت ساكن كان بخصوري التعرف
عليه، وأنا معصوب العينين، بين أصناف صحت العالم الأخرى. كان وهج
الحرق كشيئاً إلى حد يرى معه كل شيء، وكأنه دوا. زجاج منسوج، لم تكن
هناك أي ذاكرة لحياة بشرية، على المدى الذي يصل إليه النظر، ولا لأي
شيء غير مقطع بندي خفيف من غبار منتهب. بقيت أُمي محتفظة
بالصمت ليضع دقائق، تنظر إلى القرية الميئة والمصددة في الشوارع
المقفرة، وأخيراً هفت مرعوبة:

- ربادا

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي قالته قبل أن تنزل.

في أثناء وقوف القطار هناك، راودني إحساس بأننا لم نكون
وحيدين تماماً. ولكنه عندما تحرك، مبتعداً، وهو يطلق صغيراً خاطفاً
ومؤثراً، بقيت أنا وأُمي مهجورين تحت الشمس المجهنية، وقد انتهالت
علينا كل كآبة القرية. ولكن أباً منا لم يقل شيئاً للآخر. المحطة القديمة
الهيبة من الخشب، ويحيط من الشوكة، وشرفة بارزة، كانت نسخة
مدارة للمحطات التي عرفناها في ألام رعاة البقر، اجتزنا المحطة
المهجورة التي بدأ بلاطها ينشق، بفعل ضغط الأعشاب، وعرفنا في
ركود القبلولة، باعنين طوال الوقت عن حماية أشجار اللوز.

كنت أصفت، منذ طفولتي، تلك الفيلولات الحاملة؛ لأننا لم نكون
نعرف ما يمكننا عمله. «اصتوا» فتحن نائسون، كان النائمون يهيمون
لنا. وكانت المشاجرة، والمكاتب العائمة، والمدارس، تُخلق منذ الساعة
الثانية عشرة ظهراً ولا تفتح أبوابها إلى ما قبل الثالثة بقليل. وبني
البيت من الفايك طافياً في ليموس^(١) السمات، وكان الحرق في بعض
البورت لا يطلق، إلى حد أنهم يعتقدون أراجيج النوم في الفناء، أو
يضمرون كواسي بلا مسند في ظل أشجار اللوز، وينامون جالسين في
وسط الشارع، ولا يبقى مفتوحاً سوى الفندق المقابل للمحطة، وحائته
وصالة البلياردو فيه، ومكتب التلفزيون ووا الكنيصة. كل شيء كان
مطابقاً للذكريات، ولكنه أكثر اقتضاباً وقسراً، عاثت به زويدة ربح
قذرية: البيوت المتأكلة نفسها، سقوف التوتيا، التي نخرها الصدأ، مورو

(١) ليموس Limos: منطقة بين الفردوس والجحيم، تستقر فيها أرواح الموتى من الأطفال
الذين لم يمتدوا، ومن كثرة أرباب، وأتقاء قبل يحيي المسيح.

الماشية مع أنقاض مقاعد الغرائب وأشجار اللوز الكثيرة. وكل شيء متغير بمثل ذلك الغبار غير المرئي والمنتهب الذي يخدع البصر ويكلس الجلد. أما فردوس شركة الفواكه الخاص، في الجانب الآخر من سكة القطار. وقد صار بلا سراج الأسلاك المكهرب، فكان دغلاً فسيحاً بلا أشجار نخيل. ببوته منداعية بين شقائق النعمان وأنقاض المستشفى المعترق. لم يكن هناك باب، أو صدى في جدار، أو أثر إنساني إلا له في أعماق صدى خارق للطبيعة.

كانت أمي تلمي متتعبة جداً، بخطواتها الخفيفة، متعرجة بصورة تكاد لا تلاحظ في فساتينها المداوي. وصمت مطلق. ولكن شعورها القاتل يروسل وجهها الحاد كأنها بشيان بما يحدث لها من الداخل. في نهاية الطريق، رأينا أول كائن بشري: امرأة ضئيلة، ذات مظهر حشوي ظهرت من ناصية جاكوبو بيراكاتا، وصرت بجانبنا حاملة قدراً من القصدير، غطاؤها، غير المحكم جيداً، بهتز مسجلاً إيقاع خطواتها. فهمست لي أمي دون النظر إليها:

- إنها فينا.

كنت قد تعلمت عليها. فقد عملت منذ طفولتها في مطبخ جدي. ومهما تكن التفجيرات التي طرأت علينا، فإنها كانت ستعرف علينا لم أنها تنازلت ونظرت إلينا، ولكن لا؛ لقد مرت في عالم آخر. وما زلت حتى هذا اليوم أتساءل إذا ما كانت فينا قد ماتت قبل وقت طويل من ذلك اليوم.

حين اتعطفنا عند الزاوية، كان الغبار يلتهب في قدمي، بين نسيم الصندل. وصار إحساسي بالخذلان لا يطلق. عندئذ رأيت نفسي ورأيت

أمي، تماماً مثلما رأيت في طفولتي أم وأخت اللص الذي كانت ماريا كونسويغا قد قتلتها برصاصة قبل أسبوع، وهو يحاول خلع باب بيتها. كانت، قد أبقظتها في الساعة الثالثة فجراً، خشنة أحجم وهو يحاول، من الخارج، خلع الباب المؤدي إلى الشارع. نهضت دون أن تشعل الضوء. وبعثت، بالنفسي، في الحزافة عن سمس عتيق لم يطلق النار منه أحد منذ حرب الألف يوم، وحددت في الظلام، ليس موقع الباب وحسب، وإنما كذلك مستوى ارتفاع القفل بالضبط. وعندئذ سدوت السلاح بكتلتا يديها، وأغمضت عينيها وضغطت على الزناد. لم تكن قد أطلقت النار من قبل قط، ولكن الرصاصة أصابت الهدف، عبر الباب.

كان ذلك هو أول ميت أراه. فعندما مررت في طريقي إلى المدرسة، في الساعة السابعة صباحاً، كان الجسد لا يزال ممدوداً على الرصيف، فوق بقعة من الدم الناشف. بوجه مهشم من رصاص الطلقة التي عظمت الأنف وخرجت من الأذن. كان يرتدي قميص بحار من القابيلة، مقلماً بخطوط ملونة، وتنطألاً شامواً بشبكة بدل الحزام، وكان حافياً. وإلى جانبه، على الأرض، وجدوا الخطاط الذي حاول أن يفتح به قفل الباب.

هرع أعيان القرية إلى بيت ماريا كونسويغا ليفقدوا لها التعازي، لأنها قتلت اللص. ذهبت في تلك الليلة مع باباليلو، ووجدناها جالسة على متكا من قماش الماتيللا، تبدو مثل طاروس هائل من الخيزران، وسط حساس الأصداف، الذين يستمعون إلى القصص المعادة ألف مرة، الجميع كانوا متفقين معها بأنها أطلقت النار بدافع الخوف المحض. وكان أن سألتها جدي عندئذ، عما إذا كانت قد سمعت شيئاً بعد أن أطلقت النار. فردت عليه بأنها سمعت في أول الأمر صحتاً كبيراً، ثم رنة

الخطاف المعدنية، وهو يستط على الأرضية الامتعية، وبعد ذلك صوتاً خافتاً وصتالماً: "آي، يا أماء". يبدو أن ماريا كونسويغرا لم تع تلك الآلة المؤثرة، إلى أن وجه إليها جدي السؤال. لأنها عندئذ فقط انفجرت في البكاء.

حدث ذلك في يوم الثوب. وفي يوم الثلاثاء، من الأسبوع التالي. في ساعة القبول، كنتُ ألعب بالحدود، مع لويس كارميلو كوريو. أقدم أصدقائي في الحياة، عندما فوجئنا بأن الناطقين بشتية طون قبل الموعد، ويطلون من النوافذ. وحينئذ رأينا في الشارع المقصر، امرأة بلائس المهاد الكامل. ومعها طفلة في حوالي الثانية عشرة من عمرها، تحمل باقة أزهار ذابلة ملفولة بورقة صحيفة. وكأنها محتشمان من الشمس الحارقة بظلة سوداء، غير عابئين مطلقاً برقابة الناس الذين يراهم مرورهم، لقد كانت أم اللص وأخته الصغرى، محمدان زهواً إلى البره.

لقد لاحظتني تلك الرؤيا لسنوات طويلة، مثل حلم جماعي شهيدت القرية كلها مروره من خلال النوافذ، إلى أن استطعت التطهر منها في قصة قصيرة. ولكنني لم أجد، في الحقيقة، مأساة المرأة والطفلة، ولا عزة نفسيها الراسخة حتى اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت وماجأت نفسي أمسي في الشارع المقصر نفسه وفي الساعة القائلة نفسها، فقلت:

- أشعر كما لو أنني أنا اللص.

لم نلهم أمي ما أعنيه، بل أكثر من ذلك؛ فعندما مررنا قبالة بيت ماريا كونسويغرا، لم نلق مجرد نظرة على الباب الذي تظهر عليه رقعة

الحشب، في موضع ثقب الرصاصة. وبعد مرور سنوات، بينما أنا أتذكر معها تلك الرقعة، تأكدتُ من أنها تذكر المأساة. ولكنها كانت مسفوعة لأن تقدم روحها مقابل لسانها. وقد بما ذلك أكثر جلاء، عندما مررنا قبالة البيت الذي عاش فيه دون إميليو، المشهور بلقب البلجيكي، وهو محارب قديم شارك في الحرب العالمية الأولى، وغنق القدوة على استخدام ساقه الاثنين، في حفل ألغام في النورماندي. وفي يوم أحد الغنصرة من إحدى السنوات لها بنفسه من عذابات الذاكرة، باستشاق أبحر سياتور الذهب. لم أكن قد تجاوزت آنذاك السادسة من عمري، وكانت واقعة لا تنسى إلى حد أن أمي، عندما عدنا إلى القرية، لبيع البيت، قطعت أخيراً صحتها الذي استمر عشرين دقيقة، وتهدت قائلة:

- يا بلجيكي المكين! فبر، مثلما قلت أنت، لم يعد مطلقاً إلى لعب الشطرنج.

كنا نروي الذهاب مباشرة إلى البيت، ومع ذلك، عندما مررنا على بعد كمودرا^(١) واحدة عنه، توقفت أمي فجأة وانقطعت من الزاوية السابقة.

- من الأفضل أن تذهب من هنا - قالت لي، وعندما أردت أن أعرف السبب، ودت علي: - لأنني خائفة.

وهكذا عرفتُ سبب جزعي؛ لقد كان خوفاً، ليس من مواجهة أسياسي وحسب، وإنما خوفاً من كل شيء. وهكذا وأصلنا تقدمنا عبر شارع مواز لنقوم بالتحفة، كان الهدف الوحيد منها هو عدم المرور بيتنا، وقد قالت لي أمي فيما بعد: "ما كنتُ لأجبراً على رؤيته دون التحدث،

(١) كمودرا cumbra واحدة لقياس الأبعاد، تساوي ١٢٥ متراً.

ليل ذلك مع أحد^١. وكان هذا هو ما حدث. فقد اقتادني بما يشبه الجرجرة، ودخلت دون أي تنبيه إلى صيدلية الدكتور ألفريدو باربوتا، وهو بيت على الناصية على بُعد أقل من مئة خطوة من بيتنا. كانت أدريانا بيردوغو، زوجة الدكتور، مستغرقة غاماً في الحياطة على ألتها اليدوية البدائية، فلم تشعر بنا إلا عندما وصلت أُمي إليها، وقالت لها بصوت هامس تقريباً:

- صديقتي.

رفعت أدريانا بعصرها المشوش عبر زجاجتي نظارة قصور البصر السمبكتين، ثم خلعت النظارة، وترددت هبشة، ثم نهضت فائزة وهي تفتح ذراعها وثني:

- آي، صديقتي!

كانت أُمي قد صارت وواء منتفخة الكونتوار. ودون أن نقول شيئاً آخر تعانقنا تيكيا. بقيت أواقهما من خارج حاجز الكونتوار، دون أن أدري ما أفضل، بهزني اليقين بأن ذلك العناق الطويل ذا النصوص الصامتة، هو أمر لا مفر منه كان يحدث على الدوام في حياتي نفسها. لقد كانت الصيدلية هي الأفضل في أزمته شركة الموز. غير أنه لم يبق من قوارير العقاقير القديمة، في الخزائن المتفككة، سوى بعض القوارير الخالية المعلقة بحروف مذهبة. أما ماكينات الحياطة، وصولجان هيرس^٢، وساعة البندول التي ما زالت حية، ورقعة القُسم الأبوقراطي، والكريسمان الهزازان المخلعان، وكل الأشياء التي رأيتها وأنا طفل، ما

(١) صولجان هيرس: Salvo. قسيب يشي بهتير في أعلاه، وتلف عليه حيتان. وهو شعار الطب.

زالت هي نفسها. وكانت لا تزال في الأماكن نفسها، ولكن صدأ الزمن بذلك هيتها.

أدريانا نفسها كانت ضحية. قمع أنها ترتدي، كما في السابق، فستاناً مزياً بأزهار تروبيكالية كبيرة، إلا أنه يكاد لا يظهر عليها شيء من الانفداع والشيطنة اللذين اشتهرت بهما. حتى وقت متقدم من نضجها. الشيء الوحيد الذي بقي دون تغير في ما حولها هو رائحة الناردين التي تبعث الجثث في القطط، والتي سبقت أن ذكرها بإحساس بالفرق، طوال ما تبقى من حياتي.

عندما استندت أدريانا رأسي المذموم، سمعت سبعة قوية وقصيرة من وواء الحائط الخشبي الذي يلمسنا عن الحجرة الخلفية. استعادت أدريانا بعض ظرفها الذي كانت عليه، في زمن آخر، وتكلمت لمسمع صوتها، عبر الحائط الخشبي، قائلة:

- حين من لدينا هنا يا دكتور؟

وجاء صوت جيبتي لرجل صلب يسأل من الجانب الآخر دون اكترات:

- من؟

لم ترد عليه أدريانا، وإنما أوصأت لنا للانتقال إلى الحجرة الخلفية. شلني وعب طفولي صفاً: وعمر لمي لعاب داكن. ولكنني دخلت مع أُمي إلى الحيز المشعث الذي كان فيما مضى، مخبراً للصيدلية، وجرى تركيبه كغرفة نوم للطفوان. وهناك كان الدكتور ألفريدو باربوتا، أكثر هماً من كل الرجال وكل الحيوانات الهرمة في البر والماء، مستلقياً على ظهره في أوجرة نومه الأبدية المتهترئة، دون حذاء، وببيجامته الصتيقة التي من القطن الخام، والتي تبدو أقرب إلى عباة تكفير. كان نظره

موجهاً إلى السقف. ولكنه أدار رأسه عندما أحس بدخولنا. وحقق فيما بعينه الصفرابين الشفاهتين، إلى أن تعرف على أمي، فتهت:

- لويسا سانتياغا!

جلس في أرجوحة النوم بإتساع قطعاة أثاث قديمة. وتأنس بالكامل. وحيانا بمصافحة سريعة بهذه المتولدة. انتبه هو إلى انهاري، وقال لي: "منذ سنة وأنا أعاني من حمى أساسية"^١. عندئذ غادر أرجوحة النوم، وجلس على السرير، وقال لنا بنفس واحدة:

- لا يمكن لكما أن تنصروا ما عانته هذه القرية.

تلك الجلسة وحدها، التي خلعت حيلة بكاملها، ربما كانت كافية لأن أراء مثلما كان على الدوام رجلاً متوحداً وحزناً. كان طويل القامة، نحيلاً، له شعر معدني بديع مقصوص كبعض اتفن. وعينان صغراوان وكثيفتان هما أروع رعب في عطلاتى. فمعد عودتنا من المدرسة في المساء. كنا نصعد إلى نافذة حجرة نومه، بجعتنا الافتتان بالهول. وهناك نراء بتأرجع في أرجوحة النوم يهزات قوية ليخفف الحر عن نفسه. وكانت اللعبة تتمثل في النظر إليه بشبات، إلى أن ينتبه ويشتت لينظر إلينا فجأة، بعينه المتوقفتين.

لقد رأيت أول مرة، وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري، في صباح يوم تسللت فيه إلى القاء الخلفي لبيته، مع رفاق آخرين، لنسرق ثمار المالحا الضخمة من أشجاره. وفجأة انفتح باب المرحاض المشيد من ألواح خشبية في أحد أركان القاء، وخرج وهو يربط سرواته الداخلي الذي من الكنان. رأيته مثل ولدا من العالم الآخر، بقميص داخلي أبيض

(١) الحمى الأساسية: نوع نادر من الحمى لا يعرف له أصل.

بباض مستشقى، شاحباً وعظيماً، ونظرت إلى عيناه الصغراوان مثل عيني كلب من جهنم. نظرة استمرت إلى الأبد. هرب الآخرون من الفتحات الصغيرة في السياج. أما أنا فتهت متعجباً بنظرة الشبهة. صوبت بصره إلى ثمار المالحا التي كنت قد قطفتها من الأشجار، وهذا به بالمجابه.

- هانها! - قال لي أمراء، ثم أضاف وهو ينظر إلى كامل فاستنى بازديا: - لص فناء صغير.

ألقيت بالشار عند المدب، وهرت مذعوراً.

لقد كان شبحي الخاص. فإذا ما منيت وحيلاً، ألومم بالالتفاف في جوف طوية، كمالاً أمر ببيته، وإذا ما كنت أمضي مع أشخاص بالغين، فإنني أكاد لا أنجراً على أكثر من إلقاء نظرة مختلصة باتجاه الصيدلية. كنت أرى أدياننا معكومة بالمزيد إلى ماكينة الخياطة، ورا الكونشوار. وأراء هو من نافذة غرفة النوم، بتأرجح في اهتزازات كبيرة في أرجوحة النوم. وتكون تلك النظرة كافية لبعث القشعريرة في بدنى.

لقد أتى إلى القرية في أوائل القرن، بين ما لا يحصى من القنزويليين الذين تمكوا من الفرار عبر حدود إقليم غواخيريا، هرباً من استبدادية خوان فيشته غومبث الشرس، وكان الدكتور أحد أول من جرحهم قوتان متنافستان: شراسة المستبد في بلاده، وروم وخاء الموز في بلادنا. وقد اشتهر منذ مجيئه بعينه الطبية - مثلما كان يقال آنذاك - وبأساليب ووجه الطبية. كان أحد أكثر الأصدقاء المواقين في بينه جدي، حيث كانت المائدة مجهزة على الدوام دون معرفة من سيصل في القطار. لقد كانت أمي عمربة ابنة الأكبر. وجدي هو الذي علمه كيف

يُحلّق بأجنحته الأولى. وقد كثرت بين أولئك الفترويين، مثلما حصلت القمر بعد ذلك، بين متغبي الحرب الأهلية الإسبانية.

آخر آثار الحول الذي كان يسببه لي ذلك الثوب المتسي، وأنا طفل، ثلاثت فجأة، بينما كنت جالساً. مع أمي، بجوار سرير، نستمع إلى تفاصيل المأساة التي ضربت البلدة. كان يتمتع بقدوة تذكر واستحضار شديدة الزخم، يبدو معها أن كل شيء يرويه، يصبح صريحاً في الحجرة المخلفة بفعل الحر. أصل كل التكتبات، بالطبع، هي منبحة الصال على يد لري الأمن العام. ولكن الشكوك ما زالت قائمة حول الحقيقة التاريخية، ثلاثة لنلي أم ثلاثة آلاف ربما لم يكونوا بهذه الكثرة، قال هو. ولكن كل واحد يزيد الرقم وفق أله الخاص. والشركة قد رحلت الآن، وإلى الأبد، وانتهى إلى القول:

- الغريغوريون لن يرجعوا مطلقاً.

الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أخذوا كل شيء: المال، نسمات كانون الأول، سكين نفضيع الخبز، وعد الساعة الثالثة مساءً، أربع اثباتين، الحب، ولم يبق سوى أشجار الفلز المعفرة، والشوارع المتوجهة، والبيوت الخشبية ذات سفوف الثوتيا، الصدنة، بأناسها المكفهرين الذين فتكت بهم الذكريات.

المرّة الأولى التي التفت فيها الدكتور إليّ، في ذلك المساء، كانت عندما رأيته متفاجئاً بقرعة كأنها نظرات مطر متفرقة على سطح الثوتيا. فقال لي: "إنها نسر الرخمة، فهي تقضي النهار في المشي على الأسطح" ثم أشار بإصبع إبهام تهيئة، نحو الباب المغلق. وأضاف:

- في الليل تكون الحال أسوأ، لأننا نشعر بالأحوال بمضون طليقين في هذه الشوارع.

دعنا لنناول الغداء. ولم يكن هناك أي مانع، فصقفة البيت لا تحتاج إلا إلى تهيئتها رسمياً. فالمستأجرون أنفسهم هم الذي يشترونه، وقد تم الاتفاق على التفاصيل عبر الهاتف. هل سيكون لدينا متسع من الوقت؟

- بل فاقض منه - قالت أدريانا، وأضافت: - فلأن لم يعد معروفاً متى يعود القطار.

وهكذا نقاسنا معها وجهة كبروية، لا علاقة لبساطتها بالفقر، وإنما بنظام غفائي لتوح يمارسه الدكتور ويحط بمارسته، ليس على المائدة وحسب، وإنما في كل شؤون الحياة. منذ أن تذوقت الحساء واودني إحساس بأن عالمنا بكامله كان نائماً، راح يستيقظ في ذاكرتي. طعموم كانت لي في الطفولة وضاعت منذ أن غادرت القرية، عادت إليّ كاملة مع كل ملحقة، وأخذت تضغط على قلبي.

منذ بدء المحادثة، أحسست في مراجعة الدكتور بأنني في السن نفسها التي كنت عليها، وأنا أسحر منه عبر النافذة، ولهذا أحياناً عندما توجه إليّ بالهدية والقائم نفسيهما اللذين كان يتحدث بهما إلى أمي. لقد كنت في طفولتي، عندما أتعرض لمواقف صعبة، أحاول أن أخفي انتهازي برئش سريع ومتواصل من عيني. وقد عاد إليّ ذلك الفعل الانعكاسي فجأة، عندما نظر الدكتور إليّ. صار الحر لا يطلق، بقيت على هامش الحادثة لبعض الوقت، مشاكلاً كيف أمكن لذلك العجز الشوش والفاوق في الحنين، أن يكون رعب طفولتي، وغجأة، بعد توقف طويل، وباحالة تافهة لا تعني له شيئاً، نظر إليّ بابتسامة جد. وقاله.

- أنت غابيتو إذن. ماذا تدرس الآن؟

وارثاً اضطرابي ببرد غاتم لدراساتي: إنها، الثانوية بتقدير جيد في مدرسة داخلية رسمية، قضاء سنتين ومضعة شهر في دراسة الحقوق دون انتظام، صحافة مجربية، استمعتُ أمي إلى ما أقوله، وبحتت على الفور عن دعم الدكتور، قائلة:

- تصور أيها الجار، إنه يريد أن يصير كاتباً.

أشرقت عينا الدكتور في وجهه، وقال:

- يا للروعة يا جارتنا! إنها هدية من السماء - ثم التفت إلي:

شعر؟

- رواية وقصة - قلت له وروحي معلقة بطرف خيط.

فتحمس هو:

- هل قرأت 'دوتيا بارابارا'؟

- طبعاً - أجبته - ولرأت أعمال رومولو غيغوس^(١) كلها تقريباً.

وكما لو أنه يتبعث في حساسة مفاجئة، روى لنا أنه قد تعرف عليه

في محاضرة ألقاها في ماركابيو، وبدا له أنه كاتب جدير بكتبه.

والحقيقة أنني لم تلك اللحظة، وبحسب الأربعين درجة ملاحم الميسبي

الفكرانية، كنت قد بدأت ألحظ مواطن ضعف الرواية المحلية، ولكن

التواصل السهل والودود مع الرجل الذي شكّل رغب طفولتي، بدا لي

معجزة، ولغضت التوافق مع حماسه، فحدثته عن "الزرافة" - عمودي

(١) رومولو غيغوس، كاتب وسياسي فنزولي (١٨٨٦-١٩٦٩)، انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٤٧. ولكن حركة عسكرية أطاحت به في العام التالي. يعتبر أحد أبرز روائي أمريكا اللاتينية في النصف الأول من القرن العشرين. وأهم أعماله رواية "دوتيا بارابارا" التي ترجمها إلى العربية الدكتور محمود علي مكي.

اليومي في صحيفة الهيرالدو - وأطلعتني على خبر أننا نتوي، عما قريب، إصدار مجلة نثني عليها آمالاً كبيرة. وأخبرته كذلك، وقد ازدوت ثقة بنفسي، بتفاصيل المشروع، وحتى اسم المجلة: كرونیکا.

أمعن النظر إلي من أعلى إلى أسفل، وقال:

- لا أدري كيف تكتب، ولكنك تتكلم ككاتب منذ الآن.

وسارعت أمي إلى توضيح الحقيقة: فلا أحد يعارض أن أصبح

كاتباً، ولكن يجب علي أن أنهى أولاً دراسة جامعية تمنحني أرضاً صلبة

أقف عليها. قتل الدكتور من شأن كل شيء، وتكلم عن مهنة الكاتب،

فقد كان هو أيضاً راغباً في أن يصير كاتباً، ولكن أبويه، وبحسب أمي

نفسها، أجبراه على دراسة الطب عندما عجزا عن إدخاله سلك الجيش

ليكون ضابطاً. وانتهى إلى القول:

- وانظري يا جاوني، إنني طبيب، وها أنذا هنا، دون أن أدري كم

من مرضاي ماتوا بمشيئة الرب، وكم منهم ماتوا بسبب أدويتي.

أحست أمي بالضياع، وقالت:

- وأسوأ ما في الأمر هو أنه ترك دراسة الحقوق، بعد توضيحات

كثيرة قدمتها لمساعدته.

ولكن ذلك بدا للدكتور، على العكس منها، دليلاً دامغاً على ميل

جارف: القوة الوحيدة القادرة على منازعة الحب امتيازاته، وبخاصة الميل

الفني، أكثر الميل سرعة وعموضاً، لأن المرء يكرس له حياته كاملة دون

أن يأمل منه شيئاً.

- إنه شيء، يحمل في الداخل، منذ الولادة، ومعاكسته هي أسوأ

ضرر للصحة - قال ذلك، واختتم باهتمام ماسوني لا خلاص له: - إنه

مثل ميل الكاهن.

أصابني الانبهار من الطريقة التي أوضح بها ما لم أستطع توضيحه قط. ولا بد أن أمي شاركتني ذلك الانبهار لأنها تأملتني بصمت بلي. واستسلمت لقدورها.

- ما أفضل طريقة لقول كل هذا لأبيك؟ - سألتني.

فقلت لها:

- بالطريقة التي سمعنا بها لنور، بالضبط.

- لا، فهذا لن يعطي نتيجة - قالت ذلك، ثم أضالعت بعد تأمل آخر: - ولكن لا تقلق، سأجد طريقة مناسبة لأخبره.

لست أدري إذا ما أخبرته بهذه الطريقة أم بطريقة أخرى. ولكن الجنائ توقف عند ذلك الحد. أعلنت الساعة الوقت برنين كأنهما قطرتا بلور. فاستفطت أمي قائلة: "رباه. لقد نسيت سب مجيئنا". ونهضت والفة:

"يجب علينا أن نذهب.

الرؤية الأولى للبيت، على الرصيف المقابل، كانت مرتبطة إلى حد ما بذكر يائي، دون أي علاقة بحسني. فقد قُطعت، من الجذور، شجرتا اللوز الحاصبتان اللتان شكلتا طوالت سنوات، حورية مميزة، وحار البيت مكشوفاً في الصرا. ما بقي منه تحت الشمس النارية لا يزيد على ثلاثين متراً من الواجهة، نصفه من مواد بناء وسقف فرميد تدفع إلى التفكير في أنه بيت دمي. والنصف الآخر من أخشاب غير مسجوجة. طرقت أمي الباب المفلق برفق شديد، ثم بقوة أكبر، وسألت من خلال النافذة:

- ألا يوجد أحد؟

فُتح الباب مولدة ويطء شديد. وسألت امرأة من شبه الطلعة الداخلية:

- ماذا يمكنني أن أقدم لك؟

غردت أمي بسقط رجا غير واضح:

- أنا لوسا ماركيز.

كان الباب المؤدي إلى الشارع قد نُتج هندئذ قماماً، وظهرت امرأة ترتدي ملابس الحداد، معروقة وشاحية. نظرت إلينا من حياء أخرى. وفي عمق الصالة، كان هناك رجل متقدم في السن، يجلس على كرسي مُقعد. إنهما المستأجران. وقد اقترحا بعد سنوات طويلة شراء البيت، ولكن لم يكن يبدو عليهما مظهر المشين، ولم يكن البيت في حالة تثير اهتمام أحد لغيره. وفقاً للرفية التي تلقنتها أمي، فإن المستأجرين يوافقان على أن يدفعوا نقداً نصف الثمن مقابل إيجال مرقع منها، ثم يدفعان الباقي عندما تُهرم عقود البيع خلال السنة. ولكن أحداً لم يكن يذكر أن هناك زيارة منتظرة. وبعد محادثة طريشان طويلة، كان الشيء الوحيد الذي ظهر بوضوح، هو أنه لا وجود لأي اتفاق. وعندئذ التفتت أمي المتضايقة من تلك البلاهة، وحس الحر الملل، وأثقت نظرة على ما حولها. وأفلت منها مع الزفرة:

- هذا البيت البائس، في آخر نفس.

فقال الرجل:

- بل هو أسوأ. وإذا كان لم يسقط على رؤوسنا، لمفضل ما

أنفقناه، للحفاظ عليه.

كانت لديهم قائمة بالإصلاحات التي يجب النظر فيها، إضافة إلى

أخرى اختطعوها من الإيجار، إلى حد أننا كنا نحن الاثنين لهم بالمال. ولكن أمي المعروفة بدمعتها السهلة، كانت قادرة كذلك على إظهار حزم متخفية لمواجهة مكاييد الحياة. نالشت الأثر بصورة جبهة. أما أنا فلم أدخل لأني أدركت، منذ العقبة الأولى، أن المشتريين على حق. فليس هناك شيء واضح في البرقية حول تاريخ وطريقة البيع. ويغهم منها بالمقابل أنه لا بد من أن يجري الاتفاق على ذلك. لقد كان موقفاً تقليدياً من ميول الأسرة المدسية. ويمكن لي أن أتصور كيف جرى انخافذ الفرار. حول مائدة الفداء، في اللحظة نفسها التي وصلت بها البرقية. فقد كانوا عشرة أخوة، دون أن أحسب نفسي، لهم الملقوق نفسها. وأخيراً جمعت أمي بعض البهزوات من هنا، وبهزوات أخرى من هناك، وأعدت حقيبتها التي كحقاتب التلاميذ، وسافرت دون أي موارد أخرى سوى تذكرة العودة.

راجعت أمي مع المستأجرة، مرة أخرى، كل شيء، من البداية، وخلال أقل من نصف ساعة توصلنا إلى أنه ليست هناك أي صفقة. فحينئذ ثم نتذكر. إضافة إلى أسباب أخرى لا يمكن تجاهزها، رهنأ عقارنا يُنقل على البيت، ولم يجر حكمه إلا بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما تم بيع البيت قطعياً. ولهذا، حين حاولت المستأجرة أن تكرر مرة أخرى حجج الحلقة المفرغة نفسها، أوقفنها أمي بالحسنى، وحزم لا يقبل الاستئثار:-
- البيت لن يباع. ولنضع في حسابنا أننا جميعهنا ولدنا هنا، ومنهوت هنا.

أضينا بقية فترة المساء، ونحن ننظر صبي. قطار العودة، في جمع فئات الحنين، في البيت الشبهي. لقد كان البيت بكامله لنا، ولكن

لم يكن صالحاً منه سوى القسم المزجر الذي يطل على الشارع، حيث كانت مكاتب الجد. وما تبقى. مجرد هيكل من الجدران الخشبية المنخورة، وسقوف الشربتها، الصندنة تحت رحمة الحرافين. أطلقت أمي الراققة عند العتبة، صرخة قاطعة:

- ليس هذا هو البيت!

ولكنها لم تقل أي بيت تعني. فخلال طفولتها كلها، كانوا يصفونه بطرق متعددة، بحيث كان ثلاثة بيوت على الأقل، تشيل شكلاً ومعنى. حسب من يروي. البيت الأصلي، مثلما سمعت من حدي بطريقته المؤدية، كان كوخ هند. وأما الثاني الذي بناه الجدان، فكان جدراناً من القصب والطين وسقوفاً من جريد النخيل، مؤلفاً من صالة فسحة وجبهة الإنارة، وغرفة طعام على شكل شرفة مع أزهار ذات ألوان بهيجية، وحجرتي نوم، وفناء فيه شجرة كستناء عملاقة، وستان مزروع جيداً ووربية يعيش فيها الماعز، في مجتمع سلسي، مع الخنازير والندجاج. وحسب الرواية الأكثر ثباتاً، فإن هذا البيت قد تحول إلى رماذ. بفعل صفرقة أنهاب نارية سقطت على السقف الذي من سحف النخيل، خلال الاحتفالات بيوم ٢٠ قوز، عيد الاستقلال، في سنة لا يذكرها أحد من سنوات حرونا الكثيرة، الشيء الوحيد الذي يبقى منه هو الأرضيات الإسمنتية وكثمة غرفتين مع باب يطل على الشارع، حيث كانت المكاتب التي عمل فيها بابايلير، عدة مرات، موظفاً عمومياً.

وفوق الاتفاق التي كانت لا تزال ساخنة، شيدت الأسرة ملجأها النهائي. بيتاً من ثماني حجرات متتالية في صف واحد، على امتداد يمر له حاجز من أزهار اليبجونييا، حيث تجلس نساء الأسرة، للتطريز على

الطارة، وتبادل الحديث في برودة المساء. الغرف بسيطة ولا يمكن التمييز بينها. غير أن نظرة واحدة كانت كافية لأن أنتبه إلى أنه في كل تفصيل من تفاصيلها الكثيرة، هناك لحظة حاسمة من حياتي.

الحجرة الأولى كانت تستخدم كقاعة لاستقبال الزيارات، ومكتب رسمي للمجد. وكانت فيها منضدة مكتب مستديرة، ومقعد كبير دوار يترايض، ومروحة كهربائية، وغزاة كتب فارغة ليس فيها سوى كتب واحد ضخم ومفكك: معجم اللغة، ويلها مباشرة مشغل الصباغة. حيث كان المجد يمضي أفضل ساعات وقته في صنع أسلاك ذهبية صغيرة ذات أجساد متفصلة، وعيون دقيقة من الزمرد. كانت توفر له المتعة أكثر مما تؤمن من الطعام. وهناك جرى استقبال بعض الشخصيات البارزة، ولا سيما السياسيين، وكبار الموظفين المتقاعدين. ومشاركين قدامى في الحروب. وكان بين تلك الزيارات، لي مناسبتين مختلفتين. زيارتان تاريخيتان: الجنرال أوربي أوربي، والجنرال بينغامين هيريرا، اللذان تناولا الغداء مع الأسرة. ومع ذلك، فإن ما سيذكره جدي طوال حياته، من أوربي أوربي، هو قناعته على المائدة: "إنه يأكل مثل عصفور".

حيز المكتب ومشغل الصباغة المشترك كان محظوظاً على النساء. بتأثير ثقافتنا الكاريبية، مثلما كانت عادات القرية محظورة عليهن بأمر القساوسة. ومع ذلك، فقد نحصل المكان مع مرور الزمن إلى حجرة مستشفى، توفيت فيها العمة بيترا. وتعلمت فيها ريتريدا ماركيز، شقيقة باباليلو. آخر شهور مرضها الطويل، وبدأ من هناك، يبدأ الفردهوس المنزول للنساء، الكثيرات، القححات والعميرات، اللواتي مريون بالبيت خلال طفولتي. وقد كنت أنا الذكر الوحيد الذي تمتع بامتيازات العالمين كليهما.

غرفة الطعام لم تكن أكثر من توسع في الممر مع الشرفة التي تجلس عليها نساء البيت للخياطة. وكانت فيها مائدة تتسع لستة عشر مدعواً طارناً أو غير متوقع من يأتون يومياً في قطار الظهيرة. تأملت أسي من هناك أخصى المهاجرتين، وأصول النباتات المتعفنة، وطلع الياسمين التي نخرها النمل، واستعادت أنفاسها:

- لم تكن نستطيع التنفس أحياناً من هيق الياسمين الحار - قالت وهي تنظر إلى السماء المبهمة. وتنهت من أعصاب روحها وهي تضيف:- لكن ما أفقده، منذ ذلك الحين، هو بعد الساعة الثالثة مساءً.

لقد أذهنتني، لأنني كنت أتذكر كذلك الدوي الوحيد الذي كان يوقظنا من القيلولة، وكأنه تدرج أحجار. ولكنني لم أنتبه قط إلى أنه لا يحدث إلا في الساعة الثالثة.

بعد الممر. هناك قاعة استقبال محجوزة للمناسبات الخاصة. ذلك أنه كان يُقدّم للزيارات اليومية العادية، بهرة مثلجة في حجرة المكتب. إذا كان الزائر رجلاً. وفي بحر البهجونيا، إذا كان الزائر امرأة. وهناك يبدأ عالم حجرات النوم الأسطوري. أولاً صندع المجددين، مع بوابة كبيرة تؤدي إلى المهدفة، ولوحة صفر أزهار خشبية تحمل تاريخ البناء: ١٩٢٥. وهناك، دون أي إسماع مسبق، قدمت لي أسي، بتخيم انتصاري، مفاجأة لم تخطر لي على بال:

- وهنا وكنت أنت!

لم أكن أعرف ذلك من قبل، أو أنني نسيت. ولكننا وجدنا، في الغرفة التالية، المهد الذي كنت أنام فيه حتى الرابعة من عصري. وقد احتفظت به جدتي إلى الأبد. كنت قد نسيت. ولكنني ما إن رأيته حتى

تذكرت نفسي، بأفروهل نرم مزين بأزهار زرقاء. كنت قد دشنته للشو. وأنا أبكي صارخاً لكي يأتي إلي أحدهم ويتزع عني الأقسطة الملوثة بالبراز. كنت ألق على قدمي بصعوبة، وأنا أتشبث بقضبان المهد الصغير والهش، كأني سلة مرسى. وكانت تلك الحادثة سبب مجادلات وسخرات بين الأقارب والأصدقاء. من هذا لهم غي في ذلك اليوم، عقلياً جداً بالمقارنة مع سني المبكرة، وخاصة عندما أسردت على أن سبب جزعي لم يكن القرف من بؤس نفسه، وإنما خوفاً من تلويث الأفرهول الجديد. هذا يعني أنه لم تكن للأمر علاقة بأحكام النظافة، وإنما هي مشكلة جمالية. وأهن، من الطريقة التي حفظت بها الحادثة في ذاكرتي، أنها كانت معيشي الأولى ككتاب.

كان هناك في تلك الغرفة كذلك، مذبح عليه قنابل قديمة بالحجم البشري، وهم أكثر واقعية ونحوضاً من قديمي الكنيسة. وهناك كانت تنام على الدوام، العمة فرانيسكا سيمودوسيا ميخيا، وهي ابنة عمه لجلي، كنا ندعوها العمة عاما، وكانت تعيش في البيت كمالكّة وسيدة، منذ وفاة أبويها. أما أنا فكنيت أنا في أوجرة النوم المجاورة، مرعوباً من ارتعاش القديسين الذي يسببه المصباح القديس الذي لم يظنن إلا بعد موت المسيح. وهناك أيضاً كانت تنام أمي وهي غائبة، مفضية من رهبة القديسين.

وكانت في أقصى الممر، غرفتان معمرتان علي، في الأولى تعيش ابنة خالي سارا إميليو ماركيز، وهي ابنة الخال خوان دي دهرس قبل زواجه، وقد تولي الجنان تربيتها، وكانت، فضلاً عن مهاتها الطبيعية منذ طفولتها، تتمتع بشخصية قوية فتحت شهجتي الأدبية الأولى،

بمجموعتها البديعة من حكايات كايخا، المزيّنة برسوم ملونة، ولم تكن تسمح لي بالاقتراب منها، مخافة أن أقصد ترتيبها. وقد كان ذلك هو إحباطي الأول والمرير ككتاب.

الحجرة الأخيرة هي مشروع أمتعة لطيفة وصناديق متفاعدة، أهدت فضولي متبطلاً طوال سنوات، ولكنهم لم يسمحوا لي باستكشافها قط. وقد علمت فيما بعد، أنه كانت هناك أيضاً السحرة مبرلة التي اشتراها جدي، عندما دعت أمي زميلاتها في صليتها في صليها المدرسي، لقضاء إجازة في البيت.

بجالة هاتين الحجرتين، وفي الممر نفسه، كان المطبخ الكبير، بمواقدها البغائية التي من أحجار كتسية، والفرد الكبير الذي بنته الجدة، وهي صانعة خبز وحلوى محترفة. كانت حيوانات السكاكر الصغيرة التي تصنعها، تقعم الفجر برانحتها الشذية، وقد كان المطبخ مملكة النساء اللواتي يعشن أو يتخمن في البيت، وكن يفتن في كورال مع الجدة، وهن بمساعدتها في أعمالها المتنوعة. وكان الصوت المختلف هناك هو صوت ثورينشو العظيم، البهجة ذي المئة سنة الموروث عن جدي أمي، الذي يصرخ بشعارات مناهضة لإسيانها وبغنى أغنيات حرب الاستقلال. وكان ضحيف البصر إلى حد أنه سقط يوماً في قدر السانكوتشو^(١) ونجا بأعجوبة، لأن الماء في القدر لم يكن قد سخن كثيراً بعد. وفي العشرين من تموز من إحدى السنوات، في الساعة الثالثة بعد الظهر، صلا البيت صخباً بصرخات وعجب.

(١) سانكوتشو sancocho: صنف طعام شائع في معظم بلدان أميركا الجنوبية، يتألف من جذور اليكة والقمح والبروز الأخضر وحضار متنوعة أخرى. تطلق معه على نار هادئة لوقت طويل.

- الثور، الثور، لقد جاء الثور!

لم يكن في البيت سوى النساء، إذ كان الرجال قد ذهبوا إلى موقع الاحتفال بالعيد الوطني. فظن أن صرخات البهاة ليست سوى هذبات حريف شيفوخته. ولكن نساء البيت، اللواتي يعرفن التكلم معه، لم يفهمن صرخاته إلا عندما انطلق ثور هاتج، هارب من زرائب الساحة، إلى المطبخ بجوار سفينة، وراح ينطح عشوائياً أثاث المخبز، والقدر على الموائد. كنت أمضي بالانجاء المعاكس لزوجة النساء المذعورات اللواتي حملنني في طريقهن وحسبني معهن في حجرة المؤونة. كان حوار الثور قائماً في المطبخ، ووقع حرافقه على إسنت المر، بهزان البيت هراً. وفجأة أطل من كوة تهوية، فجئت نخير أنفاسه الناري واحتقان هنيه الكهبريت، النسم في عروفي، وعندما تمكن الرماحون من القناده إلى الزريبة. كانت قد بدأت في البيت جوقة رواية الدواها التي استعدت أكثر من أسبوع، تتخلله قذور لا نهائية من القهورة وحلوى الزفاف. لمراقبة قصة التاجيات الصاخبات المادة ألف مرّة، وفي كل مرة، ببطولية أكثر.

لم يكن الفناء كسبواً جداً، ولكنه يضم تشكيلة متنوعة من الأشجار، وجماعاً مشتركاً دين سقب، وبركة من الإسمنت لتجميع ماء المطر، ومصطبة مرتفعة تصعد إليها بسلم خش، ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار. وهناك كان البرميلان الكبيران اللذان يملؤهما المجد عند الفجر، مضخة يدوية. وإلى الورا، إسطل الحبول المشيد من أخشاب دون صحج، وغرف الخدم. وأخيراً الفناء الخلفي الفسيح المزروع بأشجار مشرة، وفيه المرحاض الوحيد الذي تُفرغ فيه المخالسات الهنديات، طوال النهار

والليل. صبولات البيت. وكانت أشخم الأشجار وأكثرها كثافة، هي شجرة كستناء على هامش العالم والزمن. ولا بد أنه مات متبولاً على نفسه، تحت أغصانها المتشابكة، أكثر من كولونيلين اثنين من كولونيالات الحروب الأهلية الكثيرة، في القرن السابق.

كانت الأسرة قد جاءت إلى أراكاتاكّا، قبل سبع عشرة سنة من مولدي، عندما بدأت جلبة احتكار المونابند لثروت كومباني للسوز. وأحضرت الأسرة معها ابنها خوان دي ديموس، وهو في الحادية والعشرين، وابنتها، مارغريتا ماريّا مينيّاتا دي الأكوكي، في التاسعة عشرة، ولويسا سانتياغا، أمي، في الخامسة. وكانت الأسرة قد فقدت قبلها توحي إناث في حادث إجهاض، بعد أربعة شهور من الحمل. وعندما ولدت أمي، أعلنت المجدة أنه سيكون حملها الأخير. وكانت قد أكملت الثانية والأربعين من عمرها، وبعد نصف قرن تقريباً. ولي السن نفسها، وفي ظروف مطابقة، مات أمي الشيء نفسه، عندما ولد إليخيزر غابرييل، ابنها رقم أحد عشر.

الانتقال إلى أراكاتاكّا كان مقرراً من قبل الجددين، على أنه رحلة نسبان. وقد أخذنا خدمتهما، هديين غواخيريين - أليرو وأبولينار - وهندية - ميمي - اشتروهم في موطنهم، بمئة بيزو لكل واحد، بعد إلغاء الرق. وكان الكولونيل يحمل معه كل ما هو ضروري ليخلف الماضي، أبعد ما يمكن عن ذكرياته السبعة، بلائقه عناب الضمير المشؤوم، لقلته وجلاً في حيازة شرف. كان يعرف المنطقة سابقاً منذ وقت طويل، عندما كان يحضي بالإنهاء تيغانا في حملة حربية، وحضر بوصفه رئيس إدارة التحوين العام، توقيع معاهدة نيرلاتنديا.

ثم مُهد البيت الجديد الطمأنينة وراحة البال إلى الأسرة، لأن تأنيب الضمير كان ويلاتاً، حتى إن آثاره يستصل إلى حفيد ضال من الجيل الثالث. كانت أكثر الذكريات تواتراً وزخماً، والتي شكلت منها رواية مرتبة لما حدث، هي تلك التي قدمتها الجدة ميثا، وكانت قد صارت عمياً، ونصف مخبولة، على الرغم من أنها، وسط الشائعات المتواصلة من المساة الوثيكة، كانت هي الوحيدة التي لم تعلم بخبر الميازة، إلا بعد وقوعها.

حدثت المساة في بارانكيبا، وهي قرية مسالمة ومزدهرة بمحاذاة جبال سييرا نيغادا، حيث تعلم الكولونيل من أبيه وجده، مهنة صباغة الذهب. وحيث رجع ليستقر، بعد توقيع اتفاقيات السلام، أما الخصم فكان ماردو بصغره بسنة عشرة سنة، إسرائيلياً ذا عظم أحمر، مثله، وكاثوليكياً محارماً، ومزارعاً لقسراً، تزوج حديثاً وله ابنان، ويحمل اسم رجل عليه: ميداردو باتشيكو. ولا بد أن أكثر ما أزعج الكولونيل هو أن خصمه لم يكن أي واحد من الأعداء الذين لا يصرف وجوههم من واجهوه في ميادين المصارلة. ولما هو صديق قديم، ومحارب له، وجندي عنقه في حرب الألف يوم. وعليه أن يواجهه حتى الموت، في الوقت الذي كان الاثنان يظنان أنهما قد كسبا السلام.

كانت تلك هي الحالة الأولى من الحياة المظلمة التي استشارت غمرتز الكاتب لذي. ولم أستطع أن أنظر منها حتى الآن، لقد أدركت، منذ أن بدأت الوعي، ضخامة حجم ونقل تلك المساة في بيتنا، ولكن تفاصيلها بقيت غائصة. فأما التي لم تكن قد بلغت الثالثة من عمرها، تذكرتها على الدوام، كحلم غير محتمل. وكان الكبار يشوونها أصابعي،

لتختلط الأمور عليّ، ولم أستطع قط، أن أعيد تركيب اللفظ كاملاً، لأن كل واحد من كلا الفريقين، يركب كل قطعة على طريقته. والرواية الأكثر ثقة هي أن أم ميداردو باتشيكو حشته على النار لشرها، لأنها أهنت بتعليق شائن نسبته إلى جدي. فند هذا الأخير الأمر باعتباره إشاعة كاذبة، واعتذر علناً عن لحقت بهم الإهانة، ولكن ميداردو باتشيكو أصر على العناء، وانتهى به المطاف إلى التحول من مُسَا إلى مُسِي، بتوجيه شتائم خطيرة إلى الجد حول سلوكه كليليرالي. ولم أعرف بصورته مزككة قط، فحوى تلك الشائم، فتجداه الجد الذي جُرحت كبريائه بدعونه إلى مبارزة حتى الموت ودون تحديد موعد ثابت.

الثال السودوي لطبيعة الكولونيل، هو الوقت الذي تركه يرم، منذ التحدي، حتى الميازة، رتب أموره بتحكم مطلق، ليعرض أمان أسرته في الحبار الوحيد الذي يوفره له القدر: الموت أو السجن. بدأ دون أدنى تسرع، يبيع القليل المتبقى له للمصيشة بعد الحرب الأخيرة، ورشة الصباغة ومزرعة صغيرة ورثها عن أبيه، كان يربي فيها نوس أطاح، ويوزع قطعة من أرضها بلمص السكر. وبعد ستة شهور من ذلك، خبا في قاع إحدى العزائن، ما يجمع لديه من المال، وانتظر بصمت، اليوم الذي حده هو نفسه: الثاني عشر من تشرين الأول ١٩٠٨، ذكرى اكتشاف أميركا.

كان ميداردو باتشيكو يعيش خارج القرية، ولكن الجد كان يعرف أنه لا يمكن له أن يتخلف في ذلك المساء، عن مركب غنوا البيلاز. وقيل أن يخرج يبعثاً عنه، كمن رسالة مزجزة ورقية إلى امرأته، يقول لها فيها أين خبا نفوره، وقدم لها بعض التعليمات الأخيرة حول مستقبل الأبناء. تركها

تحت الوصاية المشتركة، حيث مستجدها امرأته دون شك، عندما تستلقي
لنظام، وخرج دون أي نوع من الوداع، لمواجهة ساعة نصبه.

وتسلف حتى أقل الروايات صلاحية، على أنه كان يوم اثنين،
تقليدياً، من تشرين غريبي، بظهر كتيب من غيوم منخفضة وريح مائتية.
وكان مبادرو باتشيكو يرتدي بطة يوم الأحد، وقد انتهى لشوه من
دخول زقاق مسدود، عندما اعترض الكولونيل ماركيز طريقه. كلاهما
كان مسلحاً. بعد سنوات من ذلك، وفي هذيانات جنونها، كان من عادة
جدتي القول: "لقد منح الرب نيكولاسيو فرصة الصفر عن حبة ذلك
الرجل البائس، ولكنه لم يعرف كيف يستغلها"، ربما كانت تفكر في
ذلك لأن الكولونيل لال لها إنه رأى وميض أسف في عيني؟ هضم الذي
أخذ على حين غرة، وقال لها كذلك إنه عندما حوى الجسد الضخم كجذع
شجرة سببا، على النباتات القصيرة، أصدر أنة دون كلمات، "مثل أنة
هر" ميلل". ونسبت التقاليد الشعبية إلى باباليلو، عبارة بليغة في
اللحظة التي سلم فيها نفسه إلى العمدة: "طفلة الشرف سبقت طفلة
السلطة". وهي عبارة ودية للأسلوب الليبرالي في ذلك العهد، ولكنني
لم أستطع مراحتها مع أسلوب الجدة، الخفية أنه لم يكن هناك شهود.
وكان يمكن للرواية القضائية التي قدمها الجدة ومعاشره، من كلا
الجانبيين، أن تكون الرواية المرجعية. ولكن لم يبق من ملف القضية، إذا
كان قد وجد أصلاً، أي ملصق نور، ومن الروايات العديدة التي سمعتها
حتى اليوم، لم أجد اثنتين متطابقتين.

شئت الواقعة أسر القرية، من في ذلك أسرة الميت. فقد دعا قسم
منها إلى النار للميت، بينما أوى آخرون في بيوتهم الجدة ترانكيلينا

إغوارلين وأبنائها، إلى أن هدأت مخاطر الضار. لقد أثرت في هذه
التفاصيل في طفولتي، إلى حد لم أحمّل وزر خطيئة سلفي كما لو أنها
خطيئتي وحسب، وإنما شعرت، مثلما أشعر الآن، وأنا أكتب عن ذلك،
بالتماطف مع أسرة الميت، أكثر من تعاطفي مع أسرتي.

نقلوا باباليلو إلى ريوهاشا من أجل مزيد من الأمن، ثم إلى سانتا
مارتا بعد ذلك، حيث حكموا عليه سنة، يقضي نصفها في السجن
ونصفها الآخر في نظام مفتوح، ولزور إطلاق سراحه، سافر مع الأسرة
لبعض الوقت، إلى بلدة تيناغا، ثم إلى بنما، حيث ألحقت أبنائاً آخر من
علاقة غرامية سابقة. ثم انصلل أخيراً إلى بلدة أراكاتانكا الوبيلة
والمتجهمة، بوظيفة محصل مالية في الإقليم. ولم بعد بطرح منذ ذلك
الحين مسلحاً إلى الشارع، حتى في أسوأ أزمات العنف التي رافقت ثورة
الموز، بل كان يهني المسمس تحت وسادته، من أجل الدفاع عن الميت
فقط.

كانت أراكاتانكا آنذاك أبعد ما تكون عن الملاة الهادئة والراكد الذي
حلم به، بعد كايوس مبادرو باتشيكو، فبعد ولدت كدسكرة لهتود
تشيبيلا، ودخلت التاريخ بدمعها البصري، كبلدية ثانية، دون وب ودون
قاتون، في ناحية تيناغا، أذلثها حتى الموز أكثر مما أثرتتها، واسمها
ثيس اسم قرية، وإغا اسم نهر، إذ يقال للنهر "أوا" في لغة هنود
نشيبيلا. أما كاتانكا فهي الكلمة التي تطلقها القبيلة الهندية على من
يأمر. ولهذا لم تكن نسي القرية أراكاتانكا، عند التحدث مع السكان
الأصليين، وإنما يجب أن يكون الاسم: كاتانكا.

وعندما حاول الجدة تشجيع الأسرة، بأوهام أن النقود تتدفق هناك

في الشوارع، قالت له مبتاة: "لئلا هو روت الشيطان". أما بالنسبة إلى أمي، فكانت تلك هي ملكة كل الأراضي. وأقدم ما تذكره فيها هي جائحة الجراد التي عاثت خراباً في الزرع، عندما كانت لا تزال صغيرة جداً. "لقد كان يسمع مرور أسراب الجراد، وكأنه ربح أحجار"، هكذا قالت لي عندما ذهبت لبيع البت، وكان على السكان المرعوبين، أن يتحصنوا في غزلهم، ولم يتم إلحاق الهزيمة بتلك الآفة إلا بقتل الشحرة.

في كل وقت، كانت نباحنا أعاصير جافة تقتلع سقوف الأكواخ، وتنفذ على الحوز الجديد، وتخلق القرية مغطاة بخبار كوكبي. وفي الصيف، تنكّل بالواشي قنارات جفاف رهيب، أو تهطل في الشتاء أمطار موسمية غاتية تمحو الشوارع إلى أنهار مائجة. فكان المهندسون الفرنسيون يبحرون في قوارب من المطاط، بين حزم قراش غارقة وتبقار ميتة. واليونانيون لفروث كومباني، التي كانت أنظمة رها الاصطناعية مسزولة من فرضي المياه، حوكت مسار النهر، عندما نبش أخطر تلك الفيضانات جثامين الموتى في القرية.

ولكن أسوأ المجنحات وأشدها شؤماً، مع ذلك، هي المجنحة البشرية. فقد قذف قطار، يبدو مثل دمية، على رمال القرية المتوقدة، حفالة مضامين من كل أنحاء العالم، استولوا بقوة السلاح على السلطة في الشارع. فزدهار القرية الطائش حمل معه نوا سكانياً، وفوضى اجتماعية، تجاوزت كل الحدود. كانت أراكاتاكا تبعد مئة فرسخ فقط، عن مستوطنة-سجن يونيس أيرس، على نهر فونداثيون، التي اعتاد سجنائها على الهرب في نهاية الأسبوع، ليلعبوا لعبة الرعب في

القرية. لم تكن تشبه شيئاً إلى حد كبير مثلما تشبه القرى الناشئة في أفلام الغرب، منذ أن بدأت تحلّ، في أراكاتاكا، محل أكواخ هنود التشميلا التي من السقف والقصب، بيوت اليونانيون فروت كومباني الخشبية، ذات السقوف الصنعية المروجة، والنوافذ البارزة والشرفات المسرفة المزينة بتنانيت معرشة ذات أزهار مسفرة. وسط تلك العاصفة الهوجاء من الوجوه غير المعروفة، ومن الخيام المثلجة على قارعة الطريق العام، ومن رجال يبدلون ملابسهم في الشارع، ونساء جالسات على صناديق الأمتعة، ومطلاتهن مفسوحة، رجال وبنات ويقال محمدن من الجوع، في زرائب الفئق، كان من وصلوا أولاً هم الآخرون، لقد حرنا الغريباء الفائقين، الدخلاء.

لم تكن المفاهيم تقتصر على متاجرات أيام السبت وحسب، ففي مساء أحد الأيام، سمعنا صراخاً في الشارع، ورائنا مرور رجل دون رأس، منطياً حماراً. لقد جرى قطع رأسه بضربة منضبة في نصفية حبات، في مزارع الحوز. وقد جرف تيار الساقية المنجمد الرأس، وفي تلك الليلة سمعت من جدي التفسير الدائم: "أمر يمثل هذه الفطاعة، لا يمكن أن يقدم عليه سوى كاتشاكو".

والكاتشاكو هم أهالي الهضبة، الذين لم تكن نهمهم عن بقية البشرية، بأسيابهم القاترة الواحية، ونطقهم القاسد وحسب، وإنما كذلك يفرضهم بأنهم مبعوثو العناية الإلهية. وقد كانت تلك الصورة مكروهة إلى حد أنه على إثر أعمال الفصح المرسمة لإضرابات عمال الحوز، على يد عسكريين الداخل، لم تكن تسمى رجال القوة العسكرية جنوداً. وإنما كاتشاكو. كنا ننظر إليهم باعتبارهم المتفعين الوحيدين من السلطة

السياسية، وكثيرون منهم كانوا يتصرفون على أنهم كذلك. يمكننا فقط، يمكن تفسير "ليلة أراكاتاكا السوداء"، وهي حذبة أسطورية لها أثر هام في الذاكرة الشعبية، ولا وجود لدليل واضح على أنها قد حدثت فعلاً.

بدأ ذلك في يوم السبت أسراً من سواد، عندما دخل شخص محترم من أينا - المنطقة، لم يحفظ التاريخ هويته، إلى حانة ليطلب كأس ماء لطفل يسك بيده، فأراه غريب كان يشرب وحيداً، على الكونتوار، أن يجبر الطفل على شرب خمرة "الرؤم" بدلاً من الماء. حاول الأب منعه، ولكن الغريب أصر على طلبه، إلى أن هرب الطفل المقهور، دون أن يري ذلك، كأس الشراب، بحركة من يده. عندئذ أقدم الغريب، دون مزيد من الجدل، على قتل الصغير، بطلق ناري.

لقد كان شعباً آخر من أشباح طفولتي. وكان ياباليلر يذكرني به، كلما دخلنا معاً لتناول مرطب في إحدى الحانات، ولكن بطريقة خيالية يدور معها هو نفسه، غير مصدق لما يروي. لا بد أن ذلك حدث بعد وقت قصير من وصوله إلى أراكاتاكا. لأن أمي تذكره، من خلال الرعب الذي كانت تعبّر الواقعة في كبار أسرتها. لم أعرف عن المعتدي إلا أنه يتكلم بلهجة أهل مرتفعات الأنديز المتكلمة، ولهمنا لم ينفذ انتقام القرية ضده وحسب، وإنما ضد أي واحد من الغريباء - الكثيرين والمكروهين الذين يتكلمون لهجته. اندفعت، في الليل إلى الشوارع، زمر من الأهالي المسلمين يتناجل مشبني قطع لصب، وكانوا يسكنون الكتلة غير واضحة المعالم التي يفاجئونها في الظلام، وبأسرتها:

- تكلم!

وسبب الملهجة وحدها، كانوا يمزقونه بضربات المنيستي، دون أن تهتمهم عبالة تصرفهم، وسط أساليب التكلم المختلفة. وقد قدّر لدون رافائيل كينتيرو أورتيجا، زوج خالتي ونيلدا ماركيز، الكاشاكو القح والمحبوب، أن يمشي ويوشك أن يحتفل بعيد ميلاده المشوي في الحياة، لأن جدي حسبه يومذاك في حجرة مؤونة، إلى أن هدأت المخاطر.

بلغ شقا، الأسرة ذروته، بعد سنتين من العيش في أراكاتاكا، جوت مرغريتا ماريا مينيانا التي كانت نور البيت. وقد بقيت صورتها الملقطة بألفه دخرنيش، معروضة في الصالة لسنوات طويلة. وبقي اسمها يتردد من جيل إلى آخر، كعلامة أخرى من العلامات المميزة للهجرة الأسرية. الأجيال الحديثة لا تبدي تأثراً بتلك الفتاة ذات التنورة المجدبة، والجزمة البيضاء، والهديلة الطويلة حتى الخصر، والتي لا يستطيعون مطابقتها أبداً مع الصورة البلاهة لجدة جدتهم. ولكن لدى انطباعها بأنه تمت وطأة تأنيب الضمير، والأحلام المحيطة بحالم أفضل، كانت حالة الاستنطار الدائمة تلك، في نظر جدي، هي أقرب ما تكون إلى السلام، لحسن موتها، بقية بشران بأنهما غريبان في أي مكان يحلان فيه.

لقد كانا كذلك، في الواقع. ولكن التمييز الفوري كان صعباً، وسط حشود القطار التي جاءتنا من العالم أجمع. وبالاندفاع الذي جاء به جدي وذريته، وصل كذلك آل غبرغوسا، وآل دوران، وآل بيراكاتا، ودانوتي، وكوريا، بحثاً عن حياة أفضل. ومع اضطرابات الشعب، جاء الإيطاليون، والكتاريون، والسوريون - وكنا نسبهم توركو - متسللين من حدود برونشيا، بحثاً عن الحرية، وطرق أخرى في العيش افتقدوها في بلادهم. كان هنالك أناس من كل الاقوام والمستويات. بعضهم من

الهارين من جزيرة الشيطان - مستوطنة السجن الفرنسية في غوايانا - وكانت أفكارهم، أكثر من جرائمهم المادية، هي السبب في ملاحقتهم. أحدهم هو ريتيه بلقونو، وكان صغيباً فرنسياً محكوماً لأسباب سياسية، انتقل عازياً إلى منطقة الموز، وكشف في كتاب يارح الأحوال التي عرقها في سجنه. ويفضلهم جميعاً - الطبيب منهم والسين - كانت أراكانا منذ نشوئها، بلاؤاً بلا حدود.

ولكن الجالية التي لا تُسمى بائية إلينا هي الفنزويلية، وفي أحد بيوتها كان يستحم بدلاء ماء من البركة المتجمدة، عند الفجر، طالبان صراخاً في إجازة: رومولو بيتانكور، وراؤول ليموني، اللذان سبهران بعد نصف قرن من ذلك وتسمين لبلادها على التوالي. أما أقرب الفنزويليين إلينا فكانت السيدة خوانا دي فرينسي، وهي امرأة مهيبه وباهرة، تمتلك مزرعة تروانية في قصر الحكايات، فأول قصة رسمية عرقها هي جينوفينا دي بربانتي، وقد سمعتها منها، مع قصص أخرى من أبرز أعمال الأدب العالمي التي كانت توجزها إلى حكايات أطفال: الأديسة، أرواند الغاضب، دون كيشوته، الكونت دي مونتكريستو، وقصص كثيرة من الكتاب المقدس.

لقد كانت ذمة الجند إحدى أكثر الأسر احتراماً، ولكن أقلها نفوذاً في الوقت نفسه. وتميزت مع ذلك بجدارتها بالاحترام المتترف به حتى من المسؤولين المحليين في شركة الموز، فهي من أسر المعارين الليبراليين السابقين في الحروب الأهلية، ممن استقروا هناك، بعد الاتفاقيتين الأخيرتين، وقوادجهم الجيد هو الجنرال بهخامين هيريرا، الذي كانت تُسمع في الأسبقيات، من مزرعته في نيرلانديا، موسيقى فالسات كتيبة، من بوقه السلمي.

صارَت أمي امرأة في ذلك المكان البائس، واحتلت حيز كل القراميات، منذ أن قضى التيفوس على مرغريتا ماريا مينيانا، وكانت هي نفسها أيضاً عيلة كثيرة المرض. فقد عاشت طفولة قلقة عانت فيها من ترويات أخى الثلاثية، ولكنها عندما شقيت من آخرها، كان الشفاء نهائياً، وإلى الأبد، ونجست بصحة أبات لها الاحتفال بعيد ميلادها السابع والتسمين، مع أبنائها الأحد عشر، وأبناء زوجها الأربعة، وخسة وستين حفيداً، وثمانية وثلاثين ابن حفيد، وأربعة عشر من أحفاد أحفادها. دون عذ من لم يعرفوا قط، وقد ماتت ميتة طبيعية، يوم التاسع من حزيران ٢٠٠٢ في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، عندما كنا نعدُّ العدة للاحتفال بمرورها الأول في الحياة، وكانت وفاتها في اليوم نفسه، وفي الساعة نفسها تقريباً التي وصحتُ فيها نقطة النهاية لهذه المذكرات.

كانت قد ولدت في بارانكاس، في الخامس والعشرين من نوز ١٩٠٥، حين بدأت الأسرة تستعيد عالميتها من كارثة الحروب الأهلية. أطلقوا عليها اسمها الأول، تكريماً لذكرى لوبسا ميخينا بهنال، أم الكولونيل، التي انتفضت في ذلك اليوم، شهر على وفاتها. أما الاسم الثاني، فوقع عليها مصالحة، لتوافق يوم ميلادها مع عيد الرسول سانتياغو الأكبر^(١)، الذي قطع رأسه في أورشليم. وقد أُلغيت هي هذا الاسم الثاني طوال نصف حياتها، لأنه بدا لها اسماً ذكورياً وصاحباً، إلى أن جاء ابن عاق وكشفه في رواية^(٢).

(١) ستيانو الأكبر Santiago III Mayor هو يعقوب بن زندي، أخه حوارمي السحج، كنهه هيرودس الملك.

(٢) الاستاذة أختا إلى رواية المارك نفسه "قصة موت سان"، حيث يذكر اسمها في نهاية الفصل الأول.

كانت تلميذة مجتهدة، باستثناء «دوس البيانو» الذي فرضته عليها أمها التي لم تكن قادرة على تصور أنسة محترمة لا تكون عازقة بيانو بارعة. وقد درست لويسا سانتياغا العزف، بدافع الطاعة والانصياع، طوال ثلاث سنوات، ثم هجرته يوماً بسبب الضجر من التمارين اليومية، فهي تبهط القبلولة. ومع ذلك، فإن الميزة الوحيدة التي أضافتها، في زهرة العشرين من عمرها، هي قوة شخصيتها، حين اكتشفت الأسرة أنها مفضونة بحب عامل التفرد الشاب والمتكبر في أركانها.

لقد كانت قصة تلك الغراميات المصفرة، واحدة أخرى من دهشات شبابي. فلكثرة ما سمعت روايتها من أبيي، كل منهما على حدة، صارت القصة مكتملة لدى ثانياً عندما كتبت روايتي الأولى، «الأوراق المذيلة»، وأنا في الثالثة والعشرين. ولكنني كنت واعياً أنه ما زال عليّ أن أتعلم الكثير حول فن القصة الروائي. كلاهما كان رؤياً ممتازاً، ولديه ذاكرة الحب السميفة، ولكنهما يلفا في روايتهما حدوداً من الشغف العاطفي. لم أستطع معها تبيين الحدود بين الحياة والشعر. عندما قررت، أخيراً، بعد أن تجاوزت الخمسين، استخدام قصة حبهما في رواية «الحب في زمن الكوليرا».

لقد التقيا أول مرة، حسب رواية أمي، في مأتم طفل، لم يتمكن أي منهما من تحميد له. وكانت يومذاك تلحن في الفناء، مع صديقاتها، وفق العادة الشعبية في فناء «البالي الأبرياء» النسمع، في إنشاد أغنيات الحب. فجأة انضم صوت رجولي إلى الكورال. فالتفت جميعهن لرؤيته وأصابهن الارتباك حيال حسن مظهره. «تتزوج منه». غنيت هذه العبارة في لفلة المقطع، على إيقاع أكلهن. ولكن رؤيته لم تؤثر في أمي. وهذا

ما قالته: «لقد بدا لي أنه غريب آخر». وكان كذلك بالفعل، فقد وصل لتوه من كارتاخينا دي إنداياس. بعد أن قطع دراسة الطب والصيدلة، بسبب شح الموارد، وانطلق في حياة أقرب إلى الابتذال والسوقية، في عدد من قرى المنطقة، محارماً مهنة عامل التفرد المحدث. إحدى صوره في تلك الأيام، تبديه بالمظهر الحاطي لمئات فقير. فهو يرتدي قميصاً قائماً من حرير الفتاة، مع سخرة ذات أربعة أزوار، ضيقة جداً، على موضة تلك الأيام، وياقة خماسية، وربطة عنق عريضة، وقبعة من الفش. وكان يضع كذلك نظارة من النوع الدارج، عذمتها مستديرتان من زجاج طبيحي وإطارها ولصع. من عرفوه في تلك الفترة، كانوا يرون فيه بوهيمياً محباً للسهر، وزيفاً نساً، ولكنه لم يشرب مع ذلك لفرة خمر واحدة، ولم يدخن سيجارة واحدة طوال حياته المديدة.

كانت تلك هي أول مرة تراء فيها أمي، أما هو بالمقابل، فكان قد رآها في قفاس انساعة الثامنة، يوم الأحد السابق، وهي بحراسة القصة غرانديسكا جيمودوسيا التي كانت وصيفتها المرافقة، منذ أن عادت من المدرسة. ثم رآها مرة أخرى يوم الثلاثاء التالي، تخيطان تحت أشجار اللوز، عند بوابة البيت. وهكذا كان يعرف في ليلة المأتم أنها ابنة الكولونيل نيكولاس ماركيز الذي جاء، حاصلًا له عدة وسائل توصية. وعرفت هي أيضاً، منذ ذلك الحين، أنه عازب ومتقلب الغراميات، وأنه يصعب مجازاً فوراً لطلاوة لسانه، وتدفق شاعريته، ورفصه الطريف على وقع الموسيقى الدارجة، وعاطفيته المدروسة مسبقاً التي يمزج بها الكتمان. وقد روت لي أمي أن من كان يسمعه يعزف فجراً، لا يتمكن من كبح رغبته في البكاء، وكانت بطاقة تقديمه لنفسه في المجتمع هي

معزوفة "عندما انتهت الرقصة"، وهي مقطوعة فالس ذات روتنطقية مستغزفة، ضمها إلى قائمة معزوفاته وصارت لحناً لا بد منه في جولات العزف الليلية (السيرنادات)، جوازات المرور الخميصة هذه، وجاذبيتها الشخصية، فتحت له أبواب البيت، وأناحت له التردد بكثرة على مائدة الغداء العائلية، ولقد انتهت العمة فرانشيسكا، المتحدرة من قرية كازو من دي بوليفار، ذن تحفظ، عندما علمت أنه مولود في سينثي، وهي قرية قريبة من قريبها. وكانت لويسا سانتياغا تستمتع في الحفلات الاجتماعية، بحيله في الإغواء، ولكن لم يدرك في خلالها قط أنه يسعى إلى ما هو أكثر من ذلك. بل على العكس؛ فقد كانت علاقتها الطيبة تستند، لبل كل شيء، إلى أنها كانت تشكل واجهة لقرايمانه الحفية مع إحدى زميلاتهما في المدرسة. وقد وافقت على أن تكون اشبيته في زفافه، وصار منذ ذلك الحين يدعوهما "شبيثي"، بهتسا تدعوه هي فليوني^(١). ومن السهل، ليس مثل هذا الوضع، تصور مدى دهشة لويسا سانتياغا في إحدى ليالي حفلات الرقص، عندما أقدم عامل التلفزيون الجري، على انتزاع الوردة المطقة في عروة ياقته، وقال لها:

- أسلمك حياتي في هذه الوردة.

لم تكن حركة مريحة، هنا ما قاله مرات كثيرة، وإنما جاءت بعد أن تحرك عليهن جميعاً، وتوصل إلى أن لويسا سانتياغا قد خلقت له. أما هي لفهمت حركة تقديم الوردة، على أنها دعابة أخرى من مزاحه التوددي الذي اعتاد ممارسته مع صديقاتها. وكانت مقتنعة بذلك، إلى

(١) الفليون هو التسمية التي يطلقها المراهق على ابنة بالعماد، أو الأختين على المراهق الذي يكلله.

حد أنها تركت الوردة منسية هناك، أينما اتفق، وانتبه هو إلى ذلك. لم تكن قد عرفت قبل ذلك سوى متودد سري واحد، وهو شاعر غير محظوظ، وصديق طيب لم يتمكن من الوصول قط إلى قلبها بأشعاره الملتهية. ومع ذلك، فقد عكزت وردة غابرييل إليخيرو أحلامها، بغضب لا تفسر له، في محادثتنا الرسمية الأولى عن غراميانها. وكانت مثقلة بالأثنا، اعترفت لي: "لم أستطع النوم لفضي من كوني أفكر فيه، ولكن ما كان يفضيني أكثر، هو أنني كلما ازدادت غضباً، كان تفكيري فيه يزدهر"، وتحسنت خلال بقية الأسبوع بشقة وعب ولشته وعطاب عدم التمكن من رؤيته، ومحولاً عن القسوة وفليون. كما كانا، إلى التعامل كمن لا يعرف أحدهما الآخر. وفي إحدى تلك الأمسيات، بينما كانتا تخفيطان تحت أشجار اللوز، وخزت العمة فرانشيسكا ابنة أخيها بخفيها الهندي:

- قبل لي إن هناك من لم لك وودة.

ومثلما يحدث عادة، كانت لويسا سانتياغا هي آخر من يعلم بأن عواصف قلبها قد صارت موضعاً متداولاً بين الجميع. وفي المحادثات الكثيرة التي أجريتها معها ومع أبي، كانا متفقين على أن الحب الصالح مر بثلاث مناسبات حاسمة الأولى كانت في القداس الكبير، في يوم أحد الشعانين. وكانت هي تجلس مع العمة فرانشيسكا على مقعد من جهة المنشدين، عندما تعرفت على وقع خطوات كعبه الفلامنكيين على آجر الأرضية، ثم رأته يمر قريباً جداً إلى حد أنها شمت رائحة عطره الفاتر كعريس. لم يد على العمة فرانشيسكا أنها رآته، ربما أنه هو أيضاً لم يرها. ولكنه في الحقيقة كان قد دبر كل شيء مسبقاً، فقد لحق بهما عندما مرنا على مكتب التلفزيون. وبقي واقفاً إلى جوار أقرب الأصعدة

من البوابة، بحيث يستطيع رؤيتها مديرة شهرها، بينما لا يستطيع هي رؤيته. وبعد عدة دقائق متوترة، لم تستطع لويسا سانياغا كبح لهفتها. ونظرت نحو الباب من فوق كنفها، وأحست عنيفة بأنها تقوت من القبط، فقد كان ينظر إليها، وتقاطعت نظراتهما. "كان هذا هو ما خططت له بالضبط"، اعناد أبي أن يقول ذلك، بسعادة. كلما أعاد قص الحكاية لي في شيوخته. أما أبي بالمقابل، فلم يقل من ترويض القول بأنها لم تستطع، طوال ثلاثة أيام، السيطرة على غضبها، لوقوعها في الفخ الذي نصبه لها.

المناسبة الثانية كانت رسالة كتبها إليها. ثم تكن الرسالة التي انتظرتها، من شاعر وعازف كان في ساعات النجم المستقرة، وإنما رسالة أمرة، تطالبها بالرد. قبل أن يسافر إلى سانتا حارتا، في الأسبوع التالي، لم ترو عليه. وحسبت نفسها في حجرتها، مصممة على قتل تلك الخوذة التي لا تبقي لها أنفاساً للعيش. إلى أن حاولت الصمت فرانشيسكا أن تمنعها بأن تستلم دفعة واحدة، قبل أن يفوت الأوان. وفي محاولة منها للثقل على صفاقتها، روت لها القصة القصيرة لخورخي بينو تريمو، ذلك العاشق الذي كان يربط تحت شرفة محبوبته المستحيلة كل ليلة، منذ الساعة السادسة حتى العاشرة. فكانأته بكل أشكال الصدم التي خطرت لها، وانتهى بها الأمر إلى أن تُفزع عليه، من الشرفة، ليلة بعد ليلة، مبولة صخرة مملحة بالبرق. ولكنها لم تستطع إيماده. وبعد كل أشكال تلك الاعتداءات التعمدية - ومنافرة بشفائي ذلك الحب الذي لا يهزم - تزوجت منه. ولكن قصة حب أبوي لم تصل إلى تلك الحدود.

مناسبة الحصار الثالثة، كانت حفلة زفاف شديلة الأبهة، دعي إليها كلاهما كإشبهتي شرف. ثم تجدد لويسا سانياغا ذريعة للتخلص من التزام شديد القرب من الأسرة. ولكن غابرييل إليخيرو كان قد فكر به ذلك أيضاً، وذهب إلى الخففة، وهو مستعد لكل شيء، لم تستطع هي كبح جماح قلبها عندما رأتها يجتاز القاعة بتصميم بالغ الوضوح، ويدعوها إلى الرقصة الأولى. وقد قالت لي: "كان الدم يغور بقوة في جسدي، ولم أهد أعرف إذا ما كان السبب هو الغضب أم الخوف". وانتبه هو إلى ذلك، ووجه ضربة قاسية: "لم تعودني مضطرة إلى أن تنولي لي نعم، لأن قلبك يقولها لي".

تركته هي دون مزيد من اللب والدوران، وخلّفته مسرراً في القاعة، في منتصف الرقصة. ولكن أبي فهم الأمر على طريقته.

- بقيت صميماً - هذا ما قال لي.

لم تستطع لويسا سانياغا كبح الضخامة التي أحسّت بها، ضد نفسها، عندما أبقتها في الدجر مخازلات الفانس المسموم: عندما انتهت الرقص قبيل الفجر. وفي أولى ساعات صباح اليوم التالي، أعادت إلى غابرييل إليخيرو كل هداياه. هذا الصدم المجهنم، والأقارب عن تركها له في حلبة الرقص، أثناء حفلة الزفاف. كانت أشبه برياش ألقيت في الهواء. ولم تعد هناك روح قادرة على إرجاعها. اعتبر الجميع أن تلك هي النهاية غير المجيدة لعاصفة صيفية. وقد تعزز الانتطباع لدى إصابة لويسا سانياغا بتلك الحمى الثلاثية التي كانت تعاني منها في طفولتها، فأخذتها أمها لتخلف عنها إلى قرية مانوي، وهي ركن فروعسي متاخم لسلسلة جبال سييرا نيكادا. وقد أنكر كلاهما على الدوام

وجود أي اتصال بينهما. خلال تلك الشهور، ولكن لا يمكن تصديق ذلك بسهولة. فعدت رجعت، وقد تعافت من عنتها صاراً بهيوان وكأنهما قد تعافيا كذلك من شكوكهما. ويقول أبي إنه ذهب لانتظارها في الحطة، لأنه قرأ البرقية التي أرسلتها مبنا معلقة عودتها إلى البيت، وقد أحس، من الطريقة التي شددت بها لويسا سانتياغا على يده لدى المصافحة، بما يشبه إشارة مشفرة ماسولية، فسرّها هو على أنها رسالة حب. وقد أنكرت هي ذلك دوماً بالحقير والخياء اللذين تستحضر بهما ذكريات تلك السنوات. ولكن الحقيقة أنها صاراً منذ ذلك الحين، يظهران معاً بقدر أقل من التكم. ولم يكن ينقص إلا النهاية التي وفرتها العمة فرانسيسكا، في الأسبوع التالي، بينما هما تخططان في عمر أزهار البيجونيا:

- لقد علمت مبنا بالأمر.

وقد قالت لويسا سانتياغا، على الدوام، إن معارضة الأسرة كانت السبب في مجاوز حواجز السيل الذي كانت تكبحه في قلبها، منذ اللبلة التي تركت فيها التردد إليها، مسراً في منتصف حلبة الرقص. كانت حرباً ضارية، وقد حاول الكركولونيل البقاء على هامشها، ولكنه لم يستطع تجنب الشعور بالذنب الذي واجهته به مبنا. عندما انتهت إلى أنه لم يكن هو نفسه برشاً كذلك، بالقدوم الذي يظهر. كان واضحاً للجميع أن عدم التسامح لم يكن منه، وإلغا منها. مع أن عدم التسامح كان مدبرجاً، في الحقيقة، في قانون القبيلة التي ترى أن أي عريس هو شطط دجيل. هذا التحامل المسبق المتوارث الذي ما زالت جذواته مروجوة تحت الرماد، جعلت منا جمعية نساء عازبات ورجالاً يسراويل دون فتحات مع أعداد كبيرة من أبناء الأزلة غير الشرعيين.

انقسم الأصداق حسب السن، مع العاشقين أو ضلعها، ومن لم يكن لهم موقف جذري، جاءت الأحداث لتفرضه عليهم. الشباب اتخذوا موقف الموقدين المواطنين بابتهاج. وخاصة معه، إذ قنع متلذذاً بشرطه كضحية تكفير عن تحامل الأثكار الاجتماعية المسبقة. أما غالبية الكبار بالمقابل، فكانت ترى في لويسا سانتياغا، أثنى جوهرة في أسرة ثرية ومتنفذة، لا يمكن لمعامل نلغراف وصولي وغريب أن يتوحد إليها بدافع الحب، وإلغا بدافع المصلحة. وقد تصدّت هي نفسها لمعارضوها، رغم ما عرفت عنها من انصياع وخضوع، بضراوة لبوة نفساء، وفي أحد أحد نزاعاتها البهتية الكثيرة بلاء، فقدت مبنا السيطرة على نفسها، وودعت في وجه ابنتها مكيّن تقطيع الحيز، فواجهتها لويسا سانتياغا برياضة جاش. ولكن مبنا انصهت فوراً إلى فورة غضبها الإجرامي، فأفلقت السكون وصرخت مدعورة: "ياها!". ووضعت يدها على جسر الموقد، في حركة تكفير لفظ.

إحدى الحجج القوية ضد غابريل إليخير، هي وضعه كأمين طبيعي لأم عازية أمجته وهي في سن الرابعة عشرة المتواضعة، من عشرة عابرة مع معلم مدوسة، كان اسمها أرغيسينا غارثيا باتيمينا، وهي بيضاء مشوقّة الفوام، ذات روح حرة، أمجته ستة أبناء آخرين وابنتين من ثلاثة أبناء مختلفين، لم تتزوج أباً منهم أو تسكن معه تحت سقف مشترك، وكانت تعيش في قرية سينشي، حيث ولدت، وترعى ذريتها بالأظفار وبزجاج مستقل وسعيد كنا نتمناه، نحن أحفادها، ليوم أحد شعبان.

كان غابريل إليخير نموذجاً متميزاً لتلك السلالة الرثة. فقد عاش، منذ بلوغه المسابعة عشرة، ضمن عشيقات عذراوات، حسب ما كشف

عنه لأمي، كدليل ثوية، في ليلة زفافهما على متن سفينة ويوهاثا
 الشراعية التي في حالة يرثى لها والمصفوعة بالعاصفة. اعترف لها بأنه
 في علاقته بإحدها، وهو عامل تفراف في قرية آتشي، في الثامنة
 عشرة من عمره، أنجب منها ابناً، يدعى إيلاردو، يوشك أن يتم الثالثة
 من عمره. وفي علاقته بواحدة أخرى، وهو عامل تفراف في آياهيل،
 وكان في العشرين من عمره، أنجب ابنة عمرها شهر، وهو لا يعرفها.
 وتدعى كارمن روسا. ولدت بعد أم الطفلة بالعودة إليها للزواج منها.
 وكان لا يزال يحافظ على وعده حباً عندما انصرف مسار حياته بحب
 لروسا سانتياغا. كان قد اعترف بابنته الأكبر، أمام كاتب بالعدل.
 وسيفعل ذلك في ما بعد مع ابنته. ولكن ذلك الاعتراف لم يكن سوى
 شكليات بيروقراطية لا قيمة لها أمام القانون. ومن المفاجئ أن يسبب ذلك
 السطو الشاذ مخاوف أخلاقية للكونغوليل ماركيز الذي أنجب، فضلاً
 عن أبنائه الثلاثة الرسميين، تسعة أبناء آخرين من أمهات مختلفات،
 قبل زواجه وعده، وكانت زوجته تستقبلهم جميعهم، كما لو أنهم
 أبناءها.

ليس بإمكانني أن أحده متى علمت بأول أخبار تلك الوقائع. ولكن
 تهتكات أسلافي لم تكن تهمني على أي حال. أما أسماء الأسرة بالمقابل.
 فكانت تشد انتباهي. لأنها تبدو لي فريدة. أولاً أسماء أسرتي من جهة
 أمي: ترانكيلينا، وينفريدا، فرانشيسكا سيمودوسيا. وفيما بعد، اسم
 جدتي لأبي أرخيمورا، واسم أبويها، ثوثانا وإسينداب، وربما من هنا
 يأتي اليقين الواضح بأن شخصيات رواياتي لن يسيروا على أقدامهم
 بالذات، بما داموا لا يفتكرون اسماً يتطابق مع طريقتهم في العيش.

وقد تخافتم الجميع ضد غابريل إليغيو لكونه عضواً نشيطاً في
 الحزب المحافظ الذي خاض الكونغوليل ماركيز حروبه ضده. كان السلام قد
 استتب جزئياً فقط. منذ توقيع اتفاقيتي نيرلانديا وويسكونسين. ذلك أن
 المركزية المتفوقعة كانت لا تزال في السلطة، وكان لا بد من مرور زمن
 طويل قبل أن يتخلى اللبلاء والليبراليون عن التكشير عن أنيابهم. ربما
 كانت ميلو العاشق المحافظة، ناشئة عن عدوى أسرية أكثر مما هي كناعة
 فكرية. ولكنهم كانوا يأخضون الأمر بالحسبان أكثر من اهتمامهم بمسائل
 أخرى في طبيعته الطبيعية، مثل ذكاته المثيقل على النوم، ونزاعته المجردة.
 كان أبي رجلاً يصعب استشفائه وإرضائه. وكان دائماً أفقر مما يبدو
 عليه. وقد اعتبر الفقر عدواً يهضماً لم يستسلم له قط ولم يتمكن كذلك
 من هزيمته. وحرمة النفس والشجاعة نفسها. تحمل عواقب غرامياته مع
 لوسا سانتياغا، في الهجرة الخلفية من مكتب التفراف في أراكاتاكيا،
 حيث كانت لديه أروحة نوم معلقة على النوم، ينام عليها وحيداً، ومع
 ذلك، كان هناك، إلى جواره، سرير عازب ضيق أيضاً، نوابضه مزينة
 جيداً، محسباً لما يمكن أن يولده له الليل. في إحدى الفترات، شرعت ميل
 إلى عاداته كصبيته متخف. ولكن الحياة علمتني بأنها أشد حالات العزلة
 قهلاً، وأعسست بشقة كبيرة عليه.

والى ما قبل موته بقليل، كنت أسعده بروي كيف أنه اضطر في
 أحد تلك الأيام المصيبة إلى الذهاب مع بعض الأصدقاء إلى بيت
 الكونغوليل. فدعوا الجميع للجلوس باستثنائه هو. ولكن أسرته أنكرت
 ذلك دوماً، وعزته إلى جذوة الاسنبيا الكامنة في نفس أبي. أو إلى
 ذكرى زنتقة على الأقل. ولكن في إحدى المرات، عندما كانت جدتي في

حوالي المئة من عمرها، أفلت منها قسى هذياناتها الدواماتيكية التي لم تكن تبدو امتداداً لأحداث، وإنما عودة لعيشها من جديد.

- ها هو هنالك، ذلك الرجل المسكين، واقفاً عند باب الصالة. ونيكولا ممتدح لم يدعه للجولوس - قالت ذلك متأللة حقاً.

وكنْتُ متباعدة على الدوام مثل هذه الإبهامات المبهمة، فسألتها من هو الرجل. وردت علي بجفاً:

- إنه غارسيا، ذو الكمان.

وسط كل تلك الخصائص الكثيرة، كان أقل ما يشبه طريفة والذي في الحياة، هو شراؤه مسدساً محسباً لا يمكن أن يحدث مع محارب في استراحة، مثل الكولونيل ماركيز. كان مسدساً معتبراً من نوع سميت أند ويسن ٢٨ طريل، لا أحد يدري كم عدد الذين امتلكوه سابقاً، وكم هنالك من القنطلى على كاهله الشيء المؤكدة الوحيد هو أنه ثم يطلق النار منه لقط ولو على سبيل الاحتياط أو الفضول. وقد وجدنا نحن أبناءه الكبار، المسدس، بعد سنوات من ذلك، وفيه رصاصاته الخمس الأصلية، في خزانة أمتعة غير مجددة، إلى جانب كمان السيرنادات.

لم نشط صرامة الأسرة من عزيمة غابرييل إليخيرو ولويسا سانتياغا. وكان بإمكانهما اللقا، خفية، في أول الأمر، في بيوت الأصدقاء، ولكن عندما أطبق الحصار عليهما تماماً، صارت وسيلة التواصل الوحيدة هي الرسائل التي يجري تلقيها وإرسالها بأساليب متكررة. وكان كل منهما يرى الآخر من بعيد. عندما متعها ذوقها من حضور الحفلات التي يدعى إليها. ولكن القمع بلغ حدوداً صارمة، بحيث لم يعد هنالك من يتجرأ على محبدي تويات غضب ثرائكييلنا إغرابان. ولم يعد للعاشقان

للظهور أمام الناس. وعندما لم يتبق هنالك أي ثغرة لتبادل الرسائل الخفية، ابتدع الخطيبان أساليب تشبه أساليب التاجين من الفرق، فقد تمكنت هي من إخفاء رسالة تهنته في قالب حلوى (بودين) أوصى عليه أحدهم من أجل عيد ميلاد غابرييل إليخيرو. ولم يكن هو بدوره يلمت فرصة ليرسل إليها برقيات منفة وبرقة مع الرسالة الخفية المشفرة أو المكتوبة بحبر سري. صار نواظر العمدة فرانيسكا عندئذ جلياً جداً، على الرغم من ابتكارها الخامس، بما أثر لأول مرة على سلطتها في البيت، ولم يعد يسمح لها بمرافقة ابنة أخيها، إلا وهي تخطط في ظل أشجار اللوز. وعندئذ صار غابرييل إليخيرو يبحث رسائل حب من نالمة الدكتور ألفريدو باربوثا، على الرصيف المقابل، بإشارات الصم والبكم الهدوية. وقد أتقنت هي تلك الإشارات، على أحسن وجه، إلى حد أنها كانت تتمكّن، في خطوات شهر العسل، من تبادل أحاديث حسنة مع خطيبها. وقد كانت تلك واحدة من المهل العديدة التي ابتدعتها أديانا بيردوغو، صديقة لويسا سانتياغا الزوجية، وأشد المتواطئات معها عوناً وجرأة.

منارات المراسلة تلك، كانت تكفيهما للقاء، حين على نار هادئة، إلى أن تلقى غابرييل إليخيرو رسالة من لويسا سانتياغا تنفخ بالمخبر، بما اضطره إلى إعادة نظر حاسمة. كانت قد كشفتها بسرعة، على ورق تواليت، وأودعتها الخبر المشؤم بأن أبيها فروا أخذها إلى بارانكاس، بالنقل من قرية إلى قرية، كعلاج قاس من داء غرامباتها. وإن تكون رحلة نظامية في ليلة تحس تقضيها في سفينة ريوهانشا، وإلا عبر طريق الجبال الرهيب، في سلسلة سبيرا نيفادا، على متن البغال، ولي العربات، لاجتياز مقاطعة باديا القسبية.

كنت أفضل الموت على تلك الرحلة، هذا ما قالته لي أمي يوم ذهبتا لبيع البيت. ولقد حاولت الموت فعلاً، بحبس نفسها وراء باب غرفتها المغفل، والعيش على الخبز والماء، طوال ثلاثة أيام، إلى أن غلب عليها الحزن الفوقبري الذي كانت تشعر به تجاه أبيها. أدرك غابرييل إليخيزر أن التوتر قد بلغ أقصى حدوده، واتخذ قراراً متطرفاً أيضاً. ولكنه من، اجتاز الشوارع بخطوات واسعة، من بيت الدكتور بارونتا، إلى ظل شجيرات اللوز، وقف أمام المرأتين اللتين انتظرتاه مرعوبتين. وشغل المحادثة في حثنيهما.

- اعلمي معروفياً بتركي، جيداً للحظة مع الآتية - قال للعمة فرانيسكا - لدي شيء مهم أريد قوله لها على انفراد.

لقدت عليه العمة،

- وقع ليس هناك ما يعنيه ولا يمكنني سماعه.

لقدال

- لن أقوله إذاً. ولكنني أحذرك من أنك ستكونين مسؤولة عما سيحدث.

توسلت لويسا سانتياغا إلى عمتها لتتركهما وحيدتين، وجازفت بتحمل المسؤولية. عندئذ أعرب لها غابرييل إليخيزر عن موافقته على قيامهما بالرحلة مع أبيهما، مهما كانت الطريقة والمدة. ولكن شرطاً أن تصاحبه تحت القسم بأنها ستزوج منه. وفعلت هي ذلك راضية. وأضافت على حسابها ومسؤوليتها أنه لا يمكن إلا للموت وحده، أن يحل دون ذلك. وقد كانت تلك السنة فرصة لكليهما، كي يشتا بجدية عهودهما. ولكن أياً منهما لم يكن يتصور كم سيكلفهما ذلك. استمر الجزء الأول

من الرحلة في قافلة بقالين، صدة أسبوعين، على متن البغال، عبر النوب الجبلية الضيقة في سلسلة سيرا نيفادا. وكانت تراقبهم تشون - تصغير محبب لاسم إنكارناثين - خادمة وينفردا، والتي انضمت إلى الأسرة منذ مغادرتها بارانكاس. كان الكولونيل يعرف جيداً ذلك الطريق الوعر، حيث خلف سلسلة من الأبنية، في ليالي حروبه المهددة. ولكن زوجته فضلت سلوك ذلك الطريق، دون أن تعرفه. بسبب ذكرياتها السيئة عن الرحلة في السفينة الشراعية. أما أمي التي كانت تقضي بقية لأول مرة. فكانت الرحلة بالنسبة لها كابوس شرس عارياً وأمطاراً عاصفياً، وكانت تحضي وروحها معلقة بخيط. بسبب بخار الوديان السحيقة المخوم. وكان تذكريها بخطيب غير مذكّر، هبذلات متتصلة الليل التي يرتديها، وكمان الفجر، يبدو إحدى مخربات المخيلة. في اليوم الرابع من الرحلة، عندما أحسّت بأنها عاجزة عن البقاء على قيد الحياة، هدأت أمها بالقاء نفسها إلى الهاوية ما لم يعودوا إلى البيت. ولقدت عينا، الخائفة أكثر منها، العودة. ولكن وتيس القافلة بشّ لها على الخريطة بأنه لم يعد هناك فرق بين العودة ومواصلتها الرحلة، وقد جاهدتهم الراحة في اليوم الحادي عشر، عندما تحووا من آخر منعطف جبلي سهل بايديوار المشرق. قبل أن تنتهي الرحلة الأولى، كان غابرييل إليخيزر قد أمّن اتصالاً دائماً مع الخطيبات الجوالّة، بفضل تواطؤ عاملَي التلغراف في القرى السبع التي ستوقف فيها هي وأمها، قبل الوصول إلى بارانكاس، وساهمت لويسا سانتياغا أيضاً بما هو مترتب عليها، فقد كانت أنحاه بروينثيا كلها تخص بأناس من آل إغواران وكوتيس، يمتلك وعيهم لأصول سلالتهم قوة شبكة معقدة وكثيفة. وقد نجحت هي في استمالتهم إلى

جانبها. فأتاح لها ذلك الحفاظ على مراسلات مضمومة مع غابريل إليخو، ابتداء من بايديوار، حيث قضت مدة ثلاثة أشهر، وحتى نهاية الرحلة بعد سنة من ذلك تقريباً. كان يكتبها أن قر على مكتب التلغراف في كل قرية، بالتواظف مع قرية شابة ومنحمة لكي تنظف رسائله وترد عليها. وقد لعبت تشون، كافة الأسرار الصموت، دوراً لا يمتن، لأنها كانت تخفي الرسائل بين ثيابها، دون أن تشبر قلب لومسا سانتياغا أو تخدش حياءها، لأنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، ويمكنها أن تتحمل الموت حفاظاً على السر.

بعد سنتين سنة من ذلك تقريباً، عندما كنت أحاول إنقاذ تلك الذكريات، من أجل "الحب في زمن الكوليرا"، وروايتي الخامسة، سألت أبي إذا ما كانت هناك ضمن مصطلحات صوفي التفراف. كلمة محددة لعملية وصل مكتب بأخر، ولم يكن عليه أن يفكر بالجواب، بل قال على الفور: "تمشيق". هذه الكلمة موجودة في المصاحف، ليس للاستخدام المعد الذي أحناه، ولكنها بدت لي دقيقة وتفي تماماً بما أريد. فالأصل يختلف المكاتب يتحقق من خلال ربط توصيلة في لوحة خطوط الأطراف التفرافية. لم أنافس الأمر مع أبي قط. ومع ذلك، رقب موتي بقليل سألو، في مقابلة صحفية، إذا ما كان قد رغب يوماً في كشافة رواية. فأجاب بنعم، وأضاف أنه نخلي عن الفكرة. عندما سأله يوماً عن كلمة "تمشيق الخطوط"، لأنه اكتشف عندئذ أنني كنت أكتب ما كان يفكر هو في كتابته.

وقد تذكر في تلك المناسبة أيضاً، معلومة خفية كان يمكن لها أن تبدل مسار حياتنا، فبعد ستة شهور من الترحال، عندما كانت أبي في

سان خوان دل ثيسر، وصلت إلى غابريل إليخو، وشاية سرية بأن منها قد كُلفت بالإعداد لعودة الأسرة نهائياً إلى بارانكاس، بعد أن قامت جراح الضخمة التي خلفها موت مبادرو باتشيكو. بدا له ذلك التصرف غير معقول، لا سيما بعد انقضاء الأمانة السينة، وبعد أن بدأت سيطرة شركة الموز المطلقة في تحقيق ما بدا أنه حلم الأرض الموعودة، ولكن كان معقولاً كذلك أن يعود العناء آل ماركيز إغواران إلى التضحية بمصاداتهم. مقابل تخليص ابتهم من مخالف ذلك الباشق. وكان قرار غابريل إليخو السوري هو بذل المساعي لنقله إلى مكتب تلغراف ريوهاتشا، على بعد عشرين فرسخاً من بارانكاس. لم تكن هناك وظيفة شاعرة، ولكنهم وعدوه بأخذ طلبه في الاعتبار.

لم تستطع لومسا سانتياغا أن تكتشف نوايا أمها السرية. ولكنها لم تصبراً كذلك على نظرها. ولدت لغت انتباهها أنهم كلما اقتربوا أكثر من بارانكاس، كانت أمها تبهو أكثر تنهداً ووداعة، ولم تقدم لها تشون، حافظة أسرار المسيح، أي إشارة صريحة كذلك. ومن أجل استخلاص الحقائق، قالت لومسا سانتياغا لأمها إنه سمعها البقاء للعبث في بارانكاس. ترددت الأم لحظة، ولكنها لم تحسم أمرها بقول أي شيء. وأصحت الابنة بأنها قد اقترحت كثيراً جداً من السر. ودفعها القلق إلى عقد آمالها على التنجيم مع غجرية مشجرة، لم تقدم لها أي إشارة حول مستقبلها في بارانكاس. ولكنها بشرتها بالمقابل، بأنها لن تواجه أية عفيات في عيش حياة طريفة ومريحة، مع رجل بعيد لا تكاد تعرفه، ولكنه سيجيها إلى أن يموت. وقد أعاد الوصف الذي قصته الغجرية الروح إلى جسمها، لأنها وجدت فيه ملامح مشتركة مع خطيها، ولا

سبحا طريقته في الحياة. وأخيراً، تبيّنت لها الضجيرة، دون قطرة واحدة من الشك، بأنها ستجيب ستة أشياء منه. لقد متّ حلماً. هذا ما قالت لي أمي عندما روت لي ذلك أول مرة، دون أن تتصور أن العدد الحقيقي لأبنائها سيند خمساً على ذلك العدد. تلقف كلاهما تلك النبوءة بحماس شديد، إلى حد أن المراسلات التلغرافية لم تعد عندئذ كونشيرتو نواباً حالمة، وعلّوت إلى مراسلات منهجية وعسيلة، وأكثر كثافة من أي وقت آخر. لحدها التواريخ، وأقرأ الوسائل، وهدنا حينئذ بقرارهما المشترك بالزواج، دون استشارة أحد، أينما كان وكيفما كان، عندما يعودان للقاء.

وكانت لويسا سانتياغا شديدة الوفاة للوعد الذي قطعته على نفسها، إلى حد أنها رأت، حين كانت في ثوبه فونسيكا، أنه ليس من الصواب الذهاب لحضور حفلة المصحة، دون الحصول على موافقة خطيبها. كان غابرييل إليغيو في أرجوحة النوم، يهزّ حتى أومعين درجة متوترة عندما رنت إشارة نداء تلغرافي مستعجل. وكان المتصل هو زميله حامل تلغراف فونسيكا. ومن أجل الأمان التام، سألت هي بحسن يدير جهاز البرق في نهاية السلسلة. فأرسل الخطيب المشوش أكثر مما هو مغالاً، جملة تعريب بهيئته: "قل لها إنني فليزونها". تصرفت أمي على كلمة السر، وذهبت إلى حفلة الرقص، وظلت هناك حتى الساعة صباحاً. عندما كان عليها أن تعود لتستبدل ثيابها على جناح السرعة، كيلا تصل متأخرة إلى القمار.

لم يجدوا في بارانكاس أدنى أثر للعقد على الأسرة. بل على العكس، لقد كان يسود بين ذوي ميفاردو بانشيكو مزاج مسيحي من

الصفح والتسليان، بعد مرور سبعة عشر عاماً على الحدث المشؤوم. وكان استقبال الأقرباء جميعاً جذاً. حتى أن لويسا سانتياغا هي من فكرت في إمكانية عودة الأسرة إلى ذلك الملاذ الجهلي الهادئ والمختلف قاماً عن البحر والقباز، والسهوت العاصية، والأشباح مقطوعة الرؤوس في أراكاتانكا. وقد فكتت من الإيحاء بتلك الرغبة إلى غابرييل إليغيو، شريطة أن ينحسّن من الانتقال إلى ريوهاتشا. وأبدى هو موافقته. ومع ذلك، فقد عُرف لي تلك الأيام، أخيراً، أن رواية الانتقال ليست بلا أساس وحسب، وإنما ليس هناك كذلك من يرغب فيها سوى ميئا، وهذا ما اتضح من رسالة جرابية أرسلتها إلى ابنها خوان دي ديوس، عندما كتب إليها هذا الأخير، خاتفاً من العودة إلى بارانكاس. دون أن تكون قد انقضت عشرون سنة على موت ميفاردو بانشيكا. فقد كان مقتنعاً على الدوام بقدرة قانون غواخيرا، حتى إنه عارض أدا، ابنه إدواردو للخدمة الطبية الاجتماعية في بارانكاس، بعد مرور نصف قرن على ذلك.

وخلالاً لكل المخاوف، حدث أن جَلّت هناك عقد الوضع كلها. فلي يوم الأربعاء نفسه الذي أكثت فيه لويسا سانتياغا لغابرييل إليغيو، أن ميئا لا تفكر في الانتقال إلى بارانكاس. أعلّصوه في العسل بأن مكتب تلغراف ريوهاتشا صار تحت تصرفه، بعد موت موظف المركز بصورة مفاجئة وفي اليوم الثاني أفرغت ميئا أفرج حجرة المونة، بعثاً عن مقص تقطيع اللحم وقصعت، دون أي مبرر، خطأ. علمة البسكويت الإنكليزي التي تخبز فيها ابتها برقيات غرامها، وقد بلغ غيلها حداً لم تستطع معه أن تقول سوى أحد الأسماء المشهورة التي اعتادت

أرغيا لها في غظات نحسها: الله يقرر كل شيء، إلا المتيقن. في نهاية ذلك الأسبوع، سافرتا إلى روهاتشا لكي تترك السفينة الشراعية المتوجهة إلى سانتا مارتا يوم الأحد. ولم تنتبه أي منهما إلى الليلة الرهيبة المسفوعة بعاصفة شياط: فقد كانت الأم خائفة بسبب هزيمتها، وكانت الابنة مذهورة، إنما سعيدة.

أعاد النزول إلى البايصة. إلى الأم توازنها الذي طاح به الشعور على الرسائل. وفي اليوم التالي واصلت السفر، وحدها. إلى أراكاتاكا، وتركت لورسا سانتياغا في سانتا مارتا، تحت رعاية ابنها خوان دي ديمس، واثقة بذلك من أنها تضعها بمنجى من شياطين الحب. ولكن ما جرى هو العكس: كان غابرييل السخيو يسافر في أئنة ذلك من أراكاتاكا إلى سانتا مارتا، لكي يراها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. في حين أن الحال خواتمتها الذي عانى سابقاً من تشدد أبويه نفسه في هرايماته مع ديليا كاتابيرو، كان لدحم على عدم التدخل إلى جانب أي طرف في محرمات أخته، ولكنه عندما حاثت ساعة الحقيقة، وجد نفسه مرزوعاً بين حبه لأخته لورسا سانتياغا، واحترامه لمشيئة أبويه. فليجأ إلى صيغة تعبر عن طبيعته التي يضرب بها المثل، والفق على أن يلتقي الخطيبان خارج البيت، إما دون أن يكونا وحيدين، ودون أن يعلم هو بذلك. وودعت زوجته ديليا كاتابيرو، التي تغفر ولكنها لا تنسى، لشقيقة زوجها، المصادفات المؤكدة والحيل المبرعة نفسها التي كانت تقطص بها من رقابة حميرها. بدأ غابرييل ولورسا اللقاء في بيوت الأصدقاء، ولكنهما راحا يجازفان شيئاً قسباً في الذهاب إلى أماكن عامة قليلة الارتياح. ثم تمجرأ أخيراً على تبادل الحديث، عبر النافذة.

عندما يكون الحال خواتمتها غير موجود، الخطيبة في الصلاة، والخطيب في الشارع. وفيين لالتزامهما بعدم اللقاء داخل البيت. كانت النافذة تبدو كأنها صنعت عملة للفراميات المتنوعة، عبر حاجز قضبان معدنية من الطراز الأندلسي. يحجم قاعة كاملة، ويأطار عريشة نباتات متسلقة، لا تضيق عنها أحياناً رائحة الباسمين في هذا الليل، وكانت ديليا محتاطة لكل شيء. بما في ذلك تواظق بعض الجمران الذين يظفون صفراً مشغراً لتنبه الخطيبين إلى خطر وشيك. ومع ذلك، فقد أخذت، في إحدى الليالي، كل احتياطات الأمن. ولم يجد خوان دي ديمس بلأ من الاستسلام أمام الحقيقة. فانتهزت ديليا الفرصة لتدعو الخطيبين ليجلسا في الصلاة. مع إيفا، كل التواظق مفتوحة، لمشاركات العالم بهبهما. ولم تنس أي قط زفرة أخيراً: "يا لمراعاة".

في تلك الأيام تلقى غابرييل إيلخير النحسين الرسمي في مكتب تلفراف روهاتشا، فلجأت عندئذ أمي، الممانعة من لرائ جديد، إلى المونسنيور بيدرو إسبيلو، أسقف الأبرشية الحالي. وهي تأمل أن يزورها دون إذن أبويها. كان وقار المونسنيور قد حقق لوة كبيرة. حتى إن كثيرين من رعيته كانوا يخلطون بين ^{الملك} الولاير والقداسة. وكان بعضهم يذهب إلى القداس الذي يترأسه للتأكد فقط، من حقيقة أنه يرتفع عدة سنتيمترات عن مستوى الأرض، في لحظة صلاة الصعود، وعندما طلبت لورسا سانتياغا مساعدته، قدم هو دليلاً آخر على أن الفكاك هو إحدى صيزات القداسة. فقد رفض التدخل في الشؤون الداخلية، لأسرة شديدة الحرص على خصوصياتها الحسية. ولكنه اختار المبادرة إلى الحصول سرراً، على معلومات عن حال أسرة أبي من خلال الكنيسة. وقد غص

خوري سيتثنى النظر عن تساهل أرخميسرا غارسيا، ورد على الأسقف بصيغة مشرقة: "إنها أسرة محترمة، وإن كانت قليلة التقوى". عندئذ تحدث مونسنيور إلى المحظيين معاً، ومع كل منهما على انفراد، وكتب رسالة إلى نيكولاس وثرانكيلينا أعرب لهما فيها عن تأثره بعقوبته بأنه لا وجود لسلطة بشرية قادرة على حزم ذلك الحب العنيد، فوافق جدي، المهزومان بمسألة الرب، على قلب تلك الصلحة المؤقة، ومنحوا خوان دي دهرس كل الصلاحيات لإقامة العرس في سانتا مارتا. ولكنهما لم يحضرا، وإنما أرسلوا فرانثيسكا سمودوسيا كإنيبة.

تزوجا في الحادي عشر من حزيران ١٩٢٦ في كاتدرائية سانتا مارتا، وتأسخبر دام أربعين دقيقة، لأن العروس نسبت تاريخ اليوم واضطروا إلى إبقائها بعد الساعة الثامنة صباحاً. وفي تلك الليلة بالذات، استقلا السفينة الشراعية المرحبة، لكي يتسلم غابرييل إليخيو وطيفه في مكتب تلفراف ريوهانشا، وأحضيا ليلتهما الأولى بعد الزفاف، منهارين من دوار الإبحار.

كانت أمي نحن كسبراً إلى البيت الذي أمضت فيه شهر العسل، حتى إنه كان مقدورنا، نحن أبنائنا الكبار، أن نصفه حجرة حجرة، كما لو أننا قد عشنا فيه، وهو لا يزال حتى اليوم إحدى ذكرياتي الزائفة. ومع ذلك، عندما ذهبت أول مرة إلى شبه جزيرة غواخيرا، قبل قليل من بلوغي الستين من عمري، فوجدت بأن البيت الملقق بمكتب التلفراف، لا علاقة له بذكرهائي. وريوهانشا الخالصة التي كنت أحملها، منذ طفولتي في قلبي، بشوارعها اللينثرافية التي تنحدر بانحياض بحر موحل، لم تكن سوى أضافات أحلام مستعارة من جدي. بل أكثر من ذلك فلأن وقد

صرت أعرف ريوهانشا، لا أتوصل إلى رؤيتها مثلما هي عليه، وإنما مثلما شُيّدت حجراً حجراً في مخيلتي.

بعد شهرين من الزفاف، تلقى خوان دي دهرس برقية من أبي يخبره فيها بأن لويسا سانتياغا جيلي. هز الحبر الهبت في أراكاتاكا من أساساته، حيث لم تكن ميتة قد شفيت بعد من المارة، ولكنها هي والكرولويل على السواء، ألقيا سلاحهما لكي يهود المرسان للعيش معهما. ثم يكن ذلك بالأمر السهل. وبعد معارضة عزة نفس وعقلانية استمرت عدة شهور، وافق غابرييل إليخيو على أن تضع زوجته مولودها في بيت أبيها.

بعد قليل من ذلك، استقبله جدي في محطة القطار، بهجمة بقبت في إطار من الذهب، في السجل التاريخي للأسرة: "إنني مستعد لأن أقدم إليك كل الرضى الضروري". جددت الحدة غرفة النوم التي كانت لها حتى ذلك الحين، واستقر أبواي فيها. وخلال تلك السنة، انتقل أبي من مهنته الجديدة كعامل تلفراف، وكمرس موهته في التعلم الذاتي، لعلم أخذ في الانحدار: الطب التجانسي. وبذل الجد المساعي لدى السلطات، بدافع الاعتراف بالجميل أو تأنيب الضمير، لكي يُطلق على الشارع الذي كنا نعيش فيه في أراكاتاكا، الاسم الذي ما زال يحمله حتى اليوم: جادة مونسنيور إسبيخو.

هكذا وهناك ولد الابن الأول من سبعة ذكور وأربع إناث، يوم الأحد، السادس من آذار ١٩٢٧، في الساعة التاسعة صباحاً، خلال هطل رابل مطر طوفاني في غير مرسومه. وكان الوليد على وشك أن يموت اختناقاً بحبل السرذ، لأن قابلية الأسرة، سانتوس ببيرو، عقدت

السيطرة على قناتها لسي أسوأ لحظة. ولكن من فقدته أكثر هي العمة
فراثيسكا التي ركضت حتى الباب الخارجي، وهي تطلق صرخات من
بهلن عن حريق؛

- ذكر! إنه ذكرا - وتضيف على الفور، كمن يدق ناقوس الخطر:-
هاتوا الروم، فهو يفتن!

واقترعت الأسرة أن الروم لم يكن للاحتفال، وإنما لإعشاء الوليد
بتدليكهم به، وروت لي السيدة خوانا دي فريثيس عدة مرات، وكانت
العناية الإلهية قد أدخلتها الحجرة في تلك اللحظة، أن الحظر الأكبر لم
يكن الحبل السري، وإنما وضعية أمي غير الصحيحة في السرير. وقد
أصلحت هي وضعها في الوقت المناسب، ولكن لم يكن من السهل
إنعاشي. وهكذا وشعني العمة فراثيسكا بما - العناد، بهرجل. كان
عليهم أن يسموني أوليفاريو، وهو اسم القديس الذي يصادف عيدهِ يوم
مولدي، إلا أن أحداً لم يكن يملك سجل القديسين في متناول يده. ولهذا
أطلقوا علي، بصورة عاجلة، الاسم الأول لأبي (غابرييل) بلبه اسم
خوسيه، نسبة إلى يوسف النجار، لأنه شليح آراكاتاك، ولأن الولادة
جوت في شهر آذار الذي هو شهر، واقترعت السيدة خوانا فريثيس
إضافة اسم ثالث هو كونكورديا (الوفاق) احتفاً بالمصالحة العامة التي
تمت بين الأسرة والأصدقاء، بجيشي إلى الدنيا، ولكنهم نسوا إضافته في
وثيقة التعميد الرسمية التي صدرت بعد ثلاث سنوات: غابرييل خوسيه
دي لا كونكورديا.

في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، كنت أتذكر كل ما
أثر في طفولتي. ولكنني لم أكن متأكداً مما هو سابق وما هو لاحق، أو
ما الذي يعتبه كل ذلك في حياتي. وكنت أكاد لا أعني أنه وسط ازدهار
شركة الثوب الزائف، كان زواج أبوي متدنياً، ضمن التحولات التي
تشكل الضربة القاضية لاحتلال آراكاتاك، غمد أن بدأت التذكر، كنتُ
أسمع - أولاً بهمس شديد، وبعد ذلك بصوت عالٍ ويغمر - تردد
العبارة القوية: "يقولون إن الشركة سترحل". ومع ذلك، إما أن أحداً لم
يكن يصدق الأمر، وإما أن أحداً لم يكن يجرؤ على التفكير في آثاره
المعقدة.

رواية أمي كانت تتضمن أولاماً زهيدة ومشهداً فقيراً جداً، بالنسبة
للنساء الضخمة التي تصورنا أنا، كما يجب لي إحساساً بالإحباط. وقد
تحدثت فيما بعد، إلى أحياء وشهود عيان، ونبتت في مجمرعات
صحف ووثائق رسمية. وتبين لي أن الحقيقة لم تكن في أي جانب،
فالوالدين يقولون إنه لم يكن هنالك، في الواقع، قتلى. ومن هم في
الجانب الآخر يؤكدون، دون أي ارتعاش في الصوت، أنه سقط أكثر من
مئة قتيل، وأنهم رأوهم يتدفقون في الساحة، وأنهم حُطوا في قطار شحن

لرميهم في البحر، مثل الموز المرفوض. وهكذا ظلت حقيقتي ضائعة إلى الأبد في نقطة غير محتملة بين الطرفين. ولكنها كانت تلح عليّ، حتى إنني أشرت في إحدى رواياتي، إلى المنحة بالدفعة والتمويل اللذين احتجتها بهما، طوال سنوات في مخطتي. وهكذا أقيمت الرقم عند ثلاثة آلاف، لكي أحافظ على الأبعاد المحسوبة للمأساة. وقد انتهت الحياة الواقعية إلى منحي العدالة: لحصد وقت قريب، وفي أحد أيام الذكرى السنوية للمأساة، طالب أحد المشككين في مجلس الشيوخ، بالوقوف دقيقة صمت، إحياءاً لذكرى الشهداء الثلاثة آلاف المجهولين الذين قتلهم قوى الأمن العام.

لقد كانت مطبعة مزارع الموز، ذروة مخاض أخرى سابقة، ولكن مع ذريعة إضافية تشير إلى أن زعماء الإضراب هم من الشيوعيين. وربما كانوا كذلك. وقد تعرفت، مصادفة، على إدواردو ماميتشا، أكثرهم بروزاً وشهرة، في سجن بارانكيا النموذجي. خلال تلك الفترة التي ذهبت لمبها مع أمي لبيع البيت، وعقدت معه صداقة جيدة، منذ أن قدمت نفسي على أتنّي حليد نيكولاس ماركيز. وكان هو من كشف لي أن جدي لم يكن معاهداً، وإنما وسيطاً في إضراب عام ١٩٢٨. وكان بهتيمه رجلاً متصباً. وهكذا استكمل لي الفكرة التي كانت لدي دوماً عن المجزرة، وكوّنت تصوراً أكثر موضوعية عن النزاع الاجتماعي. لقد كان الاختلاف الوحيد بين ذكريات البصيح، هو حول عدد القتلى. ولن يكون هذا هو الطغز الوحيد في تاريخنا.

كانت الروايات الكثيرة هي السبب في ذكرياتي الزائفة. وأكثر واحدة من تلك الذكريات إلحاحاً وثباتاً، هي غني أنا بالذات: أتذكر

نفسي واقفاً عند باب البيت، بقبعة فساوية وبندقية لعبة، أشاهد استعراضاً كتيبة من الجنود الكاثاكو المتصرفين تحت أشجار اللوز. وقد حياني أحد الضباط الذين يقودونهم في زي المراسم، لدى مروره: - وداعاً يا نقيب غالي.

الذكرى واضحة، ولكن لا وجود لأي احتمال بأن تكون صحبة، البدلة العسكرية، والقبعة، والبندقية وأجودت جميعها معاً، ولكن بعد حوالي سنتين من الإضراب، عندما لم تكن هناك قوات عسكرية في كاتاكا. أشياء كثيرة مثل هذه ولدت لي في البيت، المسعة بأن تدي ذكريات من داخل الرحم، وأحلاماً تستيق الأحداث.

كانت تلك هي حال الذنبا عندما بدأت أمي جوي الأسري. ولا يمكنني استحضاره بطريقة أخرى: كروب، حنين، ارتياح، في عزلة بيت فصح. لقد بدا لي، طوال سنوات، أن تلك الفترة قد تحولت بالنسبة لي، إلى كابوس يتواتر كل ليلة تقريباً، لأنني كنت أستبسط بالربح نفسه الذي كان يسيطر عليّ في حجرة التدخين. فخلال المراهقة، حين كنت نشيطاً داخلية في مدرسة جلدية، في جبال الأنديز، كنت أستبسط بالكلية في منتصف الليل. وقد احتجت إلى هذه الشيفوخة الحائية من تأليب الضمير، لكي ألبهم أن تماسة الجدين، في بيت كاتاكا، تنلخص في أنهما كانا طوال الوقت مشغولين في حيتهم، وبصورة أكثر حدة، كلما سعوا للتظاهر منه.

هل إن الأمر أكثر بساطة: لقد كانا يقيمان في كاتاكا، ولكنهما يواصلان العيش في مقاطعة باديا، التي ما زلنا نسبها المقاطعة (بروينشيا)، دون أية إضافات أخرى، كما لو أنه لا وجود لمقاطعة سواها

في العالم. ولد بنيا البيت في كاتاكيا، ربما دون أن يفكرا في ذلك، كنسخة احتفالية من بيت بارانكيلا الذي تظهر من نواقذه، في الجهة الأخرى من الشارع، المقبرة المكتبة، حيث يرقم مبداردو باتشيكو. كانا محبوبيين وراضيين في كاتاكيا، ولكن حياتهما كانت خاضعة لسيادة مسقط رأسيهما، لقد تخدعة في أذواقهما، ومتفديتهما، وأحكامهما المسبقة، وأغلقا الأبواب أمام كل ما هو مختلف.

أقرب صداقاتهما كانت لبل أي شيء، هي التي تأتي من المقاطعة. واللغة البينشية السائدة هي تلك التي جاء بها أبائهما من إسبانيا، عبر غزويلا، في القرن السابق. وأضفوا عليها الحيوية بكلمات وعبارات محلية كاريبية، وألصقة من العبيد، وتنف من لغة غواخيرا التي كانت تنسرب قطرة قطرة إلى لغتنا. وكانت الجدة تستخدم تلك العبارات لكي تضللي، دون أن تدري أنني أفهمها بصورة أفضل، بسبب تعاملتي المباشر مع الخدم. وما زلت أتذكر الكثير من تلك العبارات، أنونكشي، أنا نفس، خاصر سابيتشي تايلا، أنا جائع، إيمونوس، المرأة المحبلى، أريغرانو، الغريب. وهذه الكلمة الأخيرة اعتادت جدتي أن تستخدمها للإشارة بطريقة ما، إلى الإسباني، والرجل الأبيض، وإلى الصغر في نهاية المطاف. وكان القواخيريون من جانبهم، يتكلمون دائما نوعاً من القشتالية الحالية من العظام، مع مصطلحات مشبعة، مثل لهجة الخادمة تشون، التي تتميز بدقة في التعهد إلى حد محبب، مما دفع جدتي إلى منعها، لأنها تجعل السامع، دون مفر، إلى تخيل مبالغ، كقولها: "شفتنا الفم"، مثلاً.

لم يكن اليوم يكتمل ما لم تصل الأخبار عن ولد في بارانكاسيا.

وكم من الأشخاص قتل الشور في حظائر فونسيكا، ومن تزوج في سانابودي أو توفي في ريوهاتشا. وكيف طلع الصباح على الجنرال موكاراس الذي كان بحالة خطيرة في سان خوان دي نيمر. لقد كان يباع في مخزن شركة الموز، بأسعار الأوكازيون، نفاح كاليغونيا ملفوناً، يوفى حميد، وأسماك متحجرة في الثلج، وجامبون غاليبيسا، وزيتون اليونان. ومع ذلك لم يكن هناك ما يؤكل في البيت، ما لم يكن متبللاً بمرق الحنئين، لفلفل الحما، يجب أن يكون من ريوهاتشا، وذرة خبز الفطور يجب أن تكون من فرنسيكا، والجديان يجب أن تكون قد رُبّت على ملح غواخيرا، والصلاح وجرد البحر تأتي حرة من ريويا.

وهكذا فإن معظم الزائرين الذين يأتيون يومياً، في القطار، يكونون فاديين من بروينشيا (المقاطعة) أو مبعوثين من أحد هنالك. وتكون لهم على الدوام الكتي نفسها: آل رياسكور، آل نوغيرا، آل أرفايه، مع نقاط زيجات مع آل كوتيس أو آل إغرانان. يأتيون عابرين، وليس معهم سوى حقيبة مملئة بالكاف، وبالرف من أنهم لا يعانون صعباً عن زيارتهم، إلا أنه كان معروفاً أنهم سيبتون لتناول الغذاء. ولم أنس قط، العبارة شبه الطقوسية التي كانت ترددها الجدة لدى الدخول إلى المطبخ، "يجب تحضير كل شيء.. لأننا لا نعرف ما الذي يروق لمن سيأتون".

كانت روح الهروب الدائم تلك، تستند إلى واقع جغرافي. فقد كانت بروينشيا تتمتع باستقلالية عالم خاص، وبوحدة ثقافية متساكنة وقديمة، في وادي خصب بين جبلي سييرا نيفادا دي سالتا ماروتا وسييرا دل بيريتا، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وكان اتصالها بالعالم أسهل من اتصالها ببقية أنحاء البلاد، ذلك أن حياتها اليومية تضحد،

بصورة أفضل، من خلال حركة التجارة السهلة مع جامايكا وكوبا و
وتكاد تختلط بفنزويلا عبر حدود برامات مفتوحة، لا تميز فجها بين
المقامات الاجتماعية أو الألوان. أما من داخل البلاد التي كانت تطهى
على نار هادئة في مرقها بالذات، فلا يكاد يصل سوى صدى السلطة،
القوانين، الضرائب، الجنود، الأخبار السيئة التي تفرخ على ارتفاع أفيين
وخمسمة متر، وعلى بعد ثمانية أميال من الإبحار، عبر نهر مجدليا،
في سفينة بخارية تقذف على الخط.

تلك الطبيعة الجزيرية المعزولة، أجهت ثقافة واحدة ذات طبيعة
خاصة، فرضها الجدان في كاناكا. فالبيت كان قرية أكثر مما هو منزل.
إذ هنالك على الدوام عدة ورديات على المائدة. ولكن دور أول شخصين
كان مقدساً. عد بلغت الثالثة من عمري الكولونيل على رأس المائدة
وأنا على الزاوية التي إلى يمينه. وبقية الأماكن يشغلها الرجال أولاً، ثم
النساء بعد ذلك، ولكن منفصلين بعضهم من بعض. وكانت هذه القواعد
تُكسر خلال احتفالات العيد الوطني في العشرين من تموز. وتتميز
ورديات تناول الغداء إلى أن يأكل الجميع. أما في الليل فلا يجري
إعداد المائدة، وإنما توزع لتأمين لهوة بالحليب في المطبخ، مع حلويات
المعدة الشهية. وعندما تُغلق الأبواب، يعلق كل واحد أرجوحة نومه أيضاً
استطاع، على مستويات متعددة، وحتى بين أشجار الفناء.

إحدى أكثر فانتازيات تلك السنوات جموعاً، عشتها يوم حضرت
إلى البيت جماعة رجال، بملابس وطماغات ومهايمز فرسان مشاهبة.
وقد رُسم على جباههم جميعاً صليب بالمرصاد. إنهم الأبناء الذين أنجبهم
الكولونيل على اعتماد أراضي برونشيا. خلال حرب الألف يوم. وقد

جاءوا من قراهم لتهنئته بعيد ميلاده، متأخرين أكثر من شهر على
الموعّد. وقبل أن يمشروا إلى البيت كانوا قد استمعوا إلى قناس أنباء
الرماد. وبدا لي الصليب الذي رسمه الأب أنفوساً على جباههم شعاراً
خافاً سيلاحتي قصوره طوال سنوات، حتى بعد أن تألفت مع طقوس
أسرع الألام المقدس.

لقد ولد معظمهم بعد زواج جدي، فكانت الجدة حيناً تسجل
أسماءهم وكنياتهم في دفتر ملاحظات، منذ أن تعلم بميلادهم. وتنتهي
بتسامح سهل إلى حشهم، من كل قلبها، إلى عداد الأسرة. ولكن لم
يكن بإمكانها أو بإمكان أي شخص آخر، أن يميز بينهم قبل تلك الزيادة
الصاخبة التي كشف فيها كل واحد منهم عن طريقته في التميز. كانوا
جديين ومجتهدين، أرباب بيوت، وأبناء صالين، ولكنهم لا يخشون مع
ذلك فقدان رؤوسهم في دوار حفلات اللهو والسكر. كسروا الأطباق،
ونفثوا الورد وهم يطاردون عجلاً للعب معه بوشاح المصارعة، ولعلوا
الدجاجات بالرصاص من أجل طهر السانكوتشر، وأطلقوا خنزيراً مكبلاً
بالشحم اصطدم بالنساء اللواتي يطرزن في الممر. ولكن أحداً لم يأسف
لذلك الأضرار، بسبب عاصفة السعادة التي حطرتهم معهم.

واصطت اللقا بكثرة مع استبيان كارنو، نوم العمة إلغيرا البارح
في فنون الحرف اليدوية، الذي كان يسافر ومعه صندوق عذّة ليصنع
المعروف بإصلاح أي عطل في البيوت التي يزورها. وقد ملأ بزواجه المرح
وذاكرته المجددة، غراغات كثيرة من تاريخ الأسرة بدأ لي الحصول عليها
عصياً. وترددت بكثرة في مراقبتي كذلك، على خالي نيكولاس
غوميت، ذي الشقرة البكيفة والنمش الأحمر. وقد حاول على أحسن

وجه على مهنته الجيدة، كصاحب حانوت في مستوطنة سجن فونداثيون القديمة، ولتأثره بسمعتي كعالة ضائعة ومبتوس منها. كان يحفظني عند الوداع، كيس سوق يتضمن مقونة جديدة من أجل مواصلة الرحلة. وكان رائحته آرياس بأني دوماً بصورة عابرة، ومستجملة، على متن بافلة وبلايس ركوب الخيل. ويكاد لا يبقى لوقت أطول من تناول القهوة، وهو والف في المطبخ. أما الآخرون فالتفت بهم متفرقين، في وحلات الحنين التي لمت بهما في ما بعد في قرى بروينشبا، لكي أكتب رواياتي الأولى. وكنت أمن دوماً إلى صليب الرماد على جباههم، كعلامة فارقة مؤكدة لهويتهم الأسرية.

بعد سنوات من موت المجهدين وهجر البيت الفخم، ذهبتُ إلى فونداثيون في قطار الليل، وجلس في محل بيع المأكولات الوحيد المفتوح في تلك الساعة في المحطة. لم يكن قد تبقى لديهم إلا الفطير لتقدمه، ولكن صاحبة المحل أعدت على عجل طبقاً جيداً عني شرفي، كانت امرأة مرحة وخدموا. وفي مركز تلك الفضائل الأنيقة، لمحتُ طبع نساء قبلتنا القوي. وقد تأكدتُ من ذلك بعد سنوات: فصاحبة المطعم الجميلة هي سارا نورينا، خالة أخرى من خالاتي المجهولات.

أبولينار، العبد الصغير القديم، وصتين البنية الذي تذكرته على الدوام كخال لي، اختفى من البيت طوال سنوات عديدة. وفي مساء أحد الأيام، عاد للظهور دون سبب، مرتدياً ملابس جناد: بقعة من الجوخ الأسود ولبحة ضخمة، سوداء اللون أيضاً، وغاطسة في رأسه حتى عينييه الصموتين. وقد قال لدى مروره في المطبخ إنه أت من أجل الجنازة. لكن أحداً لم ينهضه حتى اليوم التالي. عندنا وصل الحرس بأن

الجند قد مات للتو، في سائنا مارنا. وكان قد نُقل إليها بصورة مستعجلة ومتكئة.

الشخص الوحيد منهم الذي حقق شهرة عامة، هو أكبرهم جميعاً والمحاظف الوحيد بينهم، خوسيه ماريا بالديلاتكيت، الذي صار عضواً في مجلس شيوخ الجمهورية، خلال حرب الألف يوم. وحضر بصفته هذه توقيع استسلام الليبراليين في مزرعة نهريلانديا القريبة، ومقابله، في جانب المهزومين، كان يجلس أبوه.

أظن أنني مدين بجزء طريقي في الحياة والتفكير، لنساء الأسرة ونساء الخدمة الكثيرات اللواتي رعين طفولتي. لقد كن يمتصن بكرة الشخصية وطبقة القلب. وكُن يعاملنني بنلقانية الفردوس الأرضي. وبين الكثيرات اللواتي أنذكرهن، كانت لوثيا هي الوحيدة التي فاجأتني بخيبتها الصبياني. عندما أخذتني إلى زقاق الضفادع، ورفضت ثوبها حتى الحصر لتكشف لي عن شعر عانيتها النحاسي المنفوش، غمر أن ما شد انتباهي هو لطخة الثوباء ذات البقع الحمراء المستدة على بطنها مثل خريطة العالم، يكتيان بنفسجية ومحيطات صفراء. أما الأضرحة لم يكن يبدو ملائكة طاهرة؛ فقد كن يبدلن ملابسهن أمامي، ويحسبنني بينما هن يستحممن، ويجلسنني على مبولتي ويجلسن على مباولهن قبائلي. لكني بفضل أسرارهن، وأحزانهن، وأحقادهن، كما لو أنني لا أفهم، ودون أن يتسبهن إلي أنني أعرف كل شيء. لأنني كنت أرى أطراف المحيط التي يتركها لي عن أنفسهن مقلنة.

كانت تشون واحدة من الخدم ومن الشارع. جاءت من بارانكاس مع المجهدين، وهي لا تزال طفلة، وقد تفرغت في المطبخ، ولكن مندوجة في

الأسرة، وكانت المعاملة التي تلقاها، هي معاملة خالقة ووصيفة مرافقة، منذ أن قامت بالرحلة إلى برويشبا مع أمي العاشقة. وقد انتقلت في سنواتها الأخيرة إلى حجرة خاصة بها، في أفقر أحياء القرية، برغبة حليمة منها. وكانت تعيش هناك على بيع كرات من الزرة المطعونة لصنع الحيز. وتفضل ذلك في الشارع، منذ الفجر، ونها - صار مألوفاً في صمت الصباح الباكر: "كرات عجيب العجوز تشون المفلجة".

كان لها لون هندية جميل. وقد بدت على الدوام كما لو أنها مجرد عظام. وكانت تغطي حافية القدمين، معصرة عمامة بيضاء، ومكتحفة بملامح منبشة، تمشي ببطء شديد في وسط الشارع، براحتها موكب كلاب وديعة وصامتة، تدير من حولها في تقدمها. وقد انتهى الأمر بضمها إلى فولكلور القرية. وظهر في أحد الكرنفالات من تنكر في هيئة مطابقة لها، بملامحها ونداتها. ولكنه لم يتمكن من ترويض كركبة كلاب مثل كلابها. وقد صار نداها على العجيب المبالغ شعبياً، إلى حد التحول إلى موضوع أغنية لعاز في الأكوارد يونات الجوالين. وفي صباح يوم مشرق، هاجم كلبان مسمران كلابها، فهاجمت تلك الكلاب من نفسها بضراوة، وقمت معها تشون أرضاً، وكسر عموها الفقري. ولم تستطع تجاوز إصابتها تلك، على الرغم من الإمكانيات الطبية الكثيرة التي ولها لها جدي.

ذكرى كاشفة أخرى من تلك الأزمنة، هي ولادة ماتيلدي أرويننا، الفسالة التي اشتغلت في البيت عندما كنت في حوالي السادسة من عمري. فقد دخلت خطأ إلى غرفتها ووجدتها عارية ومنفرة الساقين، على سرير من الكتان، تولوله من الأم وسط غصبة من القابلات، توزعن

جسدها دون نظام أو دابة لمساعدتها على الولادة بإطلاق الصرخات. كانت إحسان قمع العرق عن وجهها بمنشفة مبللة، وأخريات يبتحن ذراعها وساقها، ولكن بطنها لتعجيل المخاض. وكانت سانتوس يبررو ثقفهم، وسط تلك الفوضى، بصلوات تنمتي برأ هادئاً، بينما هي تنهش. بعينين مضضتين، بين فخذي الولادة، كان الحز لا يطلق في الحجرة الفضة بالبخار المتصاعد من قنور الماء المظلي التي يؤتي بها من المطبخ. بقيت منزوية في أحد الأركان، موزعة بين الذعر والفصل، إلى أن أخرجت القابلة كتلة لحم حية مسوكة من كاحلها، مثل عجل وليد، ومعهما مصران دام يتدلى من السرة. عندئذ اكتشفت إحدى النساء وجودي في الركن، وسحبني خارج الحجرة.

- إنك في خطيئة ممتة - قالت لي ذلك، وأمرتن وهي تهر إصبعا متوهجا - لا تعد إلى تذكر ما رأته.

أما المرأة التي انتزعت براشي حفاً، بالمقابل، فلم تعتمد ذلك، ولم تعرف به قط. كانت تدعى ترينيداد، وهي ابنة أحد العاملين في البيت، وقد بدأت تتلصق في ربيع قاتل، لقد كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها لا تزال ترتدي ملابسها التي كانت لها وهي في التاسعة، فكانت ضيقة على جسدها إلى حد تبدو معه عارية أكثر مما لو كانت دون ملابس، وفي إحدى الليالي التي كنا فيها وحيدتين في الفضاء، انطلقت فجأة موسيقى جوفية في البيت المجاور، فصحبني ترينيداد للرقص هناك فوي الفتفت مع النفس، لست أدري ما الذي حل بها. ولكنها ما زلت حتى اليوم، أشتغل في منصف الليل مضطرباً عن الانفعال، وأنا أعرف أنه يمكنني التعرف عليها في الظلام.

من تلمس كل بوصة في بشرتها، ومن رائحتها المبهريّة. وفي لحظة واحدة، وحيث جسدي، بصيرة الفرائز التي لم أعد إلى الشعور بمثلها لطف، وإلى الأبد، وأتجهز على تذكّرها كحالة موت للبدن. منذ ذلك الحين، علمتُ بصورة غائبة وغير واقعية، بأن هناك سرّاً بعيد الغور لا أعرفه أنا، ولكنه يفلتني كما لو أنني أعرفه. أما نساء الأسرة، وعلى العكس من ذلك، فكنّ يكتدنتني على الدوام إلى وجهة العلة القاحلة.

وقد علمني فقدان البراءة، في الوقت نفسه، أن من يأتي لنا بالهدايا في عيد الميلاد، ليس الطفل يسوع، ولكنني كنتُ حذراً من قول ذلك. وعندما صار عمري عشر سنوات، كشف لي أبي الأمر، كسر من أسرار الكبار، ولكنه كان يعتبر معرفتي به أمراً واقعاً. ولد أخفني إلى منابر ليلة الميلاد، لأختار أنعاباً ودمى لأخوتي، وحدث لي الشيء نفسه مع سرّ الولادة، لعل أن أحضر ولادة مارتيني أوجيتا، كنتُ أفتنق بالضحك عندما يقولون إن طائر اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال من باريس. إلا أنه لا بد لي من الاعتراف بأنني لم أتوصل، سواء الآن أو في الماضي، إلى ربط الولادة بالجنس. وعلى أي حال، اعتقدُ أنه يمكن لعلاقتي المحسمة بالخدم، أن تكون الأصل في خبط تواصل سري، أهن أنني أمتلكه مع النساء، أتاح لي على اعتداد حياتي الشعور بالراحة والأمان بينهن أكثر مما أشعر بهما بين الرجال. ويمكن أن تكون قد أتت من هناك أيضاً فتاعتي بأنهن هن عماد حماية العالم، بينما نشيح، نحن الرجال، فيه الموطئ بهمجيتنا التاريخية.

لقد كان لسارا إميليو ماركيز، دون أن تدري ذلك، بعض العلاقة بقدرتي. فحسب صباها، كان المترودون يلاحقونها دون أن تتنازل بالنظر

إليهم. ثم حسمت أمرها مع أول شخص بدأ لها متأسباً، وإلى الأبد. كان هناك شيء مشترك بين الرجل المختار وأبي؛ فهو غريب لا يعرف أحد من أين جاء ولا كيف جاء، يسجل حياة نظيف، ولكن بلا موارد معروفة. كان اسمه خوسيه دل كارمن أوديس بيرخيل، ولكنه يقصر توقيمه أحياناً على "خ"، دل لك، "وقد سرّ بعض الوقت، لسهل أن نحرف من هو في الحقيقة، ومن أين أتى، إلى أن عُرف ذلك من خلال الخطابات التي يُكلف بكتابتها للموظفين الحكوميين. ومن خلال أشعار الحب التي ينشرها في مجلته الثقالية الخاصة، التي كان صدورها يعتمد على مشيئة الرب، منذ أن ظهر في البيت، أصبحت بتقدير كبير تشهرته كمكاتب. وهو أول كاتب تعرّف عليه في حياتي. وقد رغبت على الغور في أن أكون مثله. ولم أشعر بالرغوى إلا بعد أن تعلّمت الحالة مبهمي تسريع شعري، على طريقته.

كنتُ أول شخص في الأسرة يعرف بأمر غرامياته السرية. عندما دخل في إحدى الليالي إلى البيت المقابل، حيث كنتُ ألبس مع بعض الأصدقاء، فاستدعاني جانباً، وهو في حالة من التوتر الواضح، وأعطاني رسالة موجهة إلى سارا إميليا. كنتُ أعرف أنها جالسة عند باب بيتنا، تبادل الحديث مع صديقة زائرة، اجتزت الشارع، واخفيت وراء إحدى أشجار اللوز، ولذبت الرسالة بدقة سقطت معها في حضنها. رفعت يدها مذعورة. ولكن الصرخة بقيت مكتومة في حنجرتها، عندما تعرّفت على الخط المكتوب على الملفف. وقد صارت سارا إميليا و"خ" دل لك، صديقي، منذ ذلك اليوم.

كانت إلفيرا كارثو، الشقيقة الثوم للخال إستيبان، تلوي وتعصر

عود فحسب سكر يديها، وتستخرج عصاراته بقوة محصرة زيت، وكانت مشهورة بصراحتها الفظة، أكثر من شهرة وقتها في تسمية الأطفال، وبخاصة أخي ليرس إترهكي، الذي يهزني بسنة فكانت المتواظفة معه وميدته في الوقت نفسه، وقد عثدا باسم الحالة "يا" التي لا يمكن سير أغوارها، كانت متخصصة على الدوام، بالمشكلات المستحيلة، وكانت هي وإستيبيان، أول من جاء إلى البيت في كاتاكافا، ولكن بينما وجد هو طريقه في كل أنواع المهن والصفقات المشمرة، ظلت هي الحالة التي لا غنى عنها في الأسرة، دون أن تدرك قط أنها كذلك. كانت تختفي عندما لا تكون لمة حاجة إليها. أما عند الحاجة إليها، فلا يعرف أحد أبداً كيف، ولا من أين تخرج، في لحظات نحبها، تتكلم وحدها، بينما هي تحرك القدر. وتكشف بصوت عال، أين هي الأشياء التي اعتبرت ضائعة. بقيت في البيت، بعد أن انتبهت من دلفن الكيار، بينما الأجمة تلهم المكان شهراً فمشراً، والحيوانات تطوف في حيرات النوم، مشوشة منذ منتصف الليل بسمال عما وراء القبر في الحجرة المجاورة.

فرانيسكا سيمودوسيا - العمة ماما - جنة القبيلة التي ماتت عذراء، وهي في التاسعة والسبعين، كانت مختلفة عن الجميع بعاداتها وبخسها، فتفاسيتها لم تكن ثقافة برومينشيا، وإنما ثقافة الغردوس الإقطاعي في سهول مقاطعة بوليغار، حيث كان أبوها خوسيه ماريا مينخيا بيدال، قد هاجر منذ شبابه المبكر أتياً من ريوغاتشا بفنونه في الصياغة. تركت شعرها السمكة الداكن، الذي قاوم الشيب بعد تقديعها في الشبخوخة، ينمو حتى عرتويها. وكانت تفصله مرة كل أسبوع بما، خلاصات الأعشاب، ثم تجلس لتسرحه عند باب حجرتها، في طقس

مقدس يستمر عدة ساعات، مستهلكة دون توقف، لغائف تيج خشن، تدخنها معكوسة، بوضع الطرف المشتعل داخل فمها، مثلما كان يفعل رجال جيوش التحرير، كيلا يكشف العدو وجودهم في ظلام الليل. كما أن طريقتهما في اللبس كانت مختلفة أيضاً، فهي ترتدي تنويرات، وصدارات دون أكمام من الكتان الخالص، وتنعل أخفافاً من المخمل. وعلى خلاف تصف الجدة الاصطفائي في الكلام، كان لسان العمة ماما هو الأكثر طلاقة في رطانة اللهجة الشعبية. ولم تكن تخفي ذلك أمام أي كان أو في أية ظروف، فهي تعلن الحقائق لكل واحد في وجهه. من في ذلك إحدى الزاهيات، وهي معلمة أمي في مدرسة سانتا مارتا الداخلية، فقد أوقفتها عند حدها بوقاحة سوية: "أنت من يغلطون بين طيرهم ومواسم الصيام". ومع ذلك، كانت تندبر الأصور على الدوام، بحيث لا تبدو قلقة ولا مهينة.

كانت خلال نصفه حياتها، أمينة مفاتيح القبيرة، تقبذ وتصدر شهادات الرقاة، وتصنع في البيت خبز القران من أجل الفداس. وكانت الشخص الوحيد، من أي جنس، في الأسرة، التي لم يفترق قلبها، كما يبدو. أسي غرام مرفوضي. وقد وعينا ذلك في إحدى الليالي، عندما كان الطبيب بعد العدة لفحصها بالتسمع إلى نحبها، فبنته جبر لم أقهه آنذاك: "أريد أن أنبهك بما دكتور إلى أنني لم أعرف رجلاً قط". وقد بقيت أسعها، منذ ذلك الحين، تقول ذلك بكثرة، ولكنني لم ألاحظ قط أنها تشر بالفخر أو التندم، وإنما تقوله كأمر واقع لم يخلف أي أثر في حياتها. وكانت بالمقابل، خطبة وساعية زواج داهية، لا بد أنها عانت من لعبتها المزوجة بإعداد صندع والدي، دون أن تتدخل عن رغبتها للجنة ميتا.

لدي انطباع بأنها كانت تتفاهم مع الأطفال، أكثر من تفاهها مع الكبار. وكانت هي من تولت أمر سارا إيجليا، إلى أن انشغلت هذه إلى لفرة كتبها نصص كأيضا المصورة. عندئذ احتضنتني أنا وصرغيتا بدلا منها، مع أن الجدة أصلت الاهتمام بأمر تطافتي الشخصية، وتولى الجد أمر تكويني كرجل.

أكثر ذكرياتي إثارة للقلق، في ذلك الزمن، هي ذكرى العسة بيترا، أخت الجد الكبرى، التي جاءت من يوهانسا لتعيش مع الجددين عندما فقدت بصرها. كانت تقيم في الحجرة الملاصقة لغرفة المكتبة، حيث أقيمت ورشة الصباغة فيما بعد. وقد طوّرت مهارة حرة لكي تتحرك في ظلماتها دون مساعدة من أحد. مازلت أتذكرها كما لو أن ذلك حدث بالأمس، فهي دون عكاز وكأنها تمشي بعينها. بطيئة ولكن دون تردد، وتقود نفسها عن طريق مختلف الروائح وحسب. فهي تعرف حجرتها من رائحة حمض الليمون وكلوريد في ورشة الصباغة المجاورة. والخمر من عطر ياسمين الحديقة، وصندع الجددين من رائحة كمحول الحليب الذي يستخدمه كلاهما لتدليك جسديهما قبل النوم، وحجرة العسة ماما من رائحة الزيت في مصابيح المذبح، وفي نهاية المسر، هناك رائحة المطبخ اللذيذة. كانت محشوقة القشور وقليلة الكلام، لها بشرة أزهار سوسن داوية، وشعر مشع بلون الصدف تتحرك عندئذ حتى خصرها، وتوشلي هي نفسها العناية به. حذقتها الخطراون والصابونتان كمعني مراهقة، بتبدل ضروها مع تبدل حالتها المعنوية. ولكن خروجها كان عابرا وعرضيا على أي حال، ذلك أنها كانت تبقى طوال اليوم، في حجرتها يبابها الموارب، ووحيدة على الدوام تقريبا. كانت تغني لنفسها

حسباً في بعض الأحيان. ويمكن الخلط عندئذ بين صوتها وصوت الجدة مينا. ولكن أغانيها كانت معقدة وأشد حزناً. وقد سمعتها تقول لأحدهم إنها أفتيات حب من يوهانسا، ولكنني عندما كبرت فقط، عرفت أنها كانت ترجمها، هي نفسها في الواقع هناك باللمات، بينما هي تغنيها. لم أستطع كبح نفسي في مناسبتين أو ثلاث من الانتقاد لإغراء الدخول إلى حجرتها دون أن ينتبه إلي أحد، ولكنني لم أجدها. بعد ستوات من ذلك، خلال إحدى إجازاتي، في مرحلة الدراسة الثانوية، رويت تلك الذكريات لأمي، فسارعت إلى إلتاعي بخطتي. وقد كانت حجتها مطلقة الصحة، واستطعت التأكيد منها، دون أي رصاد شلل: فالعمة بيترا ماتت قبل أن أكمل السنة الثانية من عمري.

كنا نطلق على العمة وينفيرا اسم نانا، وكانت أكثر نساء القهيلة مرحاً ولطفاً. ولكنني لا أستطيع تذكرها، إلا وهي على فراش مرضها. كانت حنوزجة من رافائيل كينتيرو أورتيغا - العم كينتي - محامي فقراء مولود في تشي. على بعد حوالي خمسة عشر فرسخاً من يوهانسا، وعلى الارتفاع نفسه عن سطح البحر. ولكنه تكيف على أحسن وجه مع منطقة الكاريبي، حتى إنه كان يحتاج في حجم كاتاكيا، إلى زجاجات ماء ساخنة عند قدميه، لكي ينام في برودة كانون الأول. كانت الأسرة قد استعادت توازنها من محنة مبادرو باتشيكو، عندما اضطر العم كينتي إلى تحمل معاناة محتنة. بعد إقذامه على قتل محامي الخصم في نزاع قضائي، كانت له هيئة رجل طبيب ومسال، ولكن الخصم ضايقه دون هوادة. ولم بعد أمامه من مفر سوى التسليح. لقد كان ضيقاً جداً وعظيماً نجلاً. ينتحل أحذية طفل، وأصدقائه يسخرون منه بمجدة، لأن

المسحس كان يبرز منه كما لو أنه يحمل مدفعاً تحت قميصه. وقد طره الجذبة جداً بعبارة الشهيرة: "أنت لا تعرف ثقل الغم الذي يخلفه قتل". ولكن الغم كبنتي لم يجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك عندما اعترض العدو طريقه بصرخات هستيرية، في قاعة الانتظار في المحكمة، ثم انقض عليه بجسده الضخم. "لم أدر كيف أخرجت المسحس وأطلقت النار في الهواء،" بكنا يدي. "وبعيني مغمضتين". هذا ما قاله لي الغم كبنتي، قبل قليل من موته عن مئة سنة. وروى لي: "عندما فتحت عيني، رأيت لا يزال منتصباً على ساقيه، خلعاً وشاحاً؛ ورأيت كيف راح يهوي ببطء شديد، إلى أن خرَّ جالساً على الأرض". لم يكن الغم كبنتي قد أدرك، حتى تلك اللحظة، أنه قد أصابه في منتصف جبهته، سألته عما أضر به عندما وآه يهوي، وقد فاجأني صراخه:

- أحسّت براحة عظيمة!

ذكرائي الأخيرة عن زوجته ونظرها، هي في ليلة أمطار عظيمة، عزمت عليها فيها امرأة مشعوذة. لم تكن ساحرة عادية، وإنما امرأة لطيفة، حاملة الظهر وترتدي ملابس دارجة، تطرد بهرق من نبات القراص العليل من الجسد، بينما هي تغي نغمة تشبه الأغنيات المهددة. ولجأة، تلوت نائناً بتشجيع اختلاجة صبيحة، وأغلت من بين ملايات سريرها عصفوراً بحجم فرخ دجاج له ريش لامع، التفتظه المرأة من الهواء - بضربة بارعة من يدها، ولقعه بخرفة سرداء، جاهزة معها. ثم أمرت بإشعال محرقة في الفناء الخلفي. وألقيت بالمصفور بين ألسنة اللهب، دون أي طقوس أخرى. ولكن نائناً لم تشف من عطلها.

بعد قليل من ذلك، أعيد إشعال محرقة الفناء، عندما وضعت

دجاجة بيضة عجيبية تشبه كرة بونغ بونغ. لها زائدة مثل التي في أعلى قبة الثورة الفرنسية. وقد تعرفت عليها جنتي فوراً: "إنها بيضة الغم صانعة". وألقيت بها بنفسها إلى النار وهي تفطم بتراتيل رقيقة.

لا أستطيع أن أتخيل جذي في من غير تلك التي هما عليها، لي ذكرياتي عن تلك المرحلة. وهي الحقبة نفسها التي التفتت لها فيها صور في مستهل شمع خرفتها. وقد جرى تناقل نسجها التي تزداد شعوباً عبر أربعة أجيال من ذريتهما، كطقس ليلي، وبخاصة صور المدة ترانكيلا. أسرع النساء اللواتي عرفتهن تصديقا وقابلية للتأثر، بسبب اللعبر الذي كانت تسببه لها أسرار الحياة اليرغمية الغامضة. لقد كانت تحاول بث البهجة في أعمالها، بالفناء بأعلى صوته الهرم، أغنيات عاشقين. ولكنها تقطعها فجأة بصرخة الحرب التي تطلقها ضد القدر:


- يا قديسة مريم الطاهرة!

فقد كانت ترى أن الكراسي الهزازة تهتز وحدها، وأن شبح حمى التفاس، قد تسلك إلى حجلات الولادات، وأن رائحة شجيرات ياسمين الحديقة هي شبح غير مرئي. وأن جلاً ملئ على الأرض كلفها اتفاق، له شكل لزكم يمكن أن تريح المجازاة الكبرى في البانصيب. وأن طائر بلا عيون، قد حلق داخل غرفة الطعام ولن يستطيعوا إخراجه إلا بترتيل (التعطبة) مشناة. وتعتقد بأنها تحمل برمز سرية هوية أبطال وأماكن الأغنيات التي تصل من برويتها، كانت تتصور كوارث متقع عاجلاً أو

(١) أنفي صانعة *Basilio*، أنفي خروبة يمتد بأنها تبت بمنظرها.
(٢) الشظية *Magnifico*، تشبه توجهت به مريم المذراء إلى الرب عندما زارت نسيها إيزابيل. ويخفي هذا التشديد صلالة في صلالة المساء، عشية عيد الميلاد، وهو واده أي الإسحاح الأول من إنجيل لوقا (٢٤ آيات ١٦ حتى ٥٥).

أجلاً. ومهندس من الذي سيأتي من ريوهاتشا بقبضة يدها. أو من ماناوري، مصاباً بمقص لن يشفى منه إلا بمراة نسر رجمة. إذ إنها كانت مداوية سريعة، فضلاً عن كونها معتبرة في المهنة.

كان لديها نظام خاص جداً لتفسير أحلامها وأحلام الآخرين التي تحكم السلوك اليومي. لكل واحد منها، وتقرر مسار حياة البيت. ومع ذلك، فقد أوشكت أن تموت دون نبوءات أو نظرو، عندما أزاحت جاتياً في أحد الأيام ملامات سرورها دفعة واحدة، وأطلقت رصاصاً من المسدس الذي كان الكولونيل يخفيه تحت الوسادة، ليكون في متناول يده. وهو نائم، ومن خلال مسار الطفلة التي انتحرت في السقف، تبين أنها قد عرت قريباً جداً من وجه الجدة.

لقد عانيت، منذ صارت لي ذاكرة، من التهذيب الصباحي الذي كانت تُفرضُ به علينا أسناني، بينما هي تستمع بالاعتياز السحري بنزع أسنانها. لنفصلها وتضعها في كأس ماء لي أثناء نومها، ولتنامعي بأنها أسنانها الطبيعية التي تنزعها وتضعها، متى شأحت، بفنون سحر غواخيرية. طلبت منها أن ترشي جوف لمسها، لكي أرى كيف هو من الداخل  الصين، والدماغ، والألف، والأذنين، وعانيت خيبة أمل عدم رؤية أي شيء سوى سقف الحلق. ولكن أحداً لم يمسح لي أعجوبة الأسنان. وقد ألححت لوقت طويل على أن يفعل لي طبيب الأسنان مثل الجدة، لكي تُفرض لي أسناني بينما أنا ألعب في الشارع.

كان لدينا نوع من الشيفرة السرية، نتواصل خلالها بمساطرتها مع كون غير مرئي. في النهار، يبدو لي عالمها السحري أخاذاً، ولكنه في الليل يسبب لي رعباً خالصاً وبسيطاً: الخوف من الظلمة، السابق

لوجودنا، الذي طاردني طوال الحياة، في الدروب المقفرة، وحتى في أوكار الرقص في العالم بأسره. لقد كان لكل قديم في بيت الجددين حجرته، وكل حجرة لها مبتها. ولكن البيت الوحيد المعروف باسم البيت الميت هو المجاور لبيتنا. وميته هو الوحيد الذي عرف بنفسه، في إحدى جلسات استحضار الأرواح، باسمه الأدمي: ألفونسو مرزا. وقد كلف أحد القرين منه نفسه مشقة القصص عنه في سجلات التصعيد والوليات، فوجد عديدين بهذا الاسم نفسه. ولكن أياً منهم لم يكشف عما يشير إلى أنه رجلنا. لقد كان ذلك البيت خلال سنوات منزلاً للخروري، وقد ازدهرت الإشاعة القائلة إن الشبح هو الأب أنفارتا نفسه، يظهر لكي يهدد الفضوليين الذين يتجسسون عليه في جولاته الليلية.

لم أتوصل إلى التعرف على ميمي، الجارية الغواخيرية التي جأت بها الأسرة من بارانكاس. وهرت في ليلة عاصفة مع ألييرو، أخوها المراهق. ولكنني كنت أسمع على الدوام أنهما من لطفنا كلام البيت بمفردات من لغة السكان المحليين. لقد كانت قسنا لينا العريضة منار دهشة الشعراء. منذ ذلك اليوم التاريخي الذي وجدت فيه عملة الكبريت التي أضاعها المخل خزان دي ديموس، فأعادتها إليه برطانة انتصارية، - هأتنا، كبريتك.

من الصعب تصديق أن الجدة معنا، مع نساها الساهيات، كن عماد اقتضاء البيت عندما بدأت الموارد تنضب. كان الكولونيل يملك أراضي متفرقة احتلها مستوطنون من الكانتاشاكور، ورفض هو طردهم منها. واضطر في لحظة ضيق، من أجل إنقاذ شرف أحد أبنائه، إلى رهن البيت في كاتاكوا. وكلفه عدم فقده ثروة كبيرة. وعندما لم يعد هناك أي

شيء. وأصلحت مينا إحصالة الأسرة بقوة عملها في الخبز، وحيوانات
السكاكر التي كانت تباع في القرية كلها. والدجاجات متعددة الألوان،
وبعض البط، وخضار الفناء الخلفي. قامت بتقليص جذري في عدد
الخدم واستيقظ أكثرهم غائبة. وانتهى الأمر بالمال نقداً إلى غفطان معناه،
في تقاليد البيت الشفوية. حتى إنهم عندما أرادوا شراء جهاز بيانو
لأمي، بعد عودتها من المدرسة، أجرت العمة "با" الحساب الدقيق بالنقد
المزلي: "ثمان الببانو خمسة بضعة".

وسط تلك الكثيفة من النساء اللاتجهليات، كان الجد هو الأمان
الكامل لي. نعمه فقط بثلاثي النطق، وأشعر بأن قدمي على الأرض.
وأنتي مستقر تماماً في الحياة الواقعية. والفرح. وأنا أفكر في الأمر
الآن، هو أنني كنت أرغب في أن أصبح مثله. واقمياً، شجاعاً، واثقاً
بنفسي. ولكنني لم أستطع قط أن أقاوم الإغراء النائم في الإطلال على
عالم الجدة. إنني أتذكره بدهشة ومنفرداً مع قليل من الشيب في رأسه
اللامع، بشارب كأنه لرشاة، حسن التشذيب، ونظارة مدورة ذات إطار
ذهبي. كان متمهلاً في كلامه، متفهماً، ومسالماً في أوقات السلم.
ولكن أصدقاء المحافظين يتذكرونه كعدو مرهوب في النزاعات الحزبية.

لم يستخدم زياً عسكرياً قط، لأن رتبته كانت ثورية. وليمست
أكاديمية. ولكنه إلى ما بعد الحرب بكثير، ظل يرتدي المنتزة متعددة
الجيوب، التي شاع استخدامها بين محارب الكاربيس القدامى. ومنذ
صدور قانون متفاهدي الحرب، ملأ الاستثمارات اللازمة ليحصل على
تقاعد، وبقي هو وزوجته وورثته المقربون ينتظرون ذلك التقاعد حتى
الموت. جدتي ترانكيلينا التي ماتت بعيداً عن ذلك البيت، عمياً،

وهمة ونصف مجنونة، قالت لي في آخر لحظات صحتها: "ساموت
مطمئنة، لأنني أعرف أنكم ستلقون راتب نيكولاسيو التقاعدي".

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها الكلمة الأسطورية
التي زرعت. في الأسرة، بذرة الأوهام الأبدية، التقاعد. لقد دخلت
الكلمة إلى البيت قبل مولدي، عندما أغرت الحكومة تقاعد قديما
مقاتلي حرب الألف يوم، والجد شخصاً هو الذي أعد الملف، مع إفراط
في الشهادات المحلفة ووثائق الإثبات. وحملها بنفسه إلى سانتا مارتا
لتوقيع بروتوكول الاستسلام. ورفق أقل الحسابات تفالاً، كان المبلغ
كافياً له ولزوجته حتى الجيل الثاني. وكان الجد يقول لنا: "لا تقلقوا،
فأمور التقاعد ستكون المصير". والبريد الذي لم يكن مستجلاً لط
في الأسرة، تحول منذ ذلك الحين إلى مبعوث العناية الإلهية.

أنا نفسي لم أفكر من لحظة الأمر، على الرغم من شحنة الارتباب
التي أحملها بداخلي. ومع ذلك، كانت ترانكيلينا تبدي، في بعض
المناسبات، مزاجاً لا يتناسب مع اسمها أهدأ^(١). ففي حرب الألف يوم،
سجين جدي في ريو هانشا، على يد ابن عم لها كان ضابطاً في جيش
المحافظين. وقد فهم الأقرباء الليبراليون، وهي نفسها، الأمر على أنه
عمل حربي لا نفع حياله لأي سلطة أسرية. ولكن عندما علمت الجدة بأن
زوجها يعامل في السجن كمجرم عادي، واجهت ابن عمها بغضب،
وأجبرته على تسليمها إياه، سليماً معافى.

عالم الجد كان مختلفاً إلى حد كبير، حتى في سنواته الأخيرة،
كان يبدو وافر النشاط. وهو ينتقل من مكان إلى آخر، حاصلاً صندوق

(١) اسمها ترانكيلينا يعني حادة.

صدته لإصلاح الأعطال في البيت؛ أو عندما يرفع ماء الحمام، طوال ساعات، إلى البراميل، بواسطة المضخة اليدوية في الفناء الخلفي؛ أو عندما يسلق السلم الشاق ليتأكد من كمية الماء في البراميل، ولكنه كان يطلب مني، بالمقابل، أن أقعد له رباط، خذانه لأنه يفقد أنفاسه عندما يحاول حمل ذلك بنفسه. وقد نجنا من الموت بأعجوبة، في صباح اليوم الذي حاول فيه أن يسلك البعيا - العمياء - التي صعدت حتى البراميل. كان قد تمكن من الإصالة بنفاتها، عندما زلت قدمه فجأة، فانزلق عن الجسر الصغير، وهوى على الأرض، عن ارتفاع أربعة أمتار. لم يستطع أحد أن يفسر كيف استطاع النجاة، بالتسعين كيلوغراماً التي يزنهما، وسنوات عمره التي تزيد على الخمسين. وكان ذلك اليوم هو يومي التاريخي الذي فحسه فيه الطبيب، شبراً شبراً، وهو عار في السرير، وسأله عن ندية ندية بطول نصف بوصة تقريباً. اكتشفها في أصل الفخذ. فقال الجدة:

« إنه أثر وصاصة في الحرب.

حتى الآن لم أشف من التأثير. مثلما لم أشف، بعد، من اليوم الذي أطل فيه إلى الشارع، من نافذة مكنته، لبري مرور حصان مشهور يريدون بعده، وفجأة أحس بامتلاء عينه ماءً، حاول حمايتها بيده فبقيت في راحته بضع قطرات من سائل شفافة، لم يفقد عينه اليسى وحسب، وإنما لم تسمح له جدتي كذلك بمشاهدة الحصان المسكون بالشیطان. استخدم لوقت قصير عصا لفرسان فوق محجر عينه الفاتمة. إلى أن استبدلها له طبيب العيون بنظارة حسنة المقاس، ووصف له عكازاً انتهى لأن يكون علامة مميزة له، مثل ساعة الجيب ذات السلسلة الذهبية، التي

كان غطاؤها يفتح بظفوة موسيقية. وقد كان معروفاً للملأ، على الدوام، أن غير السنوات الذي بدأ يفتقه، لم يخلق أي تأثير على نزواته، كمغفور سري وعاشق جيد.

في طقوس حمام الساعة السادسة صباحاً، الذي صار يستحمه معي على الدوام في سنواته الأخيرة، كنا نسكب الماء من الحوض على جسدنا بقرعة مفرقة، وننتهي إلى تضيق نفسينا بما، عطر فلورينا دي لاثان وكيميس الذي كان يهبهه مهربو كوراساو، ويوصلونه في صناديق إلى البيوت، مثل البراندي وشمعان الخمر الصينية. وقد سُمع، في إحدى المرات، يقول إنه العطر الوحيد الذي يستخدمه، لأن لا أحد يشمه سوى من استخدمه. ولكنه لم يعد يصدق ذلك، عندما تعرف أحدهم رائحته على وسادة غريبة. وقصة أخرى سمعته يكررها، خلال سنوات، هي قصة اللبلة التي انقطع فيها النور، فمسكب الجد على رأسه زجاجة حبر معتقداً أنه ماء عطر فلورينا.

من أجل الأعمال اليومية في البيت، كان يرتدي بنظلاً من القطن الخام، مع حائلتي المطاط الدائمتين، وحقاً خفيفاً ولينة من المخمل ذات واقية. ومن أجل قداس يوم الأحد، الذي لم يتخيب عنه سوى مرات قليلة، ولأسباب فاهرة؛ أو في أيام المناسبات المهمة والتاريخية، كان يرتدي بذلة كاملة من الكتان الأبيض، مع باقة من السيلوليد وربطة عنق سوداء. وهذه المناسبات القليلة هي السبب في شهرته بأنه مبدع ومزهر. الانطباع الذي أحفظ به اليوم هو أن البيت، بكل ما فيه، كان مجهوداً من أجله فقط؛ فقد كانت علاقة زواجه من النوع الذكوري النموذجي، في مجتمع أصومي، حيث الرجل هو المطلق في بيته، ولكن من

تحمكه هي المرأة. ويمكن القول دون مزيد من اللبس والفوران، إنه كان الذكر. هذا يعني: أنه رجل عذب الختان في جلساته المبهمة، ولكنه ينجمل من ذلك الختان أمام الأمل، بينما تحرق هي نفسها، لتجعله سعيداً. قام الختان برحلة أخرى إلى بارانكيّا، في الأيام التي جرى فيها الاحتفال بالثورة الأولى لموت سيمون بوليفار، في شهر كانون الأول ١٩٣٠. من أجل حضور ميلاد أختي عابلاً روسا، الراهبة في الأسرة. ولدى عودتهما إلى كاتانكا، أحضرا معهما مارغوت، وكان عمرها أكثر من سنة بقليل. وحتى مع أبوي لويس إنريكي، والوليدة الجديدة. وقد تكلفت مشقة كبيرة للاعتناء على التفسير، لأن مارغوت جاءت إلى البيت ككائن من حياة أخرى، رغبة وبرية، وذات عالم داخلي مغلق. عندما رأتها أبيخايل - والدة لويس كارميلو كوردا - لم تفهم لماذا تحمل جذبي مثل ذلك الالتزام. ولذا، هذه الطفلة محتضرة. ولكنهم كانوا يقولون الشيء نفسه عني، لأنني كنت قليل الأكل، ولأنني كنت أرضع، ولأن الأشياء التي كنت أرويها، تبدو هائلة، فيطنونها كغلياً. دون أن يفكروا في أن معضنها كان صحيحاً بطريقة أخرى. ولم أعلم إلا بعد سنوات طويلة أن الدكتور بارونسا هو الوحيد الذي دافع عني بحجة حكيدة: "أكاذيب الأطفال هي علامة موهبة كبيرة".

مرّ وقت طويل، قبل أن تستسلم مارغوت لألحاح الحياة الأسرية. كانت تمسك في الكرسي الهزاز لتعض إصبعها، في ركن لا ينظر على بال. لم يكن هناك ما يشد انتباهها. باستثناء - دقائق الساعة التي تبعث عنها كل ساعة، يمينها والكبيرتين، كمنهورة. لم يتمكنوا من جعلها تأكل، طوال عدة أيام. فهي ترفض الطعام دون دراماتيكية، أو ترمي به

أحياناً في الأركان. ولم يفهم أحد كيف تملأ حية دون أكل، إلى أن انتبهوا إلى أنها لا تحب سوى تراب الخديعة الرطب، ورفائق الكلس التي تنتزعها عن الجدران بأظفارها. وعندما اكتشفت الجدة ذلك وضعت مرارة يفر في أنفها أركان الهدفة، وخيات فلفل حاراً في أصص الأزهار. لقد عندها الأب أنفارتا في الطقوس نفسها التي صادق ليها على التعبد المنحجل الذي أجروه لي عند مولدي. وقد تلقيت مراسم العماد وأنا أقف على كورسي، وتحملت، بشجاعة مبهمة، صلح الطعام الذي وضعه على لساني، وإبريق الماء الذي سكب فوق رأسي. أما مارغوت، بالمقابل، فقد تردت على الأرضين والمرابطين لم يتمكنوا من إبقائها عند حوض التعبد، إلا بشق الأنفس.

إنني أفكر اليوم في أنها كانت، في علاقتها معي، أعقل من الكبار، قسماً بينهم. وقد كان تراطوناً غريباً، حتى إن كل واحد منا كان يحس، في مناسبات عديدة، أفكار الآخر. ففي أحد الأيام، كنت ألعب وإبها في الهدفة، عندما دوى صلب القطار، كما في كل يوم، في الساعة الحادية عشرة. ولكنني في ذلك اليوم أحسست، لدى سماعه، بهاجس لا تفسير له، بأن طبيب شركة الموز الذي كان قد أعطاني، قبل شهر، شرباً سمكياً سبب في توبة تقيق، أت في القطار. وكضت في كل أنما - الميت، وأنا أصرخ منبهاً، ولكن أحداً لم يصدق ذلك. باستثناء شقيقني مارغوت التي ظلت مختبئة معي إلى أن انتهى الطبيب من تناول الغداء، وغادر في قطار العودة. وقد هفت جديتي، عندما وجدنا مختبئين تحت سريرها: "يا قديسة مريم الطاهرة! بوجود عزيزي الطفلين. لا حاجة إلى التلفاف".

لم أستطيع قط، مجاوز الحول من البقاء وحيداً، ولا سيما في الظلام. وأظن أن هناك منشأً محدداً لذلك، ففي الليل، تتجسد أشباح وتؤثر الجدة. حتى الآن، وأنا في السجن، أرى في أحلامي جدة الياسمين في مصر، وأشباح غرف النوم الممتعة؛ ورائحة بالاحساس الذي أفقد طفولتي، الرعب من الليل. لقد توجست مرات كثيرة، في ليالي أرتقي التي تساوي أرق العالم بأسره، أنني أنا أيضاً أجرر لعنة ذلك البيت الخرافي، لي عالم سعيد، حيث كنا نخت في كل ليلة.

أعرب ما في الأمر، أن الجدة كانت تلمع أود البيت بحسبها غير الواقعي. كيف كان بالإمكان إعالة قطار الحياة ذلك، موارد على ذلك القدر من الشح الحسابات لا تضبط. كان الكولونيل قد تعلم مهنة أبيه الذي تعلمها بدوره من أبيه. وعلى الرغم من شهرة أسسائه الذهبية الصخيرة التي يراها المرء في كل مكان، إلا أنها لم تكن بالتجارة الراهجة. بل أكثر من ذلك؛ فحينما كنت طفلاً، كان يراودني إحساس بأنه لا يصنعها إلا في فترات قصيرة أو عندما يهين هدية زفاف. وكانت الجدة تلوم إنه لا يشتغل إلا ليلهم الهدايا. ومع ذلك، فإن شهرته كصوطل، نوطت تماماً عندما كسب الحزب الليبرالي السلطة، وكان خازناً لعدة سنوات ومدير مالية، عدة مرات.

لا يمكنني تخيل وسط أسري أكثر ملاحظة ليلي، من ذلك البيت الجنوني، ولا سيما بفعل طبع النساء الكشيرات الفواني تولين تنشيتي، الذكران الوحيدان كنا جدي وأنا، وكان هر من بدأ بإدخالي في واقع الكبار الخزين، بحكايات من معارك دامية وشروحات مفروسة عن طيران الطيور، ورمود الغروب. وشجعتني في هواية الرسم، في البدء كنت

أرسم على الجدران، إلى أن أطلقت نساء البيت الصوت حتى السماء، قتلات: الجدار والسور عما ورثة الوجد. فخطب جدي، وأمر بطلا. أحد جدران مشغل الصياغة بالأبيض، واشترى لي أقلام ألوان، ثم اشترى لي قلماً بعد، عليه ألوان مائبة، لكي أرسم على هواي، بينما هو يصنع أسسائه الذهبية الصخيرة المشهورة. وقد سمعته في أحد الأيام يقول إن حفيده سيصير رساماً. ولم يتبد ذلك اهتمامي، لأنني كنت أظن أن الرسامين هم من يفتحون الأبواب فقط^(١).

من عرفوني، وأنا في الرابعة من عمري، يقولون إنني كنت شاحياً ومستغرقاً في التأمل، وإنني لم أكن أتكلم إلا لأروي هذهانات. ولكن حكاياتي، في معظمها، كانت أحداثاً بسيطة من الحياة اليومية، أجعلها أنا أكثر جاذبية بتفاصيل متخيلة، لكي يهني إلي الكبار. وكانت أفضل مصادر إلهامي، هي الأحاديث التي يتبادلها الكبار أمامي، لأنهم يفتنون أشي لا أفهمها، أو التي يشترونها عمداً، كيلا أفهمها. لكن الأمر كان خلاف ذلك؛ فقد كنت أمتصها مثل إسفنجية، وألصقها إلى أجزاء، وألفها لكي أخفي الأصل، وعندما أرويها للأشخاص أنفسهم الذين رويها، تمتلكهم الخبرة للتوافق الغريب بين ما أقوله، وما يفكرون فيه.

في بعض الأحيان، لم أكن أعرف ما أفعله بضميري؛ وأحاول مواراته بطرق عيني طرماً صرعاً. وكان ذلك يتكرر إلى حد أن شخصاً عقلياً في الأسرة، قرر أن يعرضني على طبيب عيون، فعزا هذا الأخير

(١) الاتهام هو في إطلاق التسمية نفسها على الرسام الفنان والتفاح الدهان، فكلاهما يدعى painter.

طرق عيني إلى علة في اللوزتين، ووصف لي شراً من لفت موهون، كان مفعوله جيداً لطمانه الجدين. وتوصلت الجدة من جهتها إلى النتيجة القدرة، بأن حفيدها متنبئ. فجعل ذلك منها ضحيتي المفضلة، حتى اليوم الذي أغشى عليها فيه لأنني علمت، فعلاً، بأن عصفوراً حباً قد خرج من قم الجدة. وكان الرعب من أن أكون السبب في موت الجدة، هو العنصر المهدئ الوحيد لاندفاعي المبكر. وأنا أفكر الآن في أن كل ذلك لم يكن خبث طفيل، كما يمكن أن يُظن. وإنما التفتيات البغائية لراو في بداياته، من أجل جعل الواقع أكثر متعة وقابلية للفهم.

خطرتي الأولى في الحياة الواقعية، كانت اكتشافي كرة القدم. في وسط الشوارع أو في بعض البساتين المجاورة. كان معلمي هو لويس كارميلو كورينا الذي ولد مزوداً ببنزلة خاصة بألعاب الرياضة، وبهبة خلفية في الرياضيات. كنت أكبره بخمسة شهور، ولكنه كان يسخر مني، لأنه يبدو أكثر وأسرع. بدأنا اللعب بكرة من الخرق، وتوصلت إلى أن أكون حارس مرمرى جيداً، ولكننا عندما انتقلنا إلى اللعب بالكرة النظامية، عانيت من ضربة على المعدة، بتسديدة قريبة منه ولم أصعب إلى ما هو أبعد من ذلك. وخلال الثرات التي اتفينا فيها ونحن كبار، تبين لي بمساعدة كبيرة أننا ما زلنا نتعامل، مثلما كنا ونحن طفلان. ومع ذلك، فإن الذكرى الأكثر تأثيراً من تلك الحفوة، هي المرور السريع العابر ثنائياً مدير تومين شركة الموت، في سيارته الفخمة المكشوفة، وإلى جاتيه امرأة ذات شعر ذهبي طويل، مفتت للريح، وكلب حراسة ألماني جالس كملك في مقعد الشرف. لقد كانوا رؤيا سريعة عابرة من عالم ناء وبعد الاحتمال، محظوظ علينا، نحن البشر الفانين.

بدأت المساعدة في القداس دون إيمان كبير، ولكن بصراحة، ربما كانوا يحتسبونها لي كمعصر جوهر من الإيمان. ولا بد أن تلك المزاجية المعقدة هي السبب في أنهم أطلقوني. وأنا في السادسة من عمري، إلى الألب أنفاسيتا تنطقني أسرار المناولة الأولى. لقد تحدثت حياني. لقد بدؤوا يعاملونني كمرشد، وعلمني التذليل كيف أساعد القس في القداس. وكانت مشكلتي الوحيدة هي أنني لم أكن أعرف، في أي لحظة على قرع الناقوس: فكنت أفرعه عندما يخطر لي ذلك، بالهام محض وبسيط. وفي المرة الثالثة، التفت الألب نحوني وأمرني، بنبرة جافة، بالآ أقرع الجرس مجدداً. الجزء الجيد من الخدمة الدينية، كان يأتي عند يقاني مع خادم الكاهن الآخر والتذليلت وحيداً لترتيب حجرة القداسات؛ فكان نأكل ما يفيض من خبز القربان، مع كأس من النبيذ.

عشية مناولتي الأولى، أخذ الأب اعترافاني دون مقدمات، وهو جالس مثل بابا حقيقي على المشكأ الذي كعشر، بينما أنا جاثٍ قبله، على وسادة من القطن. كان وهي للخير والشر بسيطاً جداً. ولكن الأب ساعدني بمجم من القطايا، لكي أقول له أنها اقترلت، وأنها لم أقره. أظن أنني أجيت جيداً، إلى أن سألتني إذا ما كنت قد مارست أفعالاً متكررة مع حيوانات. كانت لدي فكرة عامة لخاصة عن أن بعض الكبار يقترعون مع المصير خطيئة، لم أكن أفهم حقيقتها، ولكنني في تلك الليلة فقط، تعلمت أن فعل ذلك يمكن أيضاً مع الدجاجات، وهكذا كانت خطرتي الأولى، إلى المناولة الأولى، فقرة كبيرة أخرى على طريق يقاني البراعة. ولم أعد أجد دافعاً مشجعاً لمواصلة المساعدة في القداس. اختباري بالنار، كان يوم انتقل أبواي إلى كاتاكما، مع لويس

وأى أيمى ويجدي يبحثان عنه، صفاً فصفاً، في المقاعد؛ ومعهما صاحب
السينما وشرطبان. كان على وشك الاستسلام، عندما اكتشفه بالهاتيلو
في الصف الأخير من القاعة، وأشار إليه بهكازة:
- إنه هناك!

سحبه أيمى من شعره، وجلده في البيت بالحزام جلداً ظل صبرة
أسطورية في تاريخ الأسرة. الرعب والتقدير اللذان شعرت بهما تجاه
سلوك أخى الاستقلالي ذلك، ظلا حيين إلى الأبد في ذاكرتي. أما هو
فكان يبدو كأنه يتجاوز كل شيء، لم يصبح أكثر بطولية، في كل مرة.
ومع ذلك، لم أكني أصاب بالدهول اليوم، من أن تمرد لم يكن يمدى في
الفترات النادرة التي يكون فيها أيمى غائباً عن البيت.

التجأ، أكثر من أي وقت آخر، إلى ظل الجدة. لقد كنا معاً على
الدوام، في لغرات الصباح في مشغل الصياغة أو في مكتبه كموظف
صالبة. حيث خصني بوظيفة سعيدة: رسم علامات وسم الأبقار التي
ستذبح. وكان يأخذ الأمر بجدية، إلى حد يتخلى لي معه عن موقعه على
منضدة المكتب. وفي موعد الفناء، بوجود كل المدعوين، يجلس معاً على
رأس المائدة. هو مع إيريك الألبوم الكبير المظلم. بالنا - المثلج. وأنا مع
ملحنة فضية استخدمها في كل شيء. وما كان يلفت النظر. أنني إذا
أردت قطعة من المثلج، أمد يدي في الإبريق لأخذها، فتتشكل على
سطح الماء. طبقة من الدهن. وكان جدي يدافع عني: "إنه يتجمع بكل
الحقوق".

في الساعة الحادية عشرة، نذهب إلى المحطة. عند وصول القطار
فأنيخه خزان دي ديوس الذي ظل يعيش في سائنا صارتا. كان يبعث إليهم

إيريكى وعابداً، أخوي الآخرين. أما عارغوت التي تكاد لا تعرف أياها،
فقد كانت ترتصب منه. وأنا أيضاً، ولكنه كان أشد حذراً مني. في
مناسبة واحدة فقط، نزع الحزام ليجلدي، نرفقت متأهباً، وعصفت على
شفتي كبلاب أيمى. فأنزل ذراعاه، وبدأ يمد وضع الحزام حول خصره.
بينما هو يؤلفني من بين أسنانه، على ما فعلته. وقد اعترف لي، في
حواراتنا الطويلة كراشدين، بأنه كان يتألم كثيراً لجلدنا، ولكنه ربما كان
يقفل ذلك، لحسبه من أن يخرج منجرلين. لقد كان مسلماً في لحظات
صفائه. وكان يسعد أن يروي دعائيات على المائدة. بعضها جيدة، ولكنه
يكروها كثيراً حتى أن لويس إيريكى نهض يوماً وهو يقول:
- أخبروني عندما تتجهون من الضحك.

ومع ذلك، فإن الجملة الشاربخية هي تلك التي نالها لويس إيريكى،
في الليلة التي لم يظهر فيها في بيت أبيه، ولا في بيت جديته.
فبحسب عنه في نصف القرية. إلى أن دعوا عليه في السبنا. كان
يتمسك دائماً، بنائع المرطبات، قد لزم إليه كأس شراب مرطب في الساعة
الثامنة ليلاً. وقد اخفض، دون أن يدفع، وأخذ الكأس معه. وباعتبه
صانعة المصنجات المقلبة لطيرة، ورأته يتحدث بعد ذلك بقليل، مع بومب
المينما الذي سمح له بالدخول مجاناً، لأنه قال له إن أباه ينتظره في
الفاخل. كان الفيلسوف هو دراكولا. من قشيل كارلوس فيلارياس ولويسا
تورفار. وإخراج جورج ميلفورد. ولقد حدثني لويس إيريكى، بعد سنوات،
عن رعبه في اللحظة التي أصبحت فيها أنوار الصالة، حين كان الكونت
دراكولا على وشك أن يفرس أنيابه كخصاصي دماء، في ربة الحسنا.
كان يجلس في أكثر مكان مشواً ويده شاعراً في الصالة. ومن هناك

رسالة في كل يوم، مع سائق القطار المتواضع الذي يتقاضى، مقابل ذلك، خمسة سنتات. وكان الجهد يرد عليه بخمسة سنتات أخرى، في قطار العودة. وفي المساء، عندما تغيب الشمس، يأخذني من يدي، ليقوم بإساعته وشؤونه الشخصية. كنا نذهب إلى محل الخبازة - وهي أطول ربع ساعة في الطفولة - ولزوجة الأبواب النارية - كانت تخبني - في الأعياد الوطنية؛ وإلى مواكب أسبوع الآلام - حيث تمثال المسيح الميت الذي كان يبدو لي أنه من لحم وعظم -، وكنت أستخدم آنذاك برتبطه ذات مرعات اسكتلندية، مثل واحدة للجدة، اشتريتها لي صينا لكي أصير أكثر شهياً به. وقد توصلت إلى ذلك على أحسن وجه، حتى إن اللحم كيتني كان يرانا كشخص واحد، بعشرين مختلفين.

في أي ساعة من ساعات النهار، كان الجهد يأخذني للفشار - من متجر شركة الموز المشرح بالطيبات. وهناك عرفت أسلاك البارغور. ووضعت للمرة الأولى، يدي على الجبهة، وهزني اكتشاف أنه بارد. كنت سعيداً بأكل ما يخطر لي. ولكنني كنت أمل أودار الشطرنج التي يلعبها جدي مع الهلجيكلي، والأحاديث السياسية. ومع ذلك، فإنتي ألاحظ الآن أننا، في تلك الجولات الطويلة، كنا نرى عاملين مختلفين. جدي يرى عالمه على مستوى أفقه، وأنا أرى عالمي على مستوى عيني. كان يحسب أصدقاء على الشرفات، وأنا أتشوق إلى ألعاب باتمني الشوارع المعروضة على الأرصفة.

وفي بداية الليل، كنا نتأخر في صخب الأركان الأربعة الكورني، حيث كان يتبادل الحديث مع دون أنطونيو داكوتني، الذي يستقبله واقفاً عند باب متجره المزوكش، وبينما أعف أنا مذهولاً بالمستجبات الآتية من

العالم بأسره. كنت مقتوناً بشحنة المهرجان الشعبي الذين يخرجون أوانب من قسبعتهم. وأكلني النار، والمتكلمين من بطونهم الذين يجعلون الحيوانات تتكلم، وعازفي الأكورديونات الذين يغنون بأعلى أصواتهم، نالقين الأحداث التي تقع في بروينشيا، ولقد انتبهت اليوم إلى أن أحدهم، وكان عجوزاً جداً وله لحية بيضاء، يمكن له أن يكون فرانكيسكو الإنسان الأسطوري.

كلما بنا لدون أنطونيو داكوتني أن الفيلم ملائم، كان يدعونا إلى العرض المهرجاني في صالته أولبيا، مشيراً بذلك دُعر الجدة التي ترى في السحشا، خلاعة لا تلحق بحقبة بري. ولكن باباليلو كان يصير على أخذي معه. وفي اليوم التالي يطلب مني رواية الفيلم على المائدة، ويصحح نسياني وأخطائي، ويساعدني على إعادة بناء المقاطع الصعبة. كانت تلك ومضات فن درامي أملاؤني دون أدنى شك؛ ولا سيما عندما بدأت رسم قصص سلسلة، لعل أن أتعلم الكتابة، في البدء، كانوا يحتفون بها كطرائف صبيانية. ولكن استحسان الكبار السهل كان يروقني، حتى انتهى بهم الأمر إلى الهرب عندما يشعرون بقدمي. وقد حدث لي الشيء نفسه، فيما بعد، مع الأغنيات التي كانوا يجبروني على غنائها، في حفلات الزفاف وأعياد الميلاد.

قبل الذهاب للنوم، كنا نر بعض الوقت على مشغل البلجيكلي؛ وهو عجوز مرعب ظهر في أراكاتانكا، بعد الحرب العالمية الأولى. ولا أشك في كونه بلجيكياً، بسبب الذكرى التي أحفظ بها عن لكتته الطائشة وحينه كبشار، وكان الكائن الحي الآخر في بيته كلباً دغركياً ضخماً، أصم ولوطياً، اسمه مثل اسم رئيس الولايات المتحدة؛ رودري

ويسلون. لقد تعرفت على البيجيني وأنا في الرابعة من عمري، عندما كان جدي يذهب للعب معه بضعة أذوار شطرنج يكما - ولا نهائية. منذ الالهة الأولى، آثار دعثشي أنه لم يكن هناك في بيته شي. أستطيع أن أعرف غانده واستخدامه، فقد كان غنائاً في كل شي « يحش وسط فوضى أعماله: مناظر بحرية بالياسمين، صور فوتوغرافية للأطفال يحتفلون بأعياد ميلادهم أو يناولتهم الأولى، مستنسخات لجحوريات أسورية، وجوه منحوتة على لبرون أبقار، أثاث من عصور وطُرُز متنوعة مكرمة، بعضها فوق بعض.

شد انتباهي جلده المتصق بغطاه، وهو يلون شعره الأصفر الشمسي نفسه الذي تهدل خصلة منه على وجهه، وتضاهقه عند التكلم. كان يدخلون ذئب بحر، لا يشمله إلا من أجل الشطرنج. وكان جدي يقول إنها حيلة لإرباك الخصم. وكانت له عين زجاجية زائفة تبدو أكثر انتباهاً إلى محدثه من العين السليمة. وكان مشلولاً من خصرته إلى أسفل، منعياً إلى أمام وملتبساً إلى اليسار، ولكنه يهجر مثل صخرة بين هوائن مشغله، مشغلقاً على هكازيه المشيبين، أكثر مما هو مستند إليهما. لم أسمع به يتكلم قط، عن مفردات إيماره. وكانت على ما يبدو كبيرة وجريئة. أما الولد الوحيد المعروف عنه خارج بيته، فهو السينا. لم يكن يختلف عن أي فيلم، من أي نوع، في نهاية كل أسبوع.

لم أحيه قط. وأقل من ذلك، خلال جولات الشطرنج التي يتأخر فيها ساعات، لكي يحرك قطعة، بينما أنا أتهالك من النعاس. في إحدى الليالي رأيت شاحباً جداً وداعثني النبوة المنقورة بأنه سيصير عملاً قريباً؛ فاحسست بالشفقة عليه، ولكنه مع مرور الزمن صار

يستشرق وقتاً طويلاً، في التفكير في كل تلة، إلى حد انتهيت معه إلى قني موته، من كل قلبي.

في تلك الفترة، علق الجد في غرفة الطعام، لوحة قتل بطل التحرير سيمون بوليفار، وهو مسجى بعد موته. ولم أفهم لماذا هو بلا الكفن الذي كنت قد رأيت في طقوس السهر على موتى آخرين، وإنما عتداً على منضدة مكتوب، بالزي العسكري الذي كان يرتديه في أيام صفه. وقد أخبرني جدي من تلك الشكوك، بجملة حاسمة:

- لقد كان مختلفاً.

ثم قرأ لي، بصوت مرتعش لا يشبه صوته، قصيدة طويلة معلقة إلى جانب اللوحة، أنذكر منها إلى الأبد، الأبيات الأخيرة فقط: "أنت يا سانشا مارتيا، كنت كريمة مضباناً، فأنت، في أحضانك، متحتة قطعة الأرض الصغيرة تلك على الشاطئ، لكي يموت فيها. منذ ذلك الحين، وللسنوات طويلة، ظلت راسخة، لي ذهني، فكرة أنهم صبروا على بوليفار حباً على الشاطئ. وكان جدي هو من علمني وطلب مني ألا أنسى أن ذلك الرجل هو أعظم من ولد في تاريخ العالم. وقد اختلط علي الأمر، تشافض عبارته تلك مع عبارة أخرى كانت الجدة قد قالتها لي بتفخيم مائل. فسألت الجد عما إذا كان بوليفار أعظم من يسوع المسيح. فرد علي وهو يهز رأسه، دون قناعته الراسخة السابقة:

- لا علاقة لهذا بذلك.

لقد صرت أعرف الآن، أن الجدة هي التي فرضت على زوجها أن يأخذني معه في جولاته المسائية، لأنها كانت واثقة بأن جولاته تلك، ليحت سوي ذريعة لزيارة عشيقاته الحقيقيات أو المفترضات. من

المحتمل أنه كان يستغلها كستلرة، ولكن الحقيقة أنه لم يذهب معي قط.
إلى أي مكان غير مقرر في جوثته. مسبقاً. ومع ذلك، لدي في ذاكرتي
صورة واضحة لليلة، مررت فيها مصادفة وأنا أسلك بيد أحدهم، قبالة
بيت مجهول. ورأيت الجند جالساً كالمسد والمالك في الصالة. ولم أستطع
قط، أن أفهم لماذا حزني الإحساس بأنه يجب عليّ عدم إخبار أحد بذلك.
حتى شمس هذا اليوم.

وكان الجند أيضاً هو من خلق انصالي الأول بالخرف المكتوب، وأنا
لبي الخامسة من عمري. في مساء يوم أخذني فيه للتعرف على
حيوانات سيرك مر من كانا كما، تحت خيمة كبيرة، مثل كنيسة. وكان
أكثر حيوان شد انتباهي هو مجتر مكتئبه. وفي حالة مزمنة، له سلاخ
أم مرعبة. وقال لي الجند:

- إنه جميل.

فاعترض شخص يقف قريباً منا بالقول:

= الملعونة يا كولونيل. ولكن هذا وحيد سناء^(١).

ويمكنني أن أنخيل الآن. كيف كان إحساس الجند، لأن أحدهم صحح
له ما قاله، بحضور حفيده. ودون أن يحاول التفكير في الأمر، فجاءه
بزال وجهه:

- وما الفرق؟

فقال له الآخر:

- لا أدري، ولكن هذا وحيد السناء.

لم يكن الجند بالرجل المثقف، ولم يكن يحاول أن يكونه؛ فقد هرب
من المدرسة العامة، في ريوهانشا، كي يذهب ليطلق النار في واحدة من
حروب منطقة الكاريبي الأهلية التي لا حصر لها. لم يعد إلى الدراسة،
ولكنه بقي واعياً طوال الحياة لحوائه، وكان به نهم إلى المعارف المباشرة
التي تمرض نفسه. وفي مساء يوم السيرك ذلك، رجع إلى مكتبه،
مشبط العزيمة، وبحث في المعجم باهتمام طفولي. وعندئذ عرف هو،
وعرفت أنا إلى الأبد، الفرق بين وحيد السناء والجميل. ثم وضع، بعد
ذلك، الجند الضخم في حضني وقال لي:

- هذا الكتاب لا يعرف كل شيء، وحسب. وإفنا هو الكتاب الوحيد
الذي لا يخطئ أبداً.

كان مجلداً ضخماً مصوراً، وعلى كعبه رسم ثعال تسنقر على
كففيه قبة الكون. لم أكن أعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنني كنت قادراً
على تصور معنى صحة ما قاله الكولونيل. ما دمت أرى ما يغازب ألفي
صلحة كبيرة، موشومة ومزينة برسوم بدعية. كان حجم كتاب الصلوات
في الكنيسة قد أذهلني، ولكن المعجم كان أسلك منه. وهذا لي ذلك،
كما لو أنني أطل على العالم بأسره. لأول مرة. فسالته:

- كم كلمة فيه؟

- كل الكلمات - قال الجند.

الحقيقة، أنني لم أكن بحاجة آنذاك إلى الكلمة المكتوبة؛ لأنني
كنت قادراً على التعبير بالرسوم عن كل ما يؤثر فيّ. فلي الرابعة من
عمري، رسمت ساحراً يقطع رأس امرأته، ويحيد إصاقله في مكانه،
منحلياً لفعال الساحر وشارد بين، لدى مروره في صالة سبينا أولجيا.

(١) كطال تسمية carcello على جماد آسيا الوسطى ذات السنانين. أما جمل صغير،
العربية وحيد السناء فيسمى dracopleria.

المشهد المرسوم يبدأ بقطع الرأس بجنار، يتلوه عرض انتصاري للرأس
الناسي، وينتهي بالمرأة، وهي ترد على تصفيق الجمهور بحببة برأسها
الذي أعيد إلى مكانه. كانت القصص المصورة قد اخترعت آنذاك.
ولكنني لم أتعرف عليها، إلا فيما بعد، في الملاحق الملتزمة لصحف يوم
الأحد. وقد بدأت حينئذ باختراع حكايات مرسومة دون حوارات. ومع
ذلك، عندما أهدى إليّ الجد المعجم، أيقظ في نفسي فضولاً نحو
الكلمات، إلى أن صرت أمروء كرواية، وفق النسل الأبهني، ودون أن
أفهم تقريباً. هكذا كان اتصالي الأول مع ما سيكون الكتاب الأساسي
لي قدرتي ككاتب.

في الواقع، أنه عندما تُرى للأطفال أول قصة تشد اهتمامهم،
يصعب بعد ذلك، أن يربحوا في سماع قصة أخرى. أظن أن هذه ليست
حالة الأطفال القصاصين، ولم تكن حالتي، فقد كنت أريد المزيد. فالنهم
الذي كنتُ أستمع به إلى القصص، يدفعني على الدوام، إلى انتظار قصة
أفضل في اليوم التالي، وخاصة تلك التي لها علاقة بأسرار وخرائب
التاريخ المقدس.

كل ما يحدث لي في الشارع، كان له وقع هائل في البيت. ترويه
نسباً، المطيخ للغرباء الذين يأتون في القطار - ويأتي هؤلاء بدورهم
ولديهم ما يروونه - ويتدمج كل ذلك في سبل التقاليد الشفوية. بعض
الأحداث تعرف أولاً، من خلال عازفي الأكورديونات الذين ينفونها في
المهرجانات، فبعيد المسافرون روايتها وينفونها. ومع ذلك، فإن الحدث
الأعظم تأثيراً في طفولتي، خرج لي في يوم أحد، باكراً. عندما كنا
منذهب إلى القديس، وبدأ عبارة عابرة فالتها جدتي؛

- سيختلف نيكولا بستر المسكين عن قديس العصرة اليوم،
أسعدني ذلك، لأن قديس يوم الأحد طويل جداً بالنسبة إلى سني؛
ومر اعط الأب أنفارتا الذي طالما أحبته في طفولتي. تبدو لي منومة،
ولكنه كان وهماً دين طائش، فقد اقتادني الجد بما يشبه المجرعة، وأخذني
إلى مشغل الطبخي، بسلة المخلل المفضلة التي أوتديها للذهاب إلى
القديس. وكانت تضغط ما بين ساقي. تمررت شرطير الحراسة على الجد
من بعيد، ففتحوا له الباب، مع العبارة التقليدية:
- تفضل أيها الكولونيل.

حينئذ فقط عرفت أن البلجيكي قد استنشق أبخرة سيانور الذهب -
تقاسمها مع كلبه - بعد أن شاهد ليلم "لا جديد على الجبهة" من إخراج
لويس مايلستون، عن رواية إيريك ماريا ريمارك، الحديث الشعبي الذي
يجد الحقيقة دائماً، حتى حيث لا يكون ذلك ممكناً. تفهم الأمر، وأعلن
أن البلجيكي لم يعد يتحمل هزة الانفعال لرؤيته نفسه يتمرغ مع كتبه
الممزقة أشلاء في أحد مستنقعات النورماندي.

كانت حالة الاستقبال الضيقة لي شبه ظلمة، بسبب النافذة المغلقة.
ولكن نور الصباح الباكر في الفناء، كان يضيء غرفة النوم، حيث كان
العمدة وشرطيان آخران ينتظرون الجد. وهناك كانت الجنة مغطاة بوطانية،
على سرير عسكري ضيق، والعكازان في متناول اليد، حيث تركهما
صاحبهما قبل أن يستلقي ليموت. وإلى جانبيهما، على مقعد خشبي
صغير، الطست الذي يثر فيه السيانور، وورقة عليها حروف كبيرة
مرسومة بريشة رسام: لا تنهوا أحداً، لقد قتلت نفسي لأنني أحق.
لم تدم الإجراءات القانونية وتفاصيل الدفن التي أجراها الجد أكثر من

عشر دقائق. ولكنها كانت بالنسبة لي عشر الدقائق الأشد تأثيراً التي سأذكرها في حياتي.

أول ما هنزي، منذ الدخول، هي رائحة غرفة النوم. ولم أعرف إلا بعد وقت طويل من ذلك، أنها كانت رائحة اللوز المر المنطلقة من السبانور الذي استنشقه البلجيكي لسموت. ولكن لن يكون هذا الانطباع، ولا أي انطباع آخر سواء. أشد أثراً ودمومة من رؤية الجملة، عندما أراح العمدة البطانية عنها ليربها للجد. كان عارياً، متجسماً، معوجاً، بشرته الحشنة مغطاة بشعر أسفر. والعينان راكبتا الماء نظراً إلينا وكأنهما حيتان. هذا الرعب من الإحساس بأنني مراقب من الموت. هنزي طوال سنوات كلما كنتُ أمر إلى جوار القبور التي بلا صلبان، المخصصة للمتحررين المدفونين خارج المقبرة، بشرتني من الكنيسة. ومع ذلك، فلن ما عاد إلى ذاكرتي مع شعنة قوية من الرعب، لدى رؤية الجثة، هو الملل الذي كنتُ أشعر به في الليالي التي نذهب فيها إلى بيته. ربما لهذا السبب، لتُ لُحدي عندما غادرت البيت:

- لن يعود البلجيكي إلى لعب الشطرنج. بعد اليوم.

كانت فكرة بسيطة، ولكن جدي رواها في الأسرة كخاطرة عبقرة. ونشرتتها النساء بحماس كبير. حتى إنني كنتُ أهرّب في إحدى الفقرات من الزائرين، خوفاً من أن يرووا لهم ذلك أمامي. أو أن يجبروني على إعادته. وقد كشف لي ذلك أيضاً أحد شروط الكبار الذي سيكون ذا فائدة كبيرة لي ككاتب: فكل واحد منهم يروي القصة مع تفاصيل جديدة، يضيفها من عنده، إلى حد تصبح معه الروايات المتعددة في النهاية، مختلفة عن الأصلية. لا يمكن لأحد أن ي تصور الشغلة التي

أشعر بها، منذ ذلك الحين، على الأطفال المساكين الذين يعتبرهم آباءهم عمارة، فيجعلونهم يفتنون أمام ضيقهم، ويقلدون أصوات الطيور أو يدفعونهم حتى إلى أن يكلها للنسبة. وقد أدركت اليوم، مع ذلك، أن تلك الجملة البسيطة كانت نجاحي الأدبي الأول.

كانت هذه هي حياتي في العام ١٩٣٢. عندما أعلن أن اليهود، تحت النظام العسكري للجنرال لوس ميغيل سانشيث ثيرو، قد احتلت بلدة ليشتيا، التي بلا حامية، على ضفاف نهر الأمازون، في أقصى جنوبي كولومبيا. دوى الخبر في أجواء البلاد. وأعلنت الحكومة التعبئة الوطنية، وحملة تبرعات عامة لجميع المجنحات الأسرية ذات القيمة من بيت إلى بيت. حدة الوطنية المتزايدة بسبب هجوم قوات البيرو الصادر استشارت استجابة شعبية لا سابق لها. ولم يكن جامعو التبرعات يتوانون عن تحصيل تلك الضرائب الطوعية، من بيت إلى بيت، وبخاصة خواتم الزفاف، المرغوبة لقبضتها الحلقية، وقيمتها الرمزية على السواء.

أما بالنسبة لي بالمقبل، فكانت واحدة من أسعد الفترات، لما تخللها من لوضى. فقد كسر نظام الصرامة المقيم في المدارس، وحل محله الإبداع الشعبي في الشوارع والبيوت. تشكل فوج مدني من صفوة الشبيبة، دون تيبز في الطبقة الاجتماعية أو اللون، وأنشئت كتائب الصليب الأحمر النسائية، وألفت على هجل أناسيد تدعو إلى الحرب حتى الموت. ضد المعتدي الزنيم، ودوت في أجواء الوطن الصرخة الجماعية: "للمتش كولومبيا، ولتسقط البيرو".

ثم أعرف قط إلى ما انتهت تلك المأثرة، لأن الخواطر عدأت بعد وقت قصير، دون تفسيرات كافية. وترسخ السلام على إثر اغتيال

الجنرال سانتشيث ثيرو، على يد أحد المعارضين لحكمه الديموي، وتحولت
صرخة الحرب إلى ووتين للاحتفال بانتصارات كرة القدم الفرنسية. ولكن
أبوي اللذين ساهما بخاتمي زلفاهما من أجل الحرب. لم يشفيا أبداً من
سلاجتهما.

ووفق ما تصل إليه ذاكرتي، فإن ميلي إلى الموسيقى. تكشف في
تلك السنوات، من الاتيهار الذي أشاره لي نفسي، عازفو الأكورديونات
بأغنيات الجوالين. كنت أعرف بعض تلك الأغاني عن ظهر قلب. مثل
تلك التي تغنيها النساء في المطبخ خفية، لأن جدتي تعتبرها أغنيات
وضيمة. ومع ذلك، فإن حاجتي الملحة إلى الغناء، لكي أشعر بأنني حي،
بشعها في نفسي أغنيات التانغو التي يغنيها كارلوس غارديل،
وأصابت بعدواها نصف العالم. كنت أطلب أن يلبرني مثله، مع لمعة
من اللهب والفاع من الحبر. ولم أكن بحاجة إلى من يتوسل إلي كثيراً
لكي أطلق أغنية نانغو بله صدري. حتى صباح النحر الذي أيقظتني
فيه العممة صاما لتطيرني بأن غارديل قد مات كي تصادم طرقتين في
ميدلين. قبل شهر من ذلك، كنت قد غنيت الانحدار إلى الهاوية في
سهرة خيرية، ترافقي على اليباتو الأختان إنشيفيري، البروغريستان
الصافيتان، اللتان كانتا معلمتي معلمين، وروح كل مهرة خيرية وحقة
ذكرى وطنية تقام في كاتاكما. وقد غنيتُ بهزافاً بقدرة شديدة حتى إن
أمي لم تتجرأ على معارضتي. عندما قلتُ لها إنني أريد تعلم العزف
على اليباتو، بدل الأكورديون الذي فلقته الجدة.

في تلك الليلة بالذات، أخذتني إلى الأستاذين إنشيفيري لكي
تعلماني. وبيتما من يتكلمن. كنت أنظر إلى اليباتو من طرف الصالة

الأخر يورج كلب بلا سيد، وأقفر إذا ما كانت سألني مستصلاً إلى
النواصات، وأتشكك إذا ما كان إصبعي، الإبهام والخنصر، يصلان إلى
الفواصل المتباعدة جداً، أو إذا ما كنتُ سأتمكن من فلك هيروفيليات
المخرج الموسيقي. كانت زيارة أصال زاهية استمرت ساعتين. ولكن دون
طائل؛ فقد قالت لنا المعلمتان في النهاية، إن اليباتو معطل. ولا تعرفان
إلى متى سيبقى كذلك. فتأملت الفكرة إلى أن يعود المذوذين في جولته
السنوية القادمة. ولم يعد أحد إلى الحديث عن تلك الفكرة إلا بعد مرور
نصف حياة. عندما ذكرتُ أمي في حديث عابر، بالأمم الذي أحسست به
لأنني لم أتعلم العزف على اليباتو. فتنهت هي قائلة:

- وأسوأ ما في الأمر، أنه لم يكن معطلاً.

وعندئذ، علمتُ أنها اتفقت مع المعلمتين على التعلل بحجة اليباتو
المعطل. لكي تجهني العذاب الذي عانت منه هي نفسها. طوال خمس
سنوات من التسارين البلهاء. في مدرسة التقفمة. وكان العزاء في أنه
قد المعتن، في كاتاكما تلك السنوات، مدرسة مونيسوري. وكانت
معلماتها يحفرن الحواس الخمس من خلال تمارين عملية، ويعلمن الغناء،
ويفضل عروبة وجمال المديرة روسا إيلينا فيرغوسون. كانت الدراسة شيئاً
رائعاً، أشبه بمن يلعب لعبة أنه حي. تعلمت تقدير حاسة الشم التي تتمتع
بقدره استحضار نوسانجي ساحة. وشحذتُ حاسة الذوق إلى حد تذوق
مشروبات لها طعم نافذة، وخبز قديم له طعم صندوق خشبي، وأشربة
مخفية لها طعم قناس. من الصعب نظراً فهم هذه المتع الفائقة، ولكن
من عاشوها سيفهمونها فوراً.

لا أظن أن هناك منهجاً أفضل من أسلوب مدرسة مونيسوري،

لشعده حماسية الأطفال، تجاه جماليات العالم وإيقاظ فضولهم نحو أسرار الحياة. لقد أخذ عليها أنها تشجع على الاستقلالية والفردية - وربما كان ذلك صحيحاً في حالتها -، ولكنني لم أعلم قط، بالمقابل، القسمة أو استخراج الجذر التكعيبي، ولا التعامل مع أفكار مجردة. كنا صغاراً إلى حد لا أتذكر معه سوى تلميذين: أولهما هي خوانيتا مينوتا التي توفيت بالتيفوس، وهي لي السابعة من عمرها، بعد وقت قصير من افتتاح المدرسة. وقد أثرت عليّ كثيراً، حتى إنني لم أستطع نسيانها قط، وهي بأكليل وطريحة الورد في الثابتات. والآخر هو شيمبرو بالتيتشا أيدالا، صديقي منذ الفصح الأولى، وطبيبي الذي لا يخطئ في تشخيصهن صباحات أيام الاثنين.

لا بد أن أختي مارغوت كانت تمة جداً في تلك المدرسة، مع أنني لا أذكر أنها قالت ذلك يوماً. كانت تجلس على كرسيها في صفها الضعيفي، وتظل هناك صامدة - حتى في أوقات الاستراحة - دون أن تحرك بصرها عن نقطة غير محددة، إلى أن يقرع الجرس الأخير. ثم أعرف لي الوقت المناسب فقط أنها، حين تبقى وحيدة في الداعة الخاوية، تخضع ثراباً من حذقة البيت، تحملها معها في جيب مريحتها.

لقد تكلّفت مشقة كبيرة لي تعلم القراءة، إذ لم يكن يبدو لي منطقياً أن حرف "م" يسمى "ميم"، ومع ذلك فبذت، بإضافة حرف "ف" الصوتي إليه، لا بلفظ "ميما" وإنما "ما"، كان من المستحيل عليّ القراءة على هذا النحو. وأخيراً، عندما وصلت إلى مدرسة مونتيبوري، لم تعلمني المعلمة أسماء الحروف، وإنما منطوقها. وهكذا استطعت أن أقرأ أول كتاب وجدته في خزانة معلمة لي مستودع البيت. كان مفككاً

وغير مكتمل، ولكنه اجتذبتني بشدة حتى إن خطيب سارا أطلق لي مروءة إنقاراً وهيباً: "يا لعنة هذا الطفل سيصير كاتباً".

ولأنه هو، الذي يعيش من الكتابة، من قال ذلك، فقد سبب لي انفعالاً عظيماً. وقد مرت عدة سنوات قبل أن أعرف أن ذلك الكتاب هو "ألف ليلة وليلة". وأكثر قصة أعجبتني فيه - إحدى أقصر القصص التي قرأتها وأبسطها - تتبقي تبدو لي الأفضل طوال ما تبقى من حياتي، مع أنني غير متأكد الآن بما إذا كنت قد قرأتها هناك، ولم يستطع أحد أن يوضح لي ذلك. والقصة هي التالية: صباذ بعد جوارته بأن يهدي إليها أول سمكة بصطادها، إذا ما قدمت له قطعة رصاص، من أجل شجكته. وعندما تشق المرأة السمكة لكي تفلحها، نجد في داخلها حاسة بحجم حبة لوز.

لقد ارتبطت حرب البهرو، في ذاكرتي، بانحدار كاتاكما لأنه ما إن أعلن السلام حتى تاه والدي في مشاة من عدم اليقين، انتهت أخيراً بانتقال الأسرة إلى مسقط رأسه، في قرية سينشي. وكان ذلك الانتقال في الواقع، بالنسبة لي وللويس إنريكي، ولد والمقناة في رحلة الاستطلاع، مدرسة جديدة في الحياة، وثقافة شديدة الاختلاف عن ثقافتنا بحيث تبدو وكأنهما كوكبان مختلفان. منذ اليوم التالي لوصولنا، أخذونا إلى البساتين المجاورة، وهناك تعلمنا امتطاء الحمار، وحلب الأبقار، وخصي الصجول، ونصب أفخاخ للشجر، والصيد بالشص، وفهم حب بقاء الكلاب ملتصقة بإنانها، كان لويس إنريكي يهني دوماً، متقنعاً عليّ كثيراً، في اكتشاف العالم الذي كانت الجدة بنا تحظره علينا، بينما كانت الجدة أرغمنا لمحدثنا عنه في سينشي دون أدنى

تستر. الكثير من الأعمام والعلمات. والكثير من أبناء العمومة مختلفي الألوان. والكثير من الأقارب ذوي الكسب الضئيلة. يتكلمون وطاعة لهجات شديدة التنوع. كانت تثير قسنا أول الأمر من البهجة. أكثر مما تثيره من التعرف على الجديد. إلى أن فهمنا ذلك على أنه طريقة أخرى في المحبة. والد أبي. دون غابرييل مارلينيث. وهو معلم مدرسة أسطوري. استقبلني أنا ولويس إنريكي. في فناء بينه المزروع بأشجار أشجار تحمل أشهر ثمار المناطق. بظلمتها وحجمها. في البلية. كان يحصي الثمار واحدة واحدة. كل يوم منذ بدء الحصاد السنوي. ويقطفها واحدة فواحدة بعده. في لحظة بهجة بضمن مغر. هو خمسة سنتات لكل واحدة. وعندما ودعنا. بعد محادثة ودية عن ذكرياته كمعلم جيد. قطف ثمرة مانجا. من أكثر الأشجار ضخامة. وقدمها إلينا. نحن الاثنين.

كان أبي قد سرق لنا تلك الرحلة باعتبارها خطوة مهمة على طريق لم شمل الأسرة. ولكننا أدركنا منذ وصولنا. أن هدفه السري هو لنضع صيدلية في الساحة الرئيسية الكبرى. وقد جرى تسجيلي. أنا وأخي. في مدرسة المعلم لويس غابرييل ميسا. حيث شعرنا بأننا أكثر حرية وأفضل اندماجاً بالمجتمع الجديد. استأجرنا بيتاً فسيحاً جداً. عند أفضل ناصية في القرية. مؤلفاً من طابقين وشرقة بارزة فوق الساحة. يتردد طوال الليل. في غرف نومه الكثيرة. نغمة شبح كروان غير مرئي.

كان كل شيء جاهزاً من أجل قدوم أبي وأخواتي الصغرى. عندما وصلتنا برقية لحمل خبر موت الجد نيكولاس ماركيز. لقد أصيب باعتلال مفاجئ في حنجرته. جرى تشخيصه على أنه سرطان في آخر مراحله. ولم يكد يتسع الوقت لأكثر من أخذته إلى سانتا مارتا. ليموت

هناك. والوحيد منا الذي رآه الجد. في احتضاره. هو أخي غوستافو. وكان قد ولد قبل ستة شهور. فوضعه أدهم في سرير الجد لكي يودعه. فدعا به الجد المحتضر مداعبة وداع. وقد احتجت لسنوات طويلة. كي أعني ما تعني بالنسبة لي. تلك المحبة غير المتولعة.

جرى الانتقال إلى سينشي على كل حال. ليس مع الأبناء وحدهم. وإنما كذلك مع الجدة جينا. والعمة مابا. وكانت مريضة. وكلناهما تحت الرعاية الطبية للعمة با. ولكن سعادة الشجيد وفشل المشروع. حدثا في الوقت نفسه تقريباً. فبعدنا جميعنا. خلال أقل من سنة. إلى البيت القديم في كانابا "ونحن نهز القبة". مثلاً كانت تقول أبي. في المواقف التي لا علاج لها. هل أبي في بارانكيا. يدوس طريقة لغشع صيدلية الرابعة.

آخر ذكرياتي عن بيت كانابا. في تلك الأيام المرممة. هي ذكرى معرفة الفناء التي أحرقوا فيها ملابس الجد. كانت سترته ذات الجيوب الحمراء. وبدلانه الكتانية البيضاء ككونولبل مدني. تشبه كما لو أنه لا يزال حياً فيها. بينما هي محترق. وبخاصة قبعاته المخملية الكثيرة متعددة الألوان التي كانت أفضل سعة لفارقة قبيزة من بعيد. وقد تعرفت. بيتها. على قبعتي ذات الريمات الاسكتلندية التي أحترقت بسبب السهر. وقد هزني إحساس بأن طقوس الإيابة تلك. تمنحني دور بطولية مؤكدة في موت الجد. اليوم أرى ذلك بوضوح: هناك شيء خاص به قد مات صعبه. ولكنني أعتقد أيضاً. دون أي شك. أنني كنت منذ تلك اللحظة. كاتباً لا يزال في المدرسة الابتدائية. لا يتفحص إلا تعلم الكتابة. وكانت هذه الحالة المعنية نفسها هي التي شجعتني على مواصلة

عيش الحياة، حين خرجت مع أمي من البيت الذي لم نستطع بيعه. وما أنه يمكن لقطار العودة أن يأتي في أي وقت، فقد ذهبت إلى المحطة دون أن تفكر حتى في أن نحبس أي شخص آخر. "سنعود مرة أخرى لوفت أطول". قالت هي ذلك، بالعبرة المطفة الوحيدة التي خطرت لها، لشهر إلى أنها لن تعود مطلقاً. أما أنا من جهتي، فكنت أعرف حينئذ أنني لن أتوقف أبداً طوال حياتي، عن الحنين إلى رعد الساعة الثالثة.

كنا الشبهين الوحيدين في المحطة، عبا الموقف ذي الأفرهل الذي يبيع التفكر، وبفوم بالأعمال التي كانت تطلب في أزمنا عشرين أو ثلاثين رجلاً منعجلين. كان الجو رهيباً، وعلى الجانب الآخر من سكة القطار، لم تكن هناك سوى بقايا المدينة المحرمة التي أقامتها شركة الحوز، ببيوتها القديمة دون الفرص الأحمر، وأشجار النخيل الثابتة بين الأجام، وأنقاض المستشفى. وفي أقصى النزل الترابي، بيت المونسوري، مهجوراً بين أشجار لوز حرمة، وساحة ملح البارود الصغيرة، قبالة المحطة، دون أدنى أثر من عظمتها التاريخية.

كان كل شيء، بمجرد النظر إليه، يستثير في نفسي لهلة جامعة إلى الكتابة، كيلا أموت. لقد عانيت ذلك الشعور من قبل، ولكنني في ذلك الصباح فقط، تعرفت عليه، على أنه اللحظة السابقة للإلهام. هذه الكلمة البغيضة، إنما الواقعة إلى حد جرف كل ما تصادفه في طريقها، لكي تصل في الموعد، إلى رماها.

لا أتذكر أننا تحدثنا شيئاً، حتى في قطار العودة. وعندما صرنا في المركب، لم يسجر يوم الاثنين، مع النسممة الباردة في ثيابنا الهاجعة، انتهت أمي إلى أنني، أنا أيضاً لم أتم، فسلتني:

- بم تفكر؟

- إني أكتب - أجبتها، ثم أسرعت في محاولة الظهور بظهر أكثر لطفاً: - أعني أنني أفكر في ما سوف أكتبه، عندما أصل إلى المكتب. - ألا تخاف أن يموت أبوك من الأسى؟

تفصلت بالثفافة طويلة.

- كانت لديه أسباب كثيرة للموت، وهذا أقلها إمارة.

لم يكن الوقت المناسب لأغاسر في كشابة رواية ثانية، بعد أن خصت في رحل الأولى. وبعد أن حاولت، بحسن الحظ أو من دونه، أنشكلاً أخرى من القصص المتخيل. ولكنني أنا نفسي، فرضت الأمر على نفسي في تلك الليلة، كالتزام حسي: إما أن أكتب هذه الرواية وإما أصوت. أو مثلما قال ريلكه: "إذا كنت تظن أنك قادر على العيش دون كتابة، فلا تكتب".

من سيارة التوكسي التي نقلتنا حتى مرئياً المراكب، بدت لي مدينتي القديمة بارانكيا، غريبة وكئيبة، على أول أنوار ذلك اليوم المديري من شباط. دهاني قبطان السفينة "إيلينا ميرثيس" لمراقبة أمي حتى بلدة سوكري، حيث كانت تقيم الأسرة، منذ نحو عشر سنوات. ولكنني لم أفكر في الأمر مجرد تفكير، ودعيتها ببلدة، ونظرت هي إلى عيني، وابستمت لي لأول مرة، منذ المساء السابق، وسألتنني بمكرها العائم:

- إذا ماذا سأقول لأبيك؟

فأجبتها، وقلبي في يدي:

- قولي له إني أحبه كثيراً، وإني بفضلته سأسير كاتباً. - ثم سارعت إلى قطع الطريق على أية خيارات أخرى، دون شفقة: - كاتب ولا شيء آخر.

كنت أحب قول ذلك، في بعض المرات مازحاً، وفي مرات أخرى بجد. ولكنني لم أقله بكل تلك القناعة، كما في ذلك اليوم، بقيت في الرقأ، أرد على تعليقات الوداع البطيئة التي تقوم بها أمي من شرق المركب. ثم مضيت بعد ذلك مسرعة إلى مكتب جريدة الهيرالد. متفعلاً باللهفة التي تنهضني من الداخل. وبدأت، دون أن أنتقط أنفاسي، كتابة الرواية الجديدة بالجملة التي لانتها أمي: "جئت أطلب منك معروفاً بأن تراقبني لبيع البيت".

كان منهي أنذاك مختلفاً عن الذي تبنيه فيما بعد، ككاتب محترف. كنت أكتب بالسبائين فقط - مثلما ظلمت لأعمل حتى الآن - ولكنني لم أكن أمزق كل لفرة، إلى أن تصير وفق ذوقي - مثلما أفعل الآن -، وإنما كنت أطلق العنان للإمراغ كل المادة الخام التي أحملها في أحاسني. أظن أن ذلك النظام فرض نفسه عليّ - بسبب مفاسد الورق الذي كان على شكل أشرطة عمودية مقصورة من لفافة المطبخة، يمكن لكل شريط منها أن يكون بطول خمسة أمتار. وكانت المحصلة أصولاً طويلة وطبيقة مثل أوراق بردي نخرج كشلال من الآلة الكتابية، ولتد على الأرض، كلما تقدم أحدنا في الكتابة. لم يكن رئيس التحرير يفتو المقالات التي يكلفنا بكتابتها، بعد الصفحات أو الكلمات أو الحروف، وإنما بالتنسيقات الورقية. فكان يقول: "أريد ريبورتاجاً بطول متر ونصف". لقد عاودني الحنين إلى ذلك النمط، وأنا في أوج النضوج، عندما انتهت إلى أنه يشبه، عملياً، شاشة الكمبيوتر.

الاندفاع الذي بدأت به الرواية، كان بلا كايغ، إلى حد قدودت معه الإحساس بالوقت. وفي الساعة العاشرة صباحاً، كنت قد كتبت أكثر من

متر. عندما فتح ألفونسو فونيمابور الباب الرئيسي فجأة، وبقي عتجماً، والفتاح في القفل، كما لو أنه أخطأ وفتح الحمام. إلى أن تعرف عليّ.

- وأنت، أي لمة تفعّلها هنا، في هذه الساعة - قال لي متفاجئاً، فقلت له:

- إنني أكتب رواية حياتي.

- واحدة أخرى؟ - قال ألفونسو بسخرية المجاعة، وأضاف: - يبدو أن لك، من الخبرات، أكثر مما لقط.

- إنها الرواية نفسها، ولكن بطريقة أخرى - قلت ذلك، كيلا أهدم له تفسيرات غير معجدة.

لم تكن نتخاطب برفع الكلفة، كما هي العادة الكولومبية الفريضة، منذ التحية الأولى، ثم الانتقال بعد ذلك إلى التخاطب بتوقير، عندما يتم التوصل إلى قدر كبير من الثقة المتبادلة - مثلما يحدث بين الأرواح.

أخرج كتباً وأوراقاً من الحقيبة المهترئة، ووضعها على المنضدة. وفي أثناء ذلك، استمع بغضوله الذي لا يبرئني إلى الانقلاب الاتفعمالي الذي حاولت نقله إليه، بالنقصة الجامحة عن رحلتي. وأخيراً، وعلى سبيل الإيجاز، لم أستطع تفادي لكتبي في أن أخص، في جملة واحدة، ما لم أستطع تفسيره. فقلت له:

- هنا أعظم ما حدث لي، في الحياة.

فقال ألفونسو:

- لحسن الحظ، أنه لن يكون الأخير.

بدا كأنه لم يفكر، وهو يقول ذلك، لأنه هو نفسه لم يكن قادراً على تقبل فكرة دون اختيارها. قبل ذلك، إلى جميعها المضبوط. ولكنني كنت أعرفه بما يكفي، لألاحظ أن انفعالي بالرحلة، ربما لم يؤثر فيه كثيراً. مثلما كنت أنتظر، ولكنه أوعته دون ريبه. وهكذا كان: فمضت اليوم التالي، بدأ يوجه إلي كل أنواع الأسئلة العارضة، إذا الباردة، حول سير الكتابة، وكانت أي إجابة بسيطة منه، كافية لدفعني إلى التفكير في أن هناك شيئاً لا بد من تصحيحه.

وبينما نحن نتكلم، كنت قد جمعت أوراقاً، لكي أخلّي المنضدة. إذ كان يتوجب على ألفونسو أن يكتب في ذلك الصباح، الافتتاحية الأولى لمجلة كرونিকা. ولكن الخير الذي عمله إلي أسعد نهاري: فالعدد الأول، المقرر صدوره في الأسبوع التالي، سيتأجل. للمرة الخامسة، بسبب عدم التقيد في موعد تسليم الورق. وقال ألفونسو: إذا حافظنا الحظ، سنصدر المجلد، خلال ثلاثة أسابيع.

فكرت في أن تلك المهمة التي غيرها لي ألفونسو، ستكون كافية لكي أحده بداية الكتاب. فقد كنت ما أزال متبشراً جداً لكي ألاحظ أن الروايات لا تبدأ مثلما يريد أحدنا، وإنما مثلما تريد هي. إلى حد أنني، بعد ستة شهور من ذلك، عندما كنت أظن أنني أمضي نحو النهاية السوية، اضطرت إلى إعادة كتابة مقبلة للصفحات العشر الأولى. كي يصدقها القارئ، وهي ما زالت تبدو لي حتى اليوم، غير نافعة. ولا بد أن التأجيل كان مواتياً لألفونسو كذلك. لأنه بدل أن يتحسر، خلغ سترته وجلس إلى المنضدة، لمواصل تصحيح الطبعة الجديدة، من معجم الأكاديمية الملكية الذي وصلنا في تلك الأيام. لقد كانت تلك، هي

تسليمته المقبلة، منذ أن وجد خطأ عارضاً في معجم إنكليزي، وأرسل التصحيح حوثلاً إلى ناشري ذلك المعجم في لندن، وربما دون السعي إلى مكافأة أخرى أكثر من إرفاق رسالة التصحيح تلك، بواحدة من دعاياتنا: "أخيراً صارت إنكليترا مدينة للفكولوجيين بجميل". وقد رَدَّ عليه الناشرون برسالة لطيفة جداً، يعترفون فيها بالخطأ، ويطلبون منه مواصلة التعاون معهم. ولقد فعل ذلك، لعدة سنوات، ولم يجد عشرات أخرى في المعجم نفسه وحسب، بل في مصاحف أخرى بلغات مختلفة. وعندما شاخت العلاقة، كان قد أودع عاداته الفريدة، في تصحيح مصاحف بالإسبانية، والإنكليزية، والفرنسية، فإذا كان عليه الجلوس في قاعة انتظار، أو الانتظار في الحافلات، أو في أية صفوف انتظار أخرى في الحياة، كان يشغل نفسه في المهمة الملهمة الدقيقة: تصحيح الأخطاء المطبعية، في أوهال اللغات.

كان الحر لا يطاق في الساعة الثانية عشرة، وكان دخان سجايرنا، نحن الاثنين، قد غيَّب الضوء الشحيح الذي يدخل من النافذتين الوحيدتين. ولكن أياً ما لم يكلب نفسه مشقة تهوية الغرفة، ربما بسبب الإدمان الشائني، بمواصلة تدخين الدخان نفسه حتى الموت. أما الحر، فكانت حالتي معه مختلفة. فقد كنت أعطي، خلفياً، بالقدرة على تجاهله حتى الثلاثين درجة مئوية في الظل. أما ألفونسو، بالمقابل، قراح يختلج ملاهيه، قطعة بعد أخرى، مع اشتداد الحر، دون أن يقطع عمله. بدأ يرطبة العنق، ثم القميص، ثم القميص الداخلي. وكان في سلوكه ذلك، فتادة أخرى هي أن لمسه تظل جافة، بينما هو يذوب في العرق، ويستطيع ارتداها من جديد، عندما قيل الشمس، مكرية جليداً،

وطازجة، مثلما كانت عند القطور. ولا بد أن هذا هو السر في ظهوره المتألق دائماً، وفي أي مكان، بيدلته الكتاتيب البيضاء، وورطات عنقه ذات العقدة الملونة، وشعره الهندي القاسي والمفروق في منتصف رأسه بغط رياضي متقن. وهكذا كان مرة أخرى، في الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما خرج من الحمام، كما لو أنه قد استيقظ من إغماءة مريحة. وسألني عندما مر بجانبني:

- ألا نفدي؟

قلت له:

- ليس هناك جوع يا معلم.

كان الرد مباشراً في قانون القبيلة: فلو قلت نعم، فإذن ذلك يعني أنني في ضيق شديد، ربما منذ يومين على الحيز والماء. وفي هذه الحالة، أذهب معه دون مزيد من التعليقات، ويكون واضحاً أن عليه تدبير الأمر ليدعوني. أما الرد - ليس هناك جوع - فيمكن أن يعني أي شيء. ولكنها كانت طريقي في القول له إنني لا أجد مشكلة في تدبير الغذاء. اتفقتنا على اللقاء في المساء، كما هي العادة، في مكتبة موندر.

بعد الظهر بقليل، جاء رجل شاب يبدو كأنه مثل سينماتي. كان شديد الشقرة، وبشرة مدهوشة بقسوة المناخ. له عيناؤ زرقاوان لحامضتان، وصوت موسيقي دافئ. وبينما نحن نتحدث عن المجلة وشبكة الصدور، رسم على غطاء المصدة بروفيل ثور هائج بستة خطوط سرية متقنة، وولع على الرسم، مع ملاحظة موجهة إلى فونسيبور. ثم ألقى قلم الرصاص على الطاولة، وودع بصق الباب بقوة. كتبت مستغرقاً في الكتابة، حتى إنني لم أنظر إلى الاسم الذي وقع به على

الرسم. وهكذا وصلت الكتاتيب، طوال ما تبقى من النهار، دون أن أكل أو أشرب. وعندما نفذ ضوء المساء، اضطرت إلى الخروج متلمساً طريقي. ومعنى المخططات الأولى للرواية الجديدة، سعيداً باليقين بأنني وجدت أخيراً، طريقاً مختلفاً لشيء كنت أكتبه، دون أمل منذ أكثر من سنة.

في تلك الليلة فقط، عرفت أن زائر بعد الظهر، هو الرسام أليخاندر (أوبريغون)، وكان قد رجع حديثاً من واحدة أخرى من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا. لم يكن. منذ ذلك الحين، واحداً من أعظم رسامي كولومبيا وحبيب، وإلغا أحد أكثر الرجال المحبوبين من أصدقائه كذلك. وكان قد استبق هودنه بالإخبار بأنه سيشارك في إطلاق مجلة كرونیکا. وجدته مع أصدقائه المقيمين في حانة بلا اسم في زقاق النور، في وسط الحي السفلي. وكان ألفونسو فونسيبور قد عمد تلك الحانة بفنون كتاب حديث لخرام غرين: الرجل الثالث. كانت عروقات أليخاندر (أوبريغون)، تانغية على الدوام. وبلغت هودنه ذروتها في تلك الليلة، في استعراض جدد مروض بطيع، مثل كائن بشري، أوامر سيده. يلف على قاتمطين، يمد جناحيه، يغني بصغير إلهاعي موزون، ويحكي المصنفين بانحناءات ترقير مسرحية، وفي النهاية، وأمام المروض النشراق بعاصفة التصفيق، أمسك أوبريغون المجدد من جناحيه، بأطراف أصابعه، ودسه في فمه أمام زهرل الجميع، ومضغه حياً بثلثة حصى. لم يكن من السهل إرضاء المروض اليائس بأي نوع من المديح والعطامات. وقد علمتُ قسماً بهد، أنه لم يكن المجدد الأول الذي يأكله أوبريغون حياً، في استعراضات عامة، وإن يكون الأخير.

لم أشعر قط، مثلما شعرت في تلك الأيام، بالندى في أجواء تلك المدينة، ونصف دزينة الأصداق الذين بدأت سمعتهم بالانتشار في الأوساط الصحفية، باسم جماعة بارانكيّا. كانوا كثنائي وفتانين شهماً يارسون نوعاً من الزعامة على حياة المدينة الفغافية. تتودهم يد المعلم الكتلاي دون واسون فينيس، المسرحي والمكتبي الأسطوري، والمكرس في موسوعة إسبانيا منذ العام ١٩٢٤.

كنتُ قد تعرّفت عليهم في شهر أيلول من السنة السابقة، عندما جلست من كتابنا حيناً - حيث كنتُ أعيش في ذلك الحين - بتوصية مستعجلة من كليمنتي مانويل ثيبالا - رئيس تحرير صحيفة الأونيفرسال، التي كتبت فيها أولى مقالاتي الصحفية. أمضيت ليلة في الحديث عن كل شيء، وبقيت على اتصال متحمس ودائم، نيتناول الكتب والضمائم الأدبية. وانتهى بي الأمر إلى العمل معهم. كان هنالك ثلاثة من الجماعة الأصلية، يتميزون باستقلاليّتهم ومبولهم الطبيعية: خيرمان بارغاس، وألفونسو غونزاليس، وألفارو سيبدا ساموديو، وكانت تجمع بينا أقباء كثيرة مشعركة حتى كان يقال، بسوء نية، إننا أبناء الأب نفسه. ولكننا كنا معزولين، وكانوا يحبوننا قليلاً في بعض الأوساط بسبب استقلاليتنا، وميلنا الجامع، والتصميم الخلاق الذي يشق طريقه بالناكب، وحياً، بكل أمره كل واحد منا على طريقته، دون أن يوفق في ذلك دائماً.

كان ألفونسو غونزاليس كاتباً وصحفيّاً بارعاً، في الثامنة والعشرين من عمره. واطب لوقت طويل، على كنيانة عمود يوحى عن الوقائع الرائعة في جريدة اليسرال دو بختوان "جو اليوم"، وبلاسيو

الشكسيري المستعار "بول"، وكلما ازداد تعرّفنا على استهنازه وحسه الساخر، كان فهمنا يتضاءل حول أنه قرأ الكثير من الكتب، بأربع لغات، وفي كل الموضوعات التي يمكن تخيلها. وقد كانت لهجته المهيبة الأخيرة، حين صار في الخمسين من عمره تقريباً، هي سيارة هائلة في حالة يرثى لها، كان يقودها بكل مجازفة بسرعة عشرين كلمومتراً في الساعة. وكان سائق سيارات التاكسي، أصداؤه المحبوبون وأكثر قرأته حكمة، يتصرفون عليه من بعيد، فيقفون جانباً، ليلسحوا له الطريق.

أما خيرمان بارغاس كاتبٌ، فكان كاتب عمود في مساندة "إلتاسيونال". نافذ أدهى دقيق ولاذع، وصاحب نشر خدوم يمكن له أن يقنع القارئ بأن الوقائع تحدث، لأنه هو الذي يرويها فقط. كان أحد أفضل مذهبى الإذاعة، وأوسعهم ثقافة، دون شك، في أزمنة المهن الجديدة الطبية تلك، وغودجا جيداً لكاتب التحقيقات الطبيعى الذي كنتُ أرغب في أن أكونه. أشقر وذو عظم فاس، وعينين زرقاوين زرقه خضرة. ولم يكن بالإمكان، فهم متى أمكن له الاطلاع لحظة بلحظة، على كل ما هو جدير بأن يُقرأ. لم يتوان لحظة واحدة عن هوسه المبكر في اكتشاف قيم أدبية خفية في أنحائها، يروينها القصية المنسية، ليعرضها أمام الملأ. ومن حسن الحظ، أنه لم يتعلم قيادة السيارات قط، في جمعية الساهين تلك، لأننا كنا نخشى ألا يتمكن من مقاومة إغراء القراة، وهو يمشق.

أما ألفارو سيبدا ساموديو، بالمقابل، فكان سائقاً مهروساً قبل أي شيء آخر - سائق سيارات وأدب على السواء - فهو قصاص من

الجديدين، عندما كان يمثل إرادة الجلوس لكتابة قصصه؛ وناقذ سينمائي بارع، والأوسع ثقافة دون رعب، ومنشط المناظرات الجريئة. كان يبدو غمرياً من ثيابها غرائفي، ذا بشرة مدهوغة ورأس يذيع تفضيه خصلات شعر سوداء مشعقة، وله عينا مجنون لا تخفيان سهولة الوصول إلى قلبه. نعله المفضل كان صندلاً قماشياً من أرخص الأتواع. وبعض بأسنانه على سيجار ضخم، ومطفاً في أغلب الأحيان. كتب حروفه الأولى، كصحفي، في جريدة "الإناسيونال"، وفيها نشر قصصه الأولى. وفي تلك السنة، كان في نيويورك ينهي دورة متقدمة في الصحافة بجامعة كولومبيا.

عضو مراقب آخر في الجماعة، هو، مع دون رامون، الأكثر شهرة ومعة. إنه خوسيه فيليكس فونسيبا، والد ألفونسو. صحفي تاريخي وقصاص من أكبر الكبار. نشر ديوان شعر بعنوان "ريات شعر المدار" سنة ١٩١٠، وروايتين "كوسمي" سنة ١٩٢٧، و"مغامرة حزينة لأربعة عشر حكيمًا"، في سنة ١٩٢٨. ثم يخلق أي من كتبه نجاحاً في المكتبات، ولكن النقد المتخصص أهتير خوسيه فيليكس، على التوام، أحد أفضل القصاصين، والمخفق بسرخي برونشوا.

لم أكن قد سمعت به قط، عندما تعرفت عليه. وعين تصادف وجودنا وحدثنا في ظهيرة أحد الأيام، في مقهى جامي، بهرني على الفور بحكمته وبساطة محادثته. كان معارفاً سابقاً وناحياً من سجن مشؤوم في حرب الألف يوم. لم يكن يملك تكوين رامون فينيس. ولكنه كان أقرب إلى نفسي، لطريقته في الحياة، وثقافته الكارمية. غير أن أكثر ما كان يعجبني فيه، هي فضيلته الغريبة في نقل حكمته، كما لو أنها

مسألة خياطة وغناء. كان محدثاً لا يهزم، ومعلماً في الحياة. وطريقته في التفكير مختلفة عن كل من عرفتهم، حتى ذلك الحين. كنا أنا وألفارو سبباً نقضي ساعات، ونحن نستمع إليه. ولا سيما حول مبداه الأساسية، بأن القرن الرئيسي بين الحياة والأدب، هو مجرد خطأ بسيط في الشكل. فيما بعد، لست أدري أين، كتب ألفارو وصحة صائبة: "جميعنا خرجنا من خوسيه فيليكس".

تشكلت الجماعة بطريقة عفوية، بقوة المجاذبة تقريباً، وبقتضى تألف واسع. إنما يصعب فهمه لثوالة الأولى. لقد سئلنا مرات كثيرة، كيف بقينا متوافقين على الدوام، رغم الاختلاف الكبير فيما بيننا. وكان علينا أن نرحل أية إجابة، لكي لا نقول الحقيقة، فنحن لم نكن متوافقين دوماً. ولكننا كنا نعرف الأسباب. كنا واعين أنه، خارج إطارنا، تسود عنا صورة المفسدين، الترجسين، الفوضويين، ولا سيما بسبب اختلافاتنا السياسية، فكان يُنظر إلى الفونسو على أنه ليبرالي متعصب، وإلى خيرسان على أنه مفكر حر بالإكراه، وإلى ألفارو كلوضوي متعصب، وأنا على أنني شيعي غير مزمّن وانتحاري كامن. ومع ذلك، فإنني أعتقد دون أدنى تردد، بأن حسن حفظنا الأكبر هو أنه كان يمكن لنا، في أشد المآزق حرجاً، أن نفقد صبرنا، ولكن دون أن نفقد مطلقاً حس السخريّة.

خلافتنا القليلة الجديدة، كنا نناقشها فيما بيننا. ولد تصل أحياناً إلى درجات حرارة خطيرة ولكنها تنسب مع ذلك قود نهوضنا عن المائدة، أو إذا ما حضر صديق من خارج الجماعة. الدرس الأقل عرضة للتسليان، تعلسته إلى الأبد، في يثر "لوس المهندروس"، في ليلة قريبة العهد

بجيشي إلى المدينة، دخلت فيها أنا وألفارو في جدال عويص حول
لوكر. وكان الشاهدان الوحيدان على المنضدة هما خيرمان وألفونسو.
وقد بنيا على الهامش، صامتين صمت الرخام الذي بلغ حدوداً لا تقاوم.
لا أذكر في أي لحظة، وأنا متشبع بالفضيب والحمير الرخيم، تحدثت
ألفارو لحل النقاش باللكمات. بدأتنا كلاماً بالتهوؤ من المائدة للخروج
إلى الشارع، عندما أوقفنا فجأة، صوت خيرمان بأوغاس ألفارو يدوس
سبقي إلى الأبد:

- من ينهض أولاً هو الخامس.

لم يكن أي منا قد بلغ آنذاك الثلاثين من العمر. أنا كنت قد
أكملت الثالثة والعشرين. وكنت أصغر الجماعة سناً، وقد تنوتني منذ
مجيئي إلى المدينة لأبني فيها، في شهر كانون الأول السابق، ولكننا
عندما نكون على طاولة دون رامون فينيس، نتصرف نحن الأربعة كعادة
الإيمان وطالبه. معاً على الدوام، متبادلين الحديث في الموضوع نفسه.
وساخرين من كل شيء، ومتفقين تماماً على المناقشة، حتى صار يُنظر
إلينا في النهاية، كما لو أننا شخص واحد.

المرأة الوحيدة التي كنا نعتبرها جزءاً من الجماعة، هي ماريا
ديمار. وكانت قد بدأت اندفاعها الشعري، ولكننا لم تكن نتحدث
معها إلا في المناسبات القليلة التي نخرج فيها من مدار عاداتنا
السبئية. لقد كانت جلسات السر في بيتها، مع الكتاب والفنانين
المشهورين الذين يَمُرُّون بالمدينة، تاريخية، صديقة أخرى لوفت أقصر
وتواتر أقل، هي الرسامة سيسيليا بوركس التي كانت تأتي من
كارتاخينا، بين حين وآخر، وتراقنا في جولاتنا الليلية، ولم تكن نهما

في شيء، نظرة عدم الاحترام التي ينظر بها إلى النساء، في مقاهي
السكراري وبيوت الضياع.

كما نحن، أفراد الجماعة، تلقى مرتين في اليوم، في مكتبة
موندو، التي تحولت في النهاية إلى مركز اجتماعات أدبية. لقد كانت
ملاذئ سلام وسط ضجيج شارع سان بلاس، الشريان التجاري الصاخب
والمتنهب الذي يَفْرُغ من خلاله مركز المدينة، في الساعة السادسة مساءً.
كما أنا وألفونسو نكتب حتى بداية الليل، في مكتبتنا المصالحق لقاعة
التحرير، في جريدة اليوم الغوي، مثل علميين مجتهدين. هو يكتب
افتتاحياته العقلية الرصينة، وأنا ملاحظاتي الصحفية المشبعة. وكثيراً
ما كنا نبادل أفكاراً من آلة كاتبة إلى أخرى، ونعرض نعتاً، ونستفسر
عن معلومات غداية ورائحة، إلى حد لا نعود نعرف معه، في بعض
الحالات، لمن منا هي إحدى الفقرات.

كانت حياتنا اليومية دوماً معروفة المسار مسبقاً. اللهم إلا في
ليالي الجمعة التي نكون فيها تحت رحمة الإلهام، ونواصلها أحياناً حتى
فطور يوم الاثنين، وإذا ما أطبق علينا الاهتمام، تبدأ نحن الأربعة، حياً
أدبياً دون كايح أو مقياس، يبدأ في حانة "الرجل الثالث" مع حرفي
الحى وميكانيكي ورشة سيارات، إضافة إلى موظفين عسوميين ضالين،
وأخرين مثلهم، ولكن بدوكة أبل. وكان أقل أولئك الزبائن غريبة، هو
لص بيجوت يأتي قبل منتصف الليل بقليل بزي العمل: بنطال راقص
باليه، حذاء تنس، قبعة لاقط كرات، وحقيبة أدوات وعدة خفيفة. لقد
فاجأه أحدهم، وهو يسرق في بيته، وتكمن من تصويره ونشر الصورة في
الصحافة، لعل أحداً يتسكن من التعرف عليه. والشئ الوحيد الذي تم

التوصل إليه هو عدة رسائل من قراء - ساخطين - يستذكرون مثل هذه الألعاب القلرة، مع لصرص البيوت البائسين.

كان اللص صاحب مبول أدبية مسؤولة. لا يضيع كلمة من الحادثات التي تدور حول الفن والأدب. وكنا نعرف أنه مؤلف المجلود لقصائده حب بلقيسها على الزياتن، عندما تكون غير موجودين. وكان ينصرف بعد منتصف الليل، للسطر على بهوت المنطقة الفنية، كما لو أنه ذاهب إلى وظيفة. وبعد ثلاث أو أربع ساعات، يأتينا بهدية ضئيلة القيمة، يخرجها من الفضيحة الكبرى قائلاً: "هنا للأطفال"، دون أن يسأل عما إذا كان لدينا أطفال. وعندما يجتذب كتاباً اعتماده بهديه إثنية، فإذا كان الكتاب جديراً بالاعتناء، نشرح به إلى مكتبة الخي العامة التي تدبرها مبريا ديلماس.

للك الهاماميات الشوارعية، أشاعت غنا سمعة عكرة، بين النساء - التراثات التراثي نلتقي بهن لدى خروجهن من قفاس الساعة الخامسة فجراً، لمينتقلن إلى الرسم الآخر، كيلا يصطدمن بمخمرين طلع عليهم الفجر، ولكن لم يكن هناك في الحقيقة، عربة أكثر نزاعة وخصباً من عربدتنا. وإذا كان هناك من أدرك ذلك فلو أنها، الذي كنت أرافقه في صراخهم، في المزاخير حول أعمال جون دوس ماسوس أو حول الأهداف التي يهددها فريق جوشور الرياضي. حتى إن إحدى المرمصات في ماحور "القط الأسود"، ضجرت من ليلة كاملة من نقاشاتنا الصاخبة المجانية، فصرخت بنا لدى مرورنا،

- لو أنكم تضاجعون مثلياً نصرخون، لكننا نستحم في الذهب!

في أحيان كثيرة كنا نذهب لرؤية شروق شمس اليوم الجديد، في

ماخور بلا اسم، في الخي الصيني، حيث عاش أورلاندو ورفيرا، المقلب "قبضورتا"، طوال سنوات، بينما هو يرسم جدارية كانت رمزاً لرحلة. لا أتذكر أحداً خارجاً عن المألوف أكثر منه، بنظرة القريب، ولحبتة التي كلحية الثعري، وطيبة قلب البشم التي يشتمع بها، ما كان في الموضة الانتفاخية لسمعه هوى أن يكون كويبا. وانتهى به الأمر لأن يكون كويبا أكثر وأفضل مما لو كانه فحلاً. كان يتكلم، ويأكل، ويرسم، ويلبس، ويحب، ويرقص، ويعيش حياته ككويبي، ومات كويباً دون أن يعرف كويبا، لم يكن ينتم، وعندما كنا نزوره في الجسر، ينزل قائلاً عن السقالات، وهو أكثر نطقاً بالألوان من الجدارية التي يرسمها، ويجذب ويستم بغة الماميريين^(١) بنائهم ما تعاطاه من المارجوالا. كنا أبا والفونسو تأخذ إليه مقالات وقصصاً لكي يرسم لها رسوماً توضيحية، فنضطر إلى أن نحكيها له بصوت عال، لأنه لا يطيع صبراً على فهمها مقروءة. وكان ينجز الرسوم المطلوبة في نهاية بتقنيات الكاريكاتير، وهي التقنيات الوحيدة التي يؤمن بها. وتأتي رسوماً جيدة على الدوام تقريباً، مع أن خبرتان بارغاس كان يقول، دون خيت، إنها تكون أفضل بكثير. عندما تخرج منه سيئة.

هكذا كانت بارانكيا، مدينة لا تشبه سواها، وبخاصة منذ كانوا الأول حتى آذار، عندما تهب رياح الصايبات الشمالية عن الأيام الجهنمية، بهبات ليلية نزوية في أفناء البيوت، ولحملة الدجاجات في الجو. فلا يبقى حياً سوى قتلى العابرين، وحانات ملاهي السفن

(١) الماميريون mamirios، رجال الجيش الثوري الذي أسسه بطل تحرير كوبا - خوسيه مارتى - لحوض حوب البحر من البحر الأسفلي - وكانوا في الطلب من الفلاحين واليهود.

البخارية، حول المرفأ. بعض المصفورات الثيبات ينتظرون، ليالي بطولها، زبائن غير مؤكدين، يأتون في السفن النهرية. فرقة موسيقى نحاسية تعزف لمن قالس خامد في طريق أشجار الخوص. ولكن لا أحد يستمع إليها، بسبب صراخ السائقين الذين يتجادلون حول كرة القدم بين سيارات التاكسي المتوقفة عند مصيف جادة بوليفار. المكان المحتمل الوحيد هو مقهى روما. وهو مطعم شمسي يؤمه لاجئون إسبان ولا يخلق أبداً لسبب بسيط، هو عدم وجود أبواب له. كما أنه بلا سقف، في مدينة يهطل فيها دابل من الأمطار الطفوسية. ولكن لم يُسمع قط أن هناك من توقف عن تناول عجة بطاطا، أو تخطى عن عقد صفقة بسبب المطر. لقد كان المقهى مكاناً راكداً في الصراخ الصاخب، فيه مولدات مستديرة مطلية بالأبيض، وكراسي حديدية تحت أشجار أكاسيا وارقة ومزهرة. في الساعة الحادية عشرة، عندما تغلق الصحف الصباحية - الهيرالغو ولايرنسا - أبرابها، يجتمع المحروون الليليون لتناول الطعام. ويكون اللاجئون الإسبان موجودين منذ الساعة السابعة، بعد سماعهم في البيت، نشرة الأخبار المعككة من البروفيسور خوان غوسيد بيرث ورومينتش الذي ما زال يقدم أخباراً عن الحرب الأهلية الإسبانية بعد انقضي عشرة سنة من خسارته لها.

في ليلة حظ طيب حظ هناك الكاتب إدواردو ثالاصيا وهو في طريق عودته من ميواخيرا، وأطلق وصاصة صدس على صدره. دون أن تؤدي إلى نتائج خطيرة. بقيت النضفة ككثيفة أثرية تاريخية يعرضها المتل على السائحين، دون السماح لهم بالجلوس إليها. بعد سنوات من ذلك. نشر ثالاميا شهادة عن مغامرته في "أربع سنوات على متن نفسي"، الرواية التي فتحت أفقاً لا ريب فيها لأعماج جبلنا.

كنتُ أنا الأكثر عزلاً بين أفراد الرابطة. وكنت ألباً في أحيان كثيرة إلى مقهى روما، لكي أكتب حتى الفجر في ركن منعزل. ذلك أنه كانت لوطيفتي كليبهما مزية التناقض بين كونهما مهمتين وسببني الأجر. وهناك كان يفاخني الفجر. وأنا أقرأ دون رحمة، فإذا ما اشتد عليّ الجوع. أتناول فنجاناً من الشوكولاتة الكثيفة مع سنويتش جامبون إسباني جيد، وأقش مع أول أنوار الفجر، تحت الأشجار المزهرة في جادة بوليفار. في الأسابيع الأولى كنت أكتب حتى ساعة متأخرة في قاعة تحرير الجريدة، وأنام بضع ساعات في صالة التحرير المغفرة، أو فوق لفائف ورق المطبعة. ولكنني وجدت نفسي مضطراً، مع مرور الوقت، إلى التبعث عن مكان أقل أصالة.

وكان من قدم لي الحل، كما في مرات تالبة كثيرة أخرى، هم سائقو سيارات التاكسي المرحون في جادة بوليفار، ■ اقترحوا عليّ فندق عابرين على بعد كوادرا واحدة عن الكاندراتية، حيث يمكنني النوم وحيداً، أو مع رفيقة، مقابل بيزو ونصف البيزو. كان البناء قديماً جداً ولكن مُحْتَظ به في حالة جيدة، على غلطة العاهرات المخدمات اللواتي يتجولن في جادة بوليفار، منذ السابعة مساءً، مفرصات غراميات ضالة. كان البراب يدهي لوثيديس. له عين زجاجية زائفة المصنوعة ويخضعهم حياء. وما زلت أتذكره بامتنان كبير. منذ الليلة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك، ألقى البيزو وخمسين سنتافو في درج منضدة الكرنيتوار، المنتفحة بالأوراق النقدية المبعثرة والمجففة، لليلة الأولى. ولقد لي مفتاح الغرفة رقم ستة.

لم أعش أبداً في مكان أكثر هدوءاً. إذ لم يكن يُسمع أكثر من ولع خطوات خاضعة، أو دلدعة غير مفهومة. وبين حين وآخر، صرير نوابض

سرير صدفته. ولكن دون سماع همسة أو تنهيدة واحدة: لا شيء. الأمر الشاق الوحيد هو حر الفرن السائد بسبب التوافد المسرة بصلب خشبي. ومع ذلك، فقد قرأت منذ الليلة الأولى وويليام إيريش. على غير ما يرام، حتى الفجر تقريباً.

كان البناء، منزلاً لملكي سقن، فيه أعمدة موكّسة بالمرمر وأفاريز من النحاس اللصّاع، محيط بفناء داخلي صقوف يزجاج ملون يُشعّ برق ونفيسة زواعية. في الطابق السفلي، كانت مكاتب لوثيق العقود في المدينة. وفي كل واحد من طوابق البيت الأصلي الثلاثة، ست حجرات كهجرة من المرمر، حُوت بالورق المقوى إلى حجرات صغيرة - مثل حجرتي - ليجمع فيها فتيات الليل السريات معصولهن. وكان محل دق الأعتاق السعد ذاك، قد حمل ذات يوم اسم فندق نيويورك. وقد أطلق عليه ألفونسو فونمايور. فيما بعد، نسبة ناطحة السحاب. تكريماً للمنتحرين الذين كانوا يلقون بأنفسهم، في تلك السنوات، من الإمبراطور سويت بيلدنج.

ولكن محور حياتنا على كل حال، كان يتركز في مكتبة "موندو". حيث كنا نذهب في الساعة الثانية عشرة نهاراً، ثم في الساعة مساءً. وكان موقع المكتبة في أكثر لطاعات شارع سان بلاس ارتداداً. وقد كان خيرمان بارغاس، الصديق الحميم لصاحب المحل دون خورخي روندون، هو من أقمته بإنشاء تلك المكتبة التي تحولت، بعد وقت قصير، إلى مركز اجتماع الصحفيين والكتاب والسياسيين الشباب. لم تكن لدى روندون، خبرة في هذا النوع من التجارة، ولكنه تعلم بسرعة، وبصبر وأريحية حولا، إلى نصير للأدب والعلوم لا يُنسى. لقد كان خيرمان

وآلفارو وألفونسو، هم مستشاروه في طلبات الكتب، ولا سيما الإصدارات الجديدة من بريسن أبرس التي بدأ الناشرون فيها، بعد الحرب العالمية الثانية، بترجمة الجديد في الأدب، من كل أنحاء العالم، وطباعته وتوزيعه بالجملة. وبفضلهم صار بإمكاننا أن نقرأ في حينه، الكتب التي ما كان يمكن لها أن تصل إلى المدينة بطريقة أخرى. وكانوا هم أنفسهم يشجعون الزبائن، واستطاعوا أن يعيدوا تحويل بارانكيّا إلى مركز القراءة الذي انحدروا في سنوات سابقة، عندما اختفت من الوجود، مكتبة دون رامون التاريخية.

لم يكن قد انقضى وقت طويل على مجيئي إلى المدينة، عندما انضمت إلى تلك الجماعة الأخيرة التي تنتظر بالحي كتب دور النشر الأرجنتينية الجوالين، كميخائيل من السماء، وصرتنا بفضلهم، من المعجبين المبكرين بخورخي لويس بورخيس، وغريغو كوروناثار، وفيلسبوسيرثو غيرنانديث، والروائيين الإنكليزي والأمريكيين، في ترجمات جيدة تنجزها محصاة فيكتوريا أوكاسيو. وكانت "فولقة ناتر" لأرتورو بارنا، هي أول رسالة تحمل الأمل من إسبانيا الثانية وعقبة الصوت، بعد حربين متتاليتين. أحد أولئك الباعة الجوالين، وهو غييرمو دافالو، الدقيق في مواعده، كان يتميز بعادته المميّزة في المشاركة في حفلاتنا الليلية، ويهدي إلينا نسخ النماذج من الكتب الجديدة بعد أن ينجز صفقاته في المدينة.

من كانوا يعيشون بعيداً عن مركز المدينة، لم يكونوا يذهبون ليلاً إلى مقهى روما، ما لم يكن هناك سبب محدد. أما أنا، فكان المقهى هو البست الذي لا أملكه. كنتُ أعمل في الصباح في قاعة لمحرر "الهيرالدو" الهادئة، وأنفدى كيفما أستطيع. وعندما أستطيع، وأينما

أستطيع. ولكن، مدعواً على الدوام تقريباً من جماعة الأصدقاء الطيبين والسياسيين ذوي المصالح. وفي مساء أكتب زاويتي الصحفية اليومية "الزرافة"، وأي نص هابر آخر. وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً والسادسة مساءً، كنت الأكثر دقة وانتظاماً في الذهاب إلى مكتبة موندو، أما مقبلات ما قبل الفناء التي هُتكت الجماعة تتناولها طوال سنوات، في مقهى كولومبيا. فقد انتقلت فيما بعد، إلى "مقهى جابي"، على الرصيف المقابل، لأنه أكثر الأماكن المظلمة على شارع سان بلاس، نهوية ومرحاً. وكنا نستقبل فيه الزيارات، ونستخدمه كمكتب، ويمكن لعقد الصلوات، وإجراء المقابلات، ونفظة التفاء سهلة.

كان لمضئ دون رامون، في مقهى جابي، فوائد فخرتها العادة ولا سهيل إلى خرقها. فهو أول من يصل، لأن دوام عمله كمعلم ينتهي في الرابعة مساءً. ولم تكن الطاولة تتسع لأكثر من ستة منا. وقد اخترنا أماكننا انطلاقاً من العلاقة بمكانه. وكانت إضافة كرسي جديد، لا متسع له، تعتبر تصرفاً غير لائق. بسبب قدم الصداقة ومستواها، جلس خيرمان إلى يمينه، منذ اليوم الأول. وكان المسزول عن شؤونه المادية، فهو يحلها له حتى لو لم يطلب منه ذلك، لأنه لم يكن يقيمور العلامة، مهمل طبيعي خلقي، الضفاهم مع المحبة الصليبية. وقد كانت المسألة الأساسية في تلك الأيام، هي بيع كنيته إلى مكتبة الهي العامة، وتصلية أسباً - أخرى قبل سفره إلى برتلونه. وكان خيرمان يبدو أنه يابن بار أكثر منه سكرتيراً.

أما علاقة دون رامون بالفرنسوس، فكانت تركز بالمقابل على مسائل أدبية وسياسية أكثر صعوبة. في حين كان ألفارو، يبدو لي دوماً معطل

الإرادة، عندما يهد نفسه وجهداً على الطاولة، مع دون رامون، ويحتاج إلى حضور آخرين لكي يبدأ الإبحار. الكائن البشري الوحيد الذي كان يتمتع بحرية اختيار المكان على المضئ، هو خوسيه فابلنيس. وفي الليل، لم يكن دون رامون يذهب إلى "جاني"، وإنما إلى مقهى روعا مع أصدقاء منفاة الإسيان.

آخر من انضم إلى مضئ هو أنا. ومنذ اليوم الأول جلست، دون أي حق، على كرسي ألفارو وسببنا الذي كان في نيويورك. وقد استقبلني دون رامون كتلميذ آخر له، لأنه كان قد قرأ قصتي القصيرة في جريدة الإسيكتادور. ولكنه لم يكن ليقتصر فقط، مع ذلك، أنني سأصل في اثنية معه إلى حد الطلب منه أن يقرضني النقود، من أجل رحلتي إلى أراكاتانكا مع أسي. بعد وقت قصير من ذلك، وبصادفة لا يمكن تصورها، أجريت محادثتي الأولى والوحيدة معه على انفراد، عندما ذهبت إلى "جاني" في وقت مبكر. قبل الآخرين، لأفعل له، دون شهود، التبرعات الستة التي أقترضني إياها.

- أهلاً بالمبقر - جاني كالعادة. ولكن شيئاً في وجهي أثار قلقه، فأضاف: - هل أنت مريض؟

فقلت له بالضبط:

-- لا أهن يا سيدي. لماذا؟

- أراك نحيلاً - قال هو، ثم أضاف: -، ولكن لا تهتم بما أقوله،

فجيبنا في هذه الأيام نفسي (1).

(١) بالكتاتبة في الأصل، وهي عبارة مذهنة تعني - بصورة تقريبية - "جميعنا متخوّلون في مؤخرتنا".

خبا البيزوات الستة في محفظته بحركة متحفظة، كما لو أنها تقود كسبها بطريقة غير مشروعة. ثم أوضع لي وهو يجرّ خجلاً:
- إنني أخذها كذكري. من شاب فقير جداً، استطاع أن يرد ديناً دون أن يطالب به.

لم أجد ما أؤله. وظللت غارقاً في صمت محمّلة مثل بحر رصاص. وسط لفظ الصالة. لم أكن أعلم قط، بأن يحالفني الحظ بذلك اللقاء. وكان لدي إحساس بأن كل واحد منا، في أحداث الجماعة، يساهم بحبة رمل في الفوضى. وتختلط دعابات كل واحد وتغافاته، بدعابات وتغافاته الآخرين. إنما لم يكن يخطر لي أبداً أنه سيكون بإمكانني التحدث عن الفنون والمجد، على انفراد، مع رجل يعيش منذ سنوات في موسوعة^(١). في فجر أيام كثيرة، بينما أنا أقرأ في وحدة حجرية، كنت أتخيل حوارات مشيرة، ألقى تبادلها معه حول شكوكي الأدبية. ولكنها كانت تلوب دون أن تختلف أبداً مع أول أنوار الشمس. وكان خجلي يتضاعف. عندما يتدفق ألفونسو بواحدة من أفكاره العظيمة، أو يستنكر غيرمان وأباً متجسلاً بطرحه المعلم، أو يصبح ألفارو مشروع يخرجنا عن طوره.

حسن الحظ، أن دون رامون هو من يادر، في ذلك اليوم، في صفي جاسي، إلى سؤالي عن حال قرأ ماني. وكنت قد قرأت حتى ذلك الحين، كل ما استطعت العثور عليه من أعمال جيل الضياع، بالإسبانية. مع اهتمام خاص بفوكتر الذي كنت أتبعه وأجرته بالباحث غفرة حلاقة

(١) المثل هنا مجازي. وهو إشارة إلى أن اسم دون رامون فونيس. كما ذكر قبل صفحات قليلة. ولقد في موسوعة إسبانيا أي كتابي الإسبانية الشهيرة منذ عام ١٩٢٤.

دموية، بسبب خوفي القريب من ألا يكون، على المدى البعيد، أكثر من بلاغي ماكتر. بعد أن قلت ذلك، هزني الحياة من أن أبدو استفزازاً. وحاولت أن أخفف من وقع ما قلته، ولكن دون رامون لم يتج لي الوقت، ودة على، يهده. أعصاب:

- لا تتلق يا غابيتو! فلو كان فوكتر في بارانكيا، لوجدته على هذه الطاولة.

وقد لاحظ من جهة أخرى أنني أولى اهتماماً كبيراً لرامون غوميث دي لا سيرنا، وأستشهد به في "الزرافة" إلى جانب روثاين لا يتطرق الشك إليهم. فأوضحت له بأنني لا أفعل ذلك، إعجاباً بروايته. لأنه، يا شتاء، "كيلا الورد" التي أعجبتني كثيراً، فلان ما يعني فيه، جرة قريحته وموهبته الشفوية، ولكن كرياضة إيقاعية، من أجل تعلم الكتابة فقط. وفي هذا الاتجاه، لا أذكر جنساً أدبياً أشد ذكاً، من "غريغرياته"^(٢) المشهورة. فطاطني دون رامون بإبصاره لأذعة:

- المحظوظ عليك هو في أن تتعلم الكتابة بصورة سيئة، دون أن تلحظ ذلك.

وسمع ذلك، فقد اعترف قبل إغلاق الموضوع بأن غوميث دي لا سيرنا، كان شاعراً جيداً، وسط غرضاء ذات الوميض القسوري. هكذا كانت ردوده، مباشرة وحكيمة. وكنت أكاد لا أجد أعصاباً لتسلها، وأنا صفتن بالحرف من أن يقطع علينا أحدهم تلك القرصة الوحيدة، ولكنه كان يعرف كيف يتحكم بذلك الردود ويفسرها. أحضر له نأله العهد

(٢) غريغرياته *grigoriats* - صورة تقريظ تقدم رؤية شخصية لأحد مظاهر الواقع، وهي تجربة ابتدعها في إحدى نثره - الكاتب رامون غوميث دي لا سيرنا. وللقها على أحد مؤلفات سنة ١٩١٢.

كوكا كولا الساعة الحادية عشرة والنصف، وهذا هو كما لو أنه لم ينته.
ولكنه تناولها ووشف منها وشفة بمصاصة ورقية، دون أن يقطع شروحاته.
كان معظم الزبائن يحترقون، بصوت عالٍ من الباب: "كيف حالك يا دون
رامون؟" فبرد عليهم، دون النظر إليهم، بحركة من يده التي كيد فنان.

وبينما دون رامون يتكلم، كان يوجه نظرات خفية إلى حافظة
الأوراق الجلدية التي كنت ألتصق بها، بكلتا يدي. بينما أنا أستمع.
وعندما انتهت من تناول الكوكا كولا الأولى، روى المصاصة الورقية
كلولب وطلب الثانية. فطلبت واحدة لي، وأنا أعرف جيداً أن كل شخص
يدفع حسابه، على تلك المنضدة، وأخبراً سألتني عن حافظة الأوراق
الجلدية التي ألتصق بها، مثلما يتشبث الفريق بحقيبة.

أخبرته بالحقيقة، إنها مسودة الفصل الأول من الرواية التي بدأت
بكتابتها، إثر العودة من كاناكا مع أبي، وبجراة لن أستطيع العودة إلى
مثلها أبداً، في لحظات الحياة أو الموت، وضعت الحافظة، مفتوحة على
المنضدة أمامه، كاستغزاز بريء. صوب إليّ حديقته الصافيتين بزرق
خضرة، وسألني وهو منهش فلبلاً:

- هل تسمح لي؟

كانت المسودات مكتوبة على الآلة الكاتبة، مع ما لا حصر له من
السطب والنصحبح، على شرائط ورق مطبوعة مثل منفاخ
أكوردبون، وضع، دون تسرع، نظارة القراءة، وفتح الشرائط الورقية
بهراة احتراقية، ولجدها على المنضدة. قرأ دون أن يأتي بأي حركة،
ودون أي تلون في بشرته، ودون أي تبدل في أنفاسه، بينما خصلة شعر
على رأسه، كأنها ناصبة بيضاء، تتحرك مع إيقاع أفكاره، حركة نكاد لا

تلاحظ. وعندما أنهى قراءة شريطتين ورقيتين كاملتين، أعاد طيهما
بصمت ويغن قروسطي، وأطبق الحافظة، ثم خبأ عندئذ نظارته في
جرابها، ووضعها في الجيب، على صدره.

- يبدو واضحاً أنها لا تزال حادة حام، مثلما هو منطقي - قال لي
ذلك ببساطة عظيمة، ثم أضاف: - ولكنها جيدة.

أهدى بعض التعليقات الهامشية، حول استخدام الزمن الذي كان
مشكلة حياة أو موت بالنسبة لي، وهو الأسهل دون ريب، ثم أضاف:

- يجب أن تكون واعياً بأن الدراما قد حدثت، وأن الشخصيات
ليست مرجدة، إلا لاستذكارها، وهكذا عليك خوض الصراع مع زمين.

وبعد سلسلة من التنصيلات التقنية الدقيقة التي لم أستطع لتقدير
فيمستها، لضحالة مجسني، نصحتني بالألا يكون اسم مدينة الرواية
بارانكيًا، مثلما هو مقرر لدي في المسودة، لأنه اسم مصروف جداً في
الواقع، مما لا يترك للقارئ سري هامش ضيق للعجب، ثم انتهت إلى
القول، بنبرته الساخرة:

- أو تصورك كصلاح. وانتظر أن يسقط عليك الاسم من السماء،
أضف إلى ذلك أن أثينا سوفوكليس، لم تكن قط، في نهاية المطاف، هي
نفسها أثينا أنتيغون.

ولكن ما التزمت به غرباً إلى الأبد، هو الكلمات التي ودعني بها
في ذلك الما:

- أشكر لعتراملك لي، وسأكافئك عليه بتسريحة، لا تعرض على
أحد أبداً مسودة، ما زلت تكتبها.

كانت تلك هي معادتي الوحيدة معه على انفراد. ولكنها تغني

عن كل المعاهدات، لأنه سافر إلى برشلونة في الخامس عشر من نيسان سنة ١٩٥٠، مثلما كان مقبلاً منذ أكثر من سنة. متضاملاً في بدلة الجوخ السوداء وبقية الموظفين. كان ذلك أشبه بتفسير تلمذ مرموقة وكان بصحة جيدة وبكامل وضوحه الذهني، وهو في الثامنة والستين. ولكننا نحن الذين رافقناه إلى المطار، ودعناه كشخص عائد إلى مسقط رأسه، لم نضرب جنازته بالذات.

في اليوم التالي فقط، عندما وصلنا إلى موانئنا في مقهى جامي، لاحظنا الفراغ الذي تبقى في كرسيه. ولم يتجرأ أحد على شغل ذلك الكرسي، قبل أن نوصول إلى الاتفاق بأن يكون خيرمان هو من يشغل. وقد احتجنا إلى بضعة أيام. لكني نعتاد على الإقناع الجديد لأحدنا البريعة، حتى وصلت الرسالة الأولى من دون راجين، فهدت كما لو أنها مكتوبة بصوته الخفي، وكانت بخطه الدقيق ذي الحبر البنفسجي. وهكذا بدأت مراسلاته معنا جميعاً من خلال خيرمان، مراسلات متواترة وزخمة، يروي فيها القليل عن حياته، والكثير عن إسبانيا التي كان يعتبرها أرضاً معادية مادام فرانكو حياً، وبقيت السيطرة الإسبانية على كاتالونيا.

كانت فكرة إصدار المجلة الأسبوعية من بنات أفكار ألفونسو فونتيمايور. وسابقة لذلك الأهم بوقت طويل. ولكنني أظن أن سفر الصلابة الكتلائي سرع المشروع. ففي أثناء اجتماعنا في مقهى روما، بعد ثلاث ليالٍ من سفره، أخبرنا ألفونسو بأن كل شيء صار جاهزاً لإصدار المجلة. ستكون أسبوعية متنوعة من عشرين صفحة، صحافية وأدبية، اسمها - كرونিকা - لن يعني الكثير لأحد. وقد بلغنا من

قبح الهذيان أننا لم نستطع الحصول على الموارد حيث يتوفر قاتض منها. بينما تمكن ألفونسو فونتيمايور من الحصول عليها من المهرقين، وميكانيكي السيارات، والموظفين المتقاعدين، وحتى من أصحاب المانات المتواطين الذين وافقوا على أن يدفعوا مشروب روم القصب مقابل الإعلانات. إننا كانت هناك أسباب للتفكير في أنها ستقابل بالترحيب، في مدينة محافظ. وسط ضوضائها الصناعية وكبرياتها المدني. على توفير حي للشعراء.

وسمكون المشاركون المنتهزون، فضلاً عن، قليلين. المحترف الوحيد الذي لديه خبرة جيدة هو كارلوس أوسيس نوغيرا - الشاعر أوسيس -، وكان شاعراً وصحفيّاً يتمتع بخفة ظل خاصة جداً وجسد هائل. موظف حكومي وقيب في جريدة التامبونال، حيث عمل مع ألفارو سيبيدا وخيرمان بارغاس. ومشارك آخر هو روبرتو (بوب) بريشو، علامة من الوسط الاجتماعي الراقى. يمكنه أن يفكر بالإنكليزية أو الفرنسية على أحسن وجه. مثلما يفكر بالإسبانية، وأن يعرف على اليانغو، من المذاكرة، أعمالاً عديدة لكبار الموسيقيين. أما من لم يكن مفهوماً تضمينه في القائمة التي خطرت لألفونسو فونتيمايور، فهو خوليو ماريا سانترو ومينغو. فقد فرضه دون لحفظ لنواياه، في أن يكون رجلاً مختلفاً. ولكن ما لم نفهمه هو إيراد اسمه في لائحة هيئة التحرير، في الوقت الذي كان واضعاً أنه مرموق ليكون روكفلر لاتيني، ذكي، مشفق، ودود، ولكن محكوم عليه دون خلاص بالعيش في ضباب السلطة. وفلة هم الذين يصرخون، مثلما كنا نعرف، نحن الأربعة أصحاب فكرة المجلة، أن حلم سنوات عمره الخمس والعشرين السري، هو أن يصير كاتباً.

المدير، بالمحق الثقافي، سيكون الفونسو. أما خيرمان بارغاس فيسكون، قبل أي شيء، كاتب التحقيقات الرئيسي الذي أملى أن أشاركه الحرفة، ليس عندما يتوفر لي الوقت - الذي لم يكن يتوفر لنا مطلقاً - وإنما عندما يكتمل جلوسي بشعرها. وسيرسل إلينا ألفارو سببينا مساهماته التي ينجزها في ساعات فراغه بجامعة كولومبيا في نيويورك. وفي نهاية القائمة، لم يكن هناك من هو أكثر مني حرية ولهفة لمعجني ونس تحرير في أسبوعية مستقلة، وغير مؤكدة. وهكذا كان.

كان لدى الفونسو أرشيف احتياطي منذ سنوات، وأعمال كثيرة أخذت مسبقاً، في الشهور الستة الأخيرة، مع زوايا وأي، ومواد أدبية، وريپورتاجات متقنة، ووعود بإعلانات مجارية من أصدقائه الأغنياء. رئيس التحرير، غير المرتبط بساعات دوام محددة، والذي خصص له راتب أعلى من راتب أي صحفي في مثل مستواي، غير أنه مشروط بالأرباح المستقبلية. كان جاهزاً أيضاً لتخرج المجلة في حالة جيدة، وفي موعدها. وأخيراً، في يوم السبت من الأسبوع التالي، عندما دخلت إلى غرفتنا في جريدة الهيرالدو، في الساعة الخامسة، قال لي ألفونسو فونسابير، دون أن يرفع نظره عن إنهام، مقالته الافتتاحية للمبريدة:

- هيجل يملك يا معلم. "كرونيكا" تنصدر في الأسبوع القادم.

لم أرتعب، لأنني كنت قد سمعت المجلة نفسها، في مرتين سابقتين. ومع ذلك، فقد كانت المرة الثالثة ثابتة. كان أعظم حدث صحفي في ذلك الأسبوع - وبأسبقية مطلقة - هو مجيء لاعب كرة القدم البرازيلي هيلينو دي نريشاس للانضمام إلى فريق جونيور

الرياضي. ولكننا لن نتناول الحدث في مناقشة مع الصحافة الرياضية المتخصصة، وإنما نخبر ذي أهمية ثقافية واجتماعية كبيرة. فمجلة كرونيكا لن تسمح لنفسها بالتقيد بهذا النوع من التمييز. وأقل من ذلك إذا كان الحدث يتعلق بأمر واسع الشعبية، مثلما هي كرة القدم، وكان القرار إيجابياً، والعمل فعلاً.

كما قد أعددنا مادة واسعة من الصحافة، والتي - الوحيد الذي تبقى للحظة الأخيرة، هو الريبورتاج عن هيلينو. وقد كتبته خيرمان بارغاس، المعلم في كتابة الريبورتاجات والكروي المتعصب. ظهر العدد الأول في موعده الدقيق، في أكشاك السبع، صباح يوم ٢٩ نيسان ١٩٥٠. يوم القديسة سانتا كاتالينا دي سبينا، كاتبة الرسائل الزرقاء، في أجمل ساحة في العالم. وقد طبعت كرونيكا تحت شعار "خطر لي في اللحظة الأخيرة: نهاية أسبوعنا المفضلة". كما نعرف أننا نتحدث اللغة الاصطناعية عسيرة الهضم التي كانت تتأصل في الصحافة الكولومبية، في تلك السنوات. ولكن ما كنا نريد قوله بذلك الشعار، لم يكن له معادل بالفنون نفسه في اللغة الإسبانية. كان الفلال رسماً بالحبر للاعب الكرة هيلينو دي نريشاس، من رسم الفونسو ميلو، رسام الوجوه الوحيد بين رساميننا الثلاثة.

نقلت الطبعة، رغم تعجل الساعة الأخيرة، وغياب الإعلان، قبل وقت طويل من وصول هيئة التحرير، بكامل أعضائها، إلى سناد الملعب البلدي في اليوم التالي - الأحد ٣٠ نيسان -، حيث ستجرى مباراة الذروة بين فريق جونيور الرياضي وسبورتنغ. وكلاهما من بارانكيا. وكانت المجلة نفسها متقسمة، لأن خيرمان وألفارو يشجعان سبورتنغ.

بينما أنا وألفونسو نعيد جونيور. ومع ذلك، فإن مجرد ورود اسم هيلين
وريبورتاج خيرمان بارغاس الرائع، أكفأ الخطأ بأن كرونيتكا هي المجلة
الرياضية الكبرى التي طالما انتظرناها كولومبيا.

كان الاستاد قد امتلأ حتى الرياضات، وبعد ست دقائق من الشوط
الأول، سجل هيلين هدفه الأول في كولومبيا، بضربة من قدمه اليسرى،
سدها من وسط الملعب، ومع أن فريق سيورتنينغ هو الذي فاز في
النهاية ٣/٢، إلا أن ذلك المساء كان مساء هيلين أولاً، ومساءنا نحن
تالياً، بسبب الاختصار الموفق للفلال. إنما لم تكن هناك سلطة بشرية،
ولا إلهية، فادارة على إلتاح أحد من الجمهور بأن كرونيتكا ليست مجلة
رياضية، بل أسبوعية ثقافية تكرم هيلين دي فريثاس، باعتبار مجيئه
إلى كولومبيا، أحد أهم أخبار السنة.

لم تكن مجرد مصادفة موفقة لستجدين، ذلك أن ثلاثة منا كانوا
ينشأون موضوع كرة القدم في أعينهم ذات الاهتمام العام، من فيهم
خيرمان بارغاس طبعاً، وكان ألفونسو فريثاسور متابعاً حريصاً لكرة
القدم، بينما عمل ألفارو ميهيلا، طوال عدة سنوات، مراسلاً في
كولومبيا لك "سيورتنينغ نيوز" التي تصدر في سانت لويز، ولاية
ميسوري الأمريكية. ومع ذلك، فإن القراء الذين كنا نطلف إليهم، لم
يستقبلوا بفراغين مفجوعين أعيادنا الثالية. ونفخى هنا متعصبو
الملاعب دون إحساس بالألم.

وفي محاولة لترقيع ما ترقق، لرونا في جبهة التحرير، أن أتولى
كتابة ريبورتاج رئيسي عن سياستان بيراسكوتشيا، وهو نجم برازيلي
آخر في فريق جونيور الرياضي. على أمل أن أتكن من المصاحبة بين كرة

القدم والأدب، مثلما حاولت، في مرات كثيرة، أن أفعل بعلوم أخرى
خفية في عمودي اليومي. كانت حتى لعب الكرة التي نقل إلي عيواها
لويس كارميلو كوردياً في مراح كاتاكما، قد انخفضت إلى درجة الصفر
تقريباً. أضف إلى ذلك، أنني كنت من المتعصبين المبكرين للبيسبول
الكاريسي - أو لعبة الطابة، كما يسمونها باللغة المحلية -. ومع ذلك،
قد أخذت الأمر على عاتقي.

كان لودجي الذي سأقضي به، طبعاً، هو ريبورتاج خيرمان
بارغاس. وعززت نفسي بريبورتاجات أخرى، وأصبحت بالطمأنينة، بعد
محادثة طويلة آخرتها مع بيراسكوتشيا. وهو رجل ذكي ولطيف، ولديه
إدراك جيد للصورة التي بود أن يقدم بها نفسه لجمهوره، السيئ في
الأمر هو أنني عرّكت به، ووصفته كباسكي فودجي، بسبب كنيته
وحسب. دون أن يستوقفني تفصيل صغير يمثل في كونه زنجياً غاملاً
من أفضل سلالة أفريقية. كانت تلك أكبر غلطة في حياتي، وفي أسوأ
خطة قرعتها المجلة. وبلغ ذلك حداً وجدت فيه نفسي متطابقاً حتى
الروح، مع رسالة قارئ اعتنيتني صطحاً رياضياً عاجزاً عن التمييز بين
كرة وترام، وحتى خيرمان بارغاس نفسه، شديد التدقيق في أحكامه،
أكد في كتابته تذكاري أسفده بعد سنوات، بأن الريبورتاج حول
بيراسكوتشيا هو أسوأ ما كتبته، أظن أنه يبالغ، ولكن ليس كثيراً، لأنه
ليس هناك من يعرف الحرفة مثله، هو الذي كان يكتب التحقيقات
والريبورتاجات، بيرة شديدة التدقيق، تبدو كأنها قد أُلحيت، بصوته على
صُغْد اللبوتيب.

لم تتخل عن كرة القدم أو البيسبول، لأن اللعبتين كانتا واسعتي

الشعبية في ساحل الكاريبي. ولكننا ضاعفنا موضوعات الأوضاع الأدبية الراحة والمستجدة. إلا أن ذلك كله لم يجد نقعاً؛ إذ لم تتمكن مطلقاً من تجاوز الخطأ السائد بأن كروتيكما هي مجلة رياضية. ولكن متمسكيً باللاعب بالمقابل، تجاوزوا خطأهم، وتخلوا عنا لصبرنا. وهكذا واصلنا إصدارها، مثلما قررنا مسبقاً، مع أنها ظلت، منذ العدد الثالث، تظهر في ليسوس غموضها.

لم تغر عزيتي. فالرحلة إلى كاتاكما مع أمي، والمعادلة التاريخية مع دون رامون، وعلاقتي الشخصية بجامعة بارانكيا، بليت في نفسي حساساً جديداً سول بكلميني إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين، لم أكسب شيئاً واحداً، إلا من الآلة الكاتبة. وهذا أمر يبدو لي أكثر جنارة مما يمكن أن يخطر على البال. ذلك أن أول حقوق مؤلف أتاحت لي الميش من قصصي ورواياتي، دُعيت لي، وأنا في الأربعين وضع سنوات. وبعد أن نشرت أربعة كتب بعنوان زهيدة. وإلى ما قبل ذلك، كانت حياتي مضطربة، على الدوام، بشبكة معقدة من الصايده والذرائع والأوهام، لكي أخلص من الأحلام الكثيرة التي سعت إلى تحويلي إلى أي شيء آخر، على ألا أكون كاتباً.

بعدوت كارثة أراكاتاكما، وموت الجد، وتلاشي ما يمكن أن يكون قد نبض من سلطانه الغائصة، ولعننا، نحن الذين كنا نعيش عليها، تحت رحمة الحنين. صار البيت بلا روح حينما لم يعد هناك من يعود في القطار. حيناً وفرانثيمكا سمودوسنيا، بغيتا في كنف إلهورا كاريزو التي تولت مسؤوليتهما بولاً جازياً. وعندما تقدمت الجمعة بصورها وحلقها. أخذها أبرتي معها لكي تعيش حياة أفضل. وهي قوت على الأقل. وظلت الجمعة فرانثيمكا، العذراء والشهيدة، هي نفسها صاحبة الكلام الغريب عبر المألوف والأمثال اللفظة. ورغضت تسليم مفاتيح المقبرة وشغل خبر القهرمان الذي بُعِدَ لتفديسه، مخرعة بأن الرب كان سببوعها. لم كانت تلك هي مشيئة. وفي أحد الأيام، جلست عند باب حجرتها، ومعهما بعض ملائحتها البيضاء الناصعة، لتخط خطافاً مفضلاً على مقاسها. وقد فعلت ذلك بتأن بالغ، جماعة الموت ينتظر أكثر من أسبوعين إلى أن انتهت منه. واستلقت في تلك الليلة دون أن تدوع أحداً، ودون أن تصلي من أي مرض أو ألم. متأهبة لأن تموت، وهي في أفضل حالاتها الصحية. ولم ينتبهوا إلا غيباً بعد، إلى أنها كانت قد ملأت استمارات الرفاة وأخرجت بنفسها إجراءات دفنها. بقيت إلهورا

كاريو، التي لم تعرف رجلاً، بإزادتها أهنأ، وحيدة في عزلة البيت الفسيح. وكان يرقظها في منتصف الليل، وعب السعال الأبدى في حجرات النوم المجاورة. ولكنها لم تهتم بذلك قط. لأنها معتادة كذلك. على تقاسم حرم الحياة الحارقة للطبيعة.

وخلالها لها، بقي أخوها الثرم، إستيبان كاريو، صافي الفهن ونشيطاً، حتى يلوحه شبحوخة منقعدة. وفي ذات مرة، بينما كنت أتناول الفطور معه، تذكرت كل التفاصيل البصرية، عندما حاول بعضهم الإلقاء، بأبيه من المركب في بحيرة نيناغا، مرفوعاً على أكتاف الحشد، وملفوفاً بقطعة خيش، مثلما فعل البهائون بسانتشو بانثا. كان يلهلوا قد مات في ذلك الغين. ورويت الذكرى للخال أستيبان، لأنها يدت في مسكوة. ولكنه نهض قائلاً، واستشاط غضباً، لأنني لم أخبر أحداً بذلك، فور حدوثه. وأبدى تلهفه لكي أتمكن من أن أعدد في الذاكرة، من هو الرجل الذي كان يتحدث إلى الجد في ذلك اليوم. لكي يخبره من هم الذين حاولوا إغراقه. ولم يستطع أن يلهم كذلك، كيف لم يذاق الجد عن نفسه. مع أنه رام صاهر، كان في خطوط النار، غشوات طويلة، خلال حربين أهليتين: وكان ينام والمسدس تحت وسادته. كما أنه قتل في أزمنة السلم، خصصاً في مبارزة. وقال لي إستيبان إن الوقت، لم يفت. مع ذلك لكي يقوم هو وأخوته بالتأمر للإهانة. إنه قاتل غواخيرا: إهانة أحد أفراد الأسرة يدفع ثمنها كل ذكور أسرة العثماني. وكان خالي إستيبان مصحماً، حتى إنه أخرج المسدس من حزامه ووضع على المائدة كيولاً يضيئ الوقت، بينما هو يستجوبني. منذ ذلك الحين، وفي كل مرة نلتقي بها، في مجرانا، تصادد الأمل بأن أكون قد تذكرت. وفي إحدى

الليالي، جاء إلى حجرتي في المجرى، في الفترة التي كنت أستفسر فيها عن ماضي الأسرة من أجل رواية أولى لم أهنأ، واقترح علي أن تقوم معاً بتجريات عن ذلك الاعتداء. لم يستلم قط. وآخر مرة التقيت به في كارتاخينا دي إندياس، سافر وقلبه مشروخ، وقد ودعني بامتسامة حزينة:

- لا أدري كيف توصلت إلى أن تكون كاتباً، مثل هذه الناكسة السبئة.

عندما لم يعد هناك ما يمكن عمله في أراكاناكا، أخذنا أبي مرة أخرى للعيش في بارانكيّا، ولكي يقيم هناك صيدلية أخرى. دون أن يكون معه مستأجر واحد من رأس المال، ولكن بقروض ائتمان جيدة من تجار المحطة الذين كانوا شركاء له في صفقات سابقة. لم تكن تلك هي الصيدلية الخامسة. مثلما اعتدنا القول في الأسر، وإلغا الصيدلية الوحيدة التي كنا نحصلها على الدوام من مدينة إلى أخرى، حسب استشارات أبي التجارية: مرتين في بارانكيّا، ومرتين في أراكاناكا، ومرة في سبتي. وفي كل مرة، كانت هناك فوائد غير مؤكدة، وديون يمكن سداها. وتقلصت الأسرة التي صارت دون جدين ولا أعصام أو أخوال. ودون خدم، إلى الألبون والأبناء. وكنا ستة أبناء. أتفالك - ثلاثة ذكور وثلاث إناث - خلال تسع سنوات من الزواج.

انسانني قلق لهذا الجديد في حياتي. لقد جئت إلى بارانكيّا، عدة مرات من قبل. لزيارة أبوي، عندما كنت طفلاً، وبصورة عابرة على الدوام. وذكرياتي عن ذلك مضطحة جداً. الزيارة الأولى كانت وأنا في الثالثة من عمري، عندما أخذوني إلى هناك بمناسبة ولادة أختي

مارغوت. أتذكر رائحة الرجل الكريمة في المرفأ عند الفجر، وعمره الحصان التي يُعد حذاءها، بسوطه، اللصوص الذين يحاولون الصعود إلى مقعده في الشوارع الترابية المظلمة. أتذكر جدران دار التوليد، حيث ولدت الطفلة، بلونها الترابي الأمغر، وخشب أبوابها ونوافذها، وهواء الأروية النفاذ الذي يعيق في الحجر. كانت الوليدة في سرير حديدي بسيط جداً، في أقصى حجرة كئيبة، مع امرأة هي أمي دون ريب، غير أنني لا أتوصل إلى أن أذكر منها سوى حضور، دون وجه، مة في بدا نحيلة، وتهدد.

- أنت لم تعد تذكرني.

لا شيء سري ذلك. فالصورة الأولى البنية التي أحفظ بها عنها، تعود إلى عدة سنوات قديمة، وهي صورة واضحة ومؤكدة، ولكنني لا أتمكن من تحديد زمنها. لا بد أنها من إحدى زياراتها إلى أراكاتا. بعد ولادة عايداً روسا، أختي الثانية. كنت يومئذ ألعب في الفناء، مع حصل حديث الولادة، أحضره لي سانتوس فيسبرو بين ذراعيه من نونسيكا، عندما جاءت العمة صاما، راكضة، ونبهتني بصوت بدا لي مريباً:

- لقد جاءت أمك!

اقتادوني، بما يشبه المرحرة إلى الصالة، حيث كانت كل نساء البيت، وبعض الجارات جالسات، كما في شهر عتي ميت، على كراسي مصفوفة يحاذي الجدران. انقطع الحديث لدى دخولي المفاجئ، وبقيت متحجراً عند الباب، دون أن أدري أيأ منهم هي أمي، إلى أن فتحت لي ذراعيها وقالت، بأكثر الأصوات التي أذكرها، حناناً:

- ها قد صرت رجلاً!

كان لها آنف روماني جميل، وبدت وجهية وشاحبة، وأكثر قبيحاً من أي وقت آخر، بموضة تلك السنة: ثوب من الحرير بلون الفاج، خصره عند الوركين؛ وعقد لؤلؤ من عدة لبات، وحذاء مفضض ذو رباط جلدي وكعب عالٍ، وقبعة أنيقة من القش على شكل نافوس، كما في أفلام السينما الصامتة. أحاطني عناقها برائحة خاصة شيمتها فيها على الدوام. وهزنتي، جسماً وروحاً، هبة شعور بالذنب، لأن واجبي هو محبتها، غير أنني أحست أن ذلك ليس صحيحاً.

أما أقدم ذكرى لدي عن أبي بالمقابل، فهي مؤكدة وواضحة، في الأول من شهر كانون الأول ١٩٣٤، اليوم الذي أكمل فيه الثالثة والثلاثين من عمره. رأيتُه يدخل سعيماً، ومخطوآت سريرة، إلى بيت المهددين في كاتاكا، ببدة كاملة من الكتان الأبيض، وقبعة قش ذات حافة ملساء. هناك أحدهم معانقاً، وسأله كم سنة أكمل، ولم أنس جوابه قط، لأنني لم أفهمه في حينه:

- سن المسبح نفسها.

لقد تسالحت على الدوام، لماذا تبدو لي تلك الذكرى قديمة جداً، مع أنني كنت قد التقيت بأبي دون ريب، مرات كثيرة قبلها.

لم أكن قد ألتقت مع أبوي في البيت نفسه قط. ولكن بعد مولد مارغوت، تبنى جهدي عادة أخذي إلى بارانكييا. بحيث لم أعد غرباً إلى ذلك الحد في بيت والدي، عندما ولدت عايداً روسا، أظن أنه كان بيتاً سعيماً. وكانت لهم هناك صيدلية، ثم فتحوا فيما بعد واحدة أخرى في مركز المدينة التجاري. وعدنا للقاء الجدة أريخيميرا - صاما خيمي -

وثنين من أبنائها، خولمو وإينا. وكانت إينا جميلة جداً، ولكنها مشهورة في الأسرة، بسوء طالعها. ماتت في الخامسة والعشرين، دون أن يعرف أحد الداء. وما زال يقال حتى الآن إن السبب هو شتم خطيب صربوس. وكلما كنا تكبر أكثر، كانت ماما غيمسي تبدو لي أكثر لطفاً وبقاء لسان.

في تلك الفترة بالذات، سبب لي أهواي نكسة عاطفية خلقت في نفسي ندبة، من الصعب محوها. حدث ذلك في يوم عانت فيه أمي هبة حزن، وجلست تغامب ملاصق البهانو بلحن "عندما انتهب الرقص"، فالتى غرامياتها السرية التاريخية. وخطرت لأمي الشقاوة الرومانسية بلبس الغبار عن الكمان لرافقتها، مع أن أحد أوتاره كان مقطوعاً. اندمجت هي بسهولة على طريقتها، كرومانسية مبكرة، وعزفت أفضل من أي وقت آخر، إلى أن نظرت إليه راضية من فوق كنفها. وانتهت إلى أن عبثه مفضلتان بالدموع. "من تذكرك الآن؟" سألته أمي. بروحة قاسية. فرد هو، مستلهماً لحن الغاليس: "أتذكر المرة الأولى التي عزفناه فيها معاً". عندئذ وجهت أمي ضربة غضب، بكلتا قبضتيها، إلى ملاصق البهانو. وصرخت بأعلى صرتها:

- لم تعزله معي يا عناق! أنت تعرف جيداً من هي التي عزفته معها، وأنت تهكي من أظها.

لم تذكر الاسم، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر قط. ولكن الصرخة جمدتنا جميعاً من الرعب، في أماكن مختلفة من البيت. لربس إنريكي وأنا. وكنا لدينا على الدوام أسباب خفية للخوف. احتيأنا تحت الأسرة. وهبت هابنا إلى بيت الجبران، وأصبحت مارغوت يحمي

مفاجئة أبتعتها تهني طوال ثلاثة أيام، وحتى الأخوة الصغار كانوا معتادين على انفجارات غيرة أمي تلك، بعينها الملتهبين وأنفها الروماني المزهق، مثل سكين. كنا قد رأيناها تنتزع، يهدو غريب، لرحلات من الصالة ومطعمها واحدة بعد أخرى، على الأرض، في وابل بؤر زجاجي صائب. رافجانها، وهي تشم ملابس أبي لقطعة قطعة، قبل أن تلقى بها إلى حلة الفيل. لم يحدث أي شيء آخر بعد ذلك، في ليلة العزف الثنائي التراجيدية تلك. ولكن موزون البهانوات الفلورنسي أخذ البهانو لبيعه. وانتهى الأمر بالكمان - مع المدس - إلى التعفن في خزانة الملابس.

كانت بارانكيو، آنذاك، حالة متقدمة في التقدم العصبي، والليبرالية الرادعة، والتعاضد السياسي. وهي عراجل حاسمة في نوحها وأزدهارها. بعد انقضاء أكثر من قرن من الحروب الأهلية التي عصفت بالبلاد منذ الاستقلال عن إسبانيا، لم ما تلا ذلك من انهيار منطقة زراعة الحوز، المجرعة جواهاً متخنة من القمع الشرس الذي لكل بها، بعد الإضراب الكبير.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يقف في وجه روح أهلها الثلاثة، غفي عام ١٩١٩. كسب الصناعي الشاب ماريو سانتودومينو - والد خولمو ماريو - أصحاء الصمدن، باقتناحه البريد الجوي الوطني بسبع وخمسين رسالة في كوس من قماش الخيم ألبى به على شاطئ بورتو كولومبيا، على بعد خمسة فراسخ من بارانكيو، من طائرة بدائية يقودها الأمريكي الشمالي ويليم توكس مارتين. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، جاء فريق من الطيارين الألمان - بينهم هيلموت فون كروهن - ودشنوا

المخطوط الجوية بطائرات جنركز ف-١٣، وهي أولى طائرات فرعت نهر
مجدلينا، مثل جنادوب تحركها العناية الإلهية، حاملة ستة ركاب
جسورين وأكياس البريد. كان ذلك هو جنين الشركة الكروموية الألمانية
للنقل الجوي - SCADTA، إحدى أقدم شركات النقل الجوي في العالم.
انتقلنا الأخير إلى بارانكيا، لم يكن بالنسبة لي مجرد تغيير
مدينة وبيت، وإنما تغيير أب، وأنا في الحادية عشرة من عمري. الأب
الجديد كان رجلاً عظيماً، ولكن لديه إحساساً بالسلطة الأبوية، مختلفاً
تماماً عن ذلك الذي جعلنا، أنا ومرضيتا، سعيدين في بيت الجدين.
فبعد أن اعتدنا على أن نكون سبدي نفسنا، تكلفنا مشقة كبيرة في
التكيف مع نظام غريب عنا. كان أبي، في جانبهِ الأكثر مدعاة
للإعجاب والتأثير، معطياً ذاتياً بالطلق، وأشد من عرفت من القراء
نهماً. وإن يكن أقلهم منهجية، فبعد أن هجر مدرسة الطب، انكب وحيداً
على دراسة الطب النحساني، الذي لم يكن يتطلب في ذلك الحين
تكويناً أكاديمياً. وحصل على تصريح بمزاولة مع التكريم. ولكنه لم يكن
يتنعم بالمقابل، بصلاية أبي في تجاوز الأزمات. وقد أمضى أسوأها في
أرجوحة النوم في غرفته، وهو يقرأ كل ما يقع بين يديه من الورق
المطبوع، ويحل الكلمات المشاغبة. غير أن مشكلته مع الواقع كانت
محصنة على الحل. فقد كان ينظر إلى الأخطار، بروع شبه أسطوري.
ولكن ليس الأخطار، الذين لا تفسير لفناهم. وإنما أولئك الذين شكلوا
ثروتهم بقوة الموهبة وسعة الأفق. وكان يفتي مؤلفاً في أرجوحة نومه،
حتى في وضع النهار، يراكم ثروات هائلة في مخبئه، بمشروع سهلة لا
يفهم كيف لم تخطر له من قبل. وكان يحب أن يستشهد ويضرب الأمثلة

بأسرع ثروة وجد عنها خيراً في صحيفة دياريو، مشفاً فوسخ من التحذيرات
الولود. ومع ذلك، فإن تلك الصفقات الكبرى الغريبة لم تكن تجري في
الأماكن التي نعيش فيها؛ وإنما في جنان منعزلة سمع عنها خلال تشرد،
كعامل تلغراف. عدم واقعيته المتهوّم أبقتنا معلقين بين الخيالات والعودة
إلى البدء من البداية. ولكن مع وجود فترات طويلة كذلك، لم يسقط علينا
خلالها من السماء، حتى فئات خبزنا كفاف يومنا. وقد علمنا أبوانا، على
أي حال، سواء في السراء أو الضراء، أن نحتفي بالأولى ونشتمل الثانية
بؤذان وولار كاتوليكي، على الطريقة القديمة.

التجربة الوحيدة التي كانت تنقصني هي السفر وحيداً مع أبي. ولد
حصلت عليها كاملة، عندما أخذني إلى بارانكيا لأساعده في إقامة
الصوملية، وفي الإعداد لمجيء بقية الأسرة. ما فاجأني أنه كان
يعاملني، ونحن وحدنا، كما لو أنني شخص راشد، بحجة واحترام. حتى
إنه كان يكلفني بهصات لا تبدو سهلة على سنوات عمري، ولكنني
أنجزتها على خير ما يرام وسعادة، مع أنه لم يكن راضياً على الدوام.
كان من عادته أن يروي لنا قصصاً من طفولته في قرية مولده، ولكنه
يكورها سنة بعد أخرى للمولودين الجدد. بحيث راحت تفقد بهجتها في
نظر من يهرفونها. حتى إننا نحن الكبار، كنا تنهض حين يبدأ بروايتها
بعد تناول الطعام. ولد أغضبه لويس إريكي، عندما قال، وهو ينسحب
في واحدة من نوبات صراحته:

- أخبروني، عندما يموت الجد مرة أخرى.

تلك الانتفاغات شديدة العفوية، كانت تشير غضب أبي، وتضاف
إلى الأسباب التي كانت تتراكم من أجل إرسال لويس إريكي إلى

إصلاحية مهذبتين. ولكنه تحول معي في بارانكيًا إلى شخص آخر. أرفف قائمة التوارد الشعبية، وراح يقص علي مقاطع مشوقة من حياته الشاقة مع أمه، وبخل أبيه الأسطوري، والمصاعب التي فحقت دراسته. تلك الذكريات أتاح لي محملاً أفضل لبعض نزواته، وتفهم بعض عدم تفهم لنا.

تحدثنا، في تلك الفترة، عن كتب قرأناها أو في سبيلنا إلى قراءتها. وجمعنا من المواعيد المروية في السوق العام، محصوراً والمرأ من قصص طرزان والتحريرين وحروب الفضاء. ولكنني كنت أبدأ على وشك أن أكون ضحية حسه العملي، ولا سيما عندما قرر أنه علينا الاكتفاء بهوجة واحدة في اليوم. وجاءت الأرملة الأولى، حين فاجأني، وأنا أصلاً بالمياه الغازية والحيز المحلي فجوات العشاء عند الغروب. بعد مرور سبع ساعات على تناول الغداء، ولم أستطع أن أخبره من أين جئت بالفقود لشرائها. لم أجرو على الاعتراف له بأن أمي قد أعطيني، خفية، بعض البهزوات، محسباً من حمية التماسك الغذائية التي يفرضها في رحلاته. وقد استمر تواطؤ أمي فائد، طالما هي تلك الوسائل. فحين صرت تلميذاً وإطلياً في المدرسة الثانوية، كانت تضع لي عشرة بهزوات في حقيبة صابون "زوتير" وهي تأمل أن أعتبر عليها في لحظة حرجة. وهكذا كان: فعندما كنا ندرس بعضاً عن البيت، كانت أي لحظة تعتبر مثالية، للعثور على عشرة بهزوات.

كان أبي يتدبر الأمر لكي لا يتركني في الليل، في صبيانية بارانكيًا. ولكن حلوله لم تكن هي الأكثر إمتاعاً لستوات عمري الانتسي عشرة. فالتزيارات الليلية لأسر الأصدقاء، كانت تنهكتني. لأن الأسر التي

لها قنناء في مثل سني، مجهرون على النوم في الساعة الثامنة، ويتركونني معذباً بالشجر والنحاس. في قفر الثمرات الاجتماعية القاحلة. ولا بد أنني غفوت في إحدى الليالي، ونحن في بيت طيب صديق. ولم أدر كيف ولا في أي ساعة استيقظت سائراً في شارع لا أعرفه. لم تكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي أنا فيه، ولا كيف وصلت إلى هناك. ولم يكن بالإمكان فهم ذلك إلا على أنه حالة من المشي نائماً. لمس ثمة سوابق عاتلة، ولم تتكرر كذلك حتى اليوم، ولكنه ما زال التفسير الوحيد الممكن. أول ما فاجأني، عندما استيقظت، هو واجهة صالون حلاله ذات زجاج مشع، حيث كانوا يخدمون ثلاثة أو أربعة زبائن، تحت ساعة جدار تشير إلى الساعة وعشر دقائق. وهو وقت لا يمكن فيه لطفل في مثل سني، أن يكون وحيداً في الشارع. ولا تباكي من الرعب، أخطأت في أسماء الأسرة التي كنا نزورها، وتذكرت بصورة غير واضحة، عنوان البيت. ولكن بعض العابرين فكثروا من ربط بعض المبهوط، وأوصلوني إلى العنوان الصحيح. وجدت الجيران في حالة طلع، مطرحون كل أنواع التكهّنات حول اختفائي. الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه أنني هو أنني نهضت من الكرسي أثناء تبادلهم المديت. وطئوا أنني ذهبت إلى الحمام. لم يفتح تفسير السرقة (المسور نائماً) أحداً، وبخاصة أبي الذي فهم الأمر دون صيد من اللطف والدروان. على أنه شبطنة غير موفقة من جاني.

وقد استعدت لعتباري، لحسن الحظ، بعد بضعة أيام في بيت آخر، حيث تركني في إحدى الليالي بينما هو يحضر عشاء. عمل. كانت الأسرة بكاملها، تتابع برنامج مطابقة أحاج شعبية في إذاعة أتلاتيكيو.

وبدت الأحجية في تلك الليلة، غير قابلة للحل: "ما هو الحيوان الذي يتبدل اسمه عندما يتقلب؟" وبمعجزة غريبة، كنت قد قرأت الجواب في مساء ذلك اليوم باللات، في الطبعة الأخيرة من تقوم برحستول، وهذا لي دعابة وديشة: الحيوان الوحيد الذي يتبدل اسمه هو الجمل (escarabajo) لأنه عندما يتقلب يصير جملًا مقلوباً (escarabajo) (١). قلت ذلك سرًا لأحدى طفلات البيت، فصارعت الكبرى إلى الهاتف وقدمت الجواب لإذاعة أتلانتيكو. وكسبت الجائزة الأولى التي تكني لدفع إيجار البيت عن ثلاثة شهور، منه يوزو، استأ الصالون بالجيران الصاخبين الذين استمروا إلى البرنامج وهرعوا لهفته الرابحين. ولكن ما كان بهم الأسرة، أكثر من المال، هو الفوز بعد ذاته في مسابقة الإذاعة كانت عنوان مرحلة برمتها على ساحل الكاربي. لم يندكر أحد أنني موجود هناك، وعندما رجع أبي لبأخذني، انضم إلى البهجة الأسرة، وغرب نخب الفوز. ولكن أحنأ لم يخبره من هو الرابع الحقيقي. نتج آخر من فتوحات تلك الحقبة هو الإذن الذي منحني أبي إياه للذهاب وحيداً، إلى عرض يرم الأحد الصباحي في سينما مسرح كولومبيا، وكانوا يقدمون، لأول مرة، أفلاماً مسلطة، خلفتها منها كل يوم أحد، تسبب توتراً لا يتحلى لي لحظة واحدة من الراحة خلال الأسبوع، كان فيلم "غزو مونغو" هو الملحة الفضائية الأولى التي تدور بين الكواكب. ولم أستطع أن أحلّ محلها، إلا بعد سنوات طويلة، فيلم "أوديسة الفضاء" لستانلي كوبريك. ومع ذلك، فقد استطاعت السينما الأرجنتينية، بأفلام كارلوس غارديل وليبرتاد لاماركي، هزيمة الجميع في نهاية المطاف.

(١) لعبة نظرية مبنيـة تشـمـد على اللاحقة *bebe* (أُسـل) - أولاً واللاحقة *bebé* (أُسـل) أي إلى الكلمة الطائفة -

خلال أقل من شهرين، انتهينا من إقامة الصيدلية، وحصلنا على منزل للأسرة وأثاثها، الصيدلية كانت في ركن يرتاده الناس بكثرة، في قلب المركز التجاري، وعلى بعد أربع كوادرات فقط عن جادة بوليفار. أما المنزل، بالمقابل، فكان في شارع هامشي من الحي السفلي الرضيع والمرح. ولكن قبضة الإيجار لم تكن تتفق مع ما هو عليه؛ وإنما مع ما يدعيه: منزل من الطراز القوطي مطلي بدوائر صفراء، وحمرات، وفيه برجان حديدان.

في اليوم نفسه الذي سلموا إلينا فيه محل الصيدلية، علمنا أرجوحتي نونتا، بحلقات من الحبال، ولما هناك على نار هادئة، وفي حياء من العرق، وعندما استلمنا المنزل اكتشفنا، أنه لا وجود فيه لحلقات من أجل تعليق أراجيح النوم، ولكننا فرشنا فراشاً على الأرض، وغنا على أحسن وجه ممكن، منذ أن حصلنا على لقط مستعار لإخافة الفئران. وعندما حضرت أمي مع بقية الفرقة، كان تجهيز المنزل لا يزال غير مكتمل، ولم تكن فيه بعد أدوات مطبخ ولا أشياء كثيرة أخرى من لوازم المعيشة.

كان البيت عادياً على الرغم من مزاحمة الفنية، ويكاد يكون غير كاتب لنا: فهو مؤلف من صالة، وغرفة طعام، ومخزن نوم، وفناء صغير مبلط، وإذا ما دققنا في الأمر، فإنه لم يكن يستحق ثلث المبلغ الذي كنا ندفعه لاستجاره. ارتفعت أمي عندما رأتها، ولكن زوجها طمأنها بالحلم يستقبل مذهبه. هكذا كنا على الدوام، كان من المستحيل تصور كاترين شبيدي الاختلاف، يتفاهمنا بتلك الصورة الجيدة، ويتحايان إلى ذلك الحد.

لقد أثر في مظهر أمي، كانت حلي للصرى السابعة. وهذا في أن كاحليها وجفونها منتفخة مثل خصرها. كان عمرها آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان ذلك هو البيت الخامس الذي توثته. وقد أذهلتني سوء حالتها المعنوية التي تصاحبت منذ الليلة الأولى؛ إذ كانت مرعوبة من فكرة اختارتها هي نفسها، دون أي أساس تستند إليه، بأن المرأة المجهولة قد عاشت هناك، قبل أن تقتل طعنًا. كانت الجريمة قد اقترفت قبل سبع سنوات، خلال وجود أمي في المدينة، في المرة السابقة. وكانت الجريمة مروعة إلى حد أن أمي قبرت عدم العودة للعيش في بارانكيا. وربما كانت قد نسبت ذلك، عندما رجعت في تلك المرة، ولكن الرعب عاد إليها فجأة منذ الليلة الأولى في البيت المكشور الذي لست فيه على الفور. شيئاً من أجواء كلمة دراكولا.

كان الخبر الأول عن المرأة المجهولة، هو العثور على جسد عارٍ بصعب التعرف عليه، بسبب حالة التفسخ التي صار إليها. وأمكن بصحوة، تحديد أنها امرأة في الثلاثين، ذات شعر أسود وعلامات جفاف. وساد الاعتقاد بأنها قد دُفنت حية لأن بها اليسرى كانت فوق يمينها، في حركة رعب. والفراغ اليسرى مرفوعة فوق الرأس. والإشارة الوحيدة إلى هويتها، هي شريطان زرقاوان ومشط زينة صغير مذهب. وبين الفرضيات الكثيرة التي شاعت، بدت أكثرها احتمالاً، فرضية كونها راهبة فرنسية ذات حياة مرحة اختفت، منذ تاريخ الجريمة المحتمل.

كانت بارانكيا تتمتع بالشهرة العادلة، بأنها أكثر مدن البلاد أماناً وحسن ضيافته، إنما مع تكية وقوع جريمة مروعة، في كل سنة. ومع ذلك، لم تكن هناك جريمة سابقة هزت الرأي العام إلى ذلك الحد. ولكل ذلك

الوقت، مثل جريمة المرأة المطفونة التي بلا اسم. كانت جريمة "لابرنسا"، إحدى أهم صحف البلاد في ذلك الحين، تعتبر الرائدة في نشر القصص المصورة أيام الأحاد - بيوك روجرز، وطرزان وبسب القرد -، ولكنها فرضت نفسها، منذ سنواتها الأولى، كأحدى الصحف الرائدة الكبرى في التحقيقات الحمراء. وقد استبقت المدينة في حالة من الترقب التلق، طوال عدة شهور بعنوانها الكبيرة واكتشافاتها الماجنة التي أشاعت، بحق أو دون وجه حق، شهرة كاتب تحقيقات منسى.

كانت السلطات تحاول قمع معلومات الجريمة، بخبرتها أنها تبليط التعريبات. ولكن الأمر انتهى بالقراء، إلى تصديق السلطات، أقل من تصديقهم اكتشافات لابرنسا. وقد أبقنهم المواجهة، وروحهم معلقة بخطط، طوال عدة أيام. وأجبرت المحققين في مناسبات واحدة على الأقل، على تفجير مسار التحقيق. كانت صورة المرأة المجهولة قد ترسخت آنذاك، في المخيلة الشعبية، حتى إنهم كانوا يحكمون بإغلاق الأبواب بالسلاتل في معظم البيوت، ويحتفظون بحراسات ليلية خاصة، محسباً من محاولة القاتل الطليق، مواصلة برنامج جرائمه المريعة، واتخذت تدابير منع الفتيات المراهقات من الخروج وحدن، من بيوتهن، بعد الساعة السادسة مساءً.

ومع ذلك، فإن الحقيقة لم يكتشفها أحد، وإنما كشف عنها بعد بعض الوقت، مرتكب الجريمة نفسه، إفران دونكان، الذي اعترف بأنه قتل زوجته، أنجيليا هوير. في الوقت نفسه الذي قدره الطب الشرعي لوفاة المرأة المجهولة. وأنه دفنها في المكان الذي عُثر فيه على الجثة المطفونة. وتعرف الأقارب على الشريطين الزرقاوين، وعلى مشط الزينة

- ماذا تريد أن تأكل؟

فأطلق الرجل زمجرة:

- خرا.

فرفعت الزوجة. عندئذ، الطبق وقالت بعذوبتها اللدنية:

- ها هو ذا أمامك.

وتقول القصة إن الزوج الفتنع عندئذ بفحاسة زوجته، وتحول إلى

الإيمان بدين يسوع.

كانت صبدلية بارانكها المهدية إخفاقاً متوياً، خلفت منه بعض الشيء. سرعة إدراكه أمي لذلك. فبعد عدة شهور من تدبر الأمر بسبع عقاقير مشرقية، وفتح ثغرتين من أجل سدّ واحدة، انكشف أكثر تخطئاً مما كان يبدو عليه، حتى ذلك الحين. وفي أحد الأيام، حزم أمتعته ومضى للبحث عن الثروات في غري لا تخطر على البال، في وادي نهر جديثنا. وقيل أن يغادر، أخذني إلى شركائه وأصدقائه وأهلهم بشيء من التضخم بأنني سأكون بدلاً منه في شبابه. لم أدر قط. إذا ما كان يقول ذلك حزلاً، مثلما كان يروى أن يقوله حتى في أشدّ المناسبات حرجاً. ثم أنه قاله، بعد مثلما كان يمتعه أن يقوله في المناسبات المبتذلة. وأعتقد أن كل واحد كان يفهمه على طريقته، ذلك أنني كنت، وأنا في الثانية عشرة. رخواً وشاحياً لا أكاد أنفع إلا قليلاً، في الرسم والقناء. وقد قالت المرأة التي نستدين منها الحليب لأمي، ذات مرة أمام الجميع، وأمامي أنا، دون أي ذرة من سوء النية:

- اعتزوني لما أقوله يا سيدة، ولكنني أظن أن هذا الطفل لن يكبر.

الرعب الذي أحسست به جعلني أنتظر الموت المفاجئ، لو كنت طويلاً.

الذي كانت تضعه أنجيلاً، عندما خرجت من البيت مع زوجها، يوم الخامس من نيسان، في رحلة مزعومة إلى كالامار. وأغلقت القضية، دون مزيد من الشكوك بصادفة أخيرة يصعب تصورها، وتبدو كما لو أنها أخرجت من كم مؤلف روايات خيالي: فقد كان لأنجيلاً هو شقيقة توم تشبهها تماماً، مما أتاح التعرف عليها دون أدنى شك.

انهارت أسطورة المرأة المجهولة بتحولها إلى جريمة عاطفية عادية. ولكن سرّ الشبهة الشبهة، ظل طافها في البهوت، لأن التفكير بلغ حدّ اعتبارها المرأة المجهولة نفسها، معادة إلى الغياه، بفنئيل البحر. كانت الأبواب تطلق بزجاج وصعارس من الأثاث، للحيلولة دون أن يدخل منها، ليلاً، الماثل الهارب من السجن بأساليب السحر، وانتشرت في بيوت الأغنياء، موضحة اقتناء كلاب الصيد المدربة، ضد القتلة الفاديين على أخسراق الجدران. والواقع أن أمي لم تستطع تجاوز الخوف، إلى أن ألتصها الجيران بأن بيتنا في الهى السفلى، لم يكن قد شهد في أزمنة المرأة المجهولة.

في العاشر من شهر تموز ١٩٣٩، ألحقت أمي طفلة لها بروسيل حديثة جميل. وقد همدوها باسم ريتا، بسبب الورد غير المصنوع الذي يشعرون به في البيت، لجاء القديسة ريتا دي كاسيا. وهو روج يستند، إضافة إلى أمور أخرى، إلى صبرها في تحمل سوء طباع زوجها المنهتك الضال. وكانت أمي تروي لنا أنه رجع في إحدى الليالي إلى بيته، وقد ذهبت المرأة بعقله، بعد برهة من تهرز دجاجة على مائدة غرفة الطعام. وبعد تكنت الزوجة، حين لم تجد متسعاً من الوقت، لتنظيف الترشف الملوّث، من تغطيته بطبق كبلا يراه زوجها، وسارعت إلى إلهاته بالسؤال للمهود:

وكثيراً ما كنت أعلم، وأنا أنظر إلى المرأة، بأنني لا أرى نفسي وإنما عجباً وليداً. وقد شغلني طيبب المدرسة إصباتي بالثوباء، والتهاب الفؤتين وأسوداد المرأة بسبب الفرائد التعفيفية غير الموجهة. ثم أشأ أن أخلف من ذعر أحد. بل على العكس، كنت أبالغ في شرطي كمعوق لأتخلص من الواجبات. ومع ذلك، فقد قلز أبي عن العلم إلى الحبال، ونادى بي قبل أن يذهب، مسؤولاً عن البيت والأسرة، في أثناء غيابيه:

- كما لو كنت أنا نفسي، موجوداً.

جسمنا يوم سفره في الصفاة، ووجه إلينا تعليمات وتوبيخات ولثائية مما يمكن أن نسيه عمله في غيابيه. ولكننا لم ندرك أنه إنما يتعامل، كجبال بيكي، وغدم لكل واحد منا، قطعة نقد من فئة الخمسة سنقاتو، وهي ثروة صغيرة بالنسبة لأي طفل أنطال. ووعدنا بأن يستبدلها لنا بلقطتين مماثلتين، إذا ما حالقنا عليها ملجمة حتى هودنه. وأخيراً توجه إلي بصوت إلهي:

- بين يديك أنركهم، وبين يديك سأجدهم.

مزلت قلبي رؤيته يخرج من البيت بمضاق ركوب الحبل، ويخرج الأمثلة على كتفه. وكنت أول من استسلم للبكاء، عندما نظر إلينا آخر مرة، ليل أن يعطف عند الناصية، ويودع ملحواً بيده، معتدلة فقط، أدركت، وإلى الأبد، كم أحبه.

لم يكن صحيحاً، تنفيذ توصياته، كانت أمي قد بدأت الاعتقاد على تلك العزلات المناجاة والفاضة، وتصرفها على بعض، ولكن بسهولة كبيرة. وقد فرضت أعمال المطبخ وترتيب البيت، حتى على أصغرنا، المساعدة في المهمات المنزلية، وفعل الجميع ذلك على أحسن وجه.

ورادني في تلك الفترة، قول إحسان بأنني راشد، عندما لاحظت أن آخرتي بدؤوا يعاملونني، كما لو كنت عملاً لهم.

لم أستطع قط، التخلص من الحجل، فكلما اضطرت إلى أن أتصلي، يلحمني الحلي، للمهمة التي أوصاني بها أبي الهائم على وجهه، كنت أدرك أن الحجل هو شبح لا يمكن هزيمته، فلي كل مرة أضطر ليها إلى طلب قرض، حتى من تلك المتفق عليها مسبقاً، في متاجر الأصدغان. كنت أتاخر متجولاً لساعات حول البيت، كابحاً رغبتني في البكاء، وتقلبات بطني، إلى أن ألهجراً أخيراً، وأنا أضغط فكي بقوة لا يخرج معها صوتي. ولم يخل الأمر من صاحب وكان دون لب، ينتهي به الحال إلى إيراكي، "أبها الطفل الرهيد، لا يمكنه التكلم وفكاه مطبق". وأكثر من مرة، رجعت إلى البيت بهدين خاوينين، وباعتذار كنت أخرجه أنا نفسي. ولكنني لم أعرف تعاسة قط، أكبر من تلك التي أحسست بها، عندما أردت التكلم بالهاتف أول مرة، من الدكان الذي على الناصية. ساعدني صاحب الدكان في التعامل مع عاملة المقسم، إذ لم تكن قد وجدت الخدمة الآلية بعد، وأحسست بهمة أنفاس الموت، عندما قدم لي الناصية. كنت أنتظر سماع صوت خدوم، لكن ما سمعته هو تباح شخص يتكلم في الصفاء، في الوقت نفسه الذي أنكلم فيه، فكرت في أن معدني لا يفهمني كذلك، فرفعت صوتي إلى حيث أستطيع. وعتدته رفع الآخر أيضاً صوتاً غامضاً:

- ومن أجل أي لغة، تصرخ بي أنت!

أغلقت الهاتف مرعوباً، ولا بد لي من الاعتراف بأنه، على الرغم من حمى اتصالاتي، إلا أنني ما زلت أضطر إلى كبح خوفاي من الهاتف

والطائرة. ولست أدري إذا ما كان هذا الحرف يأتي من تلك الأيام. كيف يمكنني التوصل إلى عمل شيء؟ ولحسن الحظ، كثيراً ما كانت أمي تردد الجواب: "لا بد من المعاناة من أجل تقديم الخدمات".

أول خبر من أبي وصلنا بعد أسبوعين، في رسالة مكرمة لإلهائنا أكثر منها لإخبارنا أي شيء. هكذا فهمتها أمي. وفي ذلك اليوم، غلبت الأفياق، وهي فتحة لترفع من معنوياتنا. لقد كانت مختلفة في غياب أبي: كانت تتطابق مع بناتها، وكأنها أخت كبرى لهن. وتتجمع معهن على أحسن حال، حتى تكون أفضلين في الألعاب الطفولية، بما في ذلك اللعب بالدمى. ويصل بها الأمر إلى فقدان أعصابها والتشاهر معهن، وكأنها نذل لهن. وبمثل مضمون الرسالة الأولى نفسه، وصلت رسالتان أخريان من أبي، تعرضان مشاريع واعدة. أتاحت لنا النوم بصورة أفضل.

كانت هناك مشكلة خطيرة تمثل في السرعة التي تضيق بها ثيابنا علينا. لم يكن هناك من يرت ملابس لويس إترينكي، لأنه كان يرجع من الشارع منهاكاً، وثيابه مرققة. ولم نفهم السبب قط. كانت أمي تقول إنه كمن يمشي بين أسلاك شائكة. أما الأخوات - وهن بين السادسة والتاسعة من أعمارهن - فيكن يتدبرن أمر ملابس إحداهن بملابس أخرى، كحفصا استطعن وبمجهيزات البراعة. وقد اعتقدت على الدوام، بأن حاجات تلك الأيام الماسة، حركتهن وأشدت. منذ وقت مبكر، كانت عابداً مذبذبة، ولجأوا إلى مارتوت قدرأ كبيراً من حياتهن. وبدت حانية وخدوعة لجاء الوليدة الجديدة. وكنت أنا في وضع أصعب من الجميع، ليس لأنه علي القيام بمساح متميزة وحسب، وإنما لأن أمي.

محاطة بحساس الجميع، جازفت في تقليص النفقات المنزلية، لتسجيلي في مدرسة كارتاخينا دي إندباس، على بعد نحو عشر كوادرات، مشياً من بيتنا.

وبناء على الاستثناء، توجهنا، نحن العشرين متقدمين، في الساعة الثامنة، من أجل مابقة القبول. لم يكن فحصاً كتابياً لحسن الخط، وإنما كان هناك ثلاثة معلمين يستدعوننا، وفق تسلسل تسجيلنا في الأسبوع السابق. ويجرون لنا اختصاراً موجزاً بالاستناد إلى وثائق وراستنا السابقة. وكنت الوحيد الذي لا يملك تلك الوثائق، لأن ضيق الوقت لم يُنحَ ظليها من مدرسة مونتسوري. ومن المدرسة الابتدائية في أراكاتانكا، وكنت أمي تفكر في أنني لن أملك من دون الوثائق. ولكنني قررت التظاهر بالبلاهة. أخرجني أحد المعلمين من الصف، عندما اعترفت له بأنني لا أملك الوثائق. ولكن معلماً آخر تولى مسؤولية تقرير مصري، وأخفني إلى مكتبه، ليجري لي الفحص. دون مطلب مسبق. سألتني ما هي كمية الفروسة^(١). وما هو عدد سنوات اللوسيترو^(٢) والألفية. وطلب مني أن أذكر عواصم المحافظات الإدارية، وأنهار البلاد الرئيسية والبلدان التي محمدنا. هذا لي كل ذلك روتينياً، إلى أن سألتني ما هي الكتب التي قرأتها. ولفت انتباهه أنني ذكرت كتباً كثيرة وشديدة التنوع بالنسبة لسنتي. وبأنني قرأت "ألف ليلة وليلة"، في طبعة للكبار لم تحذف منها بعض الفقرات المرحجة التي تستثير حساسة الأب أنفاسنا. وقد فوجئت حين علمت أنه كتاب مهم، لأنني كنت أفكر على الدوام بأن

(١) فروسة grusa - حشرة دودة.

(٢) لوسيترو lustru - حصى سنوات.

الكهار الجديدين لا يمكنهم أن يصدقوا بأن هناك جنأ يخرجون من القوارير، أو أن الأبواب تُفتح بتمهيلة من الكلمات، المتقدمون الذين سبقوني لم يتأخر كل واحد منهم أكثر من ربع ساعة، المقبولون منهم والمرفوضون على السواء، بينما بقيت أنا أكثر من نصف ساعة. ألتحدث مع المعلم، حول كل أنواع الموضوعات، تفحصنا معاً خزائن كتب مشرعة، وراء منضدة المكتب، وبينما كان يتميز، بعد نسخة وألفه، كتاب "كثير الشباب" الذي كنت قد سمعت عنه، ولكن المعلم أقنعني بأن الكتاب الأكثر فائدة لسي هو "الكهفوتة". لم يجد في المكتبة، ولكنه وعدني بأن يصبرني إياه فيها بعد، وبعد نصف ساعة من التعليقات السريعة، حول السندباد البحري أو روبنسون كروزو، والفني حتى المخرج، دون أن يقول لي إلّا ما كنت قد قبلت. فكرت أن لا، طبعاً، ولكنه ودعني عند الشرفة بالشد على يدي واللول لي، إلى الظاء في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين، من أجل تسجيلي في الصف الأعلى من المدرسة الابتدائية: الصف الرابع.

لقد كان المدير العام، واسمه خوان فيثوريا كامالينس، وأنا أتذكره كصديق طفولة، دون أي أثر من الصورة المربعة التي كانت شائعة عن مجلس تلك الحفبة. فضيلته التي لا تنسى، كانت في معاملتنا جميعاً كراشدين متساوين، بالرغم من أنني ما زلت أشعر بأنه كان بولني اهتماماً خاصاً، فقد اعتاد أن يوجه لي، خلال الدروس، أسئلة أكثر من الآخرين، ويساعدني لتكون إجاباتي صائبة وبسيطة، وكان يسمح لي بأخذ الكتب من المكتبة المدرسية، لأقرأها في البيت. وقد كان اثنان من تلك الكتب، "جزيرة الكنز" و"الكونت دي مونتكميسكو"، هما المفضل

الصعيد في سنوات الأعاجيب تلك. كنت أتتبعهما حرفاً حرفاً، متلهفاً لمعرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي. ومتلهفاً في الولت نفسه إلى عدم معرفة ذلك، حتى لا أكسر السحر، وقد تعلمت منهما، مثلما تعلمت من ألف ليلة وليلة، ما لن أنساه أبداً، بأنه يجب أن تقرأ فقط الكتب التي يجربنا على أن نعد قراءتها.

أما قراحتي لرواية "دون كيشوته" بالمقابل، فكنت أراها على الدوام جديدة بفضل منسرد. لأنها لم تسبب لي التأثير الذي توقعه المعلم كامالينس، فقد كانت تُصغرتي خطب الفارس الجوال المسهية، ولا أشعر بأي طرانة في حصاصات تابعه، حتى إتنى صرت أفكر في أنه ليس الكتاب نفسه الذي يجري الحديث بكثرة عنه. ومع ذلك، فقد قلت لنفسني إن معلماً حكماً مثل معلنا، لا يمكنه أن يخطئ. وبذلت جهداً لا يتناهى ملهقة بعد أخرى، كما لو كان شراً مُسهلاً. ثم بذلت محاولات أخرى في المرحلة الثمانية، حين كان علي أن أدرسه كواجب إجباري، ومثلته دون خلاص. إلى أن نصحتني صديق بأن أضعه على رف المرحاض، وأحاول قراءته بينما أنا أنجز واجباتي اليومية. وهذه الطريقة فقط اكتشفته، كتفجير، واستنعت به سوياً ومقلوباً، إلى أن صرت أردد من الذاكرة، مقاطع مطونة كاملة منه.

نقد خلقت لي تلك المدرسة التي وفرها لي القدر، ذكريات تاريخية كذلك، عن مدينة وعقبة لا سبيل إلى استعادتهما. كانت المدرسة هي البناء الوحيد على قمة زاوية خضراء، يظهر من شرفنها أقصى طرفي العالم، فيالي يسارها هي البرادو، الأكثر تميزاً وغلا، والذي بدأ، لي منذ الوهلة الأولى، نسخة مطابقة لقن الدجاج ذي السور المكهرب الذي كان

بقطته موطفو اليونانيد فروت كومياني. لم يكن ذلك مصادفة؛ فقد بنىه شركة مصممي مدن أمريكيين، وفق ذوقهم وأنظمتهم وأسماهم المستوردة. وكان احي نقطة جذب سياحي محتمة لبقية أرجاء البلاد. وهناك إلى يمينه بالمقابل، الطابحة المعفرة لحنا السلي بشوارع الترابية الملتصبة، ويوتره التي من كصب وطبخ، وسيلوف من سعب النخيل، تذكّرنا طوال الوقت، أننا لسنا أكثر من بشر قانين من لحم وعظم. ونحن الحظ أنه كان يظهر لنا من شرفة المدرسة، مشهد بانورامي للمستقبل؛ ولنا نهر مجدليننا الثمانيني. وهي من أكبر دلتات العالم، والبحر الرمادي عند بوكاس دي تشيندا.

في ٢٨ أيار ١٩٣٥ رأينا نافذة النفط تاراليت، التي ترفع العلم الكندي، تدخل وهي تطلق جزار بهجة بين سدي الصخرو، لشرسو في مرفأ المدينة، وسط صحب الموسيلى والألعاب النارية، بقودها القبطان د.د. ماكونالد. وهكذا تحفلت مأثرة قديمة أعد لها خلال سنوات طويلة، لتعزىل مدينة بارانكيأ إلى المينا البحري والنهري الوحيد في البلاد.

وبعد وقت قصير من ذلك، حرت طائرة بقودها النقيب نيكولاس ريس مانوتاس، وهي تكاد تلامس أسطح البيوت، بحثاً عن أرض خلا من أجل هبوط اضطراري، ليس لينجر بجلده وحسب وإنما لينقذ كذلك، جلود المسيحيين الذين سيصطدم بهم في سقوطه. لقد كان أحد رواد الطيران الكولومبي. وقد أهدت إليه تلك الطائرة البدائية في المكسيك، ولهاها، وحيداً، من أحد طرفي أميركا الوسطى إلى طرفها الآخر. وكان قد أعد له حشد متجمع في مطار بارانكياس، حفل ترحيب انتصاري، مع مناديل ورايات وفرقة موسيقية. ولكن ريس مانوتاس أراد القيام

بجولتي محبة آخرين فوق المدينة، فأصيب محرك طائرته بعطل، وتمكن من السيطرة على الطائرة، بمهارة إعجازية، لكي يهبط على شرفة بنا، في المركز التجاري. ولكن الطائرة تشايت مع أسلاك الكهرباء، ولبت ععلقة بأحد الأعمدة. لحقنا بها أنا وأخي لويس إنريكي، بين الحشود الصاخبة، إلى حيث سمحت به أنفسنا. ولكننا تمكنا من ولية الطيار فقط، بعد أن أخرجهو بمشقة، إنما سليماً معافى، وهو يحسب الناس يحسان بطل.

ولقد شهدت المدينة كذلك، أول محطة بث إذاعية، وقناة مانية حديثة تحولت إلى مكان جذب سياحي وتربوي للتعريف بعملية نشفة المياه المستجدة، وقريق إطفاء كانت صفارته وأجراسه عيلاً للصغار والكبار، مد يدن يساعها. كما دخلت هناك أولى السيارات المكتشفة التي كانت تنطلق في الشوارع بسرعة جنوبية، وتحول الطرق المرصولة حديثاً، إلى عجة. وقد استلهمت وكالة "الإنصاف" لدن الموتى، سطرية الموت، وحلفت إعلاناً هائلاً عند مخرج المدينة، تقول فيه: "لا نسرع، فنحن في انتظار".

وفي الليل، عندما لا يحود هناك سلا سوى البيت، نجسنا أي لتقرأ لنا رسائل الوالد، وكان معظمها أعمالاً بارعة في الإلهاء، والتلصص. ولكن إصفاها بدت واضحة في حديثها عن الحماس الذي يوقظه الطب التجانسي بين كبار السن، في أسفل نهر مجدليننا، إذ يقول أبي: "توجد هنا حالات تبدو إعجازية". لقد كان يركد أحياناً لدينا الانطباع بأنه سيكشف لنا عما قريب عن أمر عظيم. ولكن ما يتلو ذلك هو شهر آخر من الصمت. في أسبوع الألام المقدس، عندما أصيب اثنان

من أخوتي الصغار بعدوى حصبة وبيلة، لم نجد طريقة للاتصال به لأن أمهر الأدلاء ما كانوا يعرفون شيئاً عن أثره.

في تلك الشهور، فهِمْتُ في الحياة الواقعية، معنى واحدة من الكلمات التي كان يكثر جنائي من استخدامها: الفقر، لقد كنت أفسرهما على أنها الوضع الذي كنا نعيشه في بيتنا، منذ أن بدأت شركة الموز بالتفكك، كنا يسكنون منه طوال الوقت، ولم تعد هناك وردستان أو ثلاث ورديات على المائدة، مثلما كانت الحال في السابق، وإنما وردية وحيدة، من أجل عدم التخلي عن طقس الغداء المقدس، وقد انتهى بهما الأمر، عندما لم تعد لديهما موارد للإتفاق عليهما، إلى شراء الطعام جاهزاً من مطاعم السوق، وكان جهناً وأرخص بكثير، مع المفاجأة بأننا نحن الأطفال، أحببناه أكثر، ولكن ذلك كله انتهى إلى الأبد، عندما علمت الجدة مبناً بأن بعض المدعوين المشاهير قرروا عدم المجيء إلى البيت، لأن الأكل لم يعد لائقاً، كما في السابق.

فلر والدي في بارانكيًا بالقابل، كان منهكاً، لكنه أتاح لي حسن الحظ، إقامة علاقة استثنائية مع أمي، كنت أشعر نحوها، إضافة إلى الحب القوي المتفهم، بإعجاب ملاحظ بطيها، كثيرة صامتة، إنما ضاربة في مواجهة المصاعب، وعلاقتها بالرب، التي لا تشبه المحضوع وإنما الصراخ، وهما ميزتان رسختا لديهما في الحياة، ثقة بالنفس لم تخفها مطلقاً، فهي أسوأ اللحظات، كانت تضحك من أساليبها القدرية، كما في المرة التي اشترت قبها وكية جاموس، وراحت تقلبها يوماً بعد آخر، من أجل المرق البرومي الذي راح دسسه بثناقص يوماً بعد يوم، إلى أن تحول إلى مجرد ماء لا يمكنه أن يمنح المزيد، وفي ليلة عاصفة مرعبية،

أنفقت كل شحم المخزير المخصص للشهر، لتصنع منه سراجات قماشية، لأن الضوء انقطع حتى الصباح، وكانت هي نفسها، من أدخلت في صفارها الخوف من الظلام، كيلا يتحركوا من فراشهم.

كان أنجوي يزودان، في أول الأمر، الأسر الصديقة التي هاجرت من قراكتانكا، بمعد أزمة الموز وتدرى نظام الأمن العام، وكانت زيارات دؤارة، يدورون فيها على الدوام، حول موضوعات التكلفة التي حلت بالقربة، ولكن عندما اشتد علينا الفقر في بارانكيًا، لم نعد نشكو في البيوت القريبة، وأوجزت أمي تكتمها في جملة واحدة: "الفقر يظهر في العيون".

حتى الخامسة من عصري، كان الموت يبدو لي نهاية طبيعية تحدث للأخريين، ولم أكن أرى في بهجة الفردوس السماوي وعذابات المجهيم، إلا مجرد دروس تحفظها من ظهر قلب، من كتاب الأب أستوني في التربية المدنية، ولم تكن لي أي علاقة بها؛ إلى أن لاحظت بطرف عيني، في أثناء المسير على ميت، أن القمل كان يهرب من شعر الجثة، ويشي دون وجهة محددة، على الوسائد، وما أقلقني منذ ذلك الحين، ليس الخوف من الموت، وإنما الخجل من أن يهرب مني القمل أيضاً، على مرأى من الأتارب الذين مسهرون على جنسي، ومع ذلك، لم أنتبه، وأنا في المدرسة الابتدائية، في بارانكيًا، إلى أنني كنت مصاباً، بالقمل إلى أن نقلت العدوى إلى الأسرة كلها، وأظهرت أمي آنذاك دليلاً آخر على صلاحية طبيها، فقد عقلت أنها عا واحداً واحداً، مبيد صراصير، في عملية تنظيف معمقة عمدتها باسم ذي وقع مهيّب: الشرطة، ولكن السرب في الأمر، هو أننا ما إن تطهرنا حتى يدأنا نصاب من جديد، لأن

العدوى انتقلت إليّ مجدداً في المدرسة. عندئذ قررت أمي قطع الغاء من جلوده، فأجبرتني على قص شعري من أصوله. كان ظهوري في المدرسة يوم الاثنين، وأنا أضع قبعة قلمانية، عملاً بطولياً. ولكنني تجاوزت، بشرف، مستقرات زملائي. وتوجت الستة النهائية بأعلى التقديرات والدرجات. لم أهد للقاء المعلم كاسا لئلا يفسد، ولكن بقيت مديناً له بالامتنان الأبدي.

وجد لي صديق لوالدي، لم نتعرف عليه قط، عملاً في مطبعة قريبة من البيت. وكان الأجدر أقل بكثير من لا شيء. وكانت فكرة تعلم المهنة هي دافعي الوحيد. ومع ذلك، لم تكن تتوفر لي لحظة واحدة لرؤية المطبعة، لأن عملي كان يتطلب في ترتيب الملازم المطبوعة، لكي يجلبوها في قسم آخر. وكان عزائي هو أن أمي سمحت لي بأن أشتري من أجري، ملحق صحيفة لابرنا ليوم الأحد. وكان يتضمن قصص رسوم متسلسلة عن طرزان، وولك ووجيز - واسمه عندنا روجيلسو الفازي - وعن "فت أند جف" - وكانا هيمان بينيتو وإيباس - . وقد تعلمت، في استراحة أيام الأحد، رسمهم من الذاكرة، وكنت أستكمل حلقة الأسبوع، وأضع لها نهاية على هوي. قد وصلت بذلك، إلى إثارة حماس بعض الكبار في الحي. بل واستطعت أن أبيعها مغلف متين اثنين.

كان العمل منهكاً ومجهداً. وكانت تقارير رؤسائي، مهما بذلت من جهد، تنهمني بالتقصير وضعف الرغبة في العمل. وقد نظمت، تقديراً لأمرتي دون شك، من روتين الورشة، إلى توزيع نشرات دعائية في الشوارع، لشراب سمال يوصي به أشهر فنان السينما. بدا لي ذلك

جيداً، لأن النشرات جميلة، وعليها صور الممثلين بالألوان. مطبوعة على ورق مصقول. ومع ذلك، عند أدركته منذ البداية، أن توزيعها ليس بالأمر السهل، مثلما ظنت. فالتاس ينظرون إليها بارتباب، لأنها توزع مجاناً، ويجفل معظمهم، كما لو أنها مكهربة، كيلا ينلقوها. في الأيام الأولى رجعت إلى المشغل ومعى النشرات المتبقية ليستكملوها لي. إلى أن التقيت بعض زملاء الدراسة في آراكاتاكا، وقد استشاطت أسهم غضباً، حين رأيتني في تلك المهنة التي بدت لها عمل متسولين. عشتني بما يشبه الصراخ، لأنني أخرج إلى الشارع بصنل قماشي اشتريته لي أمي كيلا، أسفلهك طلاء المناسبات الرسمي. وقالت لي:

- قل للويسا سانتياغا، أن تفكر في ما يمكن أن يقول أبوها إذا ما رأها حبيدها المفضل، يوزع دعايات مسولين في السوق.

لم أنقل الرسالة، لأوفر على أمي الفم. ولكنني بقيت على وصادني من الغضب ومن الحجل لبالي عبدة، وكانت نهاية تلك الدواما أنني لم أعود أوزع النشرات، وأنا صرت ألقى بها لي مجاري السوق دون أن أعط أن مياها واكدة، والبرق المصقول يبقى طافياً على السطح، إلى أن يشكل فرشة بديعة الألوان، تتحول إلى مشهد فريد، من فوق الجسر. لا بد أن أمي تلقت رسالة من مسوقها في حلم ملهم. لأنها أخرجتني، قبل انقضاء شهرين من المطبعة دون تفسيرات. فعارضت ذلك كيلا أفقد عهدي يوم الأحد من جريدة لابرنا التي كنا نلقاها في الأسرة مثل مباركة من السماء. ولكن أمي واصلت شراها لنا، ولو اضطرها ذلك إلى أن تتنطق حبة بطاطا من الحسا.

وسيلة إنقاذ أخرى هي مبلغ الفرج الذي كان يرسله إلينا الحال خوانيتو، في أشد الشهور قسوة. كان الحال آنذاك لا يزال يعيش في

سانتا مارتا، على دخله الضئيل كمعاشه، وقد عرض على نفسه واجب إرسال رسالة لنا كلى أسبرج، ومعها ورقتان تقديمان من فئة البيزو الواحد. وكان قبطان المركب النهري أودرا، وهو صديق قديم للأسرة، يسلمني الرسالة في الساعة السابعة صباحاً، فأعزوه إلى البيت بشتريات أساسية تكفي عدة أيام.

ولم أجد أحد أهتم بالأمر، لم أستطع القيام بالمهمة، فأرسلتها أمي إلى لويس إنريكي الذي لم يقاوم إغراء محاولة مضاعفة البيزوين في آلة العملات في حانة صينيين. ثم استطع اتخاذ قرار التوقف عنهما خسر الفينتين الأوليين، وواصل محاولة استردادهما، إلى أن خسر حتى قطعة النقد ما قبل الأخيرة. وقد روي لي بعد أن كبر: "لقد بلغ خوفني جداً لمرت معه عدم العودة إلى البيت أبداً". فقد كان يعرف جيداً أن البيزوين بكفيا للشتريات الأساسية لأسبرج. ولحسن الحظ أن شيئاً في الآلة مع الفمضة الأخيرة جعل أحشائها تهتز هزة جديدة، وتقيأت على أثرها، في دقائق متواصلة، الفيشات الكاملة للبيزوين الضالعين. وقد أخبرني لويس إنريكي: "عندئذ ألهمني الشيطان، وهجرات عنى المجازلة بفمضة أخرى". كسبه. وهزأه بأخرى وكسبه أيضاً، وأخرى وأخرى وأخرى، وكسبه. وقد روي لي: "كان الرعب عندئذ أكبر مما أحسست به حين خسرت، فتراخت أحشائي، ولكنني واصلت الفمضة وأخيراً كسب ضعف البيزوين الأصليين في قطع نقدية من فئة الخمسة سنتافو، ولم يتجرأ على استعمالها بنقود ورقية من الصندوق. خوفاً من أن يورطه الصيني في قصة صينية! انتفضت بها جيوشه كثيراً، حتى إنه صارخ، قبل أن يعيد إلى أمي بيزوي الخيال خوانيشو. في قطع نقدية

(١) قصة الصينية: هو حدث، هو مقول وفيه كثير من الفكاهة والدراما.

من فئة الخمسة سنتافو، إلى دفن البيزوات الأربعة التي كسبها، في أقصى الفناء، حيث اعتاد أن يخفي كل مستأجر بجمه في غير مكانه. وقد أنفقها شيئاً فشيئاً، دون أن يعتري لأحد بالسر، إلا بعد سنوات طويلة. وكان ما يزال يتعذب، لأنه انتقاد للشجاعة بقطعة الخمسة سنتافو الأخيرة في دكان الصيني.

علاكمه بالنقود كانت شحصة جداً، في إحدى المرات، فاجأته أمي بنش لي محفظتها التي تضع فيها نقود الشراء، وكان دفاعه عن نفسه فطرياً، ولكنه ذكي: النقود التي بأخذها أحدنا دون إذن من محفظة الآخرين، لا يمكن أن تعد سرقة، فهي نقود المسيح، التي يتكرونها علينا حسداً، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا بها ما يفعله الآباء. وقد بلغ بي الأمر، في الدفاع عن حبيته، إلى حد الاعتذار بأنني، أنا نفسي، كنت قد سطرت على المخاض المتزلف من أجل ضرورات ملحة، فلدت أمي عندئذ أعصابها، وقالت لي صارخة تقريباً: "لا تكونا على هذا القدر من الحساسية، أنت وأخوك لم تسرقا مني شيئاً، فأنا نفسي أترك النقود، لأنني أعرف أنكما ستأخذان منها، عندما تضطران إلى ذلك". وفي إحدى لوبات غضبها، سمعتها تقسم ببأس، بأنه لا بد للرب من أن يسبح البرقة أحياناً، من قبل إطعام الأطفال.

لقد كان سحر لويس إنريكي في شيطانه، مليحاً جداً في حل مشاكل مشتركة. ولكنه لم يحاول قط، أن يورطني في مقالبه، بل على العكس من ذلك، كان يتدبرها دوماً، بحيث لا يلحق بي أدنى قدر من الشبهة. وقد أدهت سلوكه ذلك، عاطفة حقيقية استمرت بيننا إلى الأبد. ولكنني لم أتج له بالمقابل، أن يعرف كم كنت أحسد جراته، وكم كنت

أتائم من الضرب للمرح الذي يتلقاه من أمي. لقد كان سلوكي مختلفاً جداً عن سلوكه. ولكنني كنتُ أتكلف جهداً كبيراً في إخفاء حسدي له. وكان بيت الأبوين في كاتاكبا بالمقابل، يخيفني، حيث كانوا يأخذونني للثوم فيه، عندما يريدون إعطائي شربة طاروة للديهان أو زيت خروع فقط. حتى إتيي كنت أكره قطع النقد من فئة العشرين متخافو التي يدفعونها لي مقابل الشجاعة في تناولها.

أظن أن أمي ملقت ذروة البأس، عندما أرسلتني محملاً برسالة إلى رجل مشهور بمراته، وبأنه في الوقت نفسه، أوسع المصنفين إلى الناس سخفاً في المدينة. كانت الأخبار عن طيبة قلبه، تُشر بثوسع لا يقل عن النوسع في نشر انتصاراته المالبية. كنتُ إليه أمي رسالة غم بلا مواربة. تطلب منه مساعدة مادية مستعجلة، ليس باسمها، لأنها قادرة على تحمل أي شيء، وإنما حباً بأبنائها. لا بد من أن يكون المرء قد تحرك عليها لكي يدرك ما الذي تعنيه تلك الإهانة في حياتها. ولكن المناسبة كانت تتطلب ذلك، نيهتني إلى أن السر يجب أن يخفى بيننا نحن الاثنين، وهذا ما حدث، حتى هذه اللحظة التي أكتبه فيها.

طرفتُ بوابة البيت الذي فيه شبه بالكيسة، وعلى الفور تقريباً فُتحت كوة في الباب، أطلت منها امرأة لا أتذكر منها سوى جليده عينيها. تلقت الرسالة دون أن تفوه بكلمة واحدة، وأغلقت الكوة من جديد. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً، وانتظرتُ جالساً عند دعامة البوابة، حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، عندما قررتُ طرق الباب ثانية، طلباً للرد. فتحت المرأة نفسها من جديد، وقوبحت بالتعرف عليّ، وطلبت مني الانتظار لحظة. ثم جاءتني بالجواب بأن أعود يوم الأربعاء،

من الأسبوع التالي. في الساعة نفسها. وكان هذا ما فعلته ولكن الجواب الوحيد الذي تلقيته، هو أنه لا مجال لأي جواب قبل أسبوع. وكان عليّ أن أعود ثلاث مرات أخرى، وأن أتلقى دوماً الجواب نفسه. إلى أن ردت علي امرأة أكثر جفاء من السابقة، بتكليف من السيد، بأن ذلك البيت ليس بيت صدقات.

فمت بالتحوال في التوارع المثهبة، محاولاً استجماع الشجاعة، لأتقل إلى أمي إجابة تخلصها من ألغامها، واجهتها في أوج الليل، لأخبرها بقلب موجوع بأن المحسن الطيب قد تزفني، منذ بضعة شهور. وكان أكثر ما أُلقي هو صلاة السبعة التي ردها أمي من أجل الراحة الأبدية لروحها.

بعد أربع أو خمس سنوات من ذلك، عندما سمعنا عن المذباع، الخبر الحقيقي، بأن المحسن قد توفي في اليوم السابق، بقيت منهيماً بانتظار رد فعل أمي، ومع ذلك، لا يمكنني أن أفهم مطلقاً كيف سمعت الخبر باهتمام متأثر، وتنهت من أعماق روحها:

- فليحفظه الرب في ملكوته المقدس

على بعد كوادراً من البيت، أقصنا صداقة مع آل موسكيرا، وهم أسرة تنفق ثروة على شراء مجلات القصص المصورة، ويكتبونها حتى السقف في هنير في ألفناء. وكنا نحن المحظوظين الوحيديين الذين أمضوا هناك أياماً بكاملها في قراءة "كوك تراكي" و "بولك روجرز"، ولقبة صيدة أخرى، هي متدرب برسم إعلانات لأفلام سينما كينتاس القريبة. وكنتُ أساعده لجرود المنفعة في تعلم الحروف. فبدخلنا مجاناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، إلى أفلام إطلاق الرصاص ونيادل

اللحكات. الترف الوحيد الذي اعتقدناه، هو جهاز مذياع لسماع الموسيقى في أي وقت، بمجرد لسة زر. من الصعب اليوم، تصور كم كانت تلك الأجهزة نادرة في بيوت الفقراء. كنت أجلس أنا ولويس إنريكي أمام الدكان القائم على الناصية، على مقعد موضوع من أجل مسامرات الزبائن البطالين. وكنا نغني أصيبت بطولها، ونحن نستمع إلى برامج الموسيقى الشعبية. وهي كل شيء. في ذلك الحين تقريباً. وتوصلنا إلى أن نحفظ في ذاكرتنا قائمة كاملة من أغنيات ميغيليتو بالديس مع أوكسيرا كازينو دي لا بلايا، ودانييل سانتوس مع فرقة سونورا ماتانيرا، وأغنيات بربرو أغوستين لارا بصوت تونبا الزمبية.

تسليتنا الليلية، وبطاسة في المناسبتين اللتين قطعوا فيها عنا نور الكهس،.. لهدم الفلم، كانت نغني تلك الأغنيات لأمتنا وأخوتنا. ولا سيما ليخيا ونهرستانر، اللذان كانا يحفظانها كالبهاوات، دون أن يفهما معناها، لميضحكنا حتى الانجرار بأخطائهما الفنانة. ثم تكن هناك استثناءات. فجمبعنا ورثنا عن الأب والأم ذاكرة خاصة للموسيقى، وصمماً جيداً لحفظ أغنية من المرة الثانية. وبخاصة لويس إنريكي الذي ولد موسيقياً وتخصص بإمكانياته الذاتية في العزف المنفرد على الجيتار في سوناتات الحب العاكس. وسرعان ما اكتشفنا أن جميع الأطفال الذين ليس لديهم مذياع في البيوت المجاورة، يتعلمون أيضاً من أخوتي. وبخاصة من أمي، التي انتهت لأي تكون أختاً أخرى في بيت الأطفال ذلك.

كان برنامجي المفضل هو "ساعة لشيء" من كل شيء. للمؤلف المزيقي والمغني والمعلم أنخل مارييا كاماتشو أي كانو، الذي كان

يحشرك المستمعين، منذ الساعة الواحدة بعد الظهر، بكل أصناف المتوعات الذكية، ولا سيما ساعته المخصصة للهواة دون الخامسة عشرة. كان يكفي أن يسجل المتقدم اسمه في مكاتب "صوت الوطن" وأن يأتي إلى البرنامج، قبل نصف ساعة من الموعد. وكان المعلم كاماتشو أي كانو نفسه يرافق الهاوي على البيانو، بينما يصدر مساعد له الحكم غير القابل للاستئناف بقطع الأغنية، دون جرس كنيسة عندما يقترب الهاوي أدنى خطأ. وكانت الجائزة التي تقدم لأفضل مغنٍ أكثر مما يمكن لنا أن نحلم به - خمسة بيزونات -، ولكن أمي كانت واضحة بأن المهم هو الفخر بالغناء جيداً في برنامج بهذه الشهرة.

كنت حتى ذلك الحين، أعرف بنفسي، بكنية أبي وحدها - غارسيا - واسمى الأول المركب من اسمين - غابرييل خوسيه -، ولكن أمي ظلت مني. في تلك المناسبة الفارضية، أن أسجل اسمي مديناً إليه كنيته كذلك - ماركيز - حتى لا يشك أحد في هويتي. لقد كان حدثاً في البيت. ألبسوني ثياباً بيضاء، كما في المائدة الأولى، وقبل الخروج، قدموا لي شراباً من فواكه الصودا. وصلتُ إلى "صوت الوطن" قبل ساعتين من الموعد. وقد انقضى معدل المسكن، بينما أنا أنتظر في حديقة قريبة لأنهم لا يسمحون بالدخول إلى الاستديو. الا قبل ربع ساعة من البرنامج. في كل دقيقة كنت أشعر بمناكب الرعب تنذرني داخل، وأخيراً دخلت وطلعت بكاد بظفر من صدري. كان علي أن أبذل جهدي خارجاً لأمنع نفسي من العودة إلى البيت والقول إنهم لم يسمحوا لي بالاشتراك في المسابقة متعللاً بأي حجة. أجرى لي المعلم اختباراً سريعاً بمرافقة البيانو، لكي يحدد طبيعة صوتي. وقد استمعوا قبلي سبعة

متسابقين، وفق تسلسل التسجيل، وقرعوا الجرس لثلاثة منهم لأخطاء مختلفة، ثم أعلنوا عني باسم غابرييل ماركيز وحسب. غنيت البجعة، وهي أغنية عاطفية عن بجعة أشد مباحاً من نغمة تلج قُلت مع حبيبها، على يد صياد عديم الشفقة. منذ الألمان الأولى لاحظت أن الإبداع عالٍ جداً بالنسبة لي في بعض النغمات التي ثم قرع في الاختبار، وعانيت لحظة رعب عندما قام المساعد بإيماة متروكة. وتأهب لتناول الجرس، لست أدري كيف وانتني الشجاعة لأشهر، له بإيماة نشطة ألا يقرعه. ولكن ذلك جاء متأخراً، فقد دوى الجرس دون رحمة. وقصبت بهزوات الجائزة الخمسة، ومعها عدة عنايا دعائية، إلى شقراء جميلة جداً مضطت مقطعا من مقام بترفلاني. وجعت إلى البيت مغلغلاً بالهزيمة. ولم أستطع لط مراعاة أي من حيلة أملاها. وقد انقضت سنوات طويلة، قبل أن تعترف لي بأن سبب خجلها هو أنها كانت قد أخبرت أقرانها وأصدقائها، لكي يسمعونني وأنا أغني. ولم تكن تعرف كيف تتعرب منهم.

وسط ذلك النظام من الضحك والبكاء، لم أتفعب عن المدرسة قط. حتى وأنا خاوي المصقة. ولكن وقت فراغاتي المنزلية، صار ينقضني في المساعي المنزلية. ولم تكن لدينا ميزانية للنور، فكنتي من القراءة حتى منتصف الليل، ولكنني كنت أدير الأمور على أي حال. فلي الطريق إلى المدرسة كانت هناك وشرات لحافلات الركاب، وكنت أتوقف في إحداها لساعات، أراقب كيف يحفلون، على جانبيها، لافتات تبين الطريق الذي تقطعه، والوجهة التي تصل إليه. وفي أحد الأيام، ظليت من الرسام أن يسمح لي برسم بعض الحروف، لأرى إذا ما كنت قادراً

على ذلك. فوجئ بكفاخي الطبيعية، وسمح لي بأن أساعده أحياناً. مقابل بعض الهزوات المتفرقة التي تساعد قليلاً، في الميزانية الأسرية، وقد عشت في تلك الفترة وهماً آخر. عندما تمررت مصادفة، على ثلاثة أخوة كنيستهم غارسيا، أبناء بهار يختر نهر مجدلينا. وكانوا قد نظموا ثلاثي موسيقى شعبية، لتنشيط حفلات الأصدقاء، حباً بالفن وحسب. فأكملت معهم الرغاسي غارسيا، لتشارك في مسابقة ساعة الهواة، في إياعة أنلاتسكو. رحنا الجائزة، منذ اليوم الأول، وسط عاصفة من التصفيق. ولكنهم لم ينفقوا لنا بهزوات الجائزة الخمسة، بسبب خطأ لا يمكن إصلاحه. في تسجيل الأسماء. وأصلنا التدريب معاً خلال بقية السنة. والفناء مجاناً في الحفلات الأسرية، إلى أن قررت بهنا الحياة.

لم أتفق أبداً مع الرواية المبهشة القائلة إن الصبر الذي كان أبي يراعه به الفطر، له علاقة بانعدام حس الشعور بالمسؤولية. بل على العكس: أظن أنها كانت أدلة هوميروسية على تواطؤ لم يخب أبداً بينه وبين زوجته. وسمح لهما بكنم أنفاسهما، إلى أن يبلغا شفير الهاوية. كان يعرف أنها قادرة على التحكم بالعرب، خبراً من محكمها بالأس، وأن هذا هو السر في بقائنا على قيد الحياة. وربما أن الأمر الذي لم يفكر فيه هو أن الآلة كانت تهدأ، وهو يراها تخلف في الطريق، أفضل ما في حياتها. لم تكن نفهم أبداً سبب أسفاره. ففي أحد أيام السبت، أيقظونا فجأة في منتصف الليل، مثلما كان يحدث عادة. لبأخولنا إلى وكالة محلية لحفل يبرول في كافاتوميو، حيث تنتظرنا مكاملة لاسلكية من أبي. لن أنسى قط أص المستحمة بالمرح، في تلك المحادثة التي تشوشها التقنية.

- أي يا غابرييل، انظر كيف تركتني مع هذه الكتيبة من الأتباء، وقد وصلنا إلى حد عدم العثور على ما نأكله، مرات عديدة.
فرد هو بالغير المشقود، بأن كبدته مستودم. وكان ذلك يحدث له بكثرة، ولم تكن أُمِّي تأخذه على محمل الجد، لأنه استخدمه مرة للتستر على مجونه. فقالت له مازحة:
- هذا ما يصيبك، كلما أسأت التصرف.

كانت تتكلم وهي تنظر إلى الميكروفون، كما لو أن أبي هناك، ثم ارتبكت أخيراً، وهي تحاول أن ترسل إليه قبلة، فقبلت الميكروفون. ولم تستطع، هي نفسها، كبح فعلها بها، ولم تتسكن قط من رواية الحكاية كاملة، لأنها كانت تنتهي إلى الاستحمام بدعوى الضحك. ومع ذلك، بقيت ساهرة في ذلك البرم، وأخيراً قالت على الملأ وكأنها تتكلم إلى لا أحد:

- لقد لمست شيئاً غريباً في صوت غابرييل.

أوضحنا لها أن جهاز اللاسلكي لا يشوش الأصوات فقط، وإنما بحجب حقيقة الشخصية كذلك. وفي الليلة التالية، قالت وهي نائمة: «صوته على كل حال، يُسمع كما لو كان أكثر نحرولاً». كان أنفها مرهقاً كما في أيامها السيئة، وكانت تتسالم بين التهديدات، كيف هي تلك القرى التي بلا رب ولا قانون، حيث يمضي زوجها طليقاً من دون أمرائه. ولقد تهدت أسياها الحفيدة بجلا، أكبر في محاولة لاسلكية أخرى، عندما أجبرت أبي على أن يهدم بأنه سيرجع فوراً إلى البيت، إذا هو لم يتوصل إلى أي شيء. خلال أسبوعين، ومع ذلك، تلقينا قبل انتهاء المهلة، من لوس ألنوس دل روساريو، برقية دراماتيكية من كلمة واحدة:

«متروك». رأت أُمِّي في الرسالة، تأكيداً لأشد شكوكها وبسوحا، وأصبرت حكمها غير القابل للاستئناف:

- إما أن تأتي قبل يوم الاثنين، وإلا فلنأتي سأتي إليك هناك، الآن، بالثلاث ومعى القرية كلها.

وسيلة مباركة، فقد كان أبي يعرف قوة تهديداتها. وقبل انقضاء أسبوع كان لد عاد إلى بارانكيّا. لقد أوقفنا دخوله، مرتدياً ملابس كهفنا اتفق، ببشرة مائلة إلى الخضرة، وذقن غير حلقة، حتى إن أبي ظنت أنه من مضى. ولكنه مجرّد انطباع أتى، لأنه ما لبث أن خرج لنا، بعد يومين بمشروع شبابه، في إقامة صيدلية متمردة الأغراض، في بلدة سوكري. وهي ركن حالم ومزدهر، على بُعد ليلة ونهار من الإبحار من بارانكيّا. فقد كان هناك في بداية عهد، كعامل تلغراف، وقلبه ينبض، حين يتذكر الرحلة في قنرات غسقية ومستنقعات مذهبة، وحفلات الرقص الأبدية. لقد ألح في تلك الفترة، على نقل عيله إلى ذلك المكان، ولكن دون أن يحالفه الحظ، كما في مرات أخرى مشحونة، مثل أراكاتانكا. عاد للتفكير فيها، بعد خمس سنوات من ذلك، عندما وقعت أزمة الموز الناشئة، ولكنه وجدها، وقد احتلها لجار الجملة القادمون من مضافي، مع ذلك، وقبل شهر من العودة إلى بارانكيّا، التقى مصادفة، مع واحد منهم، لم يصور له واقفاً مخالفاً وحسب، وإنما عرض عليه كذلك قرصاً انتحانياً جيداً للعمل في سوكري. لم يوافق على العرض، لأنه كان على وشك الحصول على الحلم الموهبي في لوس ألنوس دل روساريو. ولكن عندما فاجأه قرار زوجته الحاسم، عثر على تاجر الجملة في ماغناغي، الذي كان لا يزال تائهاً في قرى النهر. وأبرما الاتفاق.

بعد نحو أسبوعين من الدراسات والشرقيات، مع جهاز جملة،
أصدقاء، ذهب وقد استودع مظهره وموجهته. وكان تأثيره يسوكري قوياً
حتى إنه خلف انطباعه. مكتوباً في رسالته الأولى: لقد وجدتُ الواقع
أفضل من الخنثى. استأجر بيتاً له شرفة في الساحة الرئيسية. ومن
هناك استعاد علاقته بأصدقائه القدامى الذين استقبلوه بأبواب مفتوحة.
طلب من الأسرة أن تبقي ما يمكن بيده، وأن تعزم ما تبقى من مشاع. ولم
يكن كثيراً، وتحمله معها في إحدى السفن البخارية التي تقوم برحلات
منتظمة عبر نهر مجدلين. وأرسل لي البريد نفسه، حوالة مالية
محسوبة بدقة، من أجل التفتقات المباشرة. وأعلن أنه سيرسل حوالة أخرى
من أجل تكاليف السفر. لا يكتفي أن أنصروا أكثر شحنة لطيف
أمي الحالم، وهكذا لم يكن ردها، على الرسالة، ناهياً عن التفكير في
دعم حماس زوجها وحسب، وإنما مجلبته بخبر أنها جلي للمرة الثامنة.

لمت بالمجاز إجراءات المجهز في سفينة "القبطان دي كارو"، وهي
سفينة أسطورية تقطع الطريق من بارانكبا إلى ماسمان في ليلة
وتصيف نهار. ثم تواصل الرحلة، بعد ذلك، في مركب ذي محرك عبر
نهر سان خورخي والغناة المائية الخالصة، من موحانا حتى وجهتنا.

- يكتفي أن نذهب من هنا، حتى ولو إلى المجهز - عشت بذلك
أمي التي كانت ترقاب دوماً بمسحة سوكري الباهية، وأضاعت - بحسب
عدم ترك الزوج، وحيداً في قرية مثل تلك.

لمررت علينا الإسراع. حتى إننا كنا ننام على الأرض. قيل ثلاثة
أيام من السفر، لأتينا بعنا الأسرة وكل الأثاث الذي استطعنا بيعه. وكل
ما عدنا ذلك، كان معبأ في الصناديق. ونقد تذاكر السفر. مخبئة في

أحد مخاين أمني، ومحسوبة جيداً، ومعاد حسابها ألف مرة.

الموظف الذي استقبلني في مكاتب الشركة مالكة السفينة، كان
مهلباً، بحيث لم أجد نفسي مضطراً إلى الضغط على كفي، لكي أتفاهم
معه. إنني واثق مطلقاً من أنني دونت الأسعار بحذافيرها، مثلما
أملأها عليّ بأسلوب الكاربيين المدومين، في الكلام الواضح والتكلف.
وكان أكثر ما أسعدني. وأقل ما نسبته، هو أن من هم دون الثانية
عشرة، يدفعون نصف التسمية العادية فقط. وهذا ما ينطبق على جميع
آخرتي، باستثنائي أنا. وعلى هذا الأساس، وضعت أمني نقود السفر
جانباً، وأنفقت، حتى آخر سنتافو، مما تبقى لي تفكيك موجودات
البيت.

ذهبت يوم الجمعة لشراء تذاكر السفر، فاستقبلني الموظف بمفاجأة أن
من هم دون الثانية عشرة، لا يتمتعون بحسب نصف السعر، وإنما بثلاثين
بالئة منه فقط. مما يعني قرعاً لا يمكن لنا مجاوزه. وتلوع بأنني قد دونت ما
أملأه عليّ بصورة سيئة، لأن المعلومات مطبوعة في لوحة إعلانات رسمية
وضعها أمام عيني. رجعت إلى البيت مفسوماً، فلم تعلق أمني بشيء، وإنما
أوتدت الفستان الذي أمضت فيه فترة الحفاد على أبيها، وذهبت معاً إلى
وكالة الملاحة النهرية. آرادت أن تكون منصفة، أحد ما عدنا خطأ، ويمكن له
أن يكون يميني. ولكن هنا ليس موصفاً. فما الواقع أننا لا نملك مزيداً من
النقود. أوضع لها الموظف بأنه ليس هناك ما يمكن عمله، وقال:

لا حظي يا سيدتي. المسألة ليست الرغبة أو عدم الرغبة في
خدمتك. وإنما هي أنظمة شركة محترمة. ولا يمكن التلاعب بها مثل
دوارة بيع.

"ولكنهم مجرد أطفال"، قالت أمي ذلك، وأشارت إلي كمشال:
تصور، هذا هو أكبرهم. ويكاد لا يبلغ الثانية عشرة. ثم أشارت
ببداها:

- إنهم بهذا الطول.

فتعلم الركبل بأن المسألة ليست مسألة طول القامة، وإنما السن.
ولا أحد يدفع أقل من التسعيرة، باستثناء حديثي الولادة الذين يساقون
مجانياً. فبحثت أمي عن مساوات أعلى:

- مع من يجب علي أن أتكم، من أجل تسوية هذا الأمر؟

لم يتوصل الموظف إلى الرد. فقد أطلت المدير، وهو رجل متقدم في
السن، وله كروش أموال، من باب مكتبه. خلال تلك المرافعة. انتهض
الموظف واقفاً، حين رآه. كان هائلاً؛ له مظهر محترم، وسلطته أكثر من
واضحة، حتى وهو يلمص نصير النكمن، ومبلل بالمرق. استمع إلى
أمي باهتمام، ورة عليها بصوت عادي، بأن قراراً من ذلك النوع لا يمكن
اتخاذة إلا بعدد للأنظمة في جمعية صومالية للمهاجرين. واختتم
فانلاً:

- صدقيني. إنني متأسف جداً.

فسالت: "أنت على حق، ولكن المشكلة هي أن موظفك لم يشرح
الأمر جيداً لابني. أو أن ابني قد فهمه بصورة سيئة. وأنا تصرفت بناءً
على هذا الخطأ. وكل أمثعتي موضوعة الآن، وجاهزة للإبحار. إننا ننام
على الأرض دون شيء. ونفرد المشرابات تكفيها حتى هذا اليوم فقط.
وعلى أن نسلم البيت يوم الاثنين للمستأجرين الجدد." لاحظت أن
موظفي القاعة جميعهم، يصفرون إليها باهتمام كبير. وعندئذ توجهت

إليهم: "ما الذي يعنيه كل هذا لشركة بهذه الأهمية؟" ورون أن تنتظر
جواباً. سألت المدير. وهي تنظر مباشرة إلى عيني:

- هل أنت مؤمن بالرب؟

انبهر المدير. كان المكتب كله يتراقب بصمت طال كثيراً. عندئذ
تهاوت أمي على المقعد. ضمت وكبستها اللذين بدأنا ترميهمان. وشدت
الحفظة إلى حضنها بكلتا يديها، وقالت بالتصميم الذي تبديه في
قضاياها المظلمة:

- لن أتحرك من هنا، ما لم تحلوا لي المشكلة.

ظل المدير منجمداً، وتراقب جميع الموظفين من عملهم، لينظروا إلى
أمي. لم تبد تأثراً. بأنفها المرفد، وشحوبها وحببات العرق الغزيرة.
كانت قد خلعت ثوب الخناد على أبيها. منذ بعض الوقت، ولكنها عادت
لارتدائه في تلك المناسبة، لأنه بدا لها الفستان الأكثر ملاءمة. في ذلك
المسعى. لم يعد المدير إلى النظر إليها. وإنما نظر إلى موظفيه. دون أن
يدري ماذا يفعل. وأخيراً عتف متوجهاً إلى الجميع:

- هنا أمر لا سابقة له!

لم تحرك أمي ريشاً. وقد روت لي فيما بعد: "كانت الدموع جسيمة
في حلقتي. إنما كان عليّ الصمود، لأثني في وضع سمين جداً". عندئذ
طلب المدير من الموظف، أن يأتيه بالوثائق إلى مكتبه. فدخل الموظف
ذلك. وعاد للخروج بعد خمس دقائق. وهو يزجر ويتأفك. إنما كانت
معه بطاقات السفر جميعها، جاهزة ونظامية.

في الأسبوع التالي، نزلنا في بلدة سوكري، كما لو أننا قد ولدنا
قربها. كان عدد سكانها حوالي ستة عشر ألف نسمة، مثل بلدان كثيرة

في البلاد، في ذلك الزمان، وجسمهم يعرف بعضهم بعضاً، ليس بالأسما، بقدر ما هو في حيواتهم السرية. ولم تكن القرية وحدها، وإنما المنطقة بأسرها، أشبه ببحر مياه راكدة تنبذل ألوانها بلمعات الزهور التي تغطيها حسب الموسم، وحسب المكان، وحسب حالتنا المعنوية. بهاذا بذكر ملاحظات جنوبي شرق آسيا الراكدة. فخلال السنوات الطويلة التي عاشتها الأسرة هناك، لم تأت سيارة واحدة. ولن تكون لمعيشتها أية فائدة، لأن الشوارع المستقيمة ذات النراب المسد تدو، كما لو أنها قد أعدت للاندفاع العارية. وكانت هناك بيوت كثيرة قلقت في المطايخ مرماها المخاص، ولله الزوارق البنية، من أجل التفتلات المعيلة.

أول ما أثر لي، هو الحرية التي لا يمكن تصورها. لكل ما كان يتقننا، نحن الأطفال، وكل ما كنا نهدف إليه، صار فجأة في متناول أيدينا. كل واحد يأكل عندما يجوع، وينام في أي وقت يشاء. ولم يكن من السهل الاهتمام بأحد، إلا إن الكبار. على الرغم من صرامة قوانينهم، كانوا يحضون عارفين في أولياتهم الشخصية التي تكاد لا تكفيهم للاهتمام بأنفسهم. كان شرط الأمان الوحيد للأطفال أن يتعلموا السباحة قبل أن يتعلموا المشي، لأن القرية مقسومة إلى شطرين، بقناة مياه قائمة تُستخدم في الوقت نفسه، كمجرى مائي ومجرور صرف صحي. فكانوا يلعبون بالأطفال. منذ السنة الأولى من عمرهم، من شرفات المطايخ، في أول الأمر، مع إشارات نجاسة، لكي يتخلصوا من احترامهم للموت. وقد تأتق، بعد سنوات من ذلك، أخي خبي وأختي ليغيا، في بطولات السباحة للصغار، بعد أن تجاوزا، حينئذ، المخاطر الأولية.

ما حول سوكري بالنسبة لي إلى بلد لا تُسمى، هو حب الحرية الذي كنا نحصله به، نحن الأطفال، في الشارع. خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كنا نعرف من الذي يعيش في كل بيت، وكنا ننصرف فيها، كما لو أننا نعرف ساكنيها منذ الأزل. كانت العادات الاجتماعية - المبسطة في الاستخدام - هي عادات الحياة الحديثة، في مجتمع إقطاعي: الأثرياء - منو الماشية وصانعو السكر - في الساحة الكبرى، والفقراء حيثما يستطيعون. وكانت المنطقة، بالنسبة للإدارة الكنسية، ميدان بعثات تبشيرية، وسلطة قضائية وقبادة، في ملكة بحيرات شاسعة. وفي منتصف ذلك العالم، كانت الكنيسة الأبرشية، في ساحة سوكري الكبرى، نسخة جيب من الكاتدرائية الكولونيبالية، استنسخها من المذكرة، كاهن إسباني مُقبل مع الهندسة. كان استخدام الكنيسة للسلطة مباشراً ومطلقاً، ففي كل ليلة، بعد صلاة المسبحة، يقرعون في برج الكنيسة، ناقوس التوقيت الأخلاقي، للفيلم المعلن عن عرضه في دار السينما المجاورة، وفق القائمة التي يصدرها المكتب الكاثوليكي للسينما. وكان هناك مبشر مناوب، يجلس على باب مكتبه، ليراقب من يدخلون إلى المسرح، من الرصف المقابل، من أجل معاقبة المخالفين. كان إحصائي الأكبر، هو السن التي وصلت بها إلى سوكري. كنت أحتاج إلى ثلاثة شهور أخرى لأجتاز خط الثالثة عشرة المتأخر بالعرض. ولم يعودوا يتعلموني في البيت كطفل. ولكنهم لا يعترفون بي كراحد أيضاً. وانتهى بي الأمر في ليمبوس تلك السن إلى أن أكون الوحيد بين أخوتي الذي لم يتعلم السباحة. ولم يكونوا يعرفون إذا ما كان علي الجلوس إلى مائدة الصغار أم إلى مائدة الكبار. ولم تعد نساء الخدم

يغيرن ملابسهن أمامي، حتى ولو كان الضرب مغطاً. ولكن إحداهن قامت عدة مرات صارية في فراشي، دون أن تقلق نومي. ولم ينجح لي الوقت للارتواء من حرية الاختيار المخالفة للأعراف تلك، عندما اضطرت إلى الرجوع إلى بارانكيّا. في شهر كانون الثاني من العام التالي، لأبدأ مرحلة الدراسة الثانوية، لأنه لم تكن هناك في سوكرى، مدرسة مؤهلة بما يكفي، للدرجات المتأخرة التي منحتني إياها المعلم كسابينس.

بعد مناقشات واستشارات مطولة، بمشاركة ختيلة من جانبي، قرر والداي إرسالني إلى مدرسة سان خوسيه اليسوعية في بارانكيّا. ولا أجد تفسيراً للطريقة التي حصلنا بها على كل تلك الموارد خلال أشهر قليلة، ولا سيما وأن الصبدلية وعبادة الطب التجانسي، كانتا لا تزالان موضع اختيار. وقد قدمت أمي على الدوام تفسيراً لا يحتاج إلى براهين: "الله كبير". لا بد أن استنقار الأسرة وإعانتها قد أخطأ في الحسبان، ضمن نفقات الانتقال، ولكن ليس مستلزمات المدرسة. ولأنني لم أكن أملك سوى حذاء، مئزق وغبار ملابس واحد ألبسه، بينما يمشون لي الآخر، فقد جهزوني أمي بملابس جديدة، مع صندوق يحجم نعش، دون أن تقدر مسبقاً أنني سأكون، خلال ستة شهور، قد كثرت ثياباً. وكانت هي أيضاً من قررت بنفسها، أن أبدأ بارتداء البطلونات الطويلة، خلافاً للأحكام الاجتماعية التي يراها والدي، بأنه لا يمكن لبسها، ما لم يبدأ الصوت بالبدل.

الحقيقة أنه في أثناء كل مناقشة حول تعليم كل واحد من الأبناء، كانت تراودني الأحلام على الدوام، بأن يحمي أبي، في إحدى نوبات غضبه الهوسوسية، إلى إصدار أمره ألا يعود أي واحد منا إلى

المدرسة. لم يكن ذلك مستحيلاً. فهو نفسه تعلم ذاتياً، بسبب فقره الشديد، ولأن أباه كان يستلهم أخلاقيات دون فرناندو السابع، الداعية إلى التحكيم الفردي في البيت، للحفاظ على تماسك الأسرة. لقد كنت أختلج المدرسة كأنها السجن، وترعيتي فكرة العيش، خاضعاً لنظام جرس يقرع. ولكنها كانت، في الوقت نفسه، الإمكانية الوحيدة المتاحة لي، للاستمتاع بحياتي الحرة منذ سن الثالثة عشرة، إذ يمكنني الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الأسرة، ولكن بعيداً عن نظامها، ومن حماسها الدجوغرافي، وأمامها التمسك. بحيث أستطيع أن أقرأ، دون التقاط للأفلاس، ما دام الضرب يسطني.

صحتي الوحيدة، ضد مدرسة سان خوسيه، إحدى أكثر المدارس تطلباً وكلفة، في منطقة الكايببي، هو انضباطها العسكري. ولكن أمي واجهتني بولادة "هناك يصنع المحكام". وعندما لم يعد نساء مجال للتراجع، نفض أبي يده:

- فليكن واضحاً، أنني لم أقل نعم ولم أقل لا.

كان يفضل ذهائي إلى المدرسة الأسبكية، لكي أتعلم الإنكليزية. ولكن أمي استبعدت هذا الاحتمال، مفرعة بأنها وكر لورين. وعلى اليوم أن اعترف على شرف أبي، بأن أحد أخطاء حياتي ككاتب، هو عدم تكلم الإنكليزية.

المودة لرؤية بارانكيّا التي غادرناها قبل ثلاثة شهور، من فوق جسر السفينة "القبطان دي كارو". هيجت قلبي، كما لو أنني قد حدثت مسبقاً، أنني سأعود وحيداً، إلى الحياة الواقعية. ولحسن الحظ أن أبوي كانوا قد رتبوا أمر إقامتي وطعامي، عند ابن عمي خوسيه ماريا

بالديبلوماتيك وزوجته هورتينسيا، وهما شاهان لطيفان، أشركاني في حياتهما الوداعة، في صالة بسيطة وغرفة نوم وفنا - صغير مرصوف، تكتفيه الظلال على الدوام، بفعل الملابس المنشرة لتجف على الأسلاك. كانا يتامان في حجرة النوم مع طفنتهما ذات الستة شهور، بينما أنا على أريكة الصالة التي تتحول في الليل، إلى سرير.

كانت مدرسة سان خوسيه تبعد ست كوادرات تقريباً. وتقوم وسط حديقة من أشجار اللوز، كانت فيها مبنى أقدم عقيرة في المدينة. وما زال يُعشر فيها على بقايا عظام متفرقة، ونفث ثياب موشة على سطح الأرض المرصوفة. يوم دخلت فناء المدرسة الرئيسي أول مرة، كان هناك احتفال لسلامة السنة الأولى، بهناطيل بيضاء وسيرات من الجوخ الأزرق، فلم أستطع كبح وهي من أنهم يعرفون كل ما أجعله. ولكنني سرعان ما لاحظت أنهم يمشون ومرعوبون مثلي. حبال خفايا المستقبل غير المؤكدة.

ظهر لي شيخ شخصي خاص قبل في الأخ بيدرو ريس، موجه لسم التعليم الأساسي، الذي انهك في إقناع رؤسائه في المدرسة، بأنني غير مؤهل للمرحلة الثانوية، لقد تحول إلى كابوس يحسرس طريقي، في أماكن لا تخطر على البال، ويجري لي اختبارات مفاجئة تتضمن كمان شيطانية: "هل نلن أن الرب قادر على صنع حجر ثقيل إلى حد يعجز عن حمله؟"، كان يسألني دون أن يمنحني الوقت للتفكير. أو هذا الفخ اللعين الآخر: "إذا ما وضعنا خط الاستواء، حزاماً من الذهب، سماكته خمسون سنتيمتراً، فكم سيزداد وزن الكرة الأرضية؟" لم أكن أفصح في الإجابة على أي سؤال، مع أنني كنت أعرف الأجوبة. لأن لساني كان

ينعقد من الرعب، مثلما حدث لي في يومي الأول مع الهاتف. لقد كان خوفاً يستند إلى أسباب، فالأخ ريس على حق. أنا لم أكن مهيباً فعلاً للشأنية. غير أنني لا أستطيع التخلي عن حسن الطالع الذي حالني بقبولهم إياي، دون اختبار. كنت أرتجف لجرد رؤيته. وراح بعض الزملاء يقدم تفسيرات خبيثة لتلك المحاصرة، غير أنه لم يكن لدي مبرر للتفكير فيها. أضف إلى ذلك، أن ضميري كان يساعدي، لأنني جمعت في اختبائي الشفوي الأول دون عقبات، عندما ألقيت، مثل ماء متدفق، أشعاراً لفرانز لوس دي ليون، رسمت بالطباشير الملوثة على السبورة مسجلاً، بدا وكأنه حي. وقد بلغ رضى لجنة الاختبار حدّاً، نسبت معه اختبائي بالحساب والتاريخ الوطني.

وقد سويت المشكلة مع الأخ ريس، لأنه احتاج في أسبوع الأيام المقدس، إلى بعض الرسوم لدروس علم النبات، فأنجزتها له دون أن يرف لي جفن. فلم يتخلّ عن معاصرته لي وحسب، وإنما صار يتسلّى أحياناً، خلال الاستراحات، بتعليقي الإجابات المدعسة بالفضل المجهج عن الأسئلة التي لم أكن أستطيع الرد عليها، أو عن أسئلة أكثر غرابة، راحت تظهر فيها بعد، كما لو أنها مصادفة، في الاختبارات التالية من سنتي الأولى. ومع ذلك، كلما وجدني ضمن جماعة، يسخر وهو يكاد يمزح عن الضحك، من أنني الوحيد في الصف الثالث الأساسي الذي يتقدم جيداً في الثانوية. وأنا أرى اليوم أنه كان على صواب. وبخاصة في الإملاء، الذي كان عذائي على اعتماد دراستي، وما زال يغيب مصححي أصول أعمالي. وأكثرهم أريحية يحزون أنفسهم بالاعتقاد بأنها أخطاء مطبعية. جاءت الطمانينة لخلوقي، بتعيين الرسام والكاتب هيكور روخاس

هيراثو، أستاذاً للرسم. لا بد أنه كان في حوالي العشرين من عمره. دخل إلى القاعة برفقة الأب الموجه، ودوت حينه كصفقة باب في قبط الثالثة بعد الظهر. بدأ بوسامة وأناقة فنان سيماتي. كان يرتدي شرة من وبر الجمل، ضيقة جداً، وبأزرار مذهبة. وصدرية مبهرجة، وربطة عنق حريرية مطبوعة. ولكن أغرب ما فيه كانت قبعة الليد التي يعتصرها، بالرغم من الحرارة التي تبلغ ثلاثين درجة في الظل. كان طول قباعته يصل حتى مساكف الباب، مما يضطره إلى الاتعنا. لكي يرسم على السبورة، وإلى جانبه، كان الأب الموجه يمدو مهبوراً تحت راحة الرب. تبين منذ دخوله أنه لا يملك منهجاً ولا يطبق صبراً على التعليم. ولكن حين دعائنه الحبيث كان يهيننا متنبهين، مثلما كانت نلعلنا وبعده البارعة التي يرسمها على السبورة بالظباشير الملوثة. لم يستمر في عمله سوى ثلاثة شهور، ولم نعرف السبب قط. إفا يكن الاستنتاج أن تربيته الدينية لم تكن تتوافق مع النظام الذهني لفرقة يسوع. لقد اكتسبت الشهرة، منذ بدايتي في المدرسة، بأنني شاعر. أولاً بسبب الشهرة التي أحفظ بها عن ظهر قلب، قصائد الكلاسيكيين والرومانسيين الإسبان، في كتب النصوص، وألقيها بصوت جهوري. ثم بعد ذلك بسبب الأهاجي المفضاة التي كنت أكرسها لزملاتي في الصف، ونشرت في مجلة المدرسة. وما كنت لأكتبها، أو أنني كنت سأوليهما قليلاً من الاهتمام، لو أنني تصورت أنها ستنال مجد الكلمة المطبوعة. الواقع أنها كانت أهاجي لطيفة تتداولها الأيدي على وديقات خفية في فاعات الدرس الملوثة، في الساعة الثانية بعد الظهر. وقد أتقى الأب لريسي بوسادا - موجه الصف الثاني - التلبس على واحدة منها. فقرأها

وهو متجهج الجبين، ووجه إليّ توبيخاً قاسياً. ولكنه احتفظ بها في جيبه. عنقته استدعاني الأب أرتورو ميخيا إلى مكتبه، ليشرح علي نشر الأهاجي المصادرة في مجلة "الشعبية"، لسان حال تلاميذ المدرسة. وكان ردّ فعلي القوي قسوة سجذولة من المفاجأة والجلجل والسعادة، مللتها برقص غير مقنع:

- إنها مجرد حماقات مني.

سجل الأب ميخيا ملاحظة من جوابي، ونشر الأشعار بهذا العنوان - "حماقات مني" - ويوقع غابيتو، في العدد التالي من المجلة، ويتفحص من ضحايا الأهاجي. وكان عليّ أن أنشر في عددين متتاليين، مجموعة أخرى، بناء على رغبة زملائي في الفصل، وهكذا، فإن تلك الأشعار الطفولية - شئت ذلك أم لم أشأ - هي عملي الأدبي الأول.

كان إدمان قراءة كل ما يقع في يدي، يشغل وقت فراحي وولت الدروس كله تقريباً. وكنت قادراً على إلقاء قصائد كاملة من القائمة الشعبية التي كانت شائعة آنذاك، في كولومبيا، وأجمل أشعار العصر الذهبي والرومانسية الإسبانية. وقد حفظت معظمها من نصوص منهاج المدرسة نفسه. وكانت تلك المعارف غير المتوقعة في مثل مني، تستثير غبط المعلمين. فنكلنا وجهوا لي في أحد الدروس سؤالاً صاففاً، أود عليهم بشاهد أدبي أو بفكرة مستمدة من الكتب، لم يكونوا في وضع يؤهلهم لتقييمها. وقد قال ذلك الأب ميخيا: "إنه طفل مغرور يكره أقرأه كميلاً يقول: لا يطاق. لم أكن مضطراً قط، إلى إجهاد ذاكرتي، ذلك أن القصائد وبعض مقاطع النثر الكلاسيكي الجيد، تبقى منطبعة

في ذاكرتي. بعد ثلاث أو أربع قراءات. أول قلم حبر حصلت عليه، نقلته من الأب الموجه. لأثني ثلوث عليه. دون عشرات، عشرات المرات السبع والتسعين لفساد نونيث دي أرثيه.

كنت أقرأ في أثناء الدروس، وأضعا الكتب مفتوحة على ركبتي، ويرقاة بيد لي أنثي ما كنت لأخبر من عقوبتها، إلا بتواطؤ المعلمين. الأمر الوحيد الذي لم أتمكن من تحقيقه بحيلي محكمة القواني، هو إلهائي من التماس يومي. في السابعة صباحاً. وإضافة إلى كتابة حساباتي. كنت أؤدي الفناء المنفرد في الكورال. وأرسم الكاريكاتير الساخر. ولقي الفوائد في المناسبات الرسمية، وأحياناً كثيرة أخرى خارج الزمان والمكان، بحيث لم يكن هنالك من يفهم لي أي وقت أدوس دروسي. وقد كان السبب بسيطاً، لم أكن أدوس دروسي.

وسط كل تلك الديناميكية المفرطة، ما زلت لا أفهم حتى الآن، لماذا كان الأساتذة مهتمون بي إلى ذلك الحد، دون أن يرفعوا أصوات الاستفكار ضد أخطائي الإملائية. هل خلافة أمي التي كانت تخفي بعض رسائلني عن أبي لإفاته حياً، وتعيد لي غيرها مصححة، وترفعها أحياناً بهتنة على بعض التقدم في النحو والاستخدام الجيد للكلمات. ولكن بعد مرور سنتين، لم يكن هنالك محسن يرجي في الأثق، وصارت اليوم مشكلتي هي نفسها: لا يمكنني أن أفهم أبداً لماذا هنالك حروف لا تُنطق، أو لماذا يوجد حرفان مختلفان لهما المنطق نفسه^(١). أو غيرها من القواعد غير المجدية.

(١) لدم غارسيا ماركيز ملاحظاته هذه حول الالتباس الذي يسببه تشابه منطوق بعض حروف اللغة الإسبانية في مؤثر لغوي عند قبل سنوات قليلة في المكسيك. وله كتابات لذلك وهو قبل عدة قرون.

وكان أن اكتشفتُ ميلاً سيرة القتي مدى الحياة: متعة تبادل الحديث مع تلاميذ أكبر مني سنّاً. وحتى اليوم، في اجتماعات شباب يمكن لهم أن يكونوا أحفاداً لي، أجد نفسي مضطراً إلى بذل الجهد كيلا أشعر بأنني أصغر منهم. وهكذا ألفت صداقة مع اثنين من تلاميذي اللذين يكبرونني سنّاً، وصاروا قريبا بعد، زميلي في مراحل تاريخية من حياتي. أحدهما هو خوان بيد. فيرنانديث، ابن أحد مؤسسي وصالكي جريدة "الهرالدو" الثلاثة في باوانكيا، حيث لست بأول محاولاتي الصحفية، وحيث تكون هو منذ حروبه الأولى، حتى صار المدير العام، والآخر هو إنريكي سكريل، ابن منصور كوبي أسطوري في المدينة. وهو نفسه كاتب تحقيقات صحفية، ولكن امتناني لهما، لا يرجع كله إلى عملنا المشترك في الصحافة، وإنما لهنته، وكذلك، كدباغ جلود حيوانات متوحشة تُصدّر إلى نصف العالم. وقد أهدى إليّ، في واحدة من رحلاتي الأولى، إلى الخارج، حلة نساج طوله ثلاثة أمتار.

- هذا الجلد يساوي ثروة لا بأس بها - قال لي دون دراماتيكية - ولكنني أفضلك بالاتباع ما دمت لا تشمر بأهلك سموت جوما. ومازلت أستاذ حتى الآن، إلى أي حد كان كيكي سكريل الحكيم يعرف أنه إنما يقدم لي غصة أبدية، فقد كان على في الواقع، أن أبهده مرات كثيرة، في سنوات نحسي التنشائية. ومع ذلك، مازلت أحتفظ به، معافراً وشبه متجسس، لأثني منذ أن حملته في حنيتي، عبر العالم بأسره، لم ينقصني ستافو للأكل.

كان الأساتذة الجزويت، الصارمون في الدروس، مختلفين عن ذلك في الاستراحات، حيث كانوا يطعمونا ما لا يقولونه داخل قاعة الدرس.

ويعرجون عن أنفسهم بقول ما كانوا يرغبون في تعليمه حقاً. وأهل أبي
أحمد، إلى الحد الذي تسمح به سني آنذاك، أن ذلك الاختلاف كان
ملحوظاً إلى حد كبير، وكان يساعدنا كثيراً. فالأب لويس يوسف، وهو
كاشفاً شاب ذو عقلية تقدمية، عمل لسنوات طويلة في القطاعات
النقابية. كان لديه أرشيف بطاقات يضم كل أنواع المعلومات الموسوعية،
ولا سيما حول الكتب والكتاب. وكان الأب إغناطيوس سالدنيار باسكياً
جلبياً، وأصلت زيارته في كارتاخينا. حتى شيخوخته الطيبة في دير
سان بيدرو كاليفير. وكان الأب إدواردو تونيث، قد أنجز لئلاً لا بأس به
من مؤلف ضخم عن تاريخ الأدب الكولومبي. ولم أجد أعرف شيئاً عن
المصير الذي آل إليه. أما الأب العجوز صانويل هيفالغو، معلم الغناء،
المقيم في الثمن، منذ ذلك الحين، فكان يرفض الميول على مزاجه،
ويسمح لنفسه بإدخال بعض الموسيقى الوثنية عبر المفرد.

وكانت لي مع الأب هيسناكون، مدير المدرسة، بعض المحادثات
المرضية. وقد احتفظت منها باليقين بأنه ينظر إليّ كشخص راشد، ليس
بسبب الموضوعات التي كان يطرحها وحسب، وإنما لشخصياته الجريئة.
لقد كان له دور حاسم في حياتي، بتعديده مفهوم الفردوس والمجسم،
لأنني لم أكن أتوصل إلى المصالحة مع معلومات كتاب الديانة المسيحية،
بسبب عرائق جغرافية بسيطة. وخلافاً لتلك المعتقدات الجامدة، أراحي
المدير بالمحاكمة الجريئة. فالفردوس، بغض النظر عن التعريفات اللاهوتية،
هو حضور الرب. أما المجسم فهو العكس، طبعاً. ولكنه في مناسبتين
اثنين اعترف لي بمشاكلته بأن "هناك في المجسم تاريخ على كل حال".
ولكنه لم يتوصل إلى توضيح ذلك. ويفضل هذه الدروس في

الامتحانات، أكثر مما هو بفضل الدروس الرسمية، أنهيت السنة، بصور
مفرغ بالميداليات.

بدأت إجازتي الأولى إلى سوكري، في الساعة الرابعة من أحد أيام
الأحد، في مرقاً مزين بالكابل زهر وبألوان ملونة، وساحة متحركة
إلى سوق عيد قصص. ما إن وطأت اليابسة، حتى تعلقت بعنقي، بتلقائية
ساحقة، فتاة شقراء، جميلة جداً، وخفتني بالقبلات. كانت تلك هي أختي
كارمن روسا، ابنة أبي قبل زواجه. وكانت قد جاءت لقضاء بعض الوقت
مع عائلتها المجهولة. كما حضر في تلك المناسبة ابن آخر لأبي، هو
أبيلاردو، مهنته الخياطة، وقد أقام مشغله في أحد جوانب الساحة
الكبرى. وكان معلني في الحفلة، في فترة البلوغ.

كانت تسود البيت الجديد المزيت حديثاً، أجواء عيد، وأخ جديد،
خائبي، الذي ولد في أبار تحت برج الجوزاء، الطبيب، وكان خديجاً أيضاً.
لم أعلم بمولده حتى وصولي، لأن أبوي كانا مصممين كما يبدو على
تخفيف الولادات السنوية، فسارعت أمي إلى التوضيح لي بأن ذلك
المولود هو ضريبة للقديسة ريتا. واعتراضاً بفضلها في الرخاء الذي دخل
البيت. بدت مستعدة شبابها وسعيدة، وأكثر طرباً من أي وقت مضى.
وكان أبي يظفر في أجواء طيب المزاج، فالعيادة مزدحمة والصيدلية
جيدة التجهيز، ولا سيما في أيام الأحماد التي يأتيه فيها المرضى من
الجبال المجاورة. لست أدري إذا ما كان قد عرف يوماً أن ذلك التدفق هو
نتيجة شهرته كمدار جيد، وإن كان الرينيون لا يعززون تلك الشهرة إلى
فضائل الطب التجانسي وكبريات السكر التي يقدمها إليهم وصائه
العجيب، وإنما إلى جودة فنونه كساحر.

كانت سوكري أفضل مما هي عليه في الذاكرة. بسبب العقليد
الشائع في أعياد الميلاد، بانقسام الأهالي إلى حينين كبيرين: موليا في
الجنوب، وكوثريسيو في الشمال. وكانت تقام، فضلاً عن منافسات
أخرى، مسابقة عربات ورمية مزينة، تمثل في مباريات فنية، المنافسة
التياروخية بين الحيين. وأخيراً، في ليلة الميلاد، يلتقي الجميع في
الساحة الرئيسية. ووسط مجاذلات كبيرة، يقرر الجمهور، أي الحيين هو
الفائز في تلك السنة.

أسهمت كارمن روسا، منذ وصولها، في إضفاء بريق جديد على
عيد الفصح. كانت متحفرة ومتأنقة. وصارت سيدة حفلات الرقص.
يلحق بها رتل من المتوددين الصاخين. وأمى التي كانت شديدة الضربة
على بناتها، لم تكن كذلك معها. بل على العكس، كانت تسهل لها
علاقاتها بالمتوددين الذين أدخلوا إيقاعاً قريباً على جو البيت. لقد
قامت بهنهما علاقة تواطؤ، لم تُقم أمى مثلها قط مع بناتها. أما
أبيلازو من جانبه، فقد حلّ شؤون حياته بطريقة أخرى. في مشغل
خياطة مؤلف من محل واحد يقسمه حاجز. وكان عمله كخياطة. يضي
على ما يرام. ولكن ليس أفضل من اعتداله ككفعل، فقد كان يلضي، مع
رغملة جيدة في السرير، وراء الحاجز، وقتاً أطول من الذي يحضيه.
وحيداً وضجراً وراء آلة الخياطة.

خُفرت لوالدي في تلك الإجازة، أن يبدأ بتجهيزي للأعمال
التجارية. "قد تحتاج إليها"، هكذا نبهني. وكان أول ما بدأ بتعليقي
إياه، هو التحصيل ديون الصيدلية من بيوت المدينين. وفي أحد تلك الأيام
أرسلني لجباية ديون عديدة من "الأولاد"، وهو ماخوفاً بلا مزاعم أبهة يقوم
عند خارج القرية.

أطلتُ من باب مفتوح قليلاً لغرفة تطل على الشارع، ورأيت إحدى
نساء البيت نائمة القبلولة، في فراش هوائي. ويلايس لا تغطي فخذيهما.
وقبل أن أتكلم إليهما، جلست في السرير، ونظرت إلى نظرة ناعسة.
وسألني ماذا أريد. قلت لها إنني أت برسالة من أبي إلى دون إليخيو
مولينا، مالك المحل. ولكنها بدلاً من أن تدلني على مكانه، أمرتني بأن
أدخل وأغلق مزلاج الباب، وأشارت لي بمساعها إشارة قالت لي بها كل
شيء.

- تعال.

ذهبت إليهما. وكلما اقتربت كانت أنفاسها المتدفة للأحجرة مثل
قبضان نهر. إلى أن استطاعت إمساكي من ذراعي بيدها اليمنى،
وانسلت بها اليسرى إلى فتحة بنطالي. فأحسست برعب ليد.

- أنت إذن ابن دكشور الأحمراء المكورة - قالت لي بينما هي
تداعبني من داخل البنطال بخمسة أصابع رشيقة. أحسست كما لو أنها
عشرة. خلعت عن بنطالي دون أن تنوقد عن الهمس في أذني بكلمات
داغنة، ثم خلعت قميص نومها من رأسها واستلقت على ظهرها فوق
السرير. وليس عليها سوى سروالها الداخلي الزين بأزهار ملونة.
وقالت: - هذا مستخلفه أنت عني، إنه واجبك كرجل. أرخيتُ تكلمه،
ولكنني لم أستطع في تصجلي ظمعه عنها، فاضطرت إلى مساعدتي
بساقيها المدودين جيداً بحركة سباح سريعة. ثم رلعتني في الهراء،
من تحت بنطالي، ووضعتني فوقها على طريقة الميشر الأكاديمية. وما تبلى
قامت به بنفسها، إلى أن مت فوقها وحسب، ملعبطاً في حساء يصل
فخذيهما المهرجيتين.

استراحت بصمت، مائلة قليلاً على جانبها، وهي تنظر بتمعن إلى عيني، فبادلتها النظرة بوجه أن تبدأ ثانية من جديد، ودون خوف الآن ولوقت أطول. ولجأة قالت لي إنها لن تتقاضى مني الميزون اللذين تأخذهما مقابل ما تقدمه من خدمة، لأنني لم أكن مستعداً. ثم استلقت على ظهرها وأمعت النظر في وجهي وقالت:

- ولأنك كذلك الأخ الصالح للويس إنريكي، أليس كذلك؟ فأنت لك الصرت نفسه.

وقد وافقتي البراءة لأسألها كيف تعرفه، فضحكت:

- لأنني أبداً. قلدي هنا أحد سراويله الداخلية التي اضطرت أن أفسدها له في المرة الأخيرة.

بدا لي قولها مبالغة غير معقولة، بسبب من أخي، ولكنها حين أرتني إياه، أدركت أن ما تقول له صحيح. ثم ففرت عارية من السرير برشاقة راقصة باليه، وبينما هي ترتدي ثيابها، أوصحت لي أني سأجد إليخيزر مولينا في الباب التالي من البيت، إلى اليسار. وأخيراً سألتني:

- هذه هي عارستك الأولى، أليس كذلك؟

ظننت أنني من مكانه، وكففت عنها:

- لا أبداً، لقد فعلتها سبع مرات من قبل، على الأقل.

فقلت لي بإيماء ساخرة:

- عليك أن تطلب من أخيك، على أي حال، أن يمشك قليلاً.

منحتني ذلك التدشين دفعة حيوية. كانت الإجازة من كانون الثاني حتى شباط. وقد تسالحت كم من المرات علي أن أتدبر ميزون اثنين لكي

أعود إليها. أما أخي لويس إنريكي، المخبير المجرب في أمور الجسد، فكان يتفجر ضاحكاً، لأن هناك من هو في سناء. ويضطر إلى الدفع مقابل شيء يقوم به اثنان معاً، ويستعان معاً.

ضمن روح تقاليد موخانا الإقطاعية، كان سادة الأرض يتمتعون بحق تدشين غراوات إقطاعياتهم. وبعد وضع لبال من سرو الاستعمال، يتخلون عنهن لشبهرين. وهكذا كانت تتوفر لنا إمكانية الاختيار بين من يخرجون لاصطباتنا في الساحة، بعد الخروج من حفلات الرقص. ومع ذلك، فقد كن في تلك الإجازة يسين لي الخوف نفسه الذي أشعر به من الهاتف. وأرى مرورهن مثل مرور السحب في الماء. لم أجد لحظة سكونة من الغم الذي خلفته في جسدي، مضامرتي الأولى العارضة. ومازلت أعتقد حتى اليوم، بأنه ليس من المبالغة الظن أنها كانت السبب في سوء الحائفة المعنوية التي رجعت بها إلى المدرسة، تقلل عيني فاماً غشاوة تلك المبالغة المعنوية التي نظمها الشاعر البوغوتي دون خوسيه مانويل ماروكين، وكانت تصيب المستمعين يس من الجنون منذ القطع الأول:

الآن، بينما التبايح كُتِّب، والصباح يُدبِّك،
الآن بينما تُرقس الدويات هالياً،
وبينما النهيق يُحسّر، والزقزقة تُعصّر،
والتردد يصفر، والقباع يهتز،
والوردي فجراً امتدادات مذهبة يُخفّل،
الآن، متلازمة ندى قطرات مثل انسكبابي تدمع
وأنا أتبرد من الارتجاف مع أن الجمر روجاً،
أجي - لا أتهند إطلاقاً في نافذتك تحت.

لم أكن أدخل الفروض فقط، حيثما حللت، وأنا ارتل مقاطع القصيدة غير المتناهية. وإنما تعلمت كذلك، التكلم بطلاقة أحد السكان المحليين، دون أن أدري أين. وكثيراً ما كان يحدث لي أن أجيب عن أي سؤال، ولكن الجواب يكون في الغالب غريباً وصلياً. حتى أن المعلمين كانوا يتجنبونني. ولابد أن الفلق قد راود أحدهم بشأن سلامتي القلبية، عندما قدمت إليه في أحد الاختبارات رداً صائباً، إنما لا يمكن حل وموزة للوهلة الأولى، ولست أنذكر أنه كان ثمة سوء نية في تلك المحادثات السهلة التي تسلي الجميع، وتنعيمهم.

لقد ذهبت إلى القنطرة صابراً بمتكلمون إلي، كما لو أنهم فقدوا رشدهم. فكنيت أبايهم بالطريقة نفسها. وسبب آخر للذعر هو أنني ابتكرت محاورات ساحرة لتراويل الكورال الكسي، باستخدام كلمات وثنية لم يفهمها أحد من الحظ. أضلني العلم الوصي علي، بالاتفاق مع أبي، إلى طبيب مختص أجري لي فحصاً منهكاً، ولكنه مسلج جداً، لأنه فضلاً عن سرعته الذهنية، كان يتمتع بلطف شخصي وبنهج عارف لا يكأزم. طلب مني أن أقرأ دفاتر تتضمن جملاً مفردة بتعريب علي لها. تعلمت ذلك بحماس شديد، لم يستطع الطبيب معه مقاومة إغراء التدخل، ومشاركتي اللعبة. وقد خطرت لنا اختبارات مستنبطة بالغة الدق، فدوّن ملاحظات عنها ليضعها إلى منهج فحوصاته القياسية. ولدى الانتهاء من التحقيقات الدقيق حول عياداتي، سألتني كم مرة أستمتي. فأجبت بأول إجابة خطرت لبال: لم أجبراً على عمل ذلك قط. لم يصدقني، ولكنه عطف، كما لو أنه يفعل ذلك سهواً، بأن الحرف عامل سلبي للصحة الجنسية، وبدا لي عدم تصديقه أقرب إلى التحريض. وأيت

فيه رجلاً وانحماً، ولد وغبت في اللقاء به بعد أن كبرت وصرت صلياً في جريدة الهيرالدو، لكي يخبرني بالتشخيص الخاصة التي استخلصها من فحصه لي. والشيء الوحيد الذي عرفته هو أنه قد انتقل إلى الولايات المتحدة، منذ عدة سنوات. وكان أحد زملائه القدامى أكثر وضوحاً حين قال لي بنأثر شديد، إنه لا يستغرب أبداً أن يكون في إحدى المصحفات العقلية في شيكاغو، لأنه كان يراه على الدوام، أسوأ حالاً من مرضاه.

شخص الحالة على أنها إنهاك عصبي، زادته حرجاً، القراءة بعد القفا. أوصاني بالراحة المطلقة لمدة ساعتين من أجل عملية الهضم، والقيام بنشاط بدني أكثر عنفاً من دروس الرياضة المفروضة. وما زالت تفاجئني الصرامة التي طبق بها أباي وأساتذتي أوامره، نظمو قراءاتي، وفي أكثر من مناسبة انتزعوا الكتاب مني عندما وجدوني أقرأ في لماعة الدرس، وابعاً الكتاب تحت المقعد. أعفوني من المواد الصعبة، وأجبروني على ممارسة مزيد من الرياضة البدنية، لعدة ساعات يومياً، وهكذا، بينما يكون الآخرون في الدرس، كنت ألعب وحيداً، في باحة كرة السلة، مسجلاً نقاطاً حقيقاً، ومرتلاً أشعاراً من الذاكرة. انقسم زملائي في الصف، منذ اللحظة الأولى، فكان هناك من فكروا في أنني مجنون، في الواقع، منذ الأزل، ومن ظنوا بأنني ألتصق الجنون لأستمع بحبائي، ومن وصلوا التعامل معي على أساس أن المجانين هم المعلمون. وإلى تلك الفترة، تعود الرواية القائلة إنني طردت من المدرسة، لأنني قففت معلم الحساب بدوفاً جبر، بينما هو يكتب قانونين معادلة من الدرجة الثالثة على الصبورة. لحسن الحظ أن أبي تفهم الأمر بصورة بسيطة، وتقرر إعدادتي إلى البيت، دون أن أنهى العام الدراسي، وعدم هدر مزيد

من الوقت والمال، على عارض صحي، يمكن له ألا يكون أكثر من علة كبدية.

أما بالنسبة إلى أخي ألبيلاردو بالثقاليل، فلم تكن هناك مشكلة في الحياة، لا يمكن حلها في الفراش. وبينما كانت أخواتي يوفرن لي علاجاً من الشفقة والحنان، علمني هو الرصفة الصحراوية، مذ رأني أدخل منزله:

- ما أنت بحاجة إليه هو ساق جيدة.

وقد أخذ الأمر على محمل الجد، حتى إنه كان يذهب مدة نصف ساعة، إلى صالة ألبيلاردو على الناصية، ويتركني وراءه المحاجر في مشغل الحياطة، مع صديقات له من كل الأجناس. وفي كل مرة مع واحدة مختلفة. كانت تلك مرحلة تعصف ومحاورات خلابة، بدت كأنها تؤكد التشخيص السريري لألبيلاردو. لأنني رجعت في السنة التالية إلى المدرسة، بعقل سليم.

لن أنسى أبداً، المساهمة التي استقبلوني بها في مدرسة سان خوسيه، والتقدير الذي أبدوه لحنفا، بمفعول أفراس دوا. أبي المكونة، لم أذهب في هذه المرة للعيش مع الزوجين بالديلاكيت، لأن بهتهم لم يجد يتسع لي بعد ميلاد ابنتهما الثانية. وإنما عشت في بيت دون اليسير هارسيا، أحد أصدقاء جدي لأبي، المشهور بطبيعته ونزاهته. لقد عمل في مصرف حتى بلغ سن التقاعد. وكان أكثر ما أثر بي هو شغفه الأبدى باللغة الإنجليزية. لقد درسها طوال حياته، منذ الفجر، وفي الليل حتى ساعة متأخرة، كثنارين مغلقة بصوت جميل ولكنة جيدة، إلى حيث سمع له الصبر بذلك. وكان يذهب في أيام الأعياد والمطلات إلى الحرقاً

لاصطياد ساتعين والتكلم إليهم. وقد توصل إلى إتقان الإنكليزية بالقدر نفسه الذي كان يتقن به التفنتالية على الدوام. ولكن خجله كان يمنعه من التكلم مع أحد من معارفه. ولم يتمكن من سماعه يتكلمها، لقد، أينما، الذكور الثلاثة، وهم جميعهم أكبر مني، ولا ابنته الوحيدة فالينتينتا.

ومن خلال فالينتينتا - التي كانت حديقتي العظيمة والقارئة الملهمة - اكتشفت وجود حركة "رمل وسما". المؤلفة من جماعة شعراء شباب أخذوا على عاتقهم، تجديد شعر ساحل الكاريبي، مقتدين بمثال بابلو نيرودا الحميد. والحقيقة أنهم كانوا نسخة محلية مكررة لجماعة "حجر وسما" التي سادت في تلك السنوات، في مقاهي الشعراء، في بوغوتا، وفي الملاحق الأدبية التي يشرف عليها إدواردو كاركاشا، في ظل الشاعر الإسباني خوان رامون خيمينث، بالإصرار الصحي على كنس أوراق شجرة القرن التاسع عشر المبعثة. لم يكونوا أكثر من نصف دؤنة خارجين لشوهم، من المرافقة، ولكنهم برزوا بقوة في الملاحق الأدبية، على الساحل، إلى حد بدأ يُنظر إليهم على أنهم وعد أدبي كبير.

قائد جماعة "رمل وسما"، ويدعى سيسر أغوستو دل بايي، كان في حوالي الثانية والعشرين من عمره. ولم يقتصر، في حمل اندفاعه التجديدي إلى الموضوعات والشاعر، وإنما كذلك إلى الإملاء، والقواعد النحوية في قصائده. فكان هرطوفياً في نظر دهاة النقا، اللغوي، وأبلى في نظر الأكاديميين، ومتخطياً في نظر الكلاسيكيين. والحقيقة مع ذلك، أنه كان، فضلاً عن نضالينه المبدئية - مثل نيرودا - رومانسياً لا خلاص له.

أخذتني ابنة عمي فالينتينتا، في يوم أحد، إلى البيت الذي يعيش

فيه سيمر مع أبويه، في حي سان ووكي. أكثر أحياء المدينة فصلاً ولهاً. كان متين العظام، طام البصرة ونحلاً. له أسنان أرنب كبيرة وشعر مشعث على طريقة شعراء زمانه. وهو فوق ذلك، غريب ومفتوح السروال. كان بيته، وهو بيت طبقة متوسطة فقيرة، مترعاً بالكتب دون مجال لكتاب آخر جديد. وكان أبوه رجلاً جدياً وأقرب إلى الكآبة. له مزاج موظف متقاعد. ويبدو مضطرباً ليهول ابنه الفاحلة. وقد احتضنتني أمه بشيء من الأسى. كاهن آخر بهاني الماء نفسه الفتي طاماً جعلها تهكي على ابنها.

كان ذلك البيت، بالنسبة لي، كشفاً عن عالم ربما كنت أحده، وأنا في سن الرابعة عشرة تلك. ولكن دون أن أعرف إلى أي حد. وقد تحولت منذ ذلك اليوم الأول، إلى زائر الأكثر عراة. وكنت أخذ الكثير من وقت الشاعر، حتى إنني مارلت شعر قادر إلى الآن، على تفسير كيف أمكن له أن يتحملني. وقد توصلت إلى التفكير في أنه كان يستعملني لمحاولة نظرياته الأدبية التي ربما كانت اعتباطية. ولكنها مبهرة، مع محدث مبهور لكنه صالم. كان يصبرني كتباً لشعراء - ثم أسع بأسمائهم من قبل، فأناشئها معه دون أدنى وعي لدى جوارتي، ولا سهماً نبرودا الذي حفظت عن ظهر قلب قصيدته العشرين^(١) لكي أفرج بعض المعلمين الجبوزيت عن طوبهم، وهم الذين لا يتوغلون في مجال هذا النوع من الشعر. في تلك الأيام، اصطفت أجواء المدينة الثقافية، بسبب قصيدة ليريا ديلسان، عن مدينة كارتاخينا دي إندياس، شغلت كل أوساط الساحل. وقد بلغت براعة الإلقاء والصوت اللذين قرأ

(١) قصيدة نبرودا قبل الأخيرة في ديوانه المشهور "عشرون قصيدة حب وألمة واحدة".

بهما سيمر دل بايي القصيدة عليّ، حداً جماني أحفظها عن ظهر قلب، بعد القراءة الثانية.

وفي مرات كثيرة أخرى، لم نستطع التكلم، لأن سيمر كان يكتب على طريقته. ماشياً عبر الممرات والممرات، كما لو أنه في عالم آخر. وبعد كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، ير أمامي كالمسرم، ثم يجلس فجأة إلى الآلة الكاتبة، فيكتب بهتاً من الشعر، أو كلمة، أو حتى نقطة أو فاصلة، ثم يعود للشئ من جديد. وكنت أراقبه مبهوراً بانفعال مساوي، لأنني اكتشف الطريقة الوحيدة والسحرية لكتابة الشعر. هكذا كنت على الدوام، خلال سنواتي في مدرسة سان خوسيه، التي منحني الركيزة البلاغية لإطلاق شياطين شعري. أما آخر خبر بلغني، عن ذلك الشاعر الذي لا يُنسى، بعد سنتين من ذلك في بوغوتا، فهو برقية من فالينتين مؤلفة من كلمتين اثنتين، لم يطاوعها قلبها على التوقيع عليهما: "مات سيمر".

أول شعور أحسنت به في بارانكيا، بغيباب أبيي، هو وعي حرية الاختيار. كان لي أصدقا، أحافظ عليهم خارج المدرسة، منهم أنطارد دل ثورو - الذي كان يُنسى على تصرعاني في الاستراحات بين الدروس - وقبيلة آل أرنتيا الذين اعتدت الهرب معهم إلى المكتبات والسبنا، ذلك أن الشرط الوحيد الذي فرضه عليّ في بيت العم إليسير، للحفاظ على مسؤوليتهم عليّ، هو عدم التأخر في العودة إلى البيت، إلى ما بعد الثامنة ليلاً.

بينما كنت في أحد الأيام، أنتظر سيمر دل بايي. وأنا أقرأ في صالة بيته، جاءت للبحث عنه امرأة مفاجئة. اسمها مارتينا فونيسكا.

وهي بيضاء مسكوبة في قالب خلاص، ذكية ومختلفة. يمكن لها أن تكون عشقة الشاعر، وقد عشت لساعتين أو ثلاث ساعات، أوج متعة التحدث معها، إلى أن رجع سيسر إلى البيت، وذهباً معاً، دون أن يخبراني إلى أين. لم أعد أعرف شيئاً عنها حتى يوم أربعاء الرماد، من تلك السنة، عندما خرجت من القدام الأكبر ووجدتها تنتظرنى على أحد مقاعد المدينة، ظننت أنها ولّيت. كانت ترتدي ثوباً مطرّزاً من الكتان، يبرز جمالها الباهر، وتضع عبقاً صبرجاً، وزهرة نار مشوكة على فتحة ثوبها عند الصدر. ومع ذلك، فإن أكثر ما أفتده الآن في الذاكرة، هو الأسلوب الذي دعتنى به إلى بيتها، دون أدنى ملمح من التفكير المسبق، ودون أن تأخذ في الاعتبار علامة الصليب المقدس المرسومة بالرماد، على جبهتها. كان زوجها، وهو فبطان سفينة تختر نهر مجدلينا، يقوم بهام عمله في رحلة تستمر اثني عشر يوماً، وما الغريب في أن تدعرنى زوجته، في يوم سبت ما، لتناول فطمان من الشوكولاته، مع المحجنات؟ لا شيء سوى أن التقليد نكرو طوال بقية تلك السنة، بينما الزوج سافر في سفينة، ودوما ما بين الساعة الرابعة والسابعة، وهو وقت العرض السينمائي المخصص للصغار في سينما ريكس، فكان ذلك يتفمني، كذريعة في بيت عمى الجسر، حين أكون معها.

كان اختصاصها المهني هو إعداد محلي الرحلة الابتدائية للترقية، وكانت تستضيف أكثرهم كفاءة في بيتها، في ساعات فراغها. وثقف لهم الشوكولاته والمجنات. ولهذا لم يول أهل الحي الصاحب اهتماماً لتلمية أيام السبت الجديد. انسيابية ذلك الحب السري الذي تأجج ناراً مجنونة منذ أذار حتى تشرين الثاني، كانت مفاجئة، فبعد أول سبتين،

اعتقدت أنني لن أطيق صبراً على تحمل الرغبة العارسة، في أن أكون معها طوال الوقت.

لقد كنا ينجي من كل خطر، لأن زوجها كان يعلن عن ميجه إلى المدينة، بإشارة مشفرة، لكي تعلم هي وحدها، بأن سفينة تدخل الميناء. وهذا ما حدث في السبت الثالث من غرامباتنا، عندما كنا في الفراش، وصحح جوار السفينة البعيد، فتصلبت هي.

- ابقى صامتاً - قالت لي، وانتظرت جوارين آخرين قاليين، ولكنها لم تغفر من السرير، مثلما كنت أنظر بسبب خوفاي، وإلها وأصلت دون مبالاة وهي تقول: - ما زالت أماناً ثلاث ساعات من الحياة.

كانت هي نفسها لد وصفته لي ترجمي ضخم بطول مترين وشبر، وله قضيب مطعني. كنت على وشك أن أكر قواهد اللعبة في نوبة خيرة، وبطريقة غير عادية، فقد أردت لفتله، ولكن نضجها هو الذي حلّ المسألة. فقد اتسدتني، منذ ذلك الحين برسن، عبر عضيات الحياة الواقعية، وكأنها ثقاة ذنباً صغيراً بجلد حمل.

رحت أتروى من سبين إلى أسوأ في المدرسة، ولم نأنا أن أعرف شيئاً عن ذلك، ولكن مارتينا تولت بنفسها أمر صحتي المدرسية، فاجأتها صبيانية إيمالي لدوسي في سبيل إشباع شيطان ميل لا يقادم إلى الحياة، وقد لفت لها، الأمر طبعاً، فلو كان هذا الفراش هو المدرسة، وكنت أنت المعلمة، لكانت الأول ليس لي صفي وحسب، وإلها في المدرسة كلها. وقد أخذت قولي كمشال صائب، وقالت لي:

- هذا هو بالضبط ما ستفعله.

واندعقت، دون تضحيات كبيرة، في مهمة إعادة تأهيلي، وفق

توقفت ثابت. كانت محل واجباتي المدرسية وتهيئتي لدروس الأسبوع التالي، بين طفرات السرير وقأنيبات الأم. فإذا لم تكن واجباتي المدرسية على ما يرام، تصاقبني بسبت من الحرمان عن كل ثلاثة أخطأ. ولكنني لم أعجز الخطيئين قط. وبدأ التبدل يظهر عليّ في المدرسة.

ومع ذلك، فإن ما علمتني إياه بالممارسة، كان معادلة مؤكدة الصواب لم تغدني، لسوء الحظ، إلا في سنتي الثانوية الأخيرة. إذا ما انتبهت إلى دروسي وأجهزت واجباتي بنفسى، دون استنساخها من زملائي، فإنني سأنال تقدراً حسناً. ويكتفي القراء مثلما أنا في ساعات فراغي، ومواصلة حياتي الخاصة دون سهر منك أو مخاوف مفاجئة بلا طائل. بفضل هذه الوصفة السحرية، كنت الأول على دفعتي في سنة ١٩٤٢ لذلك، ولدت ميدالية الامتياز ولتوبيعات شرف من كل نوع، ولكن الامتداح والامتنان وجهها إلى الأطباء الذين أحسنوا صنعاً بعلاجي من الجنون. وقد أدركت فجأة في الحفل، أن هناك جرعة من الصداقة في التأثير الذي كنت أود به. في السنوات السابقة، شاكراً الملائح التي تكال لي عن استحقاقات لم أكن جديراً بها. أما في السنة الأخيرة، عندما كنت استعصفاً عن جفارة، بدا لي عدم تقديم الشكر، عملاً وطوراً. ولكنني رددت من كل قلبي، بمنسوبة مجهودى بالإنشيا "الصبر" التي ألقيتها كاملة، في الحفل الختامى، وكنت مرعوباً أكثر من مسيحي في مواجهة الأسود.

لصرت أن أذهب في إجازة تلك السنة المحصيدة، لزيارة الجدة ترانكيلينا في أراكاتاكا. ولكنها اضطرت هي إلى المجيء بصورة مستعجلة إلى بارانكيا لإجراء عملية جراحية بسبب إفلام شبيكة

عينيها. وقد اكتسقت سعادتي برؤيتها مجدداً. مع سعادتي بمجمع الجد الذي حشدته إليّ، كهدية. لم تلاحظ أبداً أنها كانت تفلد بصرها، أو أنها لم تشأ الاعتراف بذلك. إلى أن صارت لا تستطيع التنقل في حجرها. كانت العملية الجراحية التي أجريت لها في المستشفى الخيري، سريعة، مع تنبؤات طيبة. وعندما نزعوا الضادات، وهي جالسة في السرير، فتحت عيني شابها الجديد المشعنين، وأشرق وجهها، وهي تلخص سعادتها بكلمة واحدة:

- أرى.

أراد الطبيب الجراح أن محمد ما الذي نواه أكثر. فحسنت الغرفة بنظرتها الجديدة، وراحت تمدد كل شيء بدقة باهرة. انصبحت أنفاس الطبيب. ولكنني أنا وعدي، من كثرة أعرف أن الأشياء التي تمددها الجدة، ليست هي الموجودة أمامها، في غرفة المستشفى، وإنما محتويات غرفة نومها في أراكاتاكا، التي تستحضرها من ذكرياتها، بالترتيب الذي هي عليه. ولم تستعد بصرها، بعد ذلك اليوم قط.

ألع والدائي على أن أقضي إجازتي معها، في سوكري، وأن أخذ الجدة معي. كانت قد حرمت أكثر بكثير من سنها. وكان ذهنها يقضي على غير هدى. وقد شُعد جمال صونها، وصارت تخفي أكثر، وبالهام أكبر من أي وقت آخر. اهتمت أمي بإبقائها نظيفة ومرتبعة، كما لو أنها دمية ضخمة. كان واضحاً أنها تحي العالم، ولكنها تنسب إلى الماضي، وبخاصة برايمع المذهب التي تولط فيها اهتماماً طويلاً. فقد كانت تتعرف على أصوات مختلف المذبحين الذين لمحمد هو منهم، على أنهم أصدقاء شبابها، في ربوها تشاً، لأنه لم يدخل مطبخ، قط، إلى بيتها

في أراكاتاكا، وكانت تخالف أو تتخذ بعض تعليقات المذيعين، وتناقش معهم البرامج المتنوعة، أو تؤنبهم على أي خطأ نحوي، كما لو أنهم، بلعهم وعظهم، إلى جوار سريرها، وترفض أن تستبدل ملابسها. طالما لم يلق المذيعون محبة الوداع، وعندما يفعلون، ترد عليهم بحسن تربيتها السليمة:

- طابت ليلتك أيها السيد.

أسرار كثير من الأشياء المفردة، أو المخبأة، أو المسائل المحظورة، توضع من خلال منولوجاتها، من الذي أخذ، في تايوت، مضخة الماء التي اختلت من البيت في أراكاتاكا، ومن هو في الحقيقة والد ماتيلفي سالونا، الذي أخفى فيه أخوته وجعلوه يبيع الثمن بالرباص.

لم تكن سهلة كذلك إجازتي الأولى في سوكري. من دون مارتينا فرانسيسكا، إنما لم يكن هناك أدنى إمكانية للعابها صحي. ومجره التفكير في أنني لن أراها، طوال شهرين، بدا لي أمراً غير معقول. أما هي فلا، بل على العكس. فم عندما طرحت الموضوع، أدركت أنها، كما أنها، كانت قد سبقتني بثلاث خطوات، فقد قالت لي، دون أسرار أو غموض:

- هذا ما كنت أريد الحديث فيه. الحل الأمثل لكلينا هو أن نذهب للدراسة في مكان آخر. بعد أن صرنا الآن مجنونين، بحاجة إلى تفهيد، وهكذا، ستحصل إلى الفئاحة، بأن ما بيننا لا يمكن له أن يصير أبداً أكثر مما كان.

أخذت كلامها بسخرية:

- سأذهب غداً وأعود بعد ثلاثة أشهر، لأبقى معك.

فردت علي بمسقى تانغو:

- ها، ها، ها.

عندئذ أدركت أنه من السهل، إقناع مارتينا، عندما تقول نعم، ولكن لا يمكن إقناعها مطلقاً، عندما تقول لا. وهكذا تناولت غفازي، مستعماً بالدموع، وقررت أن أكون شخصاً آخر، في الهبة التي فكرت بها هي لي: مدينة أخرى، مدرسة أخرى، أصدقاء آخرون، وحتى طريقة أخرى في حياتي. لم أكد أفكر في ذلك، حين كان أول ما فلتنه لأبي بشي - من الوقار - وسلطة ميدالياتي الكثيرة، هو أنني لن أرجع إلى مدرسة سان خوسيه. ولا إلى مدينة بارانكييا. فقال هو:

- تشارك الرب، فقد كنت أسيطر على العوام، من أين جاء ذلك

رومانسية الدراسة لدى المجهزيت.

فتجاوزت أمني هذا التعليق قائلة:

- إذا هو لم يدرس هناك، فلا بد أن يذهب إلى بوغوتا.

ورد أمني على الفور:

- لن يذهب إذن إلى أي مكان، لأنه لا وجود لأسواق تكفي أولئك

الكاشاكر هناك.

أمر غريباً فمجرد فكرة عدم مواصلة الدراسة التي كانت حلم حياتي، بدت لي عندئذ، غير محتملة. حتى إنني لجأت إلى حلم لم يبدُ لي يوماً أنه يمكن التحقيق. إذ قلت:

- هناك منع دراسية.

فقال أمني:

- أجل. الكثير منها، ولكنها للأغنياء.

كان ذلك صحيحاً جزئياً، ولكن ليس بسبب المعالجة والحسوبة، وإنما لأن الإجراءات صعبة وشروط القبول سيئة التوزيع والانتشار. وبحكم النظام المركزي، فإن كل مستطع إلى منحة. عليه الذهاب إلى بروفنا، على بعد ألف كيلومتر. يطلب اجتيازها ثمانية أيام من السفر. وبكلف ما يعادل ثلاثة شهور تقريباً، في مدرسة داخلية جيدة. ويمكن، مع ذلك، أن يكون السفر دون طائل. استشاطت أمي غضباً - عندما يفتح أحدنا غطاء آلة المال، بصرف أين يبدأ، ولكنه لا يعرف أين ينتهي.

أضف إلى ذلك، أنه كانت هناك أمور أخرى مزعجة، فلوس إنريكي الذي بصغرني بسنة، كان قد سُجِّل في مدرستين محليتين، وهرب من كليهما، بعد شهر قليلة. ومرغرينا وعابدا تدوران على ما يرام، في مدرسة ابتدائية للراهبات، ولكنهما يدان التفتكير في الانتقال إلى مدينة قريبة، وأقل كلفة، من أجل الدراسة الثانوية. أما غوستافو، وليخيا، وريتا، وخيمي فلم يكونوا مستعجلين بعد، ولكنهم يكبرون بإفراع مدهود. وكان هؤلاء، أو الثلاثة الذين ولدوا فيما بعد، يتعاملون معي، كشخص لا يأتي دائماً، إلا لكي يغازل.

كانت تلك هي سنتي الخامسة، وكانت أكبر جاذبية، في حياتي المنافسة المزينة، هن الفتيات المختارات للطفهن وجمالهن، واللواتي كن يرتدين ثياب الملكات، ويلتصن أشعاراً نعرطية، تلصق إلى الحرب الرمزية، بين نصفي القرية. وكنت أنا، نصف الغريب، أستمع بامتياز كوني صحابداً. وعلى هذا الأساس كنت أتصرف. ولكنني في تلك السنة، تنازلت أمام توسلات قادة حي كونفويو، لأكتب لهم أبيات شعر

تلقبها أختي كارمن روسا التي ستكون ملكة إحدى العريبات الضخمة. وقد أوصيتهم بكل معادة، ولكنني بالغت في مهاجمة المحصم، بسبب جهلي قواعد اللعبة. فلم يبق لي مخرج آخر سوى توقيع تلك الفضيحة بتصديتي سلام: واحدة ترميمية جميلة حي كونفويو، وقصيدة مصالحة لجميلة حي سوليا. شاع خبر الحادثة. وهكذا تحول الشاعر شبه المجهول، في البكة، إلى بطل الاحتفال. وقد قدمني الحدث في المجتمع، وجعلني جديراً بمصداقة الفريقين. ومنذ ذلك الحين، لم بعد لدي وقت للمساعدة في المسرحيات الطفلية، والأسواق الموسمية، ومهرجانات بانصيب الإحسان. وحتى في كتابة خطاب مرشح للمجلس البلدي.

لوس إنريكي الذي كان ينهاني بمنازل الميشتار المهتم الذي صار إليه، علمني عزف الفيولي^(١). وجمعت معه ومع فيلادلفيو بيليا إلى ملوك السرينات، براودنا الأمل الكبير بأن ترتدي بعض المحتشيين بهن ملايين بسرعة، ويفتحن الباب، ويوظفن الجارات، لتواصل الحفلة حتى الفطور. في تلك السنة أثرت الجماعة، حين انضم إليها خوسيه بالينشيا، حفيد مالك أراض ثري ومبذر. كان خوسيه موسيقياً قظرياً قادراً أن يحزف على أي آلة موسيقية تقع بين يديه، له مظهر لنان سينمائي. وكان راقصاً محبوباً، يتمتع بذلك مظهر ومهارة محسود، أكثر مما هو قابل للعقد في الفراميات العابرة.

أما أنا، بالتقابل، فلم أكن أفنق الرقص، ولم أستطع تعلمه، حتى في بيت الأخت لوسيلوا، وهن ست أخوات مقعدات بالولادة، ولكنهن يعطين حج ذلك دروساً في الرقص الجيد. دون أن ينهضن عن كراسيهن

(١) فيولي علفنا: آلة موسيقية تشبه الفيولا ولكنها أسفرت حصاً، ولأنها أكثر حداً.

الهزاة. أبي الذي لم يكن قط، من النوع غير المبالي بالمسمة، تقرب مني برؤية جديدة. وصرنا، لأول مرة، نكرس ساعات طويلة لتبادل الحديث. كنا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر. الواقع أنني، وأنا أنظر اليوم إلى ذلك، لم أمش مع أبي أكثر مما مجموعه ثلاث سنوات، بما في ذلك ما عشته معهما في أراكاتاكا، وبارانكيتا، وكارناخيتا، وسينشي، وسوكري. لقد كانت تجربة لطيفة جداً أتاحت لي التعرف عليهما، بصورة أفضل. وقد قالت لي أمي ذلك، ثم هو جيد أنك صرت حديقاً لأهلك. وبعد أيام من ذلك، بينما هي تعد القهوة في المطبخ، قالت لي أيضاً:

- أبوك مغرور بك.

وفي اليوم التالي، جاءت توفظني، على رؤوس الأقدام، وهمت في أذني: "أهلك يخشى لك مصاباً". وبالفعل، عندما نزلت لتناول الفطور، لدم هو نفسه لي الحبر، بحضور الجميع وتنفيم مهوب:

- جهز أشبالك، سوف نذهب إلى بوغوتا.

الصدمة الأولى كانت إصباحاً كبيراً، فما كنت أرغب فيه آنذاك، هو البقا. غارفاً في حفلات الصخب الأبدية. ولكن البراءة تغلبت، لم تكن هناك مشكلة بالنسبة للآيس المنطق الباردة. فلدي والدي، بدلة سوداء من الجوخ، وأخرى من المخمل، ولا تنطبق أي منهما على خصره. وهكذا ذهبت إلى بيدروليون روساليس، المعروف باسم خياط المعجزات، فأعاد تكييفهما على عفاشي. واشترت لي أمي كذلك، معطفاً من جلد الجمل، كان لسيناتور ميت. وبينما كنت أجريه في البيت، حذرتني نفسي لخبها، سرّاً - وهي متنبهة بالفطرة - من أن شيع السيناتور يمر ليلاً من بته، وهو يرتدي المعطف. لم أولها اهتماماً. ولكن كان من الأفضل لي

أن أفعل، لأنني عندما ارتديته في بوغوتا، رأيت نفسي في المرأة، بوجه السيناتور الميت، فرفته مقابل عشرة بيوزات، في محل رهونات موتني دي بيداد (جبل الرحمة) وتركته مضيق.

كانت الأجواء الأسرية قد تحسنت كثيراً، حتى أنني كنتُ على وشك الهكا، عند الوداع. ولكن البرنامج جرى بمحض الصدفة. دون إفراط في المصاطف، في الأسبوع الثاني من كانون الثاني، أبحرت من بلدة ماناغوا في "القبطان أوانغو"، وهي السفينة الرئيسية في شركة نايفرا كولومبيانا، بعد أن عشت ليلة كريميل حر. زسيلي في القمرة كان ملاكاً بزن حنتين وعشرين وطلاً، أمره الجسم بالكامل. له الاسم المختص: جاك الصفاح، وهو المثني الأخير على قيد الحياة، من سلالة رعاة السكاكين في المسيرك، المتحددين من آسيا الوسطى، بدأ لي للرحلة الأولى، أنه يمكن له أن يخفني بينما أنا نائم. ولكنني انتهيت في الأيام التالية، إلى أنه ليس أكثر مما يبدو عليه وحسب: طفل ضخم بقلب لا يتسع له جسداً.

أقمت حفلة رسمية في الليلة الأولى، بمشاركة فرقة موسيقية، مع وليمة عشاء فخمة. ولكنني هربت إلى المطبخ، تأملت آخر مرة، أضواء العالم الذي أستمد نسبته دون ألم، ويكبت على هواي حتى النجوم. وأتجبراً اليوم على القول، إن الشيء الوحيد الذي أرغب لي أن أعود طفلاً من أجله، هو الامتناع بذلك الرحلة. لقد قمت بها فيساً بعد، ذهباً وإبالياً، عدة مرات خلال السنوات الأربع المتبقية لي في الدراسة الثانوية، وستين آخرين في الجامعة. وفي كل مرة، تعلمت من الحياة، أكثر مما تعلمته في المدرسة، وأفضل مما في المدرسة. في الفترات التي

يكون فيها النهر مرتفعاً ومياهه كالقبة، تستغرق رحلة الصعود خمسة أيام، من بارانكيا حتى بويرتو سالغار. ومن هناك تُستكمل الرحلة بالنفطار إلى برغوتا. أما في فترات الجفاف، وهي الأكثر متعة في الإبحار، إذا لم يكن الممر مستعجلاً، فيمكن أن تستمر حتى ثلاثة أسابيع.

كان للسفن أسماؤه سهلة ومباشرة: "أتلانتيكو"، "ميدلين"، "كابان دي كارو"، "واليد آراندو"، وقباطنتها، مثل قباطنة (جرزيف) كونراد. كانوا مصطلقين ومن النوع الجيد. يأكلون كالبرابرة، ولا يستطيعون النوم وحيداً، لي لتراتهم الملوكية. كانت الرحلات بطيئة ومضاجئة، وكنا نحن المسافرين، نجلس على الشرفات طوال اليوم، لنشاهد القرى المنبسة، والتماسيح المنبطحة، وأشواقها مفتوحة بانتظار الفراشات قهر الحفرة، وأسراب مالك الحزين التي تنطلق محلقة خوفاً، من أثر مخود السفينة، وقطعان بط المستنقعات الداخلية، والأطم التي تغني على الشواطئ، بينما هي ترمض صغارها. وخلال الرحلة كلها، يستيقظ الممر مشوشاً من صخب القرد والبهافات. وكثيراً ما تقطع القبولوة رائحةً مقلزة لبخرة غارقة، ثابتة دون حراك، في خيط الماء النحيل، ومع نسر رخصة وحيد يجثم على بطنها.

من النادر أن يتصرف أحدنا الآن، على أحد في الطائرات. أما في السفن النهرية، فكان الأمر ينتهي بنا، نحن الطلاب، إلى أن نبدو أسرة واحدة؛ فقد كنا نشق كل سنة لكي نلتقي معاً، في الرحلة نفسها. وكانت السفينة تعلق أحياناً لمدة تصل إلى خمسة عشر يوماً، في إحدى المصاطب الرملية. ولم يكن أحد منا يشعر بالقلق، لأن المغلة تتواصل.

وتكفي رسالة من القبطان مبهمة بخافه، كمبر، لوصولنا متأخرين إلى المدرسة.

منذ اليوم الأول، لفت انتباهي أصغر أفراد جماعة أسيرة كان يعزف الباندونيون^(١) كما لو أنه في الأحلام، وهو يتجول طوال أيام الجماعة، على سطح الدرجة الأولى، لم أستطع تحمل الحسد، ذلك أنني منذ أن سمعت أول عازفي الأكورديونات، من جماعة فرانيسكو الإنسان في أعياد العشرين من تموز في أراكاتاكا، سمعتُ جاهداً من أجل أن يشعري لي جني أكورديوناً. ولكن جدي اعتبرت، كعادتها المرائية البائسة، بأن الأكورديون هو آلة بلها.. وبعد ثلاثين سنة من ذلك، هللت أنني تمررت في باريس، على عازف الأكورديون المشائق في السفينة، في مؤخر عالمي لأطباء الأعصاب، كان الزمن قد فعل لعله، فقد أطلق عليه بوهيمية، وكبرت ملاحظته على مفاسد حوالي ثرين. ولكن ذكرى براعته، كانت لا تزال حية، بحيث لا يمكنني أن أخطئ. ومع ذلك، ما كان يمكن لجوابه أن يكون أكثر فظافة، حين سألته، دون أن أقدم نفسي:

- كيف حال الباندونيون؟

لجأني متفاجئاً:

- لا أدري عم تتكلم.

أحسست بأنني أسف المترايب، ولدعت إليه لمسيراتي البائسة بأنني أخطأت، وطفنت طالباً كان يعزف الباندونيون في السفينة "واليد آراندو". في أوائل شهر كانون الثاني سنة ١٩٤١، عندئذ أشرق متألقاً بالذكى. كان ذلك الرجل هو الكولومبي سلون حكيم، أحد أعظم أطباء

(١) باندونيون bandoneros آلة موسيقية من نوع الأكورديون.

الأعصاب في العالم. وكانت خيبة الأمل في أنه محسوك من عزوف
الأوردون، إلى الهندسة الطبية.

وقد لفت نظري مسافر آخر، بسبب انزوائه. كان شاباً صريعاً، ذا
شعر أشقر، ضارب إلى الحمرة، يضع نظارة حديدية بصر. وله صلعة
مبكرة. بدا لي، الصورة النموذجية للسائح الكاثشاكوف. احتكر لنفسه
منذ اليوم الأول، أكثر المقاعد راحة، ووضع عدة أكياس من الكتب
الجديدة على طاولة صغيرة، وصار يقرأ دون توقف. منذ الصباح إلى أن
تشد اهتمامه حفلات الغناء والصخب الليلية. وكان يظهر كل يوم في
قاعة الطعام، يقيس شاطئ مختلف ومزين بالأزهار، فيتناول فطوره،
ولغداً، وعشاءه ويواصل القراءة، ويبدأ على المنتضة الأكثر انزواً. لا
أظن أنه تبادل النجبة مع أحد. وقد عمدته بيني وبين نفسي. يلقب
"القارئ النهم".

لم أستطع مقاومة إغراء النقص على كتبه. كانت في معظمها
مراجع عبثية الهضم، في القانون العام، يقرؤها في الصباح، وهو يؤشر
نحت السطور، ويدون ملاحظات في الهوامش. ومع برودة المساء، يقرأ
روايات، منها رواية أصابني بالذهول: "القرين" لدوستوفسكي، إذ كنتُ
قد حاولتُ سرقتها من إحدى مكتبات بارانكيها، ولم أستطع. وكنتُ
أتلهف بجنون لقراءتها، حتى إنني أردت طلبها منه. ولكنني لم أجرو
على ذلك. وفي أحد تلك الأيام، ظهر معه رواية مولان الكبير، ولم
أكن قد سمعت بها. ولكنني ضمنتها بعد وقت قصير من ذلك، إلى
قائمة الأعمال البارعة المفضلة لدي. أما أنا بالمقابل، فلم أكن أحمل
سوى كتب قراءتها من قبل، ولا يمكن إعادة قراءتها: جيرومين للأب

كولوما. التي لم أُنه قراءتها قط. والفداحة، لخوسيه إوساشيو ريليرا،
ومن جهال أيجونز إلى جبال الأنديز، لإدموندو دي أميسر، ومعجم الجند
الذي كنت أقرأ فيه مقاطع متفرقة طوال ساعات، بينما لم يكن لدي
القارئ النهم، من جهته، ما يكفي من الوقت، لقراءة ما لديه. وما أريد
قوله، ولم أذله، هو أنني كنت مستعداً لتقديم أي شيء، مقابل أن أكون
هو.

المسافر الثالث هو جاك السفاح، طبيباً، زميلي في القمرة الذي كان
يتكلم، وهو نائم، بلغة همجية، طوال ساعات كاملة. وكانت لمداخلته
لكل إيقاع مترنم، يفضي طلبية جديدة على قرائتي عند الفجر. قال لي
إنه لا يعني ذلك، ولا يعرف ما هي اللغة التي يعلم بها، لأنه في
طفولته، كان يتفاهم مع البهلوانات في سيركه، بمثل لغات أصبية.
ولكنه خلفها كلها بعدما توليت أمه. ولم تنق له سوى اللغة البولندية،
وهي لغته الأصلية. ولكن يمكن الإقرار بأنها ليست اللغة التي يتكلم بها
وهو نائم. لا أتذكر كائناً أكثر منه مودة، وهو يزيت سكاكينه المشزومة،
ويجربها على لسانه الوردي.

كانت مشكلته الوحيدة هي يومه الأول في قاعة الطعام، عندما قال
للنقل إنه لن يستطيع العيش حتى نهاية الرحلة، ما لم يقدموا إليه وجبة
تتبادل حصص أربعة أشخاص. وقد أوضح له مساعد الريان أنهم سيفعلون
ذلك، إذا هو دفع ثمناً إضافياً مع تخفيض خاص. فاحتج بأنه لا سافر
في كل بحار العالم، وكان الجميع يعترفون بحقه الإنساني في عدم
البقاء، جاعلاً. ووثقت القضية إلى الريان الذي قرر، على الطريقة
الكولومبية جداً، أن تقدم له حصتان، وأن يطلق الطهاة يدهم قليلاً

لتنوفا له حصتان أخريان سهواً. ومساعد هو نفسه أيضاً يتناول القمح
بشوكته من أطباق زلاته على اللاندة، وبعض الجيران ضعوفي الشهية.
من كانوا يستمتعون بدعابته لا بد للمرء من أن يكون هناك ليصدق
ذلك.

ثم أكن أدري ما أفعله بنفسى، إلى أن صعدت إلى السفينة فى
لاغلوريا، جماعة من الطلاب الذين راخوا بشكلون فرقا ثلاثية ورعاية
فى الليل، ويغنون سوناتات شجية وأغنيات بوليفرو غرامية. وعندما
اكتشفت أنهم بحاجة إلى صوت صاوح، عرضت عليهم أن أؤده أنا.
وصرت أقرن معهم بعد الظهر، ونغنى حتى الفجر، وهكذا وجدت ثلث
ساعات فراغى. علاجاً مرتبطاً بالقلب؛ لا يمكن لمن لا يغنى أن يتخيل ما
تجنيه متعة الغناء.

فى ليلة مكتملة القمر، أبظنا نواح مؤثر يأتي من الضفة. فأصدر
اللبطان كليساكو كوندى ألبينو، أحد أعظم الربانة، أمره بالبحث
بالمصباح الكشاف، عن مصدر ذلك النواح. فكانت أنش أظم عابقة
بأغصان شجرة سافطة، فألقى بحارة السفينة البخارية بأنفسهم إلى الماء،
وربطوها برافعة وحية، وتمكنوا من تخليصها. لقد كانت كاتنا رائعة
ومؤثراً، تجمع بين المرأة والبقرة. طولها حوالى أربعة أمتار، لها جلد
داكن ولين، وصدرها ذو الثديين الكبيرين، أشبه بصدر أم ثورانية، وقد
سحقت الكابتن كوندى ألبينو يقول إن العالم سينتهي إذا ما واصلوا قتل
حيوانات النهر. وقد منع إطلاق النار من سفينة. وقال صارخاً:

- من يرد أن يقتل أحداً، فليذهب ويقتله فى بيته وليس فى
سفرتى.

إننى أتذكر يوم التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٦٦، بعد ست
عشرة سنة من ذلك، يوم نحص، لأن صديقتنا اتصل بي، وأنا فى
مكسيكو، ليخبرني بأن السفينة البخارية "دافيد أوانشو" قد احترقت
واستعالت رسداً فى مرفأ ماغانفى. أغلقت سماعة الهاتف، براودنى
شعور رهيب بأن شباهى قد انتهى فى ذلك اليوم. وبأن القليل المتبقى لنا
من الحنين إلى نهرنا قد ذهب إلى الجحيم. نهر مجدلينا اليوم، هو نهر
ميت، بمياهه العفنة وحيواناته المنقرضة. وأعمال الترميم التى طالما
تحدثت عنها الحكومات التالية، لم يتحقق منها شيء. فهى تتطلب
غرس ستين مليون شجرة، فى تسعين بالمئة من أراضى تعود إلى ملكيات
خاصة، بتوجب على مالكيها، أن يتخلوا عن تسعين بالمئة من دخلهم،
حياً بالوطن وحسب.

كل رحلة كانت تخلف لدينا قدراً كبيراً من التعلم الحياتي. بعضنا
على ارتباط بصورة عابرة، إنما لا ننسى، بالمرى التى نر منها، حيث
ارتبط مصير بعضنا بها إلى الأبد. فهناك طالب طب مشهور دخل، دون
دعوة، إلى حفل زفاف راقص، ورقص دون إذن، مع أجمل امرأة فى
الحفلة، فقتله الزوج برصاصة. وآخر تزوج وهو ثمل، فى سكرة ملحوبة،
من أول عشاة أصعبته فى بونرو بيرير. وما زال سعيداً معها ومع
أبنائهما التسعة هناك. وخوسيه بالينثيا، صديقنا الذى من موكري،
كسب بقرة فى مسابقة مهرجان شعبي فى فينيرفى، وباعها هناك
بالطائ. مقابل خمسين بيزو، وهى ثروة فى ذلك الزمن. ونفى حي
التسبع الهائل فى بارانكايرميخا، عاصمة البترول، فوجئنا بأنفسنا
نغنى مع أوركسترا أحد مواخير أنخل كامبيغ بالينثيا. ابن عم خوسيه.

الذي كان قد اختفى من سوكري، دون أن يخلف أثراً منذ السنة السابقة. أما حساب ما فعلناه، فتكلمت به الأوركسترا حتى الفجر.

الذكرى غير المظيفة، هي ما جرى لنا في حانة مكشوفة في بويرتو بيريو، حيث أخرجتنا الشرطة بالضرب بالهراوي، وكنا أربعة من ركاب السفينة، دون تقديم أي تفسير لنا، أو سماع أي تفسير منا. واعتقلونا بتهمة أننا اغتصبنا إحدى التلميذات، وعندما وصلنا إلى مركز الشرطة، كانوا قد احتجزوا دورا - القضبان المذنبين الحقيقيين، دون خشى أحد منهم.

وهم بعض الزعران المحليين، وليس لهم أي علاقة بسفينتنا.

في محطاتنا الأخيرة، بويرتو سالانغار، كان علينا أن نزل إلى البر، في الساعة الخامسة صباحاً، مرتدين ملابس مناسبة للمناطق المرتفعة، وهكذا تبدت هبات الرجال بالبدلات السوداء، مع الصدار، والقبعة لها شكل القطر، والمعاطف معلقة بأذرعهم، ما بين ثقافتهم الضفادع وتنانة النهر المصراع بمحركات مثبتة. وعندما حان موعد النزول من السفينة، ولعت لي مفاجأة غريبة، فقد كان أحد الأصدقاء - قد ألتصق أمني في اللحظة الأخيرة، بأن تعد لي بقبعة تضم شبكة من ألياف نبات البيت، ودناؤاً من الصوف، ومبولة صغيرة للطوارئ، وأن تلف كل ذلك بحصيرة من الخلفاء، وتربطه بصورة متصالية بهيكل تعليق أوجرحه النوم. لم يستطع زسلائي الموسيقيون كبح ضحكهم وهم يرون محي، مثل تلك الأمتعة في مهد الحضارة. وأقدم أكثرهم جرأة، على ما لم يكن يقدر على الإقدام عليه: ألقى بالحزمة إلى الماء. وكانت روياني الأخيرة من تلك الرحلة التي لا تُنسى، هي البفجة المائدة إلى موطنها - منهادة مع التبار.

كان قطار بويرتو سالانغار يصعد، كما لو أنه يحبر على أقاريز الصخر، خلال الساعات الأربع الأولى. وفي المقاطع الأكثر انصباً، ينزلق متراجماً ليستجمع قواه ويحاول الصعود من جديد، مطلقاً لهات تنين. وكان لا يد للمسافرين، في بعض الأحيان، من النزول لتخفيف وزن المحمولة، والسير على الأقدام حتى الحافة الجبلية التالية. كانت قري الطريق كثيفة ومنجعدة، لا ينتظروا في محطاتها المقفرة سوى المانعات الأبديات اللواتي يعرضن علينا من نوافذ العربات، دجاجات سمينة وصغرا، مطهورة بكاملها، ومطاطا مثلية لها طعم المجد. هناك أحسست أول مرة، بحالة جسدية مجهولة لدي وغير مرتبة: البرد، عند الغروب، انفتحت أمامنا فجأة، عمن الحط، السهول الفيضانية الممتدة حتى الأفق، خضراء وجبيلة، مثل بحر سماوي، فصار العالم ساكناً ومعتصماً، وهرك جو للقطار إلى آخر.

كنتُ قد نيت قاصاً القارئ منهم، عندما ظهر فجأة وجلس قبالي، بظهره المثمل. كان أمراً لا يصديق، لقد أحسبته أغنية بوليرو، غنيهاً في ليالي السفينة، فطلب مني أن أدون له كلماتها. لم أكتف بعمل ذلك، وإنما علمته كيف يغنيها أيضاً. فاجأتني حسن سماعه وبريق صوته، عندما غناها وحيداً، مضبوطاً وجيدة، منذ المرة الأولى. وغنى مشرقاً:

- تلك المرأة ستموت، عندما تسمعها!

وهكذا فهمت لهفته. فمضت أن سمع البوليرو، ونحن نغنيه في السفينة، أحس بأن ذلك اللحن سيكون إلهاً للخطيئة التي ودعته في بولغونا، قبل ثلاثة شهور. وهي تنتظره في ذلك المساء، في المحطة. لقد سمع الأغنية مرتين أو ثلاث مرات. وكان قادراً على تركيب أجزائها،

ولكنه حين رأيته أجلس وحيداً على المقعد في القطار، قرر أن يقلب مني ذلك الجسبل. وقد تجرأت أنا عندئذٍ على القول له: بنية صبيحة، ودون أي مناسبة أو مقدمات، إنني فوجئت كثيراً حين رأيت على طولته، كتاباً من الصعب العثور عليه. أما مفاجأته فكانت حقيقية:

- أي كتاب هو؟

- القرن.

ضحكوا ضاحياً، وقال:

- لم أنته من القراءة بعد. ولكنه من أقرب ما وقع بين يدي.

لم يتجاوز ذلك الحد. شكرني بكل التدرجات الصوتية على أغنية البولير، وودعني بالشدة، بقوة على يدي.

بدأ الظلام يخيم، عندما أخذ القطار يخلف من سرعته، مرّ من غير مشرع بالحجرات الصديقة، ووسا عند وصيف مظلم. أمسكت صندوق أمتعتي من لسان الجمر، وسحبته نحو الشارع، قبل أن يصطفي عند الناس. وكنت على وشك الوصول، عندما صرخ أحدهم:

- أيها الشاب، أيها الشاب!

التفت لأتأمل، مثلما فعل عدة شبان، وآخرون أقل شباهاً كانوا يسرعون مثلي، ومرّ عندئذٍ القارئ النهم إلى جانبي، وأعطاني كتاباً دون أن يتوقف.

- فليكن كتباً لك - صرخ بذلك، وضاع في الزحام.

كان الكتاب هو "القرن". وكنت ملجأ إلى حد لم أنتبه معه إلى ما جرى لي. وضعت الكتاب في جيب المعطف، وصففتني وبع الفسق الجليدية عندما خرجت من المحطة. تركت الصندوق على الرصيف وأنا

على وشك السقوط منهوكة، وجلست عليه لا أتنطق إلا بالناس التي اغتدتها. لم تكن هناك نفس واحدة في الشارع. والقليل الذي كنت من رؤيته، هو ناصبة جلالة مشؤومة وجليدية تحت رذاذ مطر خفيف مختلط بهباب الفحم، على ارتفاع ألفين وأربعمئة متر عن سطح البحر، وسط هراء قطني يعوق التنفس.

انتظرت، حيناً من الزمان، ما لا يقل عن نصف ساعة. كان لا بد لشخص من أن يأتي. ذلك أن أبي أرسل برقية مستعجلة إلى دون إليسير توريس أرائسو، وهو قريب له، ليكون في انتظاري. ولكن ما كان يخلقي عندئذٍ، ليس صبي، أو عدم صبي، أحد، وإنما الحرف من وجودي جالساً، على صندوق كأند الغبر، دون أن يكون هناك من يعرفه في الجانب الآخر من العالم، ولجأة نزل من سيارة تكسي، رجل وجهه، يحمل مظلة من الحرير، ويرتدي معطفاً من صوف الجبال، يصل حتى كاحليه. أذكرت أنه من يبحث عني، بالرغم من أنه لم ينظر إليّ. ومرّ من عرّضاً، فلم أجد المرأة للإشارة له بأي إيماءة. دخل راكضاً إلى المحطة، ثم عاد للخروج، بعد دقائق. دون أي بادرة أمل. وأخيراً اكتشف وجودي، وأشار إليّ بإصبعه السبابة:

- أنت غابيتو، أليس كذلك؟

فأجبت من روحي:

- تقريباً.

كانت بوغوتا، آنذاك، مدينة نائية وكتيبة، بهطل فيها رذاذ مطر مؤرق، منذ مطلع القرن السادس عشر. لفت انتباهي وجود كثير من الرجال المستعجلين في الشارع، يلبسون مثلما ألبس، منذ وصولي، بدلات من الجوخ الأسود وقبعات قاسية. ولكن لا تظهر بالمقابل، امرأة واحدة تبعت العزاء في النفس. كان محظوراً عليهن الدخول إلى المقاهي الكالحة في المركز التجاري، مثلما هي حال القساوسة الذين يرتدون ملابس الكهنوت، والعسكريين الذين هم بالزّي الرسمي. وكان يُعلق، في عربات الترام والمراحيض العامة، إعلان كثيب: "إذا كنت لا تخشى الله، فاخش السفلس".

أذهلني الأحصنة الضخمة التي تجر عربات البيرة، وشور الألعاب النارية الذي يطلقه الترام عندما يتعطف في الزوايا، وعرقلة حركة المرور، من أجل فتح الطريق للجنازات التي تتقدم مشياً على الأقدام، تحت رذاذ المطر. لقد كانت المظهر الأكثر كثافة، في عربات فاخرة تجرها خيول مكسوة بالمخمل، مع فنزعة من الريش الأسود، تحمل جثث أناس من أسر راقية، تتصرف مثل مخترعي الموت. أمام مدخل كنيسة لاس نيفيس، رأيت من سيارة الشاكي، أول امرأة في الشارع. كانت

ممشوقة القوام ورشيقة، ذات مهابة كبيرة، كأنها ملكة في حداد.
ولكنني بقيت إلى الأبد، بنصف الوهم، لأنها كانت تغطي وجهها بخمار
لا يمكن اختراقه.

لقد كان انهياراً معنوياً كاملاً، فالبيت الذي أُنصبت فيه تلك
الليلة، كان كبيراً ومرحاً. ولكنه بدا لي ضيقاً، بسبب حديقته الكالحة
ذات الورود القاقية، والبرد الذي يطحن العظام، إته بيت أسرة توريس
غامبورا، أقرباء أبي ومعارفي، ولكنني رأيتهم غرباء، أثناء العشاء،
وهم مثلهون بأرواب النوم، وكانت مفاجأتي الكبرى، عندما انزلتُ تحت
ملاط السريـر، وأطلقت صرخة رعب، لأنني أحسست بأنها حيلة بائـل
متجعد، لمأوضحو لي أنها تبدو كذلك، في المرة الأولى، وأنتي سأخذ
بالاعتماد شيئاً فشيئاً، على غرابه المناخ، وقد بقيت ساعات طويلة
بهتت، قبل أن أتوصل إلى إغفاءة غير سعيدة.

تلك هي الحالة المعنوية التي كنتُ عليها، بعد أربعة أيام من
وصولي، بينما أنا أمشي بكل سرعة، في مواجهة البرد ورياح المطر،
نحو وزارة التربية، حيث سيُفتح التسجيل للمسابقة الوطنية للفتح
الدواسية، كان صف المنتظرين يبدأ من الطابق الثالث في الوزارة، أمام
باب مكتب التسجيل بالثلث، ويظل متلوياً على السلام، حتى المدخل
الرئيسي. لقد كان مشهداً يمزج القلب، وعندما انقطع المطر، غي حوالي
العاشرة صباحاً، تطاول الصف، أكثر من كمادتين ألفريين، في جادة
خيمينث دي كيسادا، وكان لا يزال هناك متقدمون آخرون بلوفون يداخل
العصارات، بدا لي أنه من المستحيل الحصول على شيء، في ذلك
التنافس للفوز.

بعد منتصف النهار بقليل، أحسست بطرقتين خفيفتين على كتفي.
وكان قارئ السفينة النهم الذي تعربك علي، بين آخر الواقفين في
الصف، ولكنني تكلفت جهداً في التصرف عليه، بشبهة الفطر التي
بعضمرها، وملابس الكاتشاكو المائتة، وبدا هو مستغرباً أيضاً، عندما
سألني:

- أي فعنة تفعلها هنا؟

فأخبرته.

- يا لأمر الضرب - قال وهو يكاد يموت من الضحك، وأصاح:-
تعال معي، وأخطني من ذراعي باتجاه الوزارة، عندئذ عرفت أنه الدكتور
أبولغر غومث تامارا، المدير الوطني للمنتح المدرسية في وزارة التربية.
كانت المصادفة الأقل احتمالاً، وواحدة من أكثر المصادفات توفيقاً
في حياتي، وبماحية، من أكثر دهابات الصلالة الطلابية صفاء، فدعني
غومث تامارا إلى مساعده، على أنني أكثر فني البوليفرو الرومانسي
إلهاماً، قدموا لي قهوة وسجلوني دون مزيد من الإجراءات، ولكن ليس
دون أن ينبهوني، قبل ذلك، إلى أنهم لا يرمون بمسئلتهم إلى مجازي
اللائح، وإنما يدفعون أتوة تلك المصادفة، أخبروني أن الامتحان العام
سيكون يوم الاثنين التالي، في مدرسة سان بارتولومي، وكانوا يقفرون
أن هناك ألف متقدم من كل أنحاء البلاد، إلى حوالي ثلاثمئة وخمسين
متحة، وهذا يعني أن المعركة ستكون طويلة وشاقة وربما ضربة فاضية
لأعلامي، المسئولون المحظوظين سيحرفون النتائج بعد أسبوع، ومعها
المعلومات عن المدرسة التي سيمرسلون إليها، كان ذلك أمراً جديداً وجرأاً
بالنسبة لي، إذ يمكن لهم أن يرسلوني إلى مبدلين أو يبتشادوا، وأوضحوا

لي أن هذا الفرز الجغرافي، بالقرعة، إنما أقر لتتوسط الحركة الثقافية بين مختلف المناطق. وعندما انتهت الإجراءات، شدّ تامارا على يدي بالحاماس نفسه الذي شكرني به على أغنية البوليرو. وقال لي:

- كن حقيقياً. مصيرك الآن بين يديك.

ولدى خروجي من الوزارة، عرض عليّ رجل له مظهر كهنوتي، أن يحصل لي على منحة مؤكدة، دون التقدم إلى امتحان القبول، وفي المدرسة التي أرغب فيها، مقابل دفع خمسين بيزو. كان المبلغ ثروة بالنسبة لي. ولكنني أھنّ أني كنت سأدفعه، لو أنني أملكه. كي أجنب رعب الامتحان. وبعد بضعة أيام، تعرّفتُ على ذلك المعتل، في صورة منشورة في الجريدة، باعتباره زعيم عصاة نصايين يتكبرون بزي القساوسة، للقيام بصفقات غير مشروعة، في الأجهزة الرسمية.

لم أفرغ صندوق أمتعتي، لخبثي بأنهم سوف يرسلوني إلى أي مكان. وكان تشالومي راسخاً إلى حد أنني ذهبت. غيبة الامتحان، مع موسيقي السفينة، إلى حانة بائسة في حي لاس كرويس اللوفر. وكنا نغني مقابل الشراب، بسحر أغنية لكل كأس من التشتيشا، ذلك الشراب الرهيب من اللذة المخمرة، الذي يصغبه السكبيرون الفواقة بالبارود. وهكذا وصلت متأخراً، إلى الامتحان، ورأسي ينحني من الألم، دون أن أدري أين كنت، ولا حتى من الذي أوصّني إلى البيت. في الليلة السابقة. ولكنهم استقبلوني بدافع الشفقة، في صالة فسيحة ومزدحمة بالمتدعّين. وكان إلقاء نظرة مصفوف سريعة على قائمة الأسئلة، كافياً لأن أدرك أنني مهزوم مسبقاً، لا محالة. ومن أجل إلها. المراهقين فقط، شغلت نفسي، بأسئلة العلوم الاجتماعية. وقد بدا لي أنها

الأقلّ قسوة. وفعلاً أحسست بأن حالة إلهام تطلبني، وتتيح لي ارتجال إجابات معقولة، ورميات إعجازية حوقلة. باستثناء، أسئلة الرياضيات، التي لم تشغ لي كما يشاء الرب. أما امتحان الرسم الذي أجهزته بسرعة، إنما بصورة جيدة، فكان مصير راحتي. وقد قال لي زملائي الموسيقيون: لا بد أنها معجزة شراب التشتيشا. أنهت الامتحان على أي حال. وأنا في حالة استسلام نهائي، مع التصميم على كتابة رسالة إلى أبوي، حول الحفرق والأحباب، كيلا أعود إلى البيت.

قمت بواجب المراجعة، لمعرفة النتائج، بعد القضاء أسرع. ولا بد أن الموظفة قد تعرفت على إشارة ما في إصبرتي، لأنها المتدعّية، دون مسرع، إلى حيث مديرها. وجدته واثق المزاج. يرتدي قميصاً لصبر الأكمام. وضع حماليتي سيروال حمرانين مبهرجتين. راجع درجات امتحاني باهتمام احتقارفي، تردد مرة أو مرتين، ثم زغر أخيراً، ولما لم نفسه:

- ليس سيئاً. الفهم إلا في الرياضيات. ولكنك لجهت، بشجرة.

بفضل الدرجات الحسن في الرسم.

دفع نفسه إلى الورد، في الكرسي ذي النوابط، وسألني عن المدرسة التي فكرتُ فيها.

كانت تلك إحدى لحظات رغبتي التاريخية. ولكنني لم أتردد:

- مدرسة سان بارتولومي، هنا في بوغوتا.

لوضع راحته على كنيسة أدراكي موضوعية على مكتبه.

- كل هذه هي رسائل من الوزن الثقيل، توصي بأننا أو أقرها.

أصدقاء. لقرؤهم إلى مدارس هنا، في العاصمة - قال ذلك، ثم انتبه

إلى أنه ما كان عليه أن يقوله، فواصل: - إذا ما سمحت لي فسوف أساعدك. أفضل ما يناسبك هي المدرسة الوطنية في تيباكبرا، على بعد ساعة في القطار.

الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عن تلك المدينة التاريخية، هو أن فيها مناجم ملح. وقد أوضح لي غوميت تامارا أن مدرستها تعود إلى العهد الاستعماري. وقد جرى الاستيلاء عليها، من جمعية دينية، في عملية إصلاح ليبرالي حديثة. ولجئها الآن، قائمة بمنازة من الأساتذة الشبان ذوي العقلية الحديثة. فكرت في أن أراجب بفرض علي، أن أخرجه من شكره، فقلت له منها:

- ولكن والدي من المحافظين.

فقال:

- لا تأخذ الأمر بهذه الجددة. فما أعنيه بليبرالي، هو سعة أفق

التفكير.

وسرعان ما استعاد أسلوبه الخاص. والبر أن مصري سيكون في ذلك الدبر القديم الذي يرجع إلى القرن السابع عشر، والمتحول إلى مدرسة زنادقة، في قبلا حافلة. لا وجود فيها لأي وسيلة لهر سوى الفراسة. كان الدبر ينصب، بالفعل، نجم عظمى بالأبدية. لقد كانت هناك، في مرحله الأولى، لوحة مصفوفة في الحجر تقول: وأمس الحكمة صغافرة الله. ولكن هذا الشعار، استبدل، وحل محله الشعار الوطني الكولومبي، عندما أمت حكومة الرئيس ألفونسو لوبث بوساريخو التعليم، سنة ١٩٣٦. وقد كنت في هليز المدخل، وبينما أنا أستعيد أنفاسي من الاختناق بشغل الصندوق، أحسست بالانقباض، حين رأيت

القناص الصغير ذا الأعمدة الكولونيالية المنحوتة من الحجر الصلد. والشرقات الخشبية المطلية بالأخضر، وعلى حوافها أخص أزهار كثيفة، كل شيء. كان يبدو خاضعاً لنظام طائفة دينية بعينها، ويلاحظ في كل شيء، بصورة واضحة، أنه لم يعرف تصاميم يدي امرأة منذ أكثر من ثلاثمائة سنة. داعيتي رعباً أنني سأعيش السنوات الأربع الخامسة من مراهفتي، في ذلك الزمن الراكب، وأنا الذي تعرّفت على سوء تربية فضاعات منطقة الكاريبي التي لا تخضع للقانون.

ما زلت حتى اليوم، لا أصدق أن طابقين، حول لنا - صامت، وبلا - مرهجلاً آخر، من الحجر في قطعة الأرض القصوى، يمكن لها أن تتسع لمنزل ومكتب المدير، والسكرتيرة الإدارية، والمطبخ، وقاعة الطعام، والمكتبة، وقاعات الدرس الست، ومخبر الفيزياء والكيمياء، والمستودع، والمخاضات ودورات المياه، ولقاعة النوم المشتركة ذات الأسرة الحديدية المتراكمة، لحوالي خمسين تلميذاً، جي. بهم جرجرة، من أشد ضواحي البلاد غماً، ولغة قليلة من أبناء العاصمة. ولحسن الحظ أن شرط المنفى ذلك، كان نصبة أخرى تجمعني الطبيب. فقد عرفت بلطفه، جيداً وسريعاً، كيف هي البلاد التي كانت من نصيبي في أربعة العالم. فمع نصف دزينة الكاريبيين الذين يتنزهني، كنواحد منهم، منذ وصولي، وتبنتهم أنا أيضاً بالطبع، كنا نقوم بتمييز لا متناه منهن، بيننا وبين الآخرين: أبناء العاصمة والغرباء.

مختلفة المجموعات الموزعة في أركان الفناء، منذ استراحة الليلة الأولى، كانوا نموذجاً غنياً مثل الأمة. لم تكن هناك خصوصيات مادام كل واحد في ميدهاته، وكانت علاقتي المباشرة مع المشعدين من ساحل

الكاريبي، عن كندا مشهورين، عن جذارة، بأثنا صاخيون، متعصبون لتضامن الجماعة، ومولعون بالرقص. وقد كنتُ استثناءً من تلك القاعدة. ولكن أنطونيو مارتينش سبيرا، وهو راقص رومبا، من كارتاخينا، علّمني الرقصات الرائجة، خلال الاستراحات الليلية. وكذلك فعل ريكاردو غونثالث ريبول، شريك الكيكر في إيجارتي السرية، الذي صار مهندساً محاسباً مشهوراً. ولكنه لم يقطع، مع ذلك قط، الأغنية التي يذيع بها من بين أسنانه، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً. وظل يرقص ويبداً حتى آخر أيامه.

مينتشو بوجوس، عازف البيانو الفطري، الذي توصل إلى أن يكون ماسترو أوركسترا وطنية للرقص، أسس فريق غناء المدرسة، ورغب في أن أتعلم معهم العزف على آلة موسيقية ما. وقد علّمني مرّ الصوت الثاني في غناء البوليرو وأغنيات الفايئاتو. ومع ذلك، فؤن ماأثره الكيكر هي ندوب غيبرمو لوبيث عمراً. البوغوتي انصافي، على الفن الكاريبي، في عزف الرمز الموسيقية، وهي مسألة ثلاثة الذين، ثلاثة اثنين.

أما هومبيرتو خابيس، فكان دارساً مجتهداً ثم يهتم بالرقص قط. بضحي عطلات نهاية الأسبوع، ويظل يدرس في المدرسة. وأظن أنه لم ير قط، كرة قدم ولم يقرأ وصفاً لأي نوع من المهارات الرياضية. إلى أن تخرج مهندساً في بوغوتا، ودخل جريدة التيمور، كمحرر رياضي متدرب، حيث توصل إلى أن يكون واحداً من أفضل معلقين كرة القدم في البلاد. ولكن أغرب حالة أتذكرها، هي دون شك، حالة سيلفيو لونا، وهو أسير داكن من تشوكو، تخرج محاسباً، ثم يعد ذلك طبيباً.

وكان يستعد لهذه هزاة ثالثة، عندما تولى عن نظري، ولم أعد أراه، دانييل روثو - باغوئيو - تصرف على الدوام، كعالم في كل ميادين العلوم الإنسانية واللاهوتية. وكان يصدق منها دون حساب، في الدروس والاستراحات. وكنا نلجأ إليه على الدوام، ليطلعنا على أحوال العالم. خلال الحرب العالمية التي كنا نناهبها بعض المتابعة، من خلال الإشاعات. إذ لم يكن مسموحاً دخول الصحف أو المجلات بانتظام. إلى المدرسة. أما المذهب، فلم نكن نستخدمه إلا للرقص، كل واحد منا يرقص مع زميل آخر. ولم يتح لنا قط، أن نعرف من أين يأتي باغوئيو بمعاركه التاريخية التي يخرج منها الخلفاء منتصرين، دوماً.

وبما كان جبرخو كاسترو - دي كيتامي - أفضل تلميذ في كل صفوف المدرسة. وقد أحرز، دوماً، أعلى الدرجات عند دخوله، ويبدو لي أن سره هو نفسه الذي نصعقني به مارتينا فونيسكا، في مدرسة سان خوسيه؛ ثم يكن يضيح كلمة واحدة من المعلم أو من مداخلات زملائه في الدروس. وبدون ملاحظات حتى عن أنفاس الأساتذة، يربتها لي دفتر متقن. وربما هنا هو السبب في أنه لم يكن يحتاج إلى ولت، لكي يحضر للامتحانات، وقرأ كتب المقامرات، في عطلة نهاية الأسبوع، بينما نحن الآخرين، نغني أنفسنا في الدراسة.

أكثر أسدقائي حواظية في الاستراحات، هو البوغوتي الخالص ألفارو روث توريس الذي كان يتبادل معي الأخبار اليومية عن الحطيات في الاستراحة الليلية، بينما نحن نقشي بخطوات عسكرية في الفناء. ومن الأصدقاء الآخرين، خاببي براقو، وهومبيرتو غيبين، وألفارو بيدال بارون، الذين كنتُ على علاقة جيدة بهم في المدرسة، وواصلنا

اللقا، معاً، طوال سنوات في الحياة الواقعية. كان الفارو رويث يذهب إلى بوغوتا، في نهاية كل أسبوع، لزيارة أسرته. ويرجع توتاً بالسجلات وأخبار الخطيبات. وكان هو من شجعني على إيمان هذين الأمرين. خلال الوقت الذي درسنا فيه معاً، ومن أهدى إليّ في هاتين السنتين الأخيرتين، أفضل ذكرياته. لينعش في ذاكرتي هذه المذكرات.

لست أدري ما الذي تعلمينه في الواقع، خلال السنين في ذلك المعهد الوطني، ولكن أربع سنوات من المعاشية حسنة الانسجام مع الجميع، ألهمني رؤية لوحدة الأمة. واكتشفت كم كنا عتقدين، وما هي قادتنا، وتعلمت ما لن أنساها أبداً، بأنه في جوهر كل واحد منا، توجد البلاء بأسرها. وربما كان هذا هو ما أرادوا قوله لي في الوزارة، حول التفتلات، بين المناطق التي ترعاها الحكومة. وبعد أن بلغت سن النضج، دُعيت إلى كاهنة قيادة طائرة حربية للمحيط. وكانت أول كلمات وجهها إليّ كابتن الطائرة، هي سؤالني من أين أنا. وقد كان سنهاي لتلك الكلمات، كالتالي لأن أقول له:

- إنني ساحلي، بقدر ما أنت سوغوسوسي.

فقد كان له الأسلوب نفسه، والإيماءات نفسها، ومادة الصوت نفسها التي لماركو ليدل بويّا، زميلي في مقعد السنة الرابعة، في تلك المدرسة. ضرورة الحس تلك، علمتني الإبحار في مستنقعات ذلك المجموع الذي لا يمكن توقع مفاجآته، حتى وأنا بلا بوصلة وعكس التيار. وربما كانت مفتاحاً يفتح كل الأبواب في مهنتي، ككاتب.

كنت أشعر، كما لو أنني أعيش حلاًماً. ذلك أنني لم أكن أتطلع إلى المنحة، لأنني أريد الدراسة. وإثماً، من أجل الحفاظ على استقلالي عن

أي التزام آخر. دون الإساءة إلى علاقتي بالأسرة. ووجود ثلاث وجبات مضمونة، يكفي لافتراض أننا كنا نعيش في ملاذ الفقراء، ذلك، أفضل من الحياة في بيوتنا، تحت رقابة ذاتية أقل صرامة من السلطة المنزلية. كان بسود قاعة الطعام سون ينجع لكل واحد منا، ترتيب الوجبة على هواء. دون أن تكون للفقود أي قبسة، فقد كانت ببضعا الفطير المسلوقة من الصلصة السميرية، إذ يمكن بهما، شرا - أي طبق آخر من الوجبات الثلاث. وكان لكل شيء، لمسته الصالحة، ولم يكن هناك ما يعكر تلك التجارة الشرعية. بل أكثر من ذلك، لمأنا لا أتذكر نزاعاً واحداً بلغ حد تبادل الكلمات، لأي سبب. خلال أربع سنوات من الدراسة الداخلية.

ولم يكن المعلمون الذين يأكلون على مائدة أخرى، في القاعة نفسها، يمتنعون عن تلك المفاتيض الشخصية، فيما بينهم، لأنهم ما زالوا يجربون عادات مدارسهم التي تخرجوا منها حديثاً. وكان معظمهم عازبين، يعيشون هناك بلا زوجات. وروايتهم ضئيلة، مثل المبالغ الشهيرة التي ترسلها لنا أسرنا، تقسباً. فكانوا يشكون من الطعام، لأسباب كثيرة مثلاً، وفي إحدى الأزمات الحظرة، الفريما من إمكانية التوافق مع بعضهم، على إضراب عن الطعام، ولكنهم عندما كانوا يتفقون هدأياً، أو يستسلمون زائرين عن الخارج فقط، تقدم لهم بأطباق ملهمة، مما يُفسد المساواة. وكان هذا ما حدث، ونحن في السنة الرابعة. عندما وعدنا طبيب المدرسة بإحضار قلب جاموس، لدراسته في دورة التشريح التي يشرف عليها. وفي اليوم التالي، أرسل القلب إلى تلاجيات المطبخ، وهو لا يزال طازجاً ودامياً، ولكننا لم نجهده هناك عندما

ذهبتا لإحضاره للدرس. ثم تبين، في اللحظة الأخيرة، أن الطبيب، عندما لم يجد قلب جاموس، أرسل قلب عامل بناء - بلا أهل، سقط مهتماً من طابق رابع. ونظراً لأن القلب لا يكتفي للمجميع، قام الطهاة بإهدائه مع صلصات، شهية معتقدين أنه قلب الجاموس الذي طلب منهم ظهوره لمائدة الأستة. أظن أن تلك الصلصات المتدفقة، بين الأستة والطلاب، كانت مرتبطة بحركة إصلاح التعليم التي لم يبق منها إلا القليل للتاريخ. ولكنها أفادتنا على الأقل، في تبسيط البروتوكول. لتقلصت الفوارق في السن، وأقبل استخدام رطة الحق، ولم يعد هناك من يصاب بالذعر، لأن المعلمين والطلاب يتناولون بضعة كؤوس معاً، ويذهبون، في أيام السبت، إلى الرقص، مع الخطيبات معاً.

هذا الجو، لم يكن ممكناً، إلا مع نزوع من المعلمين يسمعون، عموماً، بملاكمة شخصية ملئة. لأستاذ الرياضيات، بضعة معارفه وحس سخرته اللاذع، يحرك الدرس إلى حفلة مخيفة. كان يدعى حواكين خبير الدوسانتا، وهو أول كولومبي حصل على درجة دكتوراه في الرياضيات، ومن سوء حظي، رغم جهودي وجهوده المبهارة، لم أقومصل قط، إلى الاندماج بدمه، كان من عاداته القول أنذاك، إن المسول الضعيفة تصادخل مع الرياضيات، وإن الأمر لا ينتهي بأحدنا، إلى تصديق ذلك وحسب، وإنما الفرق فيه، وربما كانت الهندسة أكثر رحمة، بفعل وفضل سمعتها الأوبئة. أما الحساب، بالمقابل، فيتصرف بتسوط عدائي. وأنا عازلت أجد نفسي حتى اليوم، عندما أريد إجراء عملية جمع ذهنية، مضطراً إلى تفكيك الأعداد، إلى أبسط مكوناتها، وبخاصة السبعة والنسبة، اللذين لم أستطع حفظ جدولهما قط. ولكي

أجمع سبعة وأربعة، أعطف اثنين من السبعة، وأجمع الأربعة إلى الخمسة المتبقية. ثم أعود أخيراً، لجمع الاثنين المتخلفين من السبعة: "أحد عشر". أما عمليات الضرب، فبقيت تخونني دوماً، لأنني لم أستطع قط، تذكر الأعداد التي في ذاكرتي. وقد كرمت للجبر، أفضل ما لدي من حماس، ليس احتراماً لروحه الكلاسيكية وحسب، وإنما حباً بعلمي وخوفاً منه. ولكن دون جدوى. فقد كانوا يرخونني في كل عمل دراسي، وقد تأملت فيه مرتين، وخسرت في محاولات أخرى غير مشروعة. فكانوا يمنونني النجاح فيه، كعذبة.

ثلاثة معلمين آخرين متفانين هم معلمو اللغات، الأول - معلم الإنكليزية - هو مشر أبلا، كاربي صاف، بنطق أو كسفرودي مثقن، وغيرة كنيسة تجاه معجم وبسترز الذي كان ينلوه، وهو مفضل المهين، وكان خليفته هو هيكتور ليفيروا، معلم شاب طيب، لديه هوى محمود بأغنيات البيوليرو التي كنا نغنيها بأصوات متعددة في الاستراحات. لقد بذلت أفضل ما أستطيعه، في سيات الدروس وفي الامتحانات النهائية، ولكنني أظن أن درجتي الجيدة لم تكن لمجمل شكسبير، بقدر ما هي بفضل أصفني البرلبروا فيو صارني وهوغو روساني، المسؤولين عن الكثير من غرايس الحب واتحاداته. أما معلم اللغة الفرنسية، طوال أروع سنوات، المشهور أنطونيو بيلا ألبان، فوجدني مسمماً بالروايات البوليسية. وكانت دروسه تعجرتني، كما هي دروس الآخرين جميعهم. ولكن اقتباساته المناسبة من فرنسية الشوارع، ساعدتني كثيراً، في النجاة من الموت جوعاً في باريس، بعد عشر سنوات من ذلك.

معظم المعلمين كانوا قد تكوّنوا في دار المعلمين العليا، بإدارة

الدكتور خوسيه فرانثيسكو سوكاراس. وهو عالم نفس من سان خوان دي سيبير، عكف على تفسير الترميز الكهنتوتية التي سادت، طوال قرن من الحكومات المحافظة، ليُحل محلها تربية عقلانية إنسانية. فكان ماتريل كوييرو دل ريو، ماركسياً واديكالياً، وربما لهذا السبب نفسه، كان يقدّر لين بورتانغ، ويؤمن بظهور الموتى، وكانت مكتبة كارلوس كالدرون، التي تصدرها أعمال ابن بلدته خوسيه إوستاسيو ريفيرا، مؤلف رواية "الدوام"، موزعة بالنسائي. بين الكلاسيكيين الإغريق، والشعراء "المحجر سماويين" المحليين، ورومنسي كل الأمعاء، ويفضل هؤلاء وأولئك، كنا نحن القراء القليلين المراهقين، نقرأ سان خوان دي لاكروت أو خوسيه ماري بارغاس بيجلا. ولكننا كنا نقرأ كذلك، مؤلفات رسل الثورة البروليتارية، فاستاذ العلوم الاجتماعية غونزالو أوكامبو، كان يملك في غرفته، مكتبة سياسية جيدة، يجري تداولها دون نوايا خبيثة، في فاعات درس التلاميذ الكبار. ولكنني لم أفهم قط، لماذا كنا ندرس "أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" لماركس، في أصعب الاقتصاد السياسي الجافة، وليس في دورس الأدب، باعتبارها ملحمة عفاة إنسانية جميلة. لقد قرأ غييرمو لوبيث غيرا، في الاستراحات، كتاب "أنثي دوهرنغ" للإجلس أيضاً. وكان قد استهازه من الاستاذ غونزالو أوكامبو. ومع ذلك، عندما طلبت استعارته، لكي أتناقش فيه مع لوبيث غيرا، قال لي أوكامبو إنه لن يقدم لي هذا الجميل البغيض. بإعتراتي ذلك المجلد الضخم والأساسي لتقدم الإنسانية إنما الطويل والممل جداً إلى حد، ربما سيحول دون دخوله التاريخ. وربما أسهت تلك المبادئ الأيديولوجية بسره مسحة العهد، واعتباره مخبر إحصاء

سياسي. ومع ذلك، فقد احتجت لنصف حياة لكي أُنقذ إلى أنها كانت أقرب إلى تجربة عفوية وتلقائية، لاستبعاد الضعفاء، وتلقيح الأقوياء، ضد أي نوع من الدوغمانية.

علاقتي الأكثر مباشرة كانت دوماً مع الأساذ كارلوس خولير كالدرون، معلم اللغة القشتالية في السنوات الأولى، ومعلم الأدب العالمي في السنة الرابعة، والأدب الإسباني في السنة الخامسة، والأدب الكولومبي في السنة السادسة، ومعلم شيء غريب عن تكوينه وعن ذوقه: المحاسبة. لقد ولد في نيبيغا، عاصمة إقليم هويلا، ولم يكن يتعصب من الإعلان عن تقديره الوطني للكاتب خوسيه إوستاسيو ريفيرا، وقد اضطر إلى قطع دراسة الطب والجراحة. وكان يتذكر ذلك على أنه إحباط حياته. ولكن شغفه بالفنون والأدب كان جارفاً، وقد كان أول معلم ينسب مسوداتي بملاحظاته وتوجيهاته المناسبة.

وعلى أي حال، كانت العلاقة بين التلاميذ والمعلمين، تجري بطبيعية استثنائية. ليس في الفروس وحسب، وإنما في فناء الاستراحة، بعد المشاء بصورة خاصة، فكان لك يتيح تعاملاً مختلفاً عن الذي اعتدنا عليه، ومواتياً بكل تأكيد لأجواء الاحترام والرفاقية التي كنا نعيشها.

إنني مدين لأحدى المحاضرات المرحية لأعمال فرويد الكاملة، التي وصلت إلى المكتبة آنذاك، لم أكن أفهم، بكل تأكيد، شيئاً من تحليلاته المربكة. ولكن عرضه للمحالات السريية كان يحبس أنفاسي حتى النهاية، مثل خيال جول فيرن. طلب منا المعلم كالدرون أن نكتب قصة قصيرة بموضوع حر، في حصة اللغة القشتالية، وخطرت لي قصة مريضة تنسبه في حوالى الساعة من عصرها بعنوان مدع، يحضي في انهاء

معاكس للشعر: "عقدة نفسية هاجسية". طلب المعلم قراءة القصة في
الدرس. واستنكر جاري في القصد، أوريليو بيريتو، دون تحفظ، غرور
الكتابة دون أدنى تكمين علمي أو أدبي حول تلك المسألة بالغة التعقيد.
فلأوضحت له، بحقد أكثر من التواضع، بأنني أخفت الموضوع من حالة
سريية يصفها فرويد في مذكراته، وأن هي الوحيد هو استخدامهما
لكتابة الواجب المدرسي، وربما ظن المعلم كالدكتور بأنني ساخط من
الانتقادات الفاسية التي وجهها عدد من زملائي في الصف، فاستدعاني
جانباً. في الاستراحة، ليشجعني على المواصله لدماء، في الطريق نفسه.
وأشار إلي أنه يبدو جلباً في نصتي، أنني أجهل تقنيات القصة
الحديثة. ولكنني أمتلك مع ذلك، الفطرة والرغبة. ورأي أن القصة
مكتسبة جيداً، وينبغي أصيلة على الأمل. وقد حدثني لأول مرة، عن
البلاغة. فدم لي بعض الحجل العملية في الأسلوب والنظم، لتجنب
الأصور، دون مزاعم وادعاءات. وانتهى إلى القول إنه عليّ في كل
الأحوال، أن أتناهب على الكتابة، ولو من أجل صحتي الذهنية وحسب.
وكانت تلك هي أولى المحادثات المطولة التي دارت بيننا. خلال سنواتي
في المعهد، في الاستراحات وفي ساعات الفراغ الأخرى، وأدبني لها
بالكثير في حياتي، ككتابت.

لقد كان ذلك هو جري المثالي. فمئة مدرسة سان خوسيه، مجرّد لدعي
إدماّن قراءة كل ما يقع بين يدي. وصرت أضغل وقت فراغي وكل وقت
المدرس تقريباً. في القراءة، وفي السادسة عشرة من عمري، كنت
قاصداً، بنظري إسلائي سليم أو من دونه، على ترويد القصائد التي
تعلمتها في مدرسة سان خوسيه، دون أن ألتفت أنفاسي. كنت أقروها

وأعيد قراءتها، دون مساعدة أو ترتيب، وخفية في معظم الأحيان خلال
الدروس. أظن أنني قرأت كامل مكتبة المعهد التي لا يمكن وصفها.
واللغة من فضلات مكتبات أخرى قليلة الجودى: مجموعات كتب
رسمية، ومبرات أساتذة فقدوا الشهية إلى القراءة، وكتب لا يرب في
أنها وصلت إلى الشاطئ من طبخة غارقة لم يد بها أحد. لا يمكنني أن
أنسى مجموعة "المكتبة الريفية" التي أصدرتها دار نشر مينيرفا،
بإشراف دون دانييل سامبر أورتيغا، ووزعتها وزارة التربية على المدارس
والمعاهد. لقد كانت مجموعة من مئة مجلد، تضم كل ما هو جيد، وأصراً
ما كتب في كولومبيا حتى ذلك الحين. ففوت قراءتها، وفق تسلسلها
الرقمي، إلى حيث سمحت به رוחي. والأمر الذي ما زال يزعجني حتى
الآن، هو أنني كنت على وشك الانتهاء منها، خلال السنتين الأخيرتين.
وتم أستطع خلال حياتي التالية، أن أحسم إذا ما كانت قد ألدتني في
شيء.

الفجر في قاعة النوم، كان له شبه مريب بالسعادة، لولا الجرس
القاتل الذي يرن كالجرس خطر - مثلما اعتدنا أن نفعل - في الساعة
السادسة من منتصف الليل. وكان اثنان أو ثلاثة من المتخلفين ذهنيّاً
تقطع هم الذين يقفزون من أسرهم، ليكوتوا الأوائل في الدور، على
دوشات الماء الجليدي الستة، في حمام قاعة النوم. أما نحن البقية،
فكنا نستغل الفرصة، لمصر آخر فطرات النعاس، إلى أن يأتي المعلم
الناوب ويجوب القاعة، منتزعاً البطانيات عن النائم. لقد كانت ساعة
ونصف الساعة من الحمسية المكشوفة، من أجل ترتيب الفراش، وتلميع
الأحذية، والاستحمام بدوش الجليد الذائب الذي يسيل من أنبوب دون

مرشة، بينما كل واحد منا يُفْرَج عن إيجاباته صارخاً، ويسخر من الآخرين، فتشتبك أسرار غرامية، وتعقد صفقات ومحاكمات، وتبرم المقايضات التي ستتم في قاعة الطعام. وكان موضوع المناقشات الصباحية الدائم، هو الفصل الذي قرئ في الليلة السابقة.

كان غيهرمو غراناداس يطلق العنان، منذ الفجر، لمراياه. كسفتي تهنور، في الشدو بلباسه غمر المتفانية من أغنيات التانغو. وكنت أشكل فثائياً مع جاري في قاعة النوم، ويكاردو غونزالث ويبرل، لفناء أغنيات الغاراتشا الكاريبية، على إيقاع الحرقدة، أثناء تلميع أظفئنا، عند رأس السرير، بينما زميلي سابلوس كاربايو يفرج قاعة النوم، من أقصاها إلى أقصاها، مثلما ولدته أمه، وهو يعلق منشقة على عضوه الذي من الإسمنت المسلح.

لو كان ممكناً، لهرب عبده لا بأس به منا، نحن المخطئين، حتى الفجر، لإيجاز مواعيد منفق عليها في نهاية الأسبوع. لم يكن هناك حراس ليليون، ولا أساتذة في قاعة النوم، باستثناء الأشخاص الأسهرمي المشاوب، ورواب المصعد الأبدى، ويغيرها الذي كان في الواقع، بنام مستبقاً، طوال الوقت، بينما هو ينجز واجباته اليومية. لقد كان يهش في الحجرة التي عند المدخل، ويلوم بجهته على أحسن وجه. ولكننا كنا نتمسك في الليل، من فتح باب الكتيمة الهائل، وإغلاقه دون ضجة، والاستمتاع طيلة الليل في بيت غريب، والمرتدة فيجل الفجر، عبر الشوارع البليدية. ولم نعرف قط، إذا ما كان يغيرها بنام حقاً كاثيت، مثلما كان يبدو، أم أن تلك هي طريقته المهنبة في التواطؤ مع فتيانه. لم يكن عبده من يهسون كغيره. وكانت أسرارهم تملحن في ذاكرة

زملاتهم المتواطئين معهم بإخلاص. لقد عرقت بعض من كانوا يهريون بصورة ووتشمة، وآخرين يتجروون على الذهب، مرة، متسلحين بالشجاعة التي يثنها تؤثر المغامرة، ويرجعون مستنفدين من الرعب. ولكننا لم نعلم قط أن هناك من اكتشف أمره.

الصائق الاجتماعي الوحيد الذي عانيت منه في المدرسة، هو الكوابيس المشرومة التي ورثتها عن أمي، والتي كانت تبرز فجأة، في أحلام الآخرين، على شكل صرخات من وراء القبر، جبراني في الأسرة، كانوا يعرفونها جيداً، ولا يخشونها، إلا بسبب رعب الصرخة الأولى في هدأة الفجر. وكان المعلم المشاوب الذي ينام في قمره من الكرتون، يتحول مسرعاً، من أقصى لماعة النوم إلى أقصاها، إلى أن يستتب الهدوء من جديد. لم تكن أحلاماً لا يمكن التحكم بها وحسب، وإنما كانت لها علاقة كذلك بطاب الضمير، لأنها جرت لي في مناسبتين، في بيوت التهلك والضلالي. ولم يكن بالإمكان حل رموزها أيضاً، لأنها لم تكن ترد في أحلام مرعية. وإنما على العكس من ذلك، في سباق أحداث سعيدة، مع أشخاص معروفين أو في أماكن مألوذة، وسرعان ما تكشف لي نظرة بريئة عن تفصيل مشؤوم. ولم يكن بالإمكان، صفارة كايوس بأحد كوابيس أمي، حين كانت ترى رأسها موضوعاً في حضنها، وهي تطلب من القمل والصنبان التي لا تتيح لها النوم، ولم تكن صرخاتي صرخات رعب، وإنما نداءات استغاثة، لكي يُعسن أحد إليّ ويوقظني. ولم يكن هناك في قاعة النوم شئسع لأي تصق في الكابوس، لأن الوسائل كانت تنهر على، عند أول أنه، متطلقة من الأسرة المجاورة، فاستيقظ لاهناً، وبقلب مضطرب، إنما محيد لكوني ما أزال حياً.

أفضل ما في المعهد، هو القراءات بصوت عالٍ، قبل النوم. كنا قد بدأنا تلك القراءات، بإدارة من الأستاذ كارلوس خوليو كالدرون. وقصة لمارك توين، يتوجب على تلاميذ السنة الخامسة قراءتها من أجل امتحان مستعجل، في الساعة الأولى من صباح اليوم التالي. قرأ الأستاذ الصفحات الأربع بصوت عالٍ، من حجرته المفصلة بحاجز من الكرتون، لكن يتصنق التلاميذ الذين لم يتولوا لهم ثلوث لقراءتها، من تدوين ملاحظات عنها. وكان الاهتمام كبيراً، إلى حد فوّت معه تلك العادة بالقراءة بصوت عالٍ، نفسها كل ليلة، قبل النوم. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، لأن أستاذنا مناضلاً اقترح الانتخابية في اختيار الكتب التي ستقرأ، وتهذيبها من الكلام الفاجر. ولكن خطر وقوع غرد، دفعهم إلى تفويض التلاميذ الكبار، بمهمة الاختيار.

بدأت القراءات، بنصف ساعة كل يوم. فكان الأستاذ المناوب يقرأ من حجرته جيدة الإضاءة الموجودة عند مدخل قاعة النوم العامة. وكنا في أول الأمر، نُسكته بشخير ساخر، ضحيلي أو متصنع، ولكنه يستحقه دوماً، ثم امتد وثت القراءة فيما بعد، إلى ساعة، حسب أهمية القصة. وبدأ الطلاب يحلون محل الأساتذة في مناورات أسبوعية. وقد بدأت الأزملة الطيبة، عند قراءة "نوستراداموس" و"ذو القناع المذهبي"، التي أعجبت الجميع. أما ما لم أستطع تفسيره حتى الآن، فهو النجاح المفوي الذي لقبته رواية "الجبل السحري" لتوماس مان، والتي تطلبت تدخل المدير، لثغنا من لضاء الليل مستيقظين، بانتظار قبلة هاتز كاستروب وكلوديا تشاوشات. أو ترفينا الفريد جميعنا، ونحن جالسون في الأسرة. كبلا نضج كلمة واحدة من المبارزة الفلسفية المبهمة، بين نابشا

وصديقها سيمبتي. وقد استمرت القراءة، في تلك الليلة، أكثر من ساعة. واحتفي بها في قاعة النوم، بعدصقة من التصفيق.

المعلم الوحيد الذي ظل واحدة من أكبر الأحجيات في شباهي، هو المدير الذي وجدته هناك، عند وصولي. كان اسمه أليخاندرو راموس، وكان فقط ومتوحداً. يضع نظارة ذات زجاج مسبك، تبدو كأنها نظارة أعمى. وله سلطة غير استعراضية، تُثقل عليها كل كلمة ينطق بها، مثل لكمة حديدية. كان ينزل من ملجئه في الساعة صباحاً، لثغيش على نظامنا الشخصية، قبل دخولنا إلى قاعة الطعام. وكان يرتدي ملابس لا تشبهها شائبة، ذات ألوان زاهية، وياقة منشأة كأنها من السيلولويد مع ربطه عنق بهيئة، وحذاء لامع، وكان يسجل أي خطأ في نظامنا الشخصية، بزمجرة تعتبر أمراً بالعودة إلى قاعة النوم، لتصبح الخطأ. أما خلال بقية اليوم، فيعتكف في مكتبه في الطابق الثاني، ولا نمرود لروقتة حتى صباح اليوم التالي، في الساعة نفسها، أو حين يخطر الانتشي عشرة خطوات، بين مكتبه وقاعة السنة السادسة، حيث يعطي درسه الوحيد في الرياضيات، ثلاث مرات في الأسبوع. وكان تلاميذه يتسولون إنه عيسفري في الأرقام، ومرح في الدروس، وأنه يذهلهم بحكمته، ويبحث فهم الوجفة، من رعب الامتحان النهائي.

بعد وقت قصير من مجيئي، كان علي أن أكتب الخطاب الافتتاحي، لأحد احتفالات المعهد الرسمية. وقد وافق معظم المعلمين على موضوعي. ولكنهم اتفقوا جميعهم على أن الكلمة الأخيرة في مثل هذه الحالات، تبقى للمدير. كان يقيم في أقصى المدرسة، في الطابق الثاني، ولكنني عانيت من تلك المسافة، كما لو أنها رحلة حول العالم سيراً على الأقدام.

كنت قد غُت بصورة سيئة، في تلك الليلة، ووضعت ربطة عرق أهاب الأحاد، ولم أكد أتكن من تذوق الفطور. طرقتُ طرقاً خفيفاً جداً على باب الإدارة الذي لم يفتح لي المدير، إلا بعد الطرق للمرة الثالثة. وأنصح لي الطريق للدخول دون أن يجهتي. وكان ذلك من حسن حظي، لأنني ما كنت سأجد صوتاً للرد عليه. ليس بسبب جفاته وحسب، وإنما بسبب مهابة وترتيب وجمال مكتبه ذي الأثاث المصنوع من أخشاب ثمينة ومخمل، وجموانه المخططة بخزائن معلقة تضم كتباً ذات أغلفة جلدية. انتظر المدير، بتسهل رسمي، إلى أن استعجت أنفاسي. ثم أشار إلي بالجلوس على كرسي، قبالة منضدة مكتبه، وجلس هو على مقعده. كنت قد هبت توضحاً لسبب زيارتي، بالاهتمام بنفسه الذي أعددت به الخطبة. استمع إلي بصمت، ووافق على كل كلمة بحركة من رأسه. ولكن دون أن ينظر إلي، وإنما إلى الورقة التي ترعف في يدي. وعند نقطة كنت أظنها مضحكة، حاولت أن أفوز منه بالتمسامة. ولكن دون جدوى، بل أكثر من ذلك؛ فأنا واثق من أنه كان مطلعاً، مسلماً، على هذا زيارتي. ولكنه أجبرني على توضيحه له.

وعندما انتهيت، مدَّ يده من فوق المنضدة، وتلقى الورقة مني، نزع نظارته، ليقراها باهتمام عيق. ولم يتوقف إلا لإجراء تصويين اثنين، برشة الكتابة. ثم أعاد وضع نظارته، وحدثني دون أن ينظر إلي عيني، بصوت جري هز قلبي. قال لي:

- توجد هنا غلطتان. فقد كتبت: "كما المسحاج نباتات بلادنا الوفيرة، التي عرك بها ودرسها العالم الإسباني خوسيه ثيستينير مورتيس، في القرن الثامن عشر، تعيش في هذا المعهد. أجراً"

فردوسية. ولكن كلمة وفيرة (exuberant) تكتب من دون الحرف h، وكلمة فردوسية (paradisiaco) لا تحتاج إلى علامة التشديد فوق الحرف i. أحسنت بالمثلة. ولم أجد جواباً أرد به على ملاحظته، عن الكلمة الأولى. ولكن لم يكن يخافني أدنى شك. بالنسبة إلى الكلمة الثانية، فأجبت على الفور بما تبقى لي من صوت:

- عنراً أيها السيد المدير، المعجم يورد كلمة فردوسية (paradisiaco) بالتشديد ومن دونه. ولكن نبرة التشديد بدت لي أقوى ولها.

لا بد أنه أحس بأنه قد اعتدى عليه، مثلما أحسنت أنا، ذلك أنه واصل عدم النظر إلي، وهو يتناول المعجم من خزانة الكتب، دون أن يقول كلمة واحدة. انقبض قلبي، لأنه كان معجم أطلس الذي أعدتني إياه جدي. إنما جديد ولاحق، وربما لم يستخدم من قبل، ومنذ المحاولة الأولى، ففتح الكتاب على الصفحة المطلوبة بالضبط. قرأ وأعاد قراءة المادة، ثم سألتني دون أن يرفع بصره عن الصفحة:

- في أي سنة أنت؟

فقلت له:

- في الثالثة.

أطبق المعجم بضربة قوية، كأنها انطابق ليخ، ونظر إلي عيني، أول مرة. وقال:

- برافو. استمر على هذا النحو.

ولم ينقصني، في ذلك اليوم، سوى أن يتادي بي زملائي في الصق، بطلاً. ويؤزوا يسمونني، بكل ما يمكن من سخرية "الساحلي الذي تكلم إلى المدير". ومع ذلك، فإن أكثر ما أثر بي في تلك المقابلة،

هو مراجعته، مرة أخرى، لماساتي الشخصية مع الإملاء. فأنا لم أستطع فهمه. وقد حاول أحد أساتذتي أن يوجه إليّ الصيغة القاضية. عندما قال لي إن مسيمون بوليفار لا يستحق كل تلك الأسماء، بسبب أخطائه الإملائية. بينما حاول آخرون مواساتي بالقول إنه «دا» بصيب كثيرين. وحتى اليوم، بعد أن صار لي سبعة عشر كتاباً منشوراً، ما زال مصححو صحافيي المطبعة، يشرفوني بكياسة تصويب أخطائي الإملائية، على أنها مجرد أخطاء مطبعة.

الحفلات الاجتماعية في ليبيكيرا لتتأهب عموماً، مع مبرور وأسلوب كل فرد. فستأجمل الملح التي وجدها الإنسان مكتشوفة هناك، كانت عامل جذب سياحي، في عطل نهاية الأسبوع، تستكمل مع اللحم في الفرن والبطاطا المشوية، لي مراحيل ملح خشنة. وكنا، نحن التلاميذ الفاضلين الساحليين، بشهرتنا المستحقة كصاغيين وصاغيين، نتمتع بمحسن التسمية في الرقص، كغنائين على الموسيقى الخارجية، وبالذوق السليم، في الحب حتى الموت.

توصلت إلى أن أكون متطوعاً في كل شيء، إلى حد أنه في اليوم الذي علمنا فيه بانتهاج الحرب العالمية، خرجنا إلى الشوارع، في مظاهرة ابتهاج ترفع الأعلام واللافتات، ونطلق هتافات النصر. وعندما طلب أحدهم، متطوعاً لإلقاء الخطاب، خرجت دون تفكير في الأمر، إلى شرفة النادي الاجتماعي، قبالة الساحة الكبرى، وارتجلت الخطاب بصرخات مدوية، هذا للكثيرين أنني أحفظه عن ظهر قلب.

كان ذلك هو الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مضطراً إلى ارتجائه في السبعين سنة الأولى من حياتي، وأنهيت خطابي بامتداح غنائي لكل

واحد من الأربعة الكبار. ولكن الذي لفت الانتباه في الساحة، هو امتداح رئيس الولايات المتحدة، وكان قد توفي قبل ذلك بقليل؛ قرأت كلن ديلاو ووزفت الذي يعرف، مثل السيد المتحول، كيف يكسب المعارك بعد موته، بقيت المباراة تطفو في المدينة لمدة أيام. وجرى استنساخها في لافتات الشوارع، وعلى جدران ووزفت، في واجهات بعض المتاجر. وهكذا، فإن أول نجاح شعبي لي، لم يكن باعتباري شاعراً ولا روائياً، وإنما كخطيب، بل أسوأ من ذلك: كخطيب سياسي. ومنذ ذلك الحين لم يعد يقام احتفال في المعهد إلا ويطلبون مني الصعود إلى شرفة القنصلية، غير أنها صارت، عندئذ، خطابات مكتوبة، ومصححة حتى النفس الأخير.

وقد أفادني ذلك الاستنهاض، مع مرور الوقت، بإصابتني برعب مسرحي أوصلني إلى حد الصمت المطلق، سواء في حفلات الزفاف الكبرى أو في حانات عامة المهنة ذوي صناديق القنب، حيث كنا نشبه على الأرض، وفي بيت بيرميسي المسجلة البعيدة عن الأحكام المسبقة، التي حالها حسن الخط بعدم الزواج مني، لأنها كانت مجنونة بحب شخص آخر. أو في مكتب التلفزيون، حيث كانت ساريتا التي لا تُنسى تبعث، بالدين، برقيات غمي، عندما يتأخر أبواي في إرسال مصروف شخصي. وقد دفعت لي أكثر من مرة قيمة الحوالات مقدماً، لتخرجني من المأزق. ومع ذلك، فإن أقلهم بُعداً عن النسيان، لم تكن محبوبية أحد بعينه، وإنما حرية محبي الشعر جميعهم. اسمها سيسيليا غونثالث بيتانو. وكانت ذات ذكاء لامع، وخفة ظن شخصية، وروح منحدرة في أسرة من سلالة محافظة، وذات ذكاء خارقة لحفظ كل أنواع الشعر، كانت

تعيش قبالة بوابة المعهد، مع عمدة أرستقراطية وعذبة، في منزل كولونبالي، محيط به حديقة أزهار تتفتح مع شروق الشمس. كانت العلاقة معها في البدء، مقتصرة على المباريات التنصيرية. ولكن سبيلها انتهت إلى أن تكون رفيقة حياة حقيقية، وكانت ثوت من الضحك على الدوام. وقد تسللت أخيراً، إلى دروس الأدب التي يلقبها المعلم كالديرون، بتواطؤ من الجميع.

خلال أزممتي في أراكاناكا، كنت أحلم بأن أعيش حياة سعيدة، بالفناء، منتقلاً من مهرجان شمسي إلى آخر، مزوداً بأكورديون وصوت جيد. وكان يبدو لي أنها أقدم الطرق وأبهجها، لفن حكاية. فإذا كانت أمي قد تطلت عن البيانو، لكن تنجب أبناء، وعلق أبي الكمان ليتمكن من إعالتنا، فإنه من العدل تقريباً، أن يستمر أكبر أبنائهما تلك السراويل الطيبة، ليموت جوعاً مقابل الموسيقى. وقد أثبتت مشاركتي المحتسبة، كمغن وعازف جيتار صغير (تيلي) في فرقة المعهد، بأن لي أذناً صالحة لتعلم العزف على آلة قليلة الصعوبة، وأنه يمكنني الغناء.

لم تكن هناك سهرة في مناسبة وطنية أو اجتماع اجتماعي في المعهد، إلا لي فيه يد بطريقة ما، والفضل في ذلك دوماً، للمايسترو ليجيرومو كيجيمو لورنوسا، مؤلف الموسيقى، ووجيه المدينة، والمدير الأيدي للفرقة الموسيقى البلدية، وصاحب موسيقى "برغوة" - على الطريق، حمراء، مثل القلب -، وهي أغنية شبابية كانت في أيامها، روح السهرات والسهرة. وفي أيام الأحاد، بعد القصاص، كنت أول من يجتازون الحديقة لحضور عزفه، الذي يبدأ دوماً بمقطوعة الغراب الصارق، وكسورال المطارق، ثم التروبادور في الختام. لم يعرف

المايسترو قط، ولم أخرج أبداً على إختياره، بأن حلم حياتي، في تلك السنوات، هو أن أكون مثله.

عندما طلب المعهد متطوعين، لدورة دراسية في تذوق الموسيقى، كنت أنا ولجيريرو لوبيث فيرا، أول من رفعنا إصبعنا. الدورة ستكون في أيام السبت صباحاً، بإشراف الأستاذ أندريس بيدرو توبار، مدير أول برنامج موسيقى كلاسيكية في "صوت بوغوتا". ثم نشغل سوى أقل من ربع قاعة الطعام التي جرى تأهيلها لتكون قاعة دروس. ولكننا وقعنا على الفور، بطلاوة لسانه الرسولية، لقد كان الكانتاشكو الكامل، بنائى في منتصف الليل، بمنزلة من المعمل، وصوت متلهم، ومنهمل فوق ذلك، أما ما قد يبدو الآن تحفة نادرة، بسبب قدمه، فهو الفونوغراف ذو ذراع التندوير الذي كان يديره ببراعة ومحبّة مروض فسات. كان ينطلق من افتراض - وهو صحيح في حالتنا - أننا مستعدون بالكامل، ولهذا بدأ به "كرنفال الحيوانات"، لسان-سين Saine-Siem، واصفاً طريقة كل حيوان في الحياة. ثم عزف بعد ذلك - وكيف لا - "بسترس والشيء"، ليروكوليف، الذي في حفلات أيام السبت تلك، أنها رُسخت في ذهني الاحتشام بالنظر إلى موسيقى المعلمين الكبار، على أنها رديئة شبه سرية. وقد احتجت لسنوات طويلة كي أصير بين الموسيقي الجيدة والموسيقى الرديئة.

لم أعود إلى إجراء أي اتصال مع المدير، حتى السنة التالية، عندما تولي هو نفسه تدريس مادة الهندسة للمنة الرابعة. دخل إلى قاعة الدرس في أول يوم للاثاء، الساعة العاشرة صباحاً. حيا محبة الصباح بمسجدة، دون أن ينظر إلى أحد، ونظف المسجدة بالمسحاة إلى أن لم يبق

أدتني أثر للخيار. ثم التفت عندئذ نحوها. ودون أن يقوم بتقعد قائمة
المحضر، سألت ألفارو رويث توريس:

- ما هي النقطة؟

لم يكن هناك مستمع من الوقت للإجابة، لأن أستاذ العلوم
الاجتماعية، فتح الباب، دون أن يطرعه، وقال للمدير إن هناك مكافة
مستعجلة من وزارة التربية. خرج المدير مصرعاً ليرد على الهاتف ولم
يرجع إلى الدرس. إلى الأبد. لقد كانت المكافة، لإبلاغه بنقله من منصبه
كمدير، وهو المنصب الذي شغله بضمير - طوال خمس سنوات في المعهد،
وبعد حياة كاملة من الخدمة الحسنة.

كان خلفه هو الشاعر كارلوس مارتين. الأصغر سناً بين شعراء
جماعة "حجر وساء" الجيدين، الذين ساعدني سحر دل يابهي على
اكتشافهم في باوانكيا. وكان المدير الجديد في الثلاثين من عمره. وفيه
لثلاثة كتب مطبوعة. كنت أعرف بعض قصائده، وقد رأيته في إحدى
المرات، في مكتبة لي بوغوتا، ولكن لم يكن لدي ما أقوله له قط، ولم
أكن أملك أحد كتبه لأطلب منه توقيعه عليه، ظهر في أحد أيام الاثنين،
دون سابق إنذار، في استراحة القضاة. لم تكن تنتظر رؤيته، بكل تلك
السرعة. وقد بدا محامياً أكثر منه شاعراً، بهدوء إنكليزية مخططة،
وجهه مكشولة. وشارب رفيع بصراحة في الشكل تُلاحظ كذلك في
شعره. تقدم بخطواته المحسوبة جيداً نحو أقرب جماعة منه، نادياً:
ونائباً بعض الشيء، ومد لنا يده:

- مرحباً، أنا كارلوس مارتين.

كنتُ في تلك المرحلة موثقاً بالنثر الغنائي الذي ينشره إدواردو

كارانثا في الصفحات الأدبية، في جريدة "إلتيمبورو" وهي مجلة
"البيت". وكان يبدو لي أنه جنس أدبي مستوحى من "خماري بالاتيرو
وأنا" خوان رامون خيمينيث، الذي كان وانجاً بين الشعراء الشباب
المنطليين إلى أن يحرق، من الخريطة، أسطورة غيرمر بالينيا، وقد رعى
الشاعر خورخي ريوخاس. وارت ثروة سريعة الزوال، باسمه ووصفه، نشر
كتيبات شعر أصيلة. أبقت اهتماماً كبيراً، بين أبناء جيله، ووحدت
جماعة من الشعراء المعروفين.

كان ذلك تدلاً عميقاً في العلاقات المنزلية، بصورة المدير السابق
الطيف، استبدلت ليحل محلها حضور ملموس يحافظ على المسافة
الواجبة، ولكنه في تناول البدو. تخلى المدير الجديد عن التفتيش
الروتيني على المظهر الشخصي وغيره من القواعد الحادة، وكان يتبادل
الحديث مع التلاميذ، أحياناً، في الاستراحة الليلية.

الأسلوب الجديد، وضعني في اتجاهي الصحيح، ربما كان كالديرون
قد حدث مديري الجديد عني. ذلك أنه في إحدى الليالي الأولى، أجرى
لي سيراً حول علاقاتي بالشعر، فأطلقت العنان لكل ما في داخلي،
فأنتني إذا ما كنتُ قد قرأت "التجربة الشعرية"، وهو كتاب ألفونسو
رييس، أثار الكثير من التعليقات، فاعتزمتُ له بأنني لم أقرأه، فأحضره
لي في اليوم التالي. التهمتُ نصفه تحت المقعد، خلال ثلاثة دروس
متتالية. والبقية خلال الاستراحة، في ملعب كرة القدم. وقد أمدني أن
كاتباً يمثل تلك الشهرة الواسعة، يهتم بدراسة أغنيات أغوستين لارا،
كما لو أنها أشعار غاريتلاس، متفرعاً بعبارات ذكية: "أغنيات أغوستين
لارا الشعبية ليست أغنيات شعبية". وقد كان ذلك، بالنسبة إليّ، أشبه
بالعثر على الشعر، مُلقاً في حساء الحياة اليومية.

تخلي مارتين عن الشقة الرائعة المخصصة للمدير. وأقام مكتبه. مفتوح الأبواب، في القنا الرتيبي، فقرنه ذلك أكثر من حسامراتنا بعد العشاء. وقد استقر، لإلتاحة طويلاً مع زوجته وأبنائه في بيت كولونيهالي كبير، في حالة جيدة، في أحد أركان ميدان المدينة الرئيسي. وكان فيه مكتب تغطي جدرانه كل الكتب التي يمكن أن يحتمل بها قارئ متابع لأذواق التجديد، في تلك السنوات، وهناك كان يزوره، في نهاية الأسبوع، أصدقاؤه من بولغوتا، ولا سيما زملاؤه في جماعة "حجر ومساء"، وفي أحد أيام الأحاد، كان علي أن أذهب إلى بيته، مع فيبرمر لويت خبيراً، من أجل مراجعة عارضة. وكان هناك إدواردو كارانشا وغورخي روخاس، النحسان الكبيران. طلب منا المدير الجلوس، بإياعة سريعة، كيلا نقطع المحادثة. فبقينا هناك حوالي نصف ساعة، دون أن نفهم كلمة واحدة، لأنهم كانوا يتناقشون حول كتاب لبول فاليري، لم نكن قد سمعنا به. كنت قد رأيت كارانشا أكثر من مرة في مكاتب ومقاهي بولغوتا، وكنت قادراً على تمييزه من إيقاع صوته وتلفقه، وهو يتوافق مع ملائمة الشوارع وطريقته في الحياة: كشاعر. أما غورخي روخاس بالتقابل، فلم أستطع التعرف عليه من ملائمة وأسلوبه الوزاري، إلى أن توجه إليهم كارانشا باسمه. كنت أتلفه لأن أكون شاهداً على نقاش حول الشعر بين أكبر ثلاثة شعراء. ولكن ذلك لم يحدث. وفي نهاية حديثهم، وضع المدير يده على كتفي، وقال لضيفي: - هنا شاعر كبير.

قال ذلك تلمظاً بالطبع، ولكنني أحسست بالزهو. وأصر كارلوس مارتين علي أن يلتقط لنا صورة مع الشعاعين الكبيرين. وقد التقطها

بالفعل. ولكنني لم أعرف عنها شيئاً، إلا بعد نصف قرن من ذلك، في يومه على الساحل الكاتاني. حيث تقاعد ليستمتع بشيخوخته الطبية. هزت المعهد رباح التفجير، قبلهايح الذي لم نكن نستخدمه إلا للمقاص، وجلاً مع رجل، تحول بفضل كارلوس مارتين إلى وسيلة انتشار اجتماعي. ولأول مرة صارت تُسمع وتُناقش الأخبار الليبية في فناء الاستراحة. تضاهف النشاط الثقافي مع تأسيس المركز الأدبي، ونشر جريدة أدبية. وعندما وضعنا قائمة المرشحين المحتملين ذوي الميول الأدبية الواضحة، وفر لنا عدهم تسمية الجماعة: مركز الثلاثة عشر الأدبي. بما لنا ذلك ضرورة حظ، لأنه كان فرق ذلك، لمبدأً للتظهر من العدة ثلاثة عشر. وكانت المبادرة من التلاميذ أنفسهم، وتخصص لسط لي اجتماعنا، مرة كل أسبوع، للتحدث في الأدب، مع أننا لم نكن في الحقيقة نفعل شيئاً غير ذلك. في أولات فرائضنا، داخل المعهد وخارجه. كل واحد منا كان يأتي بما لديه، فيقرؤه ويضعه لأحكام الجصيح، وكنت، أنا المذهول بذلك النموذج، أساهم في مراة سونيئات أولعها بالاسم المستعار: خابيير غارثيس. ولم أكن أسقطه في الواقع للتميز، وإنما لأختين خلفه. لأن سونيئات كانت مجرد لغزين حربية، دون إلهام ودون تطلعات. ولا يمكن أن تعزى إليها أي قيمة شعرية، لأنها لم تكن تخرج من الروح. كنت قد بدأت بمحاكاة كفيفيدو، ولويس دي فيغا، وحتى غارمبا لوركا، ولا سيما ثمانياته العفوية التي يكتبني الهد، بها، للمواصلة تلقائياً. وقد وصلت بعيداً في حسي المحاكاة تلك، حتى إنني فرضت على نفسي مهمة التصوير الساخر، لكل واحدة من سونيئات غارثيلاسو دي لايبغا الأربعين، وبالترتيب نفسه. وكنت أكتب كذلك، ما

يطلبه بعض تلاميذ القسم الداخلي، ليقدموه إلى صديقاتهم في أيام
الأحد، على أنه من تأليفهم. وقد قرأت لي إحداهن بتأثر، وفي مرة
مطلقة، الأشعار التي أهداها إليها حبيبها، على أنها من كتابته.

قدم لنا كارلوس مارتين مستودعاً صغيراً في الطابق الثاني من
المعهد، ثراؤه موصدة لدواع أمنية. وكنا حوالى خمسة أعضاء نتولى
وضع برنامج الاجتماع التالي، لم يخط أي واحد منهم مهمة الكتابة،
ولكن المسألة لم تكن في ذلك، وإنما في اختيار إمكانيات كل واحد.
كنا نناقش أعمال الآخرين، ونستشيط غضباً، كما لو أننا في مباراة
كرة قدم. في أحد الأيام اضطر ريكاردو غونزالس ويبول إلى الخروج
في منتصف المناقشة، وفوجئ بالمدير يضع أذنه على الباب، فسمع
مجادلاتنا. كان فضوله مشرعاً، لأنه لم يستطع أن يصدق أننا نكرس
أوقات فراغنا للمحدث عن الأدب.

في أواخر شهر آذار، وصلنا خبر أن المذبح السابق، دون أليخاندرو
راموس، قد أطلق وصاحته على رأسه، في المديفة الوطنية في بولغوتا. لم
يلتح أحد بنسبة ذلك التصرف إلى طبعه المنزلي، وربما المكتئب. كما لم
يكن ممكناً تصور أي سبب معقول لالتصحر وراة تشال الجنرال أوربي
أوربي. المحارب في أربع حروب أهلية، والسياسي الليبرالي الذي جرى
اعتقاله بالفوز، على يد متعصبين اثنين في ردة الكابيتولجو. ذهب
ولد من المعهد، برئاسة المدير الجديد، للمشاركة في جنازة المعلم أليخاندرو
راموس الذي بقي في ذاكرة الجميع، كنقطة ذراع مرحلة أخرى.

كان الاهتمام بالسياسة الوطنية متديناً جداً في المرحلة الداخلية.
لقد سمعت من يقول، في بيت جدي، إن الفرق الوحيد بين الحزبين، بعد

حرب الألف يوم، هو أن الليبراليين يفهمون إلى قدام الساعة الخامسة،
كبيلا يراهم المحافظون في قدام الساعة، ويظنهم مؤمنين. ومع ذلك،
فقد بدأت الاختلافات الحقيقية تصبح ملموسة بعد ثلاثين سنة من ذلك،
عندما فقد الحزب المحافظ السلطة، وحاول الرؤساء الليبراليون الأثرائ أن
يفتحوا البلاد لرياح العالم الجديدة، وانهمك الحزب المحافظ، المهزوم
بصدأ سلطته المطلقة، في إعادة ترتيب وتنظيف بيته، تحت التألق الناشئ
لوسوليني في إيطاليا، واهتمام الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما كانت
الإدارة الجديدة للرئيس ألفونسو لوبيث بوماريوخو، مع جماعة من الشباب
المتحمسين، تحاول خلق الظروف الليبرالية محدثة، وربما دون الانتباه إلى
أنهم يحققون القدرة التاريخية في تقسيمنا إلى النصفين الذين كان
العالم منقسماً إليهما، وكان ذلك حتمية لا سبيل إلى تجنبها، فقد قرأت
في أحد الكتب التي كان الأستاذ بيسرونا إياها، قولاً منسوباً إلى
لينين: "إذا لم تتدخل في السياسة، فإن السياسة سوف تتدخل فيك،
في نهاية الأمر".

ومع ذلك، وبعد ست وثلاثين سنة من سيطرة الرؤساء المحافظين
الكهفية، بدأ السلام يبدو ممكناً، لثلاثة رؤساء شباب، بذهنية حديثة،
بدؤوا بفتح منظور ليبرالي يبدو مستعداً لإزاحة ضباب الماضي، والرئيس
ألفونسو لوبيث بوماريوخو، أبرز الثلاثة، والإصلاحي المجازف، حقق
إعادة انتخابه لولاية ثانية، في عام ١٩٤٦. ولم يكن هناك، كما يبدو،
ما يعكر إيقاع عتاد الرئاسة، وهكذا كنا، في سنواتي الأولى في
المعهد، متشربين بأخبار الحرب الأوروبية التي نبقينا متيقظين، بطريقة لم
تستطع السياسة المحلية التوصل إليها قط. لم تكن الصحف تدخل

المعهد، إلا في حالات خاصة جداً، لأننا لم نكن معتادين على التفكير فيها، ولم تكن هناك أجهزة مذبذب ثقالة، والمذبذب الوحيد في المعهد، هو مذبذب الرف القديم في قاعة الأساتذة الذي كنا نشعله بأعلى صوت في الساعة السادسة، لكي نرلص وحسب، وكنا بعيدين عن التفكير في أنه كانت تفرخ في ذلك الحين، الحرب الأكثر دموية وعشوائية، بين كل حروبنا.

دخلت السياسة فجأة إلى المعهد، انقسمنا إلى فريقين: لبراليين ومحافظةين. وعرفنا لأول مرة، في أي جانب يقف كل واحد منا. برزت نضالية داخلية، ودية، وأكاديمية، إلى حد ما في البداية، ثم راحت تتصدى، بالتوافق مع الحالة الممتدة نفسها التي بدأت تفتن البلاد. أول التوترات في المعهد، كانت غير ملحوظة تقريباً، ولكن أحداً لم يراوه الشك في التأثير الطب، لكارلوس مارتين الذي يقف على رأس جهاز أساتذة لم يخطروا أبديولوجياتهم يوماً، ومع أن القدير الجديد لم يكن مناصراً بجلاء لأحد الفريقين، إلا أنه أعطى موافقته على سماع الأخبار ليلاً، من مذبذب القاعة، وحازت الأخبار السياسية، حظه ذلك الحين، تغلب على الموسيقى الراقصة. وكان يقال، دون تأكيد مثبت، إنه يعلق في مكتبه، صورة للثنين أو ماركس.

لا بد أن التمرد المرير الوحيد الذي حدث في المعهد، كان ثورة تلك الأجواء المخلقة، فقد تطايرت في قاعة النوم الرسائد والأحذية، على حساب القراءة والنوم. لم نستطع أن أحدد السبب، ولكنني أظن أن السبب، على ما أتذكر - ويتفق معي في ذلك عدد من زملائي - هو أحد مقاطع الكتاب الذي كان يقرأ بصوت عالٍ في تلك الليلة: ٢ البوح

ما يجول في ذهن، للفنزيولي ووصول غايغوس. لقد وقعت مضادة فتالية غريبة.

دخل كارلوس مارتين، وقد استدعي على عجل، إلى قاعة النوم، وجلبها من أقصاها إلى أقصاها، عدة مرات، وسط صمت عميق سببه ظهوره. وبعد ذلك، في نوبة ملطوية، غريبة عن طبع كطبعه، أمرنا بمغادرة قاعة النوم بالهيجامات والأحقاف، والاصطفاف في الفناء المتجمد، وألقي علينا هناك خطبة حماسية بأسلوب كاتيلينا المرواح، ورجعنا بانتظام تام لمواصلة نومنا. كان ذلك هو الحادث الوحيد الذي أنذكروه خلال سنواتنا في المعهد.

كان ماريو كورتيفيرس، وهو طالب جاء في تلك السنة إلى الصف السادس، يهتينا عشوتين في ذلك الحين، بموضوع إصدار جريدة مختلفة عن المعهد في المدارس، وكان أحد أول اتصالاته معي، وبدأ لي من المناسب، أن أوافق على أن أكون رئيس التحرير. كنتُ مقتنعاً بذلك، ولكن دون أن تكون لدي أي فكرة واضحة عن مهاماتي. نزامن آخر الإعدادات للجريدة مع احتفال الرئيس لويث بوماريغو على يد جماعة من كبار ضباط القوات المسلحة في الثامن من تموز ١٩٤٤، بينما كان في زيارة رسمية في جنوبي البلاد، والحكاية، مثلما رواها هو نفسه، لم تكن تتضمن أية فضلات، وبما دون أن ينري ذلك، قدم للمحققين رواية رائعة، لم يعلم، بمقتضاها، بالحادثة إلا عندما جرى تحريره. وقد ظلت حركة بانسور الانقلابية، شديدة الالتصاق بعقائقي الحياة الواقعية، حدثاً مضحكاً آخر من أحداث تاريخنا الوطني.

ألميرتو بوماس كامارغو، الذي عُيّن رئيساً، أبقى البلاد منومة

بصوته وإلقائه الثقتين، طوال عدة ساعات، عبر الإذاعة الوطنية، إلى أن جرى تحرير الرئيس لوبيث وأقر النظام. ولكن تم فرض حالة طوارئ صارمة، مع رقابة على الصحافة. بدأت المنشورات عامضة وملتبسة. فقد حكم المحافظون البلاد، منذ الاستقلال عن إسبانيا سنة ١٨٣٠، حتى انتخاب أولابا هيريرا، بعد قرن من ذلك، دون أن تظهر عليهم أي ملامح للتوجه نحو الحرية. أما الليبراليون بالمقابل، فكانوا يتحولون أكثر فأكثر، نحو المحافظة، في بلاد تمضي بخلفه. في تاريخها، مرقاً من حمها. وفي تلك اللحظة كانت هناك نخبة من المثقفين الشباب المثبتين برهم السلطة، مثاليهم الأكثر جذرية وقابلية للفهم هو خورخي إلبيرو غامتان. لقد كان واحداً من أبطال طفولتي، بسبب أعماله المناهضة للقمع في منطقة الموز. وهو ما كنت أسمع عنه دون أن أفهمه، منذ بدأت أعي الحياة. كانت جدتي تقدره. ولكنني أظن أنه كان يلقبها آنذاك مع الشيوعيين. وكنت أنا نفسي، ألق خلفه، بينما هو يلقي خطاباً مدوياً من شرفة في ساحة ليبياكيرا. وقد بهرتني رأسه الذي له شكل شعامة، وشعره البسط والسميكة، وشرة الهندي النقي، وصوته الرأهد بنبرة البوقوتين التي، ربما، كان يبالغ فيها لحساباته سياسية. لم يتحدث في خطابه عن ليبراليين ومحافظين، أو عن مستغلين ومستغلين. مثلاً يتحدث الجميع، وإنما عن فقراء وأوليغاركية، وهي كلمة كنت أسمعها عندئذ، أول مرة تدق كمطرقة، في كل جملة. وقد سارعت للبحث عنها في المعجم.

كان محامياً لامعاً، وتلميذاً نجيباً في روما، إلحقرفي الإيطالي إنريكو فيري. وقد درس هناك بالذات فنون موسوليني الخطابية. وكان

له شيء من أسلوبه المسرحي على المنبر. أما محاضره المتأخر غابرييل تويدي (طرية)، فكان طبيباً مثقفاً وأنيقاً، يضع نظارة ذهبية فاخرة، تعني عليه هيئة الفنان السينمائي. وكان قد ألقى خطاباً غير متوقع، في مؤتمر حديث المعهد، للحزب الشيوعي، فاجأ الكثيرين وأثار قلق بعض محاضريه البرجوازيين. ولكنه كان مقتنعاً بأنه لا يتناقض في كلامه ولا في أفعاله مع تكوينه الليبرالي أو مبادئه الأرستقراطية، ويرجع تألفه مع الدبلوماسية الروسية، إلى سنة ١٩٣٦، عندما أقر في روما، العلاقات مع الاتحاد السوفييتي. بوصفه سفيراً لكرلمبيا في روما. وقد جعلها رسمية في واشنطن. بوصفه وزير كولومبيا المفوض في الولايات المتحدة.

كانت علاقته بالسفارة السوفييتية في بولوتيا حميدة جداً، وله صداقات مع بعض قادة الحزب الشيوعي الكولومبي، ممن يمكن لهم التوصل إلى مخالفات انتخابية مع الليبراليين. وكثيراً ما جرى الحديث عن مثل هذا التحالف في تلك الأيام، ولكنه لم يهرم قط. ولد انتشرت في كولومبيا، آنذاك أيضاً، وهو سفير في واشنطن، إشاعة ملحة بأنه الخطيب السري لواحدة من كبار مجرمي هولود - ربما هي جين كراوود أو بوليت فردار - ولكنه لم يتخل قط، عن سيرته كعازب لا يساوم.

كان يمكن لناغني غامتان وطرية أن يشكلوا أغلبية ليبرالية، وأن يفتحوا درواً جديدة، ضمن الحزب نفسه. غير أنه لا يمكن لأي النصيين، منفصلاً، أن يحقق الفوز على المحافظين المتعدين والمسلحين.

في تلك الأيام السيئة، ظهرت صحيفتنا "الجريدة الأدبية". وقد خرجتنا، نحن أنفسنا الذين تلصنا الصد الأول مطبوعاً، من مظاهرة الاحترافي، في ثمانين صفحات من القطع النصف (تابلود). كان جيد

الإخراج والطباعة. وكان كارلوس مارتين وكارلوس خوان كالفيرون أشد المتحمسين. وقد ناقش كلاهما، في أثناء الاستراحات، بعض المقالات. وكان أحد أهم تلك المقالات هو الذي كتبه كارلوس مارتين، هنا، على طلبنا، وطرح فيه ضرورة النسلح بوعي شعاع في النضال ضد المتاجرين بمصالح الدولة، من السياسيين النسلقين والساسرة الذين يعرقلون مسير البلاد الحرة. ونُشر المقال مع صورة كبيرة له في الصفحة الأولى. وكان هناك مقال لكونفيسرس، حول الهيستاتية، ونشر غثنائي في موقع باسم خابيير غارثيس. وقد أخبرنا كونفيسرس بأن هناك حماساً كبيراً بين أصدقائه في بوغوتا، ومساعدات محتملة لإطلاق الجريدة بصورة أكبر. بحيث تكون مشتركة لكل المدارس.

لم يكن العدد الأول قد رُزِعَ، عندما ولع انقلاب باستو. وفي اليوم الذي أعلن فيه عن تعكر الأمن العام، حضر عدة شبّاكٍ إلى المعهد، على رأس لفيلة مسلحة، وصاهر الأعداء المجاهرة للتداول. كان عجواً سينمائياً، لا يمكن تفسيره إلا بوشاية خبيثة، بأن الجريدة تتضمن مواد هدامة. وفي اليوم نفسه، وصل إشعار من المكتب الصحفي لدى رئاسة الجمهورية، بأن الجريدة قد طُبعت دون المرور على رقابة حالة الطوارئ. وجرى عزل كارلوس مارتين من إدارة المعهد، دون إعلان مسبق.

لقد كان قراراً غير معقول بالنسبة لنا، جعلنا نشعر بالمهانة وبأهميتنا في الوقت نفسه. لم يكن عدد نسخ الجريدة يتجاوز المئتين، لتوزيعها بين الأصدقاء، ولكنهم أوضحوا لنا أن مطلب الرقابة هو أمر محتم لا بد منه، في ظل حالة الطوارئ. وألقي التصريح حتى إشعار آخر، لم يأت قط.

لقد عرت أكثر من خمسين سنة، قبل أن يكشف لي كارلوس مارتين، من أجل هذه المذكرات، عن تلك الواقعة العيشية. وفي اليوم الذي حُودت فيه "الجريدة"، استدعاه وزير التربية بالذات إلى مكتبه في بوغوتا، وهو الوزير نفسه الذي عينه مديراً - أنطونيو روتشا - وطلب منه الاستقالة. وجد كارلوس مارتين أمام الوزير، نسخة من "الجريدة الأدبية"، وقد رُسمت خطوط حمراء، تحت جمل كثيرة، اعتبروها هدامة. ولعلوا الشيء نفسه بقالة الافتتاحي، ومقال ماريو كونفيسرس، وكذلك بمقابلة مؤلف معروف اعتُبرت مريبة ومكتوبة بـرموز مشفرة. "حتى الكتاب المقدس نفسه، يمثل هذه الخطوط سيئة النية، تحت عبارات منه، يمكن أن يُعرب عن عكس معناه الحقيقي". قال له ذلك كارلوس مارتين، في رد فعل غاضب بصورة ملحوظة، دفع الوزير إلى تهديده باستدعاء الشرطة. جرى تعينه مديراً لـ"مجلة السبت"، وهو أمر يجب اعتباره، في نظر مشطف مثله، ترقية كبيرة، ومع ذلك، فقد هل يشعر إلى الأبد، بأنه كان ضحية مؤامرة قوى يمينية. وقد تعرض إلى اعتداء، في أحد مقاهي بوغوتا، أوشك أن يرد عليه بالرصاص. ثم عينه وزير آخر، فيما بعد، رئيساً لقسم الشؤون القانونية، فمارس حياة مهنية صالحة توجت بتقاعد معطى بالمكتب والجنين، في مكان إقامته الهادئ في ثاركوغوتا (إسبانيا).

في الوقت نفسه الذي أبعد فيه كارلوس مارتين - ودون أي علاقة به بالطبع - انتشرت في المعهد، وفي بيوت المدينة وحاراتها، رواية بلا سند تقول إن الحزب مع اليسار، في سنة ١٩٣٢، كانت تلفيقاً من الحكومة الليبرالية، لتدعم نفسها بالقوة في مواجهة المعارضة المحافظة

المشعكة. وتؤكد الرواية التي وُضعت، حتى في منشورات مطبوعة، أن الغراما قد بدأت، دون أية نوايا سياسية، عندما اجتاز ملازم بيروي نهر الأمازون مع دويبة عسكرية، واختطف من الضفة الكولومبية، انعطية السرية للحاكم المحلي في مدينة لينسيا. وهي خلاصة فاتحة يدعونها بهلا، كتصغير لاسمها بيلار. وعندما اكتشف الحاكم المحلي الكولومبي أمر الاختطاف، اجتاز الحدود، مع جماعة العمال المسلحين، واسترد بهلا من أراضي البيرو. ولكن الجنرال لويس سانتشيث ثيرو، دكتاتور البيرو، عرف كيف يستغل تلك المناوشة، ليغزو كولومبيا، ويحاول تدمير الحدود الأمازونية، لمصلحة بلاده.

عندئذ، عمده الرئيس الكولومبي أولايا هيريرا - تحت ضغط شرس من جانب الحزب المحافظ المهزوم، بعد نصف قرن من الحكم المطلق - إلى إعلان حالة الحرب، فأعلن النخبة الوطنية، وسلم لهااد جيشه لرجال يمتنعون بنفسه، وأرسل القوات لتحرير الأراضي التي اغتصبها البيرويون، دوت في البلاد صرخة حرب أصبحت طفولتنا: فلتحش كولومبيا، ونسقط البيرو. وفي فترة الحرب انتشرت كذلك، الرواية القائلة إنه قد جرت عسكرة الطائرات المدنية التابعة لشركة "سكادتا" SCADTA وتسليحها كأسراب حربية مقاتلة. وإن واحدة منها، بسبب نقص القنابل، فركت موكباً بمناسبة أسبوع الألام في بلدة "نجيبية" البيروية، بلصقه بجوز الهند. الكاتب الكبير خوان ثرثانو إي ثرثانو، الذي عبأ الرئيس أولايا لبقية على اطلاع على الحقيقة، في حمى الأكاذيب المتبادلة تلك، كتب بنثره البارع، القصة الحقيقية للحادثة. ولكن الرواية الزائفة ظلت هي السائدة لوقت طويل.

وجد الجنرال لويس ميخيل سانتشيث ثيرو في الحرب، بالطبع، فرصة من السماء. لكي يرسخ نظامه الحديدي في البيرو. وفي الوقت نفسه، عبث الرئيس أولايا هيريرا قائداً عاماً للقوات الكولومبية، هو الجنرال والرئيس السابق المحافظ ميخيل آباديا مينديث، الذي كان في باريس آنذاك. وقد اجتاز الجنرال المحيط الأطلسي بسفينة مزودة بالمخاض، وتوغل عبر مصبات نهر الأمازون. حتى بلدة لينسيا، في الوقت الذي كان فيه دبلوماسيو الطرفين، قد بدأوا بإطفاء نيران الحرب. ودون أي علاقة بالثلاث باسشو، ولا بمحادثة الجديدة، جرى تعيين مدير جديد، بدلاً من كارلوس مارتين، هو أوسكار إسبيثيا براند، المرعي مهناً والشهيرة فيزيائياً، وقد استشار المدير الجديد في المعهد، كل أشكال الشكوك. لمخاطبي ضده هزني، مثل التحية الأولى، بسبب ذلك القدر من التعاس الذي نهر به إلى شعري الطويل كشاعر، وشابي غير المشذب. كان له مظهر غاس، ويظهر مباشرة إلى الميرون نظرة صارمة. وقد أزعجني خبر أنه سيكون أيضاً، أستاذنا في الكيمياء العضوية.

في يوم السبت من تلك السنة، كنا في السينما، في منتصف عرض بعد الظهر. عندما أعلن صوت مضطرب من مكبرات الصوت بأن هناك طالباً ميتاً في المعهد، كان ذلك مؤثراً، حتى إنني لم أستطع تذكر أي فيلم كنا نشاهد. ولكنني لن أنسى أبداً توتر كلوديت كولميسر، وهي توشك أن تلقي بنفسها في نهر صاخب، من فوق حاجز جسر، كان الميت طالباً في السنة الثانية. عمره سبعة عشر عاماً. جاء حديثاً من مدينته بامبو الثانية، بالقرب من الحدود مع الإكوادور. وقد أصيب بتوقف عن التنفس، في أثناء هرولة، نظمها أستاذ الرياضة، كعقوبة نهاية أسبوع

لتلاصقه المتكاسلين. وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي مات فيها طالب، خلال وجودي في المعهد، وقد سبب موته تأثراً شديداً. ليس في المعهد وحسب، وإنما في المدينة أيضاً. اختارني زلاتي لألقي في الجنائز، يضع كلمات وداع. وفي تلك الليلة بالذات، طلعت نقاء المدير الجديد، لأرثه خطبتي التأبينية. وقد هنسي الدخول إلى مكتبه، كمشكر خارق للهمة الوحيدة التي أصابتنى، لدى اللقاء بالمدير الأسبق المثبت. قرأ الأستاذ إسبتيها مسودة كلمتي بلامح حاسوية. ووافق عليها دون تعليق. ولكنني، عندما نهضت للغروج، أشار لي بأن أعود للجلوس. كان قد قرأ بعض كتاباتي وأشعاري، من تلك الكثيرة التي يجري تداولها من يد إلى يد في الاستراحات، وبما له أن بعضها جدير بأن يُنشر في ملحق أدبي. ولم أكد أحاول تجاوز خطي القاصي، حتى أعرب هو عن هدفه الحقيقي. دون شك، من إيماني. نصحتني بأن أفصح شعر الشاعر المسمت، غيسر اللاتق برجل جدي، وأن أشذب شاربي الظي كالفرشاة، وأنغلي من ارتقاء القمصان المزينة بمصافير وأزهار. وتبدو كأنها ملابس كرنفال. لم أكن أنظر شيئاً من هذا القبيل قط. ولحسن الحظ أنني لم أرد عليه بإجابة واحدة. وقد لاحظ هو ذلك، فالتفت نظرة طقوسية ليوضح لي محاولته من أن تنتشر موضوعي بين التلاميذ نصفار. بسبب شهرتي كشاعر. خرجت من المكتب متأثراً للاعتراف بعاداني وموهبتي الشعرية من قبل مرجعية، على تلك الدرجة من الأهمية. وكنت مستمداً لإرضاء المدير بتغيير مظهري، من أجل تلك المناسبة الوقورية. حتى إنني فسرت إلقاء تكريم الموقر، بناء على رغبة أسرته، باعتباره إحقاقاً شخصياً لي.

كانت النهاية غائمة. فقد اكتشف أحدهم أن زجاج التابوت، يبدو مقطى بالبخار، وهو معروض في مكتبة المعهد. فتحمه ألفارو روث توريس، بناء على طلب الأسرة. وتؤكد بالفعل من أنه وطب من الداخل. وفي بحثه بالنموس، عن سبب وجود البخار في ذلك الصندوق الكئيب، ضغط برفق، برؤوس أصابعه، على صدر الميت، فأصدرت الجثة أنفثة مؤثرة. وبلغت الأسرة حد الهوس بفكرة أنه لا يزال حياً، إلى أن أوضح الطبيب أن الرئتين قد احتبستا الهواء. عند إصابته بالفشل التنفسي، ثم أطلقته بالضغط على الصدر. وعلى الرغم من بساطة التشخيص، أو ربما لهذا السبب بالذات، بنى الخوف طباشيراً عند البعض من أنه قد دُفن حياً. وبعده الروح المنوية، ذهبت في إجازة الستة الرابعة، متطهراً إلى إلتاع والذي بعدم مواصلي الفراسة.

نزلت من السفينة في سوكري، تحت رذاذ مطر غمر مرئي. بدا لي سر الرقاً محتظاً عما هو عليه في حنيي. وكانت الساحة أصغر حجماً وغرباً مما هي عليه في ذاكرتي. والكبنسة والرابية المشجرة بشعٍ منهما صنو. الهدلان، تحت أشجار اللوز المقلصة. وتشير الأكابيل الملوثة في الشارع، إلى اقتراب أعبياد الميلاد. ولكن هذه الأعياد لم تبعث في الانفعال الذي أثارته في نفسي في مرات أخرى، ولم أعرف على أي واحد من الرجال، حاصل المظلات الذين ينتظرون في الرقاً، إلى أن قال لي أحدهم لدى مروري، بترته رنة صوته المعروفة:

- كيف هي الأمردا

كان أبي. وقد هزل كثيراً بسبب فقدان الوزن، يرتدي بدلة القطن الرقيقة البيضاء، التي كانت تمزقه من بعيد، منذ سنوات شبابه، وإنما

بنظراً بيتياً، وقميصاً منادياً قصير الأكمام، وقبعة مرابي عمال، غريبة الشكل. وكان يرافقه أخي غوستافو الذي لم أتعرف عليه بـبي غوه، مع بلوغه السنة التاسعة من العمر.

لحسن الحظ فإن الأسرة ما زالت تحافظ على مظاهر فقرها. وبدا العشاء المبكر، كما لو أنه قد أعدَّ عمداً للتأكد على أن ذلك البيت هو بيتي، وأنه لا بيت لي سواء. وكان الجهر الطيب، على المائدة، هو أن أختي ليخيا قد كسبت اليانصيب، والقصة - مثلما رويتها هي نفسها - بدأت عندما علمت أننا بأن أباها قد أطلق النار في الهواء، لإخافة نص فاجأ، يسرق من بيت أوكاتاكا القديم. روت أمي الحلم أثناء انتظار، حسب العادة العائلية، واقتربت شراء بطاقة يانصيب تنتهي بالمقدد سبعة، لأن هذا العدد له شكل مدمر الجذ نفسه، لم يحالفهم الحظ في البطاقة التي اشتريتها أمي بالدين، على أن تدفع ثمنها من قبعة الجائزة نفسها. لكن ليخيا، وكان عمرها آنذاك إحدى عشرة سنة، طلبت من أمي، ثلاثين سنتافو، لتدفع قبعة البطاقة الخاسرة، وثلاثين سنتافو أخرى للإصرار، لي الأسير التالي، على الرقم الغريب: ٢٠٧.

خبا أخونا لويس إنريكي البطافة ليخيف ليخيا. ولكن خوفه كان أكبر بكثير، لي يوم الاثنين التالي، عندما سمعها تدخل إلى البيت صاخوة، مثل مجنونة، بأنها كسبت اليانصيب، ذلك أن أخي، في تسرع شقاوته، نسي أين خبا البطافة، واضطروا في حى البحث المجهور، إلى إفراغ الخزائن والصناديق، وقلب البيت رأساً على عقب، بدءاً من الصالة، حتى المرحاض. ولكن ما كان أكثر إثارة للقلق، مع ذلك، هو قبعة الجائزة: ٧٧٠ بيتزو.

والخير السيئ هو أن أبي قد حقق أخيراً حلمه بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية فرنشيدونير - في ميدلين -، مقتنعاً بأنها مدرسة للأبناء العالقين، وليس كما هي في الحقيقة: سجناً لإعادة تأهيل المتصرفين الأحداث الخطرين جداً.

القرار الأخير اتخذه أبي، عندما أرسل ابنه العاق لصحصول دين الصيدلية. وبدلاً من أن يسلم إلى أبيه الهزوات الثمائية التي أعطيت له، اشترى بها آلة تبلي جيدة، تعلم العزف عليها كعسلم، لم يعلق أبي بكلمة واحدة، عندما اكتشف وجود الآلة الموسيقية في البيت. وواصل مطالبة ابنه بتحصيل ذلك الدين، فكان الأخير يرد عليه دوماً، بأن صاحبة الحائزات لا تحلك النقود لتدفعها. وكان قد انقضى حوالي شهرين، عندما وجد لويس إنريكي أباه يعزف على التبيلي، لحناً مرهجلاً: "انظر إليّ كيف أعزف هذا التبيلي الذي كانني ثمانية بيتزوات".

لم نمر قط، كيف عرف الحقيقة، ولا لماذا تظاهر بعدم معرفته بعيلة ابنه. ولكن هذا الأخير اختفى من البيت، إلى أن هدأت أمي زوجها. وعندها سمعنا أبي يطلق أول تهديداته بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية الأحداث في ميدلين. غير أن أهدأ لم يوله اهتماماً، لذلك أنه كان قد أعلن من قبل، عن نيته في إرسالني إلى دير أوكاتيا، ليخالفني على لا شيء، سوى نيل شرف أن يكون هنالك خوري في البيت، وقد نسي ذلك قبل أن يتمكن من تصوره. ومع ذلك، كان أوكوردون التبيلي هو النظرة التي جعلت الكأس يطعم.

لم يكن الدخول إلى دار الإصلاح ممكناً، إلا بقرار من قاضي الأحداث، ولكن أبي نجحوا بامتناعهم عن توفير الشروط المطلوبة، من خلال

أصدقاء مشتركين، مع رسالة توصية من مطران ميلدين، المستنير
فارسي هينشز، وقد أبدى لويس إيريكي من جانبه، طيب جلته، حين
سمح بأن يقفاده، بسعادة وكأنه ذاهب إلى حفلة.

الإجازة من دونه، لم تكن كالإجازات السابقة. كنت أحسن التواصل
في اللقاء كحضور مع هنري فيلادلفيو بيليا، الخياط البحري
وعازف القيثارة البار، ومع المعلم بالديس أيضاً بالطبخ. وكان ذلك في
منتهى السهولة، ولدى الخروج من حفلات رقص الأتغيا، المربكة تلك،
كانت تنفض علينا من ظلال الهدية أسراب من المتدويات، يومئذ خفية،
بكل أنواع الإفوا.. وكانت هنالك واحدة قمر قريباً، ولكنها لم تكن منهن،
فاضططت بها وعرضت عليها أن تذهب معي. فردت علي بعتق مثالي،
أنها لا تستطيع، لأن زوجها قائم في البيت، ولكنها بعد لبثتين من
ذلك، أخبرتني أنها ستترك الباب الخارجي، دون إن توصده بالفلوج،
ثلاث مرات كل أسبوع، لكي أفكر من الدخول. دون أن أظفره، عندما
لا يكون زوجها في البيت.

إنني أتذكر اسمها وكثيرتها، ولكنني أنسى أن أسميها:
تيفرومانا، كانت متكلم العشرين من عمرها، في عد الميلاد. ولها
بروفيل حسنة وبشرة كاكاز. وكانت مرمقة في الفراش، وذات وعشة
شجرة محزونة ومندفعة كأنها انهيار سيل حجري، وغوية في الحب لا
تهدو خريزة كائن بشري، وإنما نهر مائج. وقد نحولنا، منذ المرة الأولى،
إلى محزونين في الفراش. كان لزوجها - مثل خوان بريقا - جسد مارد
وصوت طفلة. وكان ضابطاً في الأمن العام من جنوبي البلاد، بجرجر
سمعة سيئة بأنه كان يقتل الليبراليين كيلا يفقد دقته في التصويب

وحب. كانا يعيشان في غرفة ملسوعة بحاجز من الكرتون، فيها باب
يؤدي إلى الشارع. وآخر يطل على المقبرة، فكان الجيران يتلعنون من
أنها تفلق راحة الموتى. يباح الكلية السعيدة الذي تطلته، ولكن الموتى
كانوا يهتجون منها، دون ريب، أكثر مما يقاتلون، كلما كان تباحها
أقوى.

في الأسبوع الأول، اضطرت إلى الهرب من الحجرة، في الرابعة
مجرى. لأننا أخطأنا في تاريخ اليوم، وكان يمكن للضابط أن يصاد في
أي وقت. خرجت من الباب المؤدي إلى المقبرة، خلال ضربة اللجر
الكاذب، ونباح الكلاب مزعجة الموتى، وعلى جسر القناة المائية الثاني،
رأيت تقدم هيئة ضخمة لم أعرف على صاحبها، إلى أن لحاذنا. لقد
كان الرقيب شخصياً، وكان يجذني في يده، لو أنني تأخرت، فخص
دقاتي أخرى.

- صباح الخير أيها الأبيض - لعل لي بشرة ودية،

وأجبت دون قناعة بما أقول:

- فليحفظك الرب، أيها الرقيب.

توقف عندئذ ليطلب مني تاراً. قدمتها إليه، وقد انشئت منه كثيراً
لأحصى عود اللقائ من ربح الفجر. وعندما ابتعد بالسيجارة المشتعلة،
قال لي يمازج رائق:

- تبيعت منك رائحة عاهرة لا طافة لك بها.

دام عيني أقل مما كنت أتوقع، ففي يوم الأربعاء التالي طلبنى النوم
ثانية، وعندما فحنت عيني وجدت نفسي في مواجهة المحسم المنضرب
الذي كان يتألمني بصمت، من طرف السرير. كان رغبني شديداً إلى حد

وجدتُ معه مشكلة في مواصلة التنفس. فحاولت المرأة، وكانت لا تزال عارية أيضاً، أن تتدخل، لكن زوجها لمعدها جانباً، بسبب طاعة المسدس قائلاً:

- لا تتدخلني. مسائل الفراش تُحل بالخصائص.

وضع المسدس فوق الطاولة، ثم فتح زجاجة روم، ووضعها إلى جانب المسدس، وجلسنا وجهاً لوجه لنشرب دون كلام. لم أكن قادراً على تصور ما الذي سيعمله. ولكنني فكرتُ في أنه لو أراد قتلي لفعل ذلك، دون مراوغة. بعد قليل، ظهرت نيفسروانتا متبثرة بملامة، وعلى رأسها للنبسة احتفالية. ولكنه صوب إليها المسدس قائلاً:

- هذه مشكلة رجال.

لففتُ هي واختبأت وراء الحائط.

كنا قد أنهينا الزجاجة الأولى، عندما انهمر وابل المطر. وفتح عندئذ الزجاجة الثانية، وأسند قهقهة المسدس إلى صدغه وحدثني بهمينين جامدين. ثم ضغط عندئذ الزناد حتى انصاع. ولكن مطرقة وقت في الفراغ. وحين قدم إليّ المسدس، بدا عاجزاً عن التحكم بارتعاش يده. وخال لي:

- الآن دورك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمسك فيها مسدساً بيدي. وقد فاجأني أنه ثقيل وساخن. لم أدري ما عليّ عمله. كنتُ مبتلاً بمروق جلدي، ويطني مترع بزهد ملتهب. أردتُ أن أقول شيئاً، ولكن صوتي لم يخرج، لم أفكر في إطلاق النار عليه، وإنما أعدتُ إليه المسدس، دون أن أدرك أن تلك كانت فرصة الوحيدة.

- ماذا، هل تهرزت؟ - سألتني بازدياء سعيد، وأضاف:- كان عليك أن تفكر في هذا، قبل أن تأتي هنا.

كان بإمكانني أن أقول له إن الفحول يتبرزون أيضاً. ولكنني أدركت أنني لا أجسرُ على مثل تلك الدعايات القاتلة. عندئذ ففتح طاحونة المسدس، وأخرج الطلقة الوحيدة، وألقى بها على المتنبهة: كانت فارغة، لم يكن ما شرت به هو الراحدة، وإنما مثله رهبة.

ضقتُ قوة وابل المطر، قبل الساعة الرابعة. وكلتا كان منهكاً بسبب التوتر. حتى إنني لا أتذكر في أي لحظة، أصدر لي الأمر بارتداء ملابسني، فانصهتُ بقدر من مهابة البارزة، وعندما عاد للجلوس فلفط، انشبهتُ إلى أنه هو الذي كان يبكي، بهزارة ودون خجل، كما لو أنه يتباهى بدموعه. وأخيراً مسحها بظاهر يده، ونف أنفه بأصابعه، ونهض واقعاً.

- هل تعرف لماذا سنخرج من هنا حياً؟ - سألتني. ثم أجاب هو نفسه:- لأن أهلك هو الشخص الوحيد الذي عاجلني من إصابة بالسبلان، جعلتني مثل كلب عجوز. ولم يستطع أحد صدواني منها طوال ثلاث سنوات.

وبت على هجري ترميشة رجل، ودفعني إلى الشارع، كان المطر لا يزال متواصلًا، وكانت الليلة عارفة، فمضيت في الطريق. وأما يصل حتى وكبني، ويخبر أنني ما زلت حياً.

لمستُ أدري كيفية علمت أمني بالأمس. ولكنهما بدأت في الأيام التالية، حملة مهووسة، لثني من مقاديرة البيت ليلاً. وصارت تعاملني في أثناء ذلك، مثلما تعاملت أُمي، بأساليب إلهاء لم تكن تنفع كثيراً.

كانت تبحث عن إشارات تدل على أنني قد خلعت ملابس خارج البيت، وتكتشف آثار عطور لا وجود لها، وتعد لي أطعمة صعبة، قبل أن أخرج إلى الشارع، إيماناً منها بالخرافة الشعبية بأن زوجها وابنها لن يتجرأا على ممارسة الحب، في أثناء عطلة عضم تلك المأكولات، وأخيراً، عندما لم يجد في إحدى الليالي، مذبداً من الأعفان، لاحتجاجي في البيت، جلست قبالتها وقالت لي:

- يقولون إنك مشروط مع امرأة شرطي، وإته المسم أن يطلق عليك رصاصة.

لمكنت من إقناعها بأن ذلك غير صحيح، ولكن الإشاعة تواصلت بالحاح، وكانت نيفرومانتا ترسل إليّ المراسيل بأنها وحيدة، وأن زوجها قد غادر في مهمة، وأنها لم تره منذ بعض الوقت. وكنت أبذل كل ما هو ممكن، كيلا أفتني به، ولكنه كان يسارع إلى تحييتي عن بُعد، بإيماءة يمكن لها أن تكون مصالحة أو تهديداً على السواء. وقد رأيتها آخر مرة في إجازة السنة التالية، في ليلة عريضة دهاني خلالها، إلى تناول كأس روم ثقيل لم أهرأ على رفضه.

لمست أدري، بسبب فتون أية شعرة بدأ الأساتذة والزملاء الذين اعتبروني على الدوام طالباً حنوناً، ينظرون إليّ في السنة الخامسة، كشاعر ملهم، وريث أجواء الافتتاح التي ازدهرت في عهد المدير كارلوس سارتيين. ألا تكون رغيتي في الظهور بهذه الصورة، هي ما دفعني إلى البدء بالتدخين في المعهد، وأنا في الخامسة عشرة؟ كانت ضربة التدخين الأولى رهيبية، فقد أمضيت نصف ليلة احتضر، وسط قبشي على أرض الحمام، وطلعت على الصباح مستنفداً، لكن آثار سكرة

التبغ تلك، بذل أن تبعث في القرب، أثارت لدي رغبات لا تقاوم في مواصلة التدخين. وهكذا بدأت حياتي كمُدخن ضار، إلى حد أنني لم أعد قادراً على التفكير في جملة واحدة، ما لم يكن لي مثلاً بالدخان. لم يكن التدخين مسموحاً في المعهد، إلا خلال الاستراحات، ولكنني كنت أطلب الإذن للذهاب إلى المراحيض، مرتين أو ثلاث مرات في كل درس، لكي أحمّد لهفتي إلى التدخين وحسب. وهكذا وصلت إلى تدخين ثلاث عنب من ذات العشرين سجارة، في كل يوم، وقد أ تجاوز الأربعة في صخب الليل، وفي إحدى الفترات، بعد مفادرة المعهد، حسب أنني سأصاب بالجنون، بسبب جفاف الحلق وآلام العظام، فصمتت على تركه التدخين، لكنني لم أحمّد أكثر من يومين، من المزج.

لا أدري إذا ما كان هذا هو نفسه ما أطلق يدي في النشر، في الواجبات المدرسية المتزايدة الجراءة التي كان يطالبنا بها الأساتذة كالدبرون، وفي كتب نظرية الأدب التي كان يقرض عليّ، بالإكراه قفرياً، أن أقرأها. واليوم، بينما أنا أسترجع حياتي، أتذكر أن مفهومي للقصة القصيرة، كان بنائياً على الرغم من كثرة القصص التي قرأتها، منذ انبهارني الأول بفصص ألف ليلة وليلة، حتى إنني مجبرات على التكبر في أن العجائب التي قويتها شهرزاد، كانت تحدث فعلاً، في الحياة اليومية، في عصرها، ولم تعد تحدث بسبب عدم تصديق الأجيال التالية، وجننها الواقعي. وكان يبدو لي أنه من المستحيل، للمسبب نفسه، أن يعود أحد في عصرنا إلى تصديق أنه يمكن الطيران فوق المدن والجمال، على متن حصيرة، أو أن يتأقّب عبد من كارتاخينا دي إندياس بالعشب، مثني سنة، داخل قارورة، اللهم إلا إذا كان مؤلف القصة قادراً على جعل قرائه يصدقون ذلك.

كانت الدروس تُصْغِرني. باستثناء - دروس الأدب - التي كنتُ أسفّطها عن ظهر قلب - حتى صرت البطل الوحيد فيها. ومثللي من الدراسة، كنتُ أدرك كل شيء. لمشيئة حسن الطالع. وقد كنتُ أفتخ بتميزة خاصة تمكّنتني من حسن نقاط الضعف عند كل معلم. فأتوقع بصورة تقريبية، ما هو أهم ما يشهر اهتمام المعلمين. كجلا أدرس ما عبثه. والواقع أنني لم أكن ألهم لماذا يتوجب عليّ التضحية بالموهبة والوقت، في دراسة مواد لا تحرك مشاعري، ولن نفيدني كذلك، مطلقاً. في حياة هي ليست حياتي.

وقد تجرأت على التفكير في أن معظم أساتذتي يقبضوني. تبعاً لطريقتي في الحياة. وليس وفق امتحاناتي. فقد كانت تنفذني إجاباتي غير المتوقعة، وخواطر الجذوبة، وابتكاراتي غير العقلانية. ومع ذلك، عندما أنهيت السنة الخامسة بامتياز أكاديمي، لا أشعر بأنني قادر على مجاوزة. أدركت مدى محدوديتي. كانت الثانية حتى ذلك الحين. طريقاً معبداً بالمعجزات، ولكن القلب كان ينهني إلى أنه ينتظري. في نهاية السنة الخامسة، سوراً لا يمكنني مجاوزة. والحقيقة الصارية من الزخرف هي أنه كانت تنقصني الإرادة، والميل، والتنظيم، والنقود، والإملاء. لكي أتمكن من الالتحاق بدراسة أكاديمية جامعية. وبكلمة أخرى: كانت السنوات تضي طيرناً، دون أن تكون لدي أدنى فكرة عما سأفعله في حياتي. وكان لا بد من مضي زمن طويل، قبل أن أدرك أن حالة الهزيمة تلك، مواتية أيضاً. لأنه لا وجود لشيء، في هذا العالم، ولا في العالم الآخر، إلا له فائدة للكاتب.

ولم تكن أوضاع البلاد أحسن حالاً. فقد استقال أنغوتسو لويث

بمعارضته من رئاسة الجمهورية في الثالث عشر من تموز ١٩٤٥، بعد أن حاصره المحافظون الرجعيون بضراوة. خلفه ألبرتو بيراس كامارغو، الذي عينه مجلس الشيوخ، ليكمل السنة الأخيرة من الفترة الرئاسية. وعنده خطابه في تولي المنصب، بصوته المسكن ونثره الأسلوب الفخم، بدأ بيراس المهمة الراهنة في تهدئة خواطر البلاد، قهيداً لا تتخاطب رئيس جديد.

وبوساطة من السنسور لوبيث بيراس، ابن عم الرئيس الجديد، توصل مدير المعهد إلى تجديد موعد اللقاء، خاص مع الرئيس، من أجل طلب مساعدة من الحكومة، لرحلة طلابية إلى ساحل الأطلسي. ولم أدر أيضاً لماذا اختارني المدير لمرافقته إلى ذلك الاجتماع، شريطة أن أرتب قيلولاً شعري المنعت وشائبي النفوش. وكان المدعوون الآخرون هم فيجيرمو لوبيث غيرا، وهو من معارل الرئيس، وألفارو رويث تويرس، ابن أخت لروا فيكتوريا، وهي شاعرة مشهورة بموضوعاتها الجريئة في "جبل الجند"، الذي كان ينتمى إليه الرئيس بيراس كامارغو نفسه أيضاً. لم أجد مخرجاً آخر. وفي ليلة السبت، بينما غيهرمو غرانادوس يقرأ في قاعة النوم رواية لا علاقة لها بحالتي، قام صبي حلاق متدرب من طلاب السنة الثالثة، بقص شعري كسجته غراً، وشذب لي شارب تانغر. ولدت محمّلت، طويلاً ما تبقى من ذلك الأسبوع، سخريات الطلاب الداخليين والمخارجيين، من مذهبي الجديد. كان مجرد التفكير في الدخول إلى القصر الرئاسي، يهجم الدم في عروقي. ولكن ذاك كان خطأ من القلب، لأن المنصب الوحيد لضموض السلطة الذي وجدناه هناك، هو الصمت السماوي. وبعد انتظار قصير في قاعة الانتظار ذات السجاد وسنائر المخل، اقتادنا ضابط بالزي العسكري إلى مكتب الرئيس.

كان مظهر الرئيس يراس كامارغو، قليل الشبه بمسوره. وقد أثر في ظهوره الثالث، ببدلة الجوخ الإنكليزي الشقنة، ووجنتيه البارزتين، وشعوب الرق في بشرته، وأستان الطفل الخبيث التي كانت تفق رسامي الكاريكاتير، ويطء حركاته، وطريقته في المصافحة، وهو ينظر مباشرة إلى العينين، لا أذكر ما هي الفكرة التي كانت لدى عن الرؤساء، ولكنني لا أظن أنهم جميعهم مثله. ومع مرور الزمن، عندما تعرفت عليه بصورة أفضل، أدركت شيئاً، ربما لن يعرفه هو نفسه أبداً، أنه كاتب قد ضل الطريق، قبل أي شيء آخر.

بعد أن استمع إلى كلمات المدير، باهتمام أكثر من جلتي، قدم بعض التعليقات المناسبة، ولكنه لم يتخذ قراره، قبل أن يستمع كذلك، إلى الطلاب الثلاثة. وفعل ذلك باهتمام مائل، وأتبعنا بأننا نعامل بالاحترام واللطف نفسيهما اللذين يعامل بهما المدير. وكانت الدقيقتان الأخيرتان كافيتين لتوقن أنه يعرف في الشعر، أكثر مما يعرف في الملاحاة الذهنية. وأن اهتمامه به أكثر من اهتمامه بها بكل تأكيد.

منحنا كل ما طلبناه، ووعدت بذلك، بحضور احتفال نهاية العام الدراسي في المعهد، بعد أربعة شهور، وقد نحل ذلك، مثلما يحضر أكثر نشاطات الحكومة جديدة. وضحك أكثر من الجميع من كوميديا المواقف المضحكة التي قدمناها على شرفه. وابتهج في حفل الاستقبال الحشامي، كما لو أنه طالب آخر من طلاب المعهد، ويظهر مختلف عن مظهره الرسمي. ولم يستطع مقاومة إغراء القهام بغاية طلابية، حين مد إحدى ساقيه، معترساً طريق من كان يوزع الكؤوس، فلم يتمكن عفا من تفادي الوقوع، إلا بصيرة.

ذهبت، مسلحاً بحساس حفلة نهاية العام الدراسي، لقضاء إجازة السنة الخامسة مع أسرتي. وكان أول خبر قدموه لي هو الخبر السعيد جداً، بأن أخى لوس إنريكي قد رجع بعد أن أمضى سنة وستة شهور في دار الإصلاح. وقد فاجأني مرة أخرى، بحسن طبعه، لم يكن يشعر بأدنى قدر من الضغينة على أحد. بسبب الحكم عليه. وكان يروي المصائب مزاج مرح لا يهزم. وقد توصل في تأملاته، وهو سجين، إلى النتيجة بأن أوبنا قد أدخلنا الإصلاحية بطيب لينة. ومع ذلك، فإن حماية المطران وتوصيته لم تعفياه من الفرض لجارب قاسية في حياة السجن الهومية. ولكن بدل أن تغصه تلك المحن، وتغرقه في الضلال، أغنت طبعه ومزاجه السخر.

وكانت أول وظيفة شغلها بعد عودته، هي منصب سكرتير عمدة سريري. وبعد بعض الوقت، أصيب العمدة بتوعلد مفاجئ في المعدة، فوصف له أحدهم دواء سحراً نزل للثر إلى السوق، أنكاسيلزير. ولكن العمدة لم يذبح ذلك الدواء في الماء، وإنما ابتلعه مثلما يشلح أي قرص دواء عادي. ولم يثنق بأعجوبة، بالفوران الذي أحدثه الدواء، الفوار في معدته. وفيل أن يستعيد الطمأنينة من اللعز الذي ألم به، احتاج إلى عدة أيام من الراحة. ولكن كانت لديه أسباب سياسية تحول دون تكليف أي واحد من مصانديه الشرعيين، بمهام منصبه، ففتح اللوميس المؤقت لأخي. وسبب هذه المصادفة الغريبة - وهو دون السن القانونية للمنصب - دخل لوس إنريكي تاريخ البلدية، باعتباره العمدة الأصغر سناً.

الشيء الوحيد الذي كان يثقلني حقاً، في تلك الإجازة، هو اليدين بأن أفراد أسرتي، في أعماق قلوبهم، يتنون مستقبلهم على ما يقدرونه

من آمال علي. وكنت أنا الوحيد الموقن من أن تلك الآمال ليست سوى أوهام باطلة. وقد جعلتني جملتان عارضتان أو ثلاث، قالها أبي أثناء الغداء، أدرك أن هناك الكثير مما يجب الحديث فيه عن مصيرنا المشترك. قسارت أمي إلى التأكيد: "إذا ما استمرت الحال على هذا الخوال، فسوف نضطر عاجلاً أو آجلاً، إلى العودة إلى كاتانكا". ولكن نظرة واحدة من أبي، دفعنها إلى التصحيح:

« أو إلى أي مكان آخر.

صار الأمر واضحاً عندئذ: احتمال انتقال جديد إلى أي مكان، هو موضوع مطروح في الأسرة. ليس بسبب الجو الأخلاقي، وإنما من أجل مستقبل أوسع أولاً للأبناء. لقد كنت أجد العزاء حتى ذلك الحين، بفكرة أن أعزو روح الهزيمة التي أعاني منها، إلى القرية وناسها، وحتى إلى أسرتي. ولكن دواماتيكية أبي كشفت لي مرة أخرى أنه من الممكن، دعماً، العثور على مذنب لكي لا يكون أحدنا هو نفسه المذنب.

ما لمحت في الجو، كان شيئاً أشد زخماً. فأني تبدو مهتمة فقط، بعائلة خيمي الصحية. وهو الأمن الأصفر، الذي لم يستطع تجاوز وضعه كخديج. فكانت تقضي معظم اليوم، مستلقية معه في أرجوحته في حجرة النوم، مشغلة بالحنن والجور الملل، وبدأ البيت يتصدع بسبب إهمالها. فبدأ آخرتي طيفي العنان، دون عناية لمصيرهم. وكان نظام تناول الطعام قد تراخى كثيراً، بحيث صرنا نأكل دون توقيت معين، كلما أحسنا بالجوع، أما أبي، وهو أكثر الرجال تعلقاً بالبيت، فصار يقضي النهار، مشاملاً الساحة من الصيدلية، ويذهب في المساء للعب بضعة أدوار في نادي الهيلاردو. لم أستطع، في أحد الأيام، بحسب

الزيد من التوتر، فاستلقيت إلى جانب أمي في أرجوحة النوم، مغلفاً لم أستطع أن أفعل في طفولتي. وسألتها ما هو السر الذي يجري نفسه في أجواء البيت، فابتلعت زفرة كاملة، كيلا يراها صوتها، وفتحت لي روحها، - لأبيك، ابن في الشارع.

ومن الراحة التي أحسست بها في صوتها، أدركت كم كانت تنهف لسؤالي. لقد اكتشفت الحقيقة بمصيرة الغيرة، عندما رجعت إحدى طفلات المدرسة إلى البيت متأثرة، لأنها رأت أبي يتكلم بالهاتف في مركز التليفون. ولم تكن امرأة غيرة مثل أمي بحاجة لمعرفة المزيد. فذلك الهاتف هو الوحيد في القرية، ولا يستخدم إلا في المكالمات الخارجية، وبناء على موعد مسبق، مع ما يتخلل ذلك من انتظار غير مؤكد ودقائق غالية التكاليف، مما يحصر استخدامه في الحالات الحرجة القصوى. فكل مكانة، مهما كانت بسيطتها، توفى النذر الحبيطة في مجتمع الساحة. ولهذا، عندما رجع أبي إلى البيت، راحت أمي تراقبه دون أن تقول شيئاً، إلى أن مرق نصاصة ورقية كانت في جيبه تتضمن إشعاراً باستدعاء قضائي بتهمة سوء استغلال المهنة. انتظرت أمي الفرصة المواتية ليسأله مباشرة، ودون مقدمات، عن كان يكلمه بالهاتف. وكان السؤال مباغثاً جداً، لم يجد معه أبي جواباً سريعاً قابلاً للتصديق، أكثر من الحقيقة:

- كنت أكل مع محامياً.

فألت أمي:

- هذا أعرفه. ولكنني بحاجة لأن تخبرني ذلك أنت بالذات، وبالصراحة التي استحقها.

وقد وافقت أمي فيما بعد، على أنها هي من أساءها الرعب من القدر المتعنتة التي يمكن لها أن تكون قد كشفت القطع عنها، دون أن تنتبه، لأنه إذا كان قد نجحاً على قول الحقيقة لها، فإنما فعل ذلك، لاعتقاده بأنها تعرف كل شيء، وأن عليه أن يخبرها به.

وهذا ما حدث. اعترف أبي بأنه تلقى إشعاراً بدعوى قضائية ضده، بتهمة اغتصاب مريضة مخطرة بعقبة مورفين في عيادته. الحادثة وقعت في مركز قضائي منسي. حيث أمضى فترات قصيرة لعلاج مريض لا يملكون موارد. وقدم على الفور دليلاً يثبت على نزاهته: ميلودراما التخدير والاغتصاب هي تضييق إجرامية دبرها أعداء له. أما الطفل فهو منه لعملاً، وحملت به أمه في ظروف طهيمة.

لم يكن من السهل على أمي، تصادي التضييق، لأن شخصاً من الوزن الثقيل هو الذي كان يحرك خيوط المؤامرة في الظل. لقد كانت هناك سابقة أبيلاردو وكان من روسيا، اللذين عاشا معاً في فترات مختلفة محاطين بحبة الجميع. ولكن كليهما ولد قبل زواج أمي وأبي. ومع ذلك، لقد تجاوزت أمي الضيقة أيضاً بجرعة الابن الجديد المريرة. وعدم ولدا، الزوج، وانضمت إلى جانبه بوجه سافر، إلى أن قضت على أكثرية الاغتصاب.

عاد السلام إلى الأسرة. ومع ذلك، فقد وصلت بعد قليل، أخبار سرية من المنطقة نفسها، عن طفلة من أم أخرى اعترف بها أبي على أنها ابنته. وكانت تعيش في ظروف يرثى لها، لم تصبح أمي الوقت في منازعات واقتراضات، وإنما خاضت معركة إحصارها إلى البيت. وقد قالت في تلك المناسبة: لقد فعلت مينا الشيء نفسه بأبنا، أبي المبحثرين، ولم تنجح على

ذلك قط. وهكذا تمكنت بنفسها من جعلهم يرسلون الطفلة إليها، دون ضجة عامة. وضمتها إلى الأسرة كبيرة العدد، أصلاً.

كل تلك الأمور كانت قد عاصرت جزءاً من الماضي. عندما وجد أخي خيمس، في حفلة في قرية أخرى، صبياً يشبه أخي غوستافو إلى حد التطابق. وكان ذلك هو الابن الذي تسبب في النزاع القضائي، وقد كبر جليلاً محاطاً برعاية أمه. ولكن أمنا قامت بكل أنواع المساعي، وأحضرت له يعيش معنا في البيت - عندما كان لدينا أحد عشر ابناً - وساعدته على تعلم مهنة، وعلى الانطلاق في الحياة. عندما لم أستطع إخفاء دهشتي من إقدام امرأة غيور إلى حد الهديان. على مثل تلك التصرفات، فردت على هي نفسها، بجسلة ما زلت أحفظها، منذ ذلك الحين. مثل قطعة الماس:

- لا يمكن ترك من يحملون دم أبنائي نفسه، هائمين على وجوههم. كنت أرى اخوتي في إجازاتي المبكرة فقط. وبعد كل رحلة. كنت أجد صعوبة أكبر في التعرف عليهم، وفي حفظ اسم جديد في ذاكرتي. فإضافة إلى أسمائنا المعهودة، كان لكل واحد منا، اسم آخر في البيت، ينادوننا به فيما بعد من أجل البساطة اليومية. ولم يكن تصغيراً لاسمنا وإنما لقباً عارضاً. فأنا، منذ لحظة ميلادي دعوني غابرييل - وهو تصغير وإنا لقباً عارضاً. فأنا، منذ لحظة ميلادي دعوني غابرييل - وهو تصغير غير نظامي لاسم غابرييل في ساحل غراخيرا - فكنت أشعر على الفؤوم بأن هذا هو اسمي الأول. وأن اسم التصغير هو غابرييل. ولد سألنا شخص أدهشته تلك التسميات الغريبة، لماذا لم نَعُدْ أبوانا منذ الأصل، جميع أبنائهم بالأسماء المستعارة.

ومع ذلك، فإن ليبرالية أمي تلك، بدت كما لو أنها قضى باتجاه

معاكس، في موقفها من ابتيها الكبيرتين، مارغوت وعائدا، اللتين حاولت أن تفرض عليهما الصرامة نفسها التي فرضتها أمها عليهما في أثناء غرامياتها مع أبي. كانت تريد الانتقال من القرية، أما أبي بالمقابل، الذي لم يكن بحاجة إلى سماع ذلك مرتين، من أجل أن يجمع أمتعته وينطلق عبر العالم، فلم يكن موافقاً على الرحيل، في تلك المرة. انقضت عدة أيام، قبل أن أعرف أن المشكلة هي وقوع الابنتين الكبيرتين في حب رجلين مختلفين، ولكن لهما الاسم نفسه: رافائيل. وعندما أخبروني بذلك، لم أستطع منع نفسي من الضحك، وأنا أتذكر رواية الرعب التي عانى منها أبي وأمي، وقد قلت لها ذلك، فروت:

- الحالة ليست نفسها.

قلت بإصرار:

- بل هي نفسها.

- حسن - قالت بنبرة مصالحة -، إنها نفسها، ولكنها مكررة

مرتين، في الوقت نفسه.

ومثلما حدث لها في حينه، لم يكن ثمة نفع لأية مبررات أو مبررات. لم أعرف قط، كيف علم الأبوان بالأسر، لأن كلا من أختي، كانت قد اتخذت، على انفراد، الاحتياطات كيلا يتكشف أمرها. ولكن الشهود كانوا هم الأشخاص الذين لا تفكران في الاتيابهن، إذ كانت الأختان تأخذان معهما أحياناً أحد أختنا الصغار، لإحفاء المصادقة على براءتهما. وكانت المفاجأة الكبرى هي أن أبي نفسه شارك أيضاً في ترصدهما، ليس بصورة مباشرة، ولكن بالإصرار السلمي نفسه الذي مارسه الجند نيكولا في ضد أخته.

كما ذهب إلى حفلة وقص، فبدخل أبي إلى الحفلة ويسيدنا إلى البيت. إذا ما اكتشف وجود الرافائيل هناك، هذا ما روت عائدا وروا في مقابلة صحفية، لم يكن أبواي يسمحان لهما برحلة إلى الريف أو بالذهاب إلى السينما، أو بمرسلان معهما شخصاً لا يتوقف عن مراقبتهما. وكانت كل واحدة منهما تحتلق ذرائع طير جديدة للذهاب إلى مواعيدها الغرامية، فظهر هناك شيخ غير مرئي بشي بهما. وقد اكتسبت أختي لبخيا، التي تصفرهما، الشهرة بأنها جاسوسة وواسية، ولكنها هي نفسها كانت تبرر تصرفها بحجة أن الفيرة بين الأخوة هي طريقة أخرى في الحب.

حاولت في تلك الإجازة أن أتدخل لدى والدي، كيلا يكررا الأخطاء التي اقترعها أبواي ضدها، فكانا يجدان على الدوام، أسباباً مقبولة لعدم لتفهم. وكان أكثر تلك الأسباب إشارة للرحمة. هو المنشورات التي كشفت أسرارة فطحة - حقيبة أو مختلفة - حتى في أقل الأسر إثارة للشكوك. فقد وشت بأبوات مستترة، وخيانات زوجية مخجلة، ومخاسد فراش كانت معروفة للملا عبر أساليب أكثر بساطة من المنشورات. ولكن لم يعلق أي منشور يكشف أمراً غير معروف بطريقة ما، مهما كان خفياً، أو أمراً سيحدث عاجلاً أو آجلاً، وكان أحد الضحايا يقول: "المنشورات من فعل الشخص نفسه".

ما لم يحسب أبواي حسابه، هو أن ابتيها ستدفعان عن نفسيهما بالأساليب نفسها التي اتبعها هما لقد أرسلوا مارغوت لتدرس في مونتبيري، وذهبت عائدا بقراءتها إلى سانتا مارغا. كانتا داخلتين. وفي أيام العطل، يكون هناك شخص منيفظ يرافقهما. ولكنهما كانا

تتغيران الأمر دوماً. للاتصال بالرافائيلين البعيدين. ومع ذلك، فقد نجحت أمني في ما لم يتوقع به أبواها معها. إذ أمضت عامين نصف حياتها في دير، وعاشت هناك دون أحزان ولا أسجاء، إلى أن شعرت بأنها صارت بمنحى من الرجال. وقبلنا أنا وصارغوت متحدين دوماً. بذكريات طفولتنا المشتركة، عندما كنت أنا نفسي أراقب الكبار كيلا يضطوها وهي تأكل الشراب، وصارت أخيراً مثل أم تاتيهة للجميع، وبخاصة كيكى، الذي كان يحتاج إليها أكثر من سواء. وأبقت معها حتى نكسها الأخير.

البرم فقط. ألاحظ إلى أي حد كانت حالة أمني المعنوية، والفقرات الداخلية في البيت، متطابقة مع تناقضات البلاد القانلة التي لم تكن تخرج إلى العلن، بيد أنها موجودة. كان على الرئيس يراس أن يدعو إلى انتخابات في السنة الجديدة. وكان المستقبل يبدو مكلفهراً. فالمحافظون الذين فككوا من الإطاعة للويث، حققوا بذلك الحدث فمبة مزدوجة: لهم يخلطون الرئيس الجديد. باضخاخ علمهم لمهينه وعهاده المحسوب وماضياً، غير أنهم يشجعون الشقاق في بروينشيا، ليستولوا مجدداً على السلطة بالحق أو بالقوة.

ظلت سركري مستشفة من العنف. والحالات الغليظة التي تذكر. لم تكن لها أي علاقة بالسياسة. إحدى تلك الحالات هي احتمال خواكين بيرغا. وكان موسيقياً محبوباً معزف البومباردينو^(١) في الجوقة الموسيقية المحلية. وقد كان يعزف في الساعة السابعة مساءً، عند مدخل السينا. عندما وجه إليه أحد أقربائه المعادين، ضربة واحدة بعدد المسكين على

(١) آلة موسيقية تصاحبة من آلات النفخ.

عنقه المتنفخ من النفخ في آلتة الموسيقى. ونزف على الأرض حتى الموت. كلاهما كان محبوباً في القرية. والنفوس الوحيد المعروف، وغير المؤكد، هو أنها قضية شرف. في تلك الساعة بالذات، كنا نحفل بعيد ميلاد أختي ريتا، فأفصدت صدمة الظير الحظلة التي كان ملزماً لها أن تستمر عدة ساعات.

المبارزة الأخرى. وهي سابقة جداً لتلك، ولكنها لا تحصى من ذاكرة القرية، كانت بين بلينير بالماسيدا وديونيسيانو باروس. أولهما ينتسب إلى أسرة قديمة ومحتزمة. ولد كان هو نفسه، رجلاً ضخماً ولطيفاً. ولكنه يتحول إلى باعث عن المشاكل أيضاً وذو طبع مشاكس، عندما يسرف في تناول الكحول. فحين يكون بكامل وعيه، يتمتع بزاج وهرف أي رجل مهذب. غير أنه إذا ما زاد عيار الشرب، صار خريفاً يسرع باللجوء إلى المسدس. ويحمل سوط فارس على خصره يجلد به من لا يروق له مظهره. وكانت الشرطة نفسها تحاول إبقاءه بعيداً عنها، لتاديباً لشريعته. وقد نصب أفراد أسرته الطيبة من جرجرة إلى البيت، كلما أسرف في الشراب، وانتهى بهم الأمر إلى التخلي عنه لمصيره.

أما ديونيسيانو باروس فكان نقيب ذلك: رجل خجول وعالم الحظ، عديم الخصام. ولا يشرب الكحول منذ سولده. لم تحدث له أي مشكلة مع أحد قط، إلى أن بدأ بلينير بالماسيدا يستغزه بسخريات مهينة من مسكنه وطيبته. فصار يتجنبه كيغما استطاع، حتى اليوم الذي صادفه بالماسيدا في طريقه وصفع وجهه بسوطه، لأنه رغب في عمل ذلك. عندئذ تغلب ديونيسيانو على خجله، وعلى خنوعه وسوء طالعته، وتواجه مع المعتدي بالخصام. كانت مبارزة سريعة، سقط

كلاهما جريحاً في حالة خطيرة، ولكن دهنيسباتو وحده هو الذي مات.
ومع ذلك، فإن المباراة التاريخية في القرية، هي الموت التوم الذي
أردى بحياة بلينيو بالماسيدا المذكور، وناسيو آتاناياس، وهو رقيب
شرطة مشهور بتأنيده، وابن مثالي لماوريشيو آتاناياس، عازف الطبل في
الجملة الموسيقية نفسها التي كان يعزف فيها خواكين بيغا آلة
البومبارينو. كانت مباراة رسمية في منتصف الشارع. وقد أصيب
فيها كلاهما، بجرح بليغ، واحتضر كل منهما طويلاً في بيته. امتعاض
بلينيو الصحو بعد المباراة مباشرة تقريباً، وأهدى قلقه فوراً على مصير
آتاناياس. وفوجئ هذا الأخير بدور من القلق الذي يتضرع به بلينيو،
من أجل نجاته. فبدأ كل منهما ينسبل إلى الله ألا يموت الآخر. وأبقت
أسرتهما كلاً منهما على إطلاع على حال الآخر حتى التمس الأخير.
وعاشت القرية كلها حالة الذهول تلك، بالالة كل أنواع الجهود لإحالة
حياتيهما.

بعد أربع وعشرين ساعة من الاحتضار، ثرعت أجراس الكنيسة،
حداداً على امرأة ماتت لتوها. سمح المحتضران الأجراس. وهن كل منهما
في سريره، أنها ثرعت لموت الآخر. توفي آتاناياس على الفور تقريباً من
الحزن، وهو يبكي موت بلينيو. عرف هذا الأخير بالأمر، فصارت بعد
يومين، وهو يبكي بحرفة على الرقيب آتاناياس.

في بلدة أصدقاء، مسالين مثل تلك، اتخذ العنف في تلك السنوات
ظهراً أقل فتكاً، ولكنه ليس أقل أذى. إنها المنشورات. كان الرعب
يتأجج في بيوت الأسر الكبيرة التي تنتظر طلوع صباح اليوم التالي.
مثل من ينتظر بانصيب النذر. وفي أقل الأماكن تولعاً، تظهر ورقة

عقابية، تكون مبعث راحة لما لا تقوله عن أحدهم. وأحياناً حفلة سرية لما
تقولوه عن آخرين. وأبهي الذي ربما كان أكثر رجل مسالم عرفته، زُنت
المسدس الموقر الذي لم يطلق النار قط، وأفلت لسانه في صالة البلياردو
صارخاً:

- من يخطر له أن يمس أي واحدة من بناتي بكلمة، سيناله رصاص
هذا البلس.

بدأت أسر عديدة بالتزوج، خوفاً من أن تكون المنشورات مقدمة
للعنف البرلمسي الذي كان يبعث خراباً يقرى بكاملها، في المناطق
الداحية من البلاد، لتخريف المعارضة.

بحلول التوتر إلى خبز آخر لكل يوم، في البدء جرى تنظيم دوريات
مخفية، ليس للكشف عن كسبة المنشورات، بقدر ما هي لعرقلة ما
تقوله، قبل أن تمزق عند الفجر. وقد وجدنا، نحن المتأخرين في السهر،
موظفاً بلدياً في الساعة الثالثة فجراً، يستمع بالهروء أمام باب منزله،
ولكنه في الحقيقة كأن يترصد من يعلقون المنشورات. قال له أخى، بين
المزاج والجهد، إن بعض المنشورات تقول الحقيقة. فأخرج الرجل مسدسه
وصوبه مهياً:

- كرر ما قلت؟

عندئذ علمنا أنهم قد علقوا في الليلة السابقة، منشوراً صحيفياً،
ضد ابنته المأزاة. ولكن المعلومات كانت متداولة بين الجميع، حتى في
بيته بالقات، والوحيد الذي لم يكن يعرفها هو أبوها.
بما جلباً في أول الأمر أن من يكتب المنشورات هو الشخص نفسه،
بالرشة نفسها، وعلى الورق نفسه. ولكن في سوق تجارية ضيقة كالتي

في الساحة، لم يكن هناك سوى متجر واحد بإمكانه بيع تلك الأوراق. وقد سارع صاحبه بالذات إلى إثبات براسته. وعرفتُ منذ ذلك الحين، أنني سأكتب رواية عن المنشورات، ولكن ليس عما تقول، وهو في الغالب، تخيلات يهرقها الجميع، وليس فيها الكثير من الطرافة. وإنما عن التوتّر غير المحتمل الذي توصلت تلك المنشورات إلى توليده في البيوت.

ولم "ساعة الشؤم"، روايتي الثالثة التي كتبها بعد عشرين سنة من ذلك، بدا لي أن أسط متطلبات الاحترام تفرض عليّ عدم استخدام حالات محددة بعينها، أو يمكن التحرف عليها، بالرغم من أن بعض الحالات الواقعية كانت أفضل من تلك التي اخترعتها أنا. ولكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك، لأنني كنت أهتم على الدوام، فضلاً عن ذلك، بالظاهرة الاجتماعية، أكثر من اهتمامي بحياة الضحايا الخاصة. وبعد أن نشرت الرواية فقط، عرفت أن منشورات كثيرة كانت سبباً للاحتفال في الأحياء الهامشية، حيث كنا مكرهين، نحن من نساكن في الساحة الكبرى.

والحقيقة أنني لم استفد من المنشورات، إلا كنقطة انطلاق في قصة لم أستطع لمسيدها في أي وقت، لأن ما كنتُ أكتبه بالذات كان يؤكد أن المشكلة، في أعمالها، هي سياسية، وليست أخلاقية مثلاً كنت أعتقد، ولقد فكرتُ على الدوام، بأن زوج نيكروماتنا هو نموذج جيد للعمدة العسكري في "ساعة الشؤم"، ولكنني بينما كنتُ أطوره كشخصية، راح يفرضني ككائن بشري. ولم أجد مبرراً لأن أميت، ذلك أنني اكتشفت أنه لا يمكن للكاتب المجدّي أن يقتل شخصية، ما لم يكن لديه مبرر متفجع، ولم يكن الموت متفجعاً في تلك الحالة.

إنني أرى اليوم، أنه يمكن للرواية نفسها أن تكون رواية أخرى. لقد كتبتها في فندق للطلاب في شارع كرومبا، في الحي اللاتيني في باريس. على بعد خمسين متراً من جادة سان ميشيل، بينما الأيام تنقضي بانتظار شيك مصرفي لم يصل قط، وعندما أنهيتها، جعلت من الأوراق لنافذة ووطنها بواحدة من ربطات العنق الثلاث التي أخذتها معي. في أزمئة أفضل، ودلقتها في قاع الخزانة.

بعد سنتين من ذلك، وبينما أنا في مدينة مكسيكو، لم أكن أعرف أين هي تلك الأوراق. عندما طلبت متي من أجل مسابقة في الرواية، تنظمها شركة إسو الكولومبية، وجائزة قدرها ثلاثة آلاف دولار من نفوذ أهام الأزمات تلك، كان المبحوث هو المصور الضوئي فيهرمو أنغولو، صديقي الكولومبي القديم الذي كان يعرف بوجود أصول الرواية، مذ كنتُ أكتبها في باريس. وقد أخذها بالوضع الذي كانت عليه، وهي لا تزال مربوطة بربطة العنق، دون أن يشاح لي على الأكل، كتبها على البخار، بسبب ضيق الوقت. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أدنى أمل بالمجائزة التي كانت تكفي لشراء بيت. ولكنني ما إن أرسلتها حتى أعلن عن فوزها، من قبل لجنة تحكيم سامية، في السادس عشر من نيسان ١٩٩٢. وفي الساعة نفسها تقريباً التي ولد فيها ابني الثاني، غونزالو، وخبره تحت إبطه.

لم يكن قد أتبع لنا الوقت حتى للتفكير في الأمر، عندما تلقت رسالة من الأب فيليكس ريستريبو، رئيس الأكاديمية الكولومبية للغة، والرجل الطب الذي ترأس لجنة تحكيم المجائزة، ولكنه كان يجهل ما هو عنوان الرواية. وعندئذ فقط انتبهت إلى أنني في تسمع الساعة الأخيرة، نسيت كتابة العنوان على الصفحة الأولى: "قرية البراز تلك".

دُعي الأب ويستريو حين عرف العنوان، وطلب مني عن طريق خيرمان بارغاس، وبأكثر الطرق تهلباً، أن أستبدله بعنوان آخر أقل فظافة، وأكثر ملاءمة لإيقاع الكتاب. وبعد تداول مطول معه، حسنت أمري بعنوان ربما ليس له علاقة كبيرة بالدرواما، ولكنه ينفعها كرامة. لتحرر في بحار التفاق: "ساعة الشؤم".

بعد أسبوع من ذلك، دهاني الدكتور كارلوس أرناندو بيليث، سفير كولومبيا في مكسيكو، والمرشح حديثاً لرئاسة الجمهورية، إلى لقاء في مكتبه ليطعني على أن الأب ويستريو يرجوتني أن أبذل كلمتين لبندان له غير مقبولتين في النص الفائز: "الوالهي الذكرى" و "استمنا". ولم أستطع أنا ولا السفير إخفاء ذهولنا، ولكننا انفتحا على أنه لا بد من إرضاء الأب ويستريو للوصول إلى نهاية سعيدة، للمسابقة التي لن تنتهي، بحل غير متعيز. فقد لثت للسفير:

- لا بأس أيها السيد السفير، سوف أحذف إحدى الكلمتين، ولكنك أنت من ستقدم لي الجميل باختيارها.

أطلق السفير زفرة راحة، وهو يحذف كلمة "استمنا". وهكذا صُفي الخلاف، وطُبعت الكتاب دار نشر إيبيرا أمريكانا في مدريد، بطبعة كبيرة وإطاعة لجمهوريته؛ بخلاف من الجلاء، وعلى ورق ممتاز، وبطباعة مشقة. ولكنه كان شهر عسل عابر، لأنني لم أستطع مقاومة إغراء القيام بقراءة متلخصة، فاكشفت أن الكتاب المكتوب بلغني الهندية، قد جرت دبلجته - مثل أفلام ذلك الزمان - إلى أنصع اللهجات المدينية.

كنت قد كتبت: "Así como ustedes viven ahora, no sólo están en una situación insegura sino que constituyen un mal ejemplo para el pueblo".

وقد بحثت إعادة الكتابة التي قدمها المحرر الإسباني الشهيرة في جلدي: "Así como vivía ahora, no sólo está en una situación insegura sino que constituyen un mal ejemplo para el pueblo". والأخطر من ذلك، أن من يقول هذه العبارة هو كاهن. مما سيدفع القارئ الكولومبي إلى الظن أنها غمرة من المؤلف للإشارة إلى أن الموروي، في الرواية، إسباني، وهو ما سيعتد سلوكه، ويتزع الأجواء الطبيعية قاصداً عن مظهر جوهري في الدرواما. ولم يكتف المصحح بتمشيط النحو في الحوارات، بل خولك نفسه التدخل بهد ملاءمة في الأسلوب، فاستألف الكتاب بترجمات مدرونية لا علاقة لها بالأصل. وبالنتيجة، لم يبق لي من مخرج سوى عدم الاعتراف بظلك الطبيعة، باعتبارها مزيفة، وجمع النسخ التي لم تُع وإحراقها. أما رد المسؤولين فكان الصمت الكامل.

منذ تلك اللحظة، اعتبرت الرواية غير منشورة، وانهمكت في المهمة القاسية لإعادة ترجمتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن نسخة المخطوط الأصلية الوحيدة هي تلك التي أرسلتها إلى المسابقة، وهي نفسها التي ذهبت إلى إسبانيا، من أجل تلك الطبيعة. وبعد إمرار النص الأصلي الذي صححته في أثناء ذلك مرة أخرى، بإدارة مني، نشرت الرواية دار إيرا، في مكسيكو، مع التنبيه المطبوع والواضح بأنها الطبعة الأولى.

(*) التورق هي في جويل اتصال التي أخرنا بضاحتها من التكلم بكلفة. إلى التكلم بولع بالكلفة. وهذا أسلوبان تختلف دلاتهم (في اللغة المتداولة) في إسبانيا عما هي عليه في بعض بلدان أميركا اللاتينية. وبخاصة الكاريبية منها. أما ترجمة العبارة فهي كما يلي: "هذه الطبيعة التي تمسكنا الآن، لا تخطبك في وضع غير آمن وحميم، وإنما تقدمان بها صورة سيئة للقرية". وهذه عبارة يقولها الأب لثعل في رواية "ساعة الشؤم" لدون سلباس وحيت وهو يحضنها على الزواج بصورة دودية.

لم أدر قط، لماذا كانت "ساعة الشؤم" هي الوحيدة بين كتبي التي يجلبني إلى زمانها ومكانها، في ليلة ذات قمر كبير ونسمات ريفية. كان ذلك في يوم السبت، وكان المطر قد انقطع، ولم تكن السماء تتسع للنجوم. وكانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة لثبو عندما سمعت أُمِّي في غرفة الطعام تهصص بأغنية حب شعبية لكي تنوم الطفل الذي تمشي، وهي تحمله بين ذراعيها. سألتها من أين أتت الموسيقى، فردت علي بطريقها:

- من بيوت قاطعات الطريق.

أعطتني خمسة بهزوات دون أن أطلب منها ذلك، لأنها رأني أرتدي ملابس للذهاب إلى الحفلة. وقبل أن أخرج نهضتني، بعد بصيرتها المؤكدة، إلى أنها مشترك باب الفناء مغلقة، دون أن ترصده، لكي أتتمكن من الصعود في أي وقت أشاء، دون أن أوقظ أُمِّي. ثم نزل إلى بيوت قاطعات الطريق، لأنه كانت هناك تدريبات موسيقية في بيت المايسترو بالدس، وكان لويس إنريكي قد انضم إلى فرقته، فور عودته إلى البيت.

انضمت إليهم في تلك السنة، للفرز على التيهي والفناء مع معلمهم السفة المجهولين، حتى الفجر. لقد كنت أنظر دوماً إلى أخي على أنه عازف جيتار جيد، ولكنني عرفت، منذ الليلة الأولى، أن الجميع، بمن فيهم خصومه الألداء، يعتبرونه فناناً بارعاً. لم تكن هناك فرقة موسيقية أفضل، وكانوا واثنين من أنفسهم، إلى حد أنه عندما يتعاقد أحد معهم من أجل سرتاد مصالحة أو استرضاء، تمت نافذة جيبته، يظلمته المايسترو بالدس مسبقاً!

- لا تقلق، سنجعلها نغم، وهي تعض وسادتها.

الإجازات من دونه، لم تكن كالإجازات التي يكون فيها. فقد كان هو ولويس إنريكي، مع فيلادلفو بهنيا بعضون كمحترفين. وكان أن اكتشفت آنذاك، وفاة الكحول، وتعلت العيش بصورة سيئة، باليوم نهاراً والفتاة ليلاً. وعلما تقول أُمِّي: لقد أقلت العنان للزينة.

لقد قبل عني كل شيء، وشاع القول عن أن رسائلي لا تصل إلى عنوان أبي، وإنما إلى بيوت قاطعات الطريق. تحولت إلى أكثر الزمان مراقبة على ما يظهرون من وجبات السانكوتشو المصحفة، بمرارة النمر، وصرق عظامات الإخوانا التي فتح القوة لثلاث ليالٍ متتالية. لم أعد أقرأ أو انضم إلى سائدة الأسرة. وكان ذلك ينطبق على الفكرة التي هجرت عنها أُمِّي مرات عديدة، بأنني أفعل ما يحلو لي، كما أشاء، بينما السكين لويس إنريكي هو الذي يجره سوء السمعة. وقد قال لي لويس إنريكي، في أحد تلك الأيام، دون أن يعرف بأمر هجرة أُمِّي: "الشيء الوحيد الذي ينقصني الآن هو أن يقولوا إنني المسؤول، ويسلطوني مرة أخرى إلى دار الإصلاح".

فردت أن أهرب في عيد الميلاد من منافسة العزبات السنوية. وقد فررت برفقة صديقين متواطئين إلى بلدة ماخاغوال المجاورة. أعلنت في البيت أنني سأذهب لثلاثة أيام، ولكنني بقيت عشرة. وكان الذهب في ذلك هو ذنب ماريا أليخاندرينا تيرلانيس، وهي امرأة غير معقولة، تعرفت عليها في الليلة الأولى، وفقدت معها عقل في أشد حفلات العزبة صفياً في حياتي. حتى صباح يوم الأحد الذي لم أجدها فيه في فراشي، واختفت إلى الأبد. بعد سنوات من ذلك، أخرجتها من حنيثي،

ليس بسبب أفضالها ومحاسنها، بقدر ما هو بسبب رنين اسمها.
وبعشتها لصحبي امرأة أخرى، في واحدة من رواياتي، كصاحبة وسعة
بيت متعة لم يكن له وجود قط.

حين رجعتُ إلى البيت، وجدت أمي تغلي القهوة في المطبخ، في
الساعة الخامسة فجراً، فطلبت مني، بهمسها المتواظف، أن أبقى معها،
لأن أبي قد استيقظ، وهو مستعد لأن يثبت لي أنني لست حراً كما أظن
نفسي، حتى وأنا في إجازتي. قدمت لي فنجاناً من القهوة الحسنة،
بالرغم من معرفتها بأنها لا تروقني، وأجلستني إلى جانب الموقد، دخل
أبي بالهيجام، والنحاس لا يزال بادياً عليه، وفوجئ برؤيتي، وصحى
الفنجان الذي يتصاعد منه البخار، ولكنه وجه إلي سؤالاً موارباً:

- ألم تكن تقول إنك لا تشرب القهوة؟

ودون أن أجد ما أردت به، اختلفت أول ما خطر لي:

- أشعر بالعطش دوماً، في مثل هذه الساعة.

فردتُ:

- مثل كل السكبرين.

لم ينظر إلي بعدها، ولم يعد إلى الحديث في الموضوع. ولكن أمي
أخبرتني أن أبي الذي تضايق منذ ذلك اليوم، بدأ يمتنرني حالة مشوشة
منها، وإن لم يُشعرني بذلك قط.

تزايدت تغفاتي إلى حدٍ فزرت معه السطو على نقود أمي. وقد
برأني لويس إنريكي بمنطقه القائل إن النقود التي تُسرق من الأبناء، إذا
استُخدمت من أجل السينما وليس للتعهر، فإنها نقود شرعية. عانيتُ
من حرج تواظف أمي في سعيها لتلا بعرف أبي أنني أمضي في دروب

خيثة. وقد كانت على حق، إذ كان ملحوظاً، بصورة واضحة في البيت،
أنني أظل نائماً أحياناً، دون مسوغ حتى موعد الفداء، وكان لي صوت
ذلك أنبح، وأمضي ساهياً إلى حدٍ لم أسمع معه في أحد الأيام، سؤالين
طرحهما أمي عليّ، فوجه إليّ عندئذ، أشد تشخيصاته قسوة:

- أنتَ مريض في كبدك.

وعلى الرغم من كل ذلك، تمكّنتُ من الحفاظ على المظاهر
الاجتماعية. فكتبتُ أبدي حسن الملبس، وأكثر تهذباً في حفلات الرقص
وولائم الفداء التي تنظمها في المناسبات أسرُ الساحة الكبرى، ممن تظل
بموتهم مخلقة طوال السنة، ويفتخرونها في عطلة عيد الميلاد، عندما
يرجع الطلاب.

كانت تلك السنة هي سنة كاتيانو خينتبلي الذي احتفل بإجازته،
بإقامة ثلاث حفلات وخص بديعة. وقد كانت تلك الحفلات بالنسبة لي
تواريخ حط، لأنني رفضت طوال الوقت، في الحفلات الثلاث، مع الفداء
نفسها، دعوتها إلى الرقص في الليلة الأولى، دون أن أتكلف مشقة
الانسوال عن تكون، أو ابنة من هي، أو من ترافق. بدت لي متحفظة
جداً، لما فُتحتُ عليها في الرقصة التالية، بجدية، أن لتزوج، وكان
جوابها أكثر غموضاً:

- أبي يقول إنه لم يولد بعد كما يبدو من سيتزوجني.

بعد أيام وأيتها مجتاز المنهل في الساعة، تحت شمس الثانية عشرة
الحارقة، مرتدية فستاناً بركاً من الأورغيزا، وهي تقود بيديها طفلاً
وطفتة في السادسة والسابعة من عمرهما. "إنهما ابناي"، قالت لي
وهي تموت من الضحك، دون أن أسألها عنهما. وقد قالت ذلك، بمر
كبير. بدأتُ أفكر معه في أن اقترحي بالزواج، لم يذهب أدراج الرياح.

تعلمت النوم في أرجوحة النوم، مثل طفولتي المبكرة في بيت أراكاتاكا، ولكنني في سروري فقط، جعلت منها جزءاً من طبيعتي. ليس هناك ما هو أفضل منها للقبولة، ولعيش ساعة النجوم، ولتفكير بشمل، وللممارسة المحب دون حزام وأوامر، في اليوم الذي عدت فيه من أسبوعي الماجن، غلقتها بين شجرتين في الغناء، مثلما كان يفعل أبي في أزمئة أخرى، وقت مطمئن الضمير، ولكن أمي المزعومة من أننا نحن أبناءها، مشورت في أثناء نومنا، أيقظتني في نهاية المساء، لتري إذا ما كنت ما أزال حياً، وعندئذ اضطجعت إلى جانبي، وتطرفت دون مقدمات، إلى المسألة التي تنفص حياتها.

- أبوك وأنا، نريد أن نعرف ما الذي أصابك.

لا يمكن للجلسة أن تكون أكثر دقة. كنت أعرف منذ بعض الوقت أن أبي يتشاسسان القلق من طبيعتي في الحياة، وكانت هي ترجل تفسيرات خاطئة لطمانته، لم يكن يحدث شيء في البيت لا تعلم به أمي، وكانت ثوبات غضبها أسطورية، منذ زمن، ولكن الكأس طفحت بعودي إلى البيت في وضع النهار، طوال أسبوع، وكان مرقلي الصباح هو تفادي أسئلتها أو تركها معلقة إلى فرصة مناسبة، ولكنها كانت تعرف أن مسألة مثل تلك المبدية، تتطلب إجابات قوية.

كانت كل حججها مشروعة، فأنا أعاد عند الضروب، مرتدياً ملابس من هو ذاهب إلى عرس، ولا أرجع للنوم في البيت، ولكنني أغفو في اليوم التالي، في أرجوحة النوم إلى ما بعد موعد الضفاد، لم أهد أقراً، ولأول مرة منذ ولادتي، صرت أنجماً على العودة إلى البيت، دون أن أعرف أين كنت بالضبط، وقالت لي أمي: "حتى إنك لا تظهر

إلى أخوتك، وتخطي أسمتهم وأعمارهم، وقبل أيام قبلت حفيد كليستينا مواليس، معقداً أنه أحد أخوتك ولكنها سرعان ما وعت مبالغاتها، فموضتها بالحقيقة البسيطة:

- واختصار، لقد صرت غريباً في البيت.

قلت لها:

- كل هذا صحيح، ولكن السبب بسيط جداً: لم أهد أطبق هذا الحال.

- من؟

وكان يمكن لودي أن يكون بالإيجاب، ولكنه لن يكون عادلاً. فقلت:

- من كل شيء.

وعندئذ، أخبرتها بحقيقة وضمي في المعهد، وبأنهم يحكمون علي، من خلال درجاتي التي أنالها، وأن أبي يفخران بنتائجي سنة بعد سنة. وهذا لا يظن أني التلميذ الذي لا تشوبه شائبة وحسب، وإنما كذلك الصديق المثالي، والأكثر ذكاً، وسرعة، والأوسع شهرة، بفضل لطفه وكريسته، أو مثلما كان يقول جدي: "الطفل الكامل".

ومع ذلك، من أجل أن أنتهي بسرعة، فإن الحقيقة هي عكس ذلك، فأنا أبدو كذلك فقط، لأني لا أمتلك جرأة أخي لويس إنريكي، وحسه بالمسؤولية، لأنه يفعل ما يشاء على هواه، وهو سوف يتوصل دون ريب إلى معادة غير تلك التي يتحناها الآباء لأبنائهم؛ ولكنها التي تتيح لهم تجاوز حنان الآباء المفرط، وخاوفهما غير العقلانية، وآمالهما السعيدة. صممت أمي، للصورة المناقضة لتلك التي صاغها في أحلامها المنووعة، وقالت بعد صمت قليل:

- لا أدري ماذا ستفعل الآن، لأنني إذا ما أخبرت أبائك بكل هذا، فسوف يموت في الحال، ألا تدرك أنك قخر الأسرة؟

المسألة في نظرهما كانت بسيطة، بما أنه ليس هناك أي إمكانية لأن أكون الطبيب اللامع الذي لم يستطع أبوي أن يصير إليه، بسبب شح الموارد، فإنيهما يحملان على الأقل، بأن أكون خريجاً جامعياً في أي شيء آخر.

فاختتمت:

- لن أكون شيئاً، إنني أرفض أن أعمله مني، بالإكراه، ما لا أريد أن أكونه، وأرفض أن أكون مثلاً تريدون أنتم أن أكون، وأقل من ذلك، مثلاً تريد الحكومة.

استمر المهادل، بشيء من الصدامية الطائشة، طوال بقية الأسبوع. وأظن أن أمي كانت تريد كسب الوقت، لكي تتحدث في الأمر مع أبي، وقد منعني هذه الفكرة نفسها جديداً. وفي أحد الأيام أطلقت اقتراحاً مفاجئاً:

- يقولون إنه يمكن ذلك، إذا ما صُنِّت، أن تصير كاتبة جيدة.

لم أكن قد سمعت مثل ذلك الكلام، من قبل، في الأسرة قط. فمبולי مثل الطفولة، كانت تتبع الافتراض بأنني قد أصبح رسامة، موسيقياً، مغنياً في الكنيسة، أو شاعراً جوالاً في أيام الأحاد، وكنت قد اكتشفت ميلاً معروفاً لدى الجميع، إلى أسلوب في الكتابة، أقرب إلى التلوين والرقعة الأثرية. ولكن رد فعلي في هذه المرة، كان أقرب إلى المفاجأة، فقد أجبت أمي:

- إذا كان علي أن أصبح كاتبة، فلا بد لي من أن أكون أصد

الكبار، وهؤلاء لا يستمعونهم، وهناك في نهاية المطاف، مهن أفضل كثيراً إذا ما كنت أرغب في الموت جوعاً.

في إحدى تلك الأعصيات، وبدلاً من أن تتبادل الحديث معي، بكت دون دموع، لو أن ذلك حدث اليوم لأثار هلعاً، لأنني أفسد البكاء المكبوح كدفاء، ناجح ومؤكد لتجاً إليه النساء القويات، لفرض نوابهاهن، ولكنني في الساعة عشرة من عصري، لم أدري ما أقول لأمي، فأحبط صحتي دموعها، وقالت عندئذ:

- حسن جداً، عاهدني على الأقل أن تنتهي الثانوية، على أفضل وجه ممكن، وأنا سأتولى ترتيب ما تبقى مع أبيك.

كلاهما أحسنا في الوقت نفسه، براحة الفوز. وافقت على طلبها، من أجلها ومن أجل أبي على السواء، لأنني خفت أن يموتا إذا لم نتوصل بسرعة إلى اتفاق. وهكذا وجدنا الحل السهل بأن أدرس الحقوق والعلوم السياسية، ليس لأن هذه الدراسة تشكل قاعدة ثقافية جيدة، لأي مهنة أخرى وحسب، وإنما كذلك لأنها دراسة إنسانية، تقدم دروسها في الفترة الصباحية، فيكون لدي مشغع من وقت الفراغ للعمل بعد الظهر. ولتقلي كذلك، من شحنة التأثير التي تحملتها أمي في تلك الأيام، طليت منها أن تهين الأجراء، لكي أكلم أبي وجهاً لوجه. عارضت ذلك، وهي واثقة من أننا سنتهي إلى الزواج. وقالت لي:

- لا يوجد في هذا العالم لرجلين أكثر تشابهاً من تشابهكما، أنت وهو. وهذا أسوأ حال للتفاني.

لقد كنت أعتقد على الدوام، عكس ذلك، ولكني الآن فقط، وبعد أن مررت بكل المراحل العمرية التي مر بها أبوي في حياته المديدة، بدأت أرى نفسي في المرأة، أكثر شبهاً به من نفسي.

وكان على أمي، أن تتوج تلك الليلة بأسرها في تزيين الأمر، لأن أبي جمع الأسرة كلها حول المائدة، وأعلن بصورة غير متوقعة: سيكون لدينا معام في البيت. ولخشيتها من أن يفتح أبي المجال مجدداً لتشارك فيه الأسرة بكاملها، تدخلت أمي بأفضل ما لديها من براعة لتوضح لي:

- لي وضعنا هذا، ومع هذا العدد من الأبناء، فكرنا في أن أفضل حل هو الدراسة الوحيدة التي يمكنك تغطية نفقاتها بنفسك.

لم يكن أمر الدراسة بتلك البساطة أيضاً، ولا بأي حال، ولكنه يمكن أن يكون بالنسبة لنا، أهون الشروع، ويمكن لأضراسه أن تكون أقل دسيسة، وهكذا ظلمت من أبي أن يهدي رايه، لأجاريها في اللعبة، وكان جوابه لونياً وبصراحة مؤثرة:

- صافاً تريدني أن أقول إنك تفرق قلبي إلى نصفين. ولكن يبقى لي هلى الأكل، الفخر يساعدك في أن تكون ما تشاء، أنت.

ذروة تروك كانون الثاني لسنة ١٩٤٦ ذاك. قمت في رحلتي الأولى بالطائرة، بفضل خوسيه بالينشيا الذي جاء، ولديه مشكلة كبيرة. كان قد أنهى، بقبولات مثالية، سنوات الدراسة الثانوية الخمس الأولى في كارتاخينا، ولكنه أخفق في السنة السادسة. نهدت بأن أجد له مكاناً في معهدنا، لكي يحصل أخيراً على شهادته، فدعاني للذهاب معه بالطائرة.

كانت هناك رحلتان أسبوعياً، إلى بوغوتا في طائرة من طراز DC-3 تابعة لشركة LANSA، ولم تكن مجازفة الرحلة الكبرى هي الطائرة نفسها، وإنما الأبقار الطليقة على المدرج الطيني المرعجل في الراعى.

فكان على الطائرة في بعض الأحيان أن تقوم بحدّة جولات حتى نتحكن من إغارة الأبقار وإحصاءها. ويعود إلى تلك الفترة، تشيخٌ خوفي الحرة في من الطائرة، وهي الفترة نفسها التي كانت الكنيسة تحظر فيها نقل خبز القربان المقدس بالطائرة لتجنبه الكوارث. كانت الرحلة تستمر حوالي أربع ساعات دون توقف، بسرعة ثلاث عشرة وعشرين كيلومتراً في الساعة. وكنا نحن الذين قمنا من قبل بالرحلة النهرية العجيبة، نتبع الطريق من الجو، على الخريطة الخفية، لنهر مجدلتنا الكبير، نتعرف على القرى كأنها ماكنات مصغرة، وعلى السفن كأنها ألعب تحرك بنوابض. وعلى النهر السعيد التي تلوح لنا مودعة من باحات المدارس، وكانت المضيفات اللواتي من لحم وعظم، يقضين الوقت في طمأنينة الركاب الذين يسافرون وهم يطمنون، وفي إسفاف من يمس عليهم، وفي إلتاع كشيهرين بأنه لا وجود لخطر الاصطدام بأسراب نسور الرخسة التي تترصع الجيف التي يحملها النهر. وكان السافرون الحميرون من جانبهم، يروون أخبار رحلاتهم التاريخية الطائرة، مرة بعد أخرى، كمأثر في الشجاعة. وقد شعرنا بالارتفاع للمحليق فوق عهد بوغوتا، دون تكيف للضغط الجوي، ودون أذنية أوكسجين، كأنه فرع طويل في قلوبنا، فكانت الاعتزازات وخفق الأجنحة يزيدان من مساعدة الهبوط. ولكن المفاجأة الكبرى هي أننا وصلنا قبل برهة التي أرسلناها في اليوم السابق.

أثناء مرورنا العابر في بوغوتا، اشتري خوسيه بالينشيا آلات موسيقية لفرقة أوركسترا كاملة. ولست أدري إذا ما فعل ذلك، بناء على تفكير مسبق، أم جلس مسبق، ولكن منذ أن رأه المدير إسبانياً

يدخل، وهو عطاء الأرض بشيات، وهذه تلك المجتارات والطبول والمراكبات والهورمات، أدركت أنه قد قبل في المهد. كما أحسست أنا أيضاً من جهتي بوزن وأهمية وضعي الجديد، منذ أن اجتزت المدخل، فقد صرت تلميذاً في السنة السادسة. لم أكن أعني، حتى ذلك الحين أنني أحمل في جهتي نجمة يحلم بها الجميع، وكان ذلك يبدو جلباً من الطريقة التي يتقربون بها منا، واللهجة التي يتكلمون بها إلينا، عشي من الحرف التوقيري. وقد كانت تلك السنة كذلك، هي سنة عبد بكاملها. فعلى الرغم من أن ساعة النوم مخصصة لنوي المنح الدراسية وحدهم، إلا أن خوسيه بالونثيا استقر في أفضل فندق في محيط ساحة المدينة، وكانت إحدى صاحبات الفندق تعرف اليبانوس، فتحولت حياتنا إلى يوم أحد متواصل طوال السنة.

كانت تلك لفظة أخرى في حياتي، لقد كانت أمي تشتري في ملابس مستعملة، في مراهقتي. وعندما لا تعود تنفع ثلثي، تكفيها لأخوتي الصغار. وكانت أكثر السنوات إشكالية هما السنتان الأوليان في المهد، لأن ثياب الصوف المناسبة للسناخ البارد، كانت عالية وصعبة. وبالرغم من أن جسمي لم يعد ينمو باندفاع كبير، إلا أنه لم يكن هناك مصنع من الوقت، لتكيف الألبسة نفسها لمقاسين مختلفين، في الوقت نفسه. وبما زاد الطين بلة، أن عادة تبادل الملابس، بين الطلبة الداخليين، لم تصل إلى حد فرض نفسها، لأن الاستعدادات كانت تبدو واضحة، بحيث تمرض لابسها الجدد إلى مخزبات لا نطاق. وقد حلت هذه المسألة جزئياً، عندما فرض المهر إيسينياً زياً موحداً من سترة زرقاء وبطال وبادي، فوجد المظهر وأخلى الملابس المستعملة.

في السنتين الثالثة والرابعة، استخدمت البذلة الوحيدة التي أصلحها لي خياط سوكري. ولكنني اضطررت إلى شراء بذلة أخرى في حالة جيدة لسنة الخامسة. غير أنها لم تنفعني حتى السنة السادسة، ومع ذلك، فقد محمس أبي جداً للوهابي في إصلاح نفسي، فأعطاني تفرداً لشراء بذلة جديدة على مقاسي، كما أهدى إليّ خوسيه بالونثيا، بذلة أخرى من بذلاته في السنة السابقة، وهي من صوف الجمال، وغير مستعملة تقريباً. ولكنني سرعان ما تأكدت من أن المسوح وحدها لا تصنع الراح. فقد حضرت، بالبذلة الجديدة، حفلات الرقص التي كان يسطر عليها الساطعون، ولم أتوصل إلى التعرف إلا على خطيبة واحدة لم تدم علاقتي بها سوى أقل من عشر زهرة.

استقبلني إيسينياً بحماس غريب، فكان يبدو كأنه علي حصتي الكعكة، الأسبوعيين على أننا مجدداً، مع دلق من الأسطة والإجابات. وقد تكشف لي ذلك الانقسام، كنقطة انطلاق جيدة. لإلهام ما وعدت به أبوي من نهاية جذرية. وما سوى ذلك، تكفل به منهج ماريتا لونسكا الوحيد والبسيط: تركيز الانتباه، في الدروس من أجل تجنب السهر والفرع في لحظات الرعب الأخيرة. لقد كانت من التعليمات الحكيمة. وقد هدأت مخارفي، منذ فروت تطبيقها في السنة الأخيرة في المهد. فكتبت أجيب بسهولة على أسئلة الأساتذة الذين صاروا أكثر تلقاً معنا، وأدركت كم هو سهل إلهام المهد الذي قطعته لأبوي.

أما مشكفتي الوحيدة المشيرة للقلق، فبقيت هي مسألة ولولات الكوابيس. وكان الأستاذ المشرف على الانضباط آنذاك، والمرتبط بعلاقات طيبة مع تلاميذه، هو الأستاذ غونزالو أوكامبو. وقد دخل في

إحدى ليالي الفصل الثاني من البسة، على رؤوس أصابعه، إلى قاعة النوم المظلمة، ليطلب مني مفاتيح له، نسبت إعادتها إليه. وما كاد يضع يده علي كدفسي، حتى أطلقت زعيقاً مفتوحشاً أيقظ الجميع. وفي اليوم التالي، نقلوني إلى غرفة نوم أخرى مزججة تشع لسعة أشخاص، في الطابق الثاني.

كان ذلك حلاً لحاوفي الليلة، ولكنه حلٌ مفرج جداً، لأن الغرفة كانت فوق مستودع المؤونة، وقد تسلل أربعة من طلاب حجرة النوم المرحلة تلك، إلى المطبخ وسطرو عليه، مثلما يشتبهون، من أجل عشاء في منتصف الليل. وقد بقيت أنا، أتلهم جرأة، وسيرخوهم كاشرو غير الريب، في سريرنا لنقوم بالتفاوض في حالة الطوارئ، وهذا صرير ساعة من الوقت، رجعوا، ومعهم نصف التسمين جاهزاً للاكل. وكانت تلك هي أصغهم رغبة في سنوات إقامتنا الداخلية الطويلة، غير أنهم، لسوء الهضم، اكتشفوا فعلنا خلال أربع وعشرين ساعة. ولمكرت في أن تلك الواقعة منضج حلاً لكل شيء، إلا أن موهبة المدير إيسيتجاً في التفاوض، أنقذتنا من الطرد.

لقد كانت مرحلة جيدة في المعهد، واعدة على الأمل، في البلاد. فقد أدت جهادة الرئيس المؤقت بهراس، دون أن يخطط لذلك، إلى زيادة القوثر الذي بدأنا نشعر به، لأول مرة في المدرسة. ومع ذلك، قلاني أدرك اليوم، أنه كان موجوداً قبل ذلك، في داخلي، ولكنني في ذلك المحين فقط، بدأت أعي نوعية البلاد التي أعيش فيها. فبعض الأساتذة الذين كانوا يحاولون البقاء، على الحبياد، منذ السنة السابقة، ثم يستطيحوا التوصل إلى ذلك في الدروس، وراحوا يظنون زخات عسيرة

الهضم، حول أفضليتهم السياسية، ولا سيما بعد بدء الحملة الدعائية القاسية، لثلاثة التالية.

وفي كل يوم كان يظهر بهجلاً أكبر، أن الحزب الليبرالي، برشحيه: غايتان وطريه، في الوقت نفسه، سيخسر رئاسة الجمهورية، بعد خمس وعشرين سنة من حكمه المطلق. كانا مرشحين شديدي التباين، كما لو أنهما من حزبين مختلفين، ليس في خطابهما الشخصية وحسب، وإنما كذلك بسبب تصميم المحافظين الديموي، الذين رأوا الأمر واضحاً، منذ اليوم الأول: فبدلاً من مرشحهم لاوريانو غوميث، فرضوا ترشيح أوسبينا بيريث. وكان مليونيراً اكتسب شهرة واسعة بكونه بطيركاً، ووجود التيار الليبرالي متقسماً، والنيار المحافظ متحداً ومصلحاً، لم يكن هناك خيار آخر: جرى انتخاب أوسبينا بيريث.

استبعد لاوريانو غوميث، منذ ذلك الحين، ليظلمه، بالجور، إلى استخدام القوات الرسمية في أعمال عنف شاملة. فكانت استعادة جديدة للواقع التاريخي، في القرن التاسع عشر، حيث لم نعرف السلام، وإنما فترات هدنة عابرة بين ثماني حروب أهلية عامة، وأربع عشرة محلية، وثلاثة انقلابات عسكرية، انتهت أخيراً بحرب الألف يوم التي خلفت حوالي ثمانين ألف قتيل في الجانبين، من عدد سكان يقل عن أربعة ملايين. هكذا كان الوضع ببساطة، برنامج مشترك ومتكامل للتفكير منذ سنة إلى الزاء.

في نهاية العام الدراسي، قيام الأستاذ خيرالكو باستثناء مشهود نجاحي، لم أستطع التخلص من عارده حتى الآن. فقد أعد لي قائمة أسئلة بسيطة لكي أجمع في مادة الجبر التي تجاهلتها طوال أربع سنوات،

وتركتني وحدي في مكتب الأساتذة، وواصلت القش كلها في متناول يدي. رجع وأهأ بعد ساعة من ذلك، ورأى النتيجة الكارثية، فألقى كل صفحة بخطين متقاطعين، من أعلاها إلى أسفلها، وأطلق زجاجة شرسة: "يا لهذا الرأس المتعفن"، ومع ذلك، فقد ظهرت ناجحاً بمادة الجبر في التقويم النهائي، ولكنني وجدت ما يكفي من الوفاق، لعدم شكر الأستاذ على مخالفته مبادئه وإواجهته لمصلحتي.

عشية الامتحان النهائي لتلك السنة، وقعت حادثة مؤسفة بيني أنا وغيري من لوبيث غيراً من جهة، والأساتذة لونغتالو وأوكامبر من جهة أخرى، بسبب مشادة سكارى، كان صديقنا غرسيد ياليتشا قد دعانا للدراسة معه في غرفته في الفندق، وهو دوة محسارية على الطراز الكولونبالي، مع إطلالة حاملة على المدينة المزهرة، والكاتدرائية كحظية. وما أنه لم يكن قد نهى سوى الامتحان الأخير، فقد بقينا هناك حتى الليل، ورجعنا إلى المدرسة، مارين في طريقنا على حانات الفقراء، التي اعتمدنا ارتدادها، كان الأستاذ أوكامبر هو أستاذ الانضباط المتداب، فوجدنا لصودتنا في مثل تلك الساعة المتأخرة، ولحاننا المفردة، فواجهنا كلالا بالسباب، فأبطل رد فعله الخاضب، وأصواتنا الصارخة جميع من في قاعة النوم.

كان قرار جمعية الأساتذة هو منعي أنا ولوبيث غيراً من التقدم إلى الامتحان النهائي الوحيد المتبقى. وهذا يعني أنه لا يمكن لنا، غير تلك السنة على الأقل، إنهاء الدراسة الثانوية. لم ندر قط، كيف جرت المفاوضات السرية بين الأساتذة، لأنهم الشفراً في تضامن لا يمكن اقتحامه، فكان على المدير إسبيني أن يتولى حل المشكلة على

مسؤوليته. وتوصل إلى إمكانية أن نتقدم إلى الامتحان في وزارة التربية، في بوغوتا. وكان هنا ما جرى. وقد رافقنا إسبيني نفسه إلى العاصمة، وبقي معنا بينما نحن نجيب عن أسئلة الامتحان التحريري التي جرى تصحيحه هناك بالذات، وكانت النتيجة جيدة.

لا بد أن الوضع الداخلي كان معقداً جداً، لأن أوكامبر لم يحضر الحفل الرسمي، ربما بسبب الحل السهل الذي لجأ إليه إسبيني، وتقديرنا المشاز. وأخيراً أعلتني نتائج الشخصية لنيل جائزة خاصة، هي كتاب لا ينسى: "حيوات الفلاسفة اللامعين"، من تأليف ديوجينس لايرتيو، لم تكن النتيجة أكثر مما كان أباوي ينتظرانه وحسب، وإنما كنت الأول في تقويم تلك السنة، على الرغم من أن زملائي في الصف - وأنا أكثر من الجميع - كنا نعرف أنني لم أكن الأفضل.

لم أتصور قط أن قصتي القصيرة الأولى ستُنشر، بعد تسعة شهور على تخرجي من الثانوية، في الملتق الأدبي "نهاية الأسبوع" الذي تصدره جريدة الاسبكتادور في بوغوتا، وهي أكثر صحف تلك المرحلة أهمية وصرامة. وبعد اثنين وأربعين يوماً من ذلك، نُشرت القصة القصيرة الثانية. ومع ذلك، فإن أكثر ما فاجأني هو الملاحظة التكريسية التي كتبها نائب مدير الجريدة، ومدير الملتق الأدبي، إدوارد **للامبا بوردا**، الملقب أوليسيس، وكان ألمع ناقد أدبي آنذاك، والأكثر تهافتاً لظهور قيم أدبية جديدة.

لم يكن أمراً متوقفاً، وليس من السهل روايته. كنتُ قد سُجلت، في مطلع تلك السنة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية في بوغوتا، مثلما جرى الاتفاق مع أهلي. وكنتُ أعيش في مركز المدينة تماماً، في نزل في شارع فلوريدا، معظم تزلاته طلاب من منطقة ساحل الأطلسي. وكنتُ في فترات ما بعد الظهر، بدلاً من أن أعمل لأعيش، أظل أقرأ في غرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت قراءاتي في كتب يوفرها الحظ والمصادفات، تعتمد على حظي أكثر من اعتمادها على مصادفاتي، ذلك أن الأصدقاء القادرين على شرائها يعبروني إياها

لغزات محدودة، فالنصي الهلالي ماعراً كي أفكرك من إعادتها إليهم في
المرعد المحدد. ولكن، على العكس من الكتب التي قرأتها في معهد
نيبأكيرا، والجديرة بأن تكون في ضريح للكتاب المكرمين. صرنا نقرأ
الآن كتباً حديثة. كأنها خبز طازج، مترجمة لثروها ومطبوعة في مدينة
بونيس آيرس التي عرفت حياة نشر طويلة، خلال الحرب الأوربية الثانية.
وهكذا حالفتي الحظ في اكتشاف من هم مكتشفون جيداً منذ زمن، مثل
خسورخي لويس برونخيس، ودي. أنش. لورالس، وألدوس هكسلي،
فراهم غرين، تشستر تون، ويليام إيريش، وكاترين مانسفولد وغيرهم.

كانت هذه المستندات محروضة في واجهات المكتبات البعيدة عن
مقناول يدي. غير أنه كان يجري تداول عدة من النسخ في مقاهي
الطلبة، وهي آنذاك مراكز فعالة للانتشار الثقافي بين الجامعيين
الريفيين. ولد كانت لكثيرين منهم أماكنهم المحجوزة، سنة بعد أخرى،
في تلك المقاهي. فيها يتلون رسائلهم، وحتى حوالاتهم البريدية. وقد
كان فضل أصحاب بعض تلك المقاهي، أو الصاملين الموثقين فيها،
حاسماً في إنفاذ الكثير من الدراسات الجامعية. فالمعبد من خريجي
البلاد يدينون لهم أكثر مما يدينون إلى متكلميهم غير الموثقين.

أنا لعلتُ "الطاحونة"، ملهى الشعراء الكبار، وهو على بُعد حوالي
متري من المنزل الذي أقم فيه، وعلى تاصبة تقاطع جادة خيمبت
دي كيساندا مع الشوارع الساج. لم يكونوا يسمحون هناك أن يحتل
الطلاب مائدة ثابتة، ولكن أهدنا بكون واثقاً هناك من أنه سيتعلم من
المحادثات الأدبية التي كنا نسمعها، ونحن لا يفرق على الطاولات
المجاورة، أكثر والفضل مما يتعلمه من الكتب المقررة. كان الملهى بيتاً

فريحاً وجيد البناء على النمط الإسباني. جدرانها زينةا الرسام سانتياغو
مارتينيث ديلجادو. بمشاهد قفل معارك دون كيشوته ضد طواحين
الهواء. ومع أنه لم يكن في مكان محجوز، فقد كنت أعتبر الأمر دوماً،
لكي يجلسني النذل أقرب ما يكون من المعلم الكبير ليون دي غريف -
مليح، مهمهم، فائق -، الذي كان يبدأ مسامراته الأدبية عند الغروب،
مع بعض أشهر كتاب ذلك الزمن، وينتهي عند منتصف الليل، معتقلاً
بخمرة رديئة مع تلاميذه في لعب الشطرنج. كانت قليلة أسماء كبار
عالم الفنون والآداب الذين لا يرون بذلك المنضدة. وكنا نحن نشجع
الموت على منضدتنا كيلا نضيق كلمة واحدة بما يقوله، ومع أنهم كانوا
يتحدثون دوماً عن النساء أو المكائد السياسية، أكثر مما يتحدثون عن
فنونهم ومهنتهم، إلا أنهم يتولون على الدوام، شيئاً جديداً نعلمه. وكنا
نحن، أبناء ساحل الأطلسي، أكثر الطلاب مواظبة، ليس لاهدانا بالنأمر
الكارمي ضد الكاثاكور، بقدر ما هو بسبب إيمان الكتب، لخرميه
ألفارو إسبينوسا، وهو طالب حقوق، علمني الإبحار في الكتاب المقدس،
وجعلني أحفظ عن ظهر قلب، الأسماء الكاملة لأعضاء منتدى يوناب،
جاء في أحد الأيام، ووضع على المنضدة أمامي سطرأ ضخماً صريعاً
وأصدر حكمه بسلطة مطران:

- هذا هو التوراة الجديد.

وقد كان ذلك الكتاب، وكيف لا، هو "أوليسيس" لجيمس جويس،
فقرأته في نصف متقطعة ونعثر، إلى أن لم يعد الصبر يسمح لي بالمزيد.
لقد كان رعباً مكرراً. بعد سنوات من ذلك، حين صرت ناضجاً متقاداً،
عكفت على قراءته بجد، ولم تكن تلك القراءة مجرد اكتشاف لعالم

خاص لم يخطر لي يوماً وجوده في داخلي، وإنما كان كذلك، مساعدة تقنية لا تفكر بشئ، في حرية اللغة، والأفضل في لعبة الزمن والبناء لكسي.

كان أحد زملائي في الحجارة هو دومنغو مانيويل بيخا، طالب طب ترطني به صداقة منذ وجودنا في سوكري، وشاطرنى نهم القراءة. وزميل آخر هو ابن خالي نيكولاس ريكاردو، الابن الأكبر للخال خولن دي ديمون، الذي كان يحافظ على روابط الأسرة حية لدي. وقد رجع فيها لي إحدى الليالي، ومعه ثلاثة كتب اشترها لنوه، فأعارني واحداً لا على التصبين منها، متلماً كان بلحل بكثرة، لمساعدتي على النوم. ولكنه توصل، في تلك الليلة، إلى عكس ما يريدته قامة: إذ لم أهدأ قط، إلى النوم بالوداعة السابقة. كان الكتاب هو "المسخ" لفرانز كافكا، في ترجمة يورجنس المزيعة التي نشرتها دار النشر لوسادا في بوينس أيرس. وقد حمد ذلك الكتاب مساراً جديداً لحياتي منذ النظر الأول، وهو اليوم أحد رايات الأدب العالمي: "حين استيقظ غريغوريو ماسسا، في صباح أحد الأيام، بعد حلم مضطرب، وجد نفسه في السرير، وقد تحول إلى حشرة هائلة". كانت كتباً غامضة، فتمرجات دوروها لم تكن مختلفة وحسب، وإنما في أحيان كثيرة، متناقضة لكل ما كنت أعرفه حتى ذلك الحين، فإثبات الأحداث ليس ضرورياً فيها، يكفي أن الكاتب قد كتبها لكي تبدو حقيقية، دون أي دليل آخر سوى قدرة موهبته وسلطة صوته. إنها شهرزاد من جديد، ولكن ليس في عالمها القديم، حيث كل شيء كان ممكناً، وإنما في عالم آخر لا خلاص له، ضاع فيه كل شيء..

حين انتهيت من قراءة "المسخ"، بقيت لدي لهفة لا تنام إلى العيش في ذلك الفردوس الغريب. وفي اليوم التالي، قاجاني دومنغو مانيويل بيخا نفسه بالآلة الكاتبة النقالة التي أعارني إياها، لكي أحاول شيئاً يشبه موقف كافكا المسكين المتحول إلى حرسا وضخم. لم أذهب في الأيام التالية إلى الجامعة، خوفاً من كسر ذلك السحر، وواصلت تعرق قطرات من الحسد إلى أن نشر إدواردو ثالامبا بوردا، على صفحات ملحقه الأدبي، ملاحظة متفجعة، يتحسر فيها من أن جبل الكتاب الكروموسبين المهدد يفتنر إلى أسماء يمكن تذكرها، وأنه ليس هناك ما يُلمح في المستقبل، ولكنه التعريض ويهدد تلك الحال. لا أدري بأي حق أحسست أنني المني، باسم أبناء جيلي، بما تتضمنه الملاحظة من تحد. فعدت إلى تناول القصة المهجورة، في محاولة لإصلاح الجبل. صفت الفكرة القصورية للجنة الراحبة في "المسخ"، إنما متخلصة من أسرارها الزائفة وأحكامها الأنطولوجية المسبقة.

كنت أشعر بانعدام الثقة، إلى حد لم أجهراً معه على التشاور في الأمر مع أي واحد من زملائي متضدتي في المقهى، ولا حتى مع غونزالو مانيانو، زميلي في كلية الحقوق، الذي كان القارئ الوحيد لما أكتبه من نشر غنائي يصبني على محمل ضجر المدرس، أصدرت قراءة القصيدة وتصبحها حتى الإتهال، ثم كتبتُ أخيراً، ملاحظة شخصية موجهة إلى إدواردو ثالامبا - ولم أكن قد رأيت قط - ولست أذكر من الملاحظة نفسها الآن، حرفاً واحداً. ووضعت كل شيء في ملف أخذته بنفسه، إلى حجرة الاستقبال، في جريدة الاسبينكتادور، مسح لي البواب بالضمود إلى الطابق الثاني، لتسليم الرسالة إلى ثالامبا نفسه، بجسده

وروجه - ولكن الفكرة بعد ذاتها، أصابني بالشلل - فتركت الملف على متعة البواب، ومضيت هارباً.

حدث ذلك في يوم الثلاثاء.. ولم أكن أشعر بأدنى قدر من القلق على مصير قصتي القصيرة. ولكنني كنت واثقاً من أنه في حال نشرها، لن يكون ذلك في وقت قريب جداً. وفي أثناء ذلك، تسكنت متعلاً من مقهى إلى آخر، طوال أسبوعين، لأشغل نفسي عن لهفة أيام السبت مساءً. حتى يوم الثالث عشر من أيلول، حين دخلت إلى مقهى الطاحونة. واصطدمت، مواجهة، بعنوان قصتي على كامل عرض الاسبكتادور التي صدرت لتوها: الاستسلام الثالث.

كان رد فعلي الأول هو اليقين الساحق بعدم امتلاكى خمسة سنتات لشراء الصحيفة. ولقد كان ذلك هو الرمز الأكثر جلاءً للفقر. لأن أشياء كثيرة أساسية من متطلبات الحياة اليومية، فضلاً عن الصحيفة، كانت تكلف خمسة سنتات: الترام، والهاتف العمومي، وفنجان القهوة، ومسح الحذاء.. انطلقت إلى الشارع، دون حسابة من رذاذ المطر المتواصل. ولكنني لم أجد في المقاهي المجاورة أحداً من معارفي، يمكنه أن يمنحني قطعة نقد كصدقة. كما أنني لم أجد أحداً في المنزل، في تلك الساعة المبكرة من يوم السبت، اللهم إلا صاحبة المنزل. وهذا كأن نقول لا أحد، لأنني كنت مديناً لها بخمسة سنتات مكررة ستنة وعشرين مرة، مقابل أجره السريير والخدمة لشهرين. عندما رجعت إلى الشارع، مستعداً للإقدام على أي شيء، وجدت رجلاً أرسلته العناية الإلهية، بمرجل من سيارة تكسي، وفي يده جريدة الاسبكتادور. فطلبت منه، مراجعة، أن يهديها إلي.

هكذا استطعت قراءة قصتي الأولى مطبوعة، مع رسم توضيحي لهيرمان ميونر، رسام الجريدة الرسمي. قرأت القصة مختبئاً في حجرني، بقلب جامع، وفي نفس واحد متواصل. لقد كنت أكتشف، في كل سطر، القدرة الساحقة للكلمة المطبوعة. فما ينشئه بكثير من الحب والاثم، كمشاهدة خاضعة لعقري عالمي، تكشف لي عنبد على أنه مونولوج متشابه وهش، يستند بمشقة على ثلاث أو أربع جمل متبح المزاء. كان لا بد من مرور عشرين سنة، قبل أن أعبراً على أرائها مرة ثانية. وكان حكمي آنذاك - دون أن تخلف منه الشفقة كثيراً - أقل رضى بكثير.

أصبح ما في الأمر، كان تدفق الأصدقاء الذين داهموا الغرفة، حاملين نسخاً من المراجعة، وإطراءً مبالغاً فيه للقصّة التي لم يهضموها بكل تأكيد. وكان هناك، بين أصدقائي في الجامعة، من تسوا القصة، وآخرون فهموها بقدر أقل، ولهمهم - وهم محزونون - لم يتجاوزوا السطر الرابع: أما غونزالو ميسونر الذي لم يكن من السهل وضع أحكامه الأدبية موضع الشك، فقد أثنى عليها، دون تحفظ.

كانت لهفتي الكبرى في معرفة رأي خورخي ألفارو إسبينوسا، لأن ميضحه القوي هو الأشد رهبة، حتى في ما هو أبعد من محيطنا. كنت أشعر بزواج متناقض: فأنا أريد رايته فوراً، ولكنني كنت خائفاً، في الوقت نفسه، من فكرة مراجعته. اختفى حتى يوم الثلاثاء. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، على قارئ نهم مثله. وعندما عاد للظهور في مقهى الطاحونة، لم يبدأ الحديث معي عن القصة، وإنما عن جراني.

- أظن أنك مبدرك للوضع الذي أدخلت نفسك فيه - قال لي ذلك

وهو يصوب عينيه الخضراوين، كعيني الكوبرا الملكية، إلى عيني، وأطاف:- أتت الآن في واجهة الكتاب المعترف بهم، وعليك بذل جهد كبير لتكون جديراً بذلك.

بقيت متحجراً حبال الرأي الوحيد الذي يمكن له أن يهني بقدر ما يهني رأي أوليمبس. ولكن قبل أن ينهي كلامه، صممت أن أسبقه بما كنت، وما زلت أعتبره الحقيقة:

- هذه القصة ليست سوى براز.

فرر علي يهدوء، دون أن يطرأ عليه أي تامل، بأنه لا يستطيع أن يملول شيئاً حتى الآن، لأنه لم يكده يجد الوقت إلا لقراءة مستحجلة. ولكنه أوضح لي أنه حتى لو كانت القصة سيئة جداً مثلما أقول، فإنها ليست سيئة إلى الحد الذي أضحي فيه بالفرصة الذهبية التي وفرتها لي الحياة. وانتهى إلى القول:

- هذا آخر آخر، لأن هذه القصة صارت من الماضي. والمهم الآن هو القصة القادمة.

أسأني الإتيالك. وأرتكبت صراحة البحث عن حجج مضادة، إلى أن اقتنعت بأنني لن أسمع نصيحة أذكى من نصيحته. وقد توسع في فكرته الشابة بأنه لا بد، أولاً، من وضع تصور للقصة. وبعد ذلك يأتي الأسلوب. بعد أن استناد كل منهما إلى الآخر، في عبودية متبادلة، هر عصا الكلاسيكيين السحرية. وقد استوقفتني قليلاً برأيه الذي طالما رددته، بأنني بحاجة إلى قراءة معقدة وشاملة للكتاب الإغريق. لا تقتصر على هوميروس وحده، وهو الوحيد الذي قرأته معطراً، ضمن منهاج الثانوية. وعدته بذلك، ورغبت في سماع أسماء أخرى. ولكنه غيّر

الموضوع للحديث عن "مزيفو النبوة" لأتفريه جيد، وكان قد قرأها في نهاية ذلك الأسبوع. لم أجده، خط، الحساس لأن أقول له إن محادثتنا تلك، ربما هي التي حسمت مسار حياتي. أمضيت تلك الليلة ساهراً، أدون ملاحظات من أجل قصتي التالية، دون تلويحات تنمئج القصة الأولى وزخرفها.

كانت تراودني الشكوك في أن من حدثوني عن القصة، لم يكونوا مشهورين بها - وربما لم يقرأوها، وهم لم يفهموها بكل تأكيد - وإنما فعلوا ذلك لأنها نشرت باهتمام غير مألوف في صفحة بذلك الأهمية. ومن أجل أن أبدأ، لاحظت أن نفسيصتي الكبيرين هما الأخطر، رجولة الكتابة وجهل القلب البشري. وقد بدا ذلك جلياً في قصتي الأولى التي كانت تأملًا مجرداً مشوشاً، زاد من سوتها النصف المفرط في استغلال المشاعر المختلفة.

وبينما أنا أبحت في ذاكرتي عن مواقف من الحياة الواقعية، عن أجل القصة الثانية، تذكرت أن إحدى أجمل النساء اللواتي تعرفت إليهن في طفولتي، سألت لي إنها ترغب في أن تكون داخل قط ذي جمال عريب، كتكت تناعيه في حضنها. فسألنها لماذا، وردت علي: "لأنه أجمل مني". عندئذ وجدت نقطة إسناد للقصة الثانية، وعنواناً جذاباً، "حوا - داخل لعلها"، وما تبقى، كما في القصة الأولى، اختلقته من العدم. والسبب نفسه - مفكماً كان بروق لنا أن نقول أنذاك - كانت القصةان كلفاهما تحمل في أحشائهما بقرة دمارها.

نشرت هذه القصة بالإبراز نفسه الذي نُشرت به القصة الأولى، في يوم السبت، الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٧، بينينها رسم

بريشة نجم صاعد في سما - الكاريسي: الرسام إتيكي غراو- ولت انتباهي أن أصدقائي تلقوا القصة كأمر روتيني من كاتب مكوس- أما أنا بالمقابل، فتأملت للأخطأ- وتشككت بما هو صواب- ولكنني توصلت إلى إيقا- وحي معلقة في الهواء- وجاءت الضربة الكبرى بعد عدة أيام من ذلك، في ملاحظة نشرها إدواردو ثالاميا، باسمه المستعار المهور "أوليسيس"، وفي عموده اليومي في صحيفة الإيبكادور، وقد توجه مباشرة إلى ما يريد قوله "لا بد أن قراء (نهاية الأسبوع)، ملحق هذه الصحيفة الأدبي، قد لاحظوا ظهور موهبة جديدة، أصيلة، وذات شخصية قوية"، ويواصل بعد ذلك: "ضمن التخييل القصصي، يمكن حدوث كل شيء"، إلما بمعرفة كيفية إظهار المؤلوة التي يمكن استخراجها منه، بصورة طبيعية، ببساطة، ودون أي تصنع. وهذا أمر لا يمكن أن يتوصل إليه كل الشبان الذين هم في العشرين من عمرهم- ويدؤوا، لتقرأ، علاقتهم بالأدب"، وينتهي إلى القول دون تحفظ: "مع غارسيا ماركيز يولد كاتب جديد وبارز".

لقد سببت لي الملاحظة - وكيف لا! - صدمة محادة، ولكنني ذهلت في الوقت نفسه، لأن ثالاميا لم يترك لنفسه سبيلاً للتراجع، فكل شيء صار ناجزاً، ولا بد لي من أن أفسر أوجهه تلك، على أنها دعوة لضربري، على مدى الحياة، وقد كشفت لي الملاحظة كذلك، أن أوليسيس قد اكتشف هويتي الحقيقية، من خلال أحد زعمائه في التحرير. وفي تلك الليلة، علمت أن من فعل ذلك هو غونزالو غوثالث، ابن عم قريب لأبناء عمي الأكرما، وهو من كتب، طوال خمس عشرة سنة، في الصحيفة نفسها، بالاسم المستعار "غونغ"، وبخلف

متواصل، عموداً يرد فيه على أسئلة القراء، على بعد خمسة أمتار من متحف إدواردو ثالاميا. ولحسن الحظ أن هذا الأخير لم يبحث عني، ولم أبحث أنا عنه أيضاً. رأيته مرة على مائدة الشاعر دي غريف، وعرفت صوته وسعائه الجفاف كمدخن مدمن، ثم رأيته عن قرب في عدة أنشطة ثقافية، غير أن أحداً لم يحاول أن يحرك أحداً على الآخر، لأن البعض ما كانوا يعرفونا، بينما يظن آخرون بأنه من غير الممكن ألا يكون كل منا على معرفة بالآخر.

من الصعب تصور إلى أي حد كانت الحياة تعاش، آنذاك، في ظل الشعر. لقد كان الشعر شغلاً جنونياً، طريقة أخرى في الحياة، كرة من لهب تتدحرج تلقائياً في كل الانبعاثات، تفتح الجسدة، حتى في الصفحة الاقتصادية والصدعة القضائية، أو نلأ بقايا القهوة في قعر الفنجان. فنجد أن ما ينتظرنا هو الشعر، ليتولى مسؤولية أعلامنا، وهكذا، كانت بوغوتا، في نظرنا نحن جميع المبلين، هي عاصمة البلاد ومقر الحكومة، ولكنها قبل كل شيء، المدينة التي يعيش فيها الشعراء. ولم تكن نؤمن بالشعر، ولموت من أجله وحسب، وإنما كنا نعلم علم اليقين - مثلما كتب ذلك لويس كارودونا إي أراغون - أن "الشعر هو الدليل الملموس الوحيد على وجود الإنسان".

لقد كان العالم للشعراء - وكان جديدهم، في نظر أبناء جيلي، أهم من الأخبار السياسية المخيبة للآمال، أكثر فأكثر. كان بضي - سما - الشعر الكولومبي، في القرن التاسع عشر، نجم وعيد هو خوسيه أسونشيدون سيلفا، الرومانسي الأعلى الذي أطلق، وهو في الحادية والثلاثين، رسالة مبدس على منتصف الدائرة التي رسمها له الطبيب

باليهود، في موضع القلب. ولم أولد في الوقت المناسب لأتعرف على رافائيل بومبو أو على إدواردو كاستيو - الفنان الكبير - الذي يصفه أصدقائه بأنه شيخ هارب من القبر عند القروب. بمساعدة من طبعتي، وشرة ماثلة إلى الحضرة بفعل المورفين، وبروفيل نسر وخمة: النمثيل الجسدي للشعراء الملهونين. لقد مررت في عصر أحد الأيام، قبالة منزل ضخم في الشارع السابع، ورأيت عند البوابة أشد الرجال الذين رأيتهم في حياتي مهابة، ببدة لا تشوبها شائبة، وقبعة إنكليزية، ونظارة سوداء لعمية اللعين بلا نور، وعباءة أهالي السهوب. كان ذلك، الشاعر ألبرتو أنخل مونتويا، وهو رومانسي على شيء من الأبهة، نشر بعض المقائيد الهمة في زمته. وقد كان أولئك الشعراء جميعهم، بالنسبة إلى جبلي، أشخاصاً من الماضي الضاهر، باستثناء المعلم ليون دي غريف الذي رصده وراقبته طوال سنوات، في مقهى الطاحونة.

ولكن أيا منهم لم يستطع بلوغ المجد الذي بلغه غييرمو بالينشيا، وهو أرسنقراطي من بوبايان، فرض نفسه قبل بلوغه الثلاثين. حبرا أعظم لشعراء جبل الفتوة الذين عرّفوا بهذا الاسم، لأن جميعهم في عام ١٩١٠، توافق مع مرور القرن الأول على الاستقلال الوطني. ولم يحصل معاصرو إدواردو كاستيو وبورفيريو باربا خاكوب، الشعراء الكبار من ضمن السلالة الرومانسية، على الإنصاف النقدي الذي يستحقونه بجدارته. في بلاد مهيورة بالخطابة الرخامية لشعر بالينشيا الذي سدّ بظله الأسطوري، الطريق في وجه ثلاثة أجيال من الشعراء. الجبل التالي مباشرة، وقد برز في العام ١٩٢٥، باسم وانديفاج "الجند"، كان لديه شعراء - راتعون مثل والفانيل مايا، وليون غريف مرة أخرى، لم يعترف

بعصمتهم كلها طوال الوقت الذي تربع فيه بالينشيا على عرشه، وقد تمتع هذا الأخير حتى ذلك الحين، بأعجاء خاصة مميزة، راعته محمولاً حتى أبواب رئاسة الجمهورية نفسها.

الوجهون الذين تجرّؤا على اعتراض طريقه، طوال نصف قرن، هم جماعة "حجر رسماً" بدفاترهم الشبابية. وكانت من بينهم الوحيدة المشتركة في نهاية المطاف، هي عدم كونهم من أتباع بالينشيا: إدواردو كارانسا، ألتورو كاماتشو راميريث، أوريليو أرتورو وخورخي روخاس نفسه الذي موّل نشر قصائدهم. لم يكونوا متشابهين في الشكل ولا في الإلهام، ولكنهم زعموا، معاً، أطال البرناسين الأثرية، وأبقوا إلى الحياة شعراً جديداً صادوا من القلب بأصداً متعددة، من خوان رامون خيسنت، أو روبين داريو، أو غارسيا لوركا، أو بابلو نهرودا، أو فوشتي هودورو. التنقل الشمسي لم يكن فوراً، وكان يبدو أنهم هم أنفسهم غير واعين أنه يُنظر إليهم كمبعولين من العناية الإلهية، من أجل كنس بيت الشعر. ومع ذلك، فإن دون بادوميرو سانين كانو، المدارس والنائد الأوسع احتراماً في تلك السنوات، سارع إلى كتابة مقال حاسم ليقطع الطريق على أي محاولة للتبيل من بالينشيا. فاضطت موازينه ومقاساته النقدية التي كانت مضرب المثل، بين أحكامه الحاسمة الكثيرة، كتب أن بالينشيا قد تحكّم من العلوم القديمة، ليحرف روح العصور الماضية المرفقة في القدم: ونأمل في النصوص المعاصرة، ليفاجن، بالتشاطر، روح الإنسان كلها. وكرسه مرة أخرى كشاعر بلا زمان وبلا حدود، وصفته بين أولئك الشعراء "من أمثال لوكريسيو، ودانتى، وغوته، الذين حفظوا الجسد لإتقاء الروح". ولابد أن أكثر من شخص قد فكر آنذاك، بأن بالينشيا، بوجود أصدقائه مثل ذلك، لن يكون بحاجة إلى أعداء.

رداً لإدواردو كاراتشا على سائين كمانو، يجال يقول كل شيء من العنوان: "حالة شاعر واحد أحد". وكانت تلك هي الهجمة الأولى والموقفة لوضع بالينيليا ضمن حدوده، واختصار قاعدة تقديره إلى مكانها وحجمها الحقيقيين. انتهت بأنه لم يشعل في كولومبيا شعلة الروح، وإنما مجيهر عظام للكلمات؛ ووصف أشعاره بأنها أشعار جرقى متحذق، وينارد، وحاذق، ونحات مجتهد. وكانت النتيجة التي توصل إليها هي سؤال وجهه إلى نفسه بالذات، وبقي في جوهره كإحدى قصائده الجيدة: "إذا لم يفتح الشعر في شريع دمي، في أن يفتح لي النوافذ فجأة على اللصوص، في مساعدتي على اكتشاف العالم، في مرافقة هذا القلب المحزون في الوحدة وفي الحب، في الاحتفال وفي الكراهية، فما هي فائدة الشعر؟". وينتهي لمثالاً: "أما أنا - وأعوذ من قول أنا - فأرى أن بالينيليا ليس أكثر من شاعر مقبول".

نشر "حالة شاعر واحد أحد" في ملحق "كرامات أندية"، الصادر من جريدة التيمبو، وكانت واسعة الانتشار آنذاك، أثار هزة اجتماعية. وكانت نتيجته العجيبة، في الرلت نفسه، هي إعادة تقييم معصية للشعر في كولومبيا، من أصوله. وهو ما لم يجر بحديثه، منذ أن كتب دون خوان دي كامتيانوس إحدى عشرياته المئة والحسين، في "مراثي رجال بلاد الهند البارزين".

صار الشعر، منذ ذلك الحين، مكشوفاً في المراء. ليس فقط لجماعة "الجند" الذين أصبحوا راتجين، وإنما الآخرين كذلك، برزوا فيما بعد، وراحوا يخافسون على مكانتهم بالمناكب. وبلغت شعبية الشعر حداً لم يعد بالإمكان اليوم، فهم إلى أي حد كان يعيش كل عدد من ملحق

"قراءات أندية" الذي يشرف عليه كاراتشا، أو من مجلة "السيت" التي كان يديرها آنذاك كارلوس مارتين، مدير معهدنا القديم. وفضلاً عن أشعاره، فرض كاراتشا بأجاده طريقته في أن يكون شاعراً في الساعة السادسة مساءً، في الشارع السابع في بوغوتا، حيث يتمشى كما لو أنه في واجهة زجاجية طولها عشر كوادرات، وفي يده كتاب مسند إلى قلبه. لقد كان نموذجاً لجيله، وكون مدرسته من الجيل التالي، كل واحد على طريقته.

في أواسط تلك السنة جاء إلى بوغوتا الشاعر بابلو نيرودا، بقناعته بأنه لا بد للشعر من أن يكون سلاحاً سياسياً. وعلم خلال مسامراته البوغوتية مدى رجعية لاوريانو غوميث. وعلى سبيل الوداع، كتب على شرفه، بسرعة القلم تقريباً، ثلاث سونيتات هجاء عقابية، الأبيات الأربعة الأولى منها تنح البقية إبقاعها ونبرتها،

وداعاً يا لاوريانو الذي لن يكمل بالدار أبداً.

أيها المرزبان الحزين والملك الوصولي.

وداعاً يا إمبراطور طابق رابع،

قبل موعده، ويا مأجوراً على الدوام.

على الرغم من قبول كاراتشا اليمينية، وصداقته الشخصية مع لاوريانو غوميث نفسه، إلا أنه أبرز سونيتات بابلو نيرودا في صفحاته الأدبية، وفعل ذلك كسبق صحفي، أكثر مما هو موقف سياسي. ولكن الاستنكار جاء بالإجماع تقريباً. ولا سيما بسبب نشرها المخالف للنسطق. في جريدة يملكها ليبرالي ذو عظم أحمر، مثلما هو الرئيس السابق إدواردو سانتوس، المصارع لفكر لاوريانو غوميث الرجعي، بقدر

معارضته لفكر بابلو نيرودا الثوري. وجاء أشد ودوه الفعل صخباً، من جانب من لم يتسامحوا حيال إقدام أجنبي على السماح لنفسه بمثل ذلك التعادي. إن مجرد تمكن ثلاث سونيتات، وجدائية تعتمد الصنعة أكثر منها شاعرية، من إثارة مثل تلك الضجة. كان دليلاً ساطعاً على سلطة الشعر في تلك السنوات. ولكن نيرودا شُخّ فيما بعد، على أي حال، من النخول إلى كولومبيا. ومن متعه هو لاوريانو غوميث نفسه، حين صار رئيساً للجمهورية، والجنرال غوستافو رохاس بينيا في حينه. لكن نيرودا نزل مع ذلك، في كارتاجينا وفي برينافيتورا عدة مرات. أثناء توقفه العابر في رحلات بحرية، بين تشيلي وأوروغواي، وكان كل عبور له، في الذهاب والإياب، احتفالاً كبيراً بالنسبة لأصدقائه الذين كان يظهريهم، مسبقاً، بمروره.

عندما دخلت كلية الحقوق، في شباط ١٩٤٧، كان نوافلي مع جماعة "حجر وسما" لا يزال سارياً. ومع أنني كنت قد تعرضت على أبرزهم في بيت كارلوس مارتين، في تشيكاجو، إلا أنني لم أجد المرأة التي أن أذكر بذلك حتى كارتاجينا، وكان أكثر من يسهل الوصول إليه عندهم. في إحدى المرات وجدته قريباً جداً ووحيداً في مكتبة غرانكولومبيا، فوجهت إليه بحبة معجب به، ود علي بلطف شديد، ولكنه لم يتذكرني. أما المعلم ليمون دي غريف بالمقابل، فنهض في مناسبة أخرى من مصادفته في مقهى الطاحونة، وجاء يحبيني على طاولتي. عندما أخبره أحدهم بأنني قد نشرت قصصاً في *الاسيكتادور*، ووعدني بأن يقرأها، ولسوء الحظ أنه بعد أيام قليلة من ذلك، وقعت أحداث الخامس من نيسان الشعبية، واضطرت إلى هجر المدينة التي كان

الدخان ما يزال يتصاعد منها. وعندما رجعت إليها، بعد أربع سنوات، كان مقهى الطاحونة قد اختفى تحت رماده، والمعلم قد انتقل بنفسه وقصيصته، وطانة أصدقائه إلى مقهى "إل أوتوماتيكو"، حيث صرنا أصدقاء كتب وخمر، وعلمي كيف أحرك أحجار الشطرنج، دون فن ولا حظ.

كان أصدقاؤه مرحلي الأولى يستغيرون انكبابي على كتابة القصص القصيرة. وأنا نفسي لم أكن أبعد تفسيراً لذلك، في بلاد هذا الشعر فيها هو الفن الأكبر، وقد كنت أعرف ذلك منذ طفولتي المبكرة، بسبب النجاح الساحق لقصيدة "بؤس بشري"، تلك القصيدة الشعبية التي كانت تباع في كواريس صغيرة من ورق أسمر، أو تلقى مقابل سنتين اثنين في أسواق ومقابر قرى منطقة الكاكاسي. أما الرواية بالمقابل، فكانت نادرة جداً. فمثلاً رواية "ماريا" لخورخي إيسكس، تكتسب روايات كثيرة لم تحدث صدى يذكر. وكان خوسيه ماريا بارغاس بيلا ظاهرة لميدة بكتائبه النعني وخمسين رواية موجهة مباشرة إلى قلب القراء. كان رجاله لا يكل. أمتعته المفرطة هي كتبه نفسها التي تُعرض وتندد مثل الحيز عند أبواب الفنادق، في أميركا اللاتينية وإسبانيا، وقد مزقت روايته الفلكية "أورا" أو زهور البنفسج" من القلوب، أكثر بكثير من روايات أخرى أفضل منها لعاصريه.

الروايات الوحيدة التي استطاعت البقاء حية بعد زمنها، هي *الخروف* التي كتبها الكاتب الإسباني خوان رودريغيث فريللي، بين عامي ١٦٠٠ و١٦٢٨، في أوج العهد الاستعماري. وهي قصة شديدة الشغل في المبالغة والتحرر من القيود. حول تاريخ غرناطة الجديدة

(كولومبيا)، مما حولها إلى عمل روائي بارع؛ ورواية "ماريا" لخورخي إيساكس، في سنة ١٨٦٧، و"الدوام" لجوسيه إوستاسيو وغيورا، سنة ١٩٢٤؛ و"مركبة بولومبو" لتوماس كاراسكيّا، سنة ١٩٢٦، وتُربّع سنوات على متن نفسيّ لإدواردو ثالاميا، سنة ١٩٥٠، ولم تستطع أي من هذه الروايات يلوح المجد الذي كان الشعر يتمتع به، بحق أو دون حق. وبالمقابل، كانت القصة القصيرة - مع سابقة بارزة مثلها كاراسكيّا نفسه، كاتب أنتوكلها الكوبر - غارقة في بلاغية منبوذة ومنقب عنها بجهل، ودون روح.

والدليل على أنه كانت لدي مهول نقصان فقط، هو الأشعار المبعثرة التي خلقتها في المعهد، دون توليع أو بأساء، مستعارة، لأنني لم أكن مستعداً على الإطلاق، للموت من أجلها. بل أكثر من ذلك؛ فعندما نشرت قصص الأولى في الأسبكتادور، كان كثيرون يتنازحون هذا الجنس الأدبي، ولكن دون إمكانيات كافية، وأنا أفكر اليوم في أنه يمكن فهم ذلك، لأن الحياة في كولومبيا، من وجهات نظر متعددة، كانت ما تزال في القرن التاسع عشر، وبخاصة في بوغوتا الألبهتات الكتيبة التي كانت لا تزال نحن إلى العهد الاستعماري، عندما أهرقت تسجيلي، دون مهول ولا رغبة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية.

ولناكد من ذلك يكفي الفوص في المركز العصبي لتقاطع الشارع السابع مع جادة خيمينث دي كيسادا. وهو التقاطع الذي اعتبرته المباشرة البروقية أفضل ناصية في العالم. فعندما تملأ الساعة العامة، في برج كنيسة سان فرانسيسكو، الثانية عشرة شهراً، يتوقف الرجال في الشارع، أو يقفون أحاديثهم في المقاهي، ليضبطوا ساعاتهم على

ساعة الكتيبة الرسمية. وفي ما حول ذلك التقاطع والشوارع المجاورة، كانت تقع أكثر الأماكن لرتباداً، حيث يلتقي، مرتين في اليوم، التجار والسياسيون والصحفيون - والشعراء بالطبع -، وجسمهم يرتدون السواد حتى أقدامهم، مثل مولانا ملك إسبانيا دون فيليبي الرابع.

وفي أزمستي كطالبي، كانت لا تزال تُقرأ، في ذلك المكان، جريدة ربا لم يوجد الكثير مثلها في العالم، إنها مجودة سوداء كالتي في المدارس. تُعلق على شرفة الأسبكتادور في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ثم في الساعة الخامسة مساءً. وقد كُنّيت عليها آخر الأخبار بالطباشير، عندئذ يصبح مرور حافلات التراب صعباً، إن لم يكن مستحيلًا، بسبب عرقلة الحشود التي تنتظرها بفارغ الصبر. وكان يمكن للمرء الشارع أولئك، أن يصفقوا بحماس، للأخبار التي تبدو لهم جيدة، وأن يصفقوا أو يقذفوا الحجارة على السيورة. عندما لا نرؤهم الأخبار، لقد كانت طريقة في المشاركة الديمقراطية الفورية، بحصل الأسبكتادور من خلائها، على ميزان حرارة أكثر فعالية من أي ميزان آخر لقياس درجة حرارة الرأي العام.

لم يكن التلفزيون قد وجد بعد. وكانت هناك نشرات أخبار إذاعية كاملة جيداً، ولكنها نُبت في ساعات محددة وثابتة، وهكذا كان المرء قبل أن يذهب لتناول الغداء، أو العشاء، ينتظر ظهور السيورة، ليذهب إلى البيت، ولديه رواية أكثر تكاملاً عن حال الدنيا. هناك عُرف وتُربّع بصراحة نموذجية لا تُنسى خبر الطيراني الوحيد للكاتبين كونفشا بينينغاس، بين ليمبا وبرغوتا. فعندما تكون ثمة أخبار مثل هذا الخبر، ويجري تبديل السيورة عدة مرات، في غير الموعد المحدد، لتبذية نهم الجمهور بلاحق

استثنائية. لم يكن أي واحد من قراء تلك المريدة الشواوعية القريفة، يعرف أن مبتكر الفكرة، وعيدها، يدعى خوسيه سالفار. وهو محرر رائد في الاسبينكتادور، توصل وهو في العشرين من عمره. لأن يكون صحفياً من الكبار، دون أن يكون قد تجاوز مرحلة العواصة الابتدائية. المؤسسة التي كانت تشكل علامة بوغوت المميزة، هي مقاهي مركز المدينة، وفيها تصب عاجلاً أو آجلاً شؤون حياة البلاد بأسرها. وكان كل مقهى منها يتمتع، في زمانه، باختصاص محدد - سياسي، أدبي، مالي - بحيث أن قسماً كبيراً من تاريخ كولومبيا، في تلك السنوات، كان مرتبطاً بها بطريقة ما. فكل شخص له مقهى المفضل، كعلامة مؤكدة لشخصيته.

فكتاب وسابيو النصف الأول من القرن - بن فيه بعض رؤساء الجمهورية - درسوا في مقاهي الشارع الرابع عشر، قبالة مدرسة روساريو. وكان مقهى إلونديزو الذي عاش مرحلة أرتيبا السابيين المشهورين له، أحد أكثر المقاهي استمرارية، وكان ملاذ رسام الكاريكاتير الكبير ريگاردو ريتون الذي أنجز هناك عمله الأكبر، ثم ثقب جسمه حبة البندقية، بعد سنوات من ذلك، برصاصة مدس، في الحجرة الخلفية لقهى غران بيبيا.

الوجه الآخر لأسباب ضجري الكثيرة، كان اكتشافي، مصادفة، لقاعة موسيقى مفتوحة للجمهور في المكتبة الوطنية. فجمعت منها ملاذي المفضل لأقرأ في كتب كبار الموسيقيين الذين كنا نطلب أعمالهم خطياً من مؤلفة فائقة. وقد اكتشفنا، بين الرواد المتهودين نشأته، من كل صنف من خلال نوع الموسيقى التي نفضلها. وهكذا عرفت معالم

مؤلفي الموسيقى المفضلين، من خلال أذواق الآخرين، على كثرتهم وتنوعهم. وسكنت شويان لسنوات طويلة، بسبب هاجس الموسيقى يطلبه في كل يوم تقريباً، دون أي راحة.

في أحد الأيام، وجدت القاعة مغلقة، لأن جهاز الموسيقى معطل. ولكن المديرية سمحت لي بالجلوس للقاعة وسط الصمت. أحسست في البدء، كما لو أنني في بركة سلام راكدة. ولكنني لم أفكن، قبل مرور ساعتين، من التوكيز، بسبب ومضات جزع تعرقل فرائي، ونشعري بأنني غريب عن جلدي. وقد احتجت إلى هذه أيام لكي أدرك أن علاج جزعي، ليس صمت القاعة، وإنما جو الموسيقى الذي صار منذ ذلك الحين، وإلى الأبد، شغفاً شبه مري.

في أصعب أيام الأحاد، عندما كانوا يلغون قاعة الموسيقى، كانت صنعتي المشرفة هي ركوب حافلات الترام ذات الزجاج الأزرق التي تجول الشوارع دون توقف، مقابل حصة متناقص، من ساحة بوليفار حتى جادة تشيلي، وكنت أقضي فيها أصعب مراحلة تبدو كأنها بحر وراها ذيلاً بلا نهاية من أيام أحاد أخرى ضائعة. الشيء الوحيد الذي كنت أقوم به، خلال جولات الحفلات المفرغة تلك، هو قراءة كتب أشعار، ربما كرادو من المدينة مقابل كل كوادو من الشعر، إلى أن تضاه أول الأنوار تحت رذاذ المطر الأممي. عندئذ أجهأ إلى المقاهي الهادئة في الأحياء القديمة، بحثاً عن من يقدم لي صديقة تبادل النقاش معي، حول القصائد التي انتهيت من قراءتها. كنت أجد، لي بعض الأحيان، من يفعل ذلك - وهو دائماً من الرجال - فبقى إلى ما بعد منتصف الليل، في حجرة بائسة، مجهز على أعقاب السجائر التي كنا قد دخنناها نحن أنفسنا،

ولتحدث عن الشعر، بيتما الإنسانية في ما تبقى من العالم بأسره،
قارص الخب.

في ذلك الزمان كان الجميع شباباً. ولكننا كنا نجد دوماً آخرين
أكثر شباباً منا. كانت الأجيال يدفع بعضها بعضاً، وبخاصة بين الشعراء
والمخرجين. ولا يكد أحدهم يفعل شيئاً إلا ويظهر له من يتوعد بأنه قادر
على عمل ذلك بصورة أفضل. إنني أجد بين أوروبا القديمة أحياناً بعض
الصور التي كان يلتقطها لنا مصورو الشوارع الجوالون. عند مدخل
كنيسة سان فرانسيسكو، فلا أستطيع أن أكيح إحساساً بالشفقة، لأنها لا
تبدو صوراً لنا، وإنما لأبنائنا بالذات، في مدينة أبواب مغلقة، حيث لا
وجود لشيء سهل، ولا سيما البناء على قيد الحياة دون حب. في
أمسيات أيام الأحاد. وهناك تعرفت مصادفة، على خالي خوسيه عاربا
بالديبلومات. عندما ظننت أنني أرى جدي يشق طريقه، حاملاً مظلة
بين حشود يوم الأحد الخارجة من القديس. فخامة ملابسه لم تخف شيئاً
من هويته: كان يرتدي بذلة كاملة من المخرخ الأسود، ونميصاً أبيض
بهاية من السيلولويد، وربطة عنق ذات خطوط مائلة، وصداً بسلسلة
ساعة، وجعبة نحاسية، ونظارة مذهبة. كان تأثيري كبيراً إلى حد فطعت
عليه الطريق دون أن أنتبه. فرفع المظلة متوجعاً، وأولفتني على بُعد شبر
عن عنقه:

- هل يمكنكني المرور؟

فقلت له خجلاً:

- اعذروني. لقد حسبتك جدي.

واجل تفحصي بنظرة عالم فلكي، وسألني بسخرية خبيثة:

- وهل يمكنكني أن أعرف من هو جديك الشهر هنا؟
ولا اضطرأي من وقايتي المشهورة، أخبرته باسمه كاملاً. فأنزل عندي
المظلة، وانتم بزاز طيب قائلاً:

- هناك سيب إذن للتشايه. فأنا ابنه البكر.

الحياة اليومية كانت أقل وطأة في الجامعة الوطنية. ومع ذلك، لا
أترصل إلى أن أجد في ذاكرتي واقع ذلك الزمن، لأنني لا أصدق أنني
كنت طالباً ولو ليوم واحد، بالرغم من أن درجتي في السنة الأولى -
وهي السنة الوحيدة التي أنهيتها في بوغوتا - تنجح التفكير في عكس
ذلك. لم يكن هناك الوقت ولا الفرصة لإقامة علاقات شخصية كذلك
التي توصفت إليها في المعهد. كما أن زملاء الدراسة يتفكرون في
أنحاء المدينة، بعد انتهاء الدروس. أما مفاجاتي الكبرى فتتمثل في أن
الأمين العام لكلية الحقوق، هو الكاتب بديرو غروست بالدبراما. وكانت
لدي أخبار عنه من خلال مشاركاته المبكرة في الصفحات الأدبية. وقد
بني واحداً من أصدقائي المرفين حتى موته المبكر.

أما زميلي الأكثر مواهبة، منذ السنة الأولى، فكان غونثالو ماياوير
بوتجود، الوحيد المعتاد على الإيمان بأن بعض أعاجيب الحياة حقيقية، حتى
وإن لم تكن صحيحة. وكان هو من علمني أن كلية الحقوق ليست جدياً
إلى الحد الذي أظنه. فمضت اليوم الأولى، أخرجني من درس الإحصاء
والسكان. في الساعة السابعة صباحاً، ومحمداني في مباراة شخصية
بالشعر، في ملهى المدينة الجامعية. وكان في ساعات الصباح المبكرة، يتلو
من الذاكرة، نثر الكلاسيكيين الإسبان، فأرد عليه بقصائد للشعراء
الكتاب الكولومبيين الذين فتحوا النار على قبول القرن السابق البلاغويين.

معاني في أحد أيام الأحد إلى بيته، حيث كان يعيش مع أمه وأخواته وأخوته، وسط توترات أخوية مثل تلك التي مبيت أبوي. فالأخ الأكبر، فيكتور، كان رجل مسرح طوال الوقت، ومغني أوبرا معترف به في ميدان اللغة الإسبانية. منذ أن هربت من وصاية أبوي، لم أشعر قط أنني في بيتي، إلى أن تعرفت إلى بيبا بوتيرو، أم الأخوة مارتينو. وهي أنثويكية^(١) لم يروضها الحب في نخاع الأرستقراطية البرغونية الكثيم. وكانت، بذاتها الفطري وطريقتها العجيبة في الكلام، تملك قدرة لا تنضب على معرفة المكان الدقيق الذي عليها أن تستعيد فيه الكلمات البهية لسلالتها الثيرفانسية. كانت أمسيات لا تُسى، مع رؤية الغروب على زمره السهب عبر المحدود، ودف، التروكولات المغطاة في المعجنات الساخنة. ما تعلمته من بيبا بوتيرو، برطانتها المكشوفة، وطريقنها في طول أشياء الحياة العادية، لم يكن يُمنح، في التعرف على بلاغة الحياة الواقعية.

وكان من الزملاء الآخرين المشاهير، غييرمو لوبيث غيرا وألفارو بيدال يارون. وكانا متواظفين معي في معهد ثيباكيرا. ومع ذلك، فقد كنت في الجامعة. أقرب إلى لويس ميسار بوردا وكاميلو توريس رستريبو، اللذين كانا ينجزان بالأطفال، وحسب بالفن، الملحق الأدبي لجريدة "لاراثون"، وهي صحيفة شبه سرية، كان يديرها الشاعر والصحفي خوان لوثانو إي لوثانو. وعشية صدور كل عدد من الملحق، كنت أذهب معها إلى مكاتب التحرير، وأقدم لهما مساعدة الساعة

١) أنثويكية *antioqueña* • تنسب إلى مقاطعة أنتيوكية *antioqueña* (إنتاكية) الكولومبية.

الآخيرة. وقد التقيت في بعض المرات مع مدير الجريدة، وكنت معجبا بسويتاته، وأكثر منها بتوجهه لحياة الشخصيات الوطنية التي كان ينشرها في مجلة "السبت". وكان يذكروني بشيء من الفروض، الملاحظة التي كتبها أوليس عني، ولكنه لم يقرأ أي نص من قصتي. ولده تهريت من الموضوع، لأنني كنت متأكدا من أنها لن تروى. ومنذ اليوم الأول، قال لي وهو يودعني، إن صفحات جريدته مفتوحة لي. ولكنني اعتبرت ذلك مجرد مجاملة يوغوتية.

في مفيهي أستورياس، عرفتني زميلاني في كلية الحقوق، كاميلو توريس رستريبو ولويس ميسار بوردا، على بلينيو أبوليو ميندوتا الذي نشر، مذ كان في السادسة عشرة، مجموعة من نصوص الشعر الغنائي، هذا الجنس الأدبي الرائج آنذاك. بعد أن لرضه إدواردو كارانزا، من خلال الصفحات الأدبية لصحيفة "الفيغو"، كان ذا بشرة مدبوغة، وشعر داكن وأمس، يبرز مظهره كهندي. وكان قد توصل، على الرغم من سنه، إلى جعل مقالاته تُعتمد في مجلة السبت الأسبوعية التي أسسها أبوه بلينيو ميندوتا نبيرا، وهو ريز حرب قديم وصحفي كبير، ربما لم يكتب سطورا كاملا واحدا طوال حياته. ومع ذلك، فقد علم كثيرين الكتابة في الصحف التي كان يؤسسها بكل أهبة، ويهجرها إلى مناصب سياسية رفيعة، أو لإقامة مؤسسات أخرى عائلة وكارثية. أما ابنه فلم أراه سوى مرتين أو ثلاث مرات في تلك الفترة، ودوما مع زملاء لي. ولقد أذهلني أنه في سنه تلك، كان يحاكم الأمور كمجوز مسن، ولكن لم يخطر لي آنذاك أننا سنماون، بعد سنوات. في جولات صحافة جريئة، لأنني لم أكن قد فكرت بعد، في غواية الصحافة كمهنة. أما اهتمامي بها كعلم، فكان أقل من اهتمامي بالحقوق.

لم أذكر، في الواقع قط، أن الصحافة ستكون موضع اهتمامي يوماً، حتى ذلك اليوم الذي قامت فيه إلفيرا سينفومان، شقيقة بليسير، بإجراء مقابلة عاجلة مع مغنية الأوبرا الأرجنتينية بيرتا سينفيرمان، فهدئت تماماً أحكامي المسبقة ضد المهنة، وكشفت عن ميل مجهول لدي. فالمقابلة التي مدت أهدم ما يكون عن مقابلات الأسئلة والأجوبة التقليدية - وهو النمط الذي كان، ولا زال، يخلط لدي الكثير من الشكوك - كانت واحدة من أكثر المقابلات التي نُشرت في كولومبيا أصالة. وبعد سنوات من ذلك، عندما حاصرت إلفيرا سينفومان صحيفة هالمية مكرسة، وإحدى أفضل صديقاتي، أخبرتني بأن ما فعلته يومئذ، إنما كان وسيلة بائسة لإثفاء إخطاقي.

لقد كان وصول المغنية بيرتا سينفيرمان حدث ذلك اليوم. فطلبت إلفيرا - وكانت مسؤولة القسم النسائي في مجلة السبت - أن تُكلف بإجراء مقابلة معها. وقد تلقت التكاليف، مع بعض التحفظات من جانب أبيها، بسبب ضالة خبرتها في ذلك النوع من العمل الصحفي. كانت مكاتب محرير مجلة السبت آنذاك مركز اجتماع أشهر منتقضي تلك السنوات، فطلبت منهم إلفيرا أن يقدموا لها بعض الأسئلة للمقابلة. ولكنها بلغت حافة الهلع عندما لاحظت الاستخفاف الذي استقبلتها به بيرتا سينفيرمان، في الجناح الرئاسي في فندق غراتانو.

فقد وجدت المغنية متعة، منذ السؤال الأول، في استنكار الأسئلة باعتبارها حقاً وغيبية، دون أن يخطر لها بأن وراء كل سؤال منها كاتباً جيناً من الكتاب الكثيرين الذين عرفتهم وقهرتهم خلال زيارتها المتعددة إلى كولومبيا. وكان على إلفيرا، المعروفة دوماً بطيبتها الحلي،

أن تبتلع دموعها، وأن تتحمل بشرق قلب تلك الكارثة. ولكن دخول زوج بيرتا سينفيرمان المفاجئ أنقذ تحقيقها الصحفي، بعد أن أوشك على التحول إلى حادثة خطيرة. فقد تكفل الزوج بشريك الوضع بلحسة عنبة وحسن سخرة طيب.

لم تكتب إلفيرا الحوار الذي تصورته مسبقاً، من أجوبة مغنية الأوبرا، وإنما كتبت ويووتاجاً عن مصاعبها معها. واستفكت تدخل الزوج الذي وفرته لها العناية الإلهية، وعولته إلى البطل الخفي في اللفاء. وقد ثارت ثائرة بيرتا سينفيرمان، في واحدة من نوبات غضبها التاريخية، عندما قرأت المقابلة. ولكن السبت كانت المجلة الأسبوعية الأوسع انتشاراً، وقد ارتفع توزيعها الأسبوعي إلى مئة ألف نسخة، في مدينة عدد سكانها خمسة ألف نسمة.

برود الأعصاب والذكاء اللذان استطلت بهما إلفيرا خوفاً، بيرتا سينفيرمان، لتكشف حقيقة شخصيتها. وفهماني إلى التفكير، للمرة الأولى، في إكباتيات الريورتياج الصحفي. ليس كوسيلة باهرة لتقديم المعلومات، وإنما أكثر من ذلك: كجس أدبي. ولي تقضي سنوات طويلة قبل أن أطرح تلك التجربة بنفسى. وأن أتوصل إلى الإيمان، مثلما أؤمن اليوم أكثر من أي وقت آخر، بأن الرواية والريورتياج الصحفي هما إيمان للأمل نفسها.

لم أكن قد جازقت حتى ذلك الحين، إلا بكتابة الشعر، أشعار ساخرة في مجلة مدعوة سان خوسيه، ونشر غنائي أو سونيتات غراميات متخلفة على طريقة شعراء "حجر وساء" في العبد الوحيد من الجريدة الأدبية، في مدرسة المعهد الوطني. وقبل ذلك بقليل، كانت ميسيليا غونشالت، المواطنة صهي في شيباكيرا، قد ألفت الشاعر والباحث

دانييل أوانغ بأن ينشر أغنية قصيرة كتبها باسم مستعار، وقد نُشرت بحروف طباعية "لمرة سبعة"، في ركن غير ظاهر من ملحق يوم الأحد لجريدة التبجر، ولم يجعلني نشرها أنبه. ولا أن أشعر بأنني شاعر أكثر مما كنت عليه. أما ريجورتاج ألفيرا بالمقابل، فقد جعلني أعني الصحفي الهاجع في قلبي، وتشجعت على إبدائه. بدأت بقراءة الصحف بطريقة أخرى، وكان كاميلو توريس وليس بيباز بوردا متقنين معي، فكروا العرض الذي قدمه دون خوان لوثانو، بالكتابة في صفحات جريدته "لاراثون"، غيّر أنني لم أنجز إلا على نشر قصيدتين قصصيتين، لم أعتبرهما لي قط، اقتدحا على أن يكلما بلنير أبوليهو مهندسا للكتابة في مجلة "الميت"، ولكن حبائي الوصي، نهني إلى أنني ما زلت بحاجة إلى الكثير، قبل أن أجازله، لمحت أضواء مطفأة، في مهنة جديدة. ومع ذلك، فقد كان لاكتشافني الذي توصلت إليه، فائدة لروية. ففي تلك الأيام كنت مشوشاً بإذراكي أن كل ما أكتبه، نشر أو شعراً، بما في ذلك واجباتي المدرسية في المعهد، ما هي إلا محاكاة بليدة لجماعة "حجر وسما"، وطرحت على نفسي مهنة إجراء بحول حاسم، ابتداء من قصتي التالية. وقد انتهت التجربة إلى إقناعي بأن ظروف الحال الناجزة في الذهن، ما هي إلا نقبسة مقلدة، بدأت بقمعها، أينما اعترضت طريقي، وفي كل مرة كان ذلك الهوس يجبرني على إيجاد أشكال أخرى أكثر غنى وفرة على التعبير. وعند زمن طويل ثم بعد يوم في كتي طرف منها، اللهم إلا في استشهادات حقبة بنصها. وكنت أدري بالطبع، إذا ما كان مترجمو أعماله قد التقطوا ذلك هذا الهوس الأسلوب، وأصيوا بعدوا، بسبب طبيعة مهنتهم.

سرعان ما تجاوزت صداقتي لكاميلو توريس وبيباز بوردا، حدود قاعات الدرس والتحرير، وصرتا نقضي معاً في الشارع. وقتاً أطول من الذي نقضيه في الجامعة. وكلاهما كان يقضي على نار هادئة، في استياء قاس من وضع البلاد السياسي والاجتماعي. أما أنا المتضخم بأسرار الأدب، فلم أكن أحول حتى فهم عملياتهم الدوائية وتوقعاتهم الفاتحة. غير أن آثار صداقتهم قالت أحب صداقتي وأكثرها فائدة في تلك السنوات.

أما في الدروس الجامعية بالمقابل، فكنت غارقاً في وروطة، ولدت دوماً على قلة ورعى عجايز جدارة الأساتذة ذوي الأسماء الكبيرة الذين كانوا يتحملون نفورنا من الدروس، وكان منهم ألفونسو لوبيث ميسنيلسين، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد الذي أعيد انتخابه مرة ثانية في القرن العشرين. وأظن أن ذلك هو مبعث الانطباع العام الذي كان شاملاً، بأنه هو أيضاً مرصود، منذ مولده، ليكون رتباً، وهو ما صار إليه فعلاً. كان يصل إلى منبر أسنافتيه في مادة "مدخل إلى الحقوق" بدقة تتير الضبط، مرتدياً منارات كشميرية بديعة مصنوعة في لندن. ويلقي دروسه دون أن ينظر إلى أحد، بذلك المظهر المساوي لحسري النظر الأذكيا، ممن يبدون دوماً، كما لو أنهم يحسون عبر أحلام الآخرين. كانت دروسه تبدو لي منولوجات رتيمة على وتيرة واحدة، مثلما هو بالنسبة لي أي درس آخر غير الشعر. إلا أنه كان لرتابة صوته المضجر، سيرة القدرة على التشويق التي يتمتع بها حاروي الأنواع. وكانت ثقافته الأدبية الواسعة تستند، منذ ذلك الحين، إلى أسس واضحة، يعرف كيف يستخدمها كتابة أو بصوته المحي مباشرة، ولكنني لم أبدأ بتقديره إلا عندما عشنا للتعارف بعد سنوات من ذلك، وصرتا صديقين بعيداً عن

سببات الدروس الجامعية. كانت سمعته، كسياسي صلب، تنفث من فئحة شخصية معرية، ومن صفاء ذهن وبصيرة خطيرة في اكتشاف النوايا الخفية للناس. وخاصة من يعجبهم أقل. ومع ذلك، فإن فضيلته الأكثر تميزاً، كمشخص عامة، هي قدرته المذهلة على خلق أوضاع تاريخية بجملة واحدة.

توصلنا مع مرور الزمن إلى صداقة جيدة. ولكنني لم أكن في الجامعة من أكثر الطلاب دأباً ومواظبة. وكان خجلي الذي لا مفر منه، يبقيني على مسافة لا يمكن لي تجاوزها، خاصة مع الناس الذين أقدرهم وأحترمهم. ولهذا فوجئت كثيراً عندما استدعاني إلى الامتحان النهائي للسنة الأولى. بالرغم من أن كثرة غيابي عن الدروس جعلتني جديراً بلقب الطالب الخفي. لجأت إلى حيلتي القديمة في تحويل اتجاه الحديث حول الموضوع بأساليب بلاغية. ولاحظت أن الأستاذ راع حيلتي، ولكنه ربما لندرها كنسلية أدبية. وكانت الزلة الوحيدة هي استخدامي في الامتحان النهائي كلمة "نقادم" (prescription)، فصارح هو إلى الطلب مني أن أحذف معناها، لبتأكد من أنني أعرف ما الذي أقوله.

فقلت له:

- الفعل نقادم prescriber يعني اكتساب خواص معينة مع مرور الزمن

فسألني على الفور:

- اكتسابها أم فقدانها؟

إنه الشيء نفسه^(١)، ولكنني لم أناقشه في ذلك، بسبب عدم بليتي الفطري. وأظن أن تلك كانت واحدة من مداعباته الشهيرة التي

بروجها بعد الامتحان، لأنه لم يحاسبني عليها ولم يتقاض مني ذلك الدين عند وضع درجة التقويم. وقد حدثت بعد سنوات من ذلك، عن الواقعة، فلم يذكرها بالطبع. ولكننا لم نكن عندئذ، أنا وهو، متأكدين من أن تلك الحادثة كانت صحيحة.

لقد وجد كلاتا في الأدب، صلاً طيباً لتناسي السياسة وأسرار "النقادم"، واكتشفنا بالمقابل كتيلاً مذهلة وكتائباً منسيين في محادثات لانهاية أدت، في بعض الأحيان، إلى إفساد زيارات، وإثارة حفيظة زوجتي. أنعزني أُمي بأننا غريبان، وقد كان الأمر كذلك بالفعل، ومع ذلك، فإن ما كان يحدث هوشتا، أفضل من أي وابطة غائبة، هو شغلنا المشترك بأغاني منطقة باتانو.

وكان هناك قريب عارض آخر، من جهة أبي، هو كارلوس ه. باروخا، أستاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة غرانكولومبيا، المكتبة المفتحة لدى الطلاب، بسبب عاداتها الحميدة في عرض الكتب الجديدة لكبار الكتاب على مناضد مكشوفة ودون مراقبة، فكانت حتى نحن طلابه، نشرب الحبل في سهو الضروب، ونسرق الكتب بفنون خفية الأصابع. وكانت سرقة الكتب تعتبر، حسب العرف المدرسي، جريمة ولكنها ليست خطيرة، أما دوري في عمليات السرقة تلك، فكان يفتصر، ليس بدافع الفضيلة وإنما بسبب الخوف المسمدي، على حماية شهر من هم أكثر مهارة؛ شريطة أن يسرقوا، فضلاً عن الكتب التي يرمونها لأنفسهم، بعض الكتب الأخرى التي أطلبها أنا. وفي مساء أحد الأيام، وكان أحد زملائي القنوطيين قد انتهى للتو من سرقة "الدينة دون لاوي" لفرانثيسكو لويس بيرنارديث، عندما أحسست بقبضة قوية تمسك بكففي، وبصوت رقيب يقول:

(١) الفعل prescriber يتضمن معنيين متناقضين، فهو يعني، في الوقت نفسه، اكتساب ميزة بالنقادم أو فقدانها.

- أخيراً.. يا للعبة!

التفت مذعوراً، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع الأستاذ كارلوس هـ. باربيسا، بينما كان ثلاثة من شركائي يهرون متدافعين. ولحسن الحظ أنني انتهت، قبل أن أفكر من الاعتذار، إلى أن الأستاذ لم يفاجأ لأنه ضبطني ككس، وإنما لأنه لم يرتي في دروسه منذ أكثر من شهر. وبعد تأنيب أقرب إلى العادي، سألتني:

- هل أنت ابن غابرييل إليخو حقاً؟

كان ذلك صحيحاً، ولكنني أجبت أن لا، لأنني كنت أعرف أن أباه وأمي قريران بعيدان بعادته شخصية لم أفهمها قط. ولكنه عرف الحقيقة فيما بعد. ومنذ ذلك اليوم صار يعاملني بتعجب، في المكتبة وفي الدروس. باعتباره ابن أخ له. وقد احتفظنا بعلاقة سيئة أكثر مما هي أديبة، بالرغم من أنه كان قد كتب ونشر عدة كتب شعرية متفاوتة الفحمة، بالأسم المستعار "سيمون اللاتيني". ولكن وعي حلة الفرية ألهاد، هو فقط. لأنني لم أعد أقوم بدور المنشئ على سرفة الكتب.

أستاذ آخر رائع هو ديفو مونتانيا كويار. وكان نقبض لوبث ميتشيلسين، ويبدو أنهما كانا على خصومة سرية. لوبث كلبجالي مشاكس ومونتانيا كويار كبساري رديكالي. لقد أفقت مع هذا الأخير علاقة جيدة خارج الجامعة. وبدا لي على الدوام أن لوبث ميتشيلسين ينظر إليّ، على أنني فرخ شاعر، بينما يرى في مونتانيا كويار داعية جهلاً لعتقائه الثورية.

نعاظمي مع مونتانيا كويار بدأ بتشككة تعرض لها مع ثلاثة ضباط شبابه، من المدرسة العسكرية. كانوا يحضرون دروسه يزي المراسم.

وكانوا يراطلون على الدروس بدقة الشكنة، ويجلسون معاً على المقاعد الجانبية نفسها، ويدونون ملاحظات متقلة لا تشوبها شائبة، ويحصلون على درجات يستحقونها بجدارة في الامتحانات الصارمة. تصحهم ديفو مونتانيا كويار بعدم المجيء إلى الدروس بالزي العسكري. فقالوا له بأكثر أساليبهم تهدياً إنهم ينفذون أوامر عليا. ولم يفوتوا فرصة ليعلمه بشعر بذلك. ومع ذلك، وعلى الرغم من غرابة سلوكهم، فقد كان الضباط الثلاثة. في نظر الطلاب والأساتذة، طلاباً محبين.

كانوا يأتون بزيهم العسكري المشابه، والمتفنن، معاً على الدوام، وفي الموعد الدقيق. ويجلسون بجانباً، لقد كانوا أكثر الطلاب جدية ومنهجية. ولكنني كنت أرى على الدوام أنهم في عالم مختلف عن عالمنا. فإذا ما توجه أحد إليهم الكلام، يبدون الاهتمام واللفظ. ولكن بصورة وسية وشككية لا يمكن التغلب عليها، فهم لا يقولون أكثر مما يسألون عنه. وفي أزمته الامتحانات، كنا نحن المدبلجين نتوزع في جماعات من أربعة طلاب لتدرس في المقاهي. وكنا نلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، وفي الميوزات الطلابية، وفي الحفلات الهادئة ومواخير ذلك العصر الكئيبة. ولكننا لم نكن نلتقي قط، بزملائنا العسكريين.

لم أكد أتبادل معهم التحية، خلال السنة الطويلة التي أمضيناها معاً في الجامعة، فضلاً عن أنه لم يكن هنالك منسع لذلك، لأنهم كانوا يحضرون إلى الدروس في الموعد المحدد بدقة، ويصادرون مع آخر كلمة ينطق بها الأستاذ، دون أن يتعاملوا مع أحد، اللهم إلا مع شبان عسكريين آخرين في السنة الثانية، يجتمعون وإياهم معاً في الاستراحات. لم أعرف أسماءهم قط، ولم أحصل على أي خبر عنهم

فيما بعد. وأنه اليوم إلى أن أكبر الموانع لم تكن من جانبهم. بقدر ما هي من جانبي، لأنني لم أستطع قط أن أعجز المرارة التي كان يجري استذكارها بها حرونها المحبطة والمذابيح الفظيعة في مناطق الرز.

كان أستاذ مادة القانون الدستوري، خورخي سوتو دل كورال، مشهوراً بأنه يعرف عن ظهر قلب، كل دستاير العالم. وكان يبهتنا، في دروسه، بذكااته وعلوهم الخارقة، التي لا يعكرها إلا ضعف حص الدعابة لديه. وأظن أنه كان واحداً من الأساتذة الذين يهذلون ما أمكنهم من جهد كيلا تظهر اختلافاتهم السياسية في الجامعة. ولكنها كانت تبدو بوضوح أكبر مما يهتدون، حتى من خلال إيماءات أيديهم ونبرة التقصيم لأنكارهم. ذلك أن الجامعة هي المكان الذي كان يلبس فيه، أكثر من سواء، النضج الصديق للبلاد التي كانت على حافة حرب أهلية جديدة. بعد بضع وأربعين سنة من السلام المسلح.

على الرغم من غيابي المزمع وإصالي القانوني، فقد نجحت في المواد السهلة من سنة الحشرق الأولى، بفضل محاضرات في اللحظة الأخيرة^(١) ونجحت بأصعبها، بفضل حيلتي القديمة في محاشي الموضوع المطلوب برسائل مستبعدة. والمفارقة أنني لم أكن مرتاحاً داخل جلدي. ولم أكن أعرف كيف أوصل المشي بالتلصص في ذلك الطريق المسدود. فقد كان نهبي للتحقق قليلاً، واهتمامي به أقل بكثير من أي مادة دراسية في المعهد. كما أنني صرت أشعر بأنني قد نضجت بما يكفي لاتخاذ قراراتي بنفسى. وأخيراً، بعد ستة عشر شهراً من البقاء حياً، بأعجوبة، لم يبق لي إلا جماعة من الأصناف الجيدين الذين سيقون كذلك مدى الحياة.

ضالة اهتمامي بالدراسة تضالحت أكثر بعد ملاحظة أوليسيس، وبخاصة في الجامعة، حيث بدأ بعض زملائي ينحي لقب أستاذ وتقديري ككاتب. وتوافق ذلك مع تصميمي على تعلم بناء بنان يكون في الوقت نفسه، محتسلاً وخيالياً، إنما دون فجوات؛ ولحق غاذج كاملة الإتقان وعصبة، مثل أوديب ملكاً لسوقوكليس، حيث يبحث بطلها عن قاتل أبيه. وينتهي إلى اكتشاف أنه هو نفسه القاتل؛ ومثل "قائمة الفرد" و. و. جاكوب W.W. Jacob، هذه القصة المحكمة، حيث كل ما يجري هو مصادفة. ومثل كتلة اللحم، لئسان، وغيرهم كثير من الخطاة الكبار الذين أرجو أن يحفظهم الرب في ملكوته. وكنت أفكر في هذا الأمر، في ليلة يوم أحد جرى لي فيها أمر يستحق أن يروي. كنت قد أصيبت ذلك النهار بطوله في تهوية إباحاتي، ككاتب، مع غونزالو ماباريلو، في بيته في جادة تشيلي. وأثناء عودتي إلى المنزل، في الترام الأخير، صعد كورنوس^(٢) من لحم وعظم في محطة تشابينيرو. لم أخطئ الدولار فونوس. لاحظت أن أحداً من ركاب منتصف الليل القلائل، لم يلحظاً برؤيته، فدعصني ذلك إلى التفكير في أنه واحد آخر ممن يتنكرون بهيئات مختلفة، في أيام الأحاد، ليبيهر كل شيء في حدائق الأطفال. ولكن الواقع أقنعني بأنه لا يمكنني التلصص، لأن له قرني تيس ولبته، حتى إنني أحسست لدى ضروره، برائحة شعره الماعزي. وكيل بلوغنا الشارع ٢٦، وهو شارع المقبرة، نزل يظهر رب أسرة طيب، واخضنى بين أشجار المدينة.

(١) فونوس Fonus أو Faustus: إله القابلات والمراعي وحامي القلعان والزارع عند الرومان. يمثل بهيئة عمرتية ويرتدي ثوبين، واحد طية واحد ما تيس. وهو كشم الماعز.

استيقظت بعد منتصف الليل، من نومي الفلق في فراشي. قالني دومنغو مانويل بيغا عما أصابني. "تقد سعد فرنوس إلى الترام". قلت له ذلك وأنا بين النوم واليقظة. قررة على، وهو مستيقظ تماماً، بأنه إذا كان كابرس فلا بد أن السب هو سر، ضم من الذي يصيب المرء في يوم الأحد. أما إذا كان موضوعاً لقصتي القصيرة القادمة، فإنه يبدو له موضوعاً رائعاً. ولم أعد أدري، في الأيام التالية، إذا ما كنت قد رأيت حقاً "فرنوساً" في الترام أو أنها مجرد أضغاث أحلام أحدية، ويدأت أتقبل أنني قد غُت تحت تأثير إرهاق ذلك اليوم، ورأيت حلاً واضحاً جداً لا يمكن فصله عن الواقع. ولكن الجوهرى بالنسبة لي لم ينته بهل كان الفونوس حقيقياً، وإغما إذا كان كذلك. وبالتالي - سواء أكان حقيقياً أم حلاً - لم يكن من المشروع اعتباره سحراً من الخيطة. وإلما كتحفة محببة في حياتي.

وهكذا كتبت القصة في اليوم التالي، دفعة واحدة، ووضعها تحت الوسادة، وقرأتها وأعدت قراءتها طوال ليال عديدة قبل النوم، أو لدى استيقاظي صباحاً. كانت القصة وصفاً خارجياً وحرقياً لواقعة الترام، مثلما جرت تماماً، وبأطوب بالغ البراءة، مثل خير تعبير طفل في صفحة الأخبار الاجتماعية. وأخيراً، وبدافع شكوى أخرى، فرت إخضاع القصة لتجسيرة الكلام المطبوع الختامية. ولكن لبس في حريدة الاسبيكتادور، وإلما في الملحق الأدبي لجريدة التيبو. وربما كانت تلك هي الطريقة لمعرفة وجهة نظر أخرى، مختلفة عن رأي إدواردو ثالاميا، دون أن أوظفه في مقامرة لبس هناك ما يستدعي إشراكه فيها. أرسلت القصة مع زميل في النزول. ومعها رسالة، إلى دون خيخي بومادا، المدير

الجديد والشاب جداً لـ "الملحق الأدبي" في حريدة التيبو، ولكن القصة لم تُشر مع ذلك، ولم أتلق ردّاً على الرسالة.

قصص تلك المرحلة، وفق تسلسل كتابتها ونشرها في ملحق "نهاية الأسبوع"، اختفت من أرشيف جريدة الاسبيكتادور خلال الهجوم على هذه الجريدة وإحراقها، على يد جموع الشغب الرسية في السادس من أيلول ١٩٥٢. أنا نفسي، لم تكن لدي نسخة منها، ولم تكن كذلك لدى أصدقائي المهنيين. ولهذا هنت، بشيء من الراحة، أن النسيان قد ابتلعها. ومع ذلك، فقد كانت بعض الملاحق الأدبية المعلقة في الأقاليم. قد أعادت نشرها في حينها دون إذن، ونشر بعضها كذلك في مجلات مختلفة، إلى أن جمعتها في كتاب دار نشر "الفيل" في مونتيفيديو سنة ١٩٧٢. وأصدرتها بعنوان قصة منها: "تابو، الزلجي الذي جعل الملائكة يتطرون".

وكانت تنقصها قصة واحدة لم تُضم إلى الكتاب، ربما بسبب الافتقار إلى نسخة موثوقة منها: "توبال كاهن بصوغ مهمة"، التي نُشرت في الاسبيكتادور يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨. وأسم البطل، مثلما لا يعرف الجميع، هو اسم حداد نوراتي ابتدع الموسيقى. لقد كانت ثلاث حكايات، وبقراءتها وفق الترتيب الذي كُتبت ونُشرت فيه، بدت لي معدومة الترابط وغير مبدية، بعضها غير معقول، ولا نستند أي واحدة منها إلى مشاعر حقيقية. ولم أستطع قط، أن أتبين وجهة النظر التي قرأها بها ناقد بالغ الصرامة مثل إدواردو ثالاميا. ومع ذلك، فإنها تشتمع في نظري، بأهمية لا يراها أحد سواي. ذلك أن في كل واحدة منها شيئاً يتناسب مع تطور حياتي السريع في ذلك الحين.

كثير من الروايات التي كنت أقرأها آنذاك، وأقدرها، كانت تشد اهتمامي بما تتضمنه من تعليم نقني فقط. أي ما فيها من صفة سرية. فمن التجريد الميتافيزيقي في القصص الثلاث الأولى، حتى لصح ذلك الحين الثلاث الأخيرة. وجدت دروباً محددة ومفيدة جداً للتكوين الأولي للكاتب. لم تكن قد وودت إلى خاطري، فكرة إرتياد أشكال أخرى. فقد كنت أفكر في أن القصة والرواية لهما جنسيتان أدبيتان مختلفتان وحسب، وإنما هما جسدان من طبيعتين مختلفتين، وسيكون الخلط بينهما وخملاً. وما زلت اليوم آؤمن بذلك، مثلما كنت آؤمن به آنذاك. وصرت أكثر اقتناعاً بتفوق القصة القصيرة على الرواية.

سبب لي النشر في الأسبكتادور، على هامش النجاح الأدبي، مشاكل أخرى أكثر دنيوية ودعابة. فقد صار أصداء غالفون بولفوني في الشارع، ليطالبوا مني أن أفرضهم نفوذاً منقذاً. فما كان بإمكانهم أن يصدروا أن كاتباً يمثل ذلك الانتشار. لا يتلقى مبالغ مالية ضخمة مقابل قصصه. وقلة قليلة فقط هم الذين كانوا يصدرون أنه لم يدفع لي مقابل نشرها سنت واحد، وأنتي أنا نفسي، لم أكن أنتظر أن يدفع لي. لأن ذلك لم يكن شائعاً في صحافة البلاد. والأخطر من ذلك، هو خيبة أمل أبي عندما اقتنع بأنني لن أتمكن من تغطية نفقاتي الخاصة. في الوقت الذي كان يدرس فيه ثلاثة من أخواني الأحد عشر الذين كانوا قد ولدوا جميعهم، كانت الأسرة ترسل لي ثلاثين بيزو في الشهر. وكان المنزل وحده يكلفني ثمانية عشر بيزو. كوني أن يكون لي الحق بالمحصول على بيضة على الفطور. وكنت أبيع نفسي غير قادر على استكمال المبلغ على الدوام، بسبب تقييدات طارئة. ولمن المخط. لا أدري من أين

أصابني عفوى الرسم، وأنا ساء، على هوامش الصحف. وعلى المتاديل الورقية في المطاعم، وعلى موائد الرخام في المقاهي. وأتجبراً على الاعتقاد بأن تلك الرسوم هي سبيلة مباشرة لما كنت أرسمه. وأنا طفل، على جدران مشغل صياغة الحديد. وربما كانت صحائف أمان سهلة للتفريغ عن النفس. كان لأحد رواد مقهى الطاحونة الطارئين، وساطة في إحدى الوزارات، فحُسن رسماً فيها دون أن تكون لديه أدنى دراية بالرسم. وعرض علي أن أقوم بالعمل بدلاً منه، ونشقاسم الراتب في ما يتنا. لم أقرب طوال ما تبقى من حياتي قط إلى ذلك الهد من الفساد. ولكنني لم أقرب منه آنذاك، إلى الهد الذي أنعم عليه.

تزايد اهتمامي بالموسيقى أيضاً، في تلك الفترة التي كانت فيها أغاني الكاريبي الشعبية - التي رضعنها منذ الصغر - تشق طريقها في بوغوتا. كان البرنامج الإذاعي الأوسع رواجاً هو ساعة ساحلية الذي ينشطه دون باسكوال ديلفنتكبير. وكان بمثابة فاصل موسيقي من ساحل الأطلسي إلى العاصمة. وقد حاز البرنامج على شعبية واسعة في أيام الأحاد صباحاً، إلى حد أننا، نحن الطلاب الكاريبيين، كنا نذهب للرصد في مكاتب محطة البث الإذاعي، حتى وقت متقدم من بعد الظهر. كان ذلك هو مناس الشعبية الواسعة لموسيقائنا في مناطق البلاد الداخلية، ثم بعد ذلك في أقصى أركانها. وتنشيطاً اجتماعياً للطلاب الساحليين في بوغوتا.

أما الصائق الوحيد، فكان شيخ الزواج الإيجاري، ولست أدري ما هي التساويق المبينة التي أدت إلى أن يزدهر في الساحل، الاعتقاد بأن القشتيات البوغوتيات يسعدن بالشباب الساحليين وينصون لنا الهزاتل ليتزوجن منا بالقوة. ليس بدافع الحب، وإنما يعلم العيش في بيت نطل

ناخذله على البحر. لم تراودني هذه الفكرة قط. بل على العكس، فأكثر الذكريات غير المرغوبة في حياتي هي المواقف المشؤومة خارج أسوار بوغوتا، حيث كنا نذهب لتفقي صكراتنا المكفهرة. وقد أوشكت، في أكثرها قذارة، على التخلي عن بصيل الحياة الضئيل المتبقي في داخلي، عندما ظهرت امرأة، كنت معها للتو، عارية في المراء، وهي تصرخ قائلة إنني سرقت اثني عشر بيرو من درج خوان زينتها. طرحني اثنين من العاملين في المحل أرضاً بالكدمات، ولم يكتفيا بانتزاع آخر بيروين متبقيين في جيبوي، بعد كمارستي حباً مشؤوماً، وإلغا عراباني حتى من الحذاء. وراحا يفتشاني بأصابعهما بحثاً عن النقود المسروقة. وكنا قد قررا عدم قتلي على أي حال، وإلغا تسليمي إلى الشرطة، عندما تذكرت المرأة أنها بدلت مخبأ نفودها في اليوم السابق، ووجدتها كاملة، دون نقصان.

بين الصداقات المتبقية لي من الجامعة، لم تكن صداقتي لكاميلو توريس هي الأقل عرضة للنسيان فقط، وإلغا الأكثر دراماتيكية في شباني. في أحد الأيام تغيب عن الدروس لأول مرة، فانتشر السبب مثل ثمار البارود. لقد رتب أشباه ولبر الهرم من بسنه للذهاب إلى مدرسة تشيكينكيريا الإكليريكية، على بعد أكثر من مئة كيلومتر عن بوغوتا. أدركته أمه في محطة القطار وحسنه في مكتبها. وقد زرت هناك، كان شاحياً أكثر من المعتاد، بغفارة بضاء، وشماتية دفعني لأول مرة إلى التفكير في حالة الرضى الرياني. لقد قرر الانشفاق بالمدرسة الإكليريكية، استجابة ليول كان يخفيها جيداً، ولكنه مصمم على الانصياع لها حتى النهاية.

قال لي:

- لقد انقضى أصعب ما في الأمر.

وكانت تلك هي طريقتي في القول لي إنه قد فارق خطيبته، وإنها قد احتفت بقراره. وبعد أسبوع خصب، قدم لي هدية لا يمكن فلك رموز اختيارها: أصل الأنواع لداروين. ودعته، براودني يقين غريب بأنه وداع إلى الأبد.

لم أزه طوال فترة وجوده في المدرسة الدينية، وبلغتني أخبار غامضة عن أنه قد ذهب إلى لوفانيا، مدة ثلاث سنوات، للإعداد اللاهوتي، وأن استسلامه الديني لم يسدل روحه الطلابية وأساليبه العلمانية، وأن الفتيات كن يتنهذن من أجله، بماضنه كما لو أنه مثل سينماي جعلته اقترح أهزل.

بعد عشر سنوات من ذلك، عندما رجعت إلى بوغوتا، كان قد تسلم جسداً وروحاً طيبهه مكانته، إلا أنه بقي يحتفظ بأفضل فضائله، كمرافق. وكنت أنا آنذاك كاتباً وصحفياً دون شهادة، متزوجاً ولدي ابن واحد، رودريغو، الذي ولد يوم ٢٤ آب ١٩٥٩ في مستشفى باليرمو في بوغوتا، وقررت في الأسرة، أن يكون كاميلو هو من يتولى تسميته ابناً، وأن يكون العراب هو بلينيو أبلير ميندونا الذي كنا أنا وزوجتي، قد أقننا معه صداقة عربين من قبل. أما الصراية فكانت سوزانا لينارس، زوجة خيرمان بارغاس الذي نقل إلي فتوته، كصحفي جيد وصديق مفضل. كان كاميلو أقرب إلى بلينيو كما هو إلينا، وعلاقته به أقدم بكثير. ولكنه لم يشأ قبوله كعراب، بسبب اتصالاته آنذاك مع الشيوعيين، وربما كذلك بسبب روحه الساخرة التي يمكن لها أن تسي-

إلى وقار الطقوس المقدسة. فشمعدت سوزانا بأن تتولى بنفسها أمر تكوين الطفل روحياً، ولم يجد كاميلو، أو لم يشأ أن يجد، حبيباً آخرى لتقطع الطريق على العراب.

جرت طقوس التعميد في معبى مستشفى باليرمو. في شبه الظلمة الجليدية للساعة السادسة مساءً، دون وجود أحد سواي أنا والعرابان، وفلاح عباءة جليدية وصندلاً، اقترب منا لحضور القداس كما لو أنه يطفو فوق الأرض، دون أن يكشف عن حضوره. وعندما وصلت سوزانا ومعها الوليدة، أغلت العراب التي لا سهيل إلى إصلاحه استفزازة الأول ساخراً:

- سنجعل من هذا الطفل رجل حرب عصابات جيداً.

فرد عليه كاميلو الذي كان يعدّ حرائق الطقوس المقدس، بهجوم مضاد بالنبرة نفسها: "أجل، ولكنه سيكون محارباً في سبيل الرب". وياشر الطقوس بفرار من أكبر العصابات مثلياً، وغير مألوف قاماً في تلك السرورات:

- سوف أعمده بالإسبانية، لكي يفهم المجاهدون ما الذي يعنيه هذا السر المقدس.

راح صوته يرنّ بفشتالية مدوية، تابهتها من خلال لاثنية سرورات صباي، كخادم كاهن في آراكاتاكا، وفي لحظة الرش بالما، ودون أن ينظر إلى أحد بعينه، ابتدع كاميلو صيغة استفزازية أخرى:

- فليركع كل من يؤمن بأن الروح القدس يستزل الآن، على هذا الطفل.

بقيت أنا والعرابان واقفين، وربما متضايقين قليلاً من مكر صديقتنا

المحوري. بينما الطفل يزحف تحت وشاش الماء البارد، والشخص الوحيد الذي جثا واكعباً هو الفلاح ذو الصندل. لقد ظلت صدمة هذه الواقعة، واحدة من العبر القاسية في حياتي، لأنني اعتقدت دوماً، بأن كاميلو هو من جاء بالفلاح، بتخطيط مسبق، لمناقشتنا بدروس في الإذلال، أو في حسن التربية على الأقل.

عدتُ لثلاثاً به مرات قليلة، ودفعنا لسبب قوي أو قاهر، يكون مرتبطاً على الدوام تفهياً، بأعمال إحصائه لمصلحة المطاردين السياسيين. وفي أحد الأيام حضر إلى بيتي، ومعه لص سطر على النازل أنهى حكماً بالسجن، ولكن الشرطة لم تمنحه الراحة وتغلف من وطأتها عنه، فكان رجال الشرطة يستولون على كل ما يملكه. في إحدى المرات، أهديتُ إليه خذاء كشال، في أسفل تحفه رسم خاص من أجل مزيد من الأمان. وبعد أيام قليلة، تعرضت خادمة البيت على العمل، في صورة جانيح منشرد غُثر عليه ميثاً، في تصفية عصابات. لقد كان ذلك القليل هو اللص الصديق.

لست أزعّم أنه كان لتلك الواقعة علاقة بالمصير النهائي الذي صار إليه كاميلو. ولكنه بعد شهور قليلة من ذلك، دخل إلى المستشفى العسكري لزيارة صديق مريض. ولم يعد يعرف أي شيء عنه، إلى أن أعلنت الحكومة أنه ظهر كمقاتل حرب عصابات عادي، في صفوف جيش التحرير الوطني. وقد مات في الحناص من شباط ١٩٦٦، في السابعة والثلاثين من عمره، خلال معركة حامية مع دورية عسكرية.

تزامن التحاق كاميلو بالفرقة الدينية مع قرارني الحناص بعدم مواصلة إضاعة الوقت في كثية المفقوق. ولكنني لم أجد الشجاعة

لمواجهة أبوي بذلك. دفعة واحدة. وقد علمت من خلال أخى لوس إنريكي - الذي جا، إلى بوغوتا في وظيفة جيدة في شهر شباط ١٩٤٨ - أن أبوي وأخيهين جداً عن نتائج في الثانوية سنة المحرق الأولى. وقد أرسلنا إليهم هدية مفاجئة. هي أخف وأحدث آلة كاتبة معروضة في السوق. كانت تلك هي أول آلة كاتبة أحصل عليها في حياتي. وأكثرها سوء طالع في الوقت نفسه. لأنني رعتها في ذلك البرم بالذات مقابل اثني عشر بيزو من أجل مواصلة حفلة الترحيب بأخي مع زملائي في الزل. وفي اليوم التالي، بينما آلام الرأس تسبب لنا الجنون، ذهنا إلى بيت الرهونات للاطمئنان إلى أن الآلة الكاتبة لا تزال هناك وأن خاتم تغليفها لم يمس. وللتأكد من أنها لا تزال في حالة جيدة، رتبنا تسطع علينا من السماء، النقود اللازمة لتخليصها. وقد واثنا فرصة طيبة بفضل ما دفعه لي شريكى الرسام المزيّف، ولكننا تمرونا في اللحظة الأخيرة، التخلي عن تلك الرهن إلى ما بعد. وكلما مررنا أمام بيت الرهونات، أنا وأخي، معاً أو منفصلين، كنا نتأكد ونحن في الشارع، من أن الآلة الكاتبة ما تزال في مكانها، مخفية مثل جوهرة بريق السيلوفان، مع شريط من الحرير، وسط صفوف من الأجهزة المنزلية المحمية جيداً. بعد مرور شهر، ثم تتحقق الحسابات السعيدة التي كنا قد أجريناها في نشوة السكر. ولكن الآلة الكاتبة بقيت في مكانها دون أن نُس. ويمكن لها أن تبقى هناك إلى أن ندفع، في الوقت المناسب، الفوائد الفصيلة عن قبة الرهن.

أظن أننا لم تكن نعي بعد، الثورات المسيحية الرهيبة التي بدأت تمكر صفو البلاد. وعلى الرغم من سعة المحافظ المعتدل التي وصل بها

أوسينا بيريث إلى السلطة، فإن أغلبية حزبه كانت تمزج أن فوزهم لم يكن ممكناً إلا بانقسام الليبراليين. وكان هؤلاء، وقد أفقدتهم الضربة صوابهم، يؤمنون أليبرتو بيراس على حيادته الانتخابية التي سمحت بوقوع الهزيمة. أما الدكتور غابرييل طريه المفضل بزاجه المعكر، أكثر من ضيقه من الأصوات المعادية، فقد غادر إلى أوروبا دون وجهة ولا معنى، بحجة تخصصه عالٍ في أمراض القلب. ومات وحيداً تحت وطأة زهر الهزيمة، بعد سنة ونصف، بين الأزهار الورقية الداوية في فندق بلاس آتنيه الباريسي. أما خروخي إليسير غابيان بالمقابل، فلم يقطع يوماً واحداً، حملته الانتخابية من أجل الدورة التالية، وإنما جدرها بعنقا ببرنامج إصلاح أخلاقي للجمهوريّة لمجاوز التقسام البلاد التاريخي بين الليبراليين والمحافظين. وعنفه بشرح أفقي وأكثر المصيبة، بين المستغلين والمستغلين: البلد السياسي والبلد الوطني. وصرخته التاريخية - إلى الهجوم - نشر بحماسة فوق الطهي، بلرة المقاومة حتى في أقصى الأركان. عبر حملة تمريض ضخمة راحت تكسب أرضية صلبة، خلال أقل من سنة، حتى وصلت إلى عتبة ثورة اجتماعية حقيقية.

وهكذا فقط، وعينا أن البلاد بدأت تنحدر في مهاوي الحرب الأهلية نفسها التي بقيت لنا منذ الاستقلال عن إسبانيا، وراحت تصل إلى الجيل الثاني من أحفاد أبطالها الأصليين. فالحزب المحافظ الذي استعاد الرئاسة من الفريق الليبرالي، بعد أربع دورات متتالية، كان مصصاً على عدم فقدانها من جديد، مهما كلف الأمر، وللتوصل إلى ذلك، استخفّت حكومة أوسيبينو بيريث الأسود، بانتهاج سياسة أرض محروقة أدت البلاد، ووصلت إلى الهبة اليومية في البهوت.

لم أستطع بالاعتماد وعيبي السياسي. ومن ضبابيتي الأدبية، أن ألتصق
 ذلك الواقع الجهلي، حتى ليلة كنتُ غائلاً فيها إلى النزل، والنقبت بشبح
 وعيبي. كانت المدينة مغلقة، تحصف فيها رياح جليدية تهب من المضائق
 الجبلية، يحاصرهما صوت خورخي إليسر غامتان المعدني ونبرة تفخيمه
 الشمعية المتعمدة، في خطابه الدوري الصارم، كل يوم جمعة في المسرح
 البلدي. لم تكن طائفة المكان الاستمعالية تزيد على ألف شخص
 متزامين، ولكن الخطاب كان ينتشر في موجات متعددة المركز. أولاً من
 مكبرات الصوت في الشوارع المجاورة، وبعد ذلك من أجهزة المذياع التي
 تلتصق بأعلى صوت، مثل ضحايا مدوية في أجواء المدينة الفاضلة،
 وتستحوذ ثلاث ساعات، وحتى أربع ساعات، على الاستماع الرغوي.
 راودني في تلك الليلة الإحساس بأنني الوحيد في الشوارع، اللهم
 إلا عند ناصية تقاطع جريدة الشبح، المحروسة كما في كل يوم جمعة.
 بلصيلة من رجال الشرطة المسلحين كما لو أنهم في حالة حرب. لقد كان
 ذلك كسفاً أتاح لي عجرفة عدم الإيمان بخورخي غامتان؛ فقد أدركتُ
 فجأة، في تلك الليلة، أنه قد تجاوز البلد الذي خلفته إسبانيا، وأنه
 يخترق لغة صريحة للجميع. ليس من خلال ما تعنيه الكلمات بلقر ما
 هو بسبب الهياج الذي يشهده، والدهاء الذي في صوته. لقد كان هو
 نفسه، في خطابه الملتصبة، ينصح مستمعيه بنبرة أوبرية مأكرة. بأن
 يعودوا بسلام إلى بيوتهم، فبترجموا نصيحته بصورة سوية على أنها
 أمر مشفر للإعراب عن رفضهم لكل ما يمثله التفاوت الاجتماعي وسلطة
 الحكومة الجائرة. وحتى رجال الشرطة أنفسهم الذين يتوجب عليهم حفظ
 النظام، كانوا يجدون تهرباً لأنفسهم، من خلال تنبيه يفسرونه معكوساً.

كان موضوع الخطاب في تلك الليلة، سرداً مكشوفاً للأضرار
 والعسائر التي أحدثتها العنف الرسمي، بالانتهاج سياسة الأرض المحروقة
 من أجل تدمير المعارضة الليبرالية، وما أسفرت عنه من عدد لم يحدد
 بعد من القتلى على يد قوات الأمن العام في المناطق الريفية، ولصوص
 سكان قرى بكاملها إلى لاجئين في المدن، دون سقف ودون خبز. وبعد
 تعداد مرعب للاغتصابات وخرق القوانين، بدأ غامتان يرفع صوته، متلذذاً
 بما يقوله كلمة كلمة، جملة جملة، بإعجاز بلاغي مبهرج وصائب. كان
 ثور الجمهور يتزايد على إيقاع صوته. حتى بلغ انفجاراً تنهائياً في
 أجواء المدينة، وهوى عبر الإذاعة في أقصى أركان البلاد.

انفجعت الحشود الفاضلة إلى الشارع، في معركة حامية وشهر
 دامية، وسط تسمع سري من جانب الشرطة. وأظن أنني فهمت أخيراً.
 في تلك الليلة، إحباطات جدي ولحيلات كاميلو توريس وبسنريبر
 الثاقبة. ما غاباني هو أن طلاب الجامعة الوطنية بقوا منقسمين إلى
 لاهريين وعربيين (محافظين). مع وجود حلقات شيوعية. ولكن اللقرة
 التي كان يشقها غامتان في البلاد ثم تتجاوز ذلك، وصلت إلى النزل
 فاهلاً من صدمة تلك الليلة، ووجدت زميلي في الغرفة يقرأ في سريره
 بسلام. كتاباً لأورتيغا أي غابيت، فقلت له:

- لقد جئت متحولاً إلى شخص آخر جديد يا دكتور بهغا. لقد
 عرفت الآن كيف، ولماذا كانت تهدة حروب الكولونيل نيكولاس ماركيز.
 بعد أيام قليلة من ذلك - في السابع من شباط ١٩٤٨ - أقام
 غامتان أول مهرجان سياسي حضرته في حياتي: مسيرة جناد على
 ضحايا العنف الرسمي في البلاد الذين لم يُعرف عندهم، ولقد شارك

فيها أكثر من ستين ألف امرأة ورجل يرتدون ملابس الحفاد، ويرغمون رايات الحزب الحمر، ورايات الحفاد الفيبرالي السوداء. وكان شعار المسيرة الوحيد هو: الصمت المطلق. وقد طبق الشعار ببراعة لا يمكن تصورها، حتى في شرفات المنازل والمكاتب التي شهدت مرورنا عبر الإحدى عشرة كوادرا المزدحمة في الجادة الرئيسية. وكانت هناك إلى جانبي، امرأة تدمع بتريلة من بين أسنانها. فنظر إليها باستغراب وجل يسر بجوارها:

- أرجوك يا سيدتي.

فأصدرت المرأة زفرة أسف، وغرقت وسط بحر الأنشاج الصامتة. ومع ذلك، لأن ما جرحني إلى حالة البكاء هو احتراس المحطات وهي تطل الأرض، وأنفاس الحشود في صمتها الخارق. لقد انضمت إلى المسيرة دون أية فتاة سياسية، بجسدي فضول الصمت. وفجأة داهمني عقدة البكاء المبهمة في جرحي. ذلك الخطاب الذي ألقاه غامبان في ساحة بوليفار، من فوق شرفة دار البلدية، كان صلاة مانحة ذات شحنة انفعالية تبحث على الفشمرة. وعلى خلاف تنبؤات حزمه المشروعة، أنهى خطابه بالشرط الأكثر ملاءمة لشعار المسيرة: ولم يكن هناك أي تصنيف.

هكذا كانت "مسيرة الصمت"، الأكثر إثارة للمشاعر، بين كل المسيرات التي جرت في كولومبيا. الانطباع الذي تبقى من تلك الأهمية التاريخية، بين الناصرين والمعادين، هو أن انتخاب غامبان صار قسراً محتسماً لا يمكن وقفه. وقد كان المحافظون يعرفون ذلك أيضاً، بسبب درجة التلوث التي بلغها العنف في كل أنحاء البلاد. وبسبب شراسة

شرطة النظام ضد الليبرالية العزلاء، وبسبب سياسة الأرض المحروقة، والتعبير الأكثر ضبابية عن حالة البلاد المتربة، عاشه في عطلة نهاية الأسبوع تلك، من حضروا مصارعة الشيران في ميدان المصارعة في بوغوتا، حيث انقض جمهور المدرجات على الحلبة بسخط. وقد استشارته وداعة الثور وعجز المصارع عن الإجهاز عليه. فمزقت الحشود الفاضحة الثور حياً. صحفيون وكتاب كثيرون ممن عاشوا ذلك الوعب أو سمعوا به، فسروا على أنه الماراض الأشد هولاً للفصط الهسجي الذي كان يعتمل في البلاد.

في مناخ التوتر العالي ذلك، افتتح في بوغوتا المؤتمر التاسع لعموم أميركا، في الثلاثين من آذار، الساعة الرابعة والنصف مساءً. كان له جري مهدد شباب المدينة بكلفة باهظة، وبالرؤية الجمالية الباذخة لوزير الخارجية لاوريانو غوميث الذي كان، بحكم منصبه، رئيساً للمطار، وحضره وزراء خارجية جميع بلدان أمريكا اللاتينية، وشخصيات بارزة من ذلك الزمن. وكان جميع السياسيين الكولومبيين البارزين ضيوف شرف، باستثناء وحيد وذو مغزى محوري إلى البسم غامبان، إذ ألغيت دعوته. دون ريب، بالفيتور ذي المغزى الكبير الذي فرضه لاوريانو غوميث، وربما بعض القادة الليبراليين أيضاً، ممن كانوا يكرهونه لمهاجسته الأوليفارشية في كلا الحزبين. أما نجم القطب في المؤتمر فكان الجنرال جورج مارشال، مندوب الولايات المتحدة والبطل الأكبر للحرب العالمية الثانية حديثاً، والمناق كفتان سيناتي ميه في قيادته إعادة إعمار أوروبا التي دمرتها الحرب.

ومع ذلك، فقد كان شيوخ غامبان هو رجل اليوم، في

الأخبار، في ذلك التاسع من نيسان، لأنه توصل إلى إصدار حكم بتبرئة الملازم خيسوس ماريا كورتيس بويبا، المتهم بقتل الصحفي إدواردو غالارثا أوسا. كان قد وصل ممثلاً بالنشوة إلى مكتبه كمحام، في التقاطع المزدهر للشارع السابع مع جادة خيميت كيسادا، قبل الساعة الثامنة صباحاً بقليل، على الرغم من أنه كان قد بقي في المعاكسة حتى الفجر. وكانت لديه مواعيد عديدة للساعات التالية، ولكنه تقبل فوراً، الدعوة إلى الغداء التي وجهها إليه بلينيو ميندوتا نهرًا، قبل الساعة الواحدة بقليل، مع ستة أصدقاء، شخصيين وسياسيين، ذهبوا إلى مكتبه لتهنئته بالفوز الخامس الذي لم تتمكن صحف ذلك اليوم من نشره. وكان بينهم طبيبها الخاص، بيدرو إليسر كروث، وهو في الوقت نفسه أحد أفراد بطانته السياسية.

في ذلك الجو المنوتر، جُلسَ لتناول الغداء في قاعة الطعام، في المنزل الذي أعيش فيه، على بعد أقل من ثلاث كوادرات. لم يكن الحساء قد قدم إليّ بعد، عندما وقف ويلفريدو ماتيو أمام المنضدة، وقال لي:

- لقد تفوزت هذه البلاد! لقد قتلوا للنور غايتان، قبالة الفط الأسود.

كان ماتيو طالب طب وجراحة مثلياً، يتحدر من سريري مثل نزال. آخرين لي النزل، ويعاني من نوبات مشدودة. وقد أخبرنا أقل من أسبوع، بأشد نيراته هولاً وأقربها إلى الحدوث، بسبب عواصفها المدمرة، وهي احتمال أن يجري اغتيال خورخي إليسر غايتان. غير أن ذلك ما كان يحدث أحدًا، لأنه لم تكن هناك حاجة إلى التبرعات من أجل توقع حدوثه.

استجمعت أنفاسي بصعوبة لأجهاز، بأقصى سرعة، جادة خيميت دي كيسادا، طائرًا، ووصلت متقطع الأنفاس، قبالة مقهى الفط الأسود، عند ناحية التقاطع مع الشارع السابع تقريباً. كانوا قد نقلوا الجريح للنور، إلى المستشفى المركزي، على بعد حوالي أربع كوادرات من المكان، وكان لا يزال حياً إنما دون أمل بالنجاة. وكانت هناك جماعة من الرجال يغمسون مناديلهم في بركة الدم الباقى، ليعتقلوا بها كائنات تاريخي، وزمجرت امرأة تضع منديلًا أسود وتسنعل صندلاً، كانت بين النساء اللواتي يهنّ أشياء رخيصة في ذلك المكان، وهي ترفع المنديل الدامي:

- لقد قتله أينا، العاهرة!

حاولت زعر ماسحي الأحذية، المسلحين بهندابهم الخشبية، أن يحفظوا الستارة المعدنية لصبولية "توبيا غرانادا"، حيث كان عدو قتل من رجال الشرطة قد احتجزوا المعتدي، لحمايته من الجمرع المتأججة لمضاً. وكان هناك رجل طويل القامة، شديد الثقة بنفسه، يرتدي بدلة رمادية ممتلئة، كما لو أنه في حفل زفاف، يعرض الجمرع بصعرات محسوبة جيداً. وقد كان لصرخاته مفعولها، مما اضطر صاحب الصبيلية إلى رفع ستارة الباب المعدنية، خوفاً من أن يقدموا على إراقها. أما المعتدي، فقد نهض هلعاً، في مواجهة الحشد الغاضب الذي اندفع باتجاهه، فتشبث بأحد رجال الشرطة، وهو ينزول دون صوت تقريباً:

- لا تدعهم يقتلونني أيها الشرطي.

لن أستطيع نسيانه إلى الأبد. كان شعره مشعثاً، وذقنه لم يخلق منذ يومين، يغطي وجهه شعوب الموت، وعينه جاحظتان من الرعب.

وكان يرتدي بدلة جرح بنية مستخدمة طويلاً. ذات خطوط رأسية، وقد تمزقت ياليتها مع أول أعماله شدة ولجاذب الجسوع له. كانت رؤية خاطفة وأهدية. لأن ماسحي الأضحية انتزعوه من الشرطة بضربات صناديقهم، وأجهزوا عليه وكلاً بالأتدام. ومنذ تعثره الأول، فقد إحدى خردتي حذاته. صرخ الرجل ذو البقلة الرمادية الذي لم تحدد هويته قط:

- إلى القصر! إلى القصر!

انصاع له أسد الثامن اندفاعاً. أمسكوا جسد القتال الدامي وسجلوه في الشارع السابع، بالمها، ساحة بوليفار. بين آخر حافلات الترام التي عرقل الحمر مسيرها، مطلقين سباب وشتم الحرب ضد الحكومة. ومن الأرصفة والشرافات، كانوا يحشونهم بالصرخيات والتعليق، بينما الجثة المزعقة بالضرب، تخلف نغماً من الملابس والجسد على حجارة الشارع. انضم كثيرون إلى المسيرة، وخلال اجتياز أقل من ست كوادرات، حارته أشبه بانفجار حرب في اتساع جسمها وقوتها. ولم يبق على الجسد المزعج سوى سرواله الداخلي وفرده من الحقا.

أما ساحة بوليفار التي أعيد تصميمها حديثاً، فلم تكن لها مهابة وجلال أيام الجمعية التاريخية الأخرى. فالأشجار جردت من ملائكتها، ونصبت التماثيل اللفظة المعبرة عن الجماليات الرسمية الجديدة. وفي مبنى الكابيتول الوطني (البرلمان)، حيث أقيم قبل عشرة أيام، مؤتمر عموم أمريكا، كان المندوبون قد غادروا لتناول الغداء. وهكذا وأصلت الجسوع مسيرها حتى قصر الرئاسة، وكان أيضاً بلا حراسة. وهناك تركوا ما تبقى من الجثة التي لم يعد عليها من الملابس، سوى مزق من السروال الداخلي وفرده الحذاء اليسرى ويطشى عنق لا تفهم لهما، معقودتين

عند العنق. بعد دقائق، وصل رئيس الجمهورية مازيانو أوسينا بيريت وزوجته لتناول الغداء. بعد أن انتحرا معرضاً للثروة الرعوية والمناشبة في بلدة إنشائيفيا، وكانا يجهلان حتى تلك اللحظة، خبر الاغتيال، لأن جهاز المذيع في البارة الرئيسية، كان مطأ.

بقيت في مكان الجريمة حوالي عشر دقائق أخرى، مذهولاً من السرعة التي تبدل فيها روايات الشهود، شكلاً ومضموناً، إلى أن تفقد أي تشابه لها مع الواقع. كنا في تقاطع جادة خبميتيت والشارع السابع، في الوقت الذي بلغ فيه مجمع الناس ذروته، على بعد خمسين خطوة من صحيفة التيمبو. وهرطنا عندئذ أن من كانوا برالفون غابيتان، عند خروجه من مكتبه، هم بهدرو إليسير كروت، واليهاندر بايخو، وخورخي باديا، وبيلينو ميندوتا نيبيرا، وزير الحرب في حكومة ألفونسو لويث بوماريخو الأولى. وكان هذا الأخير هو من دهامهم إلى الغداء. لقد خرج غابيتان من البناء الذي يوجد فيه مكتبه، دون أي نوع من الحراسة، وسط جماعة متراصة من الأصدف. وما إن بلغوا الرصيف، حتى أمسكه ميندوتا عن ذراعه، وتقدم به خطوة عن الآخرين، وقال له:

- ما أريد أن أقوله لك، هو أمر تاله.

لم يستطع قول المزيد. فقد غطى غابيتان وجهه بذراعه، وسمع ميندوتا المظلة الأولى قبل أن يرى في مواجهتهم الرجل الذي سدد مسحه، وأطلق النار ثلاث مرات على رأس الزعيم، ببرود أعصاب قاتل محترف. بعد لحظة من ذلك، كان هناك حديث عن طفلة رابعة أطلقت دون انجها، وربما عن خامسة أيضاً.

بيلينو بوليو ميندوتا الذي وصل مع أبيه وأخته، إلفيرا وروسا

إنيس، تمكن من رؤية غايثان مطروحاً على ظهره على الرصيف، قبل دقيقة واحدة من نقله إلى المستشفى. وقد أخبرني بعد سنوات من ذلك: "لم يكن يبدو ميتاً. كان أشبه بتمثال مهيب يمد على ظهره فوق الرصيف، بجوار بقعه دم صغيرة، ومخزن عظيم في عينيه المفتوحة والثابتين." في لحظات الاضطراب تلك، فكرت أخيراً في أن أباهما قد مات أيضاً، وكنا ذاهبتين إلى حد أن بيلينور أبولير صعد بهما إلى أول ترام مر من هناك، ليهدهما عن المكان، لكن السائق أدرك ما حدث بالكامل، فألقى بهما على الأرض، وغادر الترام في وسط الشارع، لينضم إلى صرخات النرد الأولى. بعد دقائق كان ذلك الترام هو الأول الذي قلبته الحشود التي أصابها الجنون.

كانت هناك خلاقات لا حل لها، حول عدد المشاركين في الاختبار وأدوارهم. فقد أكد أحد الشهود أنهم كانوا ثلاثة، وتوالوا على إطلاق النار، وقال آخر إن القتلى الحقيقيين لد اندس بين الجموع الهائجة، وصعد دون تسرع إلى ترام سائر، ولم يكن ما أراد حينئذ نسيراً طلبه من غايثان، عندما اقتاده من ذراعه. أي شيء من الأشياء الكثيرة التي قبلت منذ ذلك الحين؛ وإغماً أراد إبلاغه بمخه الموافقة على إنشاء معهد لإعداد القادة التفاهيين. أو "مدرسة لتعليم السائقين الفلسفة"، مثلما سخر منه حصوه قبل أيام من ذلك، ولكنه لم يتمكن من قول ذلك له، عندما دوت أمامهما الرصاصة الأولى.

بعد مرور خمسين سنة، ما زالت راسخة في ذاكرتي. صورة الرجل الذي بدا أنه يحرص الناس أمام الصبابة، ولم أعثر عليه في أي واحدة من الشهادات الكثيرة التي قرأتها عن ذلك اليوم. لقد رأيتُه عن قريب،

بجلباس من اللينون الفاخر، وبشرة من المرمر، وسيطرة محكمة على تصرفاته. وقد لفت انتباهي إلى حد بقيت معه أتابعه إلى أن التقطته سيارة جديدة تماماً قرر سحل جثة الغائل. ومنذ تلك اللحظة، بدأ محموراً من الذاكرة التاريخية، وحتى من ذاكرتي، إلى ما بعد سنوات طويلة، في أزمة عملي كصحفي، حين داهمتني فجأة فكرة أن ذلك الرجل قد تمكن من دفع المجموع إلى قتل قاتل مزيف ليخفي هوية القاتل الحقيقي.

وقد كان وسط تلك الفوضى المتفككة من عيالها، البائد الطلابي الكومي فيديل كاسترو، قس العشرين من عمره، غشياً عن جامعة هافانا إلى مؤثر طلابي، انتقد كرد ديمقراطي على مؤثر عموم أمريكا. كان قد حضر قبل حوالي سنة أيام، برفقة ألفريدو غيفارا، وإرنكي أوجاريس، ورفائيل دل بيزو - وهم طلاب جامعيون كرسبون مثله - وكانت إحدى مساعيه الأولى، طلب موعد للقاء مع خورخي البشير غايثان، وكان مصعباً به. بعد يومين من وصوله، التقى كاسترو بغايثان، وحدث له هذا الأخير موعداً لمقابلته يوم الجمعة التالي. وقد سجل غايثان، شخصياً، هذا الموعد في مفكرة مكتبه، في الصفحة الموافقة ليوم التاسع من نيسان: "كيبل كاسترو، في الثانية بعد الظهر".

وفق ما قاله فيدل نفسه لوسائل إعلام عديدة، وفي مناسبات مختلفة، وفي استعدتنا معاً، مرات لا حصر لها، لتلك الأحداث على امتداد صداقتنا القديمة، فقد سمع بأول خبر عن الجريمة، بينما كان يتجول قريباً من المكان، لكي لا يتخلف عن مرعده في الساعة الثانية. وفجأة بهتة أول الجماعات التي كانت تركز غاضبة، ومظلة الصحبة العامة:

- لقد قتلوا غايثان!

لم ينتبه فيديل كاسترو، إلا في ما بعد، إلى أنه ما كان يمكن له إلهام موعده، بأي حال من الأحوال، قبل الساعة الرابعة أو الخامسة، بسبب دعوة الغداء الطارئة التي قدمها سينثونا نييرا لقائتان.

لم يكن هناك متسع لأي شخص آخر في موقع الجريمة. فقد كانت حركة المرور متوقفة، وعربات الترام مقلوبة، فتوجهت إلى النزول لأتقي غداي، عندما اعترض طريقي أستاذي كارلوس هـ. باروخا أمام باب مكتبه، وسألني إلى أين أنا ذاهب. فقلت له:

- إنني ذاهب لتناول الغداء..

فقال بطلاقة الكلاسيكية المتعادلة:

- يا للجنة! كيف يخطر لك تناول الغداء.. وقد استولوا تسوهم

غدايان؟

ودون أن يتحني وقتا للقول أي شيء آخر، أمرني بأن أذهب إلى الجامعة، وأن ألق على رأس حركة الاحتجاج الطلابي. الغرب أنني انصرفت له على خلاف طبيعتي. واصلت مسيري عبر الشارع السامع بالجهة الشمال، وهو عكس اتجاه الحشد الذي كان يترافق نحو الناصبة التي ولعت فيها الجريمة، بغضول وألم وغضب. كانت حافلات الجامعة الوطنية، بقودها طلاب هائجون، تتقدم المسيرة. وفي حديقة سانتاندير، على بعد ستة متر من ناصبة الجريمة، كان الموظفون يفلقون بأقصى سرعة بوابات فندق غرانادا - أفخم فنادق المدينة -، حيث كان يتزل في تلك الأيام بعض وزراء الخارجية وضيوف مؤتمر عموم أمريكا.

واحت جمهرة جديدة أخرى من الفقراء، تبرز من كل النواصي، في وضع قتالي. كثيرون منهم جاؤوا مسلحين يتناجل مشيتي سرقت للتو.

في أول هجصات على المناجر. وكانت تبدو عليهم الكهفة إلى استغفامها. لم تكن لدي ولية واضحة لتنتائج الاحتمال المحتملة؛ وواصلت طريقي مفكراً في الغداء، أكثر من تفكيري في الاحتجاج. وهكذا رجعت ثانية باتجاه النزول. صعدت الدرج قفزاً وأنا واثق من أن أصدقائي المسيين يقفون على أبهة الحرب. لكن الأمر لم يكن كذلك. فقد كانت قاعة الطعام لا تزال مغلقة، وكان أخي وخوسيه بالنتشا - اللذان يقيمان في الغرفة المجاورة - بخيان مع أصدقاء آخرين في غرفة النوم. فصرخت بهم:

- لقد قتلوا غدايان!

أومؤوا إلي بأنهم يعرفون ذلك. ولكن مزاجهم جميعاً كان أقرب إلى الانفعال منه إلى المأثية، ولم يقطعوا غناهم. بعد ذلك جلستنا لتناول الغداء في قاعة الطعام الخاوية، مقتنعين بأن الأمر لن يتجاوز الحد الذي بلغه. إلى أن رفع أحدهم صوت المذباح لسمعهم غير المهالين، وأكد كارلوس هـ. باروخا. عبر المذباح، على ما كان قد نهني إليه قبل ساعات؛ فأعلن أنه جرى تشكيل مجلس حكومي ثوري مكون من أبرز ليبراليي اليسار. وعلم الكاتب والسياسي الأوسع شهرة، خورخي نالامبيا. وكان أول انصاف توصل المجلس إليه هو تشكيل اللجنة التنفيذية، وقيادة الشرطة الوطنية وكل الأجهزة اللازمة للدولة الثورية. ثم تحدث بعد ذلك أعضاء اللجنة الآخرون بشعارات أكثر فأكثر قنادياً.

كان أول ما خطر لي، في وقار المهرجان، هو ما الذي يمكن لأي أن يفكر فيه عندما يعلم، وهو المحافظ الصلب، أن ابن عمه هو الزعيم الأحمر لشورة اليسار المتطرف، فوجفت صاحبة النزول، حبال كشرة أسماء

الأساتذة الجامعيين، ورأت أنهم لا يحصرون كأساتذة، وإنما كطلاب
سيولي التربية، كان يكفى تجاوز رقمين على مؤشر المذيع، ليجد أذننا
نفسه في بلد مختلف. ففي الإذاعة الوطنية، كان دعاة الليبرالية يدعون
إلى الهدوء، وفي إذاعات أخرى يحرضون ضد الشيوعيين الموالين
لوسكو، بينما كبار زعماء الليبرالية الرسمية يتحدثون أخطار الشوارع
التي في حالة حرب، محاولين الوصول إلى القصر الرئاسي ليعتقدوا
على تسوية وحدة مع الحكومة المحافظة.

بقينا حائرين من تلك الهيلة المتوترة إلى أن صرخ ابن صاحبة
النزل، فجأة، بأن البيت يحترق. وبالفعل، كانت قد انفتح شق في الجدار
الرخامي في أقصى البناء، وبدأ دخان أسود كثيف يخلل هواه، تحرف
الضوء. لا شك أنه كان يأتي من مبنى الإدارة الحكومية - المجاور للنزل -
الذي أحرقه المتظاهرون. ولكن الجدار بدا قريباً بما يكفى للصدور. وهكذا
نزلنا الدرج كالمزقنين، ووجدنا أنفسنا وسط مدينة في حالة حرب. كان
المهاجمون المدفعون يلقون من نوافذ المبنى الحكومي، كل ما يجنونه في
المكاتب. وكان دخان الحرائق يهبط في الهواء، وبدأت السماء المكففرة
بالدخان كأنها غطاء مشؤوم. بينما كانت الشرافم الفاضية، المملعة
بتناجل الشمسيتي وكل أنواع الأدوات المسروقة من محلات المخدرات،
تنفض على مقابر الشارع السامع والشوارع المتجاورة، وتضرم فيها
النار، بمساعدة رجال الشرطة المتبردين. وكانت نظرة أتية واحدة، كغاية
لندرك أن الوضع قد خرج عن السيطرة، وسبق أخى تمكيري، مطلقاً
صرخة:

- يا للجنة! الآلة الكاتبة.

ركضنا باتجاه بيت الرهنات الذي ما زال سليماً، وبابته ذات
التضيقان الحديدية محكمة الإغلاق. ولكن الآلة الكاتبة لم تكن في
المكان الذي كانت فيه دائماً، لم نلق، وفكرنا في أنه يمكننا استعادتها
في الأيام التالية، دون أن يدور في خلدنا أنه لن نكون هناك، بعد تلك
الكارثة الفظيعة، أمة أيام تالية.

اكتفت حامية بوشوتا العسكرية بحماية المراكز الرسمية والمصارف،
وفي الأضواء العامة على عائق لا أحد. تحصن عدد كبير من كبار قادة
الشرطة في مقر الفرقة الخامسة، منذ الساعات الأولى، وخلق بهم الكثير
من رجال شرطة الشوارع، مع شحات أسلحة جمعوها من الطرق. وقد
أطلق بعضهم، وكانوا يضحون بحسابة المتمردين الحسراء، على أذرعهم،
زخات من رصاص يتألفهم لربما منا؛ فأحسست بها تدري في صدري،
ومنذ ذلك الحين صرت على قناعة بأنه يمكن للبندقية أن تقتل بالدهوي
وحده.

لدى رجوعنا من بيت الرهنات، رأينا اجتياح وتدمير متاجر الشارع
التامن في دقائق. وكانت تلك هي أغنى المتاجر في المدينة. المجوهرات
الثمينة، والأجواخ الإنكليزية، وقبعات بوند صفرت التي كنا، نحن
الطلبة الساحلين، ننظر إليها بإعجاب في واجهات المتاجر الجميدة عن
متناولنا، صارت جميعها حينذاك، في تناول يد الجميع، أمام الجنود
غير المهالين الذين يحرسون المصارف الأجنبية. وكان مقهى سان مارينو
الراقي، حيث لم نستطع الدخول قط، مفتوحاً ومخرباً. ولأول مرة دون
البوابين ذوي السموكينغ الذين كانوا يبادرون إلى منع الطلاب الكاربيين
من الدخول.

بعض من كانوا يخرجون محملين بالملابس الفاخرة، وفائف أمتعة الجوخ الكبيرة على أكتافهم، لا يلتفتون أن يتركوها في الشارع. التقطت واحدة منها، دون أن يخطر لي أنها ثقيلة إلى ذلك الحد، واضطرت إلى التخلي عنها بالرغم من ألم روعي، كنا نتمتع في كل مكان، بأجهزة منزلية معلقة في الشارع، ولم يكن من السهل المشي بين زجاجات ويسكي من أفسر الأصفاف، وكل أنواع المشروبات الفسبة التي كان المصروع يذبحها بضربات المشيتي. وجد أخي لويس إنريكي وخوسيه بالينغا ما بقي من نهب أحد متاجر الثياب الجديدة، وكانت بينها بدلة زرقاء، مساوية من لحاف جيد جداً، ومناسبة تماماً لقماس والذي الذي استخدمها طوال سنوات في المناسبات المهمة. أما غبشتي الوحيدة التي وفرتها لي العناية الإلهية، فكانت حافظة أوراق من جلد البقر، وحدثها في أغلى قاعة شاي في المدينة. وقد أفادتني في حمل مخطوطاتي تحت إبطي، خلال لبالي السنوات التالية الطويلة التي لم أكن أجد فيها مكاناً أنام فيه.

كنت أمضي مع جماعة تنشق طريقها في الشارع الثامن، متوجهة إلى الكابسينولير. عندما كنت زخة من وصاص رشاش، أدركت من أطلوا على ساحة بوليفار، القتلى والجرحى الذين سقطوا فوراً مشكورين في متحف الشارع، جعلونا نتوقف فجأة. خرج زاحياً من ذلك الكوم، محتضراً مضرج بالدماء، وأمسك بساق بنطالي. وصرخ بمرسل مؤثر يرق القلب:

«حياً بالرب أبها الشاب، لا تتركني أمتا

هربت خائفاً. ومنذ ذلك الحين تعلمت تسيان أحوال أخرى، خاصة بي أو بالأحرى؛ ولكنني لن أنسى أبداً خذلان نيك العيين في وعرني

المرائق. ومع ذلك، ما زال يفاخني أنني لم أفكر لحظة واحدة، أنه كان يمكن لنا، أنا وأخي، أن نغوت في ذلك المجمع الذي تداخلت فيه المواقف. كان المظر قد بدأ بالهطول متقطعاً، منذ الساعة الثالثة بعد الظهر. ولكنه انفلت بعد الخامسة في وابل ثوراتي أطفأ الكثير من المرائق الصغرى، وخلف من حدة اندفاع التمرد. عمدت حماية بوعوتا ضئيلة العدد إلى تفكيكه غضب الشوارع، لمعجزها عن مواجهته، ولم يتم نصيرها إلى ما بعد منتصف الليل. بقوات طوارئ من الحفاطعات المجاورة، وخاصة من بويكا، ذات السمعة السيئة، باعتبارها مدرسة العنف الرسمي. وكانت الإذاعة حتى ذلك الحين تحت والحض، ولكنها لا تقدم أخباراً. ولهذا لم يكن هناك منشأ أصلي لأي تبا، وكان من المستحيل معرفة الحقيقة. عند الفجر، استعادت القوات التي أحضرت حديثاً، السيطرة على المركز التجاري الذي دمرته المصروع، ولم يبق فيه وسيلة إنارة سوى المرائق، ولكن المارعة المسببة تواصلت لعدة أيام بعد ذلك، مع وجود قتلى متمردين في الأبراج وعلى الأسطح، أما عدد القتلى في تلك الساعة، فكان لا يحصى.

عندما رجعنا إلى المنزل، كانت السنة الذهب تتصاعد من معظم أجزاء مركز المدينة. وكانت هناك حافلات ترام ملوثة، وأنقاض سيارات تستخدم كسنايس عارضة، دبنا في حقيبة، أشباحا الفيلة التي تستحق أن يحمل، ولم أنتبه إلا في ما بعد، إلى أنه بقيت لي هناك مسودة فصتين أو ثلاث قصص قصيرة غير منشورة، ومجمع الجد الذي لم أسترد قط، وكشفت دوجين ليرسبر الذي تلقينه كمكافأة، في سنة دراستي الثانوية الأولى.

الشيء الوحيد الذي خطر لنا، أننا وأخي، هو طلب اللجوء في بيت
الحال خوانيتو، وكان لا يبعد سوى أربع كوادرات عن المنزل. في شقة
طابق ثامن، مؤلفة من صالة، وغرفة طعام وحجرتي نوم، حيث يعيش
الحال مع زوجته وأبنائه إدواردو، ومارغريتا، ونيكولاس. وكان أكبرهم
قد أمضى بعض الوقت معي في المنزل. كان المكان يكاد لا يتسع، إلا
أن آل ماركيز كامبيرو كانوا طبيين إلى حد أنهم ارغفوا أماكن حيث لا
مكان، حتى في غرفة الطعام. ليس لنا حطب، وإنما كذلك للعديد من
أصدقائنا وزملائنا في المنزل: خوسيه بالينسيا، دومينغو ماترول بيجا،
كارميلو مارتينيث - جميعهم من سوكري - وآخرون كنا لا نكاد
نعرفهم.

الليل منتصف الليل بقليل. عندما تولف المطر، صعدنا إلى السطح
لنشاهد المنظر الجماعي للمدينة المصانة بقايا الحرائق. بدا جبلا مونسرات
وغوادالوبي في أقصى المشهد. مثل كثفي ظلال على خلفية السماء
الغائمة بالدخان. ولكن الشيء الوحيد الذي كنت ما أزال أراه في الفضاء
الكثيب هو الوجه الهائل للمسحضر الذي زحف نحوي ليتوسل مساعدة
مستحيلة. كانت عمليات الصيد الشوارع قد تقلصت، ولم يعد يُسمع
في الصمت الرهيب، سوى صوت طلقات متفرقة من القناصين الكثيرين
المنتشدين في كل أنحاء مركز المدينة. وجبة اللقوات التي تصفي شيئاً
فشيئاً بقايا المقاومة المسلحة أو المزلا، للسيطرة على المدينة. وقد
أعرب الحال خوانيتو، المتأثر بشده الموت، في زقرة واحدة عن مشاعر
الجميع:

- رباء، يبدو هذا أشبه بحلم

لدى الرجوع إلى الصالة الممتلئة، انهضت على الأريكة. كانت
النشرات الرسمية من الإذاعات التي احتلتها الحكومة، ترسم بانوراما
عودة تدريجية إلى الهدوء. لم تعد هناك خطابات، ولكن لم يكن ممكناً
التحيز بدقة بين الإذاعات الرسمية، وتلك التي ما زالت تحت سيطرة
المنردين. وحتى هذه الأخيرة، كان من المستحيل تمييزها وسط وابل يردد
الساحرات الجارح. قيل إن كل السفارات تقص باللاجئين، وإن الجنرال
جورج مارشال يقيم في سفارة الولايات المتحدة. تحت حماية حرس شرب
من المدرسة العسكرية. وقد التجأ لاوريانو غوميث كذلك إلى السفارة
نفسها. منذ الساعات الأولى، وأجري من هناك اتصالات هاتفية مع
رئيسه، محاولاً المبلولة دون دخول الرئيس في مفاوضات مع
البرالين، في ظل وضع يتلاعب به، حسب رأيه، الشبهوعيون. أما
الرئيس السابق ألبيرتو بيرام، وهو يومذاك أمين عام اتحاد عموم
أمريكا، فقد لجأ بحياته بأعجوبة. حين تم التعرف عليه وهو في سيارته
غير المصفحة، عندما غادر مبنى الكابيتوليو، وحاولوا أن يجبروه على
الموافقة على تنازل المعارضين عن السلطة وتسليمها بصورة شرعية. وعند
منتصف الليل كان معظم المنردين المشاركين في مؤتم عموم أمريكا، قد
صاروا في أماكن آمنة.

وسط الأخبار الكثيرة، أعلن أن غييرمو ليون بالينسيا، ابن الشاعر
الذي يحمل الاسم نفسه، قد رجم بالحجارة حتى الموت، وأن جسده معلقة
في ساحة بوليفار. ولكن فكرة أن الحكومة تسيطر على الوضع، بدأت
تنضح عندما راح الجيش يستعيد محطات البث الإذاعي التي سيطر
عليها المنردون. وبدلاً من صرخات الحرب، صارت الأخبار ترمي عنقده

إلى طمأننة البلاد بعبء أن الحكومة هي سيادة الموقف، بينما كانت القيادات الليبرالية العليا تتفاوض مع وتبني الجمهورية على نصف السلطة.

الحقيقة أن الوحيد الذين بدأ أنهم يعطون بعض سياسي هم الشيوعيون. وكانوا قلة ومتحمسين، فقد خرجوا إلى الشوارع وسط القروض، لوجهوا المشرد - مثل شرطة المرور - ويقودوها نحو مراكز السلطة. أما الليبرالية بالمقابل، فكتشفت انقسامها إلى النصفين الذين ندد بهما غايتان في حملته الانتخابية: القادة الذين يتفاوضون على حصص من السلطة مع القصر الرئاسي، وجمهور منتخبهم الذين خاضوا المقاومة، كليهما استنظروا وإلى حيث استطاعوا، من فرق الأبراج والأسطح.

أول الشكوك التي برزت في شأن مقتل غايتان، كانت حول حية قاتله. وليست هناك، حتى يومنا هذا، قناعة إجماعية بأن القاتل هو خوان روا سييرا. رجل المسلسل المنفرد الذي أطلق النار عليه بين المشو في الشارع السايغ. وما يصعب فهمه هو أن يكون قد تصرف من تلقاء نفسه، مادام يبدو بلا ثقافة ذاتية فكمكنه من اتخاذ قرار تلك المنة المدمرة، في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وفي ذلك المكان، وبذلك الطريقة نفسها، أنه إنكارنايون سييرا. أرملة روا، وكانت آنذاك في الثانية والخمسين من عمرها، علمت من الإذاعة بمقتل غايتان، بطلها السياسي. وكانت تصيح أفضل ثوب لديها بالأسرة من أجل الحفاد. ولم تكن قد انتهت من عمل ذلك، عندما سمعت بأن القاتل هو خوان روا سييرا، الابن الثالث عشر بين أبنائها الأربعة عشر. لم يكن أي واحد

منهم قد تخطى المدرسة الابتدائية، وأربعة منهم - طفلان وطفلتان - ماتوا مبكراً.

وقد صرحت بأنها لاحظت، منذ حوالي ثمانية أشهر، تبدلاً غريباً في مشوك خوان. كان يتكلم وحيداً، ويضحك دون سبب. وفي إحدى المرات اعترف للأمرأة باعتقاده بأنه يجسده للجنرال فرانسيكو دي باولا سانتاندير، بطل استقلالنا. ولكنهم ظنوا أنها مجرد دعاية سكير سيئة. لم يخطر لها قط أنه يمكن لابنها أن يسي. إلى أحد. وكان قد توصل إلى الحصول على توصيات من أبنائهم يستمعون ببعض التفوق، من أجل الحصول على وظيفة، وكان يحمل واحدة من تلك التوصيات في محفظته، عندما قتل غايتان، وقبل ستة شهور من ذلك، كتب رسالة بخط يده إلى الرئيس أوسيبو بيريث، يلتزم فيها أن يقابله لطلب منه توفير عمل له.

أعلنت الأم للصحفيين أن ابنها قد طرح مشكلته على غايتان شخصية كذلك، ولكن هذا لم يمنعه أي أمل، لم يعرف عنه أنه أطلق النار من سلاح في حياته، ولكن الطريقة التي استخدم به سلاح الجريمة، كانت أبعد ما تكون عن مبتدئ. فقد كان المدس من عيار ٨٣، طويلاً، قديماً ومستهلِكاً، إلى حد أن عدم انحراف أي طلقة عن هدفها، بدا مشيراً للدهشة.

أعرب بعض مؤلفي الميث عن اعتقادهم بأنهم رأوه، عشيبة الاغتيال، في الطابق الذي توجد فيه مكاتب غايتان. وأكد اليوايه، دون أي مجال للشك، بأنه رأى صباح التاسع من نيسان مصعد السلام، ثم ينزل بعد ذلك في المصعد مع شخص مجهول. وهذا له أن كليهما له

انتظروا عدة ساعات بالقرب من مدخل البيت، ولكن رءا كان وحيثاً إلى جانب البوابة، عندما صعد غايتان إلى مكتبه، قبل الساعة الحادية عشرة بقليل.

غابرييل روستريجو، وهو صحفي في جريدة لاخرونابا - صحيفة حملة غايتان الانتخابية -، وضع قائمة بالوثائق الشخصية التي كان رءا سبيرا يحملها عند اقتراف الجريمة. وهي لا تترك مجالاً للشك حول هويته ووضعه الاجتماعي. فقد كان في جيوب بنطاله، اثنان وثمانون سنتافو على شكل قطع معدنية مختلفة، في الوقت الذي كانت فيه أُنشما - كتهرة، من مستلزمات الحياة اليومية، تكلف خمسة سنتافو، وكان يحمل في جيب سترته الداخلي، محفظة من جلد أسود، فيها ورقة نقدية من لنة البيزو الواحد. وكان يحمل كذلك، شهادة تؤكد حسن سيرته، وأخرى من الشرطة تشير إلى أنه بلا سوابق جنائية، ووثيقة تالفة عليها عنوانه في حي الفلورا الذي يسكنه، الشارع الثامن، الرقم ٣٠-٧٣. وحسب دفتر الخدمة العسكرية، كاحتياطي من الدرجة الثانية، الذي كان يحصله في الجيب نفسه، فهدر ابن رافائيل رءا وإنكارثانيون سييرا. وقد ولد قبل إحدى وعشرين سنة من ذلك؛ في الرابع من تشرين الثاني ١٩٢١. كل شيء كان يبدو عادياً، اللهم إلا كونه رجلاً ذا وضع بائس ودون سوابق جنائية، يحمل معه كل تلك الأدلة على حسن سيرته وسلوكه. ومع ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي خلف لدي أثرًا من الشك، ثم استطع لعباوزه أبناً، هو الرجل التائق ذو الملابس الجيدة الذي حرص عليه الشراذم الغاضبة، ثم اختفى إلى الأبد، في مبارقة فضة.

وسط جلبة المساة، بينما كان يجري تحييط جنمان الزعيم المقتول،

اجتمعت قيادة الليبراليين في قاعة الطعام، في المستشفى المركزي، للاتفاق على صيغ طوارئ. وكانت أكثر تلك الصيغ إلحاحاً، هي التوجه إلى القصر الرئاسي، دون طلب مسبق، لمناقشة رئيس الدولة في صيغة طوارئ يمكن لها أن تدوأ خطر الكارثة التي تهدد البلاد. هذا عطلو المطر قبل الساعة التاسعة بقليل، وشق أول المتدوين الليبراليين طريقهم كيفما استطاعوا. عبر الشوارع التي حولتها الثورة الشعبية إلى أنقاض، وبين الجثث التي اخترقها رصاص القناصين الطائش من الشرفات والأسطع.

مع نهاية المساء كان الرئيس قد فقد الاتصال مع أشد الأماكن حرجاً وخطورة. وكان يحاول مع قيادة عسكريين ووزراء، وراء أبواب مغلقة، تقرير وضع الأمة. أخذته ليرة القادة الليبراليين على حين غرة، قبل الساعة العاشرة ليلاً. ولم يشأ أن يقابلهم دفعة واحدة، وإنما كل اثنين منهم على حدة. ولكنهم صمموا أن آباء منهم لن يدخل بتلك الطريقة، فتنازل الرئيس، ولكن الليبراليين رأوا في الأمر مهزلة للناس.

وجدوه جائساً على رأس منضدة اجتماعات طويلة، بعدة لا تشوبها شائبة، ودون أدنى ملمح من المزج. وكان الشيء الوحيد الذي يشي ببعض التوتر، هو طريقته المتواصلة والشرهة، في التدخين؛ فكان في بعض الأحيان يطفئ السجارة وهي في منتصفها، لكي يشمل واحدة أخرى. وقد أخبرني أحد الزائرين بعد سنوات من ذلك، عن الواقع الذي خلقه في نفسه وميض المرائق المتعالية، وراء رأس الرئيس الغضبي غير المبالي. فقد كان جمر الانقراض تحت السماء المنتهية، يلمح من خلال واجهات المكتب الرئاسي الزجاجية الكبيرة، ممثلاً حتى أطراف الدنيا.

ما هو معروف عن ذلك الاجتماع، ندين به للقليل الذي رواه أبطانه،

واعترافات بعضهم السرية النادرة، وتخييلات آخرين الكثيرة، وإلى إعادة تركيب فئات ما جرى في تلك الأيام المشؤومة، على يد الشاعر والمؤرخ أرتورو ألابي، وهو الذي أتاح إلى حد كبير، قياسي هذه المذكرات.

كان الزائرون هم: دون لويس كانو، مدير جريدة الاسبينكتادور المائية، وويلنر ميندوتا نبيرا الذي نشط ذلك الاجتماع، وثلاثة آخرون من أنشط قادة الليبراليين وأكثرهم فعالية: كارلوس بيراس ريستريو، داريو إتشانديا، وألفونسو أراويز. وفي سياق النقاش، دخل وخرج ليبراليون آخرون بارزون.

ووفقاً للاستدكاارات الواضحة التي سمعناها، بعد ستوات، من بيلنر ميندوتا نبيرا، في منفاه الضجر، في كاراكاس، لم تكن لدى أي واحد منهم خطة جاهزة بعد. وكان هو نفسه الشاهد الوحيد بين الحضور، على عملية اغتيال غامضتان. وقد روى ما جرى، خطوة خطوة بفنونه كراير لطري وصحفي مزمع. استمع إليه الرئيس باهتمام مهيب، ثم طلب في النهاية أن يعرب الزائرون عن أفكارهم من أجل حلّ عادلٍ وطنيٍّ لذلك الوضع الطارئ الخطير.

فرد عليه ميندوتا، المشهور بين أصدقائه وأعدائه بصراحته الهميدة عن المجاملة، بأن تعرض الحكومة سلطاتها إلى القوات المسلحة، بسبب الثقة التي توليها إليها الشعب في تلك اللحظات. فقد كان وزيراً للحرب مؤخراً، في حكومة الليبرالي ألفونسو لوبيث يرمانيخو، وعرف العسكريين جيداً من الداخل، ويرى بأنهم هم وحدهم من يستطيعون إضادة الأمور إلى نصابها، ولكن الرئيس لم يوافق على التوصية هذه الصعبة، ولم يؤيدها كذلك الليبراليون أنفسهم.

الملاحظة التالية فغمها دون لويس كانو، المعروف جيداً بريق طوره وتعلقه كان يحيى بمشاعر شبه أبوية تجاه الرئيس. واكتفى بعرض استمعاذه للمقبول بأي قرار سريع وعادل يوافق عليه الرئيس أوسمين، ويحظى بتأييد الأغلبية. فأكد له هذا الأخير على ضرورة التوصل إلى الإجراءات الضرورية للعودة بالأوضاع إلى حالتها الطبيعية، ولكن مع التمسك بالدستور دوماً. ثم ذكرهم بخبرة غير مكبوة تماماً، وهو يشير من النوافذ إلى المجمع الذي يملهم المدينة، بأن الحكومة ليست من تسببت بكل ذلك.

كان مشهوراً باعتداله وحسن تربيته، على نقبض صحب وزير خارجيته لأوربانو غوميث، وغطوة آخرين من محازبيه المحافظين، الجفرا، في الاختراجات المركبة. ولكنه أثبت في تلك الليلة التاريخية، أنه غير مستعد لأن يكون أقل منهم عناداً. وهكذا امتد النقاش حتى منتصف الليل، دون التوصل إلى أي اتفاق. وكانت تقطعه بين حين وآخر، زوجة الرئيس، دونيا بيرونا دي أسبين، حاملةً إليه أخباراً مروعة، إلى هذا الحد أو ذاك.

كانت أعداد القتلى عندئذ لا تحصى في الشوارع. وكذلك أعداد الناصيين الذين يشركون في مواقع لا يمكن الوصول إليها، وأعداد المحشود التي أفقدها صوابها الحزن والغضب وأصناف الحمر الغالية المسلوقة من المتاجر الفخمة. كان مركز المدينة مهدماً، والحرائق ما زالت تشتعل غيد. كما دعت أو أحرقت دكاكين بيع الكتب والأشياء الدينية، وقصر العدل، ودار الحكومة، وأبنية تاريخية أخرى كثيرة. لقد كان الواقع هو الذي يضيق، دون رحمة، ودوب التوصل إلى اتفاق هادئ بين عدة رجال ضد رجل واحد، في جزيرة المكتب الرئاسي المعزولة.

داريو إتشاندنيا، الذي ربما كان صاحب أعلى سلطة، لكنه بدأ أقل الحضور تكلماً. فقد اكتفى بتعليقين أو ثلاثة تعليقات ساخرة حول الرئيس، وعاد يلوح بعلمه الضبابي. كان يبدو المرشح المؤكد للحلول محل أوسينا بيريت في رئاسة البلاد، ولكنه لم يفعل في تلك الليلة شيئاً يجعله جديراً بالمنصب أو بمنه إياه. أما الرئيس الذي اعتبر محافظاً معتدلاً، فقد صار يبدو أقل فاضلاً اعتدالاً. لقد كان حفيظاً وابن أخى رئيسين سابقين في قرن واحد، ورب أسرة، ومهنياً متفاعداً، ومليوثيراً منذ الأزل، فضلاً عن أشياء أخرى كان يمارسها دون أدنى ضجيج. حتى إنه كان يقال، دون الاستناد إلى أي أساس، إن من يحكم في الواقع، سرا، في البيت أو في القصر، هي زوجة الرئيس التي امتشقت السلاح. ومع ذلك، انتهى الرئيس إلى القول، بسخريّة نظة، إنه لا يجد غضاضة في تفهيل الاقتراح، غير أنه يشعر بالراحة في قيادته الحكومة من المقعد الذي يجلس عليه بمشيئة الشعب.

كان يتكلم مستغفواً، دون شك، بخبر لا يعرفه الليبراليون: فهو مطلع تماماً وبدقة على الوضع الأمني العام في البلاد، وكان يعرف ذلك طوال الوقت، من خلال المرات المتعددة التي خرج فيها من المكتب للحصول على معلومات معينة. لم تكن حاصبة بولغوتا تزيد على الألف رجل، وكانت هناك أخباراً خطيرة إلى هذا الحد أو ذاك، تصل من كل القطاعات. إلا أن كل شيء، لا يزال تحت السيطرة، إضافة إلى وراء القوات المسلحة، وفي مقاطعة بوبانكا المجاورة، المشهورة بتجارها الليبرالي التاريخي، وتجارها المحافظ الثرش، لم يكن حاكم المقاطعة خوسيه ماريه بيبارال - وهو فوطي قلياً وقلياً - قد أفلح في جمع

أعمال الشغب المحلية، منذ وقت مبكر وحسب، وإنما راح يرسل قوات أفضل تسليحاً لإخضاع العاصمة، وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي كان الرئيس يحتاج إليه، هو إلهاء الليبراليين باعتداله المحسوب جهداً، بالتكلم قليلاً والدخين ببطء. لم ينظر في أي لحظة إلى ساعته، ولكنه كان يقدر جيداً دون ريب، الوقت الذي ستكون فيه المدينة مصحبة جيداً، بقوات المد الإضافية والمجربة في أعمال القمع الرسمي.

وعند تبادل طويل لصيغ تهرجية، اقترح كارلوس بيراس وبستريو الصيغة التي اتفق عليها القادة الليبراليون في المستشفى المركزي، واحتفظوا بها كوسيلة أخيرة قصوى، الاقتراح على الرئيس بأن يسلم السلطة إلى داريو إتشاندنيا، في سبيل التنازل السياسي والسلام الاجتماعي. ولا بد أن الفكرة كانت ستلقى القبول دون تحفظ، من جانب إدواردو سانتوس والفونسو لوبث بومارينو، الرئيسين السابقين اللذين يتمتعان برصيد سياسي كبير، ولكنهما كانا خارج البلاد في ذلك اليوم. ومع ذلك، فإن إجابة الرئيس التي قالها بالبطء، نفسه الذي كان يدخن به، لم تكن ما يرجى انتظاره منه، فهو لم يبدو تلك الفرصة ليكشف عن طبيعته الحقيقي، وكان من يعرفونه لمة حتى ذلك الحين، لقد قال إن الأمر المريح له ولأسرته، هو التسخلي عن السلطة والعيش في الخارج، على ثروته الشخصية، بعيداً عن الهموم السياسية، إلا أن ما يفتقده هو ما يمكن أن يعنيه للبلاد، خروج الرئيس المنتخب هارباً من منصبه ومسؤولياته، فالجرب الأهلية ستكون حتمية عندئذ، وهيال إلهاج جديد من جانب بيراس وبستريو، حول تخلي الرئيس عن السلطة، سمح هذا الأخير لنفسه بالتذكير بواجبه في الدفاع عن الدستور والدولانيين،

وبأنه يعاهد وطنه فقط على ذلك، وإنما عاهد عليه أيضاً ضحيه والده.
وعندئذ نطق، كما يقال، بالجملة التاريخية التي يبدو أنه لم يقلها قط.
ولكنها بقيت مسجلة باسمه إلى أبد الأبد: "الديمقراطية الكولومبية
تتلعق برئيس ميت، أكثر من انتفاعها برئيس حارب".

لا يتذكر أي واحد من الشهود أنه سمعها من فمه، ولا من فم أي
شخص آخر. وقد نسبت مع مرور الزمن إلى صوريين عديدين، بل
توافقت كذلك مزايها السباحية، وتحياتها التاريخية. ولكن دون أن
يُطرح رونقها الأدبي للنقاش قط. وقد صارت هذه الجملة، منذ ذلك
الحين، هي العلامة المميزة لحكومة أوسينا بيرث، وأحد أعمدة مجدها.
ووصل الأمر إلى نسبة صياغتها إلى صحفيين محافظين مقتطفين،
ووجدت مبررات أكبر لتسببها إلى الكاتب السياسي المعروف، وزير
المناجم والتلفط الحالي، خواكين إدواردو مونتالفي. وكان موجوداً
بومالك في العصر الزناسي بالفعل، ولكن ليس في قاعة الاجتماعات.
وبقيت الجملة للتاريخ على أي حال، مغرولة بلسان من كان عليه أن
يقولها، في مدينة مدمرة، حيث بدأ الرماد يتجمد. وفي بلاد لن تعود
أبداً لأن تكون هي نفسها.

ولكن كفاة الرئيس وأهل بيته لم تتجلبا في ابتكار عبارات تاريخية،
ولمّا في إلها - الليبراليين - بسكاكر منومة إلى ما بعد منتصف الليل،
حين وصلت قرأت النجدة الإضافية، لتقع غرد العامة، وتفرض السلام
المحافظ. عندئذ فقط، في الساعة الثامنة من صباح العاشر من نيسان،
أبلغ داريو إتشاتنها بكابوس أحد عشر رئيساً من الهاتف، وأبلغه
بتعيينه وزير دولة في نظام مواساة من الحزبين. وعهد لارويانو غوميت

السنة من هنا الحل، والقلق على أمته الشطمي، إلى السفر إلى
نيويورك مع أسرته، بينما كانت الشروط متولدة لتحقيق رغبته الأبدية
في أن يكون رئيساً.

أما أحلام التحول الاجتماعي العميق الذي مات غايتان من أجلها،
تلاشت كلها وسط أنقاض مدينة يتصاعد منها الدخان، وزاد عدد
القتلى، ممن سقطوا في شوارع بوجوتا، وتواصل سقوطهم على يد القمع
الرسمي في السنوات التالية، على الليبون، فضلاً عن برؤس ونفس
الكثيرين، وقبل وقت أبعد بكثير من يد القادة الليبراليين، في
الحكومة العليا، بالانتباه إلى أنهم قد جازفوا بدخول التاريخ،
كمواطنين.

بين الشهود التاريخيين الكثيرين على ذلك اليوم في بوجوتا، كان
هناك اثنان لا يعرف أحدهما الآخر. ولكنهما سيكونان بعد سنوات من
أعظم أصدقائي. أحدهما هو لويس كاردونا أي أراغون، الشاعر
والكاتب السياسي والأدبي الفوتيمالي. وكان يحضر مؤتمر عموم أمريكا
بصفته وزير خارجية بلاده رئيساً ولداها. والآخر هو فبيل كاسترو. وقد
انهم كلاهما فوق ذلك، في أحد الأوقات، بالفرط في أحداث الشغب.
فقد قبيل عن كاردونا أي أراغون محمداً، إنه كان واحداً من
المعرضين، مستتراً بأوراق اعتياده كمنسوب خاص لحكومة خاكوبو أربينز
الضدومية، في غواتيمالا. لا بد أن تذكر أنه لا يمكن لكاردونا أي
أراغون، وهو منسوب حكومة تاريخية، وشاعر كبير في لغتنا، أن يقدم
أبداً على مثل تلك المفامرة الجنونية الطائشة، لقد كانت أشد الذكريات
ألماً في كتاب مذكراته البديع، هي الاتهام الذي وجهه إليه إنسيكي

سانتريس مونتيغزو، الملقب "كالبان"، في عموده المشهور في جريدة إلتيمبو، "رقصة الساعات"، حين تسب إليه أنه مكلف رسمياً بمهمة اغتيال الجنرال جورج مارشال. وقد بذل عدد من المندوبين إلى المؤتمر مساعيهم لكي تقوم الصحيفة بنصريب تلك الإشاعة للذهباتية المختلفة. ولكن ذلك لم يكن ممكناً. أما جريدة السيفلو، لسان المحافظين الذين في السلطة، فأعلنت في الرياح الأربع، بأن كساروفشا أي أراغسون، هو المعرض على الفتنة.

لقد تعرفت عليه بعد سنوات طويلة من ذلك، في مدينة مكسيكو، مع زوجته لها كوستاكودوسكي، في بيته في كويواكان، المخرج بصور ذكرياته، والأكثر كحلاً بأعمال أصيلة لرسمين من زمانه، وكنا نحن الأصدقاء، لمضي هناك لبالي الأحد، في سهرات حميمة ذات أهمية بلا مزاعم. لقد كان يحتمل نفسه ناجياً من الموت، أولاً عندما تعرضت سيارته لرحاص رشاشات القناصين، بعد ساعات قليلة من وقوع الجريمة. ثم بعد أيام من ذلك، وكان قد تم القضاء على التمرد، عندما اعترض طريقه سكبر في الشارع، وأطلق النار علي وجهه من مسدس استعصى معه مرتين، وقد كان التاسع من نيسان موضوعاً متواتراً في أحاديثنا، حيث كان يحتل غضب بالميتين إلى السنوات الضائعة.

وكان فيدل كاسترو بدوره، ضحية لكل أنواع الاتهامات العصبية، بسبب بعض الأعمال المتصلة بوضع كمنشط طلابي، في تلك الليلة السوداء، وبعد يوم رقيب بين الجموع الضاحية، انتهى به المطاف إلى ثكنة فرقة الشرطة الوطنية الخامسة، بحثاً عن طريقة يكون فيها مفيماً لمي وضع حد لمنهجة الشوارع. ولا بد من معرفته لتصور ما كان عليه

قنوطه في تلك الثكنة المتسردة حيث بدأ من المستحيل، فرض وجهة نظر جماعية مشتركة.

قابل قادة الخامسة وغيرهم من الضباط المتمردين، وحاول، دون جدوى، إقناعهم بأن كل قوة تعتمدهم بشكنتها هي قوة مهدورة، اقترح عليهم أن يخرجوا رجالهم للتضال في الشوارع، من أجل الحفاظ على الأمن، ومن أجل نظام أكثر عدالة. وحشهم بكل أنواع السوابق التاريخية، ولكنهم لم يسمعو نصيحته، بينما كانت القوات والذهابات الرسمية تطلق النار على الثكنة، وأخيراً قرر أن يربط مصيره بمصير الآخرين.

وفي الفجر، جاء بهلغو ميندوتا نهباً إلى مقر الفرقة الخامسة، ومعه تعليمات من قيادة الليبراليين، للتوصل إلى استسلام طلي، ليس فقط للضباط والشرطيين المتمردين، وإنما كذلك للعديد من الليبراليين الماديين الذين كانوا ينتظرون الأوامر للبدء بالتحرك. وخلال الساعات الطويلة التي استغرقتها مفاوضات الاتفاق، بقيت راسخة في ذاكرة ميندوتا نهباً، صورة ذلك الطالب الكرسي، المربوع والمحب للجدال، الذي توسط عدة مرات، في المحادثات بين القيايين الليبراليين والضباط المتمردين، بعد بصر فاق الجميع. ولم يعرف من هو إلا بعد عدة سنوات من ذلك، لأنه رآه مصادفة في كاركاس، في صورة فوتوغرافية من صور الليلة الرهيبة، بعد أن كان فيدل كاسترو قد بدأ تضالته في جبال سييرا مايترا في كوبا.

أما أنا فتعرفت عليه بعد إحدى عشرة سنة، عندما سارعت بالذهاب كصحفي، لدى دخوله الظاهر إلى هالانا، وتوصلنا مع مرور

الزمن، إلى صداقة شخصية صمدت عبر السنين، لما لا يحصر له من العثرات. وفي أحاديثي الطويلة معه، حول كل ما هو إلهي وبشري، كان يوم التاسع من نيسان موضوعاً كثير التواتر، لا يتواتى فبدل كاسترو عن تذكره كأحد المأسي الحاسمة في تكوينه. وخاصة الليلة التي أمضاها في شحنة الفرقة الخاصة، حيث انتبه إلى أن معظم المتصرفين الذين يدخلون ويخرجون، كانوا يحطون من قسمة أنفسهم، في أعمال السلب والنهب، بدل أن يصرخوا في عارستهم، على ضرورة الإسراع في التوصل إلى حل سياسي.

بينما كان هذان الصديقان شاهدين على الأحداث التي قسمت تاريخ كولومبيا إلى السنين، بقيت أنا وأخي على قيد الحياة، في الطغفان، مع اللاجئين الآخرين في بيت الحال خوانيتو. لم أجد في أي لحظة آنذاك، أنني صرت كاتباً مثديراً، وأنتي سأحاول في أحد الأيام، أن أعيد، من الناكدة، تركيب شهادتي عن الأيام الرهيبة التي كنا نعيشها. فقد كان همي الوحيد حينذاك هو أكثر الهموم دنيوية: إخبار أسرنا بأننا ما زلنا على قيد الحياة - حتى تلك اللحظة على الأكل - وأن نعرف في الوقت نفسه، أخبار أبونا وأخوتنا، وخاصة أكبرهم، مارغوت وعامدا، الطالبين بالاختصاص في مدينتي في مدينتي بعيدتين.

لقد كان علينا الحال خوانيتو أشبه بمهجرة. وقد كانت الأيام الأولى شاقة بسبب تبادل إطلاق النار المتواصل، والافتقار إلى أية أخبار موثوقة، ولكننا، شيئاً فشيئاً، رحنا نرتاد المتاجر القريبة، ونقتنا من شراء أطعمة نأكلها. كانت الشوارع صمتة بقوات عسكرية لديها أوامر حازمة بإطلاق النار. تنكر خوسيه بالاتيوس الذي لا سبيل إلى إصلاحه

بجلباس عسكرية، لكي يتجول دون قيود، معتبراً قهقهة كشاف، ويعلماني وجده في صندوق قسامة. وقد هرب بأعجوبة من أول دورة اكتشفته. أخضعت محطات البث الإذاعي التجارية التي أسكتت قبل منتصف الليل، لرقابة الجيش. أما التلفزيون والهواتف اليدوية والقليلة، فكانت محجوزة لقوات الأمن العام. ولم تكن هناك وسائل أخرى للاتصال. كانت صفوف الانتظار لهدية أمام مكاتب التلفزيون المزدحمة. ولكن محطات الإذاعة رتبت خدمة رسائل عبر الأثير، موجهة إلى من يحالفهم الحظ بالتقاط بثها. وقد هدت لنا هذه الوسيلة هي الأسهل والأضمن، وإليها توجهنا دون آمال كبيرة.

خرجت أنا وأخي إلى الشارع، بعد ثلاثة أيام من الحبس في البيت. كان المشهد مرعباً، غامدنة تحولت إلى أنقاض، بدت غائمة وهكرة بالخطر المتواصل الذي خلف من استشراف المراتق. ولكنه آخر استرداد المدينة. كثير من الشوارع كانت مغلقة بأعشاش القناصين، على أسطح مباني مركز المدينة. فكان لا بد من القيام بالتفافات بلا معنى، استجابة لأوامر الدوريات المسلحة، كما لو أنها في حرب عالمية. كانت رائحة الموت في الشوارع لا تطاق. ولم تتمكن شاحنات الجيش من تحميل أكوام الجثث المتراكمة على الأرصفة، فكان على الجنود أن يراجعوا جماعات البائسين الذين لا تعرف على جثث أقربائهم.

في أطلال ما كان المركز التجاري، لم تكن النشاة تسمح بالنفيس، حتى إن أسراً كثيرة اضطرت إلى التخلي عن البحث عن جثث مفقوديه. وفي أحد أهرامات الجثث الكبيرة، برزت جثة حافية ودون بنطال. أما سترتها فلم تكن تشوبها شائبة. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أيام، كان

الرماد لا يزال يطلق نشأة الأجساد التي لا أهل لها، منعفة بين
الانقراض أو مكرمة على الأرضة.

وفي وقت لم يكن يخطر ببالنا، أولفت أنا وأخي فجأة، بتعبئة
بندقية مؤكدة وراء ظهرنا، وصوت يأمر بحزم:

— ارفعا أيديكما!

رفعت يدي دون تفكير، وقد جمعتي الرعب، إلى أن أعادتني إلى
الحياة، فقهقه صديقنا أنخل كاسينغ، وكان قد استجاب لنداء الفوات
المسلحة، باعتباره احتياطياً من الدرجة الأولى. وبغلة فكتنا. نحن
اللاجئين في بيت الحال خوانشو، من إرسال رسالة عبر الأخير، بعد يوم
من الانتظار أمام الإذاعة الوطنية. سمع أبي الرسالة في سوكري، بين ما
لا حصر له من الرسائل التي كانت تقرأ نهاراً وليلاً، طوال أسبوعين.
أحسست أنا وأخي بأننا ستكون ضحية لا مفر منها. لتزوات الأسرة
التخمينية، لمطينا خائطين من أنه يمكن لأمتنا أن تفسر الخبر على أنه
صدقة طعنة من الأعداء، ربما يهينونها لما هو أسوأ. ولكننا أخطأنا
في تفكيرنا قليلاً؛ إذ كانت أمتنا قد حصلت، منذ الليلة الأولى، بأننا
نحن، ابنينا الكبيرين، قد غرقنا في بحر من الدم، خلال أعمال
الشغب. ولا بد أنه كان كابوساً مقتماً جداً، إلى حد أنها عندما عرفت
الحقيقة عبر وسائل أخرى، قررت ألا تسمح لأحد منا بالعودة أبداً إلى
بورغوتا. حتى لو اضطررنا إلى الهلاك في البيت، والموت جوعاً. ولا بد
أن ذلك القرار كان قاطعاً، لأن الأمر الوحيد الذي تلقيناه من أبوتنا في
برقيتهما الأولى، هو السفر إلى سوكري، بأسرع ما يمكن، لبيت في شأن
المستقبل.

وفي فترة الانتظار، زين لي عدد من الفزلاء، إمكانية مواصلة
الدراسة في مدينة كارتاخينا دي إندياس، مفكرين بأن بورغوتا ستتمكن
من الخروج من بين أنقاضها، ولكن البوغوتيين لن يسفروا أبداً من رعب
المجزرة وهولها. وأخبروني بأن هناك في كارتاخينا، جامعة عريقة واسعة
الشهرة، مثل أوامها التاريخية، وكلية حقوق بالمجم الإنساني،
سيتفرون فيها إلى نتائج البسطة في جامعة بورغوتا، على أنها جيدة.

لم أشأ استبعاد الفكرة، قبل أن أغلبها أولاً، على نار حامية، ولا
أن أذكرها لأبوي، قبل أن أذهب وأؤكد من ذلك، بنفسي. أخبرتهما
فقط، بأنني سأسافر إلى سوكري بالطائرة عن طريق كارتاخينا، لأنه يمكن
لنهر مجدينا أن يكون طريقاً آمناً في ظل تلك الحرب الحامية. أما
لوس إيريكي من جانيه، فأخبرهما بأنه سيسافر إلى بارانكيا للبحث عن
عمل، بعد أن يمضي حساباته مع ربة صله في بورغوتا.

لقد كنت أعرف، على أي حال، أنني لن أصبر صحابياً في أي
مكان. وما كنت أريد، هو كسب قليل من الوقت للإلهاء أبي. ويمكن
لكارتاخينا، بالنسبة لي، أن تكون محطة غنية جيدة للتفكير في الأمر،
ولكن ما لم يخطر لي على بال مطلقاً، هو أن تلك الحسابات العقلانية
ستفودني إلى أن أقرر، وليس في يدي، أن ذلك هو المكان الذي أريد
في أن أواصل فيه حياتي.

المحصول في تلك الأيام، على خمسة أماكن في طائرة متوجهة إلى
أي مكان على الساحل، كان واحدة من سائر أضي. بعد الوفود في
صفوف انتظار لانهائية وخطرة، والركض من مكان إلى آخر، طوال يوم
بكامله، في مطار طوازي، وجد الأماكن الخمسة في ثلاث طائرات

مختلفة، ويعاود غير مؤكدة، ووسط إطلاق نار وانفجارات غير مرئية. لبتوا لي ولأخي، أخيراً، حيز مقعدين في الطائرة نفسها، إلى بارانكيّا. ولكننا غادرت في النهاية، في طائرتين مختلفتين. كان رذاذ المطر والضباب المتواصلين في برغوتا منذ يوم الجمعة السابق يعيقان برائحة البارود والأجساد المتفحخة. ومن البيت إلى المطار - جرى استجوابنا في حاجزين عسكريين متتاليين، كان جنودهما مرتبكين من العرب، وعند الحاجز الثاني انطحوا أرضاً وجعلونا نطبع مثلهم بسبب انفجار تلاء تراثش إطلاق نار من أسلحة ثقيلة، تبين بعد ذلك أنه تسرب غاز صناعي، وقد تفهمتا نحن المسافرين، ذلك عندما قال لنا أحد الجنود إن مسأسته هي في وجوده هناك منذ ثلاثة أيام، في نوبة حراسة متواصلة، دون بديل؛ ولكن دون ذخيرة أيضاً، لأن الذخائر قد نفذت في المدينة. لم نكد نتجراً على الكلام منذ أن أولفونا. وقد جاء رعب الجو ليجبر علينا، ومع ذلك، بعد الإجراءات الرسمية للثبوت من الهوية وأسباب السفر، أحسنا بالعزاء. علمنا أنه علينا البقاء هناك، دون الخوض لأي إجراءات أخرى، إلى أن يقادونا إلى الطائرة. وكان كل ما دخنه، خلال الانتظار هو سيجارتين من السجائر الثلاث التي تصفّق بها أحدهم عليّ، واحتفظت بالسيجارة الثالثة لتساعدني على تحمل رعب الرحلة.

وبما أنه لم تكن هناك ضوابط، فقد كان الإعلان عن الرحلات، وعن التبدلات الطائرة الأخرى، يُعرف في مواقع المفارز العسكرية المتباعدة، بواسطة مراسلين عسكريين على دراجات نارية. في الساعة الثامنة صباحاً، استدعوا جماعة من الركاب للصعود فوراً إلى طائرة غير

طائرتي، متوجهة إلى بارانكيّا. وقد علمتُ بعد ذلك أن أصدقائنا الثلاثة وأخي لم سافروا عبر موقع مفرزة عسكرية أخرى. كان يقاى في الانتظار وحيداً، علاجاً حزامياً لحوضي الفطري من الطيران، لأن السماء في لحظة صعودنا إلى الطائرة، كانت ملبدة بعودة وعرة. كما أن سلم طائرتنا كان قد نُقل إلى طائرة أخرى، فاضطر جنديان إلى مساعدتي على الصعود، باستخدام سلم بنّاء. وكان ذلك في المطار نفسه، والساعة نفسها التي صعد فيها فبدل كاشرو إلى طائرة أخرى متوجهة إلى هانانا، محملة بشيران مصارعة - مثلاً أخبرني هو نفسه، بعد سنوات من ذلك.

ومن حسن - أو سوء - الحظ، أن طائرتي كانت من نوع DC-3، تعيق برائحة طلاء طوي وتلصيح حديث، دون أنوار فردية، وبلا تهوية متظمة في كابينة الركاب. وكانت قد أعدت لنقل قوات عسكرية؛ فبدلاً من مقاعدها الثلاثية المثالية، كما في الرحلات السياحية، كان هناك مقعدان طويلان من ألواح خشبية عادية، مثبتة جيداً بالأرضية. وكانت كل أصعتي في حقيبة واحدة من الكتان، فيها غياران أو ثلاثة غيارات من الملابس المتسخة، وكتب شعر وقصاصات من ملاحق أدبية. تمكن أخي لويس إيريكي من إنقاذها. جلسنا نحن الركاب، في صفين متقابلين يجتمعان من كابينة القيادة حتى الذيل، وبدلاً من أزعجة الأسان، كان هناك حبلان من القنب المتسلط في ربط السفن، يشكّلان حزامي أمان طويّين جماعيين، في كل جانب. أما أقصى ما حدث لي، فهو أنني ما كدت أشعل السجارة الوحيدة التي استبقيتها لتساعدني على اجتياز الرحلة، حتى أعلن لنا الطيار من كابينته بأنه ممنوع علينا

العدلين، لأن خزانات وقود الطائرة موجودة عند أقدامنا، تحت أجنحة
الألواح الخشبية. فكانت ثلاث ساعات من الطيران غير النهائي.

توافق وصولنا إلى بارانكيّا، مع هطول مطر من ذلك الذي لا يهطل
إلا في نيسان، مع وجود بيوت مبنية من جذورها، يجرفها التيار في
الشوارع، ومضى متوحدين يفرقون في أسرهم. فكان على أن أنتظر
توقف المطر، في انطار المضطرب من الفيضان. وتوصلت بصعوبة إلى
معرفة أن طائرة أخى ومرافقيه قد وصلت في موعدنا. ولكن الثلاثة
سارعوا إلى مفادرة المطار قبل أول عود وإبل المطر الأول.

احتجت إلى ثلاث ساعات أخرى للوصول إلى وكالة السفر. ولم
أسطع اللحاق بالحافظة الأخيرة التي خرجت إلى كارتاخينا، قبل
موعدنا، بسبب اقتراب العاصفة. لم أشعر بالقلق، لحي كنت أن أخى
كان هناك. ولكنني أحسست بالحزن على نفسي، حيال فكرة اضطراري
لقضاء ليلة دون نفرد في بارانكيّا. وأخيراً، حصلت بمقتل خوسيه
بالمهنتها، على مدجاً طوارئ في بيت الأختين الجسليتين إبلي وليلا
ألبارثا، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، سافرت إلى كارتاخينا. في حافلة
وكالة البريد المخلفة. أما أخى ليس إريكسي فسبقى بانتظار العثود
على عمل في بارانكيّا. لم يبق لي أكثر من ثمانية بسوزات، ولكن
خوسيه بالاثوس وعدني بأحضار بعض النقود الأخرى لي. في حافلة
الليل. لم أجد مكاناً شاغراً في الحافلة، ولا حتى فوقاً على الأضلاع.
ولكن المسائق وافق على حمل ثلاثة ركاب على السطح، جالسين على
أمتعتهم وحملتهم، وبيع قسيمة التعرفة النظامية. في ذلك الوضع
الغريب، وتحت الشمس الساطعة، أعلن أنني أدركت أن ذلك التاسع من
نيسان لعام ١٩٤٧، هو بداية القرن العشرين في كولومبيا.

٦

في نهاية رحلة من الارتجاج والمخاض المصيبة، عبر طريق الجبال،
أطلقت حافلة وكالة البريد آخر أنفاسها. في مكان يليق بها، متولفة
في مستنقع أشجار مانغلي تقف ذي أسماك متعنتة، على بعد نصف
فرسخ من كارتاخينا دي إندياس. وتذكرتُ بذاكرة جدي: "من يسافر في
الحافلة، لا يدري أين يجيئ. الركاب المضطربون، بعد ست ساعات من
الشمس العارية ورائحة عفونة المستنقع، لم ينتظروا إنزال السلم لكي
يخرجوا، بل سارعوا بالفرار، من فوق الحافة، بأفصاص الدجاج، وحزم المؤد
وكل أصناف مواد البيع أو الموت التي استخدموها للجلوس على سطح
الحافلة. غفر السائق من مفعده وأعلن بصرخة لأذنة:

- البطلة

وهذا هو الاسم الرمزي الذي تُعرف به مدينة كارتاخينا دي إندياس.
لأصباحها القابرة. ولا بد أن المدينة كانت هناك، ولكنني لم أرها. لأخي
كنت أكاد لا أستطيع التنفس، في بذلة الجوخ السوداء، التي أودتها عنده
التاسع من نيسان. أما البدلتان الأخريان اللتان كانا في خزائني،
فلقينا المصير نفسه الذي لقيته الآلة الكاتبة في محل وهنات "موني
دي بيده". إلا أن الرواية الجديدة بالاحترام التي قدمتها لأبوي، هي أن

الأكلة الكاتبة، وأشباه شخصية أخرى غير ذات قيمة، قد اختفت مع الملابس، في فرضي الحريق. السائق المتطرس الذي سخر، خلال الرحلة، من مظهري كقاطع طريق، أوشك على التفجر بهجة. عندما واصلت الدوران حول نفسي، دون أن أعثر على المديقة. فصرخ بي، ليسمع الجميع:

- إنها في طيرك! وكفى طراً، فإنهم هناك يقتلون أرملة للمعفى. وبالفعل، كانت كارتاخينا دي إندياس في مكانها. وراء ظهري. منذ أربعمئة سنة. ولكنني لم أستطع تصور أن تكون على بعد نصف فرسخ من منبت أشجار المانغلي، متراوية وراء السور الأسطوري الذي أبقاها بمنجى من الوثنيين والقراصنة. في سنوات عظمها. وانتهى بها الأمر إلى الاختفاء تحت أجسام ملتفة من الأعصان المشعة، وصفوف طويلة متدلّية من أزهار الجرس الصفراء. انضمتُ إلى جلبة المسافرين الآخرين، وسحبت الحقيبة عبر دجل تغطي أرضه سرطانات حية، تنهشم دروعها القشرية كأنها المفرغات تحت نعال الأحذية. كان من المستحيل ألا أتذكر عندئذ، حصة الأمتعة التي ألقي بها رفاقي إلى نهر مجدليانا. خلال رحلتي الأولى، أو الصلندوق الجنائزي الذي جرجرته عبر نصف البلاد. وأنا أبكي من القهر، في سنواني الأولى في المعهد، ثم ألقيت به أخيراً في أحد مهاوي جبال الأنديز، على شرف إنهائي القواسم الثاقوبة. لقد بدا لي، على الدوام، أن هناك شيئاً غريباً في قدرتي، في تلك المحاولات الزائدة الشافهة. ولم تكلف سنوات حياتي الطويلة لتفني ذلك الإحساس.

ما إن بدأنا نلمح بروفيل بعض قباب الكنائس والأديرة في غبش

الغروب، حتى خرجت للقلائنا عاصفة خفافيش تطير فوق رؤوسنا، ولا تطرحنا أرضاً بفضل حكمتها فقط. كانت أجنتها تنز مثل دوي الرعد، مخلفة وراءها نثارة قاتلة. أزعجتني المفاجأة، فأنفلت الحقيبة وتكورت على نفسي. فوق الأرض، حامياً رأسي بطواعي، إلى أن صرخت بي امرأة متقدمة في السن، كانت تقشي بجاني:

- صل صلاة التعظيمة!

وهي تعني تلك الصلاة السرية، للتخلص من هجمات الشيطان، المكروهة من الكنيسة. ولكنها مكرمة من ليل كبار المحدثين، عندما لا يجدون ما يكفي من التجديف، انتهت المرأة إلى أنني لا أعرف كيف أصلي، فأمسكت حقيبتني من حزامها الآخر، لتساعدني في حملها. وقالت لي:

- صل عني. ولكن عليك أن تفعل ذلك بإيمان كبير.

وهكذا راحت تلي علي التعظيمة بيتاً غيبياً، فرددتها بصوت عالٍ، وورع ثم أعد إلى التعميد بمثله قط. تلاشي خلق أجنته الخفافيش، وإن كنتُ أجد اليوم مشقة في تصديق ذلك، واخفتت جميعها من السماء، قبل أن تنتهي من الصلاة، ولم بعد لمسمع عندئذ، سوى صيط البحر المدوي في وهاد الشاطئ.

كما قد وصلنا إلى بوابة الساعة الكبرى، لقد كان هناك، منذ مدة سنة، جسر متحرك يصل المدينة القديمة بضاحية جسيماني وبحي الفقراء المزدهم في منابت أشجار المانغلي، ولكنهم كانوا يرمحون الجسر، منذ التاسعة ليلاً حتى فجر اليوم التالي. فيبقى الأهالي معزولين، ليس عن بقية العالم وحسب، وإنما عن التاريخ أيضاً. ويقال إن الإسبان قد أقاموا

ذلك الجسر، خوفاً من أن يتسلل إليهم فقراء الأناضول في منتصف الليل، لينهبوهم وهم نائمون. ومع ذلك، فقد بقي للسدينة شيء من أبنيتها، لأن خطوة واحدة خاطئتها داخل الأسوار، كانت كافية لرقبتها، بكل عظمتها، على ضوء الساعة السادسة مساءً، المبازي. ولم تستطع كبح إحساسي بأنني قد ولدت من جديد.

هذا أقل ما يمكن أن يقال. ففي بداية ذلك الأسبوع، خلقت بوغوتا تنخبط لي بركة من الدم والوحل، ولا تزال فيها أكوام جثث مجهوقة الهوية، ومهجورة بين أنقاض يتصاعد منها الدخان. وفجأة، تغيرت الدنيا وصارت عالماً آخر لي كارتاخينا. لم يكن هناك أي أثر للحرب التي تعصف بالبلاد. وقد وجدت مشقة في تصديق أن تلك الوحدة دون ألم، وذلك البحر غير المنقطع، وذلك الإحساس الفصيح بأنني قد وصلت، كانت تحدث لي في الحياة نفسها، بعد انقضاء أقل من أسبوع.

لكثرة ما سمعت من أحداث عنها، منذ ولادتي، تعرفت فوراً على الساحة الصغيرة التي كانت تتوقف عليها عربات الخيول، وعربات المحمولة التي تجرها الحمير، وفي ألسناها رواق القناطر، حيث تصبح السوق الشعبية أشد ازدحاماً وصخباً. ومع أنه لم يكن معشوقاً به، على أنه كذلك، في الوعي الرسمي، إلا أن ذلك المكان هو القلب النابض الأخير للمدينة، منذ أصولها. فخلال العهد الاستعماري، سعى "ميدان التجار". ومن هناك كانت تحرك المحيوط غير المرئية لتجارة العبيد، وتنازع المشاعر بالحساس ضد السيطرة الإسبانية. ثم سمي، فيما بعد، "ميدان الكتب العموميين"، بسبب الخطاطين قليلي الكلام الذين كانوا يرتدون صناديق من الجوخ، وأكماماً مستعارة، ويكتبون رسائل حب،

وكل أنواع الوثائق لغير المتعلمين الفقراء. كثيرون منهم كانوا باعة كتب مستعملة من تحت الطاولة، وخاصة الكتب التي تدبها محاكم التفتيش. ويُعتقد بأنهم كانوا متنبئين بمؤامرات الكريوليين المحليين ضد الإسبان. وقد اعتاد أبي، في مطلع القرن العشرين، أن يخفف من غلواء اندفاعه الشعري، في غز كشافة رسائل الحب في تلك الساحة، والواقع أنه لم يزدهر في هذا العمل أو ذلك، لأن بعض الزبائن الماكزين - أو الماسين حقاً - لم يكونوا يكتبون بطلب كتابة الرسائل كصدقة، وإنما يطلبون منه كذلك خصمة ويلات لدفع أجر البريد.

قبل عدة سنوات، كان المكان يسمى "ميدان الحلويات"، بمظلاته الصفنة، والمتسولين الذين يأكلوا فضلات السوق، وصرخات عراكس الهند المشوومة الذين يتنافسون أجراً غالياً مقابل امتناعهم عن إطلاق الزبون على يوم وساعة مونه. وكانت سفن الكاريبي الشراعية تتأخر في المياه، لشراء حلويات ذات أسماء نخترعها لها النساء اللواتي يصنعنها، وتنظمها الباعة المتنادون في ندابات سفننا: "البسكويت المحشو بهلبية ولوز، مأكول الفروء" أو "حلوى البسكويت لانه للرضع المصابين" أو "حلوى جوز الهند للسجائين"، أو "بسكويت الغائبين" لانويلا. وهكذا هلت الساحة، في الحير والشر، مركز المدينة الحيوي، حيث تُكتشف أصور الدولة من رؤاء ههر الحكومة، والمكان الوحيد في الصالم الذي تصرف فيه بانعات المعجنات المقلبة، من سيكون حاكم المقاطعة القادم. قبل أن يخطر ذلك لرئيس الجمهورية في بوغوتا.

بهزني اللفظ والصخب على الفور، فشغقت طريقي متعشراً، وأنا أجر حبيبتي بين جموع السادسة مساءً. كان هناك عجزو بأسمال ليس

في جسمه سوى العظم، ينظر إليّ، دون أن يرف له جفن، من فوق منصة
ماسحي الأودية، بعيني باشق جامدين. اعترضني طريقي فجأة. فما إن
رأى أنني رأيت حتى عرض عليّ أن يعمل لي الحقيبة. شكرته، ولكنه
حدد بلباسه الأرمي ما يريد مقابل ذلك:
- ثلاثون جدياً.

مستحيل. ثلاثون سنتافو مقابل حمل حقيبة هو قضم للبيزوات
الأربعة الوحيدة المتبقية لدي، إلى أن ألتقي عدداً من أبري في الأسبوع
التالي. فقلت له:

- هذا المبلغ يساوي الحقيبة وكل ما فيها.
أضف إلى ذلك، أن النزول الذي يجب أن تكون شلة بونغوتا فيه
ليس مبيعاً جيداً. وحتى العجوز بثلاثة جديان، فعلق حول عنقه، صندله
الجلدي الذي كان ينتعله، وحمل الحقيبة على كتفه، بقوة لا تُصدق،
بالنظر إلى هشاشة عظامه، واندفع راكضاً مثل رياضي بلديين عاريتين،
في متاهة بهرت كولونبالية متداعية بفصل لرون من الإسهال. كاد عليّ
أن يظفر خارجاً من نفسي، على الرغم من سنوات عمري العشرين، وأنا
أحاول ألا يفسب من ناظري، ذلك العجوز الأولي الذي لم يبق له
ساعات كثيرة في الحياة. وبعد اجتياز خمس كوامرات، دخل من بوابة
الفندق الكبيرة، وصعد درجات السلم، مفتي مفتي، ثم وضع الحقيبة على
الأرض، بأنفاس هادئة، وعد لي راحة يده:
- ثلاثون جدياً.

ذكرته بأنني قد دلعت له أجره، ولكنه أصر على أن الثلاثة سنتافو
التي تقاضاها في الساحة لا تتضمن صعود الدوج. وأبدت كلامه

صاحبة الفندق التي خرجت لاستقبالنا، فأجرة صعود الدرج تُدفع على
حقد. وقدمت لي المرأة نبوة مستغفني مدى الحياة:

- سوف ترى أن كل شيء مختلف في كارتاخينا،
وكان عليّ أن أواجه كذلك الخير السيئ بأن أبدأ من أصدقائي، في
توق بونغوتا، لم يصل بعد، على الرغم من أن هناك حجزاً مؤكداً في
الفندق لأربعة أشخاص، بمن فيهم أنا، البرنامج الذي انطلقنا عليه هو أن
نلتقي في الفندق، قبل الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، ومع أن
تبديل الحافلة النظامية بعائلة وكالة البريد الخمسة، قد أخرني ثلاث
ساعات، إلا أنني كنت أكثرهم جمياً، دقة في الوصول، دون أن أفكر
من عمل أي شيء بأربعة بيزوات نقصت ثلاثة وثلاثين سنتافو. فبعد
كانت صاحبة الفندق أما لطيفة، ولكنها عبدة لأنظمتها التي فرضتها
بنفسها، مثلما سأؤكد من ذلك، خلال أكثر من شهرين أمضيتهما في
فندقها، وهكذا لم توافق على تسجيلي كنزيل، ما لم أدفع أجرة الشهر
الأول مقدماً: ثمانية عشر بيزو مقابل وجبات الطعام والنوم في غرفة
لسنة أشخاص.

لم يكن أمل بوصول مساعدة أبري قبل انقضاء أسبوع، ولهذا لن
تجاوز حقيقتي صحن الدرج ما لم يصل أصدقائي الذين يمكن لهم أن
يساعدوني. جلست أنتظر على مكتباً يلين بظران، مزين برسوم زهور
كبيرة، بدا لي كما لو أنه نزل من السماء، بعد يوم كامل تحت شمس
ساطعة، في حافلة تكبتي. الحقيقة أن أحداً لم يكن متأكداً من شيء في
تلك الأيام. واتفاقنا على اللقاء هناك، في يوم معين وساعة محددة،
كان بلا معنى في الواقع، لأننا لم تكن نتجراً على القول حتى لأنفسنا،

إننا في بلاد تعيش حالة حرب دامية، مستترة في الأقاليم. عند عدة سنوات، ومكشوفة وقاتلة في المدن، منذ نحو أسبوع.

بعد ثماني ساعات من الانتظار، وبينما أنا ساووم في فندق كارتاخينا، لم أستطع تصور ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لحرسه بالينشيا وأصدقائه، وبعد ساعة انتظار أخرى دين تلقى أي خبر، خرجت للتسكع في الشوارع المغفرة. الظلام يخيم في شهر تسمان باكراً. وقد كانت الأتوار العامة مضاءة، غير أن نورها شحيح جداً إلى حد يمكن الظن معه أنها هجوم باهتة بين الأشجار. كنت بجولة أولية من خمس عشرة دقيقة، دون وجهة محددة، في تهرجات القطاع الكولونيالي المرسوفة، وكانت كافية لأن أكتشف، بإحساس عظيم بالراحة، أن تلك المدينة الغربية ليست لها أي علاقة بالمستعانة المحلية التي يصلونها لنا في المدرسة.

لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع. فالجموع التي تأتي من الضواحي عند الفجر، للعمل أو البيع، تعود متعبة إلى أرباعها. في الساعة الخامسة مساءً، أما سكان المدينة داخل السور، فيلذون بهيوتهم، ليغتزلوا العشاء، ويلعبوا البومينو حتى منتصف الليل. لم تكن عادة السباوات الشخصية قد شاعت بعد. وسيارات الخدمة القليلة كانت تبقى خارج السور. وحتى أرفع الموظفين منزلة، كانوا يأتون حتى ساحة العربات، في حافلات النقل المحلية المزركشة. ومن هناك ينشقون طريقهم إلى مكاتبهم، أو ينفذون فوق دكاكين البضائع الرخيصة، المعروضة على الأرصفة العامة. وقد نهى أحد أكثر حكام المدينة تكلفاً، في تلك السنوات المأساوية، بواصلته التنقل من حبه الراقي إلى ساحة العربات، في الحافلات نفسها التي كان يذهب فيها إلى المدرسة.

التخفيف من وطأة السيارات، كان اضطرارياً، لأنه وجودها مخالف للواقع التاريخي؛ إذ لا تسمح لها شوارع المدينة الضيقة والمتعرجة، حيث يتردد في الليل، وقع حوافر الخيول الضامرة عبر المحمية. وفي أزمات آخر الشد، عندما تفتح الشرفات لتدخل برودة الحدائق، تسمع رشقات من أكثر الأحاديث حبسية، برنة شبيهة، ويسمع الأجساد المتناوون، وقع خطوات تملّ حفة في الشوارع الحجرية. فيشابهونها باهتمام، دون أن يفتحوا أعينهم. إلى أن يتعرفوا على أصحابها، ويقولوا بخيبة أمل: "إنه حوسبه أنطونيو ذاهباً إلى حيث تشابيل"، والواقع أن الشيء الوحيد الذي كان يُخرج الموزكين عن طرورهم، هو ضربات الفشات، على طاولة الدومينو، التي تدوي في كل أرجاء المنطقة المسورة.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي. وكنت أكاد لا أتعرف، في أرض الواقع، إلا بصعوبة، على تخبيلات الكتب المدرسية التي حرمتها الحياة. لقد هزني الانفعال حتى الدموع. وأنا أرى أن قصور المركيزين القديمة نفسها، موجهة أمام عيني. مخلفة الأبواب، ينام المسؤولون في مداخلها. رأيت الكاثولائية بلا نوافيسها التي انتزعها القرصان فرانسيس دراك، ليصنع منها مدافع. أما النوافيس القليلة التي بقيت من الهجوم، فقد طُهرت بعد أن حكم عليها بحرق المطران بالحرق، بسبب رينها الجيئ الذي يستدعي الشيطان. رأيت الأشجار الذائبة، ولحائيل الشخصيات المرسوفة التي لا تبدو منعوتة من المرمر الميت، وإنما هي نفسها ميتة بلعنها. ذلك أنها لم تكن محمية، في كارتاخينا، من صدأ الزمن، بل على العكس تماماً؛ فالزمن يحافظ على نفسه في الأشياء التي ما زالت قتلح عمرها الأصلي. بينما القرون تهدم. هكذا، في ليلة

وصولي بالقات، تكشفت لي المدينة، في كل خطوة، بحياتها الخاصة، ليس باعتبارها مستحاجة الكرتون الحجري، مثلما يصفها المؤرخون، وإنما كمدينة من لحم وعظم، لم تعد تستند إلى أجيالها الحربية، وإنما إلى هبة أطلالها.

بهذا النفس الجديد، رجعت إلى المنزل، عندما دقت ساعة البرج معلنة العاشرة. أخبرني الحارس شبه الغافى بأن أحداً من أصدقائي لم يأت، ولكن حقيبتي صارت في مكان آمن في مستودع الفندق. عندئذ فقط، تنهت إلى أنني لم أتناول طعاماً أو شرباً منذ الفطور السين في باروكنا. تراخت ساقاي من الجوع، ولكنني اكتفيت بأن نهيئ السيدة إيداع حبيبتي، وتتركني أمام في الفندق، تلك الليلة فقط، ولو على أرمكة الصالة. ولكن الحارس سخر من براءتي، وقال لي بكارمية فجة: - لا تكن أبداً لهذه الحفافة^(١)، يفضل أكوام الخال التي غلظها، تنام منذ الساعة السابعة، ولا تسهق إلا في الساعة الحادية عشرة، من اليوم التالي.

شعرت أنها حجة مقبولة، وخرجت للجلوس على مقعد في حديقة بوليفار، في الجهة الأخرى من الشارع، بانتظار مجيء أصدقائي، دون أن أزعج أحداً. كانت الأشجار الزاوية ترى بصعوبة على أنوار الشارع، لأن مصابيح المدينة لا تضاء إلا في أيام الأحاد والأعياد. كان على مقاعد الرطام، آثار كتابات صحاها وأعاد كتابتها شعرا، صفيقون، مرات ومرات، وفي قصر محكمة التفتيش، وراء الواجهة الكولونبالية النحوتة من الحجر البكر، وبوابتها التي كيوابة كنيسة متقدمة، كان

(١) الدالة - استخدم علي لكلمة مدام "سيدة" الفرنسية.

تسمع آتين لا عزاء له، يصدره طائر مريض لا يمكن له أن يكون من هذا العالم. عندئذ، داهمتني فجأة، الرغبة في التدخين وفي القراءة، في آن واحد، وهما آفتان أدمنت عليهما، واختلطت إحداهما بالأخرى في شباتي، بسبب إلحاحهما وعتادهما. كانت رواية النوس هيكلي "مباراة شعيرة" التي لم يُسمح لي الخوف الجسدي مواصلة قراءتها في الطائرة، ترقد جبهة وراء فقل في حقيبتي، وهكذا أشعلت السجارة الأخيرة بإحساس غريب من الراحة والرحب، ثم أطفأتها في منتصفها، كاحتياط لليلة بلا غد.

وعندما كنت قد نهأت مضرباً، للنوم على المقعد الذي أجلس عليه، بدا لي أن هناك شيئاً مختبئاً في الظلمة الدامسة، بين الأشجار. إنه قتال سيمن بوليفار، منطياً صهوة جواد. لا أقل من ذلك، الجنرال سيمن خوسيه أنطونيو دي لا سانتيسمبا لرعيده بوليفار أي بالاثوس، بطي المفضل منذ أن أمرني جدي بذلك، مرتدياً بدلة المراسم، ويرأس إمبراطور روماني، يقطبه براز طيور السنونو.

كان لا يزال شخصيتي التي لا تُنسى، على الرغم من تناقضاته المستحكمة، أو ربما بسببها، وهي في نهاية المطاف، مماثلة لتلك التي توصل جدي بفضلها، إلى رتبة كولونيل، وقامر بحماته، مرات عديدة، في الحرب التي شنها الليبراليون ضد الحزب المحافظ الذي أسسه بوليفار نفسه وقواد. كنت مستغرقاً في تلك الأفكار الضبابية، عندما أمداني إلى أرض الواقع، صوت حازم وراء ظهري:

- أوقع يدك؟

ولفتتهما بإحساس بالراحة، وانفأ من أن أصدقائي قد وصلوا أخيراً.

ولكنني وجدت نفسي، حين استدفرت، في مواجهة رجلي شرطة فظين،
وبلايس أقرب إلى الأسماك، بصريان بتدقيتيهما الجديديتين بالجباهي.
أرادا أن يعرفا لماذا خرقتُ حظر التجوال الذي بدأ قبل ساعتين من ذلك،
لم أكن أعرف أنه قد فُرض منذ يوم الأحد السابق، مثلما أخبراني هما.
ولم أسمع برقاً أو نواويس أو أي إشارة أخرى تنبئ لي أن أدرك سبب
عدم وجود أحد في الشوارع. وكان الشرطيان أكثر تكاسلاً وأقل نفهاً
عندما رأيا أوراقا الثبوتية، بينما أنا أشرح لهما سبب وجودي هناك.
أعادوا إلي الوثائق دون أن يتفحصاها. سألتني كم من النقود معي،
فأخبرتتهما بأن ما أملكه لا يصل إلى أربعة بيزوات. عندئذ طلب مني
أحدهما تصميماً أن أعطيها سبجارة. فأرسلتهما عقب السبجارة الطفلاً
الذي كنت أثوي تدخينه قبل أن أنام. فابتزعه مني ودخنه حتى لامت
جسمته ظفريه. ثم اتفادني الشرطيان بعد ذلك، من ذواحي، على امتداد
الشوارع، وهما متلفهان إلى التلخين أكثر من حرصهما على تطبيق
القانون، بحثاً عن محل مفتوح لشراء بضع سجائر، من تلك التي تباع
كل واحدة منها بستيفر. كان الليل قد تحول شفافاً وبارداً تحت القمر
المكتمل، وبدأ الصمت مادة غير مرئية، يمكن تنفسه كما الهواء. عندئذ
فهمت ما كان يرويه لنا أبي كثيراً، دون أن تصدقه، من أنه كان يتمرن
على العزف على الكمان فجراً، في صمت المفجرة، لكي يشعر بأن أنغام
الحب التي يعزفها، يمكن أن تُسمع في كل أرجاء منطقة الكاريسى.

بعد أن تعينا من البحث عن سجائر، خرجنا إلى خارج السور، حتى
مرقناً مراكب وحلات قصيرة، يعيش حياته الخاصة وراء السوق العام،
حيث ترسو سفن شراعية من جزر كوراساو وأروبه وغبرها من جزر

الامتيل الصقري. إنه مكان سهر أكثر الناس مرحاً وفائدة في المدينة
بأسرها، فمن يملكون حق الحصول على تصاريحات حرق منع التجوال،
يسبب طبعاً أفعالهم. إنهم يأكلون حتى الفجر، في مطاعم في الهواء
الطلق، بأسعار مناسبة ودفقة طيبة؛ إذ لا يذهب إلى هناك، الموهلون
الليليون وحدهم، ولذا كل من يرغب في الأكل، عندما لا يكون ثمة
مكان يمكن تناول الطعام فيه، لم يكن للمكان تسمية رسمية، بل يُعرف
باسم لا يناسب بأي حال: الكهف.

وصل إليهما الشرطيان وكانهما يصلان إلى بيتهما. وكان واضحاً أن
الزبائن الجلبان إلى الموائد يعرف بعضهم بعضاً منذ الأول، ويشعرون
بالتعادة لوجودهم معاً. وكان من المستحيل معرفة كنياتهم الأسرية، لأن
الجميع يتعاملون بألقابهم المدرسة، ويشكلون بأصوات صارخة في وقت
واحد، دون أن يفهموا أو ينظروا مع من يتكلمون. وكانوا يلبس الصعل،
بامتثناء سبيني ذي رأس تلجي، برتدي سموكنج من أزمنة أخرى، مع
امرأة ناضجة ما زالت تحتفظ بجسمها باهر، ترتدي فستاناً مزيناً بالبرق،
ومستهلكة من كثرة الاستخدام، وتضع الكثير من الحلبي الأصلية، يمكن
لوجودهما هناك أن يكون إشارة حية إلى حقيقة وضعهما، لأنه من
النادر، وجرّد نساً، يسمح لهن أزواجهن بالظهور في تلك الأماكن سيئة
الصحة. وكان بالإمكان الظن أنهما سانهان، لولا نزولهما ولكنتهما
المعالية، وتألفهما مع الجميع. وقد علمت، في ما بعد، أنهما لا يمتان
بصلة إلى ما يبدو أن عليهما، وإنما هما زوجان ساهيان من كارتاخينا،
ينتزهان أي فرجة لارتداء ملابسهما الاحتفالية من أجل تناول العشاء
خارج البيت، وقد وجدا للضيوفين، في تلك الليلة، نانمين، والمطاعم
مغلقة بسبب حظر التجوال.

وكانا هما من دعواتنا للعشاء. أفصح لنا الآخرون مكاناً في المكان، وجلسنا نحن الثلاثة، صحنون وعشرون وعشرون بعض الشيء، وكانوا يتعاملون كذلك مع الشرطيين، يتألف الحدم. وقد كان أحد الشرطيين جدياً ومتفكراً في الكلام، وله ردود أفعال طفل مزود على المائدة. أما الآخر، فكان حريصاً، اللهم إلا في الأكل والشدخ. وقد طُلب أطباء أقل منها، بدافع الحجل أكثر مما هو بدافع التأديب والاعتقال. وعندما انتهت إلى أنني سأبقى بأكثر من نصف جوعي، كان الآخرون قد انتهوا. صاحب المطعم، وكان الحادم الوحيد في الكهف، يدعى خوسيه دولوريس، وهو زمني شبه مراهق، له جمال مشير للفتن، يتلفع بملابس مسلم ناصعة البياض. ويضع طوال الوقت زهرة قرنفل نضرة على أذنه. ولكن أكثر ما يلفت الانتباه فيه هو ذكاه المفرط، وصعوفه كيف يستخدم ذكاه دون محظوظ. ليكون سعيداً ولتسعد الآخرين. كان واضحاً أنه لا ينفقه إلا القليل جداً ليكون امرأة، وله سمعة راسخة بأنه لا ينام إلى مع "رجله". لم يداعبه أحد قط بالسخرية من وضعه. لأنه كان يتمتع بطرف وسرعة يديه في الرد، لا يتحرك معها صنيحاً دون شكر، ولا إسائة دون رد يناسبها. وكان هو وحده يقوم بكل شيء. ابتداءً من طبخه الصائب لما يعرف أنه يروق كل واحد من زبائنه. حتى في شرائع الخبز الأخضر بإحدى يديه، وإجراء المحادثات بهذه الأخرى، دون أي مساعدة إلا تلك الضئيلة التي يقدمها له صبي في حوالي السادسة. ويدهر "ماما". عندما ودعنا، أحسبت بأننا لنلك اللقطة، ولكنني لم أتصور أن ذلك المكان الذي يرتاده مستأخرون في الشهر منقادون. سيكون أحد الأماكن التي لا تنسى في حياتي.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، وافقت الشرطيين ليستكملنا جولاتهما المتأخرة. كان القمر طبقاً ذهبياً في السماء. وكان الهواء قد بدأ يشتد ويجرجر معه. من بعد جداً، تنفأ من الموسيقى وصرخات نائية من حفلة كبيرة. كان الشرطيان يهرقان أن أحداً، في أحياء الفقراء، لا يذهب إلى النوم بسبب خطر النجوال، وإنما يقيمون هناك كل ليلة حفلات رقص يساهمون جميعهم في نفقاتها، في بيوت بعيدة، لا يخرجون منها إلى الشارع حتى الفجر.

عندما أغلقت الساعة الثامنة، طرقتنا بآب فندق، واثقين من أن أحدائنا سيكفون قد حضروا. ولكن الحارس صرخ باستياء بأن نذهب إلى المحيم. لأننا أيقظناه دون مبرر. عندئذ انتبه الشرطيان إلى أنه لا يوجد لدى مكان أنام فيه، وطمروا أخذي إلى السجن. بدا لي ذلك سخرية شديدة الوقاحة، ففقدت طيب مزاجي ووجهت إليهما شتمة. فوجئ أحدهما من رد فعلي الصهاني، فأعادهني إلى الانضباط بتوجيه لوجهة التندبة إلى صحتي. وقال لي وهو يوشك على الموت من الضحك: - دخلك من البلاء. وتذكر أنك لا تزال معتقلاً، لأنك خزلت منع النجوال.

وهكذا، تمت ليثني الأولى في كارتاخينا، في زنزانة تتسع لستة أشخاص، وعلى حصيرة متخمرة بعرق غريب. الوصول إلى روح المدينة، كان أسهل على بكثير من تجاوز اليوم الأول حياً. وقبل انقضاء أسبوعين، كنت قد استعذت الاتصال بالوالدي، وقد وافق دون تحفظ، على قرارني بالعيش في مدينة لا حرب فيها. أما صاحبة الفندق التي ندمت لأنها حكمت علي بقضاء ليلة في السجن،

فقد أسكتني مع عشرين طالباً آخر في مهجع بني حديشاً على سطح بيتها البديع، المشيد على الطراز الكولونيالي. لم أجد سبباً للاحتجاج، لأن المهجع كان نسخة كاريبية عن لماعة الترم في المعهد الوطني، وكلفت أقل من تزل بورغوتا، مع تضمينه الطعام وكل شيء.

مسألة التسمجّل في كلية الحقوق، حُلّت خلال ساعة، باعتماد قبول إجراء أمين الكلية إغناسيو فيليث مارتينيث، ولتستأ في الاقتصاد السياسي لم أتمكن من العثور على اسمه في ذكرايتي، ومشكلاً كانت العادة المتبعة، جرى الامتحان بحضور طلاب السنة الثانية كلهم. وقد لفت انتباهي، منذ اللحظة الأولى، وضوح أحكام الأستاذين ودقة لفتيهما، في متعلقة مشهورة في أنحاء البلاد الداخلية، باضطراب نطقها، كان الموضوع الأول، في القرعة، هو الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، وهو ما كنت أعرف عنه أقل من لا شيء، بقليل. ومن المحزن أنني لم أكن قد قرأت بعد، الروايتين الأمريكيتين الجدد اللتين بدأت بعض أعمالهم بالوصول إلينا آنذاك. ولكن الحظ حالفتني حين بدأ الدكتور فيليث مارتينيث بإشارة عرضية إلى "كوخ العم توم"، وكنّت أصرغها منذ الثانوية، فالتقطت الإشارة بسرعة خاطفة، ولا بد أن الأستاذين قد أصيبا بصدمة حين، ذلك أن السجين دقيقة المخصصة للامتحان انقضت كلها في محبل، بظني عليه التأثير والانفعال، لعار نظام العبودية في جنوبي الولايات المتحدة. ولم تتجاوز ذلك الموضوع. وهكذا، فإن ما كان يبدو لي نوعاً من الرويت الروسي، تكشف عن معادلة منعة استعقلت عليها تدبراً جيداً، بعض التصفيق الودي.

بهذه الطريقة، دخلت الجامعة لألهي سنة الحقوق الثانية، مع الشرط

الذي لم أنجزه قط، بأن أقدم لامتحان تأهيل في مادة أو مادتين لم أكن قد أنهيتهما من السنة الأولى في بورغوتا. تخمّن بعض زملاء الدراسة لطريقتي في ترويض الموضوعات والانتفاف عليها؛ إذ كانت تنتشر بينهم فكرة النضال من أجل حرية الإبداع، في جامعة أصابتها الصرامة الأكاديمية بالجمود. وقد كان ذلك هو حلي المتوحد منذ معهد الثانوية، لبس بدافع رفض مجاني للثقافة، بل لأنه الأمل الوحيد للتمكن من النجاح في الامتحانات، دون أن أدرس. ومع ذلك، فإن من كانوا بطلون باستقلالية وجهات النظر في قاعات الفرس، ما كانوا يجدون مفرّاً من الاستسلام للقدور، والصدور إلى منصة إعدام الامتحان، وقد حفظوا، عن ظهر قلب، مجلدات النصوص الضخمة الموروثة من المعهد الاستعماري. ومن حسن الحظ أنهم كانوا أساتذة متعربين في فن تنشيط حفلات الرقص المساهمة أيام الجمعة، على الرغم من مخاطر الفجع الذي صار أكثر فأكثر، قنادياً، في ظل حالة الطوارئ، تواصلت إقامة حفلات الرقص، باتفاق غير معلّن مع سلطات حفظ الأمن العام، خلال الوقت الذي استمر فيه منع التجوال. وعندما رُفِع، انبعثت الحفلات من احتضارها بقوة أكبر من السابق، ولا سيما في ضاحية توريس أو جنيساني أو عند أطراف لايبوا، أكثر الأحياء صخباً احتفالياً في تلك السنوات المكفورة. كان يكفي أن نطل من النافذة لاختيار الحفلة التي سنرونها أكثر من سواها. ومقابل خمسين سنتاً، كان يمكن لنا الرقص حتى الفجر، على وقع أشد إيقاعات الموسيقى الكاريبية سخونة، مضخمة بدوي مكبرات الصوت. أما الفتيات المدعرات مجاناً، فكان الطالبات أنفسهن اللواتي نلتقيهن خلال الأسبوع، لدى الخروج من

المعارس. غير أنهم يذهبون بلباس قديس يوم الأحد. ويرفعون كتباً الحياة الطمبات، تحت نظرات مشيطة من عسات مراقبات أو أمهات متحدرات. في إحدى ليالي الصيد الأكبر تلك، كنتُ أمضي في حي جشمباني الذي كان حياً للصيد، خلال العهد الاستعماري، عندما أحسست بترهيب على ظهري، وفرقة صوت يقول: كما لو أنها كلمة

مر

- يا قاطع الطريق!

كان مانويل زاباتا أوليفييا، ساكن شارع الشوارع المتهدمة، حيث عاشت أسرة أجداد أجداد الأملقة. وكنا قد التقينا من قبل في بومونا، وسط أوار التاسع من نيسان، وكانت دهشتنا الأولى عند لقاءنا مجدد في كارتاخينا، هي معرفة كل منا أن الآخر لا يزال حياً. ولد كان مانويل، فضلاً عن أنه طبيب إحصان، وواثياً، وناشطاً سياسياً، ومنتشاً لموسيقى الكاريبي، غير أن ميله الساحق كان السعي إلى حل مشاكل المجتمع. وما كدنا ننتهي من تبادل الحديث عن تجربتنا في يوم الجمعة المصعب، وعن خططنا للمستقبل، حتى اقترح عليّ أن أجرب حظي في الصحافة. قبل شهر من ذلك، كان الزعيم الليبرالي لويس إسكوبارثا قد أسس صحيفة الأونيفرسال، وكان رئيس تحريرها هو كليمنتي مانويل تابالا. وكنتُ قد سمعت شيئاً عن هذا الأخير، ليس كصحفي، وإنما كملامة في الموسيقى، وشعبي كامن. أخبر زاباتا أوليفييا على أن نذهب لقايلته، إذ كان يعرف أنه يبعث عن أناس جدد، لكي يُنقِط خطأ من الصحافة الملاحقة. في مواجهة الصحافة الروتينية المنقادة، السائدة في البلاد، وخاصة في مدينة كارتاخينا، وهي آنذاك إحدى أكثر المدن تخلفاً.

كنتُ أدرك بوضوح، أن الصحافة ليست مهنتي. فإنا نريد أن نصير كاتباً مختلفاً. ولكنني أحاول ذلك بمحاكاة كتاب آخرين لا علاقة لهم بي. وقد كنتُ في تلك الأيام في استراحة تأمل؛ إذ بعد قصصي الثلاث الأولى التي نشرت في بومونا، ولقيتُ بسببها، إطراء إدواردو تابالا ونقاد آخرين وأصدقائه، طيبين وسيئين، شعرت بأنني وصلت إلى طريق مسدود. فألق زاباتا أوليفييا، مفتناً حجبتي، على أن الصحافة والأدب سينتهيان عما قريب ليكونا الشيء نفسه، وأنه يمكن لارتباطي بجماعة الأونيفرسال، أن يضمن لي ثلاثة مصائر في الوقت نفسه: حل شؤوني الحياتية بصورة كريمة وناجحة، والدخول في عالم أحترف فيه عملاً هو بعد ذاته مهنة مهنة. والعامل مع كليمنتي مانويل تابالا، أفضل معلم صحافة يمكن تخيله. كان يمكن لكايح الحياة الذي أثاره في ذلك التبرير شديد البساطة، أن يتجنبني من المهينة، ولكن زاباتا أوليفييا لم يكن قادراً على تحمل الإخفاق في مساعيه، فطلب مني المصنوع في اليوم التالي، الساعة الخامسة مساءً، إلى الرقم ٢٨١ شارع سان خوان دي ديبوس، حيث مقر الصحيفة.

نمت تلك الليلة خلساً. وفي اليوم التالي، سألتُ صاحبة الفندق، أتنا، تناول الفطور، أين هو شارع سان خوان دي ديبوس، فأنشأت بلصحبها من النافذة، وقالت لي:

- هناك بالذات، بعد شارعين.

وهناك كان مقر الأونيفرسال، قبالة الجدار الحجري الضخم والمزخرف لكنيسة سان بيدرو كلاكير، أول قديس، في أميركا، والذي ما زال جسامته غير المنفوخ معروضاً، منذ مئة سنة، تحت طليح الكنيسة الكبير.

كانت مكاتب الجريدة في بناء قديم من الطراز الكولونيالي، موشى بترميمات جمهرية، وبوابتين كبيرتين وبعض النوافذ التي يظهر من خلالها كل ما كانت عليه الجريدة. ولكن رغبى الحقيقي كان يقبع وراء شرفة من خشب دون سقف، على بُعد نحو ثلاثة أمتار من النافذة؛ إنه رجل ناضج ومنحود، يرتدي بدلة قطانية بيضاء، وربطة عنق، وله بشرة لائقة وشعر هندي طاس وأسود. يكتب بقلم رصاص، وراء مكتب عليه أكדاس أوراق متآخرة. مروت ثانية بالانجاء المعاكس، بافتتان طارخاً ثم أعدت الكرة مرتين أخريين. وفي المرة الرابعة، مثمناً في المرة الأولى، لم يراوده في الشكل في أن ذلك الرجل هو كلبسنتي مانويل ثابالا، قاصاً مثمناً توقعته، ولكن أشد رجة. وبهذا الرعب يلونى، اتخفت القرار البسيط بعدم الذهاب إلى الموعد، في ذلك المساء، مع رجل تكفى وريته من النافذة. لاكتشاف أنه يعرف أكثر مما يجب عن الحياة وعن مهنته. رجعت إلى الفندق، وأعدت يوماً آخر من أيامي، بلا نوم، وأنا مستلق على السرير، لقرعة "من يفوز النقود" لأتدريه جيد، والتدخين دون توقف. في الخامسة مساءً، اهتز باب الحجرة بصعقة قوية كأنها رصاص بدلية، وصرخ بي زابالا أوليفيا من المدخل.

- هيا بنا، يا لثقة! ثابالا ينظران، وليس هناك في هذه البلاد من يسمح لنفسه بتف التخلي عن موعد معه وتركه معلقاً. كانت البداية أصعب مما يمكن لي أن أتخيله في كابوس. استقبلني ثابالا دون أن يدري ما يفعله. وكان يدخن دون توقف، باضطراب يزيد الحرج من حديثه. أرائنا كل شيء: رتاحة التحرير والإذاعة في جانب، وفي الجانب الآخر قاعة التحرير والورشة، وفيهما ثلاث متناخذ غير مشغولة

في تلك الساعة المبكرة. وفي أقصى المكان مطبعة دوارة ناجية من فتنة، وألنا تنضيد وحيدتان من نوع ليتوتيب.

وكانت مفاجأتى الكبرى أن ثابالا قرأ قصصى الثلاث، وبدأت له الملاحظة التي كتبها ثابالا متصفة. فقلت له:

- أما أنا فلا أرى ذلك. القصص لم تحببني. لقد كتبتها بدوافع غير واعية إلى حد ما. وبعد أن قرأتها مطبوعة، لم أهد أدري من أين سأواصل.

استنشق ثابالا الدخان عميقاً، وقال لزبابانا أوليفيا،

- إنها بادرة طيبة.

فلانقط مانويل الفرصة بسرعة، وقال له إنني قد أكون مفيداً له في الصحافة، خلال وقت فراغي من الجامعة. فقال ثابالا إنه فكر في الشيء نفسه عندما طلب منه مانويل موعداً لي. وقد قدمني إلى المدير العام. الدكتور لوبيث إسكايواتا، على أنني المساهم المحصل الذي حدثه عنه في الليلة السابقة.

- سيكون ذلك رائياً - قال المدير بامتناسمه الأبدية، كسيد نبيل على الطريقة القديمة.

لم تنفق على شيء، غير أن المعلم ثابالا طلب منى الرجوع في اليوم التالي، لتقديمني إلى هيكتور روخاس هيرانو، وهو شاعر ورسام من الجيعةين، وكتاب عمود لامع في الجريدة. لم أقل له إنه كان أستاذي في الرسم. في مدرسة سان خوسيه، بسبب خجل يبدو لي اليوم غير قابل للتفسير. وغور الخروج من هناك، فغز مانويل قفزة طرب في ساحة الجساراك، قبالة واجهة كنيسة سان بيدرو كلاكير المهيبة، وهتف بفرح مبكر:

- أرأيت أيها التمر، لقد أنجز الأمر!

تجارت مع مجارانه في عناق ودي، كيلا أخيب أمه. ولكنني كنت أمتلظ بشكوكه جدبة حول مستقبلتي. سألتني مانويل عندئذ، كيف بدا لي ثابالا، وأجبتته بالحقيقة: لقد بدا لي صياد أرواح. وربما كان هذا هو السبب الخامس في أن الجصاصات الشبانية تنفذ على عقله ودعائه. واختتمت قائلاً، بتقويم عجوز ميكرو، وزائف دون ريب. إن طريقته تلك قد تكون هي التي حالت دون توليه دوراً حاسماً في حياة البلاد العامة. اتصل بي مانويل ليلاً، وهو يكاد يموت من الضحك، بسبب محاولة دارت بينه وبين ثابالا. فقد حدث هذا الأخير عني بحساس شديد، وأكد على ثقته بآلتي ساكون مكسباً مهماً لصفحة الافتتاحيات. وكان المدير متفقاً معه في الرأي. غير أن السبب الحقيقي لانحاله كان رغبته في إخباري بأن الشيء الوحيد الذي يفلح المعلم ثابالا، هو أنه يمكن لحبائي المرضى أن يشكل عقبة كبيرة في حياتي.

وإذا كنت قد قررت نسي الملحظة الأخيرة، العودة إلى الصحيفة، فلأن زميلاً في الحجرة، فتح عليّ الباب، وأنا أمتحم في صباح اليوم التالي، ووضع أمام عيني صفحة التعليقات الافتتاحية في الأوبليرسال. كانت هناك ملاحظة مرعبة عن وصولي إلى المدينة، تورطني بكوني كاتباً قبل أن أصبح كذلك، وبأنني صحفي لامع قبل مرور أقل من أربع وعشرين ساعة على ولأتي، أول مرة. جريدة من الداخل. أثبت مانويل الذي اتصل بي فوراً بالهاتف، لتعشتي. دون أن أداري غضبي من كتابته مثل تلك الملاحظة غير المسؤولة دون أن يطهرني بها مسبقاً. ومع ذلك، فإن شيئاً قد تغير في، وربما إلى الأبد، عندها

علمت أن المعلم ثابالا نفسه، هو الذي كتب تلك الملاحظة. وهكذا حزمت بتطالتي ورجعت إلى تحرير الجريدة لأقسم له الشكر. لم يكذبهم بشكري. وقدمني إلى هيكتور ووخاس هيراثو الذي كان يرتدي بنطالاً خاكياً وقميصاً مزيناً بزهرة أمازونية، ويتكلم كلمات ضخمة يطلقها بصوت واعد، ولا يستسلم في المحادثات إلى أن يقتنص طريقتها. لم يتعرف عليّ بالطبع، كواحد آخر من تلاميذه في مدرسة سان خوسيه في باراناكيا.

وضعنا المعلم ثابالا - مثلهما كان يدعو الجميع - في مناره، بذكريات عن صديقين أو ثلاثة أصدقا. مشتركين، وعن آخرين يتوجب عليّ أن أتصرف عليهم. ثم تركنا وحدنا، ورجع إلى الحرب الضارية التي يخوضها بقلبه الرصاصي المتوقد. على أورا له المستعجلة، وكأنه لم تكن له خط، أي علاقة بنا. وأصل هيكتور حديثه إليّ، على وقع آلتى اللبتوتيب الرتيب المحافت، وكأنه هو أيضاً لم تكن له أي علاقة بثابالا. لقد كان محدثاً لا نهائياً، يتتبع بذلك، تمهيري صهير، ومغامراً في التخيل، يفتلق وفائع لا تُصدق، ينتهي به الأمر، هو نفسه، إلى تصديقها. تبادلنا الحديث طوال ساعات، عن أصدقا، آخرين، أحبا، وميتين، وعن كتب ما كان يجب كتابتها قديماً، وعن نساء نسينا، لكننا لم نستطع نسيانهم، وعن شواطئ حاملة في فردوس تولو الكاريبي - حيث ولد هو - وعن سحرة معصومين عن الخطأ، ونكبات أراكاتانكا الثورانية. وعن كل ما كان وما سيكون، دون شرب أي شيء، ودون أن نكاد نتنفس، ونحن ندخن حتى المرفقين، خوفاً من ألا نغمد بنا الحياة للحدث عن كل ما تحتاج إلى التحدث عنه.

في الساعة العاشرة ليلاً، عندما أغلق تحرير الصحيفة، ارتدى للعلم ثياباً سترته، وعقد رباطه عنقه. وبخطة باليه راقصة لم يبق فيها إلى القليل من الشباب، دعانا لتناول الطعام. ومثلما هو متوقع، ذهبنا إلى الكهف، حيث فوجئ بأن خوسيه دولويرس وعدداً من زبائن آخر الليل، تعرفوا عليّ كزبائن قديمين. وأذهلت مفاجئته عندما مرّ أحد الشرطين اللذين رافقاني في زيارتي الأولى للمطعم، ومازحني بدعابة مستترة من ليلتي المسنة لدى الحبس، وصادر مني عتبة سجاير كنت قد فتحتها للتو. وبدوره، أثار هيكسور حيازة كلامية مزعومة المعنى مع خوسيه دولويرس، أنارت ضحكك الزبائن، أمام صمت المعلم ثياباً السعيد. ولجأت أنا على التدخل برفء لا هرف فيه، أفادني على الأقل في أن أكون معترفاً بي كواحد من الزبائن القليلين الذين يقدم لهم خوسيه دولويرس الطعام ديناً، حتى أربع مرات في الشهر.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، واصلت أنا وهيكتور حديثنا الذي بدأناه مساءً، في شارع الشهداء، قبالة الملبج التقى فضلات السوق العام الجمهوري. كانت ليلة رائعة في منتصف العالم، يتسا أول سنن كوراساو الشراعية تُنقع خفية، في ذلك الفجر، قدم لي هيكتور أول الإضاءات، حول تاريخ كارتاخينا الحفي، والمنطق يبحار من الفمزع، وربما بدت أقرب إلى الحقيقة من خيال الأكاديميين المجامل. حدثني من حياة الشهداء العشرة الذين تنتصب تماثيلهم النصفية على جانبي ممر الساحة، تخليداً لبطولتهم. الرواية الشعبية - وهي تبدو كما لو أنها من بنات أفكاره - تقول إنه عند وضع التماثيل في أماكنها الأصلية، لم ينقش النحاتون أسماء الشهداء وتاريخ ميلادهم على التماثيل نفسها.

وإنما على القواعد التي استقرت عليها. ولهذا، عندما رفعها من أماكنها لتظيفها بنسبة الذكرى التوبة لاستشهادهم. لم يعودوا يعرفون لمن تنصع الأسماء والشوايخ، واضطروا إلى إعادة وضع التماثيل على القواعد. كيفما اتفق، لأن أحداً لم يكن يعرف اسم أحد. كانت المداولة متداولة كمعابة. منذ سنوات طويلة. ولكنني فكرت بالمقابل، بأنها حققت العدالة التاريخية بشكرها أولئك الأعيان دون أسماء، لأنهم لم يُخلدوا بسبب حياتهم التي عاشوها، بقدر ما هو بسبب مصيرهم المشترك.

تكررت ليالي الشهر تلك، بصورة يومية تقريباً، خلال سنواتي في كارتاخينا. ولكنني منذ الليلتين أو الثلاث الأولى، انتبهت إلى أن هيكتور يتصنع بقدرته على الإغواء المباشر، مع حسن صداقة شديد التعفّف، لا يمكن إلا لنا نحن اللذين نحبه كثيراً، أن نتفهمه دون تحفظ. لقد كان رقيقاً جداً، إلا أنه لادور في الوقت نفسه، على اجسراح غضبات صاخبة. وأحياناً كارثية، ثم يحتفل بنفسه، بعد ذلك، بصفع، كأنه الطفل يسوع. عنفدّ بفهم أحدهما حقيقته، وبفهم لماذا يفعل ثياباً كل ما هو ممكن لكي نحبه كثيراً بقدر ما نحبه. في الليلة الأولى، مثلما في ليال كثيرة أخرى تالية، بقينا حتى الفجر في شارع الشهداء، صحتين من حظر التجوال، بوضعنا كصحنين. كان صوت هيكتور وذاكرته لا يزالان على خير ما يرام، حين رأى يريق النهار الجديد في أفق البحر، وقال:

- عسى أن تنتهي هذه الليلة كما في "كازابلانكا".
ثم يقل أي شيء آخر. ولكن صوته أعادني إلى كل بها صورة

معمري بوجلوت وكلود رينس. وهما يضيآن كتباً إلى كتف، في القفير الضبابي، باتجاه تائق الأتق المشع. والجملة التي صارت نائية عن تلك النهاية المتأسوية السعيدة: "هذه بداية صداقة عظيمة".

بعد ثلاث ساعات من ذلك، أبقتني المعلم تابالا هاتفياً، بحبابة أقل سعادة:

- أين وصلت في هذا المقال العظيم؟

احتججت إلى بضع لحظات لكي أؤكد أنه يعني مساهمتي في الجريدة لليوم التالي. لا أفذكر أننا توصلنا إلى أي اتفاق، أو أنني قلت نعم أو لا. عندما طلب مني أن أكتب مساهمتي الأولى، ولكنني كنت أشعر، في ذلك الصباح، بأنني قنادر على أي شيء. بعد المحادثة الأولية في الليلة السابقة. ولا بد أن تابالا فهم الأمر على ذلك النحو، إذ كان قد أشار إلى بعض الموضوعات التي سيجري تناولها في ذلك اليوم، واقترح على موضوعاً آخر بدا لي أكثر راحة: حظر التجوال.

لم يقدم لي أي توجيه. وكنت أنوي رواية مخامرة ليثني الأولى في كارتاخينا. وهذا ما فعلته. بخط يدي، لأنني لم أستطع التفاهم مع الآلات الكاتبة الخرافية في قاعة التحرير. كان مغاضباً استمر نحو أربع ساعات، وأجعه المعلم أمامي دون أي ملجأ أو تعبير يكشف عما يفكر فيه. إلى أن وجد المل الأساليب مرارة ليقول لي:

- ليس سيئاً. ولكن من المستحيل نشره.

لم ينجحني. بل على العكس. فقد كنت أتوقع الأمر. وحررتني من ذلك الهم الثقيل في أن أصير صحفياً. ولكن أسبابه الحقيقية اثني كنت أجعلها، كانت حاسمة؛ فمنذ التاسع من نيسان. صار هناك في كل

صحيفة في البلاد، وحيث من الحكومة، يتبع وراء منتقدة في قسم التحرير، كما لو أنه في بيته. منذ الساعة السادسة مساءً، ويشتت بالإرادة والسلطة في عدم السماح بنشر أي حرف يمكن له أن يمس الأمن العام.

كانت مبرات تابالا أشد وطأة عليّ، من مبرات الحكومة. لأنني لم أكن قد كتبت تعليقاً صحفياً، وإنما إعادة سرود ذاتية تحدث خاص، دون أية مزاعم بأنه تعليق صحفي. كما أنني لم أتعامل مع حظر التجوال كوسيلة شرعية لتخفيف الدولة، وإنما كمحبة يتلوع بها بعض الشرطيين الانطوائ ذوي يحصلوا على سجناء من تلك التي تساوي كل واحدة منها مستشار واحد. ولحسن الحظ أن المعلم تابالا، لسبب أن يحكم عليّ بالإعدام، أعاد إليّ الملاحظة التي يجب إصلاحها من ألفها إلى يائها، ليس عن أجله هو، وإنما من أجل الرقيب، وأنعم عليّ بحكم ذي حدين قائلاً:

- أنت تمتلك الكفاءة الأدبية، وهذا أمر لا شك فيه. ولكننا

ستحدث في ذلك فيما بعد.

حكنا كان هو. فمنذ يومي الأول في الصحيفة، عندما تحدث تابالا معي ومع زياتا أوليفيبياً، لفقت انتباهي عاتة الفريدة بالتحدث إلى أعدائنا. وهو ينظر إلى وجه الآخر، بينما أطفاله محترق بحمرة سجنائته. لقد سبب لي ذلك، في البدء، قلقاً مزعجاً. والأمر الأقل حصاداً الذي خطر لي، بدافع الحياة المحض، هو الاستماع إليه بانتباه حقيقي واهتمام هائل، ولكن دون النظر إليه، وإنما إلى مانويل، لكي أستخلص نتائج من كليهما. وبعد ذلك، عندما تبادلنا الحديث مع روخاس هيراثو، ثم مع

المدير لويس إسكافينا فيما بعد، ومع كثيرين غيرهما، أدركت أن تلك هي طريقة ثابالا الخاصة، عندما يتحدث ضمن جماعة. فهت الأمر على هذا النحو، وعلى هذا النحو استطعنا، أنا وهو، تبادل الأفكار والمشاعر من خلال النظر إلى شركاء، غافلين ووسطاء، برتني. وعندما استمرت الثقة المتبادلة بيننا، مع مرور السنوات، تجمعت على التحدث إليه عن الطباخي ذلك، فأوضح لي دون استعجاب، بأنه إنما ينظر إلى محدثه بصورة ماثلة تقريباً، كيلا ينتف دخان سيجارته في وجهه. لقد كان هكذا، لم أتعرف قط، على أحد، بطبع شديد الوداعة والتكتم مثله، ومزاج مدني مثل مزاجه، لأنه عرف أن يكون على الدوام، ما يريد أن يكونه، حكيماً في الظل.

الحقيقة أنني كنت قد كتبت خطابات، وأشعاراً مبكرة في معهد ثيباكيرا، ولغات وطنية ومذكرات احتجاج على سوء الطعام، وكتابات قليلة أخرى، دون حساب الرسائل إلى الأسرة التي كانت أمي تصيدها إليّ، وقد صححت ما فيها من أخطاء إملائية، حتى بعد أن صرت كاتباً معترفاً به. لكن المقالة التي نُشرت أخيراً في صفحة التعليقات الافتتاحية، لم تكن لها علاقة بما كتبه. فما تبقى مني، بين ترفيحات المعلم ثابالا والرفيب، هو مجرد نصف نشر غنائي بلا وجهة نظر ولا أسلوب، أجهز عليها مصحح التجارب بتعصب النحوي. انتهت في نهاية المطاف على أن أتولى كتابة عمود يومي، ربما تصحيد المسؤوليات، ينشر باسمي الكامل، وبعنوان دائم: "نقطة وسط جديد".

فكن ثابالا وروخاس هيراثو، المجرمان جيداً في الاستنزاف اليومي، من مراسلاتي من الضيق الذي سببه لي، ما حل ببقائتي الأولى. وهكذا

تجمعت على المواصله، بكتابة مقالة ثانية وثالثة، لم تكونا أولهما. بقيت في التحرير قرابة سنتين، أنشر حتى زاويتين صحفيتين يومياً، وأتأكد من كسبهما من الرقابة، بتوقيع ودون توقيع، حتى أوشكت على الزواج من ابنة أخي الرفيب.

ما زالت حتى اليوم أتساءل، كيف كان يمكن لحباتي أن تكون، من دون قلم المعلم ثابالا، ومشد الرفيب الذي كان مجرد وجوده تحدياً خلاقاً، ولكن الرفيب كان يعيش باحتراس أكثر من أن يسبب هوسه في الملاحقة، فالاحتباسات من كمار الكشام، تبدو له مكاييد مريبة، وهي كذلك بالفعل، في أحضان كشيرة. لقد كان يرى أسوأها، فهو كويتب تافه، يفترض معاني متخيلة، وفي إحدى ليالي سوء ظنائه اضطر إلى الذهاب إلى المرحاض، كل ربع ساعة، إلى أن لجأ إلى القول لي، إنه يوشك على أن يصاب بالجنون، لما نسبته له من الرعب، وصرخ:

- يا لعلنا يمثل هذا الذهاب والإياب، سأبقي دون مؤخره

كانت قد جرت عسكرة الشرطة، كدليل آخر على صرامة الحكومة تجاه العنف السياسي الذي كان يدمي البلاد، مع شيء من الاعتدال على ساحل الأطلسي. ومع ذلك، فقد أطلقت الشرطة النار في أوائل شهر أيار، دون سبب، على حوكب الأسبوج المقدس، في شوارع بلدة كايمن دي بوليفار، على مسافة نحو عشرين فرسخاً من كارتاخينا. كنت أشعر بضيق عاطفي تجاه تلك البلدة، حيث ترعرعت العمدة "ماما"، وحيث ابتكر الجند تيكلولاس أسماك الذهبية الشهيرة. فطلب مني المعلم ثابالا، المولود في قرية سان خاشينتو المجاورة، بإصدار غريب، أن أتناول الخمر بمقالة افتتاحية، دون أن أولي اهتماماً للرئاسة ولكل ما سيعترض على

ذلك من نتائج. فطالبت الحكومة في مقالتي الأولى المغفلة من التوقيع، في صفحة الافتتاحية، بفتح تحقيق معق حول الاعتداء. ومعاذ الله من قاموا به. وأنهيت المقالة بسؤال يقول: "ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟". وحيال التجاهل الرسمي، وفي حرب صريحة ضد الرقابة، واصلنا تزييد السؤال في تعليق يومي في الصفحة نفسها، بحساس متنام، وباستعداد لإثارة حفيظة الحكومة، أكثر ■ كانت عليه. بعد ثلاثة أيام من ذلك، طلب مدير الجريدة من تابالا تأكيداً بأنه تشاور في الأمر مع هيئة التحرير بكاملها. وكان هو نفسه موافقاً على وجوب مواصلة الموضوع. وهكذا واصلنا توجيه السؤال. وفي أثناء ذلك، كان الشي. الوحيد الذي عرفناه عن موقف الحكومة هو ما جأنا من خلال وشاية: لقد أصدروا الأوامر بتركنا نرود موضوعنا كمجانين طلقاء، إلى أن يصيبنا الملل. لم يكن ذلك سهلاً. فوالنا البومي كان ينتشر في الشارع كدجبة شعبية: "مرحباً يا أخي، ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟".

وفي ليلة لا تخطر على بال، ودون أي إنذار مسبق، أغلقت دورية عسكرية شارع سان خوان دي ديوس بجملة أصوات وقهقهة أسلحة. ودخل الجنرال أرنستو بولالينا بيرو. لمائد الشرطة المعبشة، إلى مبنى جريدة الأوتيفرسال، وهو يظا الأرض بقوة. كان يرتدي الزي العسكري الأبيض المخصص للمناسبات الكبرى، وطباقاً ملحمياً باللونين. بينما السيف معلق إلى جانبه يحمل من الحرير، وأزواره وشاراته تلمع كأنها من الذهب. لم يكن ينقص مقدار ذرة من سمعته كصائق وجذاب. وإن كنا نعرف أنه رجل صلب في السلام والحرب، وهو ما أتيحه بعد سنوات

من ذلك بقيادته للفرقة الكولومبية. في حرب كوربا. لم يتحرك أحد خلافاً للمعتدين الثورتين من محادثة، على أفراد، مع المدير. تناولنا اثنين وعشرين فتجان لهوة سوداء، دون مجائر ودون كحول، لأنهما كليهما كانا متحررين من آفة الإدمان. ولدى خروجه، بدأ الجنرال أكثر توتراً وهو يصفنا فرداً فرداً. وقد تأخر أكثر قليلاً في مصافحتي. نظر إلى عيني مباشرة بعينه الشائتين، وقال لي: - أنت ستصل يوماً.

ظفر لمبي من مكانه، فقد فكرت في أنه ربما يعرف كل شيء. عني، وأن البعيد الذي سأسل إليه، عني نظره، قد يكون الموت. وعندما اجتمع المدير مع تابالا على أفراد، ليطلعه على محادثته مع الجنرال، كشف له عن أن الجنرال يعرف من يكتب كل تعليق في الجريدة، باسمه وكنيته. وقد قال له المدير، بإيماة خاصة ليزه، إن كل ما يكتب يتم بأمر منه. وإن الأوامر في الصحف، تنطق مثلها في النكتات العسكرية. ولكن الجنرال نصح المدير، على أي حال، بأن يهتئ المسئلة، فقد يظهر متوحش. من رجال الكهوف، راقب في إحفاي العدالة باسم حكومته. لهم المدير المفضي من ذلك، وفيهنا جميعنا حتى ما لم يقله. وكان أكثر ما فاجأ المدير هو تباي الجنرال بمعرفة تفاصيل الحياة الداخلية في الجريدة، كما لو أنه يحش فيها. جميعنا كنا موفين بأن عميله السري هو الرقيب، على الرغم من أن هذا الأخير أكس برفات أمه، أنه ليس الواشي، الشي. الوحيد الذي لم يحاول الجنرال الإجابة عليه، خلال زيارته. هو سؤالنا البومي. وقد تصحنا المدير، المعروف بحكمته، بأن نصدق ما قاله لنا، لأنه يمكن للحقيقة أن تكون أسوأ بكثير.

مثل أن التزمت بالحرب ضد الرقابة، لم أعد أعبأ بالجامعة، ولا بالقصص القصيرة. ولحسن الحظ، أن معظم الأساتذة لم يكونوا يجهرون بتفقدنا للحضور، مما كان يسهل حضور الدروس والتغيب عنها. أخف إلى ذلك أن الأساتذة الليبراليين الذين يصرقون مشاكلي مع الرقابة، كانوا يهاتون أكثر مني وهم يبحثون عن طريقة لمساعدتي في الامتحانات. واليوم، بينما أنا أحاول رواية تلك الأحداث، لا أجد أثراً لتلك الأيام في ذاكرتي. وقد انتهى بي الأمر إلى الإيمان بالنسيان أكثر من المذاكرة.

لأم أبواي مطمئنين، منذ أن أعلمتهما بأنني أكسب في الجريدة، ما يكفيني للعيش. لم يكن ذلك صحيحاً. فراتبي الشهري كمدرّس، لم يكن يكفيني أسبوعاً، وقبل انقضاء ثلاثة شهور، تركت الفتدق بدون لا يكتفي تسديدها. وقد طابعتني عليها صاحبة الفتدق، فيما بعد، بنشر ملاحظة في صفحة المجتمع عن عبد مبلّاه حبيبته المخاص عشر. ولكنها لم توافق على مثل تلك الصلقة، سوى مرة واحدة.

مكان النوم الأكثر ارتياداً وبرودة في المدينة، كان لا يزال شارع الشهداء، حتى في أزعجة حظر التجوال. فقد كنت أنام هناك جالساً، بعد أن تنتهي السهرات التي تستمر حتى الفجر. وفي أحيان أخرى، كنت أنام في مستودع الجريدة، فوق الطافات الورق، أو أذهب حاملاً أرجوحة نومي الشبكية، تحت إبطي، إلى غرف طلاب آخرين عاطلين، ما داموا قادرين على تحمل كوابيس وعاداتي السيئة بالتكلم نائماً. هكذا عشت تحت رحمة الحظ والقدور، أكل ما أجد وأنام حيث يشاء الله، إلى أن اقترحت عليّ تبيبة آل فرانكر مونيرا الإنسانية، أن تقدم لي الوجبتين اليوميّتين بسعر أقرب إلى الإنسان. كان والد التبيبة -هوليفار فرانكو

باريسا - معلقاً تاريخياً في المدارس الابتدائية، وبأ أسرة مريحة ومتعصبة، تضم قنّتين وكثاباً، فكانوا يجبرونني على أن أكل، أكثر مما كنت أدفعه لهم، كيلا يخط دعائي. وفي أحيان كثيرة، لم يكن لدي ما أدفعه، ولكنهم كانوا يكتفون بأشعار ألقيا عليهم بعد تناول الطعام. وكانت نسبة كبيرة من تلك الصفقة المشجعة، هي مقاطع لدون خورخي مانريك، في موت أبيه، و"أغنيات الفجر" لغارسيا لوركا.

المواخير المكشوفة في الهواء، على شواطئ تيسكا، بعيداً عن صمت سور المدينة المقلق. كانت أكثر ضبابية من فنادق السباح على الشواطئ. وكنا حوالي ستة طلاب جامعيين نلتقي في "الجمعة" منذ ليلة التحضير للاختبارات الأولى، تحت أنوار فناء الرقص المبهرة. كان نسيم البحر وجزار السفن عند الفجر، يرأسنا من صخب التحاسينات الكاريبية، ومن إثارة الفتيات اللواتي يرقصن دون سراويل داخلية، وبتنانير واسعة جداً، يرلعهما هراً البحر حتى خصورهن. وبين حين وآخر، تدعونا مصفورة نحن إلى أبيها، للنوم مع نزع الحجب البسبر المثبتي لديها، عند الفجر، إحداهن، وما زلت أتذكر اسمها وحجمها جيداً، أسلت نفسها لإغواء الادعاءات المتججعة التي كنت أرويها لها، وأنا نائم. وفضلها لمجتمعات القانون الروماني، دون تلاعبات لفظية؛ وأفلتت من عدة مداخلات، عندما حظرت الشرطة النوم في الحدائق. كنا متفاهمين كزوجين منشفين، ليس في السرير فقط، وإنما كذلك، في الأعمال المنزلية التي كنت أقوم بها بدلاً منها، في الفجر، لكي تتمكن من النوم بضع ساعات إضافية.

في أثناء ذلك، بدأت أستقر جيداً في عملي، في كتابة التعليقات الاقتراحية. وكنت أعتبره على الدوام، شكلاً أقرب إلى الأدب، منه إلى

الصحافة. كانت برغوتا كابوساً من الماضي، على مسافة مئتي فرسخ، وعلى ارتفاع أكثر من ألفي متر فوق سطح البحر. لا أتذكر منها إلا عفونة وماد التاسع من نيسان. وكنت ما أزال غارقاً في حمى الفنون والآداب، لا سيما في مسامرات منتصف الليل. ولكنني بدأت أفقد الحماس في أن أصبر كاتباً. وكان ذلك صعباً إلى حد أنني لم أجد إلى كتابة قصة واحدة. بعد النقص الثلاث التي نشرت في *الأميكتادور*، إلى أن عشر علي إدواردو ثالابا في أوائل شهر تموز، وطلب مني، برساقة من المعلم ثالابا، أن أرسل إليه قصة أخرى لنشرها في جريدته. بعد ستة شهور من الصمت، ولأن الطلب جاء، منه، استجيمت. كيفما اتفق، بعض الأفكار الضائعة لي مسوداتي، وكنت *"الضلع الآخر للموت"*. وكانت أكثر قليلاً من الشيء نفسه. أتذكر جيداً أنه لم يكن لها أي موضوع مسبق، فبحثت أختلقه في أثناء كتابتها. وقد نشرت يوم الخامس والعشرين من تموز ١٩٤٨، في ملحق نهاية الأسبوع". مثل سابقتها، ولم أجد إلى كتابة مزيد من النقص، حتى السنة التالية، عندما كانت حياتي قد تبدلت. لم يكن ينقصني إلا التخلي عن دروس الحقوق القليلة التي أتابعها، بين حين وآخر، ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة لإلها، حلم أبري.

لم أكن أنا نفسي، أنصوّر آنذاك، أنني سأكون عصاً قريب، طالباً أفضل مما كنته في أي وقت آخر، في مكتبة غوستافو إيبارا ميرلاتو. وهو صديق جديد، عرفني عليه ثالابا وروخاس هيرانو بحماس كبير. كان قد رجع لشوه من برغوتا، إلهادة من دار المعلمين العليا، وانضم فوراً إلى مسامرات الأصدقاء، في الأونيفرسال، ومتناقشات الفجر في

شارع الشهداء. وبين طلائع لسان هكتور البركانية وأرتيبيية ثالابا الخلاقة، أسهم غوستافو بإضافة الصرامة المنهجية التي كانت تقتطعها كثيراً، أفكاره المرحلة والمشعشة، وظنة فليبي. وكل هذا وسط رقة كبيرة وطيح حديدي.

منذ اليوم التالي، دعاني إلى بيت أبويه على شاطئ ماريبيا، حيث يشكل البحر الفسح لنا، خلفياً. وكانت فيه مكتبة تغطي جداراً كاملاً طوله اثنا عشر متراً، جديدة ومرتبعة، تحفظ فيها الكتب التي لا بد من لراحتها من أجل عيش الحياة دون تأنيب ضمير. كانت هناك طبعات لأعمال الكلاسيكيين الإغريق، واللاتينيين، والإسبان، معننى بها جيداً كما لم أنها لم تقرأ، لكن هراش صفحاتها لحمل خريشة ملاحظات حكيمة. بعضها باللاتينية. وكان غوستافو يترجمها بأعلى صوته. وعين ينطق بها بحرص خجلاً، حتى جفون شعره، ويحاول هو نفسه أن يجد مخرجاً لها بخفريات لاؤعة. لقد قال لي عنه أحد الأصدقاء، قبل أن أتعرف إليه: "هذا الشخص خوي". وسرعان ما أدركت السبب في سهولة تصديق ذلك، على الرغم من أنه، بعد التعرف إليه، كان من شبه المستحيل، تصديق أنه ليس كذلك.

في تلك الليلة الأولى، تبادلنا الحديث، دون توقف، حتى الفجر. وعرفت أن قراءاته كانت طويلة ومتنوعة، ولكنها مدعمة بعقيدة متعمقة لأعمال الشقطين الكاثوليكين المعاصرين، ممن لم أكن قد سمعت بهم قط. كان يعرف كل ما يجب معرفته عن الشعر، خاصة أشعار الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يقرأ أعمالهم في طبعات أصيلة. وكانت لديه، أحكام تستند إلى معطيات جيدة، عن أصدقائنا

المشركين. وقد قدم لي معلومات ثبينة، لكي أحبهم أكثر. وأكد لي كذلك، أهمية التعرف على صحفيي باوانكيا الثلاثة - سيبينا، وبارغاس، وفورنسايد - الذين طلقا حديثي عنهم روحاً حياً ورائاً والفهم ثابلاً. وقد لفت انتباهي أنه، فضلاً عن كل مزاجه الفكرية والتعددية، يتقن السباحة، كبطل أولمبي، بجسد مصاغ وممدوب ليكون كذلك. وكان أكثر ما أثلته بشأنه، هو ازدرائي الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يبدون لي، كملين وغير مفهدين، باستثناء الأوديسة التي كنت لبد قرائتها وأعدت قراءتها، متفرقة، عدة مرات في المعهد. وهكذا، وقبل أن يودعني، اختار من المكتبة، كتاباً مجلداً بالجلد، وقدمه إليّ، بنوع من الوقار قائلاً: "يمكن لك أن تصير كاتباً جيداً، ولكل من نكون جيداً جداً على الإطلاق، ما لم نتعرف بعضنا على الكلاسيكيين الإغريق." كان الكتاب هو الأعمال الكاملة لسوقوكليس، وكان لموستافو، منذ تلك اللحظة، أحد الأشخاص الحاسمين في حياتي، لأن أوديب ملكاً تكشف لي من المرأة الأولى، عن أنها العمل كامل الإثنان.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، لأنني اكتشفت فيها هوستافو إيبارا وسوقوكليس في الوقت نفسه، ولأنه كان يمكن لي، بعد ساعات من ذلك، أن أموت ميتة سيئة في حجرة خطيبي السرية في "البحر". أتذكر كما لو أن ذلك حدث بالأمس، عندما قام وصي قديم عليها، كانت نظمه ميتاً منذ أكثر من سنة، بتعليق باب غرفتها ركلاً، وهو بصرخ يشتاق من بهمس. تعرفت فيه فوراً على زميل طيب من زملائي في مدرسة أراكاتاكا الابتدائية، عائد والنسخت يفرز ليعتيد موقعه

في قراشها. لم يكن أحدهما قد رأى الآخر منذ ذلك الحين، وقد أبدى سلامة ذوق، بتجاهله ما جاء من أجله، عندما تعرف عليّ وأنا عابر، بضمختي الرعب في السرير.

تعرفت في تلك السنة أيضاً على راميرو وأوسكار دي لا إمبريما، وهما محدثان لا يملآن الحديث، ولا سيما في الليسوت التي تحضرها الأخلاق المسيحية. كلاهما كان يعيش مع أبويه في تورياكو، على بعد ساعة من كارتاخينا، ويظهران كل يوم تقريباً، في مصاحرات الكتاب والفناتين في صالة أميركانا للشباب. كان راميرو، خريج كلية الحقوق في بولغونا، مقرباً من جماعة جريدة الأوتيفرسال، وفيها كان ينشر عموداً طوعياً. كان أبوه محامياً صلباً وليبرالياً غير متزمت، وكانت زوجته امرأة صعبة، ولا تستطيع أن تكتم سراً. وكلاهما يتمتع بالعادة المحبذة في تبادل الحديث مع الشباب. وقد لدمنا لي، خلال معادتنا الطويلة، تحت أشجار الدردار الواردة في تورياكو، معلومات لا تحصى حول حرب الألف يوم، ذلك الميعن الأدبي الذي جلب بعد موت الجيد، ومنهما ما زلت أحتفظ إلى الآن، بالرواية التي أظنها أكثر دقة للجنرال رافائيل أوري أوري، بحضوره المهيّب ومقاس معصيه.

أفضل شهادة عن الوضع الذي كنا عليه، أنا ورامون، في تلك الأيام، جسده في لوحة زيتية على القماش، الرسامة سيسيليا بوركس التي كانت تشعر، في حفلات الرجال الصاخبة، كما لو أنها في بيتها، على الرغم من استنكار وسطها الاجتماعي، كانت اللوحة رسماً لنا نحن الاثنين، جالسين إلى طاولة المفهى الذي كنا نلتقي فيه معهما ومع أصدقاء آخرين، مرتين كل يوم. عندما أراد كل واحد منا، أنا ورامون،

أن يمضي في طريق مختلف، دار بيتنا جدل لا مجال فيه للاتفاق. حول من هو صاحب اللوحة. وقد حلت سبيلها الأمر بالمعادلة الليمانية، إذ قصت اللوحة إلى نصفين بنفس تقليم أشجار. وأعطت كل واحد منا قسمه. بقي النصف الخاص بي ملفوفاً، لسنوات بعد ذلك. في خزانة شقة في كاراكاس، ولم أستطع استرداده قط.

على خلاف بقية أنحاء البلاد، لم يخلّف العنف الرسمي تأثيره في كاراكاس حتى بدايات تلك السنة، عندما جرى اختبار صديقنا كارلوس أليسان نائباً في المجلس البلدي المحلي. عن دائرة موموكس الانتخابية الموقرة جداً. كان محامياً خارجاً لتوه من القرن، وذا طبع مرح؛ ولكن الشيطان مازحه بتلك العناية الجيدة، حيث جرى في الجلسة الافتتاحية تبادل إطلاق نار بين الحزبين المتضادين، وأحرقت وصلة طائشة كتفية سترته. ولا بد أن أليسان قد فكر، بحسرات حميدة، في أن لحظة تشريعية غير ذات نفع، مثلما هي عندنا، لا تستحق أن يضحي المرء بحياته من أجلها. وفضل أن ينفق حميته مقدماً، مع صحة طيبة من أصدقائه.

كان أوسكار دي لا إسبرييا، وهو صعب من الطراز الأول للهو والقصف، يفتق مع وليم فوكتر في أن الماخور هو أفضل مقر إقامة للكاتب، لأن الصباحات فيه تكون هادئة. وهناك حفلة في كل ليلة، وعلاقة جيدة بالشرطة. وقد تبنى النائب أليسان ذلك الرأي بحفاوة، وصار ضيفنا طوال الوقت. ومع ذلك، قبلت دعوتني في إحدى تلك الليالي، لأنني صدقت أو هام فوكتر؛ عندما اندفع حام قديم لصاحبة الماخور، ماري ريس، وعظم الباب ليأخذ ابتهما الذي كان يعيش معها.

وعمره حوالي خمس سنوات. فخرج جانبها الحائلي، وهو ضابط شرطة، من غرفة النوم بسروراته الداخلي، ليناقع عن شرف وممتلكات البيت، بمسدسه النطاقي، فاستقبله الآخر برشقة رصاص دوت مثل قذيفة مدفع في قاعة الرقص. فارتعب رقيب الشرطة، ولاء بفرفته للاختباء. وعندما خرجت من غرفتي، وأنا نصف عار، كان النزلاء العابرون يراقبون من غرفهم. الطفل الذي يبول في نهاية الممر. بينما الأب يمسك له شعره بيده اليسرى. ويمسك بيده اليمنى، المدرس الذي مازال الدخان يتصاعد منه. ولم تكن أسمع في أجواء البيت سوى شتات ماري، وهي تؤنب الرقيب لأنه جبان يفكر إلى خصيتي.

في تلك الأيام بالغات، دخل إلى مكاتب الأونيفرسال، رجل صاود، خلع قميصه بحس سرحي كبير، وراح يتمشى في قاعة التحرير لبقاجتنا يظهره وذراعيه المغطاة بقروح تهدر كما لو أنها من الاسنت، وأوضح لنا بصوت راغد، وهو منفلعل من الدهشة التي أثارها علينا، سبب تلك الآثار التي في جسده:

- إنها خرشبات أسود!

الرجل هو إيميليو رازوري. وكان قد وصل لتوه إلى كاراكاس، للإعداد لحرم السيرك الشهير الذي يملكه، وهو أحد أكبر سيركات العالم. كان السيرك قد غادر هائباتا في الأسبوع السابق، في عبارة المحيطات أوسكيرا التي ترفع العلم الإسباني. ومن المنتظر وصوله يوم السبت التالي. وكان رازوري يتباهى بأنه وجد في السيرك منذ ما قبل مولده. ولم تكن ثمة حاجة لرؤية استعراضه لاكتشاف أنه مروض حيوانات ضارية. كان يدهرها بأسمائها الخاصة، مثلما يدعو أفراد

أمرته، فتدود عليه بمعاملة حميمة ولفظة في الوقت نفسه، فهو يدخل أعزل إلى أفناس النور والأسود، ليقدم إليها طعامها بيده. وقد احتضنته، في إحدى المرات، ذبه المدلل في عناق حب أقيسه في المستنق في ربيعاً كاملاً. ومع ذلك، لم يكن هو نفسه جاذبية السيرك الكبرى، ولا عرض أكل النار كذلك، وإنما الرجل الذي كان يفك رأسه ويتمشى حول الخلبة، واضماً الرأس تحت إبطه، ما لا يمكن نسيانه من إميليو وأزوري، هو تمسكه الرامخ بالخيلة. وبعد الاستماع إليه بانهار، على امتداد ساعات طويلة، نشرت في الأونيفرسال تعليقاً افتتاحياً عنه، تهرأت فيه على الكتابة بأنه "أكثر الرجال الذين عرفتهم حولاً في إنسانيته"، ولم يكن من تصرف إليهم كتبين، وأنا في الحادية والعشرين من عمري. ولكن تلك الجملة ما تزال صالحة، على ما أظن، حتى الآن. كنا نتناول طعامنا في "الكهف" مع العاملين في الصحيفة، وقد صار محبوباً هناك أيضاً بفضلهم عن الضواحي الفاتنة بالحلب. وفي واحدة من تلك الليالي، بعد طول تفكير في الأمر، تهرأت على الطلب منه بأن يأخذني في سيركه، ولو لتطيف الأفناس، عندما لا تكون النور بداخلها. لم يقل لي شيئاً، ولكنه عدّ لي يده بصمت. ففهمت ذلك على أنه كلمة سر خاصة بالسيرك، واعتبرت الاتفاق ناجزاً. الشخص الوحيد الذي اعترقت له بذلك، كان ستيفانو ميسا نيتشوس، وهو شاعر انتيركي، ابن أنتيوكيا، يمشق خيمة السيرك إلى حد الجنون، حضر لثوره إلى كارتاجينا كشيريك محلي لأزوري، وكان هو نفسه قد ذهب مع سيرك كذلك، عندما كان في مثل حفي، فحذرتني من أن من يرون المهرجين، يكون أول مرة، يرغشون في الذهاب معهم، ولكنهم

ينتمون في اليوم التالي، ومع ذلك، لم يكتف بتأييد قراري وحسب، بل أقتنع المروض به، شريطة أن نتكتم على السر. بصورة مطلقة، كيلا يتحول إلى خير قبل أوانه. فتحول انتقاري السيرك إلى رغبة جامحة، بعد أن كان انفعالياً حتى ذلك الوقت.

لم تصل السفينة إوسكيرا في الموعد المحدد. وكان من المستحيل الاتصال بها. وبعد مرور أسبوع آخر، ألقينا من الجريدة خدمة هواة راديو لتتبع الظروف المناخية في الكاريبي. ولكننا لم نتمكن من الحملولة دون بد، الصحافة والإذاعة في التفكير حول احتمالات الحبر المرعب. بقيت أنا وميسا نيتشوس في تلك الأيام، منقرعين مع إميليو وأزوري، دون أكل ولا شرب، في غرفته في الفندق. رأيناه بنهار، بضمير حسناً وقوة في الانتظار غير النهائي، إلى أن أكد القلب لنا جميعاً أن إوسكيرا لن تصل أبداً إلى أي مكان. ولئن تتولر أية أخبار عن مصيرها، بقي مروض الوحوش يوماً آخر معتكفاً في غرفته، وحيداً. وفي اليوم التالي، زارني في الصحيفة ليقول لي إنه لا يمكن لمدة سنة من الممارك اليومية، أن تتلاشى وتختفي في يوم واحد. ولهذا فإنه سيذهب إلى ميامي، دون مال ودون أسرة، لكي يعيد بناء السيرك الفارق، قطعة قطعة، انطلاقاً من العدم. لقد أذهلني تصميمه على تجاوز المأساة، فراقته إلى ياراتكيا لكي أودعه في الطائرة الفاجية إلى فلوريدا. وقبل أن يصعد إلى الطائرة، شكرني على قراري بالانضمام إلى سيركه، ووعدني بأن يسمت في طلبي قور أن يتوفر لديه شيء ملموس، ودعني بعناق مستهتر، فهتت به من أعصابي وحي، كيف هو حب أسوده، ولم أعد أعرف أي شيء عنه منذ ذلك الحين.

أقلعت الطائرة إلى ميامي في الساعة العاشرة من اليوم نفسه الذي ظهر فيه تعليقني عن رازوري في الجريدة: يوم السادس عشر من أيلول ١٩٤٨ . وكنت أشهد للعودة إلى كارتاغينا في مساء ذلك اليوم بالذات، عندما خطر لي زيارة إثناسيوسال، الجريدة المسائية التي يكتب فيها خيرمان بارغاس وألفارو سيبدا، صديقا أصدقائي في كارتاغينا. كانت مكاتب محرير الجريدة في بنا، متأكلا في المدينة القديمة، تتألف من صالة طويلة فارغة، يقسمها حاجز شرفة خشبي. وكان في أقصى الصالة، رجل شاب أشقر، يرتدي قميصاً قصير الكمين. يكتب على آلة كاتبة تدوي ملاصقا كاتبا المرفعات في الصالة المقفرة. اقتربت على رؤوس أصابعي تقرها، مفزعا من طقطقة خشب الأرضية الكتب، وانتظرت عند الشرفة إلى أن نظر إليّ. وقال لي بجملة، بصوت مدمع محترق، متعاقب:

— عافا تريد؟

كان شعره قصيرا، وجنتاه فاسيتين، ويدت لي ميناء الصافينان والحادان متضايقتين من المقاطعة، فاجبه كويلما استطعت، وحرفاً حرفاً:

« أنا غارسيا ماركيز ».

ولدى مسامعي اسمي منطوقاً بطلاق القناعة، أدركت أنه يمكن لخيرمان بارغاس ألا يعرف من أكون، بالرغم من أن كثيرين في كارتاغينا، أخبروني بأنهم قد تحدثوا عني كثيراً مع أصدقائهم في بارانكيا منذ أن قرروا قصي القصيرة الأولى. وكانت جريدة إثناسيوسال قد نشرت تعليقا متحمسا. كتب خيرمان بارغاس الذي لا يتساهل مع المستجدات الأدبية. ولكن الحساس الذي قابلني به أكد لي أنه يعرف

جيدا من أكون، وأن عاطفته أكثر صدقا مما تقول لي. بعد ساعات من ذلك، تعرفت على ألفونسو فرينسايور وألفارو سيبدا في مكتبة "موندو"، وتناولنا المقبلات معا في مقهى كولومبيا. أما دون رامون فينيس، الحكيم الكتلاي الذي كنت أرغب، بلهفة ووهية شديتين، في التعرف إليه، فلم يحضر في مساء ذلك اليوم إلى جلسة الأصدقاء، في الساعة السادسة. عندما خرجنا من مقهى كولومبيا، بعد تناول خمسة كؤوس من الشراب، كنا نبدو كأننا أصدقاء يعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات.

لقد كانت ليلة طويلة من البراعة. فالفارو، السائق الصغري الأكثر ثقة بنفسه، والأكثر حنواً، كلما زاد في الشراب، قام باجتياز طريق المناسبات النارية. نفسي "لوس المنروس"، وهي حانة في الهواء المطلق، تحت أشجار لوز مزهر، لا يستقبلون فيها سوى مشجعين متعصبين لنادي جونيور الرياضي، نشب نزاع بين عدة زبائن، أو شك أن ينتهي بالملكمات، فحاولت تهدئتهم إلى أن نصحني ألفونسو بعدم التدخل، لأن رواد ذلك المكان هم دكانة في كرة القدم، وسيتأولون جداً من تدخل دعاة السلام. وهكذا أمضيت تلك الليلة في مدينة مختلفة تماماً، عن تلك التي عرفتها من قبل، وعن التي عرفتها أبواي في سنواتهم الأولى. وعن مدينة سنوات الفقر التي عشناها مع أمي، وعن مدينة مدرسة سان خوسيه، إنها بارانكيا الأولى الخاصة بي، كبالغ، في قردوس مولخيرها.

كان الهي الصيني عبارة عن أربعة شوارع تضج بموسيقى مهدنية تخرج الأرض، إلا أن فيه كذلك، منعطفات خدمة منزلية تقارب الإحسان.

كان هناك مواخير أسرية يصكف أصحابها، مع نسايتهم وأبنائهم، على خدمة زبائنهم المجرين، وفق قواعد الأخلاق المسيحية وقدن دون مانويل أنطونيو كارينيو. ويعمل بعضهم كفيلاً لكي توافق الفتيات المستجبات على مضاجعة الزبائن المعروفين بالدين، وكانت أقدمهن، ماوتينا ألفارادو، تملك باباً سرىاً وتعرفه إنسانية خاصة بالكهنة الثابتن. لم تكن هناك مشروبات مزيقة، ولا حسابات سكر، ولا مفاحات أمراض وهرية، وكانت آخر الحميميات الفرنسية اللواتي جنن خلال الحرب العالمية الأولى، معنلات وكثيبات، يجلسن منذ الغروب، عند أبواب بيوتهن، تحت بقعة ضوء المصباح المضاء، بانتظار حبل ثالث من الزبائن، يؤمن بالقدره الشبية لواقباتهن الذكورية. وكانت هناك بيوت فيها صالونات مبردة لاجتماعات التأمرين، ولنوفير ملاو للمعد الهارين من زوجاتهم.

كان ماضور "القط الأسود"، مع فتاة، وقص تحت عريضة نبات متسلقة، فردوس البحرية التجارية، منذ أن اشترته غواخيرية ذات بشرة برولزية تخفي بالإنكليزية، وتبيع من تحت الطاولة، سراهم ذهبانية للمسيدات والسادة. وفي ليلة تاريخية من حولياته، لم يستطع ألفارو سيبدا ويكي سكوبيل تحمل عنصرية اثني عشر بحاراً فروجياً، يقعون بالدور أمام حجرة المومس الزنجية الوحيدة، بينما هناك ست عشرة مضاء يشخرون جالسات في الفتاة، فتتحدثاهم بالكلمات، وخاض الاثنان مواجهة، بالقبضات وعداء، ضد الاثني عشر بحاراً، وأجبروهم على الفرار بمساعدة المومسات البيضاء اللواتي اشيقطن سعيدات، وأجهزن عليهم بالضرب بالكراسي. وأخيراً، في ترضية هديانية، توجهوا الزنجية، وهي عازية، ملكة على النرويج.

كانت هناك، خارج الحي الصيني، بيوت علنية أو سرية أخرى، وجميعها على علاقة جيدة بالشرطة. أحدها كان فتاة أشجار لوز كهيرة مزهرة في حي فقراء، فيه خيمة بائسة ومخدع بصرين ضيقين للإيجار. أما مضاجعته فكانت صغيرات مصابات بفقر الدم من الجوار، يكسبن مبلغ بيزو، دفعة واحدة من السكارى فاقطي الرشد. لقد اكتشف ألفارو سيبدا المكان مصادفة، في مساء يوم ضل فيه الطريق، خلال وابل مطر تشري، واضطر إلى اللجوء إلى الخيمة. فدعته صاحبة المحل لتناول البيرة، وعرضت عليه طفلتين بدلاً من واحدة، مع الحق بأن يكرر ذلك رشحاً بتوقف المطر. وقد واصل ألفارو دعوة الأصدقاء لتناول البيرة المثلجة تحت أشجار اللوز. ليس من أجل مضاجعة الفتيات الصغيرات، وإنما لتعليقهن القراءة، وقد تمكن من الحصول على منع لأكثرهن مواظبة، كي يدرسن في المدارس الرسمية. وصارت واحدة منهن ممرضة في مستشفى الإحسان، بعد عدة سنوات، وأهدي البيت إلى السيدة، وحمل بيت الصغيرات البنات ذاك حتى انقراضه الطبيعي، اسماً مفرحاً: بيت الفتيات اللواتي مضاجعن يبالغ الجميع.

لم يخشواو للبلشي التاريخية الأولى في بارانكيا، سوى بيت الزنجية أوفيميا، بنفاته الإسعني الفسح المخصص للرقص، بين أشجار تمر هندي وأرغفة، وبأكواخه التي تزهر بخمسة بيزوات في الساعة، وموائده وكراسيه المطلية بألوان زاهية، تنمش في ما بينها الكروانات على هواها. وكان أوفيميا الهائلة والفخرية، تستقبل بنفسها الزبائن وتنتخبهم عند المدخل، وراء منضدة مكتب لا يوجد عليه سوى شيء واحد - لا تفسير له - هو مسمار ضخم من مسامير الكهنة، وكانت هي

نفسها تتولى اختيار الفتيات، وفقاً لحسن تربيتهم ومفاتيحهن الطبيعية. وتختار كل واحدة من الفتيات لنفسها الاسم الذي يروقها. وبعضهن كن يفضلن الأسماء التي يطلقها عليهن أبقارو سيبيدا. والمستمدة من ولعه بالسبعين المكسكية: إرميا الحبشة، سوزانا الشقية، علوا. تتصف الليل.

كان يبدو، من المستحيل، تبادل الحديث بوجود أوركسترا كاريبية متنشبة، بأعلى صوته. بأغنيات الماسو الجديدة التي يغنيها بيرت برادو، وفرقة غناء بوليمو. لسيان الذكريات السنية. ولكننا كنا جميعنا طيراء. في تبادل الحديث والتفاس، صارخين. وكان خيرمان وألفارو هما من أثارا موضوع التفاس في تلك الليلة. حول العناصر المشتركة في الرواية واليهود تاج الصحفي. وكانا متحمسين للبروتاج الذي نشره لفتو، جون هيرسي حول قنبلة هروشيما الذرية. أما أنا فكنْتُ أفضل "يوميات سنة الطاعون" كشهادة صحفية مباشرة، إلى أن أوضح لي الآخرون بأن دانييل ديفو، لم يكن قد تجاوز الخامسة أو السادسة من عمره، عند انتشار الطاعون في لندن، وهي الحالة التي استخدمها كنموذج.

وعبر هذا الطريق، وصلنا إلى لغز الكونت دي مونت كريستو. وكان الثلاثة قد خاضوا حوله مناقشات سابقة، باعتباره أحجية للروائيين: كيف تمكن ألكسندر دوماس من جعل بحار ساوچ، وجاهل، وفسير، ومسجون دون قبضة، يتمكن من الهرب من قلعة محصنة، ويتحول إلى أغنى رجال عصره. وأكثرهم ثقافة؟ وكان الجواب هو أنه عندما دخل إدmond دانتس إلى قلعة إيف، كان قد تشكل فيه الأباتي فاريا، وهو

الذي نقل إليه في السجن، خلاصة حكمته ومعارفه، وكشف له عما يتوجب عليه معرفته في حياته الجديدة: المكان الذي يخبأ فيه كنز خراقي. وطريقة الهرب. هذا يعني أن دوماس قد صاغ شخصيتين مختلفتين، ثم عمد بعد ذلك، إلى تبديل مصيريهما. وهكذا، عندما هرب دانتس، كان قد صار شخصية ضمن شخصية أخرى، وكان الشيء الوحيد المتبقي منه هو جسده، كراو جيد.

كان من الواضح، لدى خيرمان، أن دوماس تعمد جعل شخصيته بحاراً، لكي يمكنه من الهرب من الكيس، والسباحة حتى الشاطئ، عندما يلقون به إلى البحر. أما الفونسو واسع المعرفة وأكثر الثلاثة قبحاً، فقد رد بأن كون الشخصية بحاراً، لا يضمن ولا يعني أي شيء. لأن سبعين بالمئة من بحارة كريستوف كولومبس، ما كانوا يتقنون السباحة. لم يكن هناك ما يحميهم أكثر من إلقاء ذوات الفلفل تلك، لكي يُفقد الطبخ أي طعم من الحذقة، وفي خضم حماسي للعبة الألفار الأدبية تلك، رحتُ أحتسي دون حساب، كنزاً من الروم مع الليمون، بينما كان الآخرون يتناولون في رشقات تدفق صغيرة، وكانت النتيجة التي توصل إليها الثلاثة هي أن موهبة دوماس، وتلاجه بالمعطيات، في تلك الرواية، وربما في كل أعماله، هي أقرب إلى موهبة وتلاعب كاتب رسومات صحفية، منها إلى واثي.

وقد انضغ لي في النهاية، أن أصدقائي الجدد يقرؤون كليفيدو وجيمس جويس، بالجد والمتعة نفسيهما اللذين يقرؤون بهما كورنان دويل. وأنهم يتمتعون بحسن دعابة لا يضرب، ويمكن لهم قضاء ليالٍ بطولها، وهم يفتنون أغنيات بوليمو وفانينارد أو يلقون عن ظهر قلب، ودون تعلثم،

أفضل أشعار العصر الذهبي. وقد توصلنا، عبر سبل مختلفة، إلى الاتفاق على أن ذروة الشعر العالمي هي مقاطع دون خورخي ماتياري في موت والد، تحولت اللبلة إلى تسلية ممتعة، قوضت آخر الأحكام المسبقة التي يمكن لها أن تعكر صداقتي لتلك العصابة من المرضى الأدبيين. لقد أحسست معهم، ومع الزم، بأنني على أحسن حال؛ فأزحت عن نفسي الجود الحياء. دعمني سوزانا الشقية إلى الرقص، وكانت قد كسبت في شهر آذار من تلك السنة، مسابقة الرقص في الكرنفال، فأبعدوا الدجاج والكروانات من الحلبة، وأحاطوا بنا لتسليحنا.

رقصنا مجموعة أغنيات الماعز الحامصة لداماسو بيريث براوو، واستوليت بما تبقى لي من أنفاس، على الماراكالا^(١) من مصطبة القرعة الموسيقية الترومبوكالية، وغنيت طوال أكثر من ساعة، أغنيات بوليفو لدانييل سانتوس، وأغرسطين لارا، بينيبيدو غرانادا، وكلما غنيت أكثر، أحسست بأنني أُنشئ متفحة حرة، لم أعرف قط، إذا ما كان الثلاثة فحورين بي أم خجلين مني. ولكنني، عندما رجعت إليهم على المائدة، استقبلوني كواحد منهم.

كان ألفارو قد بدأ، عندئذ، موضوعاً لم يناقشه الآخرون من قبل؛ السينما. فكان بالنسبة لي، أثيبه بلعبة ولرفها العناية الإلهية، لأنني كنت أعتبر السينما على الدوام، فناً فرعياً يتفدى على المسرح أكثر من تغذيه على الرواية. أما ألفارو بالمقابل، فكان يرى فيه إلى حد ما، ما أراه أنا في الموسيقى؛ فناً مفيداً لكل الفنون الأخرى.

(١) - الماراكالا: آلة موسيقية كاريبية - تتألف من لوحة قرع مجوفة تزود بفض، وتوضع فيها أصعار.

عند الفجر، كان ألفارو يقود السيارة المترعة بكتب حديثة الصدور، وملاحق نيسوروك تايزز الأدبية، وهو بين التائم والمخموم، مثل سابق تكسي محترق. توصلنا خيرمان وألفونسو إلى بيتيهما، وأصر ألفارو على أن يأخذني إلى بيته. لكي أتعرف على مكتبته التي تغطي ثلاثة جدران، من حجرة النوم، حتى السقف. وقد أشار بسيارته إلى الكتب، بحركة دائرية كاملة. وقال لي:

- هؤلاء هم الكتاب الوحيدون في العالم الذين يهرلون كيف يكتوبون.

كنت في حالة انتشاء، جعلتني أنسى ما كان يحبه المرح والنفاس بالأمس. كان الكحول لا يزال حياً في داخلي، كأنه حالة نعمة ربانية. أراني ألفارو كتبه المفضلة، بالإسبانية والإنكليزية، وكان يتحدث عن كل واحد منها بصوته الصدى، وشعره المشعث، وعينه الزائفتين أكثر من أي وقت آخر. تكلم عن أنورين وعن ساروبان - وهما نطفنا ضعف لديه - وعن آخرين، يعرف جمهورهم العامة والخاصة، حتى سراويلهم الداخلية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم فيرجينيا وولف، وكان مر بسببها المجوز وولف، مثل العجوز لوكتر. وقد استشاره فعزلي حتى بلغ حد الهذيان. تناول كدسة الكتب التي أراني إياها، على أنها كتبه المفضلة، وضعها بين يدي قائلاً:

- لا تكن أبداً، خذها كلها، وعندما تنتهي من قراءتها ستذهب لإحضارها أينما تكون.

لقد كانت تلك الكتب بالنسبة لي، ثروة لا يمكن تصورها، فلم أنجبراً على المجازفة بأخذها، وأنا لا أملك حجرة صغيرة بئساً أحضرها فيها.

واكتشف أخيراً بأن يهدي إلي الشرجة الإمبريالية لرواية فيرجينيا وولف "السيدة دلووي"، مرفقاً ذلك بنموذج لا تقبل الاستثناء، بأنني سأحفظها عن ظهر لب.

كان الفجر يبرق، وكنت أرغب في العودة إلى كارتاخينا في أول حافلة، ولكن الفارو أصر على أن أنام في السرير المجاور لسريه. وقال بأخر نفس لديه:

- يا للعلة! ابق للعيش هنا، ولغداً نجد لك وظيفة رائعة.

استسلمت بلا ميس على السرير. وعندئذ نفضت أحسنت، في جسدي، بالشلل الهائل لكوني حياً، ولعمل هو الشيء نفسه، وقبنا لائمين حتى الحادية عشرة صباحاً، عندما أقدمت أمه، ماريا ساموديو المحبوبة والمحبولة، على طرق الباب بقبضتها. معتقدة أن ابن حياتها الوحيد قد مات.

- لا تهتم بها يا معلم - قال لي ألفارو من أعمق حلقه. وأضاف: - إنها تقول الشيء نفسه صباح كل يوم، والخطر هو أن ذلك سيكون صحيحاً في أحد الأيام.

رجعتُ إلى كارتاخينا بزواج شخص اكتشف العالم. ثم تعد جلسات ما بعد تناول الطعام، في بيت آل فراتكو موريرا قضى. عندئذ، في قراءة أشعار المصير اللهي الإسباني وعشرون قصيدة حب وأنغنية يائسة لثيرودا، وإثنا في قراءة مقاطع من "السيدة دلووي" وهذيانات شخصيتها المؤثرة سيبتيروس وارن سبت. لقد صرتُ شخصاً آخر، جزعاً وصعباً، إلى حد أن هيكور والمعلم ثابلاً رأيا في ذلك، معاكسة واعية لألفارو سهيماً. أما غوستافو إيبارا، برؤيته المشقة كقلب كاربيبي. فقد

استمتع بقصتي عن ليلة بارانكيا، بينما هو يقدم لي جرعات أكثر فأكثر حكمة من الشعراء الإغريق، مع الاستثناء الواضح وغير المفسر أبداً، لأعمال هوميروس. كشف لي عن ملفيل: ماثرة "مربي ديك"، والموعظة العظيمة حول بونس، من خلال صياغة الحيتان المجرمين في كل معار العالم، تحت القبة الهائلة المشبعة من أضلاع الحيتان. وأعازني "البهت ذو الأسقف السبعة" لثانيال هوتون الذي أثر بي مدى الحياة. وحاولنا معاً، التوصل إلى نظرية حول حتمية الحنين في تبه إوليبيس الأوديسي، وصره في الأفق، حيث ضفنا ولم نجد مخرجاً. ولكنني وجدتته محلولاً بعد نصف قرن من ذلك، في نص ليهلان كوندرا.

وإلى تلك المرحلة بالذات، يعود لقائي الوحيد مع الشاعر الكبير لويس كارلوس لوبيز، المشهور بلقب "الأعمور"، والذي ابتكر طريقة مريحة ليكون صيفاً دون أن يموت، وصيفاً دون أن يُدفن، وبلا خطابات تكريم قبل ذلك كله. كان يعيش في مركز المدينة التاريخي، في بيت تاريخي يقع في شارع تابلون التاريخي، حيث ولد ومات دون أن يزج أحداً. كان يُمزج مع لفة من الأصداق، الدائمين، بينما كانت سمعته كشاعر كبير. تواصل التعاطف في حياته، مثلما تتعاطف أجياد ما بعد الموت وحدها.

سعى الأعمور، دون أن يكون كذلك، لأنه كان في الواقع، أحول وحسب. ولكن بطريقة مختلفة كذلك، ومن الصعب تمييزها. وكان أخوه دومنغو لوبيز إسكايويانا، مدير جريدة الأوتيفرسال، يرد بالجاب نفسه دوماً، على من يسأله عنه:

- إنه هناك.

الجواب يبدو متهرباً، ولكنه الحقيقة الوحيدة: فقد كان هنالك حياً أكثر من أي شخص آخر، ولكن مع مزية كونه حياً دون أن يُعرف الأمر كثيراً، متنبهاً إلى كل شيء، ومصمماً على الذهاب للدفن بنفسه. كان الكلام يدور عنه، كما عن أثر تاريخي، ولا سيما بين من لم يسمعه قط. ولهذا لم أحاول رؤيته عند وصولي إلى كارتاخينا، احتراساً لامتيازاته كرجل خفي. كان عمره آنذاك ثمانية وستين عاماً، ولم يكن هناك من يخافه الشك في أنه أحد كبار شعراء اللغة، في كل العصور. مع أننا لم تكن كثيرين، نحن الذين نعرف قيسته وسبب تلك القيمة. ولم يكن من السهل، تصديق ذلك، بسبب نوعية أشعاره الغريبة.

ثالاثا، وروخاس هيراثو، وغوستافو إيبارا، وجميعنا، كنا نحفظ لصائد من شعره عن ظهر قلب، وكنا نرووها دوماً دون تكبير، بصورة عفوية وصائبة، لكي ندخل الإثراق إلى أحاديثنا. لم يكن منزل الطباع وإنما جبرولاً. لا أتذكر أنني رأيت حتى الآن، صورة له، إذا كان له صورة ما، وإنما بعض رسوم الكاريكاتير السهلة التي كانت تنشر مكان الصورة. وأظن أننا لسنا آله ما يزال حياً، بسبب عدم رؤيته، وفي أحد الأيام، بينما كنت أنهي مقالتي اليومية، سمعت صرخة ثالاثا المخنوقة: - يا للعتة، إنه الأعور!

رغمت بصري عن الآلة الكاتبة، ورأيت أغرب رجل شاهدته في حياتي. أفصر بكثير عما كنا تصوره، ويشعر شديد البياض إلى حد يبدو معه أزرق، وشديد التشعث، بحيث يبدو مشطراً. لم يكن أعور العين اليسرى، وإنما مثلما يشير لقبه، بصورة أفضل: أحول. وكان يرتدي ملابس، كما لو أنه في البيت: بantal من قمماش قطني رفيع وقاتم.

وتقيص مخطط، يده البستي على مسترى الكنف، ومبهم فضي مع سيجارة مشتعلة لا يدخنها، ويسقط رمادها دون نفضه، عندما لا يعود تماسكه ممكناً.

مرء غريباً، حتى مكتب أخيه، وخرج بعد ساعتين من ذلك، عندما لم يبق أحد سواي. أنا وثالاثا في قاعة التحرير، ننتظر مصاحفنا. وقد مات بعد حوالي سنتين من ذلك، والهزة المؤثرة التي خلفها في الموائين له. لم تكن بسبب الإحساس بالأمس لموته، وإنما انهياره. فني أثناء عرضه في التابوت، لم يكن يبدو مبنياً أكثر مما كان عليه، وهو حي.

في تلك الفترة نفسها، ألقى الكاتب الإسباني داماسو أونسو وفوجته، الروائية لوليا كالفاريانو، محاضرتين في مدرج الجامعة الكبير. المعلم ثالاثا الذي لم يكن بروقه أن يزجج حياة الآخرين، تغلب في تلك المرة، على تحفظه، وطلب منهما لقاء، ورافلهما أنا وغوستافو إيبارا، وهيكتور روخاس هيراثو. وقد حدث تفاعل فوري مهمما، بقينا قرابة أربع ساعات في قاعة خاصة، في فندق الكاربي، نقسادل الانطباعات حول رحلتنا الأولى إلى أميركا اللاتينية، وأحلامنا كككتاب جديد. قدم إليهما هكتور كتاب أشعار، وقدمت أنا إليهما نسخة مصورة من إحدى قصصي المنشورة في الاسبيكتادور. وكان أكثر مما أثار اهتمامنا، نحن الإثنين، هو صراحة تحفظاتهما، لأنهما يستخدمانها كتأكيد موارب للمديح.

في شهر أكتوبر، وجدت في الأونيفرسال، رسالة من غنشالو صايرونو يقول لي فيها، إنه ينتظرن مع الشاعر ألفارو موتيس في فيلا توليبان، وهو نزل لا ينسى في منتجع بوكاغراندي البحري، على

بعد امتار قليلة من المكان الذي هبط فيه الطيار تشالز لينديبرغ، قبل نحو عشرين سنة. وكان غوثالو - شريك في جلسات القاء الشعر الخاصة في الجامعة - محاسباً ممارساً، وقد دعاه موتيس ليعترف على البحر، بوصفه مدير العلاقات العامة في شركة LANSA، وهي شركة طيران محلية أسسها طياروها بالذات.

كان قد تصادف، مرة واحدة على الأقل، نشر قصائد لوتيس وقصص لي في ملحق "نهاية الأسبوع". وكان لقاؤنا كافياً لأن نبدأ محادثة لم تنته، لي أماًكن لا حصر لها من العالم، طوال أكثر من نصف قرن. وكثيراً ما سألتنا أولادنا أولاً، ثم أحفادنا بعد ذلك، عم نتكلم بكل ذلك الشغف الضاري. وكنا نجيبهم بالحقيقة، إننا نتكلم دوماً، في الموضوع نفسه.

صداقائي الإعجازية مع تاضجين في عالم الفنون والآداب، منحتني الحماس لمواصلة العيش في تلك السنوات التي ما زلت أفذكرها، على أنها أكثر سنوات حياتي الثمناً وثقلاً. في العاشر من غوز، نُشرت آخر مقالة لي في زاوية نقطة وسطر جديد في الأرييلرسال، بعد ثلاثة شهور عسيرة لم أستطع خلالها، بمجاوز حواجز كمشدرب مستدئ، وفضلت قطعها وأخرج بالميزة الوحيدة المتوفرة، ألا وهي الهرب قبل فوات الأوان. لذت بالإفلات من المسؤولية، في تعليقات الصفحة الانتخابية، دون تولى، اللهم إلا عندما يتوجب تضمينها لسة شخصية. واهبت عليها بروتيبة محض. حتى أيلول - ١٩٨٥، حيث أنهيتها بمقالة رنانة عن إدغار آلان بر، صبرتها الوحيدة هي كوتها الأسوأ.

كنت ألع، طوال تلك السنة، على أن يعلمني المعلم ثابالا أسرار

كتاية الريبورتاجات الصحفية، ولكنه، بطبعه القافض، لم يحسم الأمر. غير أنه أبقاني مشوشاً بلغز طفلة في الثانية عشرة من عمرها، دفنت في دير سانتا كلارا، وغما شعرها بعد موتها. أكثر من منفي منير، خلال قرنين، لم أتصور مطلقاً أنني سأعود إلى الموضوع نفسه، بعد أربعين سنة، لأقصه في رواية بروصانبة ذات تناخلات مشؤومة. ولكن تلك الأزمنة لم تكن أفضل أزمتي للتفكير. فقد كنت أعضب لأنفسه الأسباب، وأتغيب عن العمل دون تفسير، إلى أن برسل المعلم ثابالا من يكبح جماحي ويروضي. نجحت في الامتحانات النهائية لسة الحقوق الثانية. بضربة حظ، مع حطلي مادتين اثنتين، واستطعت التسجيل في السنة الثالثة. وقد انتشرت إشاعة تقول إنني توصلت إلى ذلك النجاح بفعل ضغوط سياسية من جانب الجريدة. وكان على المدير أن يتدخل، عندما جرى اعتقال لي لدى الخروج من السينما، وصفي دفتر تجنيد مزيف. وكانوا قد أدرجوا اسمي في قائمة لتكليف بمهمات أمن عام تأديبية.

وبسبب عشاوتي السياسية في تلك الأيام، لم أعلم حتى بأن حالة الطوارئ قد فُرضت من جديد، في البلاد، بسبب تردّي الأمن العام. شددت الرقابة من قبضتها على الصحافة، وتخلخلت الأجواء، كما في أسوأ الأزمنة، وراحت شرطة سياسية معززة بمجرمين عاديين، تزرع الرعب في الأرباب، أجبر العنف الليبراليين على هجر أراضيهم ومنازلهم. أما مرشحهم المحتمل، داريو إتشاندنيا، وهو أستاذ أساتذة في القانون المدني، متشكك بالولادة وقارئ مدمن للمكتاب الإغريق واللاتينيين، فأعلن عن تأييده لامتناع الليبراليين عن خوض الانتخابات. صار الطريق مفتوحاً لانتخاب لاوريانو خروميت الذي بدا أنه يحرك الحكومة، بخبط غير عريضة، من نيويورك.

لم أكن أعني بوضوح، في ذلك الحين، أن تلك الأحداث العارضة المشوومة، ليست مجرد مخاز متينة يقترقها المحافظون، وإنما هي أعراض تبدلات خبيثة ستطرأ على حياتنا، إلى أن خطر لي في واحدة من ليلاتها الكثيرة في الكهف، أن أنهاي بثيتي في عمل ما أوجب فيه، فألقى المعلم ثابلاً ملققة الحسا - ملققة في الفضاء - بعد أن كان على وشك تناولها، ونظر إليّ من فوق فرس نظارته، وأوقفني بجملة:

- قل لي يا قبايريل: وسط كل الحسابات التي تقارنها، هل استطعت أن تلاحظ أن هذه البلاد أخذت بالدمار؟

أصاب السعال الهدف، وبينما أنا مغمود حتى النخاع، استلقت لأنام هند الفجر، على مقعد في شارع الشهداء، فحوثني مظهر ثوراني إلى ما يشبه حساء عظام، بقيت أسبوعين في المستشفى مصاباً بالتهاب رئوي مقاوم لأول المضادات الحيوية المعروفة. وكانت تمنع بالسمعة السيئة في أنها تسبب أعراضاً جانبية مخيفة، مثل العجز المبكر. صرت أكثر شحوباً وأثرب إلى هيكل عظمي مما أنا عليه عادة، فاستدعاني أباوي إلى سوكري، من أجل ترميم صحتي من العمل المجهد - حسب ما قاله في رسالتهما - . وقد مضت الأونيفرسال أبعد من ذلك، بنشرها تعليق وداع، كرستني فيه صحلياً وكتاباً بارهاً. وفي تعليق آخر اعيرتني فيه مؤلف رواية لم يكن لها وجه قط، وحتوان لم يكن لي: "لقد لطمنا الحشيش"، والأغرب أن ذلك جاء في وقت لم تكن لدي فيه، أية نوايا للعودة إلى التورط في القصص التخيلي. الحقيقة أن من اخترع ذلك العنوان الغريب عني قاسماً، هو هكتور روخاس هيراثو، بسرعة الأكلة الكاثية، على أنه مساهمة أخرى من سيمر هيرا بالديس،

وهو كاتب وهمي من أنقى السلالات الأمريكية اللاتينية، اختلقه هكتور نفسه لإغناء مناظراتنا. كان قد نشر في الأونيفرسال خبراً عن وصوله إلى كارتاخينا، وكتبت أنا بحبة موجهة إليه في زاويتي نقطة وسط جديده على أمل نفخ الفيسار عن الوعي الهاسج لرواية قارية حقيقية. وعلى كل حال، فقد جرت الإشارة بعد سنوات، في مقالة حول جنسي، لا أدري أين أو لأي سبب، إلى الرواية الرهسية ذات العنوان الجميل الذي أبدعه هكتور، باعتبارها أحد الأعمال الأساسية في الأدب الجديد.

الجو الذي وجدته أنطالدا في سوكري، كان ملائماً جداً لأفكارتي في تلك الأيام. كتبت إلى غيرمان بارغاس، طالباً منه أن يرسلوا لي كتباً، الكثير من الكتب. أكبر عدد ممكن منها، لأغرق في أعمال بارزة. خلال فترة نقاهة مقدر لها أن تستمر ستة شهور، كانت القرية في حالة قبضان، وكان أبي قد تخلص من عبودية الصبديلة، وشيد عند مدخل القرية، بيتاً بنسج للأنباء. وكنا قد صرنا أحد عشر ابناً منذ مولد إليخيو، قبل ستة عشر شهراً من ذلك، بيت كبير يلهمه الضوء، مع شرفة لاستقبال الزوار، مفتوحة على نسمات كاتون الغاني. كانت في البيت، ست غرف نوم جيدة التهوية، مع سرير لكل واحد منا، وليس كل اثنين في سرير، كما هو الحال في السابق. وكانت هناك حلقات لتعليق أراجيح النوم على مستويات متعددة، حتى في الممرات. أما الفناء غير المسيج، فممتد حتى الجبل، وغبه أشجار مشمرة مشروكة تحت تصرف العصوم، وحيوانات لنا وللآخرين، تنجول في الحجرات. ذلك أن أبي التي كانت نحن إلى أفتنة طفولتها في بارانكيا وآراكاناكا، تعاملت مع

تلك التبدلات في حياتي وفي أسلوبي، في العيش، كانت تستجيب
 للتبدلات التي طرأت على أسرتي، نفسي كل زيارة، تبدو لي الأسرة
 مختلفة، بفعل إصلاحات وتحولات أبوي، وبسبب الأخوة الذين يولدون
 ويكبرون متشبهين جداً، إلى حد يسهل معه الخلط بينهم، أكثر من التعرف
 عليهم، فأخي خيمي، وكان في العاشرة من عمره، هو أكثر من تأخر في
 مفارقة الحضانة الأمومي، بسبب وضعه كخديج، ولم تكد أمي تتوقف عن
 إرضاعه، حتى ولد هيرناندو (ناتشي)، وبعد ثلاث سنوات من ذلك، ولد
 ألفريدو ريكاردو اكوكي، وسنة ونصف، بعدها، إليخير (يورا)، الأخير،
 وكان خلال إجازتي تلك، قد بدأ باكتشاف معجزة أخير.

وكنا نحصى كذلك، أبناء أمي قبل وبعد زواجه: كارمن وماريا، في
 سان ماركوس، وأبيلازو اللذان كانا يأتيان للفناء، فترات في سوكري،
 وخيرمان هاناي (إيمي) الذي ينتمي أمي، كما لو كان ابنها، وسط رضى
 الأخوة، وأخيراً أنطونيو ماريا كلاريت (تونيو) الذي ترس في كف أمه
 في سينتي، وكان يزورنا بكثرة، خمسة عشر ابناً في المحصلة، نأكل
 كأننا ثلاثون، عندما يكون هناك ما يترك، ونحن نجلس حيثما نستطيع،
 الروايات التي صاغها أخوتي الكبار عن تلك السنوات، تقدم فكرة
 شاملة عما كان عليه البيت الذي لم تكن تنتهي فيه تربية ابن إلا وبأنني
 آخر، لقد كانت أمي نفسها واعية لفنيها، وكانت تتوصل إلى بناتها لكي
 يتولين أمر الصغار، وقد كانت مارغوت قوية وعباً عندما تكشف أن
 أمها حبلى من جديد، لأنها تعرف أن الأم لن تجد، وحدها، الوقت
 الكافي ليربضهم جميعاً، ولهذا رجت أمها بجديّة مطلقّة، قبل أن تذهب
 إلى المدرسة الابتدائية في مونتيري، بأن يكون الأخ التالي هو الأخير،

البيت الجديد، كما لو أنه مزروعة، فيه دجاج وسط دون قن، وخنازير
 متهتكة تنسل إلى المطبخ لتأكل الأطعمة المعدة للفناء، وكان لا يزال
 بالإمكان، استغلال فصول الصيف للنوم والنوافذ مفتوحة، مع مهمة
 الريو التي يصدرها الدجاج من فوق المشايخ، ورائحة ثمار الفواكه التي
 الناضجة التي تسقط عن الأشجار عند الفجر، وتتفرد بفرقة أسيّة
 وقوية، "تبدو كأنها أطفال"، هذا ماكانت تقول أمي لدى سماعها، أما
 أبي، فقد قصر الاستشادات، في الفترة الصباحية، على ثلة من المؤثرين
 بالطلب التجانسي، وواصل قراءة أية ورقة مطبوعة تصل إليه، وهو
 مستلق في أرجوحة نوم معلقها بين شجرتين، وأصبح يحدو حتى
 التسليّة بالهيازهو لتحمل كآبة الغروب، وكان له نظى كذلك، عن
 ارتداء ملابس اللطيفة البيضاء وورقة العنق، ومار يضي في الشارع،
 مثلما لم أره من قبل؛ بلنسان شبابه لصيرة الأكمام.

كانت الجدة ترانكيلينا إغويران قد ماتت قبل شهرين، عمياً، وخرفة،
 وقد وصلت في صبحو الانحطار، الوعظ، بصوتها المشرق ونطقها
 السليم، معلنة أسرار الأسرة، وكان موضوعها الأبدي، حتى النفس
 الأخير، هو راتب المجد التقاعدي، هيا أبي الجشة بعبان انه المحافظة،
 وغطاها بالكلس داخل التابوت، من أجل تفصح هادئ، لقد كانت لوسيا
 سنباعا تقدر على الدوام، شغف أمها بالثروة المصراة، فغرت لها
 حديقة منها في أقصى الفناء، كيلا تفتقد أبناً، وهي في لمرها، وقد
 حققت تلك الثروة بها، راتباً في فتحها، حتى إن الوقت لم يعد يكفي
 لإرضاء الغريب، الذين يأتون من بعيد، متلهفين لمعرفة إذا ما كانت كل
 تلك الأزهار الباهرة، من شزون الرب أم الشيطان.

وقد وعدتها أمي بذلك، كالعادة، ولو مجرد إرضائها، لأنها كانت واثقة من أن الرب، بحكمته الواسعة، سيعمل المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

كانت الزوجيات على المائدة كارثية، لأنه لم تكن هناك طريقة لجمع الكل معاً. فكانت أمي وأختي الكبيرتان تقدمان الطعام كلما حضر الآخرين، إلا أنه لم يكن مستغرباً أن يحضر أحدهم متأخراً بعد البدء بتناول الخلوى، ليطالب بوجبه. وخلال الليل يأخذ الصغار بالانتقال إلى سرير الوالدين، لأنهم لا يستطيعون النوم بسبب البرد أو الحر، بسبب ألم الأضراس أو الخوف من الموتى، يدافع حب الأبنين أو الفيرة من الآخرين. ويطلع الصباح عليهم جميعاً، متكومين في السرير الزوجي. وإذا لم يولد أحد بعد إلبخيم، فإن الفضل في ذلك يعود إلى مارغوت التي فرضت سلطانها، بعد عودتها من المدرسة الداخلية، وجعلت أمي تنجز بعدها بعدم إلهاب مزيد من الأبناء.

لسر - لاحظ، أن الواقع وجد متسهماً من الوقت ليفرض خطأ آخرى على شليفتي الكبيرتين، ليفيتا هازئين مدى الحياة. فقد انضمت عابداً، كما في الروايات الوردية، إلى دير، مصدرة على نفسها حكماً بالمزيد، ولكنها تخلصت منه بعد اثنين وعشرين سنة، بكل قانونية. وعندها لم نجد رافائيل نفسه، أو أي آخر سواه في تناول بدها. أما مارغوت، طبعها الصليب، فقدت رافائيلها بسبب خطأ من كليهما. وخلالها لهذه السوابق الحزينة، تزوجت ريتا من أول رجل أعجبها. وعاشت سعيدة مع خمسة أبناء، وسبعة أحفاد. أما الأخستان الأخريان - لبخيا وإيلي - فتزوجتا من أربابنا، بعد أن تصب الأبنان من الصراع ضد الحياة الواقعية.

كانت كروب أسرتي تبدو كأنها جزء من الأزمة التي تعيشها البلاد، بفعل العدم البقعة الاقتصادي، والنزف في العنف السياسي الذي وصل إلى سوكري، مثل موسم مشؤوم، ودخل البيت على رؤوس أصابعه، وإنما بخطوات واثقة. كما قد أكلنا أنفاله الاحتياطي الضئيل، وصرنا فقراء جداً مثلما كنا عليه في بارانكيا، قبل الرحيل إلى سوكري. ولكن أمي لم تشعر بالقلق، لثقتها المعززة بأن كل طفل يأتي إلى الدنيا وخبره تحت إبطه. كان هذا هو وضع البيت، عندما أنهت من كارتاخينا، للثقافة من الانتهاج الرومي. غير أن الأسرة كانت قد نواطات، منذ زمن، كيلا يظهر عليها ذلك.

الموضوع الذي كان يشغل الجميع، في القرية، هو الصلاة المزعومة بين صديقنا كايثانو خينتولي ومعلمة مدرسة، في سكرة تشابارال المجاورة، وهي فتاة جميلة، وضعها الاجتماعي مختلف عن وضعه، إلا أنها جديرة جداً، ومن أسرة محترمة، لم يكن ذلك غريباً، لقد كان كايثانو صاحب غراميات متفائلة على الدوام، ليس في سوكري وحدها، وإنما كذلك، في كارتاخينا، حيث درس الثانوية وبدأ بدراسة الطب. ولكن، لم يكن يُعرف أن له خطيبة محببة في سوكري، ولا رغبقات ملغزلات في حفلات الرقص.

في إحدى الليالي رأينا، أنياً من مزرعته، على متن أفضل جرار لديهم، وكانت المعلقة تجلس على السرج، ممسكة الأعنة في قبضتها، وهو على ودف الحصان، محتضناً خصرها، ثم نفاجأ بمدى الحميمة التي بلغهاها. وإنما بجرأتهما في الدخول من ممر الساحة الرئيسية، في ساعة الحركة الفصوى. وفي قرية سيئة الظنون. وقد أوضح كايثانو لمن رغب

في سماعه، بأنه وجدها عند باب مدرستها، بانتظار أحد يحسن إليها
بإيصالها إلى القرية، في تلك الساعة من الليل. لنتبّهت مازحاً بأنه
سيستيقظ، في صباح أحد الأيام، ليجد منشوراً على باب بيته، فهرز
كتفيه بحركة قهر بها، وأطلق دغابته المفضلة:

- لا يتجرّون على عمل ذلك مع الأغنياء.

بالفعل، كانت موضة المنشورات قد اختفت فجأة، مثلما جاءت،
وشاع الظن بأنها، ربما كانت عارضةً آخر، على سوء المزاج السياسي
الذي يعصف بالبلاد، وعادت الطائفة إلى أحلام من كانوا يمشونها.
ومع ذلك، فقد أحسست بعد أيام قليلة من مجيئي، بأن نقهراً قد طرأ
لها هي في مزاج بعض معاصري أبي، من اعتنوني كاتب مقالات معادية
للحكومة المحافظة، نُشرت في جريدة الأونيفرسال. لم يكن ذلك
صحيحاً، وإذا ما اضطررت، في بعض الأحيان، إلى كتابة تعليقات
سياسية، فإنها كانت تنشر دوماً، دون ترفيع، ولحمت مسؤولية الإدارة،
منذ أن تقرر إلغاء السؤال عما حدث في كارمن دي بوليفار. لقد كانت
المقالات التي تحمل توقيعني، في عسودي البرمي، تكشف دون شك،
عن موقف واضح، حيال حالة البلاد المتردية، وسوء العنف والجور، إنما
دون التزامات حزبية، وعملياً، لم أكن آنذاك، ولا في أي وقت آخر،
عضواً في أي حزب، أشارت تلك الانتصامات ذعر أبوي، وبدأت أمي
بإشغال الشروع للقديسين، خاصة عندما أتأخر، خارج البيت، لأحسست
لأول مرة بأن جراً من التصف يحيط بي، وفردت عدم الخروج من البيت،
إلا في أحط الحدود.

وكان أن حضر إلى عيادة أبي، في تلك الأونة، رجل مشير للدهشة.

يسمى كاتيه شمع نفسه، له بشرة شفافة يظهر من خلالها، لون عظامه،
وطن منتفخ ومشدود مثل طبل، وكانت جلسة واحدة قاليها كافية لأن
تحوله إلى شخص لا يمكنني نسيانه، مطلقاً، وإلى الأبد:

- إنني أت يا دكتور لكي تُخرج قرداً جعلوه ينمو في بطني.

وبعد أن قام أبي بفحصه، أدرك أن تلك الحالة ليست ضمن
إمكانياته العنصرية؛ فأرسله إلى زميل جراح، لم يجد القرد الذي ظن
المرضى أنه موجود، بل وجد مصحفاً بلا شكل، غير أنه حي بلاته، ومع
ذلك، فإن ما أثار اهتمامي ليس البهيمة التي في البطن، وإنما قصة
المرضى عن عالم لاسيربي السحري، وهو بلد أسطوري ضمن حدود
موكري نفسها، لا يمكن الوصول إليه إلا عبر مخاضات موحلة، يتصاعد
منها البخار، حيث أشد الأمور عادية هو الانتقام، من إهانة، بسحر
خبث، مثل ذلك الذي ولد مغلفاً شيطانياً، في البطن.

وسكان لاسيربي هم كاثوليك مؤمنون، غير أنهم يعيشون الذين
على طريقتهم، وقرنيلات سحرية خاصة لكل مناسبة. وهم يؤمنون
بالرب، وبالغوا، وبالثالوث المقدس، ولكنهم يمارسون عبادتهم من خلال
أي شيء يرون أنه يكتشف عن قدرات إلهية، وما يمكن أن يكون غير
مفعول في نظرهم. هو أن تبلغ عقائده من ثقت في بطنه دابة شيطانية،
حد اللجوء إلى الاستعانة بهرطقة جراح.

وسرعان ما فوجئت بأن الجميع، في موكري، يعلمون بوجود
لاسيربي، كحقيقة واقعة، ومشكلتها الوحيدة هي أن الوصول إليها يتم
عبر كل أصناف العقبات الجغرافية والفنية، ثم اكتشفت في اللحظة
الأخيرة، وبالمصادفة، أن العلم الضليع في موضوع لاسيربي، هو أنبل

كاسيخ الذي كنت قد رأيته آخر مرة، يقني ضمن فرقة موسيقية، في الحى الصينى. في بارانكايرميخا، في رحلتى الثانية أو الثالثة، عبر نهر مجدلينا. وجدته أكثر تعقلاً مما كان عليه في تلك المرة، ولديه قصة مهلوسة عن رحلاته العديدة إلى لاسيرى. وقد عرفت عنده، كل ما يمكن معرفته عن المركيزا، مالكة وسيدة تلك المملكة الفسحة، التي تعرف ترتيبات سرية من أجل فعل الخير والشر. أو من أجل إتهام محتضر من فراشه، دون معرفة أي شيء عنه سوى وصف جسده، والكان اللطيف الذي هو فيه. أو من أجل إرسال أفنى، عبر المستنقعات، تسبب الموت لعدو، بعد ستة أيام.

الشيء الوحيد المصعوب عنها، هو بحث الموتى، لأنها فدية تخص الرب وحده. وقد عاشت كل السنوات التي شأ منها، ويعتقد أنها بلغت مئتين وثلاثاً وثلاثين سنة، ولكن دون أن تنهم يوماً واحداً، بعد بلوغها السابعة والستين. وقبل موتها، جمعت لطماتها الجرافية، وجعلتها تدور طوال يومين وليلتين، حول مئتها. إلى أن تشكل مستنقع لاسيرى، وهو بحر بلا حدود، تغطيه سحابة من شقائق النعمان الفوسفورية. ويقال إن لي منتصفها، شجرة تحمل ثمار بقطين من الذهب، ويربط إلى جذعها زورق، يندفع مبحراً بفرده في الثاني من تشرين الثاني، كل عام، وهو يوم الموتى، لمهرسه قاسيخ بيضا، وحيات ذات جلاجل ذهبية، حتى الضفة الأخرى، حيث دفنت المركيزا ثورتها الهائلة غير المحدودة. منذ أن روى لي أنخل كاسيخ هذه القصة الخيالية، بدأت أختنق باللغة لزيارة فرديوس لاسيرى الجائع في ديتا الواق. جهزنا كل شيء: خيولاً محصنة بتريلات معكومة، زوارق غير مربية، وغيرها. ساحرين، وكل ما هو ضروري لكنية محقق صحفي عن واقع خارق.

ومع ذلك، فقد بقيت البغال مسرعة تنتظروا، إذ إن نقاهتى الطبية من الالتصاف الرئوي، وسخريات الرفاق في حفلات الرقص، في الساحة، وعبر الأصدقاء الكبار الموعبة، اضطررتني إلى تأجيل الرحلة حتى موعد تالي لم يحل لظ. ومع ذلك، فإني أتذكر ذلك الآن، كحدث حسن الطالع، لأنني بالمشقاد المركيزيتا الخيالية، انضمت منذ اليوم التالي، بمسقى، في كتابة روايتي الأولى، وهي التي لم يبق لي منها سوى العنوان: "البيت".

كانت الرواية تطمح إلى أن تكون دراما من حرب الألف يوم، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وقد تحدثت عنها مع مانويل زاباتا أوليفيرا. خلال زيارة سابقة إلى كارتاخينا. فقي تلك المناسبة، ودون أن تكون للأمر أي علاقة بمشروعى، أهدى إلي كتاباً كتبه أبوه عن محارب لديهم عن خاضرا تلك الحرب، فلاكرتني صورته المطبوعة على الفلاف، بالسترة شبه العسكرية والشارب المحرق بالبارود، بجدي، بطريقة ما، لقد نسيت اسمه الأول. أما كتبه فطلت معي إلى أهد الأبدن: يومئذها. ولهذا فكرت في كتابة رواية بعنوان البيت، عن ملحمة أسرة، يمكن لها أن تتضمن الكثير من ملامح أسرتنا، خلال حرب الكولونيل نيكولاس ماركيز القاحلة.

كان العنوان يستند إلى النية في عدم خروج الأحداث مطلقاً، خارج البيت. كتبت عدة مطالع، ومخططات لشخصيات جزئية كنت أضع لها أسماءها الأسرية. وقد استخدمتها، فيما بعد، في كتب أخرى. إنني متحس للضعف تجاه جملة، تنتهي كلمتان متقاربتان فيها، بالقافية نفسها، حتى ولو كانت لافية صوتية. وأفضل عدم نشرها ما لم أتمكن

من إيجاد حل لها. ولهذا السبب، كنت على وشك التخلي، في مرات كثيرة، عن كنية يونديا، بسبب قاصبتها التي لا تعرب منها مع صيغة الفعل الماضي الناقص. ومع ذلك، فقد فرض القلب نفسه عليّ، لأني كنت قد توصلت إلى تكوين هوية مقنعة له.

لقد كنت مستغرقاً في هذا الأمر، عندما طلع الصباح في البيت، في سوكري، على صندوق خشبي بلا أي كتابة أو إشارة. وقد استلمته أخني مارغوت دون أن تدري من، مفتتحة بأنه بقية متأخرة من الصيدلية المباحة. وقد طنت أنا الشيء نفسه، وتناولت الفطور مع الأسرة. وقبلني مستقر في مكانه. وأوضح أبي بأنه لم يفتح الصندوق لأنه فكر في أنه بقية أصمتني، دون أن يتذكر أنه لم يبق لدي بقية من أي شيء. في هذا العالم. وعندئذ قرر أخي غومستافور، وكان لديه، وهو في الثالثة عشرة، ما يكفي من الخبرة العملية لتسبر أي شيء، أو انتزاع الماسير منه. أن يفتح الصندوق دون الحصول على إذن بذلك. وقد سمعنا بعد دقائق صرخته:

- إنها كتب!

ففر قلبي، قبلي، وكانت بالفعل كتباً دون أي أثر يدل على المرسل، معلبة بيد خبيرة حتى حافة الصندوق، ومعها رسالة بصعب حل رموزها، بسبب خطها الهيروغليفي وغنائية خبيرمان بأوغاس المحكمة: "ها قد وصلتك هذه اللقطة يا معلم. فلتر إن كنت مستعظم أخيراً". وكانت محمل كذلك، توقيع ألفونسو فوينساير، وخريشة عرلت أنها بخط دون رامون فيينيس الذي لم أكن قد تعرفت عليه بعد. والشيء الوحيد الذي ينصحونني به هو عدم الإقدام على الاعتراف أي انشغال يكون ملحوظاً

جداً. وكانت هناك، داخل كتابي لفوكتير، ملاحظة من ألفارو سيببها، يخطه المويص، وقد كتبت فوق ذلك بأقصى سرعة: يخبرني فيها أنه سيباخر في الأسبوع التالي مدة سنة، لاتباع دورة خاصة في مدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا في نيويورك.

كان أول ما فعلته هو عرض الكتب على منضدة غرفة الطعام، بينما كانت أمي ترفع بقايا الفطور. وكان عليها أن تتسلح بكسبة، لإبعاد أبنائها الصغار الذين أرادوا فحص الصور بمقص لتقليم الأشجار، والكلاب الشاردة التي راحت تشتم الكتب، كأنها شيء بؤكل. وأنا أيضاً، كنت أشمها، منلما أفعل دوماً بكل كتاب جديد. تصفحتها جميعها، دون تعبير. لأقرأ منها بانتشاء فقرات منفردة. بدلت مكاني ثلاث أو أربع مرات، في الليل، لأني لم أكن أجيد الراحة أو لأن ضوضاء بحر الغناء الشاحب كان ينفد. واستيقظت، وقد أصبت بالتواء في ظهري. ودون أن تكون قد تشكلت لدي أدنى فكرة بعد، عن الفائدة التي يمكن لي أن أجنيها من تلك المعجزة.

كانت ثلاثة وعشرين عملاً مميّزاً لمؤلفين معاصرين، كلها بالاسبانية، ومختارة بنية واضحة، وهي أن تُقرأ من أجل هدف واحد: تعلم الكتابة، وبينها ترجمات حديثة جداً مثل "الصحف والعنف" لويليم فوكتير. لقد صار من المستحيل، بعد مرور خمسين سنة، أن أتذكر القائمة الكاملة، كما أن الأصدقاء الأديبين الثلاثة الذين يحرصون عليها، لم يوردوا هنا ليتذكروها. كنت قد قرأت اثنين منها فقط: السيدة دلروي للسيدة وولف، و"عبارة شعرية" لألفونسو هاكلبي. والكتب التي أتذكرها أكثر من سواها، هي أعمال وليم فوكتير: البيت الريفي، والصحف والعنف،

وبينما أرقد محتضرة، والنخلات المتوحشات. وكذلك ماتهاتن ترانسفير. وربما كساب آخر لجون دوس باسوس وأورلاند تيمرجيتيا رولف وفيران ورجال، وهناك القصب لجون شتاينبيك، وصورة جيني لروبرت نانان، وطريق النسخ لإرسكين كالدويل. وبين العناوين التي لا أتذكرها عن مسابقة نصف قرن، كان هناك، على الأقل، كتاب ليهينغواي، ربما هو قصص قصيرة، لأنها كانت أكثر أعماله مخططاً لإعجاب أصداء بارانكيلا الثلاثة. وكتاب آخر لمحورخي لويس بورخيس، لا شك في أنه كتاب قصص قصيرة أيضاً. وربما كتاب آخر لفيليبينو هيراندث، القصص الأرجواني الوحيد الذي كان أصدقائي قد اكتشفوه للتو. بإعجاب، قرأتها جميعها في الشهر التالية. بعضها بصورة جيدة وأخرى أقل من ذلك. وبفضلها استطعت الخروج من اللبسوس الإبداعي الذي كنت عالماً فيه.

نُمت من التدخين، بسبب النزلة الصدرية. ولكنني كنت أدخن في الحسام، كما لو أنني أختبئ من نفسي. لاحظ الطبيب ذلك وكلمني بحجوبة. ولكنني لم أتمكن من الانصياع له. وعندما كنت في سوكري، بينما أنا أحاول أن أقرأ، دون هودة، الكتب التي تلقيتها، كنت أفعل سيجارة من عقب أخرى. إلى أن لم أعد قادراً على المزيد، وكلما حاولت ترك التدخين، كنت أدخن أكثر. وصلت إلى تدخين أربع علب سجائر في اليوم. وكنت أقطع وجبات الطعام لكي أدخن، وأحرق صلاتات السمير لأنني أغفو، والسيجارة مشتعلة. وكان الخوف من الموت، يوقظني في أي ساعة من ساعات الليل، فلا أستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التدخين، إلى أن قررت أنني أفضل الموت على ترك التدخين.

بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك، وكنت قد تزوجت وصار لي ابنان، واصلت التدخين. وحين رأى طبيب رثتي على الشاشة، قال لي مذهولاً إنني لن أتمكن من التنفس، بعد سنتين أو ثلاث سنوات. أصابني الرعب، وبلغ بي الأمر حد البقاء جالساً لساعات وساعات دون أن أفعل شيئاً آخر، لأنني لم أعد أستطيع القراءة، أو الاستماع إلى الموسيقى، أو تهادل الحديث مع الأصدقاء أو الأعداء، دون تدخين. وفي إحدى الليالي، خلال عشاء عارض في برشلونة، كان طبيب نفساني صديق يشرح لأخريين أنه، ربما كان التدخين هو الإدمان الذي يصعب التخلص منه أكثر من سواه. فتجرت على سؤاله عن السبب العميق وراء ذلك، فكان رده تبسيطاً يبحث على القشرة:

- لأن ترك التدخين سيكون بالنسبة لك، أشبه بقتل كائن عزيز.
ما حدث كان أشبه بتفجر بصرية. لم أعرف السبب قط، ولم أشأ معرفته. لكنني صحت، في المفضة، السجارة التي كنت قد أشعلتها للتو، ولم أعد للتدخين بعدها، بلا جزع ولا أسف، طوال ما تبقى من حياتي. الإدمان الآخر، ثم يكن ألي إحساساً، في مساء أحد الأيام، دخلت إحدى خدامات البيت المجاور. وبعد أن تكلمت إلى الجميع، جاءت إلى الشرفة. وباحترام كبير، طلبت مني الإذن بالتكلم معي، لم أقطع القراءة إلى أن سألتني:

- هل تتذكر ماتيفدي؟
لم أتذكر من تمنى، لكنها لم تصدقني.
- لا ننظر بالفياء، يا سيد غابيتو - قالت لي ذلك، بتفخيم واثق، وأضافت: - إنها تيفرو-ما-تا.

والحقيقة أن نيفروماتا كانت حيثن امرأة طليقة، لديها ابن من الشرطي الميت. وكانت تعيش بمفردها، مع أمها وآخرين من أسرته في البيت نفسه. إنما في حجرة منعزلة، لها مخرج خاص يؤدي إلى طرف المقبرة. ذهبت لرؤيتها، وألح على اللقاء المتجدد مدة تزيد على الشهر. وكنت في كل مرة، أوجل العودة إلى كارتاخينا، وأريد البقاء في سوكري إلى الأبد. حتى كان فجر يوم فاجأتني فيه. وأنا في بيتها، عاصلة رعد وبرق، مثل ليلة الرويث الروسي. حاولت الاحتباء تحت أفاريز البيوت، ولكنني عندما لم أعد أستطيع ذلك، اندفعت إلى منتصف الشارع، حيث بلغ الماء وكنتي. وقد حالني الحظ بوجود أمي وحدها في المطبخ، فأخذتني إلى غرفة النوم، عبر الحديقة، كبلًا بلم والذي بالأمر. وما إن انتهت من مساعدتي على خلع القميص المبلل، حتى أبعدته بمد ذراعها بعيداً، وهي تمسك به بالسباب والإبهام. وألقت به إلى الركن بحركة قرف، وقالت:

- كنت مع السافطة.

أصابني الجمود.

- وكيف تعرفين؟

فقالته يهدهد أعصابه:

- لأنها الرائحة نفسها التي جثت بها في تلك المرة. لحسن الحظ أن الرجل قد مات.

فاجأني إظهارها تلك القوة، لأول مرة في حياتها. ولا بد أنها لاحظت ذلك، لأنها عززت قولها، دون تفكير في الأمر:

- إنها الميتة الوحيدة التي أسمدتني. عندما علمت بها.

- وكيف عرفت من تكون؟

فكتهدت:

- أي بني، الرب يخبرني بكل ما له علاقة بكم.

ساعدتني أخيراً على خلع البنطال المبلل، وألقت به إلى الركن. مع بقية الملابس. "جصحكم ستكونين مثل أبيكم"، قالت لي ذلك فجأة بهيمسة عميقة. بينما هي تمسح ظهرها بمنشفة من القنب، وانتهت إلى القبول من روحها.

- عسى أن يجعلكم الرب أزواجاً صالحين مثله.

لا بد أن الرهابة الغراماتيكية التي أخضعني لها أمي قد أعطت أكلها في محاسن عودة الانتهاب الرنوي. إلى أن انتهت إلى أنها كانت تعطف تلك الرعاية دون سبب، لتمنعني من العودة إلى فراش رعد وبرق نيفراماتا. فلم أعد إلى ولينها قط.

رجعت إلى كارتاخينا مستعيداً عافيتي وسعيداً، وحملاً خير أنني أكتب البيت. وكنت أحدث عنها، كما لو أنها عمل ناجز، منذ أن كنت في فصلها الأولي. استقبلني ثابالا وهكتور مثلما يستقبلان ابناً ضالاً. ويبدو أن أساتذتي الطبيب في الجامعة، قد استسلموا لتقبلي على ما أنا عليه. وواصلت في الوقت نفسه، كتابة تعليقات عارضة جداً، كانوا يدرسون مقابلها بالنظرة في الأوتيفرسال. أما مسبرني كفضاض، فتمواصلت بالقليل الذي استطعت كتابته، من أجل إرضاء المعلم ثابالا تقريباً: "نحو المرأة وحرارة المشرقين الثلاثة". نشرتها في الاسبينكادور، مع أنه كان يلحظ فيهما تخلفاً من البلاغة الابتدائية التي تبدت في القصص الأربع السابقة، إلا أنني لم أستطع للخروج من المستنقع.

كانت كارتاخينا قد أصبحت آنذاك، يعنوي التوتر السياسي الذي يعم بقية أرجاء البلاد. وكان لا بد من اعتبار ذلك نبوءة شوم، وإشارة إلى أن شيئاً خطيراً سيحدث. في أواخر تلك السنة، أعلن الليبراليون مقاطعتهم التامة للاحتفالات، بسبب وحشية الاضطهاد السياسي. لكنهم لم يتخلوا عن مخططاتهم السرية لإسقاط الحكومة. اشتد العنف في الأرياف، فهرب الناس إلى المدن. لكن الرقابة كانت تهمر الصحافة على الكتابة المشرقة. ومع ذلك، فقد كان معروفاً للجميع، أن الليبراليين المخالفين قد شكلوا وحدات حرب عصابات في أماكن مختلفة من البلاد. ففي السهوب الشرقية - وهذه محيط فسيح من أعشاب خضراء - يغطي أكثر من ربع مساحة التراب الوطني - صارت تلك الوحدات أسطورية، وكان ينظر إلى قائدها العام، غوادالوبي ساليدو، كشخصية خرافية، حتى من ليل الجيش، فكانت صورته توضع سراً، وتسخ بالثبات وتضاء لها الشموع على المذابح.

كان الأخوة دي إسبريها يعرفون، كما يبدو، أكثر مما يقولونه، وكان الحديث داخل منطقة السور، يجري بصورة طبيعية عن انقلاب وشيك ضد النظام المحافظ. لم أكن أعرف أية تفاصيل، ولكن المعلم ثابالا نهني إلى وجوب الحضور فوراً إلى الجريدة، إذا ما لاحظت وقوع أية اضطرابات في الشوارع. لقد كان التوتر شديداً إلى حد يمكن معه لسه باليد، عندما دخلت، لإجهاز موعد في محل مثلجات أميركانا، في الساعة الثالثة، بعد الظهر، جلست أفراً على منصة معزولة. ربما يأتي الشخص المنتظر، فقال لي أحد زملائي القدامى، وهو ير، ولم أكن قد تحدثت معه في السياسة قط:

- فذهب إلى الجريدة، فالأمر على وشك الحدوث.

فعلت عكس ما قاله: كنت أريد أن أعرف كيف سيحدث ذلك في مركز المدينة بالذات، بدلاً من أن أحبس نفسي في قاعة التحرير. بعد دقائق من ذلك، جئت إلى طاولتي، ضابط من مكتب الصحافة الحكومي، وكنت أعرفه جيداً، ولم يخطر لي بأنهم كلّفوه بتجسدي. تبادلنا الحديث معه نحو نصف ساعة، بأنصص حالات البراعة. وعندما نهض لينصرف، اكتشفت أن صالة محل المثلجات الفسيحة قد أغلقت بالكامل. دون أن ألاحظ ذلك، تابع هو نظري في المكان، وتأكّد من الوقت: الواحدة وعشر دقائق. ثم قال لي براحة مكبوتة:

- لا تقلق. لن يحدث أي شيء.

وبالفعل، فقد كان أبرز قادة الليبراليين، من أصحابهم العنف الرسمي بالفتوط، قد اتفقا مع عسكريين ديمقراطيين من أعلى المراتب، لوضع حد للمذبحة التي يفترقها، في كل أنحاء البلاد، النظام المحافظ المستعد للاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن. كان معظمهم قد شارك في اتصالات التاسع من نيسان، من أجل التوصل إلى السلام، من خلال اتفاق أبرموه مع الرئيس أوسبينا بيريث. ولم يكد ير عشرون شهراً على ذلك، حتى أدركوها، بعد قوات الأوان، أنهم كانوا ضحية خدعة هائلة. وهكذا، فإن العملية الانتقالية المحبطة التي كان مخططاً لها أن تتم في ذلك اليوم، صادق عليها رئيس الإدارة الليبرالية شخصياً، كارلوس ميمراس ومشرهيو. من خلال بلينيو ميندوتا نيجرا الذي تربطه علاقات حمارة بالقوات المسلحة، مذ كان وزيراً للحرية، في ظل الحكومة الليبرالية. وكان يتوجب يد - العملية التي تسفها ميندوتا نيجرا، بالتعاون التكنم

مع محازين في كل أنحاء البلاد، في فجر ذلك اليوم، بقصف القصر الرئاسي بطائرات القوات الجوية. وكان التحرك يلقى دعم القاعدتين البحريتين في كارتاخينا وأبياي، ومعظم الحاميات العسكرية في البلاد، والمنظمات الثقابية المصممة على تولي السلطة لإقامة حكومة مدنية تتولى المصالحة الوطنية.

بعد إخفاق العملية فقط، عُرف أن الرئيس السابق إدواردو سانشوس، كان قد جمع في بيته في بوشوتا، قبل يومين من الموعد المقرر، القادة الليبراليين وقادة الانقلاب من أجل مراجعة نهائية للمشروع. وفي أثناء المناقشة، وجه أحدهم السؤال التقليدي:

- هل تحدثت بإقامة دما؟

ولم يكن هناك أحد ساذج أو صفيق إلى حد القول: لا. وأوضح قادة الآخرون بأنه تم اتخاذ أقصى الاحتياطات كيلا تكون هناك إراقة دماء، إلا أنه لا توجد مصداق للحيولة دون حدوث ما هو غير متوقع. فأصدرت الإدارة الليبرالية، المزعومة من مؤامرها بالذات، الأوامر بإلغاء العملية. عدد كبير من المتراطين الذين لم يُبلغوا بالأمر في الوقت المناسب، جرى اعتقالهم أو قتلهم أثناء المواجهة. ونصح آخرون ميندوزا بأن يواصل العملية وحده حتى الاستيلاء على السلطة. فأحجم عن فعل ذلك لأسباب أخلاقية أكثر منها سياسية، ولكن لم يتول له الوقت ولا الوسائل لإخبار جميع المشاركين بإلغاء العملية. وقد تمكن من اللجوء إلى سفارة فنزويلا. وعاش أربع سنوات متقبلاً في كاراكاس، بعيداً عن المجلس العسكري الذي حكم عليه غيابياً، بخصم وعشرين سنة سجناً بتهمة التمرد. والآن، بعد اثنتين وخمسين سنة من

ذلك، لا يرتعش نبضي وأنا أكتب - دون إذن منه - بأنه أحسن بالندم طوال ما تبقى من حياته. في مئة في كاراكاس، بسبب حصيلة القتلى الذين حصدهم الحزب المحافظ وهو في السلطة: ليس أقل من ثلاثمائة ألف قتيل، خلال عشرين سنة.

لقد كانت لحظة حاسمة، بطريقة ما، بالنسبة لي أنا أيضاً. فقبل شهرين من ذلك، كنت قد تخلت عن دراسي لسنة الحقوق الثالثة، ووضعت حداً لالتزامي مع جريدة الأونيفرسال، لأنني لم ألتص لي مستقبلاً في أي منها. وكانت الزبعة هي تهمير وقتي. من أجل كتابة الرواية التي لم أكملها، مع أنني كنت أعرف، في أعماقي وحي، بأن ذلك لم يكن صدقاً ولا كتباً. وإنما تكشف لي مشروع الرواية، فجأة، على أنه صيغة بلاغية، فيها شيء للهل جيداً من الجهد الذي استطعت استخلاصه من فكري. وكل ما هو سين من انعدام تهميرتي، وسرعان ما تمثت أن رواية قصص موازية للقصص التي يكتبها أحدنا - دون الكشف عن جوهرها - هو جزء ثمين التصوير والكتابة. ولكن لم تكن هذه هي حالتي آنذاك، وإنما كان افتقاري إلى شيء محدد أعرضه، هو ما دفعني إلى اختلاق رواية محكية، ألهم بها المستمعين وأخذ نفسي.

أجبرني على ذلك، على إعادة التفكير في المشروع الذي لم يزد قط عن أربعين صفحة غير مؤكدة، من القصص إلى القصص. ومع ذلك، فقد ذكر في مجلات وصحف - ومن قبلي أنا أيضاً - بل نشرت عنه، مسبقاً، بعض المقالات النقدية شديدة الرصانة، كتبها قراء واسعدو المخيلة. أما توجهي نحو عادة رواية مشاريع موازية لما أكتبه، فلم يكن يستحق، في العمق، اللوم، وإنما الشفقة، لأنه يمكن لرعب الكتابة أن

يكون غير محتمل مثل رعب عدم الكتابة. يضاف إلى ذلك، في حالتي، أنني مقتنع بأن رواية القصة الحقيقية هو مجلة لـ «الطالع» ومع ذلك، فإنني أجد العزاء في أنه يمكن للقصة المحكيّة، أن تكون أحياناً أفضل من المكتوبة، وأنتا تقوم كذلك، دون أن ندري، باختراع جنس أدبي جديد يحتاج الأدب إليه: تخيل التخيّل.

حقيقة الحقيقة هي أنني لم أكن أعرف كيف سأواصل العيش. نظامتي في سركري أفادتني في إدراك أنني لا أعرف أين أمضي في الحياة، غير أنها لم تمنحني إشارة لتوجه صائب، ولا حجة واحدة جديدة ألتجئ بها أبوي بأنهما لن يموتا إذا ما سمحت لنفسي بحرية اتخاذ القرار بنفسي. وهكذا ذهبت إلى بارانكيا، ومعى متا ييزو أعطيتني إيماها أسي قبل عودتي إلى كارتاخينا، مختصة من الرصيد العائلي.

في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٤٩، دخلتُ إلى مكتبة موندو، في الساعة الخامسة مساءً، لانتظر الأصدقاء الذين لم أعد لرويتهم، منذ ليلتنا في شهر أيار، عندما ذهبت مع السيد وانزوري الذي لا ينسى. لم أكن أحمل معي سوى حقيبة شاطئ، فيها غبار ملابس آخر، وبعض الكتب وحافظة الأوراق الجديدة التي تضم مسوداتي، بعد دقائق من وصولي جاؤوا جميعهم إلى المكتبة، واحداً بعد الآخر. وكان ترحيباً صاعباً لم يحضره ألفارو سببها الذي كان لا يزال في نيويورك، وعندما اكتملت الجماعة، ذهبت لتناول المقبلات. وكان تناولها قد تحول من مقهى كولومبيا المجاور للمكتبة، إلى فنا - صور يرتاده الأصدقاء المقربون على الرصيف المقابل: مقهى جايي.

لم تكن لي وجهة محددة، لا في تلك الليلة ولا في بقية حياتي.

والغريب أنني لم أفكر، قط، في أنه يمكن لتلك الوجهة أن تكون بارانكيا. وإذا كنت قد ذهبت إلى هناك، فبأنما للنهوض في الأدب وحسب، وتقديم الشكر، بجسدي الحاضرة، على إرسالية الكتب التي بعثوا بها، إلي في سركري. بالنسبة إلى الأمر الأول، توصلنا إلى فائض منه، أما الثاني فلا شيء.. بالرغم من محاولاتي الكثيرة المتكررة، لأن الجماعة كانت تخاف خوفاً طقسياً من تقديم الشكر وتلقبه فيما بين أفرادها.

ارجميل خيرومان بارغاس في تلك الليلة، طعاماً لاثنين عشر شخصاً، كان بينهم أناس من كل الأوساط. ابتداءً من صحفيين ورسامين وموثقي عقود، حتى حاكم القطاع، وهو من المحافظين التقليديين في بارانكيا، له طرفته الخاصة في التمييز والحكم. وقد انسحب معظمهم بعيد منتصف الليل، وراح الآخرون يتصرفون لمرادى، إلى أن لم يبق سوى ألفونسو وخيرومان وأنا، ومعنا الحاكم، وهو لا يزال يحافظ، إلى هذا الحد أو ذاك، على سلامة أحكامه، مثلما اعتدنا أن نكون عند الفجر في سن المراهقة.

وخلال نبادلتنا الطويل للأحداث في تلك الليلة، تلقيت درساً مفاجئاً، حول طريقة حكام المدينة في التصرف، في السنوات الدامية، فقد كان الحاكم يقدر أن أضاع الناس أملاً، وسط أضرار تلك السياسة الهمجية، هو عدد مشير للدهشة من اللاجئين في المدينة، يعيشون دون سقف ولا خبز. وانتهى إلى القول:

- إذا ما استمرت الحال على هذا النحو، فإن حزبي سيقبض، بقوة السلاح، دون خصم بنفسه في الانتخابات القادمة، وسيكون سيد البلاد المطلق.

الاستغناء - الوحيد هو بارانكيئا، فاستأذنا إلى ثقافة تعايش سياسي
بتنهجها المحافظون العلميون، تحولت المدينة إلى صلاة آمن في قلب
الإحصار. أردت أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه ألوفني بحركة نظرة
من يده، وقال:

- المعذرة. هنا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على
العكس: بسبب ميولنا السلمية تحديداً، راحت حاساة البلاد الاجتماعية
بالتسلل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت
موجودة عندها الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسمئة آلاف لاجئ.. آتين من
المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس، وأنهم لا يعرفون كيف
يعبدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملأ.
وللمرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم
بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر
ذلك. وتقع الرقابة كشله في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه المجرعة، ذهبتُ
إلى تشوب سوي، مكان تطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من
الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة
التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع 'براد'، وهو اسم المستمار في
مقالة اليوم. وكانت الملاحظة موجهة لي وحسب. لكن خيرمان سخر
منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر، القول إنه سيبقى للعبش هنا، من أجل كشابة
ملاحظة ترحيب، ثم أخرى بعد ذلك للدواع - قال خيرمان ساخراً،
وأضاف: - فهذا أقل كلمة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من الميسر،
ضم كتاب عمود آخر. إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه.
ولكن خيرمان كان جامحاً على ضوء الفجر.

- سيكون خامس كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطيع أي منهما مرففي، مثلما كنتُ أرغب، لكي أقول لهما
أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن
ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة الجريدة، ردت لهم
فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة، ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر،
على أي حال، قبل أعصاب رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحجة
الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني بلعنهم، في شهر شباط.

الاستثناء الوحيد هو بلزانكييا، فاستناداً إلى ثقافة تعامش سياسي ينتهجها المحافظون المحليون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإحصار. أردت أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة لفة من يده، وقال:

- المذرة. هنا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميولنا السلمية الحديثة، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلسل إلينا، على رؤوس أصحابها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عنده، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجئ، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيشون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملأ. وللصراة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تتكر ذلك. وتمنع الرقابة كشفه في الصحافة.

هذه الفجر، وبعد أن غادر السيد المحاكم، بما يشبه المجرمة، ذهبتا إلى تشوب سوي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "بول"، وهو اسم المستعار في مقاله اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

- كان من الأجدر القول إنه سيبقى للبحث هنا - من أجل كتابة ملاحظة ترحيب، ثم أخرى بعد ذلك للرباع - قال خيرمان ساخراً، وأضاف: - فهذا أقل كلفة، لبريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامعاً على ضيق الفجر.

- سيكون خامس كتاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطلع أي منهما موقفني، مثلما كنت أرغب، لكني أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة المجردة، وبدت لهم فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال، قبل أعيد رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحسرة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني وقضهم، في شهر شباط.

هكذا نُشرت مقالتي الأولى في صفحة الافتتاحيات بجريدة
 النهارالدو في بارانكيّا، يوم الخامس من كانون الثاني ١٩٥٠. لم أشأ
 توقيعها باسمي لكي أخرج سليماً، إذا ما عجزتُ عن إيجاد طريق
 للاستمرار، مثلما جرى لي في جريدة الأونيفرسال. ولم أتردد وأفكر
 مرتين، لي اختيار الاسم المستعار الذي سأكتب به: "سيبتيموس"،
 المأخوذة من سيبتييموس وارنر سميت، شخصية فيرجينيا وولف المهووس
 في رواية السيدة دلووي. أما عنوان العمود - "الزواقة" - فكان لقباً
 سرياً، لا يعرفه أحد سواي، لرفيقتي الوحيدة في الرقص في حفلات
 سوكري.

بدا لي أن رياح كانون الثاني تهب في تلك السنة، أقوى منها في
 أي وقت آخر. حتى إن المرء يجد صعوبة في المشي بعكس اتجاهها، في
 الشوارع التي تضربها الرياح حتى الفجر. فكان موضوع الأحاديث عند
 الاستيقاظ، هو الأضرار التي سببتها الرياح المجنونة خلال الليل، وما
 تذروه معها من أحلام وأقنان دجاج، ونحويلها ألواح توتيا، السقوف إلى
 مقاصل طائرة.

إنني أفكر اليوم، في أن تلك الرياح المجنونة كانت تكنس بقايا

ماض فاحل، وتفتح لي أبواب حياة جديدة. ثم تعد علاقتي بالجماعة متدفقة بتلقائية، وتحولت إلى تواصل مهني. في البدء كنا نناقش الموضوعات التي نفكر فيها، أو نتبادل ملاحظات ليس فيها شيء من الحذقة، ولكنها من النزاع الذي لا ينس. وقد كانت المناقشة الحاسمة، بالنسبة لي، هي التي جرت في صباح يوم دخلت فيه إلى مقهى جمعي. بينما كان خيرمان يارغاس ينهي بصمت، قراءة "الزرافة" في قفصاة من صحيفة ذلك اليوم. وكان أفراد الجماعة الآخرون، حول المنضدة، ينتظرون حكمه، ينزع من الرعب التوقسري، يزيد دحان الصالة من كثافته. وعندما انتهى خيرمان من القراءة، وحتى دون أن ينظر إلي، مزق القفصاة إلى نطف صغيرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ونثرها بين قفصاة أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المحروقة في المنفضة. ثم يقل أحد شيئاً، ولم يتبدل المزاج على المنضدة، ولم يجر التطليق على الحوادث، في أي وقت آخر. ولكن الدرس ما زال ينفعني حتى الآن، كلما داهمني، بسبب الكسل أو التسرع، إلهواء كتابة فقرة متسرعة، فكى أخرج من مازق.

في فندق لايفي، الذي عملت فيه قرابة السنة، انتهى الأمر بأصحابه إلى معاملتي كفره من الأسرة. كانت ثروتي الوحيدة آنذاك، هي صندوق التاريخي، وشهران من الملابس، أغسلها تحت الدوش. عند الاستحمام، وحشية الجلد التي سرفتها من صالة الشاي الأكثر فبهة في بوهوتا، خلال أحداث التاسع من نيسان. كنت أحملها معي أينما ذهبت، وأضع فيها أسلح ما أكتبه. وهي الأشياء، الوحيدة التي يمكن لي أن أفقدها. ولم أكن لأجازف بتركها، ولو رواحة معلقة أفعال، في صندوق

مصنوع في أحد المصارف. والشخص الوحيد الذي كنت أأثقه عليها في ليالي الأولى، هو لاثيميس المتكتم، بواب الفندق الذي تنبأها حتى كضمان لأجرة الغرفة. فقد ألقى نظرة تاقبة على قفصاصات الورق المكتومة على الآلة الكاتبة، والمتشابهة بالنصحيحات، وخباها في درج منضدة الكونتوار، اغتميتها في اليوم التالي، في الساعة الموهودة، وواصلت دفع أجر الغرفة بصراحة. وكان يتقبل الحقيقة كرهن عن مهنتي مدة تصل إلى ثلاث ليال. وبلغ الأمر حد اتفاق جدي، إذ كنت أصعبها أحياناً، على منضدة الكونتوار، دون أن أقول له شيئاً سوى طابت ليلتك، وأتناول بنفسي المشايخ، من لوحة المفاتيح، وأصعد إلى حجرتي.

كان خيرمان يتابع، على الدوام، حالات عزبي، حتى إنه كان يعرف إذا ما كنت لا أجد مكاناً أنام فيه، فبعطني خفية، عندئذ، مبلغ البهزو والتصف من أجل دفع أجرة السرير. لم أدر، قط، كيف كان يعرف ذلك، ويفعل حسن سلوكي، كسبت ثقة الصالحين في الفندق. حتى إن العاهرات الصغيرات كن يهرنني صابونهن الخاص، لأستحم، وفي موقع القيادة، كانت صاحبة الفندق وسيدته، كاتالينا الكبرى، بتدبيرها المبهين ورأسها البقطيني، هي التي تتراأس الحفاة فيه. أما فعلها، المخلصي جوناثان سان فينتني، فكان هازف تروصين راقباً إلى أن تهبشت أسنانه المظلمة في عملية مطر تعرض لها، لسرقة تلبسة أسنانه الذهبية. فاضطر إلى تضجير مهنته، بسبب تكسر فكاه وفقدانه القدرة على النطق. ولم يستطع العشور، لتبوقه ذي الست بوحسات، على ما هو أفضل من سرير كاتالينا الكبرى الذهبي. وكانت هي نفسها تملك كذلك، كنزها المسمم الذي أنفادها في الصعود، خلال ستين، من ليالي المرفأ النهرية البائسة، إلى

عرشها كأم كبرى. وقد حالها الخط بالتمرف على موهبة وأريحية
المكانين، من أجل إسماع أصدقائها. ولكنهم لم يستطيعوا هناك، لأن
بهموا قط، سبب التقادي البيزو ونصف البيزو، لدفع أجرة الغرفة، على
الرغم من أن أشخاصاً من عائلة الناس، يأتون لأخني في سيارات
لهوزين رسمية.

خطرة سعيدة أخرى في تلك الأيام، هي توصلي إلى أن أكون الريان
المساهد الوحيد لمؤثر غيراً. وهو سائق سيارة تكسي شديد الشقرة إلى
حد يبدو معه أنه أمهي، وبالغ الذكاء واللطف إلى حد يمكن معه، للناس،
أن يختاروا محضراً لي المجلس البلدي، دون حملة انتخابية. كانت
سهراته حتى الفجر في المحي الصيني، لبدو سينمائية، لأنه هو نفسه كان
يتولى إخراجها - وجعلها جنونية أحياناً - بنزوات غير متوقعة. وعندما
يرغب في أن يقضي ليلة على هواه، يخبرني بذلك، وتذهب لغضائها
معاً في مواخير المحي الصيني المتردي، حيث تعلم أبائنا وآباء أبنائنا
كيف يصنعونها.

وسط حياة يمثل تلك البساطة، لم أعرف، قط، سبب غرقي المفاجئ
في حالة فتور طارئة. فروايتي التي كنت أكتبها - البيت - بدت لي،
بعد سنة شهر من البد، مهزلة غير موفقة. وكان كلامي عنها أكثر
ما أكتبه فيها. والحقيقة أن الشيء - المصاحف القليل الذي توصلت إليه،
هي المقطوعات التي نشرتها، قبل وبعد ذلك، في "الزواقة" وفي مجلة
كرونيكا، كلما وجدت نفسي بلا موضوع أكتب عنه. في وحدة عطلات
نهاية الأسبوع، عندما يلو الأخرى يبهرونهم، كنت أبقى وحيداً، أكثر مما
هي عليه البد اليسرى. في المدينة الخاوية. لقد كنت في حالة فقر

مفقع، وخجل طائر سماني، أحاول أن أهاضي ذلك بصعولة لا نطاق،
وصراحة غظة، كنت أشعر بأنني فائض عن الحاجة في كل مكان، وكان
بعض المعارف يشعرونني بذلك. وبدا الأمر أشد حرجاً في قاعة تحرير
الهيرالدو، حيث كنت أكتب أحياناً طوال عشر ساعات متواصلة، في
ركن منعزل، دون أن أخاطب أحداً، يلفتني دخان السجائر الرخيصة التي
أدخنها دون توقف، في عزلة بلا عزا. كنت أكتب بأقصى سرعة، وفي
أحيان كثيرة حتى الفجر، على شرائح ورق طباعة أحمله معي إلى كل
مكان في حقيبتي الجلدية.

في واحدة من لحظات السهر الكثيرة في تلك الأيام، نسبت المحفظة
في سيارة تكسي، واعتبرت الأمر مزحة أخرى من مغالب سوء الطالع
الذي يلاحقني. لم أقم بأي جهد لاستردادها، لكن ألفونسو لويسامبور،
المصور من ليمون، حرر ونشر ملاحظة في نهاية زاويتي: "يوم السبت
الماضي، نسيت حافظة أوراق في سيارة أجرة عامة. ونظراً لأن صاحب
حافظة الأوراق لذلك، وكاتب هذه الزاوية هما، بالمصادفة، الشخص نفسه،
فإنهما يشكران من ينظف بالاتصال بأي واحد منهما، علماً أن حافظة
الأوراق لا تحتوي أي شيء ذا قيمة على الإطلاق، وإنما زواجات غير
منشورة وحسب". بعد يومين من ذلك، ترك أجدع مسوداتي عند بوابة
الهيرالدو. ولكن دون المحفظة، بعد أن صبح ثلاثة أخطاء، إملائية فيها،
بخط جميل جداً، وبحبر أخضر.

الأجر اليومي كان يكفيني، بالضبط، لدفع إيجار الغرفة. ولكن
أقل ما كان يقطنني، في تلك الأيام، هو هاوية الفسّر. وفي المرات
الكثيرة التي لم أستطع فيها دفع أجرة الغرفة، كنت أذهب للمقراة في

صقبي روما، مثلما أنا في الواقع: متوحداً وهائلاً على وجهي في ليل شارع بوليفار. كنتُ أوجه التحية، من بعيد، لأي شخص أعرفه، إذا ما تنازلتُ بالنظر إليه. وأواصل لدعماً حتى مكاني المعجز المعبود، حيث أطل أقرأ في بعض الأحيان إلى أن "تكتسني" الشمس. فقد كنتُ ما أزال آنذاك، قارئاً نهماً، دون أي تكوين منهجي، وخاصة للشعر. بما في ذلك الشعر السيئ، لأنني في أسوأ لحظات انحطاط معنوياتي، كنت مقتنعاً بأن الشعر الرديء يؤدي، عاجلاً أو آجلاً، إلى الجحيم.

كنتُ أبوء، في زاويتي "الزوالمة"، متعباً جداً لثقافة الشببة، على خلاف قصص القصيرة التي تبدو أشبه بأعجيبات كافكاوية، يكتبها شخص لا يدري في أي بلاد يعيش، ومع ذلك، فإن حقيقة روعي هي أن مأساة كولومبيا كانت تصلني كما في رجع بعيد، ولا تستثيرني إلا عندما تطفح الأنهار بالدم. كنتُ أشعل سيجارة قبل أن أنهى السجارة السابقة، وأعب الدخان بلهفة الحيلة التي يعمد بها المصابون بالربو الهوا، وكانت حطب السجائر الثلاث التي أستهلكها، كل يوم، تظهر على أظفاري، وفي شمال الكلب المعجوز الذي عكر سنوات شبابي، وباختصار، كنتُ خجولاً وكثيراً، مثل أي كاريبي طيب، وشديد الفيرة على حبيبتي إلى حد الرد على أي سؤال عنها، بمسافة سفاهة بليغة. وكنتُ مقتنعاً من أن سوء طالع خلقي، ولا خلاص لي منه، خاصة مع النساء والنفرد. ولكن ذلك لم يكن يهمني، لأنني كنتُ لأمم بأنني لا أحتاج إلى حسن الطالع كي أكتب بصورة جيدة. لم أكن أحفل بالجهد، ولا بالمال، ولا بالشيخوخة، لأنني كنتُ واثقاً من أنني سأموت شاباً فنياً ومشهوراً في الخارج.

الرحلة مع أمي لبيع البيت في أوكاتاكا، أنقذتني من تلك الهواية. وكشف لي يقين الرواية الجديدة، مستقبلاً مختلفاً. لقد كانت رحلة حاسمة بين الرحلات الكثيرة في حياتي، لأنها أثبتت لي بالتجربة، أن الكتاب الذي حاولت كتابته، ما هو إلا مجرد اختلاق بلاغي، ليس له أي استناد إلى حقيقة شعرية. وقد فتحت المشروع شطاباً بالطبع، عند مواجهته بالواقع الذي تكشف لي في تلك الرحلة.

ما كان يمكن لنموذج مفعمة كالذي كنتُ أعلم به، أن يكون غير نموذج أسرتي بالذات، وهي أسرة لم تكن لطيفة، أو حتى ضحية شيء، محدد بعينه. وإنما مجرد شهادة بلا فائدة، وضحية لكل شيء. بدأتُ بكتابتها منذ لحظة عودتي بالضغط، إذ لم يعد يقهمني، في شيء، الشغل بأدوات مصنعة، وإنما الشحنة الانفعالية التي أخرجها دون أن أدري، والتي انظرتني سلمية في بيت المجددين. لحظتُ خطراتي الأولى على رجال القرية المنهزمة، أدركتُ أن متهمي لم يكن هو الأكثر ملامة لرواية ذلك الفردوس الأرضي من الخراب والحنين، بالرغم من أنني أنفقت الكثير من الوقت والعمل، للعشور على المنهج الصحيح، ولم تكن مشاغل كرونيكا التي على شكل انصوير بشكل عائلاً، بل على العكس تماماً: لقد شكلت كابحاً للجزع.

وباستثناء ألفونسو فرنانديز - وقد لاجأني وأنا في حسي الإبداع، بعد ساعات من بدئي الكتابة - هل بقية أصدقائي يهتدون، لوقت طويل. أنني ما زلتُ أواصل العمل في مشروع "البيت القديم". فقيمتُ أن أبقى الأمر على ذلك النحر، بسبب الحرف الطقولي من أن يكشف إخفاقي فكرة كنت قد تكلمت عنها طويلاً، كما لو أنها عمل

خالد. ولكنني فعلت ذلك أيضاً، لاعتقاده خرافتي ما زلت أؤمن به،
 بروجوب رواية قصة، وكشافة أخرى مختلفة كجلا يعرف أي منهما هي
 الصحيحة. ولا سيما في المقاملات الصحفية، وهي في نهاية المطاف
 جنس تخييل خطير بالنسبة لكتاب خجولين لا يريدون أن يقولوا أكثر مما
 يجب عليهم قوله. ومع ذلك، لا بد أن خيرمان بارهام قد اكتشف الأمر
 بنظنه الغربية بعد شهر من سفر دون رامون إلى برشلونة، قلل له في
 إحدى رسائله: "أظن أن غابيتو قد تخلى عن مشروع البيت. وهو منهل
 الآن في رواية أخرى". وكان دون رامون يعرف ذلك بالطبع، لعل أن
 بقادر.

لقد كنت أقصر، منذ السطر الأول، بأنه لا بد للكتاب الجديد من أن
 يستند إلى ذكريات طفل في السابعة، ناج من مجزرة عام ١٩٣٨
 العامة في منطقة الموز. ولكنني مرعبان ما استبعدت ذلك، لأن القصة
 ستبقى محدودة ضمن وجهة نظر شخصية، ليس لديها ما يمكنني من
 الموارد الشعرية لروايتها. وعندئذ وجدت أن مغامرتي بقراءة أوليس،
 وأنا في العشرين من عمري، ثم الصخب والعنف فيما بعد، كانت جرأة
 مبكرة بلا مستقبل؛ فاستريت إعادة قراءتها بنظرة أقل احتراساً.
 وباللعل، فقد تكشف لي عندئذ، كثيراً ما بدا لي متحلقاً وصغلاً، عند
 جريس وفركتر، عن جمال وبساطة جارتين. فكرت في جعل المونولوج
 متعدد الأصوات، يشمل القرية كلها، مثل كورال إغريقي راو، على
 طريقة بينما أرلد محتضرة، حيث تتوالى تأملات أسرة كاملة تحيط
 بمحتضرة. لم أعجزاً على تكرار أسلوبها البسيط في الإشارة إلى أساء
 الأبطال، عند كل تكلم، مثلما في النصوص المسرحية. ولكنها أمدتني

بفكرة الانحصار على استخدام ثلاثة أصوات، الجد والأم والطفل، يمكن
 لنبراتها ومساترها المختلفة جداً، أن تحدد هوية المتكلم تلقائياً. والجد هي
 الرواية لن يكون أعور مثل جدي، وإنما أعرج. وستكون الأم ذاهلة،
 ولكنها ذكية، مثل أمي. والطفل جامد، مرعوب ومتأمل، مثلما كنتُ
 وأنا هي مثل سنه، لم يمكن كل ذلك لقبة إبداعية بأي حال، وإنما مجرد
 وسيلة تقنية.

لم يتعرض الكتاب الجديد لأي تفهرص محقق خلال كتابته، ولا لأي
 نسخة مختلفة عن الأصلية، باستثناء بعض الحذف والترقيع على امتداد
 سنين، قبل صدور طبعته الأولى، ربما بسبب إدماني عمادة مراسلة
 التصحيح حتى الموت. أما القرية - وهي مختلفة تماماً عن تلك التي
 كانت لدي في المشروع السابق - فقد رأيتها رؤية العينان في الواقع.
 عند عودتي إلى أراكاتاكا مع أمي، غير أن هذا الاسم - مثلما نهني
 دون رامون الحكيم جداً - بدا لي غير ملائم، مثله مثل بارانكيا. وكان
 يخلو كذلك، من النضجة الأسطورية التي أبحث عنها للرواية. وهكذا
 فمرت تسمية القرية بالاسم الذي كنت أعرفه، دون شك، منذ طفولتي؛
 ولكن شحنته السحرية لم تنكشف لي حتى ذلك الحين؛ ماكوندو.

كان عليّ أن استعمل عنوان "البيت" - وهو مأثور جداً آنذاك بين
 أصدقائي - لأنه لا علاقة له بالمشروع الجديد. ولكنني التفتت الخطأ بأن
 رحلت أدوين، على دفتر مدرسي. كل عنوان يخطر لي، بينما أنا أكتب.
 وقد عجمت لدي أكثر من ثمانين عنواناً. وأخيراً، وجدت دون أن أبحث
 عنه، في النسخة الأولى شبه المكتملة، عندما استسلمت لإغاث كتابته
 مقدمة من المؤلف. لقد قفز العنوان في وجهي، كأكثر التسميات أنفة

وأكثرها إشفاقاً في الوقت نفسه، بين تلك التي أطلقتها جديتي، بما تبقى لديها من ترسبات أرستقراطية، على بقايا اليونانية فروت كومباني: عاصفة الأوراق^(١).

الكتاب الذين حفزوني أكثر من غيرهم على كتابتها، هم الروائيون الأمريكيون، وخاصة أولئك الذين أرسل لي أعمالهم إلى سوكري. أصدقائي في بارانكيا، ولا سيما بسبب تشابهات من كل نوع كنت أجدها بين ثقافات أعماق الجنوب الأمريكي وثقافة الكاريسي التي أتردد معها توحداً مطلقاً وجوهرياً وغير قابل للتبدل، في تكويني ككاتن بشري وكتاب. منذ وعيت ذلك، بدأت أقرأ كتائب حرفي حقيقي، ليس للمتعة فقط، وإنما بدافع فضول لا يرتوي إلى اكتشاف كيف كتبت أعمال الحكما. تلك، فرأتها أولاً بصيرة سريعة، ثم بالقلوب. وأخضمتها لنوع من نزغ الأحشا - الجراحى، بغية التوغل في أشد أسرار بنائها خفية. وبالتوجه نفسه، لم تكن مكتشفي قط، سوى أداة عمل، حيث يمكنني أن أجده في الحال، فضلاً لدوسوفسكي، أو التأكد من معلومة حول صرح بولبوس فيصير أو حول آلهة مضخم سيارة. ولدي، فوق ذلك، مرجع في الترايف الاغبيالات المحكمة، إذ قد يحتاج إليه أحد شخصي المعوزين. أما ما عدا ذلك، فألجزة أصدقائي الذين كانوا يوجهونني في قراءاتي، ويحيرونني الكتب التي عليّ قراءتها في الوقت المناسب. والذين قاموا بالقراءات القاسية لأصول كتبي قبل نشرها.

لقد أمدتني تلك النماذج بعري جديد نفسي بالثبات. وانتهى

(١) عنوان الرواية في الأصل *la borrasca* أي الأوراق الغدبية المتساقطة، ولكن الترجمة شرجعت إلى العربية - وحررت بعنوان "عاصفة الأوراق"، وهو عنوان موافق.

مشروع مجلة كرونিকা إلى منحي أجنحة. كانت معنوياتنا مرتفعة إلى حد توصلنا معه، على الرغم من العوائق المسببة، إلى امتلاك مكتب خاص بالمجلة، في طابق ثالث بلا مصعد. بين نداءات الباعة المتجولين والمحافلات المتشابكة في شارع سان يلاس الذي كان مهرجاناً صاخباً، منذ الفجر حتى الساعة السابعة ليلاً. لم يكن المكتب بكاد يتسع لنا. ولم يكن فيه هاتف بعد، أما جهاز تكثيف الهواء فكان حليماً يمكن له أن يكلفنا أكثر من كلفة المجلة الأسبوعية. ولكن فرينمايور وجد الوقت الكافي ليلى. المكتب بموسوعاته المهلهلة، وقصاصاته من صحف بكل اللغات، ومرآجه الشهيرة حول مهن غريبة، وعلى منضدته كمدبر، كان يجمع "تاريخ أنتودود" الذي أنقذه، مجازياً بحياته، من حريق لي إحدى السفارات. وهو اليوم درة في متحف بارانكيا الرومانسي. أما المنضدة الوحيدة الأخرى، فكتبت أشغلها أنا، وعليها آلة كاتبة مستعارة من الهيرالدو، يحكم منصبي اللامع كرئيس للتعجير، وكانت هناك طاولة رسم مخصصة لألبخاندرو أوبيلون، وأورلاندو غيورا، والفونسو مبلو، ثلاثة رسامين مشهورين النضوا، وهم بكامل وعيهم، بوضع رسوم توضيحية للمساهمات الكتابية. وهذا ما فعلوه، أولاً بدافع من كرمهم الفطري، وأخيراً لأننا لم نكن نملك غلساً فائضاً لنا نحن بالثبات. أما الصور الأكثر مراقبة وتضحية، فكان كيكسي سكوبيل.

فضلاً عن عملي في التعجير المرتبط بمنصبي، كان علي أن أتابع، كذلك، عملية تضخيد المواد. ومساعدة مصمم التجارب، على الرغم من إحلائي الهولندي. ولأنني حافظت على التزامي مع الهيرالدو، بمواصلة كتابة "الزواقة"، لم أقدم متسعاً كبيراً من الوقت، للمشاركة في

مساهمات منظمة في كرونیکا، ولكنني كنت أجد وقتاً مع ذلك،
لكتابة قصص القصيرة، في ساعات الفجر المبكرة.

وضع ألفونسو، الخبير في كل الأجناس الكتابية، ثقل إيمانه في
القصص البوليسية، وكان مولعاً بها إلى حد التعمش. فكان يترجمها أو
ينتقها، ثم أخضعها أنا إلى عملية تبسيط شكلية متفبدني فيما بعد،
في مهنتي. وكان ما أفعله يتلخص في الاقتصاد في المساحة، ليس
فقط بحذف الكلمات غير الضرورية، وإنما كذلك، الأحداث الفائضة عن
الحاجة، إلى أن تبقى القصة في جوهرها الخالص. دون الانتقاص من
قدرتها على الإقناع. هذا يعني شطب كل ما يمكن أن يكون فائضاً عن
الحاجة في جنس كتابي جازر، يتوجب على كل كلمة فيه أن تتكامل مع
البنا ككل. ولقد كان ذلك من أكثر ممارساتي العملية فائدة في مهرياتي
المؤارية لتعلم تقنية كتابة قصة.

لقد أنقلنا بعض أفضل قصص خوسيه فيليكس فوينابورو، عدة
سيبوت، ولكن تداول المجلة بقي راكداً. ومع ذلك، فإن خشية النجاة
الأبدية ظلت تتمثل في صلاية ألفونسو فوينابورو الذي لم يُعرف عنه
لط، قمعه بزايا رجل مقاولات، وقد انكب على العمل في مؤسستا
بعناد يفرق قواه، كان هو نفسه يحاول كسره في كل خطوة، بحس
سخريته الرهيب. لقد كان يفرم بكل شيء، ابتداءً من كتابة أكثر
الاستنتاجات بُعد نظر، حتى أقل الملاحظات فككة، بالجلد نفسه الذي
يسمى به إلى الحصرل على إعلانات، وقروض لا تخطر على باله
وأعمال حصرية من كتاب يصعب إقناعهم. ولكنها كانت معجرات
قابلة، وعندما يرجع الباعة بالكعبة نفسها من النسخ التي تسلطوها

للبيع، كنا نحاول التوزيع الشخصي في المانات المفضلة، ابتداءً من
حانة الرجل الثالث، حتى مئات المئات، التهرى المكثيرة، حيث كان علينا
أن نقاضي الفرائد القليلة عيشاً، يقادير من الكحول.

تبين أن أحد أكثر المساهمين مواظبة في الكتابة، والمقروء أكثر من
المجموع دين ريب، هو فاني أوسيو، فمذ عدد كرونیکا الأول، كان أحد
أكثر المواظبين. وقد انتهى عموده "يوميات كاتب آلي"، الموقع بالاسم
المستعار دولي مطر، إلى الاستحواذ على قلوب القراء. لم يكن هناك
من يصدق أن كل تلك المهن قد مارسها، بكل ذلك اللطف، الرجل نفسه،
وكان يمكن ثوب برنر، من جنيته، أن يمنع غرق كرونیکا بأي لقمة
طيبة أو قنية من العصر الوسيط. إلا أنه في موضوع العمل، كانت له
فاعدة تتميز بالشفافية، إلا لم تدفعوا، فلن أقدم نجاحاً، وبالطبع،
سرعان ما لم يعد الدفع ممكناً، رغم حسرة أرواحنا.

ومن خوليو ماريو سانشودومنغو، توصلنا إلى نشر أربع قصص
أنداز كتبها بالإنكليزية. وكان ألفونسو يترجمها بلهجة صياد بحاسبي،
في أحياء معاجمه النادرة، ويزنها أليخاندرو أوريخون برهافة وسام
كبير. لكن خوليو ماريو كان كثير السفر، وفي المصاحبات كثيرة
متنافضة. حتى صار شريكاً غير مرئي، ولقد كان ألفونسو فوينابورو هو
الوحيد الذي عرف أين يجده، وكشف لنا ذلك بجملة مثيرة للقلق:

- كلما أرى طائرة تمر، أفكر في أن خوليو ماريو سانشودومنغو
موجود فيها.

أما بقية الكتاب فكانوا مساهمين مؤقتين، يقيمون أرواحنا معقدة
حتى لحظة إغلاق العدد، أو الدفع.

تقررت بوضوحنا هنا، كأنفاد، ولكن لم يفلد أي من الأصدقاء النافعين جهوداً من أي نوع، لإيقا أسبوعيتنا طاقية. باستثناء خورخي ثالامبا الذي أدرك التشابه بين مجلته ومجلتنا، فاقترح علينا اتفاق تبادل للمواد، أعطى نتائج طيبة. إلا أنني أعتقد أن أحداً لم يفكر، في الواقع، ما الذي كانت تمله كرونيكا من معجزة. كان مجلس التحرير مؤلفاً من ستة عشر عضواً، اختارهم لزاماً كل واحد منهم المعترف بها. وجسمهم كانوا من علم وعظم، ولكنهم متنفذون ومشغولون إلى حد يمكن الشك بروجهم.

لقد كان لكرونيكا، بالنسبة لي، أهمية جانبية، في أنها أجبرتني على ارتجال قصص مستعجلة للـ "مراغات طارئة عند إغلاق العدد". كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة، بينما عمال اللبنيوم والإخراج يقومون بعملهم، لمأخترع من العدم، قصة بحجم الفراغ المتيقن. على هذا النحو كتبت، "عن كيف قامت ناتانال بزيارة"، وحلت لي مشكلة مستعجلة عند الفجر؛ وقصة "عينا الكلب الأزرق" بعد خمسة أسابيع من ذلك.

أول هاتين القصتين، كانت أصل سلسلة قصص بالشخصية الرئيسية نفسها. وقد أخذت أسماها، دون إذن، من أتدويه جيد. وكتبتُ فيما بعد "نهاية ناتانال" لكي أصل مأساة أخرى، في اللحظة الأخيرة. وشكلت القستان كلتاها جزءاً من مشهد من ست قصص، أرشفتها دون ألم عندما أدركتُ أنه ليس لها أي علاقة بي. وأتذكر بما بقي منها، واحدة ليست لدي أي فكرة عن موضوعها، بعنوان: "عن كيف ارتدت ناتانال صلابتي المروسة"، الشخصية لا تبدو لي اليوم شبيهة بأحد عولته، ولم تكن تستند إلى معاشياتي الخاصة أو معاشيات آخرين. ولا

يمكنني حتى أن أتصور كيف أمكن قصة لي، أن تتناول مثل ذلك الموضوع الخطأ جداً. لقد كانت ناتانال، في نهاية المطاف، مجازفة أدبية دون أية أهمية إنسانية. غير أنه من المناسب، تذكر تلك التكتيكات، كيلا تنسى أن الشخصية لا تُخلق من العفر، مثلما أردت أن أفعل بناتانال. ولحسن الحظ، أن المخيلة لم تنح لي المضي بعيداً جداً عن نفسي. ولمسوا الحظ، أنني كنت مقتضياً كذلك، بأنه لا بد من أن يُدفع للعمل الأدبي أجر جيد، منطفاً يُدفع لبناء الأجر. وإذا كنا ندفع جيداً، وفي الموعد المحدد، لعمل الطابعة، فأولى بنا أن ندفع كذلك، للكتاب.

أفضل صدى كنا نتلقاه عن عملنا في كرونيكا، كان يأتي في رسائل دون راصون التي يرسلها إلى خيرمان بارغاس. لقد كان يهتم بأدنى الأخبار التي لا تخطر على بال، وبالأصدقاء والأحداث في كولومبيا. وكان خيرمان يرسل إليّ قصصات من الصحف، ويروي له في رسائل لاتهائية، الأخبار التي تمنعها الرقابة. هذا يعني أنه كان يتلقى كرونيكا مزدوجة: المجلة التي نحررها نحن، وتلك التي يلخصها له خيرمان في نهاية كل الأسبوع. وقد كانت تعليقات دون راصون المتحسة أو القاسية حول مقالاتنا، في نهما الأكبر.

بين الأسباب العديدة التي أرادوا أن يفسروا، من خلالها، هزات كرونيكا، وحتى تردد الجماعة، عرفتُ مصادفة أن البعض يحزونها إلى سوء طائفي الخلفي والمعدني، وكدليل دامغ على ذلك، كانوا يذكرين تحقيقني الصحفي عن بيراسكوتشيا، لاعب كرة القدم البرازيلي، الذي أردنا الفصاحة من خلاله، بين الرياضة والأدب في جنس كتابي جديد، وكان إطفالاً مدوياً. عندما علمت بسمعتي الشيعة، كان الأمر قد انتشر

بين زمانين مفهومي جايي. فأقنعت، وقد وهنت عزيمتي حتى التخارج، على طرح الأمر مع خيرمان بارغاس؛ وكان مطلعاً على ما يقال، مثل بقية أفراد الجماعة، فقال لي دون أدنى تردد:

- اطمئن يا معلم. فكتابه مثل كتابك، لا يمكن تفسيرها إلا بحسن ظالم لا يمكن لأحد أن يهزمه.

لم تكن الليالي كلها سبحة. فليلة السابع والعشرين من نوفمبر ١٩٥٠، في دار حفلات نيفيرا إوفيسيا، كان لها نوع من القسمة التاريخية في حياتي ككاتب. لا أدري لأي سبب، أمرت صاحبة المحل بطهي وجبة سانكتوشو ملحمة بأربعة أصناف من اللحوم. وقد ضاعفت الكروانات التي شوشنها الروائع الحادة، من نعيمها حول الموقد. فأسبك زهر هانج يعشق كروان منها. وأتلى به حياً، في قدر الطبخ الذي يغلي. لم يستطع الطهيران أن يطلق أكثر من صرخة ألم مع خفقة أخيرة من جناحيه، وغرق في أعماق الجحيم. حاول القائل الهجوي أن يسلك كرواناً آخر، لكن نيفيرا إوفيسيا نهضت عن عرشها، بكل ما لديها من سلطة. وصرخت:

- يا لثعلف! اهدؤا، وإلا ستقطع الكروانات عيونكم!

لم يهتم أحد سواي بذلك، لأنني الوحيد الذي لم تنحمل روحه تلوق البسانكتوشو المنس. وبدلاً من أن أذهب للنوم، سارعت بالذهاب إلى مكتب كرونيتكا، وكتبت في نفس واحد. قصة قصيرة عن ثلاثة زمانين في ماخرو. نقلت الكروانات عيونهم، ولا يصدق ذلك أحد. كان حجم القصة أربع صفحات من القطع الرسمي، وفراغ مزدوج بين الأسطر. وكانت مروية بصيغة المتكلم المفرد. وهو في هذه المرة دون اسم. إنها

قصة ذات واقعية شغافة، وهي مع ذلك أكثر قصصي لغزية. وقد جعلتني أنوغل في الجهاد كنت أوشك أن أهجره، لأنني لم أعد قادراً على مواصلة. بدأت الكتابة في الساعة الرابعة فجراً، من يوم الجمعة، وانتهيت في الثامنة صباحاً، بطلني انهيار عراف. ومتواطئ عزه من جانب بورغريو ميتلوتا، منضد الهيرالدو التاريخي، أعدت تنظيم مخطط طبعة كرونيتكا التي ستوزع في اليوم التالي. وفي اللحظة الأخيرة، بينما أنا قانط من مقصلة إغلاق العدد، أمليت على بورغريو العنوان النهائي الذي غنكت، أخيراً، من العشور عليه. وقد كتبه هو مباشرة، بالرماس المصهور: "ليلة الكروانات".

لقد كانت هذه القصة بالنسبة لي، بداية مرحلة جديدة، بعد تسبع قصص لا تزال في اللبسوس المتأفزينقي، وفي ذلك لم يكن لدي فيه أي مشروع لمواصلة التقدم في جنس أدبي لم أستطع الإمساك به. أعاد خروخي ثلاثياً نشر القصة، في الأشهر التالي، في مجلة كرونيتكا، وهي مجلة ممتازة للشعر الكبر. وقد عدت لقرا منها، بعد خمسين سنة من ذلك، قبل أن أكتب هذه الفقرة بالذات، وأظن أنني غير مستعد لاستبدال فاصلة واحدة منها. ووسط الفوضى التي كنت أعيش فيها دون بوصلة، كانت تلك القصة هي بداية ربيع.

أما البلاد، بالمقابل، فكانت تعيش في دوامة. فقد رجع لاوريانو غوميث من نيويورك، ليعلن أنه المرشح المحافظ لرئاسة الجمهورية. امتنع الليبراليون عن خوض الانتخابات حيال سيطرة العنف، فاختير غوميث رئيساً في السابع من آب ١٩٥٠. وبما أن الكونغرس كان مغلقاً، فقد تولى للنصب أمام محكمة العدل العليا.

لم يكده يمارس الحكم بجسده الحاضر، إذ أنه استقال من الرئاسة، بعد خمسة عشر شهراً، لأسباب صحية خطاً، وحلّ محله الحقوقي والبرلماني المحافظ روبيرتو أوردهانها أرييلاز، بوصفه المسمى الأول لخلافة رئيس الجمهورية. وقد نسر الليبراليون ذلك، على أنه صيغة تليق تماماً بسلوك لاوريانو غوميث، إذ تصيح له ترك السلطة في أيدي أخرى، ولكن دون أن يفقدوا، ويواصل الحكم من بيته عبر شخص وسيط، وعبر الهاتف، في الحالات المستعجلة.

أظن أن عودة ألفارو سبيدا بشهادته من جامعة كولومبيا، قبل شهر من التضحية بالكروان، كانت حاسمة لتجاوز أقدار تلك الأيام المشؤومة. لقد عاد أقصر شهراً، ودون شارب الذي كالفراشة، وأكثر فظافة مما كان عليه عند ذهابه. كنت أنا وخيرمان بارغاس ننظره منذ عدة شهور، والخوف يملكنا من أن يكونوا قد هدؤوا طباعه في نيويورك. وكذا فوت من الضحك عندما رأناه ينزل مرتدياً سترة وريطة عتيق، ويخرج محمباً من سلم الطائرة، برواية هينغواي حديثة الصدور: عبر النهر بين الأشجار. انتزعت الكتاب من يده، وداعبت حافظته، وعندما أردت أن أسأله شيئاً، سبقني ألفارو إلى القول:

- إنه براز!

غص خيرمان بارغاس بالضحك، وهمس لي: "لقد رجع معلماً ذهب". ومع ذلك، فقد أوضح لنا ألفارو، بعد ذلك، أن حكمه على الكتاب مجرد مزاح، لأنه بدأ بقراءته، خلال الرحلة، من صياحي فقط، وما رفع صغوياتنا، على أي حال، أنه جاء حاملاً معه، بصخب أكثر من السابق، حصبة الصحافة والسينما والأدب، وخلال الشهر التالية، بينما هو يستعيد التأقلم، كان يهيننا محمومين بأربعين درجة مئوية.

لقد كانت العدوى مباشرة؛ فزاويتي "الزرافة" التي كانت، منذ شهور، تدور حول نفسها، وتضرب خبط عشواء، بدأت تنفخ من صقطين مستئين من صودة "البيت"، أحدهما "بين الكولونيل" الذي لم يولد قط، والآخر "تي"، عن طفلة متبرية، طرقت بابها مرات كثيرة، بحثاً عن دروب مختلفة، ولم يجيني قط. واستعدت كذلك، اهتمام صباي بالرسوم المتسلسلة، ليس كتنسيلية ليوم الأحد، وإنما كجنس أدبي جديد محكوم عليه، دون مسوغ، بالبقاء، في حجرة الأطفال. وكان بطلني، بين الأبطال الكثيرين، هو "ديك تراكي". واستعدت فضلاً عن ذلك، وكهف لا، ولعي بالسينما الذي غمره في الجهد، وغذاء دون أنطونيو داكروني في أراكاتانكا، وحركه ألفارو سبيدا إلى شغف إجهلي، في بلاد تُعرف فيها أفضل الأعلام، من خلال ما يرويه الرحالة، وكان من حسن الحظ، أن رجوعه توافق مع عرض فيلمين بارعين: *Intruder in the Dust*، من إخراج كلاوس براون عن رواية توليم فوكنر، وصورة جهني، من إخراج ولهم ديسريل عن رواية لوريت ناثان. والسد هلفت على الفيلمين في "الزرافة"، بعد مناقشات مطولة مع ألفارو سبيدا، وواظمت على الاهتمام، إلى أن بدأت أنظر إلى السينما بروية جديدة. قبل أن أعرف عليه، لم أكن أعرف أن اسم المخرج هو الأهم، مع أنه أخر من يظهر في "التينرات"، فقد كانت السينما، في نظري، مجرد كناية سيناريو ومحرره مثلين. وما سوى ذلك ينجزه بقية أعضاء الفريق الكثيرين، عندما رجع ألفارو سبيدا، قدم لي دورة تعليمية كاملة، عمادها الصراخ واليوم الأبيض حتى الفجر، على موائد أسوأ المائات؛ لكي يعلمني، بالضرب، ما علموه إياه في الثولابات المتحدة، عن السينما. وكان يطلع علينا الفجر ونحن نحلم، حستيقطين، يصنع سينما في كولومبيا.

وما خلا هذه الانفجارات المضخمة، كان انطباعتنا، نحن الأصداق، الذين نتبع ألفارو في سرعة الطواف التي ينطلق بها، هو أنه لا يمتلك السكنينة ليجلس ويكتب. ولا يمكن لنا، نحن الذين عاشناه عن قرب، أن نتصوره جالساً لأكثر من ساعة، إلى أي متضدة. ومع ذلك، بعد شهرين أو ثلاثة شهور من رجوعه، اتصلت بنا تينا ماتوناس - خطيبته لسنوات طويلة، وزوجته مدى الحياة - مدعورة، لتخبرنا بأن ألفارو قد باع شاحنته الصغيرة النارية. وأنه نسي في محفظتها، أصول قصصه القصيرة غير المنشورة، والتي لا توجد نسخة أخرى منها. لم يخل ألفارو أي جهد للبحث عنها، متملاً بطريقة خاصة به لماماً، بأنها "مت أو سبع قصص برازية". انهمكنا، نحن الأصداق، والمراسلين، في مساعدة تينا في البحث عن الشاحنة التي أعيد بيعها، عدة مرات على امتداد ساحل الكاريبي والأراضي الداخلية حتى مهدلين، وأخيراً وجدناها في ورشة، في سينتياغو، على بعد نحو مئتي كيلومتر. سلمنا الأصول المكتوبة على شرائح ورق طباعة، وكانت مجمعة ونافسة، إلى تينا، خوفاً من أن يطمعها ألفارو مرة أخرى، سهواً أو عمداً.

نشرت قصتان من تلك القصص في كرونিকা، واحتفظ خيرمان بارغاسي بالأخباريات بضع سنوات، وربما يجد حلاً لنشرها. وقامت الرسامة سيمبليا بوراس، الرعية للجماعة دوماً، بنزبها برسوم ملهمة، هي صورة شعاعية لألفارو، مرتدياً كل ما هو ممكن في أن واحد: زي سائق شاحنة، مهرج مهرجان، شاعر مجنون، طالب في جامعة كولومبيا أو أي مهنة أخرى، باستثناء إظهاره كرجل عادي وسري. وقد تولت مكتبة "موندو" نشر الكتاب بعنوان جميعنا كنا بالانتظار. وكان حدثاً

أدبياً، لم يتجاهله سوى النقد الأكاديمي وحده. وقد كان في نظري - وهو ما كتبته آنذاك - أفضل كتاب قصص قصيرة، يُنشر في كولومبيا، حتى ذلك الحين.

أما ألفونسو فونسيبورا، من جانبه، فكان كاتب تعليقات نقدية، ومعلم أدب في الصحف والمجلات. ولكنه بفعل كثيراً من جمع كتاباته تلك، في كتاب، وكان قارئاً استثنائياً لي نهمة الذي يكاد لا يقارن إلا بنهم ألفارو مؤسس أو إدواردو نالاميا، ولد كان هو وخيرمان بارغاسي، ناقدين بارعين، لا سيما في نقد قصصهما أكثر من نقد قصص الآخرين. ولكن نزوتها في العثور على قيم أدبية شابة، لم نعطى التوجه قط، كان ذلك في التبرع الذي سرت فيه شائعة ملحة بأن خيرمان يتأخر في الشهر، وأنه يكتب قصصاً بارعة، غير أنه لم يُعرف شيء عنها إلا بعد سنوات طويلة، عندما حبس نفسه في غرفة توم، في بيت أبويه، وأحرق تلك القصص. قبل ساعات من زواجه من أسيبنتي سوزانا لينارس، ليتأكد من أن أحداً، بمن في ذلك هي نفسها، لن يتمكن من قرائتها. ويُعتقد أنها كانت قصصاً قصيرة ودراسات، وربما مسودة رواية، لكن خيرمان لم يخل قط، كلمة واحدة عنها، لا قبل ولا بعد، وعشية زفافه فقط، اتخذ الاحتياطات المشروعة كيلا يعرف أحد شيئاً عنها. بمن في ذلك المرأة التي ستصبح زوجته، منذ اليوم التالي، لقد انتبهت سوزانا إلى ما يفعل، ولكنها لم تدخل الغرفة لمعه، لأن حسانها ما كانت تسمح لها بذلك. وقد قالت لي سوزي بعد سنوات، مزاح متهور: "لم يكن بإمكان الخطيبة، في تلك الأزمنة، أن تدخل، قبل الزفاف، إلى غرفة توم خطيبها".

لم تكن قد انقضت سنة، عندما بدأت رسائل دون رامون تصير أقل وضوحاً، وأشد كآبة ونبرة. دخلتُ إلى مكتبة موندو، يوم السابع من أيار ١٩٥٢، في الثانية عشرة شهراً، ولم يكن على خيرمان أن يقول في شياً لأعرف أن دون رامون قد مات. قبل يومين من ذلك، في برشلونة أعلامه. وكان تعليقنا الوحيد، مع توالي وصولنا إلى المقهى عند الظهيرة، هو تعليق الجميع:

- يا للخسارة!

لم أكن واعياً، آنذاك، أنني أعيش سنة مختلفة من حياتي. ولم بعد لدي شك اليوم، في أنها كانت سنة حاسمة. لقد فُتحت حتى ذلك الحين، بظهوري الممثل، كنتُ محبوباً ومحترماً من كثيرين، والتي تدبر البعض، في مدينة يعيش كل امرئ فيها على طريقته وهواه. وكنتُ أمارس حياة اجتماعية مكثفة، وأشارك في مناسبات فنية واجتماعية يستدل الحاج الذي أتعمله، والذي بدا كما لو أنه اشترى لحذاء الفايو سبيدا، ولم يكن لدي سوى بنطال واحد من الكتان، وقمصين أحدهما قمت الدوش، أثناء الاستحمام.

وبين ليلة وضحاها، لأسباب متعددة - بعضها بالغ الابتغال - بدأت ملابسني تتحسن. وقصصتُ شعري كالمجندين، وشلفتُ شاربي وجعلته رغباً، وتعلمتُ انتعال هذا، سبناتور أهواء إليّ الدكتور واغابيل ماريافا، رقيق طريق للشلة، ومزوخ المدينة، لأنه كبير على مقاس قدميه. وبفعل ديناميكية وصولية غير واعية، بدأت أشعر بأنني أحتق من الحر، في حجرة الفندق الذي أسيّناه "تاطعة السحاب". كما لو أن أراكاتاكا مبرجدة في سببها، وأعاني من زياتن الفندق العاهرين الذين

يتكلمون بصوت عال، عند استئصالهم. ولا أكلُ من التذمر لأن عصفورات الليل يواصلن اقتباد زمر كاملة من بحارة المياه العذبة، إلى حيرانهن.

وأنا أدرك اليوم، أن مظهري كمتسول، لم يكن بسبب فقرني أو لكوني شاعراً، وإنما لأن طاقاتي كانت مركزة بصدق، على الإصرار على تعلم الكتابة. وما إن لمحت الطريق الصحيح، حتى هجرت "تاطعة السحاب" وانتقلت إلى حي براو الهادي، في الجانب الأقصى الآخر، عسراًياً واجتماعياً، على بعد كوادرتين من بيت صبرا ديلمار، وعلى مسافة خمس كوادرات من الفندق التاريخي، حيث يرقص أبنا الأغنياء مع حبيبائهم المغفراوات، بعد قداس يوم الأحد، أو أنني، مثلاً قال خيرمان: بدأت أتحسن إلى الأسوأ.

سكنتُ في بيت الأخوات أبيلا - إشير، وماينو، ولونيا -، وكنتُ قد تعرفتُ عليهن في سوكرى. وكن منسكات منذ زمن، في محاولة إنقاذي من المضاع. وبدلاً من حبيرة الكرتون التي فقدت فيها الكثير من حراشيف الحفيد الضلال، صار لي حبيزة، غرفة نوم خاصة بي، لها حمام خاص وناقضة مظة على الحديقة، مع تقديم الوجبات البوصية الثلاث، مقابل أجر يزيد قليلاً عن راتبي. اشتريت بنظراً ونصف ذينة من القمصان الثروبيكالية الزينة برسوم أزهار وطيور. استحققت عليها، لبعض الوقت، سمعة سرية بأنني صفتُ سفينة. وبدأت أتلقي عندئذ، في كل مكان، بأصدقاء قعما، لم يكونوا يصادفونني في أي مكان من قبل. واكتشفتُ بهجة أنهم يحفظون، عن ظهر قلب، حملات الزرافة، وأنهم متعصبون لمجلة كروتيكيا بسبب ما يسمونه، هم، كبرياها

الرياضي. بل إنهم كانوا يقرءون قصص كذللك دون أن يتسكروا من فهمها. وجدت ريكاردو غونزالث ريبول، جاري في فاعة النوم في المعهد الوطني. وكان قد استقر في بارانكيًا يشهاده كصندس مصماري. وخلال أقل من سنة، حلّ شؤون الحياة، بأفئته سيارة شيفروليه "فيل الهبة"، ذات عمر غير محدد. وكان يحشر فيها، عند الفجر، حتى ثمانية ركاب. وقد اعتاد أن يأتي ليأخفني من البيت، في بداية الليل، ثلاث مرات كل أسبوع، كي نذهب للمهر مع أصدقائنا جدد مهوسين في ترويم حال البلاد، بعضهم يصيغ السحر الساسي، وآخرون يتبادل اللكمات مع الشرطة.

عندما علمت أمي بأمر هذه المستعجلات، أرسلت لي رسالة نفهية تعبر تماماً عن شخصيتها: "الخال بسند عن الخال". أما جماعة الشلة، فلم أخبرهم بأي شيء، عن انتقالني، إلى أن وجدتهم في إحدى الليالي، حول المنضدة، في مقهى جابي، فأمكنك بصيغة لوي دي بيضا الباردة: "ورثت نفسي، بما يلائم ترتيبني لفوضائي". ولست أتذكر صفيح استهجان مائلاً حتى في سماء كرة القدم. وقد راعني خبره أن على أنني لن أستطيع وضع تصور لأي فكرة، بعيداً عن "ناطحة السحاب". ورأى الفارو أنني لن أحمّل مخلص ثلاث وجبات يومية في موعدها الدقيق. وعلى خلافهما، احتج ألفونسو إسا، تدخلهما في حياتي الخاصة، واستبعد الموضوع بفتح جدال عن الحاجة الملحة إلى اتخاذ قرارات جذرية بشأن كرونیکا، أظنهم كانوا يشعرون، في أعماقهم، بأنهم مذنبون بشأن فوضائي، ولكنهم كانوا على درجة من الوقار لا تمنح لهم أن يشكروني على قراوي بإطلاق زهرة واحدة.

وخلافاً لما يمكن توقعه، فإن حائتي الصعبة والمعنوية قد تحسنت. صرت أقرأ أقل، بسبب ضيق وقتي. ولكنني رقت من نبرة "الزرافة"، وأجبرت نفسي على مواصلة كتابة عاصلة الأوراق في غرفتي الجديدة، مستخدماً الآلة الكاتبة المجرية التي أعارني إياها ألفونسو فوينمايور، خلال ساعات الفجر التي كنت أهدأها من قبل مع مونو غويرا، وصرت قادراً، في مساء عادي، في الجريدة، على كتابة "الزرافة"، وتعليق افتتاحي، وبعض الأخبار الكبيرة التي نُشر دون توقيع، وتكليف قصة بوليسية، وكتابة ملاحظات اللحظة الأخيرة من أجل إيفالاق لمحرير كرونیکا، ولحسن الحظ، أن الرواية التي كنت أكتبها، بدلاً من أن تصعب أسهل مع الأيام، راحت تفرض عليّ رواها الخاصة المخالفة لوجهات نظري. وكنت ساذجاً إلى حد فهت معه ذلك، على أنه أمانة رباح صوانية.

كانت هنري متوثية، حتى إنني ارتحلت بصورة مستعجلة، قصتي الفصيرة العاترة - "أحدهم يفسد ترتيب هذه الأزهار" -، لأن المعلق السياسي الذي حجزنا له ثلاث صفحات من كرونیکا، من أجل مقال اللحظة الأخيرة، أصيب بنوبة قلبية خطيرة. وعندما لمت بتصحيح محارب قصتي المطبوعة فقط، انتبهت إلى أنها دراما ساكنة أخرى، من تلك التي كنت أكتبها، دون أن ألاحظ ذلك. وقد أدى هذا التناقل إلى زيادة حدة تأنيب ضميري، لأنني أبطلت صديقاً قبل منتصف الليل، لكي يكتب لي المقال، خلال أقل من ثلاث ساعات. بهذه الحالة المعنوية من النعم، كتبت القصة في الوقت نفسه. وعدت يوم الاثنين، في اجتماع هيئة التحرير، إلى طرح مسألة الضرورة الملحة لخروجنا إلى الشارع، من

أجل إخراج المجلة من ركودها، ببرورتاجات صحافية. ومع ذلك، فإن
الفكرة - وهي فكرة الجسيع - رُفضت مرة أخرى، بالحجة المفضلة
لصداقتي: إذا ما خرجنا إلى الشارع، فمهما كنا الفئتي التالي عن
البرورتاج، فإن المجلة لن تصدر في موعدها - إذا صدوت -، وكان
عليّ أن أفهم ذلك على أنه ثناء. غير أنني لم أستطع أن أتجاوز قط
الفكرة الخبيثة بأن السبب الحقيقي هو الذكرى المشؤمة لتحقيلي
الصحلي من بيراسكوتشيا.

وكان العزاء الطيب في تلك الأيام، هو المكاملة الهاتمية التي
تلقبها من رافائيل إسكالونا، مؤلف الأغنيات التي كانت تفتى، وما
زالت تفتى، في هذا الجانب من العالم. لقد كانت بارانكيًا مركزًا جويًا،
لكثرة ما يتردد عليها عازفو الأكورديون البارعون الذين كنا نعرفهم في
حفلات أراكاتاكا، ولسعة انتشارهم في إذاعات ساحل الكاريبي. وكان
فيبرمو برينغرو، أحد الفنانين المعروفين جدًا آنذاك، يتباهى بأنه يطلع
أولاً بأول، على مستجدات بروفينشيا. وكان هناك مغن آخر واسع
الشمية يدعى كريستينشو سالدو، وهو هندي خاف، اعتاد الوقوف
عند ناصية محل أمبركانا للأكلات الخفيفة، ليغني، دون أي مراعاة
موسيقية، حصداً أغنياته وأغنيات آخرين، بصوت قبه شيء من
الصفيع، إنما يغني خاص تفرد به، وقرضه على الجسوع اليومية في شارع
سان بلاس. وقد أمضيت شرطاً لا بأس به من شبلي المبكر، واقفاً إلى
جانيه، حتى دون أن أصيبه، ودون أن أجعله يراني، إلى أن أحفظ عن
ظهر قلب، أغنيات الجسيع التي يغنيها.

وقد بلغت ذروة ذلك الشغف، في مساء يوم قانظ، قاطعتني فيه

الهاتف، بينما أنا أكتب "الزرافة"، وحياتي صوت، مثل أصوات كثيرين
من أصدقاء طفولتي، دون المباراة والصيغ المتداولة:
- ما أخبارك يا أخي. أنا رافائيل إسكالونا.

بعد خمس دقائق، التقينا في مقهى روما لنبدأ صداقة مستمرة
مدى الحياة. ما إن انتهينا من تبادل التحية، حتى بدأت بمحاضرة
إسكالونا لكي يغني في أغنياته الأخيرة. ولد غني أحياناً متطرفة منها،
بصوت خافت جداً وموزون بدقة، ورافقه بالقرع بأصابعه على المائدة، كان
شعر متلفتنا الشصبي يخطر بزي جديد في كل مقطع يغنيه. وقد غنى،
"سأقدم لك باقة من أزهار (لا تسميني) لتعطي بهاها". وبحث له أنا
من جهتي. أنني أعرف، عن ظهر قلب، أفضل أغنيات منطلقه، وأنتي
التقطتها منذ طفولتي المبكرة من نهر التفتاليد الشفوية الصاحب. لكن
أكثر ما فاجأه هو أنني أتكلم من بروفينشيا، وكأنني أعرفها.

قبل أيام من ذلك، كان إسكالونا قد سافر بالحافلة، من بييانوفا
إلى بايغويار، بينما هو يزل، ذهنباً، موسيقى وكلمات أغنية جديدة
من أجل الكرنفال، في يوم الأحد التالي. كان ذلك هو منهجه البارع،
لأنه لم يكن يعرف كيفية كتابة الموسيقى، ولا التعرف على أية آلة
موسيقية. وفي إحدى فري الطريق، صعد إلى الحافلة مغني ثروادور
جوال، يتنقل صندلاً جليداً ويحمل أكورديوناً. واحد من أولئك الفنانين
الذين كانوا يجمعون المنطقة لفتناً، متنقلين من مهرجان شمبي إلى آخر،
أجلسه إسكالونا إلى جانبه، وغنى له بصوت هامس، المقطعين الناجزين
من أغنيته الجديدة.

نزل العازف سعيلاً في بييانوفا، بينما راحل إسكالونا طريقه لي

المخالفة إلى باييدوبار. حيث اضطر إلى النوم لينعرق حتى الأربعين درجة التي سببها له رشح عادي. وبعد ثلاثة أيام من ذلك، كان يوم أحد الكرنفال، فكنيت أغنية إسكالونا، غير المكتملة التي غناها، حصاً، للمصدين الطارئ، كل الموسيقى القديمة والجديدة، من باييدوبار حتى رأس لايبلا. ولم يعرف أحد سواه، من التي نشر الأغنية، بينما هو شمرق حتى كرنفاله، ومن هو الذي وضع لها اسم: "سورة العجوز".

القصة صحيحة، ولكنها ليست غريبة ولا نادرة، في تلك المنطقة وفي أوساط نهاية المفتين تلك، حيث العجيب المدهش هو أكثر الأمور طبيعية. فالأكورديون الذي لا يعتبر آلة موسيقية خاصة بكونيوميها أو شائعة فيها، يتمتع بشعبية واسعة في مقاطعة باييدوبار. وربما يكون لد جي، به إليها من جزيرتي أوروة أو كورواسا. وخلال الحرب العالمية الثانية، تولف الاستيراد من ألمانيا، وبقيت الأكورديونات التي في المقاطعة على قيد الحياة، بفضل عناية أصحابها المحليين بها، وكان أحدهم ليانفرو ديات، وهو نجار لم يكن مؤلف موسيقى، محترفاً، ومعلم أكورديون وحسب، وإلما الوحيد الذي عرف كيف يصلح تلك الآلات، طوال فترة الحرب، على الرغم من أنه كان أعشى منذ الولادة. لقد كان أسلوب حياة أولئك العازفين المتجولين، هو التنقل من قرية إلى قرية، وغناء أحداث ووقائع قصص الحياة اليومية الطريقة والصادقة، في حفلات دينية أو دنيوية، ولا سيما في هرج ومرج الكرنفالات. أما رافايل إسكالونا، فكان حالة مختلفة. فهو ابن الكولونيل كليمنتي إسكالونا، وابن أخت المطران المشهور سبليدون، وهو فوق ذلك حاصل على الثانوية من معهد ساننا مارتا الذي يحمل اسمه. بدأ بتأليف

الموسيقى، منذ طفولته المبكرة، وسط استنكار الأسرة التي تعتبر الفناء وعزفه الأكورديون من أعمال المحوزين. ولم يكن عازف الأكورديون الجوال الوحيد الحاصل على الثانوية وحسب، وإنما أحد القلة الذين ينتقون القراءة والكتابة في تلك الأزمنة، والرجل الأكثر كبريا، ومسهولة في التوقيع في الحب على الإطلاق. ولكنه لم يكن، ولن يكون الأخير: فهناك منهم الآن بالمئات، وهم أكثر فتوة وشباباً في كل مرة. وقد فهم بيل كلينتون الأمر على هذا النحو، في الأيام الأخيرة من رئاسته، عندما استمع لمساحة أطفال مدرسة إيلثانية، سافروا من برولينشيا، لكي يغنوا له في البيت الأبيض.

في أيام حسن الطالع تلك، التقت مصادفة، بميرثيديس بارتشا، ابنة صيفلي سوكري التي عرضت عليها الزواج منذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وعلى خلاف المرات الأخرى السابقة، وافقت يومذاك، على دعوتها لها إلى الرقص، يوم الأحد التالي في فندق برادو، وقد علمت عندئذ فقط، أنها قد انتقلت مع أسرتهما إلى بارانكيئا، بسبب الوضع السياسي الذي تزداد وطأة طغيانه أكثر لمايكر. لقد كان أبوها، ديميتريو، ليبرالياً متشدداً لم تفرقه التهديدات الأولى التي كانت توجه إليه كلياً اشتدت الملاحقة، ولا عار المنشورات الاجتماعية. ولكنه حيال ضغط أسرته، صفي ما تبقى له من ممتلكات قليلة في سوكري، وأقام صديقته في بارانكيئا، على مقربة من فندق برادو. ومع أنه كان في سن والدي، إلا أنه احتفظ على الدوام، بصداقة شبابية معي، اعتدنا أن نعيد لمحبتها في الحانة المقابلة. وانتهى بنا المطاف أكثر من مرة، إلى سكرات مجدني سفن، مع شلة الأصدقاء بكاملها، في حانة الرجل الثالث.

كانت ميرثيديس تدرس، آنذاك، في ميديلين، ولا تأتي للتمشيد مع أسرته إلا خلال عطلة أعياد الميلاد. لقد كانت مريحة ولطيفة في تعاملها معي، على الدوام، ولكنها غطت موهبة مشعوزة في التخلص من الأسئلة والإجابات، وعدم الالتزام بأي شيء. وعدد. وكان عليّ أن أتقبل ذلك، على أنه استراتيجيّة أكثر رحمة من عدم المبالاة أو الصد. وكنت أكتفي بالتقاني مع أبيها وأصدقائه في المهنة المقابلة. وإذا كان هو نفسه لم ينتبه إلى اهتمامي بإجازات ابنته التي أنتظرها بملهفة، فلأن السر كان أفضل الأسرار صوتاً خلال العشرين عاماً الأولى من التفرغ المسيحي. لقد تباهى مرات عديدة، في "الرجل الثالث"، بالجملة التي ذكرتها هي نفسها في حفلة رقصنا الأولى في سوكري: "أبي يقول إنه لم يولد بعد، الأمير الذي سيخزوني". ولم أعرف إذا ما كانت تؤمن فعلاً بذلك، ولكنها كانت تنصرف كما لو أنها تؤمن به، حتى عشية عيد الميلاد ذاك الذي وافقت فيه على أن نلتقي يوم الأحد التالي، في حفلة الرقص الصباحية في فندق برادو.

إني أوهم بالهرافات، إلى حد أنني عزوت قرارها بالقبول، إلى طريقة الفنانين التي نفس بها الخلاق شمري وشامي، وإلى بدلة النكتان الختام وروطة الملقى الخمرية اللتين اشتريتهما للتصانص. من تصفية أتراك، ولأنني كنت واثقاً من أنها متحضر مع أبيها، مثلما تفعل حين تذهب إلى أي مكان، فقد دعوت كذلك، أختي عابها روسا. وكانت تُعطي إجازات معي. ولكن ميرثيديس حضرت وحيدة بروحها، ورفضت بصورة طبيعية وبكثير من المرح، بحيث يمكن لأي عرض جدي أن يبدو لها مضحكاً. في ذلك اليوم دُفنَ المرسوم الذي لا يتسنى لصديقي بانشو

غالان، المبدع المجهّد لموسيقى "ميركوميدي" التي بقي الناس يرتصون على إيقاعها طوال سنوات، وكانت أصل ألحان كاريبية جديدة لا تزال حية حتى الآن. كانت ميرثيديس ترقص جيداً على إيقاع الموسيقى الرائجة، وتستقل مهارتها لتتهرب، بتجاراتها السحرية، من العروض التي كنت أحاصرها بها. بدا لي أن تكتيكها يرمي إلى جعلني أظن أنها لا تأخذني على محمل الجد، ولكنني كنت أؤمن، بالمهارة التي أجدها دوماً، من العثور على طريقة للمواصلة قدماً.

أصابها الرعب في الساعة الثانية عشرة تماماً، بسبب مرور الوقت، فتركتني وحيداً في منتصف الرقص. ولكنها لم توافق على أن أرافقها، ولو حتى الباب. وقد بدا ذلك التصرف غريباً جداً لأختي، فأحسّت بأنها المخنبة بطريقة ما. وما زلت أفسد حتى الآن، عما إذا لم يكن لذلك المثال السيئ، علاقة ما بقرارها المخاف في الانضمام إلى دير الراهبات السالسيانيات، في ميديلين. وقد انتهى بنا الأمر، أنا وميرثيديس، منذ ذلك اليوم، إلى اختراع رموز خاصة، نتفاهم بواسطتها دون أن نقول شيئاً، وحتى دون أن يرى أحدنا الآخر.

هدت إلي تلقي معلومات منها، بعد شهر من ذلك، في الثاني والعشرين من كانون الثاني من السنة التالية، برسالة مقتضبة تركتها لي في الهيرالدو: "لقد قتلوا كابتانو". وهذا لا يمكن له، بالنسبة لنا، إلا أن يكون شخصاً واحداً: كابتانو خينيلي، صديقنا في سوكري، وهو طبيب لامع، ومنشط حفلات رقص، وعاشق بالمهنة. كانت الرواية المباشرة تقول إنه قد قُتل طعناً بسكين على يد أخوتي معسلة "مدرسة نشاهاوال" التي رأيناه يأتي بها على حصانه، وخلال ذلك اليوم، بين برقية وأخرى، حصلت على القصة كاملة.

لم تكن أزمدة الهوانف السهلة قد بدأت بعد، وكانت المكالمات الشخصية المعبدة يُتفق عليها ببرقيات مبقة. وقد كان رد فعلي الأول هو رد فعل كاتب التحقيقات الصحفية، فمرت السفر إلى سوكرى لكتابه ريبورتاج صحفي. ولكنهم قسروا ذلك في الجزيرة، على أنه اندفاع عاطفي. وأنا أتفهم اليوم ذلك؛ لأننا تنهك، تعن الكولومبيين، منذ ذلك الحين، في قتل بعضنا بعضاً لأي سبب. وقد نتقنا الأسباب اختلاقاً في بعض الأحيان لكي نقننل؛ بينما تبقى الجرائم العاطفية نرفاً مختصراً على الأغنياء، في المدن. بدا لي أنه موضوع أبدي، ووجه أسجل المعلومات من الشهود، إلى أن اكتشفت أنني نوابي المحفية، فنسولت إلى ألا أكتب ذلك الريبورتاج، على الأقل ما دامت دونيا خوليينا نشتننن، أم كاتيانو، على قيد الحياة؛ لأنها كانت، وهذه ذروة الأسباب، أم ابنها الروحية، باعتبارها عرابة تعبد هيرناندو، الشامن في الترتيب بين آخرتي. أما ميررها - وهو ما لا بد من ذكره في أي ريبورتاج صحفي - فكان من الوزن الثقيل، ذلك أن أخوتي المعلقة حقا بكاتيانو، عندما حاول أن يهرب إلى بينه، لكن دونيا خوليينا، أمه، سارعت إلى إغلاق الباب الخارجي، لأنها ظنت أن ابنها موجود في غرفة نوم، وهكذا، فإن من لم يستطيع الدخول، كان هو ابنها نفسه، وقد تمكنا من قتله بالسكاكين، عند الباب المغلق.

كان رد فعلي الفوري هو الجلوس لكتابة الريبورتاج عن الجريمة. ولكنني واجهت كل أنواع العقائق، لم يعد ما بهمني هو الجريمة بعد ذاتها، وإنما الموضوع الأدبي عن المسؤولية الجماعية. إلا أنه أمي لم تقنع بأي حجة، وبدا لي أن الكتابة دون موافقتها، هي ضرب من إساءة

الاحترام. ومنذ ذلك الحين، لم يمر يوم واحد إلا وكانت أصابعي تتحرق لهفة إلى كتابة ذلك التحقيق. وكنت قد بدأت أسنملم، بعد سنوات طويلة من ذلك، بينما أنا أنظر طائرة مفادوة في مطار الجزائر. وفيجأة فُتح باب الدرجة الأولى، ودخل أمير عربي بعباءة قشبية من عباءات بني قومه، وعلى قبضته أنثى صقر جوال بديعة، وبدلاً من شمامسة الجلد التقليدية التي توضع للبهزان المروضة، كانت على أنثى الصقر تلك واحدة، من الذهب مرصعة بالماس. لقد تذكرت، بالطبع، كاتيانو حينئذ لي الذي كان قد تعلم من أبيه، فنحن أنصغر الجسيلة في البدء ببواشق صعلية، وبعد ذلك، بنساذج بديعة من الصقور المجلوبة من بلاد العرب السعيدة. وكان يملك في مزرعته، عند موته، صقراً لتربية الصقور، فيه ذكر وأنثيان مروضة ومدربة على اصطيد الجبل، وصفر اسكتلندي صررب على الدفاع الشخصي. وكنت أعرف، آنذاك، المقابلة الشاويضية التي أجراها جرج بليستون مع إرنست هينغواي في مجلة "ذي باريس ريفيو"، وسأله فيها عن عملية تحويل شخصية من الحياة الواقعية إلى شخصية واثية. وقد رد عليه هينغواي: "إذا ما شرحت كيف أفعل ذلك، فسوف أحمول، في أحد الأيام، إلى مرجع للمحاميين المتخصصين في قضايا القذح والشهير". ومع ذلك، ومنذ ذلك الصباح الذي وفرته لي العناية الإلهية في مدينة الجزائر، كان وضعي محكوساً تماماً؛ لم أعد أشعر بأنني سأجد الحماية على مواصلة العيش بسلام، ما لم أكتب قصة موت كاتيانو.

واصلت أمي التمسك بإصرارها على منع ذلك، مهما كانت الذرائع، إلى ما بعد ثلاثين سنة من المأساة؛ عندما اتصلت هي نفسها بي، وأنا

قال لي:

- أتت لا تدرك ما هو ذلك الجحيم، لأنتك تعيش في واحة السلام هذه. أما نحن، فما زلنا أحياء هناك، لأن الرب يعرفنا.

كان واحداً من أعضاء الحزب المحافظ القليلين الذين لم يضطروا إلى اللجوء عن أنظار الليبراليين المتأجعين غضباً، بعد التاسع من نيسان، أما جماعته الذين كانوا يلودون في هذه، فقد نبذوه الآن، بسبب فتور حماسه. رسم لي لوحة بالغة الرعب - وبالغة الواقعية - تسرع قاصاً قراره التسرع بالتخلي عن كل شيء، والانتقال بالأسرة إلى كارناخينا، لم تكن لدي حجة عقلانية أو عاطفية ضده، ولكنني فكرت في أنه قد يفهم ذلك على أنه حل أقل جلوية من الانتقال الفوري.

كان لا يد لي من كسب الوقت للتفكير، تناولنا طعاماً مرطباً ونحن صامتان، كل منا مستغرق في أفكاره. وقد استرد هو مثاليته المحسومة قبل الانتهاء، وشلّ قدرتي على الكلام حين قال، وهو يطلق زفرة رهبة، "عزائي الوحيد في كل هذا الأمر، هو سعداتي في أنك ستتمكن أخيراً من إنهاء دراستك". لم أخبره قط، بالتأثير الذي سببه لي معادته الوهسية تلك، بتضيق على ذلك القدر من الابتذال. أصبحت بتفحة جليدية في بطني، تفجرها الفكرة الخبيثة بأن رحيل الأسرة ليس سوى حيلة منه لإجباري على أن أصير محاصراً. نظرت مباشرة إلى عينيه وكانتا يرتعشان ذاهلتين. إنه ينهني إلي أنه في حالة من اللذلان والجزع، لن يجبرني معها على شيء، ولن يرفض لي رأياً، ولكن إيمانه بنصيبه من العناية الإلهية، كان كافياً لأن يعتقد بأنه يمكن لي أن أقصم من التصب. يل أكثر من ذلك: فقد كشف لي بالحساسية الأسرة نفسها، أنه قد

في برشلونة، لتطعنني على الخبر السيئ بأن خولييتا تشيخمتوا. أم كاتيانو، قد ماتت دون أن تستعيد توازنها لفقدان ابنتها. ولكن أمي لم تجهد، في هذه المرة، بأخلاقها الجبرية، مبررات لتعني من كتابة الريبورتاج. فقالت لي:

- إنني أرجو منك، كأم، شيئاً واحداً فقط، تعامل مع الموضوع، كما لو أن كاتيانو هو ابني.

نشرت القصة التي تحمل عنوان "قصة موت معلن"، بعد سنتين من ذلك، ولم تقرأ أمي الكتاب لبس أحفظ به، في متحفى الشخصي، كجوهرة أخرى منها: "إن أمراً حدث بمنزل ذلك السوء في الهبأة، لا يمكن له أن يكون جيداً في كتاب".

رأى الهاتف على متحدة عملي، في الساعة الخامسة مساءً، بعد أسبوع من موت كاتيانو. وكنت قد بدأت بكتابة واجبي اليومي في الهرالدو. كان المنصل هو أمي. وقد وصل، لتوه، إلى بارانكيا، دون إشعار مسبق. وكان ينتظرني بصورة مستعجلة في مقهى روما. أرعيتي تهديج صوته، ولكنني دُعرت أكثر، حين رأيته مثلما لم أره من قبل: مشعث المظهر وبذل غير حليقة، يرتدي بدلة التاسع من نيسان الزرقاء الساوية، وقد لاقها آخر وطريق السفر. ولا يكاد يستند إلا إلى سكة المزهومين.

سيطر عليّ ضيق لا أشعر معه بأنني قادر على نقل الغم وأثيرة للذين أطلعتني بهما أمي، على الكارثة الأسرية. خبطة سوكري، فردوس الحياة السهلة، والفتيات الجميلات، قد انسلقت لتجار الصفه السيلسي المتلاطم. ولم يكن موت كاتيانو سوى أحد أعراضه.

حصل لي على وظيفة في كارتاجينا، وأن كل شيء جاهز لأبدأ على
يوم الاثنين التالي. إنها وظيفة كبيرة، أوضح لي، لا يتوجب على
الذهاب إليها إلا مرة كل خمسة عشر يوماً، لقبض رائي.

كان ذلك أكثر بكثير مما أستطيع مضغه. ضففت على أنثى.
وأنا أقدم له مسبقاً، بعض التحفظات لنهيتته من أجل رفض تهاني.
أخبرته بمحاولتي الطويلة مع أمي، خلال الرحلة إلى أراكاتاكا التي لم
أُلق منه أي تعليق حولها، ولكنني فهمت أن تجاهله الموضوع هو أفضل
إجابة. وكان المعز في الأمر هو أنني ألاعبه، وأنا أدرك مسبقاً أن
النتيجة محسومة. لأنني كنتُ أعرف أنني لن أبقى في الجامعة، بعد أن
خسرت مادتين من السنة الثانية، لم أتحج فيهما قط، فضلاً عن مادتين
أخرين لا يمكن لا سبيل إلى استبقائهما من السنة الثالثة. وقد أخفيت
الأمر عن الأسرة لكي أجنبها غماً لا طائل منه، ولم أشأ أن أتصور ما
سيكون عليه رد فعل والدي، إذا ما أخبرتته بالحقيقة في ذلك الشأن.
كنت قد صممت، عند بدء المحادثة، على ألا أخضع لأي ضعف قلب،
لأنني كنت سأتألم فزعة رجل طيب مضطر إلى الظهور أمام أبنائه، بمثل
ذلك المظهر من الهزيمة. ومع ذلك، فقد بدا لي أنني أمتح قدراً أكبر من
الثقة للحياة. ثم استسلمت أخيراً، للمحاولة السهلة بتبديده ليلة راحة
وغفران، للتفكير في الأمر. فقال لي:

- موافق، شرطة ألا تتواري عن الأنظار، لأن مستقبل الأسرة بين
يديك.

إنه شرط كاف. فقد كان يعني جيداً نقطة ضعفي، حتى إنني عندما
ودعته في الحافلة الأخيرة، في الساعة السابعة ليلاً، اضطرت إلى كبح

قلي كيلا أذهب معه في المقعد المجاور. كان واضحاً بالنسبة لي، أن
البوة قد اكتسبت، وأن الأسرة ستعود فقيرة إلى حد لا يكتفيها معه
الحفاظ على بقائها إلا بتعاون الجميع.

لم تكن الليلة مناسبة لاتخاذ أي قرار. فغد أخلت الشرطة، بالقوة،
عدة أسر من اللاجئين القادمين من المناطق الداخلية، عن أناموا مخيمهم
في حديقة سان نيكولاس، هرباً من العنف في الأريال. ومع ذلك، كان
السلام المبيع يسيطر على مفهني روما. وكان اللاجئين الإسبان يسألونني
دوماً عن أخبار دون رامون فينسي، فأرد عليهم على الدوام بمازحاً، بأن
رسائله لا تتضمن أخباراً عن إبنائه وإنما أسئلة منهلقة عن بارانكها.
وتد أن سات، لم يعودوا إلى ذكر اسمه، ولكنهم أبلغوا كرميه شاعراً
على التضفة. هنأني أحد الرواد على "الزواجة" المنشورة في اليوم
السابق، لأنها ذكرت بطريقة ما، برومانسية مربانو حوسيه دي لارا
المؤثرة. ولم أدو قط، بسبب ذلك، وقد أخرجني الأستاذ بيرث دومينش
من المأزق، بإحدى عباراته التي تأتي في وقتها المناسب: "أمل ألا يخلو
كذلك جنو مثله السيئ، بإطلاق وصاية على نفسه". وأظن أنه ما كان
ليقول ذلك، لو أنه عرف إلى أي حد، كان لوله صحيحاً في تلك الليلة.

بعد نصف ساعة من ذلك، اقتدت خيرمان بارغاس من ذراعه إلى
عمق مفهني جانبي. وما إن قدم لنا ما طلبناه، حتى قلت له إنني أريد
استشارته في أمر مستعجل. بقي هو محكماً بالفتجان الذي كان يوشك
أن يتلوه - مثل دون رامون بالضبط -، وسألني مدعوراً:

- إلى أين ستذهب؟

أدهشني بصيرته. فقلت له:

- وكيف عرفتها

لم يكن يعرف، ولكنه توقع ذلك، وكان يرى أن رحيلي سيهتني نهاية كرونيتكا. وأنه انعدام حسن بالسهولة خطير سيثقل علي طوال ما تبقى من حياتي. وأوصي إلي بأن ذلك لا يقل إلا قدرًا قليلًا عن الحياة. ولم يكن هناك من له الحق أكثر منه في أن يقول لي ذلك. لم يكن أحد منا يعرف ما الذي ستفعله بجلة كرونيتكا، ولكننا جميعًا كنا ندرك أن ألفونسو قد حافظ على بقائها في لحظة مصيرية. وحمل نفقات تفوق إمكانياته. ولهذا لم أستطع قط أن أنتزع من رأس خيرمان الفكرة الغريبة بأن ذهابي الذي لا مفر منه، هو بمثابة الحكم بالموت على اللحظة. إنني واثق من أنه، هو الذي ينهم كل شيء. كان يعرف أن مبرداي فائرة، ولكنه أجهز واجبه الأخلاقي بأن قال لي ما يفكر فيه.

في اليوم التالي، وبينما ألتفت إلى سبيجا بوصولي إلى مكتب كرونيتكا، لدم لي دليلاً مؤثراً على القسوة التي تسببها له تقلبات الأصدقاء المحسنة. بما لا شك فيه أنه كان على علم، من خلال خيرمان، بقراري في المغادرة. وقد أبقينا، نحن الاثنين، خطبه التوديعي. من أي ذرائع متكلفة، فقد قال لي:

- يا للحنين. الذهاب إلى كارتا ليسا لا يعتبر ذهاباً إلى أي مكان. اللفظة هي في الذهاب إلى ليوبوك، مثلما حدث لي. أما هنا فأنا على أحسن حال.

كان هذا هو نوع الردود المحكمة التي نفيده في حالات كهاتين، ليتجاوز الرغبة في الهكاء. وللبب نفسه، لم تفاجئني وغيبته في الحدث للمرة الأولى. عن مشروع صنع سيمبا في كولومبيا. والذي

متواصله دون التوصل إلى نتائج. طوال ما تبقى من حياتنا. تطرق إلى الموضوع كطريقة حواريه لشركي مع شيء من الأمل. وضغط مكبح السيارة فجأة، بين المجموع المتولفة والمخانات الصغيرة، في شارع سان يلاس، ثم صرخ بي من نافذة السيارة:

- لقد أخبرت ألفونسو بأن يرسل هذه المجلة إلى الجميع، ولنصنع واحدة مثل التام!

المحادثة مع ألفونسو. لم تكن سهلة لي وله على السواء؛ إذ كانت هناك مسألة تحتاج إلى توضيح من كلينا، منذ نحو ستة شهور، وكلانا كنا نعاني نوعاً من التلعثم الذهني في المناسبات الصعبة. فقد حدث لي إحدى نوبات غضبي الصبيانية، ونحن في غولة الإخراج، أن حدثت اسمي ومنصبي من قائمة هيئة تحرير كرونيتكا، ككتابة عن استقالة رسمية. وعندما مرت العاصفة، نسبت إعادة إدراجهما. لم ينفية أحد إلى ذلك قبل خيرمان بارغاس، بعد مرور أسبوعين. وقد تحدث في الأمر مع ألفونسو الذي خرجني به أهنأ. وقد أخبرهما برونيريو، مسؤول قسم الإخراج، كيف حدثت المشكلة، فاتفقا على ترك الأمور على حالها، إلى أن أعرض عليهما وجهة نظري وهرواني. ولسوء حظي أنني نسيت الأمر تماماً. حتى اليوم الذي توصلت فيه أنا وألفونسو إلى الاتفاق على أن أترك كرونيتكا. وعندما انتهينا، ودعني وهو يكاد يموت من الضحك، بداهية من مداعباته، وكانت قوية ولكنها لا تقاوم. إذ قال:

- لحسن الحظ. أننا لن نضطر حتى إلى حذف اسمك من هيئة التحرير.

عندئذ فقط، استعدت المحدث كضربة سكين، وأحسست أن الأرض

تطور تحت قدمي، ليس بسبب ما قاله ألفونسو بطريقة مناسبة تماماً، وإنما لأتني نسبت توضيح الأمر في حبه. ومثلما هو مأمول منه، قدم لي ألفونسو تفسيراً شخصياً ناضج. إذا كان ذلك هو الخلاف الوحيد الذي لم نوضحه، فليس من اللائق تركه معلقاً في الفضاء. دون تفسير، وما تبقى سيقوم به ألفونسو مع ألقاؤو وخبرمان، وإذا كان لا بد من إنقاذ المركب، بتعاون الجميع، فإنه يمكن لي أنا أيضاً، أن أعود خلال ساعتين، وكنا نضع في اعتبارنا، كاحتياطي أخير، الاستعانة بمجلس التحرير كخروج من العناية الإلهية، وإن لم نتمكن قط، من جمعه للجُلوس على جانبي منضدة خشب الجوز التي نأخذ عليها القرارات الكبرى.

منحتني تعليقات خبرمان وألقاؤو الشجاعة التي كنت أفقدتها من أجل المفارقة. وقد تفهم ألفونسو مبرراتي وتقبلها بأرحميه، ولكنه لم يُلصق بأي شكل، إلى أنه يمكن لمجلة كرونيكا أن تنتهي باستقالتي. بل على العكس، فقد نصحتني بأن أتناول الأزمة بهدوء، ولما أنني يفكرة تشبيهاً قاعدة واسعة للمجلة، مع مجلس التحرير، وأنه سيخبرني عندما يتمكن من تحقيق شيء يستحق الفناء، فعلاً.

كان تلك هي أول إشارة الخطأ في أن ألفونسو يهض في اعتباره الاحتمال غير المعقول، في أنه يمكن لمجلة كرونيكا أن تنتهي. وهذا ما حدث، دون أعزان ولا أمجاد، في الثامن عشر من حزيران، بعد مئة وثمانية أعداد، في أربعة عشر شهراً. ومع ذلك، لدي انطباع، بعد انقضاء نصف قرن، بأن المجلة كانت حدثاً مهماً في الصحافة الوطنية. لم تبق منها مجموعة كاملة، وإنما الأعداد الستة الأولى فقط، وبعض القصائد في مكتبة دون رامون فيبشيس المكتالبة.

ومن محاسن المصادفات، أن أصحاب البيت الذي كنت أعيش فيه آنذاك، أرادوا استبدال أثاث الصالة، وعرضوه علي بسعر زهيد، وعشبة الفسفر، عند تصفية حساباتي في الهيرالدو، وافقوا على منحي أجر ستة شهور من الزلفة مقدماً، فاشترت بجزء من تلك النقود أثاث مايبتر لبنتنا في كارتاخينا، لأنني كنت أعلم أن الأسرة لن تأتي معنا بأثاث بيتنا في سوكري، وليس لديها موارد لشراء أثاث آخر. ولا يمكنني أن أتجاهل أن ذلك الأثاث لا يزال، بعد خمسين سنة أخرى من الاستخدام، في حالة جيدة، وفي الخدمة، لأن الأم الممتنة لم تسح ببهجة.

بعد أسبوع من زهرة أبي، انتقلت إلى كارتاخينا بحصوله الأثاث وحدها، وشي، أكثر بقليل من الملابس التي كنت أرتديها، وعلى خلاف المرة الأولى، كنت أعرف كيف أفعل كل ما يجب فعله، وعلى دراية بكل ما أحتاج إليه في كارتاخينا. وكنت ألهب من كل لحي، في أن تحضي أمور الأسرة على أحسن حال، وأن تكون سبباً بالنسبة لي، كمقارب على اقتفادي للفرجة.

كان البيت في موقع جيد من حي لاوييا، في ظل الدبر التاريخي الذي يهدو، على الدوام، أنه على وشك أن ينهار. وكانت غرف النوم الأربع والحمامان في الطابق السفلي، معجوزة للأبوين والأبناء، الأحد عشر: أنا أكبرهم، في السادسة والعشرين من عمري تقريباً، وإليخيو أصغرهم، في الخامسة. وقد تربي الجميع جيداً على ثقافة الكاربي ذات أراجيح النوم والمصائر على الأرض، والأسرة لم نجدوا لها مكاناً.

أما في الطابق العلوي، فكان يعيش العم هيرموخينس سول، شقيق أبي، مع ابنه كارلوس مارتينيت سيماهان. لم يكن البيت بكامله كافياً

لكل ذلك العبد ، إلا أن قيمة الإيجار كانت معتدلة بفضل علاقات العم مع مالكة البيت التي لم تكن تعرف عنها سوى أنها امرأة غنية جداً ، وتدعى لايبيا ، وسرعان ما وجدت الأسرة ، مجهتها في السخينة ، عنواناً بارعاً للبيت ، له إيقاع أغنية : 'بيت لايبيا في حي لايبيا' .

ما زال انتقال القبيلة ، بالنسبة لي ، مجرد ذكرى يلفها الغموض . كان النور قد انقطع عن نصف المدينة ، وكنا نحاول أن نهيب البيت في العتمة ، لكي بنام الصغار ، وكنا نحن الأخوة الكبار نتعرف بعضنا على بعض ، من أصواتنا . أما الصغار فكانوا قد تهدلوا كثيراً منذ زيارتي الأخيرة ، حتى إن عيونهم الهائلة والحزينة كانت ترعني على ضوء الشموع ، عانيت من فوضى الصناديل ، والحزم ، وأراجيح النوم المعلقة في الظلام ، وأحسست كما لو أنني أعيش تاسعاً من نيسان متزلياً . ومع ذلك ، فإن تأثري الأكبر أحسست به عندما حاولت تحريك كيس بلا شكل راح يفلت من يدي ، وكان ما يحسبه هو رفات الجدة ترانكيلينا ، فقد نبتت عنها أُمي ، وجاءت بها معها لتودعها في مقبرة سان بيدرو كلافير ، حيث توجد رفات أبي والحالة إلغيرا كاريير في المدفن نفسه .

لقد كان عمي هيرموخينس سول رجل العناية الإلهية في حالة الطوارئ تلك ، فقد عُيِّن أميناً عاماً لإدارة الشرطة في كارتاخينا ، وكان تدبيره الجذري الأول هو فتح ثغرة بيروقراطية لإتقاذ الأسرة . من قبهم أنا ، الفضال السياسي ، ذو السمعة الشيعية التي لم أكسبها بأيديولوجيتي ، وإنما لطريقي في الملبس . كانت هناك وظائف للجميع . لقد مُنح أبي منصباً إدارياً دون مسؤولية سياسية . وعُيِّن أخي لويس إنريكي مخرجاً ، ومُنحت أنا وظيفة براتب وبلا عمل في مكاتب الإحصاء .

الوطني الذي انكبت الحكومة المحافظة على إنجازه ، ربما لتتوفر لها فكرة عن عددنا ، نحن المحسوم المبتقين على قيد الحياة . وقد كانت الكلفة الأخلاقية لتلك الوظيفة ، أشد خطراً بالنسبة لي من كللتها السياسية ، لأنني كنت أقبض وأتبي كل أسبوعين ، ولا أظهر في القطاع بقية الشهر ، تفادياً للتساؤلات . وكان التبرير الرسمي ، ليس لي وحدي ، وإنما لأكثر من مئة موظف آخر ، هو أننا في مهمة خارج المدينة .

كان مفهٍ موكا . قبالة مكاتب الإحصاء ، يزدحم بموظفين زائفين من القرى المجاورة ، من يأتون للقبض وروايتهم وحسب . لم يكن ينبغي لمس واحد لاستخدامي الشخصي ، خلال الفترة التي وقَّعت فيها جدول الرواتب ، لأن راتبي كان مهماً ، ويذهب بكامله إلى الموازنة المنزلية ، وفي أثناء ذلك ، حاول أبي إعادة تسجيلي في كلية الحقوق ، وحُصِّدَ بالحقيقة التي أخفيها عنه . وقد أحسست بالسعادة ، كما لو أنني نلت الشهادة ، لجرد أنه عرف بالأمر . وكانت سمادتي أكثر جدارة من ذلك ، لأنني وجدت الوقت والمكان أخيراً ، وسط كل تلك التناقضات والمشاحنات ، لأنهي الرواية .

لدى دخولي إلى جريدة الأوتيفرسال ، جعلوني أشعر كما لو أنني قد رجعت إلى البيت . كانت الساعة السادسة ، أشد الساعات نشاطاً وحركة . غير أن المصت الوعر الذي قرصه دخولي على آلات اللينوتيب والآلات الكاتبة ، شكل عقبة في حجريتي ، بما لي كما لو أنه لم تقض لحظة واحدة على فراقي للمعلم ثابالا ، بخصل شعره الهندي . وقد طلب مني ، كما لو أنني لم أغادر قط ، معروفاً بأن أكتب له تعليقاً افتتاحياً مستعجلاً . كان يشغل أني الكاتبة مراهنٌ مبتدئ ، تمثرت بتعجله المرتبك وهو يخلو لي

المقعد. وكان أول ما فاجأني هو صعوبة كتابة تعليق مغفل التوقيع. بالرصانة التي تتطلبها الافتتاحية، بعد حوالي سنتين من تجاوزي كل الحدود في "الزرافة". كنت قد أنهيت كتابة صفحة عندما اقترب المدير لوبيث إسكابورينا لنهجتي. فتورع البريطاني كان موضوعاً شائعاً في مسامرات الأصدقاء، ورسوم الكاريكاتير السياسية. وقد أثر بي خجل سعادته. وهو يحبني معانقاً. عندما أنهيت كتابة التعليق، كان ثابلاً ينظرني، ومعه قصاصة ورقة أجري عليها المدير بعض الحسابات. ليقتصر عليّ وأباً من منه وعشرين بيزو. في الشهر، مقابل كتابة تعليقات افتتاحية. أذهلتني الرقم، وهو غير المقبول في ذلك الزمان وذلك المكان. حتى أنني لم أجب ولم ألم الشكر، وإنما جلست لأكتب تعليقين آخرين، تلاً بالإحسان بأن الأرض تدور فعلاً حول الشمس.

هذا ذلك كما لو أنني قد عدت إلى الأصول. فالموضوعات نفسها التي يصححها المعلم ثابلاً بالحبر الأحمر، ومحذوف منها الرغبة نفسها كلمات من خلال رقيب هزءه بحابل المهرجين؛ وأنصاف الليل نفسها، العباقة بعفونة الحبل والحة القفاس في مطعم الكهف؛ وموضوع الحديث نفسه عن إعادة تركيب العالم، حتى القمر في شارع الشهداء. كان روحاس هيراثو قد أمضى سنة في بيع اللوحات كي ينتقل إلى أي مكان آخر، إلى أن تزوج من روسا إيسابل العظيمة، وانتقل إلى بوغوتا. كنت أجلس في آخر الليل، لأكتب "الزرافة" التي أرسلها إلى الهيراثو بالوسيلة الوحيدة الحديثة في ذلك الحين، ألا وهي البريد العادي. وكان يتخلل ذلك تخلفي، في أحيان قليلة، عن كتابتها لأسباب قاهرة، إلى أن أكلت سعة الدين.

الحياة مع الأسرة بكاملها، وفي ظروف يشحكم بها القدر، ليس مجالها الذاكرة، وإنما المخيلة. كان الأبوان ينامان في حجرة، في الطابق السفلي، مع بعض الصغار. وكانت الأخوات الأربع يشعرون بأن لهم الحق في حجرة لكل واحدة منهن. وفي الحجرة الثالثة، كان ينام هيرناندو وألفونسو ريكاردو، حيث يرعيان الصغار خيمي الذي يهيهما في حالة تأهب يراعهما الفلسفية والرياضية. أما ريتا ذات الأربع عشرة سنة، فكانت تدرس حتى منتصف الليل، أمام الباب الخارجي، تحت نور مصباح الشارع، لكي تلتصق في نبر البيت، كانت تحفظ الدروس عن شهر قلب، وتخفيها بصوت عال، بالظرف والإلقاء الجهد اللذين ما زالت تحتفظ بهما. غرائب كثيرة في كيمي مصدرها قمارين قراءتها، عن البغلة التي تقضي إلى الطاحونة، وشركولاته الصبي ذي الجريطة الصغيرة، والعراق الذي ينغمس في الشراب، كان البيت أكثر حياة، وأكثر إنسانية قبل ذلك، منذ منتصف الليل، ما بين الذهاب إلى المطبخ لشرب الماء، أو الذهاب إلى المرحاض، لنساء حاجات سائلة أو حلبة مستعجلة، أو في تعليق أراجيح النوم متقاطعة على مسنوبات مختلفة في الممرات. كنت أعيش في الطابق الثاني مع غوستافو ولويس إيريكي - عندما انتقل العم وابنه للاستقرار في بيتهم الأسري - بعد ذلك مع خيمي الخاضع لوقف مواعظه حول أي شيء، بعد الساعة التاسعة ليلاً. وفي إحدى الليالي، أبقانا نفاً باهت وستابوب، يظلمه حمل يميم، مستيقظين عدة ساعات. فقال غوستافو حانقاً:

- يبدو كما لو أنه غنار.

لم أنس ذلك قط، لأنه كان نوعاً من التشبيهات التي كنت ألتفتها

في تلك الأكمة، على الطائر، من الحياة الواقعية، لأضحكها روايتي
الرشيدة.

كان البيت الأكثر حيوية بين بيوت كارتاخينا الحيوية العديدة التي
سكنها، والتي راح مستواها ينخفض، باطراد، مع تقلص موارد الأسرة.
ففي بيتنا عن بيوت أرخص، راح مستوانا يتحدو حتى وصلنا إلى بيت
توريل، حيث كان يظهر في الليل، شبح امرأة، وقد حالفني حسن الحظ
بعدم وجودي هناك، ولكن شهادات الأبوين والأخوة وحدها، سميت لي
لحداً من الذعر، يعادل كوني موجوداً. كان أبوي يتناومان في الليلة
الأولى، على الصوفا في الصالة، ورأيا تلك الزويا التي مرت دون النظر
إليهما، تنتقل من حجرة نوم إلى أخرى، بغستان مزين يزهر حمراء
وشعر قصير مقلود روا-الأذنين، بشرائط ملونة. وقد وصفني أمي
بتفصيل لم يفتها فيه شكل فستانها وطراز حلانها. أما أبي، فأتذكر أنه
رأها، كحلا بسبب مزيلا من الذهب لزوجته، والحرف لأبنائه. ولكن الألفة
التي كانت المرأة الشبح تشعرك بها في أرجاء البيت، منذ القروبي، لم
تكن تسمح بتجاهلها. فقد استيقظت أختي مارغوت في فجر أحد
الأيام، ورأتها عند طرف سريرها، تنفضها نظرة حادة. ولكن أكثر ما
أثر بها، هو وعب كونها حريئة من حياة أخرى.

وفي يوم الأحد، لدى الخروج من القدامس، أكدت إحدى الجارات
لأمي أن أحداً لم يسكن ذلك البيت، منذ سنوات طويلة، بسبب نقادي
المرأة الشبح التي ظهرت مرة في غرفة الطعام، في صبح النهار، بينما
الأسرة تتناول الفداء، وفي اليوم التالي، خرجت أمي مع اثنتين من
أخوتي الصغار، بحثاً عن بيت ننقل إليه. وقد وجدته بعد أربع

ساعات. ومع ذلك، فقد تكلف معظم أختي مشقة في استبعاد فكرة أن
شبح المرأة الميتة قد انتقل معهم.

في البيت الذي على سفح لاهويا، وعلى الرغم من الولت الطويل
المؤخر لي، كانت لدي رغبة كبيرة في الكتابة، حتى إنني كنت أشعر بأن
الأيام قصيرة. وهناك عاد للظهور في أحد الأيام، راصيرو ديلا إمبرييا،
بشهادته كدكتور في القانون، سياسياً أكثر مما كان عليه في أي وقت
مضى، ومتحمساً بقراءته لروايات حديثة الصدور، لا سيما رواية "الجلد"
لكورنيليو مالابارتي التي تحولت في تلك السنة، إلى كتاب حاسم لأبناء
جيلي. فقد كانت تأسرنا فعالية النشر، وحدة الذكاء، والروية اللفظة
للتاريخ المعاصر، فشجعتنا ونستغرق في قراءتها حتى العجبر، ولكن
الزمن أثبت لنا، مع ذلك، أنه كان مقدرًا لمالابارتي أن يكون نموذجاً جيداً
لواقعات مختلفة عن التي أرغب فيها. وانتهى الأمر بتلك الميزات،
إلى استبعاد محروته. فكان حالة مناضة شامساً لما جرى لنا، في الوقت
نفسه تقريباً، مع ألبر كامو.

كان الأخوة ديلا إمبرييا يعيشون آنذاك قريباً منا، وكان لديهم خبر
لتحزين الحمر، يسرفون منه زجاجات بريشة ليأتوا بها إلى بيتنا، وعلى
عكس تصبحة دون وامون فينيس، كنت أقراء لهم ولاخوتي آنذاك،
مقاطع مطولة من مسوداتي، في الحالة التي كانت عليها دون تشذيب،
وعلى شرائح ورق المطبوعة نفسها التي كتبت عليها كل ما كتبت في
ليالي الأرق، في الأوتيفرسال.

في تلك الأيام رجع ألفارو مونتيس وغوثالو مايارينوس، ولكنني
كنت محظوظاً باستلاك الحباء الذي يمنعي من أن أطلب منها قراءة

المخطوط غير المنتهي، والذي لا يزال بلا عنوان. كنت أريد الاعتكاف دون راحة، لأتميز النسخة الأولى من المخطوط على ورق نظامي، قبل التصحيح الأخير. كان لدي حوالي أربعين ورقة زيادة على النسخة المترجمة. ولكنني كنت ما أزال أجهل أنه يمكن لذلك أن يكون عشرة خفرة. وسرعان ما أدركت أنه كذلك؛ فأنا عبد لصرامة في اللغة والكمال، تضطرنني إلى إجراء حساب مسبق لطول الكتاب، وإلى ضبط عدد الصفحات بدقة، في كل فصل، وفي الكتاب بجملة. وكان خطأ واحد بارز في هذه الحسابات، يجبرني على إعادة النظر في كل شيء. بل إن وجود خطأ في الكتابة، على الآلة الكاتبة، بشعر ذعري كما لو أنه خطأ إبداعي. كنت أظن أن هذا المنهج المطلق يستند إلى رؤية متشددة في المسؤولية. ولكنني أعرف اليوم أنه كان مجرد رعب وقايي حاصر.

غير أنني مجاهدت مرة أخرى، بالمقابل، نصيحة دون رامون نينيس، وأوصلت إلى غوستافو إيبارا، نسخة كاملة من الرواية. وإن كانت ما تزال دون عنوان، عندما اعتبرتها منتهية. بعد يومين من ذلك، دعاني إلى بيتته. وجدته يجلس على كرسي هزاز من الخيزران، على الشرفة المطلّة على البحر، يمرض جسده للنسي، ويسترخي بملابس البحر. وقد تأثرت للرفقة التي كان يفاقم بها أوقائي، بمنصا هو يكلمني. إنه معلم حقيقي، لم يجل على محاضرة حول الكتاب، ولم يقل لي إنه يراه جيداً أو سيئاً، وإنما جعلني أعي ليمه الأخلاقية. وعندما انتهى، تفحصني راضياً، وانتهى إلى القول بسلطته البوصية:

«إنها أسطورة أنتيفون.

أدركه من ملامحي، أنني فقدت أنثاري، فتناول من رغوفه، كتاب

سوفوكليس، وغراً لي ما الذي يعنيه. وبالفعل، كانت الحالة الدرامية في روايتي، في جوهرها، مطابقة لأنتيفون المحكوم عليها بترك جثة أخيها بولينيس دون دفن. بأمر من عمهما الملك كريبون. كنت قد قرأت أوديب في كولون من المجلد الذي أهدها إليّ غوستافو نفسه، في الأيام الأولى لتعارفنا. ولكنني لم أكن أتذكر أسطورة أنتيفون بصورة واضحة، تنبج لي إعادة بنائها من الفكرة، ضمن مساحة منطقة الموز، ولم أكن قد لعبت التشابهات الانفعالية بينهما حتى تلك اللحظة. أعدت في تلك الليلة، قراءة العمل، يمزج غريب من الفخر لتوافقي، حسن النية، مع كاتب يمثل تلك العظمة، والألم من أن يلحق بي عار الانتحال أمام الملأ. بعد أسبوع من أزمة التشوش، قررت إجراء بعض التفسيرات المعقدة التي تنبج لي إنقاذ حسن نواياي، دون أن أدرك أيها الزهر الذي يوق طاقة البشر، وأنا أعهد إليّ تعديل كتاب لي، كيلا يبدو أنه لسوفوكليس. وأخيراً أصبحت - مستمسكاً - بأن لي الحق الأخلاقي في استخدام جملة له، كخاتمة تلغيرية. وهذا ما فعلته.

الانتقال إلى كاوناخينا حسناً، في الوقت المناسب، من ترودي سوكري الخرج والخطر. ولكن معظم الحسابات بدت أجلاماً، سواء بسبب شح الموارد أو بسبب حجم الأسرة. كانت أمي تقول إن أبناء الفقراء، بأكلون أكثر من أبناء الأغنياء. وكبرون أسرع منهم. ولكي تثبت ذلك بكفيها مثال أسرتها. فروايتنا جميعها لم تكن تكفي لكي نعيش دون مفاجآت.

وقد تولي الزمن كل ما عدا ذلك. فأخي خيمي، وفي نواطؤ أسري أقصر، صار صهندساً مدنياً، فكان المجاز الوحيد في أسرة تنظر إلى

الشهادة الجامعية، كما لو أنها لقب نبالة. وصار لويس إيريكي معلماً في المحاسبة. وتخرج غوستافو طوبوغرافياً، وبقي كلاهما عازف الجيتار والمغني نفسه في سيرنادات الآخرين. وقاجابا بيرو. منذ طفولته البكرة، يميل أدبية واضحة، وبثقة شخصيته التي قدم لنا دليلاً مكرراً عنها، وهو في الخامسة من عمره، عندما باغثوه وهو يحاول إضرام النار في خزانة ملايس. ليحقق حلمه برؤية رجال المطافئ، وهم يطفئون الحريق في البيت، وفيما بعد، عندما دعاء، هو وأخوه كوكي، زملاً أكبر منهما سناً، لتدخين الماريجوننا، رفض بيرو ذلك مذعوراً. أما كوكي بالمقابل، وكان فضولياً ومتهوراً، فدخلها بحق. وحين غرق، بعد سنوات من ذلك، في هول المخدرات، أخبرني أنه قال لنفسه منذ تلك المرة الأولى: "يا للعنة! لا أريد أن أفعل شيئاً آخر غير هذا في حياتي". ولم يفعل شيئاً آخر. خلال الأربعين سنة التالية، بشغف دون مستقبل، سوى إنجاز وعده لنفسه بالموت ضمن قوانينه. وفي الثانية والخمسين من عمره، تجاوز الحد في فردوسه المصطنع، وقضت عليه سكتة قلبية.

أما نانفشي - أكثر الرجال حباً للسلام في العالم - فبقي في الجيش، بعد إنها «خدمته العسكرية الإلزامية»، وأعلن استخدام كل أنواع الأسلحة الحديثة، وشاؤك في العديد من المناورات العسكرية. ولكن لم تُفتح له الفرصة قط للمشاركة في واحدة من حروبنا المزمته. وهكذا تقع أخيراً بمهنة رجل المطافئ، عندما خرج من الجيش. ولكنه لم يجد الفرصة هناك أيضاً، لإطفاء حريق واحد طوال أكثر من خمس سنوات. غير أنه لم يشعر قط بالاحباط، بفعل حى سفرية كمره ضمن الأسرة، استأذاً في الدعاية اللورية، وأتاح له أن يكون سعيداً بمجرد كونه حياً.

عمل بيرو في أقصى سنوات الفقر، كاتباً وصحفيًا بجهوده الهائلة، دون أن يدخن قط، أو يشرب لظرة واحدة أكثر مما يجب في حياته. وقد استطاعت ميوله الأدبية الجارفة، وإبداعه المتكتم أن تفرض نفسها وتغلب على المصاعب والعقبات. ومات، وهو في الرابعة والخمسين من عمره، بعد أن أتيح له الوقت لينشر كتابها من أكثر من ستين صفحة، تضم محرمات بارعة حول الحياة السرية لرواية "مئة عام من العزلة". وقد اشتمل في الكتاب، طوال سنوات، دون أن أعرف ذلك، ودون أن يسألني قط، بصورة مباشرة، عن أية معلومات.

عرفت أختي ريتا، وكانت لا تزال في سن المراهقة تقريباً، كيف تستفيد من عبثة التشكيل بغيرها، فعندما رجعت إلى بيت والدي، بعد فترة غياب طويلة، وجدتني تعاني اجتياز المطهر نفسه الذي عانت منه أخواتها الأخريات، بسبب وقوعها في غرام شاب أسمر رشيق، جعني، ووقور، والشئ الوحيد فيه غير الملائم لها، هو طول قامته الذي يزيد عنها شهرين ونصف الشبر. وحدثت أبي، في تلك الليلة بالذات، بمسحع إلى الأخبار، وهو في أروحة النوم المعلقة في صدره، أخفضت صوت المذياع، وجلست على السرير المقابل، وسألته بحقي، كابن بكر، عما يحدث بشأن غراميات ريتا، فأطلق في وجهي الجواب الذي كان قد أعده، دون شك، منذ الأزل:

- الشئ الوحيد الذي يحدث هو أن الرجل لص.

وهذا هو بالضبط ما كنتُ أنتظرونه منه. فسألته:

- ماذا تعنى بلص!

فقال لي، دون أن ينظر إليّ:

- لص - لص -

- وما الذي سرقه؟ - سألته دون رحمة.

واصل هو عدم النظر إليّ. لم تنهد أخيراً.

- حسن، ليس هو، ولكن له أخاً جيناً بسبب السرقة.

- ليست هناك مشكلة إذن - قلت له ببساطة سهلة -، لأن ريتا لا

تريد الزواج منه، وإنما من الآخر غير السجين.

لم يجب. لأن نزاعته التي لا يرقى إليها الشك، تجاوزت الحدود.

منذ الجواب الأول في ذلك اليوم، فقد كان يعرف عدم صحة الإشاعة عن

الأخ السجين. وحين لم يبق لديه مزيد من الحجج، حاول التثبت بأسطورة

الكرامة.

- لا بأس. ولكن عليهما أن يتزوجا بأسرع ما يمكن. لأنني لا أريد

لمترات خطوية طويلة في هذا البيت.

وكان ردي فوراً، وبانعدام رحمة لم أغفره لنفسي قبل:

- غداً، في أول ساعات الصباح.

- يا رجل! يجب عدم المبالغة أيضاً - ودفعت عليّ متخافاً، لكنه

أظهر اهتمامه الأولي، وأضاح: - لا يوجد لدى هذه البنت ما ترتديه

حتى الآن.

المرّة الأخيرة التي رأيته فيها العمة "ما"، وهي في التسعين من

عمرها تقريباً، كانت حين جاءت إلى البيت في كارناخينا، في مساء

ذي حر مذل، دون إشعار مسبق، قادمة من ريو هاتشا في سيارة تكسي

إكسبريس، ومعها حقيبة تليفون مرئية ملايين حفاد، وعمامة من

قماش أسود. دخلت سعيده، بذراعين مفتوحين، وصاحت بالجميع:

- إنني آتية لأودعكم. لأنني سأموت.

احتضناها، ليس لما غشله لنا وحسب، وإنما لأننا كنا نعلم كذلك.

حتى معرفتها لشؤونها مع الموت، بقيت في البيت، منتظرة ساعاتها في

مخوفة الخدمة، وهي القرفة الوحيدة التي قبلت النوم فيها، وهناك ماتت،

عابقة برائحة العفّة، عن عمر قدّرناه بثلاثة سنة وسنة.

كانت تلك الفترة هي الأشدّ زحماً في الأونيفرسال. فقد كان ثابالا

بوجهي بحكمته السياسية لكي تقول مقولاتي ما يجب أن تقوله، دون

أن تصطدم بفلم الرقابة. ونهتد للمرة الأولى، اجتماعه بفكرتي القديسة،

في كتابة ريبورتاجات للتصنيف. وسرعان ما برز الموضوع الرهيب

للساتحين الذين حاجتهم أسماك القرش على شواطئ ماريا. ومع ذلك،

فإن أكثر الحلول الذي خطر للبندبة أصالة، هو عرض مبلغ خمسين يورو

مقابل كل سمكة قرش تقتل، وفي اليوم التالي، لم تعد الهصان أنجار

الفلوز تكفي لعرض الأسماك التي قُتلت خلال الليل. وقد كتب هيكسور

روحان حبرانو من بوغوتا، وهو يكاد يموت من الضحك، في عموده

المجديد في جريدة إل نيسيو، ملاحظة ساخرة حول الفكرة غير الموفقة،

بتطبيق ذلك الجداً الخطأ، وفق أسلوب التلصص الفجّل من أرفاهه، على

صيد أسماك القرش. وقد وفر لي ذلك فكرة كتابة ريبورتاج عن الصيد

الليالي. ساندني ثابالا بحماسة، لكن إخطائي بدأ منذ لحظة صعودي

المركب، عندما سألتني عما إذا كنت أصاب بدوار البحر، وأجبت أن لا؛

وعما إذا كنت أخاف البحر، والحقيقة أنني كنت أخافه، ولكنني قلت لا.

ثم سألتني أخيراً، إذا ما كنت أعرف السباحة - وكان عليهم أن يوجهوا

هذا السؤال أولاً - ولم أنجبراً على الكذب بأنني أعرف. ولكنني علمت

على أي حال، وأنا على اليابسة، من خلال محادثة مع بعض البحارة، بأن الصيادين يذهبون إلى بوكاس دي ثينشا، على بعد تسعة وثمانين ميلاً بحرياً عن كاراتاخينا، ويعودون محملين بأسماك كرش مريشة ليبيعوها، على أنها الأسماك المجرمة، بخمسين بيزو. غير أن هذا الخبر العظيم انتهى في اليوم نفسه، وانتفى بالنيابة لي الحلم بكتابة الـ «موروثاج». فشئت بدلاً منه قصتي الثامنة: «تاجر الزنجي الذي جعل الملائكة ينتظرون». وقد رأى ناقضان جديان على الأقل، وأصدقائي الصارمون في باراكيتا، أن القصة تشكل تحولا طيبا في توجهي.

لا أظن أن تعجبي السياسي كان كافياً للتأثير عليّ. ولكنني هانيت في الحقيقة، انكاسة مماثلة للسابقة. فقه أحست أنني غارق في الوحل، إلى حد أن منعتي الوحيدة كانت تشتغل في طلوع الفجر عليّ، وأنا أغنى مع السكارى في علود فباب السور التي كانت مواخير للجلود. خلال العهد الاستعماري، ثم تحولت فيما بعد إلى سجن سياسي مشغوم. وقد قضى الجنرال فرانثيسكو دي باولا سانتاندير فيها حكماً بالسجن لمدة ثمانية أشهر، قبل أن يتفقيه رفاقه، في القضية والسلاح، إلى أوروبا.

القيم على تلك الآثار التاريخية، كان عامل ليشويب متفاعداً. يجتمع معه، كل يوم، زملاؤه الذين ما زالوا يمارسون المهنة. بعد أن ينتهوا من طباعة الصحف، للاحتفال باليوم الجديد. بدمجانية من الروم الأبيض السري، المرقب بمنون المحتالين البارعين في غش المحصور. لقد كانوا عمال طباعة مثقفين، عبر تقاليد أسرية، ونحويين دراصين، وشرييين عظاماً أيام السبت. وقد انضممت إلى نقابتهم.

أصغرهم سناً كان يدهر غبيرمو داقبلا. وكان قد توصل إلى مأثرة الحصول على عمل في منطقة الساحل، على الرغم من تشدد بعض القادة المحليين الذين يمارسون قبول الكاتشاكو في نقابتهم. وربما توصل إلى ذلك بفن من فنونه البحرية. إذ كان، غطلاً عن غرسه الجهد في المهنة ونطفه الشخصي. مشغولاً أعاجيب. وكان يبهزنا بالاعية البحرية في إخراج عصافير حية من أدراج المكاتب، أو تبييض الصفحة التي نكون قد انتهينا من كتابة تعليق افتتاحي عليها، وسلمناها للتو، بينما نحن على وشك إغلاق الطبعة. فكان المعلم نابالا، الصارم جداً في الواجب. ينسى للحظة، باويرنكي والشوة البروليتارية، ويطلب منا التصديق للساحر. مع تنبيهه المتكرر، والذي لا يتم الفقيه به دوماً، بأنها المرة الأخيرة. أما أنا، فرأيت أنني قد اكتشفت الواقع أظهِراً، يشاطرتني ذلك الساحر، ورتين الحياة البرية.

في فجر أحد تلك الأيام، غي قلب السور، أخبرني داقبلا بذكرته في إصدار جريدة من قطع خسة وعشرين بنسة وعشرين سنتيمتراً - أي بحجم نصف صفحة نظامية - توزع مجاناً في المساء، في ساعة الازدحام عند إغلاق المشاجر. ستكون أصغر جريدة في العالم، يمكن قراءتها في عشر دقائق، وهنا ما حدث. وقد أصبحت المضغوطة، وكنت أتولى كتابتها خلال ساعة من الوقت، في الحادية عشرة صباحاً، بينما يتولى داقبلا تنضيدها وطباعتها خلال ساعتين، ويوزعها بائع صحف جريء. لم يكن يحتاج له الوقت لينادي عليها مرتين. صدرت الجريدة يوم الثلاثاء، الثامن عشر من أيلول ١٩٥٦ ومن المستحيل تصور نجاح ساحق أكبر، وأمد حياة العصر: ثلاثة أعداد في

ثلاثة أيام. وقد اعترف لي دافيلاً بأنه ما كان ليتصور، ولو بقدرات
السحر الأسود، تحقيق فكرة مثل تلك العظيمة. ومثل تلك الكلفة
المخفضة، يتبع لها مكان مثل ذلك الصغر. وتنفذ مثل ذلك الوقت
القصير، وتنفذ مثل تلك السرعة. الأمر الأكثر غرابة هو أنني توصلت
إلى التفكير للعظة، في اليوم الثاني - وكنتُ عملاً بتخاطف الجريدة في
الشوارع، ولحمس المتحمسين - في أنه يمكن لها ببساطة، أن تكون الحل
لحياتي. استمر الحلم حتى يوم الخميس، عندما بين لنا المدير الإداري أن
إصدار عدد آخر سيؤدي بنا إلى الإفلاس، حتى ولو قررنا نشر إعلانات
مجازية. لأن الإعلانات ستكون صفيرة جداً، وغالية إلى حد لا يمكن
إيجاد حل عقلائي له. ففكرة الجريدة نفسها، المستندة أساساً إلى
حجمها، تحمل معها - رياضياً - جرثومة دمارها: إذ أنها تصير أقل
مردوداً كلما زادت مبيعاتها.

لقيت كمن هو معلق بالمصباح. فلقد كان الانتقال إلى كارتاخينا
جناسياً ومغيباً، بعد مجرة كرونينكا، فضلاً عن أنه وفر لي أجراً ملائمة
جداً لواصله كتابة عاصفة الأوراق. ولا سيما وسط حسي الإبداع التي
كنت أعيشها في بيتنا، حيث تبدو أشد الأمور الغريبة وغير المألوفة،
محتملة دائماً. ويكفي أن أتذكر غداً كنا نتحدث فيه مع والدي.
حول الصعوبة التي يواجهها كتاب كثيرون في كتابة مذكراتهم، عندما
يلفون القدر على تذكر أي شيء. فمخرج علينا كوكبي ببساطة، ولم
يكن قد أكمل السادسة من عمره، بالنتيجة الباهرة حين قال:
- يجب على الكاتب إذن، أن يبدأ بكتابة مذكراته أولاً. وهو ما
يزال يتذكر كل شيء.

لم أتهجر على الاعتراف بأن ما يحدث لي في عاصفة الأوراق هو
الشيء نفسه الذي كان يحدث لي في البيت، فقد بدأت أهتم بالتقنية
أكثر من الموضوع. بعد سنة من العمل بكثير من البهجة، تكشف لي أن
ما أكتبه هو متاعه دائرية بلا مدخل ولا مخرج. وأظن أنني أعرف السبب
اليوم: فبقدر تصوير العادات والتقاليد الاجتماعية التي قدم فلانج لمجديد
جيدة في بداياته، انتهى به الأمر إلى التبحر في الموضوعات الوطنية
الكبرى التي حاول أن يشق بها مخرج طوارئ. وتحولها بدورها إلى
مستحاثات. والواقع أنني لم أكن أحتمل لحظة أخرى من التردد. ولم
يكن يتقضي سوى التحقيق من المعلومات وإحكام الأسلوب، قبل أن
أضع نقطة النهاية. بالرغم من أنني لم أكن أشعر بأن العمل يتقضى.
ولكنني كنت متورطاً بعد كل ذلك الوقت من العمل في الظلمات، وكنت
أرى أن الكتاب يفرق. دون أن أكتشف أين هي الشقوق فيه. والأشوأ
من ذلك، أنني وصلت إلى مرحلة في الكتابة لا تفيدني فيها مساعدة
أحد، لأن الحل لم يكن في النص، وإنما في داخلي؛ ولا يمكن لأحد
سواي أن يمثلك حيناً ترى ذلك الحل. أو قلباً بعانيه. وربما لهذا السبب
بالتات توقف، دون تردد، عن كتابة "الزرافة"، بعد أن انتهيت من
تسديد سلطة الهيكل التي اشترت بها الأثاث.

لنور - الخط أنه لم يكن بمقدور الذكاء، ولا الصدود، ولا الحب، أن
تهزم القدر. ولذا كما لو أن كل شيء يعمل لمصلحته. لقد انتهى العمل
في جهاز الإحصاء بعد سنة. ولم يكن واثق في الأونيفرسال كافياً
لشعوبه. لم أرجع إلى كلية الحقوق، على الرغم من تحصيل بعض
الأستاذة من نواظروا لدفعي قديماً، على الرغم من عدم اهتمامي

باهتمامهم وعلمهم. لم تعد تقوى المسيح قادرة على تغطية ثغرات البيت. وكانت الفجوة كبيرة، بحيث أن مساهمتي لم تكن كافية قط. وكان شع الأحلام يؤثر بي أكثر من شع النقود.

وفي أحد الأيام، قلتُ أثناء تناول الغداء:

- إذا كنا ستغرق جسمنا، فلنعرضي أنجح لعلي أحاول أن أرسل إليكم ولو زورق مجذيف صغيراً.

هكذا ذهبتُ مسجداً، في الأسبوع الأول من كانون الأول، إلى بارانكيا، برفقة الجميع، وبالمقن بأن زوداً ما سببهم. ولا بد أن ألفونسو فونسيباور قد تصور ذلك منذ النظرة الأولى، عندما رأيته أدخل، دين إشعار مسبق، إلى مكتبنا القديم في الهيرالدو، ذلك أنه لم تعد هناك موارد للإبقاء على مكتب كرونিকা. نظر إليّ كما لو أنه ينظر إلى شيخ من ورا، الآلة الكاتبة، وهتف مدعيراً:

- أله لعنة تفعلها هنا دون إنذار مسبق!

وقليلة هي المرات التي أجبت بها، في حياتي. يرد قريب إلى ذلك الحد من الحقيقة:

- إنني غارق تماماً، يا معلم.

استعاد ألفونسو الطمأنينة:

- أه، جيد - ردة بوجهته الفاتمة، وأردف ببيت الشعر الأكثر كولومبية في الشهيد الوطني: - الإنسانية بأسرها تنن هكنا، لحسن الحظ، في السلاح.

لم يبد أدنى لدو من الفضول حول سبب رحلتي. وبدت له نوعاً من التضاطر، لأنه كان يرد على كل من يسأله عني، خلال الشهور الأخيرة،

بأنني قد أصب في أي لحظة، لأبقى هناك. نهضت مسجداً من ورا، المنضعة، بينما هو يرتدي ستروته. لأنني جتته مصادفة، كما لو أنني أسقط عليه من السماء. لقد كان لديه موعد، تأخر عنه نصف ساعة، لكي ينهي كتابة مقالاته الافتتاحية لعبد اليوم التالي، فطلب مني أن أنهئها. ولم أكد أفكر من سؤاله سوى عن موضوعها، فأجابني من المتبته، على طريقتنا كأصدقائنا، وهو يفاهر مسرعاً، بنصائره التقليدية:

- اقرأ ما كتبت، وستعرف.

وفي اليوم التالي كانت هناك، من جديد، ألغان كاتبان متقابلتان في مكتب الهيرالدو. وكنتُ أكتب من جديد "الزرافة"، للصفحة المعهودة نفسها. و - كيف لا - بالأجر نفسه. وفي الظروف الخاصة نفسها، بيتي وبين ألفونسو، حيث تظهر في كثير من المقالات، فقرات لأحدنا أو للآخر، من المستحيل تمييزها. وقد رفض بعض طلاب الصحافة أو الأدب في تمييزها بينها، في الأرشيف، ولم يجدوا سببلاً إلى ذلك، اللهم إلا في بعض الموضوعات المحددة، ليس من خلال الأسلوب وإنما من خلال المعلومات النفاضة.

وفي حانة الرجل الثالث، أعرزني الخبر المشؤوم من فشل صديقنا اللص. فقد خرج في إحدى الليالي كعادته، لمصارعة مهنته، والشبه الوحيد الذي عُرف عنه بعد ذلك، دون مزيد من التفاصيل، هو أنه تعرض لطلق نار في القلب، داخل البيت الذي سطا عليه. طالبته بجثمانه أخذه الكيري، وهي العضو الوحيد من أسرته، ولم يحضر جنازه مولانا نحن وصاحب الحانة.

وجئتُ إلى بيت الأخوات أنيلا. وواصلت ميراديلمار، وقد عمادت

جارة من جديد، تطهير ليالي السبثة في القط الأسود، يسهراتها المسكنة، وكانت تيمو، هي وأختها أليسيا، نوحين في طريقتهما في الحياة، وفي تمكثهما من جعل الزمن يصير دائرياً، عندما نكون معهما. وقد بقيتا، بطريقة خاصة جداً، ضمن الجماعة، فقد ظننا تدعوانا، مرة واحدة في السنة على الأقل، إلى ولبة من لفائف المأكولات العربية التي كانت تغذي روحنا. وكانت نغام في بهنهما سهرات مفاجئة لزاتيرين بارزين، ابتداءً من لبناتين كبير في أي نوع من الفنون، حتى شعراء تالين. وأظن أنهما هما من تظمتا ميرلي الموسيقية المشوشة، وضمتاني إلى عصبة المركز الفني السعيدة.

يبدو لي اليوم، أن بارانكيًا قد وفرت لي أفضل لرواية عاصفة الأوراق، ذلك أنني ما إن امتلكت نسخة، عليها آلة كتابة، حتى بدأت التصحيح باندفاع متجدد. وفي تلك الأيام، جهرأت على عرض النسخة الأولى الفاشلة للقراءة، وأنا أعرف أنها غير منتهية، على شلة الأصدقاء. كنا قد تحدثنا عنها كثيراً إلى حد أن أي تنبيه كان يبدو غائضاً عن الحاجة. بقي ألفونسو يرمين، بكتبة قسالتى، دون أن يأتي على ذكرها. وفي اليوم الثالث، عندما أتينا مهاجنا في آخر المساء، وضع المخطوط مذنباً فوق المنضدة، وقرأ صفحات كان قد أثر عليها بقصاصات ورقية متطاولة، وكان يبدو متعباً لنقاط عدم الترابط، وعتياً للأسلوب، أكثر منه ناعماً. كانت ملاحظاته بالقمة الصواب، وقد أخلت بها كلها، باستثناء واحدة بدت له مقبحة دون مسوخ، حتى بعد أن أثبت له أنها حادثة واقعية من طفولتي. فقال، وهو يكاد يموت من الضحك:

— حتى الوراق نفسه يخطئ عندما يكون الأدب رديئاً.

لما منهج غيرمان بارغاس فينلغس في أنه لا يقدم تعليقات فورية إذا كان النص جيداً، ولما يقدم فكرة مطمئنة بنهيتها بإشارة تعجب:

— يديع!

ولكنه يواصل في الأيام التالية، بإطلاق وابل من الأفكار المتفرقة حول الكتاب، ينتهيها في أي لحظة عريضة، بحكم شديد، أما إذا بدا أنه المخطوط غير جيد، فإنه يتفق مع المؤلف على موعد، على انفراد، ويطلع على رأيه بكل صراحة، ويلطف بالغ، لا يبقى معه للمتدرب من مخرج سوى تقديم الشكر إليه من كل قلبه، على الرغم من إحساسه بالرغبة في البكاء. ولكن لم تكن هذه هي حالتي. ففي يوم لا يخطر على بال، قدم لي غيرمان، بين المزاج والمجد، تعليقاً حول مخطوطتي، أعاد الروح إلى جسدي.

كان الفارو قد اختفى من مقهى جاني، دون أدنى إشارة إلى أنه حي. وبعد أسبوع تقريباً، حين لم أكن أنتظر رؤيته، سد علي الطريق بسيارته في شارع بوليفار، وصرخ بي بأفضل مزاج لديه:

— اصعد يا معلم، سوف أخوز لك لفظة لك.

كانت تلك هي عبارته التخديرية، فعنا بعدة جولات، دون وجهة محددة، في المركز التجاري المكتهب قبلاً، بينما الفارو يطلق، بالصراخ، تحليلاً لقراءته أقرب إلى الانفعال، غير أنه مؤثر. وكان يقطع كلامه كلما رأى أحد معارفه على الرصيف، لمصرخ موجهاً إليه عبارة مداعبة متوددة أو ساخرة، ثم يواصل محاكمته العقلية بحماس، بصوت

مشهدج من الجهد. وشعر مشعث، وشبكك العنيد الزائغين اللعين
تبدوان، كما لو أنهما تنظران إليّ من خلال مشهد عام وشامل. وانتهى
بنا المطاف إلى تناول بيرة مثقبة على وصيف ملهى لوس أنجلوس.
يُقتل علينا صخب مشجعي فريق جونيور وسبورتنج المتعصبين في
ستاد كرة القدم، على الرصيف المقابل، وأخيراً داهنا تافع المسوسين
الحارجين من الستاد، قائلين بسبب التعادل المشين بهدفين لهدفين. أما
الحكم الحاسم الوحيد حول مخطوطه كتابي، فقد صرخ به أثارو في
اللحظة الأخيرة، من خلال نافذة السيارة:

« ما زال لديك، على كل حال يا معلم، الكثير من رواية العادات
والثقافات»

ولقد فكتك، شاكرًا، من القول له صارخًا:

« ولكنه من جيد فوكترا

فوضع هر حدًا لكل ما لم يقل وما لم يفكر فيه، بذهقة مدوية:

« لا تكن ابن عاهرة!»

بعد خمسين سنة من ذلك، وكما تذكرت ذلك المساء، أعرد لسماج
القهقهة المدوية التي رنت بطعم المجازة، في الشوارع الملتهب.

صار واضحًا لديّ، أن الرواية قد أعجبت الثلاثة، مع محفوظاتهم
الشخصية، وربما العادلة؛ ولكنهم لم يقولوا ذلك بصراحة كاملة، ربما لأنه
يبدو لهم وسيلة سهلة. لم يتكلم أي واحد منهم عن نشرها، وكان هذا
أيضًا من طابعهم. فإفهم في نظرهم، هو الكتابة بصورة جيدة. أما ما
عدا ذلك فهو شأن الناشرين.

وباختصار: لقد كنت مرة أخرى، في مدينتنا بارانكيًا الموهودة، إلا

أن نكبتني غفلت في الوعي بأنني لن أجد الحماسة، في هذه المرة،
للمواظبة على كتابة "الزرافة". والحقيقة أن زاويتي الصحفية كانت قد
أتميزت مهمتها في فرض حريفة الكتابة اليومية عليّ، من أجل تعلم
الكتابة من الصفر، بالعتاد والطروح الضاري لأن أكون كاتبًا مختلفًا، لم
أكن قادرًا في أحيان كثيرة، على التعامل مع الموضوع. وكنت أستبدله
بموضوع آخر، عندما أدرك أنه ما زال كبيرًا على مقاسي، وقد كانت على
أي حال، رياضة أساسية لتكويني ككاتب، مع الحقن المريح بأنها ليست
سوى مادة غفائية دون أي التزام تاريخي.

مجرد البحث عن موضوع برمي، ملأ شهوري الأولى تلك بالقيم، لم
يكن ذلك البحث يترك لي متسعًا من الوقت لعمل شيء آخر، لقد كنتُ
أضيق ساحبات في تفحص الجرائد الأخرى، وأدون ملاحظات من
المعادنات الشخصية الخاصة، وأهم في تخیلات تلقى أعلامي: إلى أن
واجهني الحياة الواقعية. فكانت يجربني الأكثر معادة في هذا الاتجاه،
هي وليتي في مساء أحد الأيام، وأنا أمر في الحافلة، إعلانًا بسيطًا
على باب بيت: "سبح صفا تخیل جانتريًا".

كان أول ما نادى إلى ذهني، هو طرق الباب لتحري معلومات عن
تلك القصة. ولكن الحياة، تغلب علي. وهكذا علمتني الحياة نفسها أن
أحد أكثر الأسرار فائدة، في الكتابة، هو تعلم لراحة يرمز الواقع دون
توجيه أسئلة. وقد اتضح لي ذلك بصورة أكبر بينما أنا أصيد، قبل
سنوات قليلة، قراءة أكثر من أربعين "زرافة" منشورة، ومقارنتها مع
بعض النصوص الأدبية التي نشأت عنها.

في عطلة أعياد الميلاد، جاء أعضاء هيئة لركمان جريدة

الاسبيكتادور، ابتداءً من المدير العام، دون غابرييل كانتو. مع كل أبنائه: لويس غابرييل، الوكيل؛ وغيرمو، وهو نائب المدير آنذاك؛ والفونسو، نائب الوكيل؛ وفيديل، أصغرهم سناً، وكان يتدرب على كل شيء، وجاء معهم إدواردو تالاميا، الملقب بأوليسيس، وكانت له مكانة خاصة بالنسبة لي، لأنه نشر قصص القصيرة وملاحظة تدعيم لها. وكانوا مهتمين على التمتع معاً. كمصيبة، بالأسبوع الأول من العام الجديد، في متجمع برادومار، على بعد عشرة فراسخ عن بارانكيئا، حيث كانوا يقتسمون البار معاً، بجملة الشيء الوحيد الذي أتذكره من ذلك الصخب، بشي، من اللذة، هو أن أوليسيس، شخصياً، كان إحدى أفكار المفاجآت في حياتي، لقد كنت أراه بكثرة في بوغوتا، في اليد، في مقهى الطاحونة، ثم بعد سنوات من ذلك، في مقهى الأوتوماتيكو، وأحياناً في محاضرات المعلم دي غريغ. كنت أتذكره بظمه المتعزل وصوته المعدني. ومنهما خرجت باستنتاج أنه شخص نزيق. وهذه كانت سمعته في الحقيقة، بين القراء، المهتمين في المدينة الجامعية. ولهذا لمجتمعه في مناسبات عديدة كيلا ألتفخ الصورة التي أختلقتها من أجل استخدامه في الشخصي. وكنت على خطأ. فقد كان واحداً من أكثر الكائنات التي أتذكرها ودأ وبذلاً لمصادمته، مع تفهمي بأنه يحتاج إلى صبر خاص، تابع من العقل أو من القلب، لإظهار ذلك. لم يكن، في مادته البشرية، شيء من مادة دون رامون لينيس، أو الفارو موبس، أو ليو دي غريف، ولكنه يشاطرهم الكفاءة والقابلية الفطرية في أن يكون صليماً في كل حين، وبأنه حظي بحسن حظ نادر أتاح له قراءة كل الكتب التي لا بد من قراءتها.

أما أبنا، كانوا الشباب - لويس غابرييل، وغيرمو، والفونسو، وفيديل - فتوصلت إلى أن أكون أكثر من صديق لهم، عندما عطلتُ محروماً في جريدة الاسبيكتادور. ويكون من المجازفة، تذكر حوار ما من تلك الأحاديث التي كان الجميع يقرضونها ضد الجميع في ليالي برادومار. ولكن من الصعب في الوقت نفسه، نسيان إلماعها غير المحتل على مرض الصحافة والأدب القاتل. لقد جعلوني واحداً منهم، وأشبه بحكائهم الشخصي الذي اكتشفوه ونبتوه بأنفسهم، ومن أجلهم. ولكنني لا أتذكر - مثلما قلت كثيراً - أن أباً منهم الترح عليّ الذهاب للعمل معهم. ثم أناأسف لذلك، لأنه لم تكن لدي، في ذلك الوقت الرديء، أدنى فكرة مما سيؤول إليه مصيري، ولا إذا ما كانوا سيحبون لي اختياره.

رجع الفارو موبس، المتحمس لمهاسة آل كانتو، إلى بارانكيئا لدى تعيينه مديراً للملاقات العامة في شركة "إيسو الكولومبية"، وحاول إلزاعي بالذهاب للعمل معه في بوغوتا. غير أن مهمته الحقيقية مع ذلك، كانت أكثر دراماتيكية بكثير: فبسبب خطأ وهيب ارتكبه أحد المتعهدين المحليين، ملؤوا خزانات الوقود في المطار بهزين سيارات، بدلاً من بهزين الطائرات، ولم يكن هناك ريب في أنه لا يمكن لطائرة مزودة بذلك الوقود الحطاط، أن تصل إلى أي مكان، وكانت مهمة موبس تتمثل في إصلاح الخطأ، بسرعة مطلقة، قبل حلول الفجر، دون أن يعلم بذلك موظفو المطار، وأغل منهم بكثير الصحافة. وهذا ما فعله، فقد تم استبدال الوقود بأخر جيد، خلال أربع ساعات من الريسكي تخلفتها عداوة جيدة في المطار المحلي. لقد كان لدينا فائض من الوقت للتحدث

في كل الأمور. ولكن الموضوع الذي ما كنتُ قادراً على تصويره، هو أنه يمكن لدار نشر لوسادا في بونينس آيرس، أن تنشر روايتي التي كتبت على وشك الانتهاء منها. وكان ألقارو موتيس يعرف ذلك، مباشرة، من المدير الجديد للفرع الفار في بوغوتا، خوليو سبسر فيبفاس. وهو وزير سابق في البيرو، ملتجئ منذ وقت قريب، في كولومبيا.

لستُ أفذكر تأثراً أشد حدة، فقد كانت لوسادا واحدة من أفضل دور النشر في مدينة بونينس آيرس التي ملأت فراغ النشر الذي سببته الحرب الأهلية الإسبانية. كان ناشروها يفلوننا، يومياً، بمسجيدات باللغة الأهمية والشرق، يكاد لا يتاح لنا الوقت لقراءتها. وكان وكلاء مبيعاتها يأتوننا، في مواعيد دقيقة، بالكتب التي نرسي عليها، ونقلناهم كمبصرتي السعادة ومجرد التفكير في أن واحدة من دور النشر تلك يمكن لها أن تنشر عاصفة الأوراق. أوشك أن مزعزعني ويحدث في اختلالاً. فلم أكد أنني من توديع موتيس، وهو يسافر في طائرة مزودة بركود سليم، حتى هرعْتُ إلى الصحيفة، لأقوم بمراجعة صيغة أصول الرواية.

الكبت، بكامل جسدي، لمي الأيام القليلة، على تفحص مهروس النص يمكن له أن يخرج من بين يدي. ثم يمكن أكثر من مئة وعشرين صفحة، مطبوعة على الآلة الكاتبة بفراغ مزدوج بين السطور، ولكنني قمت بعمليات ضبط، وتبديل، واختلاق لم أعد أعرف معها إذا ما صار النص أفضل أو أسوأ مما كان عليه. أعاد خيرمان وألفونسو قراءة أكثر الأجزاء حساسة، وكانا طيحي القلب إلى أنهما لم يوجها إليّ ملاحظات ومحفظات لا خلاص منها. في تلك الحالة من الجزع، راجعت

النسخة النهائية، وروحي في يدي، واتخذت القرار بعدم نشرها. وسيصبح ذلك، في المستقبل، هوساً لدي. فكلما أحست بالرضى عن كتاب ناجز، يراودني شعور محزن بأنني سأكون عاجزاً عن كتابة آخر أفضل منه.

ولحسن الحظ، أن الشكوك واودت ألقارو موتيس حول سبب تأخري. خرج إلى ياراتكيا، ليأخذ نسخة الأصل الوحيدة المبيعة، ويرسلها إلى بونينس آيرس. دون أن يتيح لي الوقت لقراءة أخيرة. لم يكن التصوير الفوتوكوي التجاري قد وجد بعد. وكان الشيء الوحيد المتبقي لدي، هو المسودة الأولى المصححة، على الهوامش وبين السطور، بأحبار متنوعة الألوان، تنفادي البلية والاختلاط. ألقيت بتلك المسودة إلى القمامة، ولم أتمد الطمأنينة على مدى أكثر من شهرين، تطلبهما تلقي الجواب.

وفي أحد الأيام، سلموني في الهيرالدو، رسالة كانت قد اختلطت بأوراق أخرى، على متضدة رئيس التحرير، جيمس لمي مرأي عثران دار نشر لوسادا في بونينس آيرس، على المظلة، ولكن الحساء منعني من فتحها هناك بالذات، فلم أفضل إلا في حبيبتي الخاصة. وبفضل تصرفي هذا، واجهت دون شعور، الحبر المتضرب بأن عاصلة الأوراق قد رُفِضت. ولم أجِد نفسي مضطراً إلى قراءة الحكم كاملاً، لأشعر بالصدمة القاسية، في تلك اللحظة، وباحساسي بأنني سأموت.

كانت الرسالة هي القرار الصامي للسيد شيبيرمو توزي، رئيس مجلس إدارة النشر، مدعماً بمجموعة من الحجج البسيطة التي برهن فيها تفخيم، وكفاة، وخطابة أناس فشتالة البيض. وكان الغراء الوحيد هو التساهل الأخير المفاجئ: لا بد من الاعتراضات للمؤلف، بما فيه

الاستثنائية في كراصد وشاعر". ومع ذلك، ما زلت أفاجا حتى اليوم، بصرف النظر عن ذهولي وخجلي، بأن أشد الاعتراضات فجاجة، تبدو لي مناسبة.

لم أحتفظ قط، بنسخة من الرسالة. ولم أدر أين صارت بعد أن تداولها، طوال عدة شهور، أصدقائي في بارانكيثا الذين لجؤوا إلى كل أنواع المبررات البهيمية، في محاولة التورية عني. والحقيقة أنني عندما حاولت الحصول على نسخة من الرسالة، من أجل توثيق هذه المذكرات، بعد انقضاء خمسين سنة، لم يجدوا لها أثراً في دار النشر في برنيس آيرس. لست أدري إذا ما كانت قد نُشرت كخبر، ولم أنني لم أحاول أن تكون خبراً قط. ولكنني أعرف أنني احتجبت إلى وقت لا بأس به، كي أستعيد حماسي بعد أن نهجت على هواي، وكتبته رسالة شياضية، نُشرت دون إذن مني. وقد سب لي سوء الائتمان ذلك، حزناً كبيراً، لأن رد فعلي النهائي كان استغلال ما هو مفيد في الحكم، وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه، وفق وجهة نظري، والمواصلة قدماً.

أفضل تشجيع هو الذي ولّاه لي خيرمان بارغاس، وألفونسو فونسيمايور، والفارو سيبينا. لقد وجدت ألفونسو في إحدى حلقات السورس العام، حيث اكتشف واحدة للمقارنة وسط جلبة حركة الشجار. استنصرته إذا ما كان عليّ، ترك روايتي على حالها، أم أنه يتوجب عليّ إعادة كتابتها في بناء جديد. ولا سيما أنني كنت أرى أنها تقتقد، في نصفها الثاني، الزخم الذي يحدو نصفها الأول. استمع ألفونسو إليّ، بشيء من نفاذ الصبر، وأصدر لي حكمه:

- انظر يا معلم - قال لي أخيراً، كمعلم بكل معنى الكلمة -

السيد غيبرمو دي تورّي، شخص محترم جداً إلى الحد الذي يقضه هو نفسه، ولكنه لا يبدو لي مطلقاً قاماً على ما وصلت إليه الرواية اليوم.

وفي معادلات خرفاء، أخرى في تلك الأيام، وجدت العزاء في سابقة أن غيبرمو دي تورّي كان قد رفض، من قبل، أصول ديوان إقامة في الأرض ليايلو نيرودا، عام ١٩٢٧. وكان فونسيمايور يفكر في أن مصير روايتي سيكون مختلفاً، لو أن من قرأها هو غيورخي لوبس بورخيس؛ ولكن الضرر سيكون أكبر أيضاً لو أنه هو الذي رفضها.

وانتهى ألفونسو فونسيمايور إلى القول:

- ولهذا، دعك من الإلحاح والإزعاج، فروايتك جيدة مثلما بدت

لنا، والتي، الوحيد الذي عليك عمله، منذ الآن، هو مواصلة الكتابة. أما خيرمان - التوفي لأسلوبه المرن - فقد طلب مني أن أقدم المعروف بعدم المبالغة، وكان يفكر في أن الرواية ليست جيدة إلى حد عدم الموافقة على نشرها، في قارة يعاني فيها هذا الجنس من أزمة، وليست جيدة إلى حد إثارة فضيحة دولية، المحاسن الوحيد فيها سيكون كاتباً مبتدئاً وصحيفياً. بينما لحص الفارو سبيدا حكم غيبرمو دي تورّي بواحدة من عباراته المزهرة:

- المسألة هي أن الإنسان أناس شديدو الغلظة.

وعندما انتهت إلى أنني لا أملك نسخة مبسطة من الرواية، أعلمتني دثر النشر لوسادا، عبر شخص ثالث أو رابع، أنها وفق أنظمتها، لا تعيد النصوص الأصلية إلى أصحابها، ولحسن الحظ أن خوليو سيسر بييتاس كان قد استنسخ نسخة قبل إرسال نسختي إلى برنيس آيرس، فأوصلها إليّ، عكفت عندئذ على تصحيح جديد

بالاستناد إلى النتائج التي توصل إليها أصدقائي. ألفت مقطعاً مطرلاً عن البطلة التي تتأمل من عمر أزهار البجونيا. وابل مطر يستمر ثلاثة أيام. وهو المقطع الذي تمحور، فيما بعد، إلى القصة القصيرة "مونولوج لإيزابيل وهي ترى عطول المطر في ماسكونيو". وحذفت حواراً غير ضروري للجدد مع الكولونيل أوريليانو بونديا. قبل مذبحة شركات الحوز. وحوالي ثلاثين صفحة تنويع، شكلاً ومضموناً. البناء الموحد للرواية. وبعد عشرين سنة من ذلك تقريباً، حين كنت أظن أنني قد نسيتها، ساعدتني أجزاء من تلك المقاطع، في تدعيم حالات الخنين، على طول مئة عام من العزلة وعرضها.

كنت على وشك تجاوز الصدمة، عندما نشر الأخير القائل إن الرواية الكولومبية التي اختيرت للنشر، بدل روايتي، في دار نشر لوسادا، هي رواية إدواردو كاليبرو كالدبرون "السبح مولياً لهذه". لقد كان خطأ أو حقيقة تترسو، نية، لأن المسألة لم تكن مسافة، وإنما برنامج دار النشر لوسادا من أجل الدخول إلى السوق الكولومبية بولفين كولومبيين. وروايتي لم تُرفض في منافسة مع رواية أخرى، وإنما لأن غير صوفي توري لم يجد لها صالحة للنشر.

طاش صواحي أكثر مما اعتدت به أنا نفسي آنذاك. ولم أجد الجرأة على معاناة ذلك الوضع، دون أن أقتنع نفسي به. ولهذا سقطت. دون إشعار مسبق، على صديقي منذ الطفولة، لوس كارميلو كورثيا، في مزعة الموت في ميبيا - على بعد بضعة فراسخ عن كاتاكما - حيث كان يعمل في تلك السنوات مراقباً للطقس، ومراجع ضرائب. وبقينا يومين نسترجع مرة أخرى، كما هي عادتنا، طفولتنا المشتركة. كانت ذاكرته،

ونهايته، وصراخه نهد لي كاشفة إلى حد تسبب لي شيئاً من الرعب. وبينما نحن نبادل الحديث، كان يقوم، مستخدماً جنتوق عدته، بإصلاح أعطال البيت، بينما أنا أستمع إليه من أرجوحة نوم نهزها نسيمات المزمار الخفيفة. وكانت زوجته، نينا سانشيث، تصنع هذياناً لنا ونسياناً، وهي توث من الضحك، في المطبخ، وفي النهاية، في جولة مصالحة في شوارع أراكاتاكما المقفرة. أدركت إثر أي حد كنت قد استعدت صحتي المخوية. ولم يبق لدي أدنى شك في أن عاصفة الأوراق - سواء أوقفت أم لم ترفض - ليست الكتاب الذي نويت كتابته بعد الرحلة مع أمي.

ومتحمساً بملك النجربة، ذهبت بحثاً عن والمائيل إسكالونا في فردوسه في بايبيدوبار، محاولاً التفتيح عن عالمي حتى الجفون. لم أحتاجاً، لأنني أحسست أن كل ما وجدته، كل ما كان يحدث، وكل الناس الذين عرفوني عليهم، هي أمور تبدو، كما لو أنني قد عشتها، ليس في حياة أخرى، وإنما في الحياة التي أعيشها، في ما بعد. في واحدة من رحلاتي الكثيرة، تعرفت على الكولونيل كليمنتي إسكالونا، والد والمائيل، الذي أدهشني منذ اليوم الأول، بولائه وسلوكه كبطيريك على الطريقة القديمة. لقد كان نبيلاً ومستقيماً كفصية باصو، له بشرة مبرقعة وعظام منبسة، ويستمتع بفراق تجاوز كل التجارب. لقد لاحظت، عند صباه، موضوع اللهفة والوقار اللذين انتظر بهما جدائي حتى نهاية حياتيهما الحديثة، تقاعد المحارب القديم. ومع ذلك، عندما كتبت أخيراً، الكتاب في فنلق لديهم في باريس، بعد مرور أربع سنوات، لم تكن الصورة الراسخة في ذهني، طوال الوقت هي صورة جدي. وإنما صورة دون كليمنتي إسكالونا، كإعادة جديدة للكولونيل الذي لا يمكنه أحد.

عرفت من الماتيل إسكالونا أن ماتويل ثاباتا أوليفيا قد استقر كطبيب فقرا في بلدة لاهاث، على بعد كيلومترات قليلة من بايدوبار. فذهبا إلى هناك. وصلنا عند الغروب، وكان هناك في الجو، شيء خائق يضيق أنفاسي. ذكرني ثاباتا وإسكالونا بأن القرية وقعت، قبل حوالي عشرين يوماً، ضحية هجوم شنته الشرطة التي كانت تزرع الرعب في المنطقة، لتفرض الإرادة الرسمية. لقد كانت ليلة رعب، قتلوا الناس دون تمييز، وأضرموا النار في خمسة عشر بيتاً.

ولم نعرف تلك الحنيضة بسبب الرطوبة الخدمية. ومع ذلك، لم نضع لي الفرصة أنناك لتصورها. كان خوان لم يمت، أفضل موسيقي في المنطقة، لم يغادر دون عودة، منذ الليلة السوداء. وقد طلبنا من أخيه الأصغر بابلو، في بيته، أن يعزف لنا شيئاً. فقال لنا ببساطة حاسمة:

- لن أعود إلى الغناء في حياتي، إلى الأبد.

عندئذ علمنا أن جميع موسيقي البلدة، وليس هو وحده، قد خيروا أكوردوبوناتهم، وطبولهم، وآلاتهم الموسيقية الأخرى، ولم يهذبوا إلى الغناء، حزناً على موتهم. لقد كان ذلك مفهوماً، حتى إن إسكالونا نفسه الذي كان معلم كثيرين، وثاباتا أوليفيا الذي بدأ يصور طوبى الجميع، لم يتسكنا من جمل أحد بأن يعزف.

حبال الجحاش، توافد الجيران ليمرضوا ميواتهم، ولكنهم كانوا يشعرون، في أعماق روحهم، بأنه لا يمكن للعدد أن يستمر أكثر. هنا يبدو كما لو أن أحفادنا قد مات مع من ماتوا، فالت ذلك امرأة تضع وردة حمراء على أذنها. وقد أهدنا آخرون، عندئذ أحمر بابلو ثوبيت بأنه مخوف بأن يلوي عنق أمزانه، إذ دخل إلى بيته دون أن يقول كلمة واحدة.

وخرج منه جاعلاً الأكوردبون. غنى، كما لو يغنى قط. وبينما هو يغني، بدأ موسيقيون آخرون بالتوافد. ففتح أحدهم الحانة المشايمة وقدم شراباً على حليمه. وما لبثت الحانات الأخرى أن شرعت أبوابها، بعد شهر من الخناد، وأضيت الأتوار، واستقرنا جميعاً في الغناء. بعد نصف ساعة من ذلك، كانت القرية بأسرها تغني. وخرج في الساحة المقفرة أول مضموم منذ شهر، وراح يغني بأعلى صوته، إحدى أغنيات إسكالونا، مهداة إلى إسكالونا نفسه، تذكيراً لمجزته في بحث الحياة في القرية.

لمس الخط، أن الحياة كانت تتواصل في بقية العالم، وبعد شهرين من رفض أصول روايتي تزلزلت على خوليو سبسر بهيفاس، وكان له قطع علاقته بنار تشرلوسادا، وعُين محلاً في كولومبيا لدار النشر غرنثال بورنو، المتخصصة في بيع موسوعات وكتب علمية وتقنية، بالتقسيم. لقد كان بيبفاس أطول الرجال قامة، وأقوامه بنية، والأوسع حيلة في مواجهة أسوأ عشرات الحياة الواقعية. وكان مستهلكاً مفرطاً لأغلى أنواع الويسكي ثناً، ومحدثاً لا سبيل للتهرب منه، ورواية بارعا لحكايات الصالونات. في ليلة لقائنا الأول، في الجناح الرئاسي في فندق برادو، خرجت مشعرا، وأنا أحمل حقيبة بائع متجول متربة بنشرات دعائية وغاذج من موسوعات مصورة. وكتب في الطب والحقوق والهندسة. من مطبوعات دار نشر غونثال بورنو. فقد وافقت، منذ كأس الويسكي الثاني، على التحول إلى بائع كتب بالتقسيم، في مقاطعة باديبيا، ابتداءً من بايدوبار حتى غواخيرا، وكان مكسبي هو سلطة تدفع ثغماً بقيمة عشرين بالغة من المبيعات، يجب أن تكفيني للعيش دون ضائقات. بعد دفع ثقتاتي، بما في أجرة الفندق.

هذه هي الرحلة التي حوكتها أنا نفسي، إلى أسطورة مسمية
نقيضتي غير القابل للإصلاح في عدم تقدير أهدائي في الوقت
المناسب. الأسطورة هي أنه جرى التخطيط للرحلة، على أنها حملة
خرافية للبحث عن جلوري في أراضي أسلاك، متتبعا الطريق
الرومانسي نفسه الذي قطعتة أمي عندما اقتادتها أمها لإبعادها عن
عامل تلفزيون أراكاتاكا. والحقيقة أن رحلتي لم تكن واحدة، وإنما
برحلتين لصيرتين جدا وظائفتين.

ولم أرجع في الثانية منهما إلا إلى القرى المحيطة ببايبيديار،
وعندما حسرت هناك، كنت قد مررت مسبقا بالطبع، أن أوصل قدمي.
حتى رأس بيلا، على الطريق نفسه الذي اجتازته أمي العاشقة. ولكنني
لم أصل إلا إلى ماناوري دي لا حبيرا، ولايث، وبيبانوفيا، على بعد
فراخ قليلة من بايبيديار، لم أعرف أنذاك على مان غوان دي سيرا،
ولا على بارانكاس، حيث تزوج جفاي روگدت أمي، وحيث قتل
الكولونيل نيكولاس صاركيز مبدراو بانسيكو. ولم أعرف على
ريوهانشا، وهي جيتن فجلتي، حتى عام ١٩٨٤. عندما أرسل الرئيس
بيلساريو هيتانكور من بورغوتا، جماعة من الأصدقاء المدعومين لانتفاخ
مناجم الحديد في تيريمون. كانت تلك هي رحلتي الأولى إلى غواخيرا،
غواخيرا، المشغلة، التي بدت لي أسطورة مثلما وصفتها في مرات
كثيرة. قبل أن أعرف عليها. ولكنني لا أهن أن السبب هو ذكرى ماني
الرائفة. وإنما ذاكرة الهنود الذين كان جدي يشترى كل واحد منهم بمئة
بيزو من أجل الخدمة في بيت أراكاتاكا. وكانت مغالطتي الأولى، بكل
تأكيد، هي رؤيتي الأولى لريوهانشا، مدينة الرمل والملاح، حيث ولد

أسلاكي منذ جدي الثالث، وحيث رأت جدتي عبادة المعجزات تطلق
الفرق بنفخة جليمة، حين أوشك خبزها أن يحترق، وحيث خاض جدي
حريمه وعانى السجن بسبب جريمة غرامية، وحيث جلت بي أمي خلال شهر
عسل أبيي.

لم يتبع لي كثير من الوقت لبيع الكتب في بايبيديار، كنت أسكن
في "تندق وبلغم"، وهو بيت كولونسيالي بديع مُحْتَفَظ به في إطار
الساحة الكبرى. في فناءه صف طويل مشمسيك من أشجار التنخيل،
ومراتب حانة خشنة، وأواجم نوم معلقة بأعمدة الدعائم. وكان صاحب
المحل، فيكتور كوين، يحرس نظام البيت كأنه سريبر^(١)، مثلما يحرس
مسمعة الأخلاقية التي يتهددها الغرباء المهتكون. وكان في الوقت
نفسه، من دعاة نقاء اللغة، ينشد لبرمانتس عن ظهر قلب، بلا ذات
قشالبة، وي طرح أخلاقيات غاربا لوركا على بساط البحث. وقد ألقت
علاقة طيبة معه لتعلمه في أعمال أندريس بيبو^(٢)، وإلقائه الصاوم
لقصائد الرومانسيين الكولومبيين؛ وعلاقات سيئة جدا، كذلك، لهوسه
في صنع مخالفة الأنظمة الأخلاقية في أجواء الفندق المظفرة. ولد بدأ
كل ذلك بصورة بالغة السهولة، لكونه صديقا قديما لخالي غوان دي
ديوس، مسعده استحضار ذكرياته عنه.

لقد كان فناء الفندق بالنسبة لي، ضريبا من البانصبية، لأنني كنت

(١) - سريبر Cerbero أو Canerbero، في الأساطير الإغريقية، وحش جسم كلب، له
ثلاثة رؤوس ووجه قبيح وأنياب مسمومة، يحرس مدخل الجحيم.

(٢) - أندريس بيبو Andres Bello، كاتب وفيلسوف وسياسي أمريكي لاتيني، ولد في
كاراكاس (١٧٨١)، وتوفي في سبيلغو دي تشيلي (١٩٨٠)، أسس جامعة تشيلي،
ووضع قانون الأحوال المدنية في تلك البلاد.

ألفني فيه الساعات الطويلة الفاتضة، وأنا أقرأ في أرجوحة نوم، تحت قبض الظهيرة. وقد وصل بي الأمر في أيام السحب، إلى أن أقرأ ابتداء من أبحاث في الجراحة وحتى مراجع في المحاسبة، دون أن يخطر لي أنها متباعدة فيما بعد، في مسامراتي ككتاب. كان العمل يجري بصورة تلقائية تقريباً، لأن معظم الزمان كانوا يجرّون بطريقة ما من غريال آل إغزواران أو آل كوتيس، فكانت تكنيقي ذليلة، تمتد حتى صرحه الضياء، استحضرت خلالها حيلاً أسيرة. وكان البعض يوقعون العقد دون قراءته، لكي تصل في الوقت المناسب، إلى حيث مقبلة أفراد القبيلة الذين ينتظروننا، لتناول الفساء. في ظل الأكوارد يونات. وما بين باينديوار ولايات، جنيت محصولي الوفير خلال أقل من أسبوع، ورجعت إلى بارانكيلا وأنا أشعر، مشائراً، بأنني كنت في المكان الوحيد في العالم الذي أفهمه حقاً.

يوم الثالث عشر من حزيران، وبينما أنا ذاهب في الصباح الباكر في الحافلة، إلى مكان لا أدري ما هو، علمت أن القوات المسلحة قد استولت على السلطة، بسبب الضرب التي تسود الحكومة والبلاد بأسرها. ففي السادس من أيلول من السنة السابقة، قامت زمر من المحافظين، في بوغوتا، بإضرام النار بجيني النيسو ولاسيكثادور، أهم صحيفيين في البلاد، وهاجمت بالرصاص، منزل الرئيس السابق ألفونسو لوبيث بوسا، وكارلوس بيراس ومستريلو، رئيس إدارة الحزب الليبرالي. وقد تمكن هذا الأخير، المعروف كساي صام الطبايع، من تبادل إطلاق النار مع المهندسين عليه. ولكنه اضطر في النهاية إلى الهرب عبر بيت مجاور. وكانت حالة الضف التي تعاني منها البلاد منذ

التاسع من نيسان، قد صارت لا تطاق، وقلت على تلك الحال، حتى فجر الثالث عشر من حزيران، عندما أقدم الجنرال فوستافو روخاس بينييا على إخراج الرئيس المكلف، روبرتو أوربانيتا أوبيلايث، من القصر. عندئذ قام لاوريانو غرويث، الرئيس الوصي الذي كان يتم بتقاعد طبي، باستعادة القيادة، وهو على كرسي ذي عجلات، بترتيب من أطبائه. وحاول القيام بانقلاب على نفسه، وعاصمة الحكم خلال الخمسة عشر شهراً المتبقي على انتهاء ولايته الدستورية. ولكن الجنرال روخاس بينييا كان قد استولى، مع أركانه العاصم، على السلطة، لمحافظة على تسكك بها.

جاء التأييد الوطني فوراً وإجماعاً لقرار الجمعية التأسيسية التي أضفت الشرعية على الانقلاب العسكري. ووُكي الجنرال روخاس بينييا السلطات حتى نهاية الفترة الرئاسية، في شهر آب من السنة التالية، بينما سافر لاوريانو غرويث مع أسرته إلى بينيديوم، على الساحل الشرقي الإسباني، مخلّفاً وراءه الانطباع الواهم بأن أزمته عضبه قد انتهت. أعلن الزعماء الثقلديون الليبراليون تأييدهم للمصالحة الوطنية بنقله إلى محازيمهم الذين امتشقوا السلاح في كل أنحاء البلاد. والصورة ذات المفزى الكبير التي نشرتها الصحف في الأيام التالية، هي صورة الليبراليين الظلميين الذين غنوا من سيناو عشاق، تحت شرلة الخدع الرئاسي. وقد ترأس ذلك التكريم دون روبرتو غارسيا بينييا، مدير جريدة إلتيمو، وأحد أشد المعارضين للنظام البائد.

غير أن الصورة الأكثر وقعاً وتأثيراً في تلك الأيام، هي صورة رجل وجال حرب العصابات الليبراليين اللاتماهي. وهم يسلمون أسلحتهم في

المهروب الشرقية، يقودهم غوادالوبي سانشيدو الذي لمست صورته يصق، كقاطع طريق رومانسي، قلوب الكولومبيين المعذبين بالعنف الرسمي. لقد كانت سلاطة جديدة من رجال حرب العصابات المناهضين للنظام المحافظ؛ اعتُبروا بطريقة ما، بقية متأخرة من حرب الألف يوم، وكانوا يقبسون علاقات ليست سرية بأي حال، مع القادة الشرعيين للحزب الليبرالي.

كان على رأسهم، غوادالوبي سانشيدو قد أشاع لنفسه، في كل مستعمرات الهلاك - بين الموالين والمعارضين - صورة أسطورية جديدة. وربما لهذا السبب، وبعد سبع سنوات من احتلاله، جرى قتله بالرمح على يد الشرطة، في مكان ما من بوليفيا، لم يحدد بدقة قط؛ مثملاً ثم تقضح هروف موته بصورة مؤكدة.

التاريخ الرسمي هو السلاس من حزيران ١٩٧٧ - وقد أودع الجثمان، في احتفال رسمي مهيب، في مدفن مرقم في مقبرة بوليفيا المركزية، بحضور سياسيين معروفين. ذلك أن غوادالوبي سانشيدو، ومن مراكز قياداته الحزبية، احتفظ بعلاقات ليست سياسية وحسب، وإنما اجتماعية أيضاً، مع قادة الانحياز الليبرالي المنكوب. ومع ذلك، هناك لسانتي روايات مختلفة، على الأقل، حول موته، ولا يخلو الأمر من غرابتين، أي تلك الفقرة وفي هذه، ما زالوا يتساوون إذا ما كانت الجملة هي جثته حقاً، وإذا ما كان مدفوناً فعلاً في المدفن الذي وري جثمانه فيه.

بتلك الحساسة المعنوية، انطلقت في رحلة الأعمال الثانية إلى بوليفيا، بعد التأكد مع بيهفاس، من أن كل شيء يسير على ما يرام. ومثلاً في المرة السابقة، أجهزت مبيعاتي بسرعة كبيرة، في بايديوار،

مع زبائن مقتنعين بالشراء. سبقاً، ذهبت مع رافائيل إسكالونا وبانتشو كورتيس إلى بيكينوفا، ولايات، وبانيال، وماناوري دي لا سيبرا، لزيارة أطباء بيترين ومهندسين زراعيين. وكان بعضهم قد تحدث مع بعض من اشترىوا الكتب مني في الرحلتين السابقتين، وكانوا ينتظرونني بطلبيات خاصة. وقد كانت أي ساعة من اليوم، مناسبة لإقامة حفلة مع الزبائن أنفسهم ورفاقهم المرحين. فبطلع علينا الفجر، ونحن نقضي مع كبار عازقي الأكورديونات، دون الإخلال بأية التزامات أو وقفات مستحقة؛ إذ كانت الحياة اليومية كانت تواصل إيقاعها الطبيعي، لي حسي المريدة. كنا في بيهانويفا مع عازف أكورديون وقارع طبل، يبدو أنهم أطفال بعض من كنا نسمع إليهم في طفولتنا في أراكاتاكا. وهكذا تكشف لي في تلك الرحلة، إن ما كان إدماًناً طفولياً، هو مهنة طليعة سترافني إلى الأبد.

في هذه المرة تعرفت على ماناوري، قلب سلسلة الجبال، وهي قرية بدوية وهادئة، وتاريخية في الأسرة، لأنهم أطلقوا إليها أسمى للاستشفاء، وهي طفلة، بعد إصابتها بحصى ثلاثية لم تنجح معها كل أنواع العقاقير، وكنت قد سمعت الكثير عن ماناوري، عن أصميتها في أيار، وعن صباهة العلاج، حتى إنني لاحظت عندما ذهبت إليها للمرة الأولى، أنني أتذكرها، كما لو أنني عرفتها في حياة سابقة.

كنا نتناول بيرة مثلبة في حانة القرية الوحيدة، عندما دنا من متحدثنا، رجل يبدو كأنه شجرة، يضع طماق خيال، ويحلق على خصره مسجماً خرياً. قام رافائيل إسكالونا بتعريف أحدنا على الآخر، فأمعن الرجل النظر إلى عيني، وهو ما يزال يحسك بيدي، ومأثني:

- هل لك علاقة بالكونلونيل نيكولاس ماركيز؟

فقلت له:

- إنه جدي.

فقال:

- جدار هذا إذن، هو من قتل جدي.

هذا يعني أنه حفيد مبادرو باتشيكو، الرجل الذي قتله جدي في مبارزة صريحة، ثم فتح لي الوقت للفرح، لأنه قال ذلك بنبرة دافئة جداً. كما لم أن القتل هو أيضاً طريقة للارتباط بحلة قرابة. بقينا معه في حافلة سكر استمرت ثلاثة أيام قبلنا فيها، في شاحنة محمول الأحياء التي يملكها، نشرب براندي ساخنًا ونأكل مانكوتشو لحم جديان، نكرهاً للذكرى جدينا الميتين. وقد انقضت هذه أيام قبل أن يعترف لي بالحقيقة: إذ كان قد اتفق مع إسكالونا على إخافتي، ولكن لم يطلعه على مواصلة دعايات المجددين الميتين. والواقع أن اسمه كان خوسيه برونشيو أغيلار. وكان عمله مهرباً، وهو شخص مستفهم وطيب القلب. وتكرهاً له، وكبلاً يكون أكل مكانة. عشت باسمه المحصم الذي قتله خوسيه أركاديو برونديا بحرية في مهبط صراع الديكة، في رواية مئة عام من العزلة.

أما الأمر السيئ، فهو أن الكتب التي بعثها، لم تكن قد وصلت بعد، عند انتهاء رحلة الحنين تلك. ولا يمكن لي دون وصولها، أن أقبض سلفتي. لم يبق معي قلب واحد، بينما كان حساب الفئق يتراد بسرعة أكبر من لبائي المحسومة. وبدأ فيكتور كوين يفقد الصبر القليل المتبقي لديه، بسبب الشائعات بأنني أبعد نفوذ دينه على بنات هوى حترديات.

وفي أوكار عريقة بالمتة. وكان الشيء الوحيد الذي يثبت في بعض الطمأنينة، هو الغراميات المعاكسة في مسلسل الحلق بالولادة، الرواية الإذاعية التي كتبها دون فيليكس ب. كاهنيت، وأنتجت الصلصة الشعبية التي أعدتها، أحلامي القديمة بأدب الصنوع. غير أن قراعتي غير المتوقعة لرواية جيمس جويس الشيف واليهو، التي وصلت فجأة في مجلة لايف بالإسبانية، جاءت لتشفيني من كتاباتي.

وفي البرد نفسه، وصلت شحنة الكتب التي علي تسليمها إلى أصحابها، كي أقبض سلفتي عنها. جميعهم دفعوا ما عليهم، لكنني كنت مديناً للفئق بضعف ما كسبته. وقد حلزني بيبغاس من أنني لن أحصل على أي شيء إضافي قبل مرور ثلاثة أسابيع. عندئذ تحدثت بجديفة إلى فيكتور كوين، ووافق هو على قبول إيصال بوجود ضامن بكفلي. ولأن إسكالونا وعصبته لم يكونوا في متناول يدي، فقد قدم لي تلك الخدمة صديق وفروته العناية الإلهية، دون أي التزام من جانبي، ولمجرد أنه أعجب بقصة لي منشورة في كرونিকা، ولكنني لم أستطع مع ذلك، أن أوقع شيئاً لأحد، عندما أزلت ساعة الحقيقة.

وقد صار ذلك الإيصال تاريخياً، بعد سنوات، عندما أظ فيكتور كوين يري لأصدقائه وزواره، ليس كوثيقة اتهام وإنما كفضيحة. وفي المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، كان عمره مئة سنة تقريباً، وكان منتصب القامة، صافي الذهن، ودين تفسير في مزاجه. وأثناء تعيد أحد أبناء أختي بالمصروية كونسويلو أراوخونوغيرا، وكنت عراكه، عدت لرؤية الإيصال غير المدفوع، بعد مرور قرابة خمسين سنة. فقد عرض فيكتور كوين على كل من رغب في رؤيته، بطرقه وتهذيبه المعهودين. وفاجأتني

دقة الوثيقة التي حوّلها هو نفسه، والإرادة الهائلة بالفتح والمعاد التي تتبدى في وقاعة تولقي. وقد احتفى به فيكتور في تلك الليلة. بأن رقص رقصه بأسير باثناو، يثائق كولونيالي. مثلما لم يرفضها أحد منذ سنوات فرانكيسكو الزجل. وفي النهاية شكرني أصدقائي كثيرون لأنني لم أدفع، في الموعد المحدد، قبضة ذلك الإرسال الذي أدى إلى تلكه الليلة التي لا تقدر بثمن.

كانت شعرة الدكتور بيفاس المخرقة الجميل المزد، ولكن ليس في ميدان بيع الكتب. فمن غير الممكن، نسيان البراعة التبهلة التي كان يثاور بها الدائنين، والسعادة التي كانوا يشفعون بها مبرراته كيلا يندفعوا في الوقت المناسب. وقد كان أكثر موضوعاته إغراء أنذاك. مرتبطاً برواية لقد أغلقوا الدروب، للكتابة الباراكسية أولفا سالفيدو دي ميدينا، التي أثارت ضجة اجتماعية أكثر منها أدبية، ولكن بمراتب محلية ضئيلة. وباستلهاهم لمباح المسلسل الإذاعي الحلق بالولادة الذي تابهته باهتمام متزايد، طوال شهر بكامله، فكرت في أننا نشهد ظاهرة شعبية لا يمكن لنا، نحن الكتاب، أن نتجاهلها. وقد طرحت الأمر على بيفاس، لدى عودتي إلى هايديبار، دون أن أذكر الدين المتوجب عليّ. فالتفت عليّ كتابة الاقتباس بكر يكفي لاجتهاد ثلاثة أعضاء جمهور المستمعين الواسع الذي تابع دراما فيليبكس ب. كاهنيت الإذاعية.

قمت باقتباس الرواية للإذاعة خلال أسبوعين من الاعتكاف. وقد بدوا لي أكثر كشفاً بكثير مما توقعته، لأنه كان عليّ تقدير الحوارات، وتدرجات التوتر، وتدرج مواقف وأزمنة متغلطة لا تشبه في شيء، كل ما كُتب من قبل. ولعند ختمتي في شتور الحوار - وهو ما زال نقطة

خصني - كانت التجربة مفيضة ومحمودة في التعلم، أكثر مما هي في الكسب المادي. ومع ذلك، ما كان بإمكانني أن أشكر في هذا الشأن الأخير أيضاً، لأن بيفاس دفع لي نقداً نصف الأجر مقدماً، ووعد بأن يعطيني من الديون المترتبة عليّ، مع حصوله على أول دخل من الرواية الإذاعية.

جرى التسجيل في إذاعة أتلانتسكو، مع أفضل توزيع محلي يمكن للأدوار، وبإخراج دون خيرة ولا إلهام، قام به بيفاس نفسه. ولأداء دور الراوي، تصحوه بهيرمان بارغاس، كمدبغ مختلف لشناقص بساطته واتزانه مع زعاق الإذاعة المحلية. وكانت المفاجأة الأولى في أن خيرمان والحق على العرض، أما المفاجأة الثانية فكانت في توصفه هو نفسه، منذ التشرين الأول، إلى استنتاج أنه ليس الشخص المناسب. عندئذ تولّى بيفاس نفسه مسزولية الراوي، بإلهامه الرتيب وصغير صوته الأنديزي الذي فرض تلك المضامرة المتهورة.

بُثت الرواية الإذاعية كاملة، تكتشفها الأحيان أكثر من الأمجاد، وكانت درساً بليغاً لطموحاتي المتعطشة إلى أن أكون رايّاً في أي جنس كتابي. حضرت عمليات التسجيل، وكانت تجري مباشرة على أسطوانة خام، وبإبرة محركات تغلف وراها خيوطاً دقيقة سرداء ولا معة، بكاه لمسها يكون متفراً، كما لو أنها شعر ملاك. وفي كل ليلة، كنت أحمل معي حفنة لا بأس بها من تلك الحبوب لأوزعها على أصدقائي، كغنيمة غنير صالوفة. ووسط تخطيط وعشرات لا حصر لها، جرى بث الرواية الإذاعية، على الهواء، في موعدها المحدد، ورافقتها حفلة هائلة من تلك التي يتبرز بها صاحب المشروع.

لم يستطع أحد أن يبتدع حجة مجاملة، بجمليتي أصدق معهما أن العمل قد أعجبه، ولكن السلسل الإذاعي اجتذب جمهور مستمعين لا بأس به، وقدرنا من الإعلانات كافيًا لإنقاذ ماء الوجه. وقد منحني أنا، لحسن الحظ، هبة جديدة لجنس كتابي بنا لي أنه ينطلق إلى أفاق لا يمكن توقع أبعادها. وقد بلغ إعجابي بدون قبله كسب. كما بقيت روياته الإذاعي، حد الإقدام على طلب مقابلة خاصة معه، بعد نحو عشرة أعوام من ذلك، حين كنت أقضي بضعة شهور في هافانا، كمحرر في وكالة الأنباء الكوبية "برنسا لاتينا". ولكن، على الرغم من كل المبررات والمجيب، لم يظهر لي قط. ولم يبق لدي منه سوى درس يلغى فرأته في مقابلة معه: "الغاس برغسون دوماً في الكفاء، والتي، الوحيد الذي أفعله أنا، هو أنني أوفر لهم الفرصة"، أما شعوراته بيقاس بالمقابل، فلم يفض إلى ما هو أبعد من ذلك. وقد تعقدت أمور أيضاً مع دار نشر غونثالث بورثو - مثلاً حدث له من قبل مع لوسادا - ولم تكن شدة طريقة لتصفية حساباتنا الأخيرة، لأنه تخلى عن أحلامه بالعظمة، لكي يعود إلى بلاده.

أخرجني أنفارو سيبيدا ساموديو من المطهر، بذكره القديمة في تحويل إلى التاسبونال إلى صحيفة حديثة كذلك التي نعلم صنعها في الولايات المتحدة. ولم تكن حتى ذلك الحين، باستثناء مساهماته القليلة لسي كرونيكا، وهي مساهمات أدبية على الدوام. قد أتاحت له فرصة ممارسة العمل بشهادته التي حصل عليها من جامعة كولومبيا (في نيويورك)، إلا بتعليقات مزعومة ونقدية يرسلها إلى سيوتوتق نيوز في سانت لويز، بولاية ميسوري. وأخيراً، في عام ١٩٥٣، قام صديقنا

خوليان دافيس إنشانديا الذي كان أول رئيس لأنفارو، باستدعائه لكي يتولى المسؤولية الكاملة عن جريدته المسائية إنشانديا. وكان أنفارو نفسه قد استحثه بالمشروع الفلكي الذي قدمه إليه لدى عودته من نيويورك. ولكن ما إن أمسك بالمستبدون^(١) حتى استدعاني لكي أضعه، دون ألقاب أو واجبات محددة، إذا بالراتب الأول المدفوع مقدماً، والذي كان يكفني لأن أعيش حتى دون أن أنقضاء كاملاً.

لقد كانت مقابلة فائقة. كان أنفارو قد أعد الحقة كاملة، بالاستناد إلى نماذج من صحف الولايات المتحدة. ومثلما الرب في الأعلى، بقي دافيس إنشانديا، أحد رواد الأزمنة البطولية للصحافة المحلية المضخمة، وأقل الرجال الذين عرفتهم قابلية لخل لغزه: طيب المولد وعاطفي أكثر مما هو وحيم. أما بلية المحررين فكانوا عن كبار الصحفيين الصداميين، من جاعة المصاد الياسل. وجسمهم أصداً - فيما بينهم، وزملاً - عمل منذ سنوات طويلة. وكان لكل واحد منهم، نظرياً، مداره المحدود غير أنه فيما وراء - انتظرياً، لم يُعرف قط من الذي جعل المستبدون التقني عاجزاً عن أن يخطر خطوته الأولى. الأعداد القليلة التي صدرت كانت نتاج عمل بطولي، إذا لم يُعرف قط من الذي كان ينجز ذلك العمل. فني موعود إدخال صفائح الزنكوخراف إلى الطباعة، لهدا ملحظة بالشحم، أو تخفي لثواد المستحيلة فجأة، ويسطر علينا، نحن الغيورين، جزين الفضل. لا أنذكر مرة واحدة خرجت فيها الجريمة في موعدها، ودون إشكالات تسببها العفاريات القابعة في الطباعة. لم يُعرف قط، ما الذي كان يحدث. وربما كان التفسير الذي شاع هو الأقل توقفاً: لم يستطع

(١) المستبدون - خوان مفرط فيه بالليل.

بعض قديما ، المحررين المتحشبين التماسيح مع ذلك النظام التجديدي ،
فأقاموا مع تواتم أرواحهم إلى أن تمكنوا من تخريب المؤسسة .

غادر ألفارو الجريدة صافقاً الباب وراءه . أما أنا فكنْتُ مرتبطاً
بعقد عمل يمكن له ، في الظروف العادية ، أن يكون ضماناً لي . ولكنه
في تلك الظروف السيئة ، كان أشبه بقيد . وفي نلهفي لاستغلال الوقت
الضائع ، حاولت أن أولف ، بالسرعة التي تتحها الآلة الكاتبة ، أي شيء .
نافع من المواد غير المكتملة المنفية لدى من محاولات سابقة . نف من
"البينة" ، محاكمات مرمية لغوكر من نور في آب ، ومن وإهل مطر
عصافير نانانيل هوثون المبتة ، ومن القصص البوليسية المكرورة التي
أضجرتني ، ومن بعض الكدمات المتبعية في من الرحلة مع أبي إلى
أراكاتاكما . تركت كل ذلك يتدلق على هواء في مكتبي المظلم ، حيث لم
يبق سوى المنضدة المقشرة ، وآلة الكتابة التي على آخر نفس . إني أن
وصلت في نفس واحد إلى العنوان النهائي : "يوم بعد السبت" . وهي
قصة أخرى من قصصي القليلة التي رويت عنها منذ نحتها الأولى .

حاصرني في إناسبرنال بائع ساعات معصم متجول . لم أكن قد
اقتنيت واحدة لطء ، لأسباب واضحة في تلك السنوات . وكانت الساعة
التي عرضها عليّ فأخرة جيداً وشالية السنن . وقد أعترف لي ببيع
الساعات نفسه آنذاك ، بأنه عضو في الحزب الشيوعي . مكلف ببيع
ساعات كطعم لاصطياد عمولين للحزب . وقال لي :

- هذا يشبه شراء الثورة بالنقشيط .

فأجبت عليه بنية :

- الفرق الوحيد هو أنكم تعطونني الساعة فوراً ، أما الثورة فلا .

لم ينظر البائع برضى كبير إلى دعائمي السيئة ، وانتهى بي الأمر
بإثر شراء ساعة أرخص ثمتاً ، لكي أرتديه فقط . وينظام أفساط يأتي هو
ليستقاضه كل شهر . كانت تلك هي أول ساعة امتلكتها ، وكانت بالغة
الدقة والديمومة . حتى إني لا زلت أحتفظ بها كلقبة أثرية من تلك
الأزمنة .

في تلك الأيام ، عاد ألفارو موتيس حاملاً خبر تخصيص شركته
ثيزانية كبيرة من أجل تنشيط الثقافة ، والظهور الرشيد لمجلة المصباح ،
لسان حالها الأدبي . وعندما دعاني إلى المشاركة في المجلة ، اقترحت
عليه مشروعاً مستعجلاً : أسطورة "لاسييري" . فكرت في أنه إذا ما
كان علي أن أرويها في أحد الأيام ، فيجب ألا يكون ذلك عبر أي كتابة
خطابية ، وإنما باستخراج الأسطورة من المخيلة الجماعية ، مثلما هي عليه :
حقيقة جغرافية وتاريخية . هذا يعني أن تتحول - أخيراً - إلى رومانساج
صحفي عظيم .

فقال لي موتيس :

- افعل ما يخرج منك من أي مكان . ولكن انجزه ، فهذا هو الجوهر
والإيقاع اللذان نبعت عنهما للمجلة .

وعدته بتسليمه الموضوع بعد أسبوعين . وقبل أن يذهب إلى المطار ،
اتصل بمكتبه في بوغوتا ، وأمر بأن يُدفع لي الكالاء مقدماً . الشيك
الذي وصلني بالبريد ، بعد أسبوع ، أفقدني أنفاسي . وأكثر من ذلك ،
عندما ذهبت لصرفه . فقد أقلق مطهري أمين الصندوق في المصرف .
فأدخلوني إلى مكتب أعلى مرتبة . حيث سألني مدير بالغ اللطف ، أين
أعمل . أجبت بأنه في الهيرالدو ، وفقاً لصادني في الرد . وإن لم

يكن جوابي صحيحاً في ذلك الحين. لا شيء سوى ذلك. ففحص المدير الشيك على متصفده. أمعن النظر إليه بإحساس بعدم الثقة الشخصية، ثم أصدر حكمه أخيراً:

- إنها وثيقة صحيحة تماماً.

في مساء ذلك اليوم بالذات، وبهتسا كنت أهدأ في كشابة "الاسبيري"، أخبروني بأن هناك اتصالاً من المصرف، وتوصلت إلى التفكير في أن الشيك لم يكن سليماً لسبب من الأسباب الكثيرة المحتملة في كولومبيا، ولم أكن قد اطلعت بعدُ، العقدة التي تشكلت في خلقي، عندما اعتذر لي موظف المصرف، بإيقاع الأنديزين الرتيب، بأنه لم يعرف في الوقت المناسب، أن المصور الذي فحص قصعة الشيك هو كاتب "الزرافة" نفسه.

رجع موتيس مرة أخرى في نهاية تلك السنة. ولم يكد يتفقون الغدا، وهو يسعى لمساعدتي على التفكير في طريقة مستقرة ودائمة، لكي أكتب أكثر دون تعب. والفكرة التي وجدتها أفضل من سواها، ونحن نتناول التحلية، هي إخبار آل كاتو بأنني سأكون تحت تصرف الاسبيكتادور، وإن كنت ما تزال أشعر بالقسومية لمجرد فكرة العودة إلى بوغوتا. ولكن ألفارو لم يكن يحرف الهدوء ولا التراجع عندما يتعلق الأمر بمساعدة صديق.

- فلنتفق على أمر - لال لي -، سأرسل إليك تذكرة السفر لكي تلعب إلى بوغوتا، عندما نشاء وكيفما تشاء، لكي ترى ما الذي يمكن أن يخطر لنا.

كان العرض أكبر من أن أرفضه. ولكنني كنت واثقاً من أن آخر

طائرة في حياتي، هي تلك التي أخرجتني من بوغوتا، بعد التاسع نيسان. أخف إلى ذلك أن المكافأة المضطلة التي تلقيتها عن الرواية الإذاعية ونشر الفصل الأول من "الاسبيري" بصورة بارزة، في مجلة "المصباح" أتاحت لي توفير أجر بعض النصوص الإعلانية، مما مكّني من إرسال زورق مجدة إلى الأسرة في كارتاغينا. ولهذا قاومت مرة أخرى، إغراء الانتقال إلى بوغوتا.

حدثني ألفارو سبيدا، وخيرمان، وألفونسو، وعظم رواد متهمي جاني وروما، بإطراء عن "الاسبيري" عندما نُشر الفصل الأول منها في المصباح. وكانوا متففين على أن الصيغة المباشرة للربووناج، هي الأكثر ملاءمة للموضوع الذي كان على الحد المخرج لما يمكن تصديقه. وقد قال لي ألفونسو يومذاك، بأسلوبه بين الجد والهزل، شيئاً لم أنسه قط: "لأن الصدائفة، يا عطشي العزيز، تعتمد إلى حد كبير، على الوجه الذي يهديه أحدنا وهو يروي ما يرويه". كنت على وشك أن أكتشف لهم عن عرض العمل الذي قدمه لي ألفارو موتيس، ولكنني لم أجهزاً على ذلك، وأنا أعرف اليوم أن السبب هو خوفاً من أن يبدوا ذلك. وقد عاد إلى الإلهام عدة مرات، وحتى بعد أن عجز لي على الطائرة، وألقيت الحجز في اللحظة الأخيرة. أكيد لي أنه لا يبدل، من وراء ظهري، أية مساهمات لدى الاسبيكتادور، ولا لدى أي وسيلة مقرونة أو منطوقة أخرى، وأن هذه الوحيد - وقد أصر على ذلك حتى النهاية - هو تبادل الحديث حول مجموعة من المساهمات الثابتة للمجلة، ومراجعة بعض التفاصيل الفنية حول سلسلة "الاسبيري" الكاملة، والتي كان فصلها الثاني سيُشتر في العدد الذي يوشك على الصدور. وأعرب ألفارو موتيس عن يقينه من

أنه يمكن لهذا النوع من الرموز تاجات، أن يكون وخزة تنفيس لتيار أدب الصادات والنفاليد المسطح في ميدانه بالذات. ومن بين كل الأساليب الأخرى التي طرحها علي، حتى ذلك الحين، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أستغرق في التفكير.

في يوم ثلاثاء في رذاذ مطر كثيب، أدركت أنه لا يمكنني الذهاب، حتى لو رغبت في ذلك، لأني لا أملك من الثياب أكثر من قمصاتي المزوكشة. لم أجد أحداً في الساعة السادسة، في مكتبة "مونود"، فمضيت أنتظر عند الباب، محتباً كره من الدموع على الفسق الحزين الذي بدأ بالتلاشي. وكانت هناك، على الرصيف المقابل، واجهة متجرج صلابس رسمية لم أرها من قبل قط، بالرغم من أنها موجودة هناك منذ الأزل. ودهن أن أفكر في ما أفعله، اجتذبت شارع سان بلاس تحت وهاد الرذاذ المطري، ودخلت بخطرنا وثقة، إلى أغلى متجر في المدينة. اشتريت بدلة كهنوتية من جرج أزرق قائم، مناسبة تماماً لروح بوهوتا في تلك الأزمنة، ولصبيحين أبيضين صليبي الباف، وربطة عنق ذات خطوط مائلة وحذاء من تلك التي أشاع استخدامها المشعل خوسيه موزيكا. قبل أن يتحول فديساً، والوحيدون الذين أخبرتهم أنني ذاهب، هم خيرمان، وألفارو، وألفونسو، فأبدوا ذلك بقرار شديد بمشروط علي ألا أرجع أبداً. احتفلنا بذلك في الرجل الثالث مع الثلاثة كاملة، حتى الفجر، وكان احتفالاً صليلاً بعيد ميلادي القريب. ذلك أن خيرمان بارغاس الذي كان حارس تقاويم المناسبات، أعلن أنني سأكمل في السادس من شهر آذار القادم، سبعة وعشرين سنة من عمري. ووسط تبرعات أصدقائي الطبية، أحسست أنني على استعداد لأن أكل، نيشة، الثلاث والستين سنة المتبقية لي، لكي أكمل المئة سنة الأولى من حياتي.

استدعاني مدير جريدة الأسبكتادور، غييرمو كانو، بالهاتف، عتدما علم أنني في مكتب ألفارو موتيس، فوق أربعة طوابق من مكثيد، في مبنى دشونه حديثاً، على بعد خمس كوادرات من مقر الجريدة القديم. كنت قد وصلت في العشية، وكنت أستهذ تناول الغداء مع جماعة من الأصدقاء. ولكن غييرمو أصرّ علي أن أمر قبل ذلك لنهجنه. وهذا ما حدث. بعد العناق الحار، على طريقة أهالي العاصمة، بالمعنى الطيب، وبعض التعليقات القصيرة حول خبر اليوم، أمسكنتني من ذراعي والثادني بحباً عن زملائه في هيئة التحرير، وقال لي ببراعة لا تطلق: "سمع يا غابرييل، لماذا لا نقدم لي مصروفاً صغيراً بأن تكتب لي مقالة افتتاحية قصيرة أحتاج إليها لإغلاق عدد الجريدة؟"، وأشار بسبائه وإبهامه إلى حجم نصف كأس من الماء، وأضاف:

- بهذا الحجم.

لسأنته وأنا أكثر مرحاً منه، عن المكان الذي يمكنني أن أجلس فيه، فأنشأ إلى منصة خاوية، عليها آلة كاتبة من أرمئة أخرى. جلست دون مزيد من الأسئلة، لأنكر في موضوع مناسب لهم. وبقيت جالساً هناك على الكرسي نفسه، وإلى المنضدة نفسها، والآلة الكاتبة نفسها، طوال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعد دقائق من وصولي، خرج من المكتب المجاور إدواردو تلاميا بوردا، نائب المدير، مستغرقاً في رزمة من الأوراق. وقد فرغ لدى التعرف عليّ.

- يا رجل، دون غايو! - قال ذلك صارخاً تقريباً، وبالصوت الذي ابتدعه لي في بارانكيّا، منتظماً من لقب غابيتو، ولم يكن يستخدمه أحد سواه. ولكن اللقب تعمم في ذلك اليوم، في مكاتب التحرير، وواصلوا استخدامه حتى في حروف الطباعة: غايو.

لستُ أتذكر موضوع الزاوية التي كلفتني غيبرمو كانوا يكتبونها. ولكنني كنتُ أعرف على أحسن وجه، منذ كنتُ في الجامعة الوطنية، أسلوب جرعة الاسبكتادور العريق. ولا سيما في زاوية "من يوم ليوم" في الصفحة الافتتاحية، وهو أسلوب يمتنع بشهرة يستحقها؛ وقد مررت محاكاته ببرود الأعصاب الذي كانت لويسا سانتاغا تواجه به شياطين الرزايا والملمات. أنهيتُ المقالة المطلوبة في نصف ساعة، ثم أضفت إليها بعض لمسات التصحيح بالقلم، وسلمتها إلى غيبرمو كانوا الذي قرأها واقفاً، من فوق قوس نظارة لصر البصر التي يضعها. لم يبد أن تركيزه في القراءة خاص به وحسب، وإنما هو تركيز سائلة من الأسلاك ذوي الشعور البهيماء، بدءاً من دون فيدل كانوا، مؤسس الجريدة في العام ١٨٨٧، واستمر به من بعده آخرون دون لويس، ورسخه ابنه دون غابرييل؛ ثم تلقاه ناضجاً ومتدفقاً المهيوته، حفيده غيبرمو الذي كان قد تسلم للتو. منصب المدير العام، وهو في الثلاثين والعشرين من عمره. ومثلما كان أسلافه يفعلون، أجرى بعض المراجعات المختصة لعبة شكوك صغرى، وانتهى إلى أول استخدام عملي وبسيط لاسمي الجديد:

- جهد جداً يا غايو.

لقد انتهت، منذ ليلة عودتي، إلى أن يوهوتنا لن تعود لتكوين هي نفسها في نظري، طالما هلت ذكرياتي حية. ومثلما هو شأن الكوارث الكبرى الكثيرة في البلاد، كان أثر التاسع من نيسان في النسيان، أكبر منه في التاريخ. كان الفندق الكبير قد هدم في حديثه القديمة التي تعود إلى مئات السنين. وبدأ ينتصب مكانه، بناء جديد لصراف الجمهورية. ولم تكن شوارع سنواتنا هناك تشبه أبداً باستثناء حافلات الترم المضاة. وكانت ناصية الجزيرة التاريخية قد لغدت عظمتها في الانساعات القسحة التي فوضتها المراتق. لقد صارت تبدو الآن، مدينة كبيرة بالفعل، قال ذلك أحد مرافقينا، ثم مزق قلبي بجملته طغوسية.

- لا بد من تقديم الشكر للتاسع من نيسان.

ولم أشعر قط، بالمقابل، بأنني لم أكن أحسن حالاً، في أي وقت على الإطلاق. مما كنتُ عليه في المنزل الذي بلا اسم، حيث أنزلني الفاور جوتسي. إنه منزل جملته النكية، بقوم إلى أحد جوارب المدينة الوطنية، حيث لم أستطع، في الليلة الأولى، لحمل إحساسي بالمحمد تجاه جاري في الهجرة المجاورة، اللذين يمارسان الحب، كما لو أنهما يخوضان حرباً سعيدة. وفي اليوم التالي، عندما رأيتهما يخرجان لم أستطع أن أصدق أن يكونا هما نفسيهما؛ بنيت ضامرة بمقستان دار أيتام عمومية، وسيد متقدم في السن، بلاتيني البشرة، وقبالة طولها متران، يمكن له أن يكون جدداً. ظننت أنني أخطأت الفن بهما، ولكنهما تكفلا بتأكيد شكوكي. في الليالي التالية كلها، بوهتسا في صراخ شيق حتى اللجوء.

نشرت الإسيبيكتادور مقالتي في صفحة الاقتراحات، وفي مكان بارز منها. وقد أمضيتُ فترة الصباح، في شراء صلاص كان موتيس يفرضها عليّ باللكنة الإنكليزية الصاخبة التي يستعها. لكي يسلي الباقين، تناولنا الغداء مع غونشالو مابارينو وكثاب شباب آخرين، جرت دعوتهم من أجل تقديمي إلى المجتمع. ولكنني لم أعد أعرف شيئاً عن غيميرمو كانو إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام، عندما اتصل بي في مكتب موتيس، وقال لي بصراحة صهبة المحاكاة لصراحة رئيس التحرير:

- اسمع يا غابو، ما الذي جرى لك؟ يوم أمس تأخرنا في إغلاق تحرير الصحيفة، بانتظار مقالتك.

زلتُ إلى قاعة التحرير لأحدث إليه. ولا زلتُ إلى الآن، لا أعرف كيف وصلت كتابة مقالات يومية دون توقيع، طوائ أكثر من أسبوع. دون أن يكلمني أحد عن أية وظيفة أو أي راتب، كان المحررون في مسامرات الاستراحة، يهاولوني كواحد منهم، وقد كنتُ كذلك بالفعل، ولكن دون أن أنغفل إلى أي حد.

صفحة "من يوم ليوم" التي لم تكن تحمل توقيع أحد قط، كان يتصدر عادة غيميرمو كانو بزاوية سياسية، وكان يعلوها، وفق ترتيبه مسرور من رئاسة التحرير، زاوية ذات موضوع حر، يكتبها غونشالو غونشاليت، فضلاً عن أنه كان يؤولي، كذلك، أذكرى صفحات الجمعة وأكثرها شعبية - "أسئلة وأجوبة" - حيث يعل أي شكوك تراود القراء، مستخدماً الاسم المستعار "غونغ"، ليس شيئاً بجوفاًني بامبيني، وإنما اختصاراً لاسمه هو نفسه، ثم ينشرون بعد ذلك، مقالتي. وفي بعض المناسبات القليلة، ينشرون زاوية خاصة يكتبها إدواردو ثالاميا الذي

كان يحتل، يومياً، أفضل مساحة في صفحة الاقتراحات بعنوان - "المدينة والعالم" - ويوقعها باسم أوليبس، ليس شيئاً بهوميروس - مثلما اعتاد أن يقول -، وإنما شيئاً بجيس جويس.

كان عليّ ألفارو موتيس أن يقوم برحلة عمل إلى بورت دا برانس، في الأيام الأولى من السنة الجديدة، فدعاني لمرافقته، كانت هابتي في ذلك الحين، هي بلاد أحلامي، بعد أن قرأت رواية ألخو كارينير "ملككة هذا العالم". ولم أكن قد أجيت في الثامن عشر من شباط، عندما كنتُ زاوية حول الملكة الأم في إنكلترا، الضائعة في عزلة قصر بيكينغهام للفرصة الأطراف. ولغت انتباهي أنها نشرت في الموقع الأول من صفحة "من يوم ليوم"، وجرى التعليق عليها بصورة جيدة في مكاتينا، في تلك الليلة، في حفلة ضمت جماعة كلية العدد، في منزل رئيس التحرير خوسيه سالغار، فطم إدواردو ثالاميا تعليلاً أكثر حماسة مما سبق. وقد أخبرني واش أريحي فيما بعد، بأن ذلك الرأي هو الذي أزال آخر الترددات لدى الإدارة، لتعرض عليّ رسمياً، وظيفته ثابتة في الجريدة.

في اليوم التالي، استدعاني ألفارو موتيس في وقت مبكر إلى مكتبه، لينقلني إلى الجبر المعزب بإلغاء الرحلة إلى هابتي. ولكن ما لم يقله لي هو أنه توصل إلى هذا القرار، على أثر حديث عارض مع غيميرمو كانو، طالبه فيه هذا الأخير، من كل قلبه، ألا بأخذني إلى بورت دا برانس. قارأ ألفارو الذي لم يكن قد زار هابتي كذلك، أن يعرف المسبب، فقال له غيميرمو: "عندما تعرف عليه، ستفهم أن هذه الرحلة هي أكثر ما يمكن أن يوفق غابو في العالم". وأنهى ذلك المساء بزيارة بارعة.

- إذا ما ذهب غايو إلى هايتي، فلن يعود منها أبداً.

فهم الفارو المطلوب، وألقى الرحلة، وقال لي إنه قرار انخذه شركة التي يعمل فيها، وهكذا، لم أعترف قط، على بويرت دا برانس، ولكنني لم أعرف السبب الحقيقي إلا قبل سنوات قليلة، عندما أخبرني الفارو ذلك، في واحدة من جلسات تذكرونا الطويلة كجدين. أما غيرمو من جانب، وبعد أن قهني بعدد عمل في الجزيرة، ردد على مسامحي، طوال سنوات، بأن أفكر في ريسورتاج عظيم عن هايتي، ولكنني لم أستطع الذهاب قط، ولم أخبره بالسبب.

ما كان ليخطر ببالي أبداً، حلم العمل محرراً ثابتاً في الإسبيكتادور؛ فقد كنت أدرك أنهم ينشرون قصص القصيرة، بسبب ندرة هذا الجنس الأدبي وفقره في كولومبيا. ولكن الكتابة اليومية في جريدة صائبة، كان محبباً تماماً بالنسبة لشخص مثلني في الصحافة الصدامية. فجريدة الإسبيكتادور التي كان عمرها نصف قرن، ونشأت في بيت مستأجر، وبنات آلان إليمبر - الصحيفة الفتية والقرية والمتفتحة -، كانت جريدة صائبة متواضعة، في ست عشرة صفحة مزدوجة، غير أن نسخها الخمسة آلاف، غير المندودة جيداً، يجري تلقاها من المئات عند أبواب مطبعتها تقريباً، وتقرأ خلال نصف ساعة، في المقاهي الهادئة في المدينة القديمة. كان إدواردو ثلاميا بوردا شخصياً، قد صرح عبر الـ BBC اللندنية، بأن الإسبيكتادور أفضل جريدة في العالم. لكن المخرج الأكبر لم يكن في التصريح بعد ذاته، وإنما في أن جميع من يساهمون في صنع الجريدة تقريباً، ومعظم من يقرؤونها، كانوا مفتنعين بأن ذلك صحيح.

لا بد لي من الاعتراف بأن قلبي طفر من مكانه في اليوم التالي لإلقاء الرحلة إلى هايتي. عندما حدد لي المدير العام، لويس غابرييل كائو، موعداً في مكتبه، لم تستمر المقابلة، مع كل شكلاتها، أكثر من خمس دقائق. كان لويس غابرييل مشهوراً بأنه رجل متجهم. كريم كصديق وبخيل كمدير جيد، ولكنه بدءاً لي، وظل يبدو لي على الدوام، بالغ الدقة والحساسية. وكان اقتراحه، في خطوطه العامة، هو أن أبقى في الجزيرة، كمحرر ثابت، لأكتب أخباراً عامة، ومقالات رأي، وكل ما ينظله الأمر في طوارئ اللحظة الأخيرة. براتب شهري قدره تسعة موزو، ففوت القدرة على التفتش. وعندما استعدتها، سألته: كم؟ فأعاد عليّ حرفاً حرفاً: تسعة. كان تأثري شديداً إلى حد أن عزيتي لويس غابرييل، وبينما كنت أتكلم في هذا الأمر في حفلة، بعد بضعة شهور، كشف لي أنه فسر ذهولي على أنه رفض للعرض. وقد أعرب دون غابرييل عن ارتياحه الأخير، بخوفه من ما يهرده: إنك تحبب وشاحب إلى حد يمكن لك معه أن توت في المكتب. وهكذا انضمت كمحرر، إلى طاقم الإسبيكتادور، حيث استهلكت أكبر كمية من الورق في حياتي، خلال أقل من سنتين.

لقد كانت مصادفة حسنة الطالع. المؤسسة الموهوبة أكثر من سواها في الجزيرة، هي دون غابرييل كائو، البطريك، الذي حول نفسه بنصميم خاص، إلى حاكم تفتيش لا يرحم في هيئة التحرير، كان يقرأ بعصبته المكبرة الميكشترية، كل شيء، حتى الفاصلة التي لا تخطر ببال في الطبيعة اليومية. ويشير بالبحر الأحمر إلى العشرات في كل مسألة، ويعرض في لوحة إعلان، المقاطع المعاقبة مع تعليقات قاسية ساحقة منه.

وقد فرضت لوحة الإعلان تلك نفسها، منذ اليوم الأول، على أنها "جدار العار". ولا أظن أن هناك محرراً واحداً أفقت من ريشته الدعوة القاسية. ترقية غيريرو كانت الاستعراضية إلى منصب مدير الاسبيكتادور. وهو في الثالثة والعشرين، لم تكن تبدو نعمة مبهكة لزيادة الشخصية، وإنما تنفيل قدر مكتوب منذ ما قبل مولده. ولهذا كانت مفاجأتي الأولى هي التأكد من أنه كان المدير بكل معنى الكلمة، في الوقت الذي كان الكثيرون يذكرون، من الخارج، في أنه ليس أكثر من ابن مطيع. وكان أكثر ما شد انتباهي هو السرعة التي يتعرف بها على الخبر. كان يضطر أحياناً إلى مواجهة المسيح، حتى عندما لا يكون لديه الكثير من المسيح، إلى أن يتمكن من إقناعهم بحقيقته. لقد كان زمن لا يجري فيه تعليم المهنة في الجامعات، وإنما يتم تعلمها عند قائمة البقرة، وباستشاق خبر المطبعة، وكان في الاسبيكتادور أفضل الأساتذة وأطيبهم قلباً، إما أقدمهم صرامة في الوقت نفسه. وقد بدأ عجبروصو التعلم هناك منذ حروفه الأولى، بمقالات عن مصارعة التيران، باللغة الصرامة وواسعة الاطلاع، هذا معهما أن ميله الخالب ليس التحول إلى صحفي وإنما إلى مربي عجول مصارعة. وهكذا، فإن أقصى تجربة في حياته، دون شك، هي صعوده، بين ليلة وضحاها، دون تدريجات وسيطة، من تلميذ ابتدائي إلى معلم كبير. وما كان بإمكان أحد لم يعرفه عن قرب، أن يلمح وراء أساليبه الزرققة، وحتى المتبرقة بعض الشيء، التصميم الرهيب في طبعه. وقد خاض بالشفق نفسه، معارك واسعة وخطرة، دون أن يتوقف أبداً أمام اليقين بأنه يمكن للموت أن يكون متأهلاً بالمرداد، ورا، أشد القضاة نبلاً.

لم أتعرف في ما بعد، على شخص أشد منه رفضاً للتصهار في الحياة العامة، وأكثر من الوافق للتشريعات الشخصية، وأكثر تهرباً من إغرامات السلطة، كان رجلاً ليليل الأسدقاء، ولكن أولئك كانوا طيبين جداً. وقد شعرت بأنني واحد منهم منذ اليوم الأول. وربما أسهم في ذلك كبرني أحد الصغار سناً، في جماعة تحرير تضم مجريين محترفين، وهو ما ولد بيننا نحن الاثنين، شعوراً بالتواضع لم يضعف أبداً. وما كان مثالياً في هذه الصداقة، هو قدرتها على تجاوز كل تناقضاتنا. فالاختلافات السياسية كانت عميقة جداً، وراح عمقها يزداد أكثر فأكثر، مع تفسخ العالم، ولكننا كنا نلجأ على الدوام، أرضية مشتركة، يمكننا منها مواصلة التواصل في سبيل الصداقة التي نراها عادلة.

كانت جماعة التحرير فسيحة جداً، تضم متاحد على الجانبين، ويسودها جو من المزاج الطيب والدعابة القاسية. هناك كان داريو بلوتيسنا، وهو نوع نادر من نهض وزير المالية، يحكم منذ أول صباح للديكة، على بحث المرأة في صباح أعلى الموظفين مرتبة، بتكهنات سحرية عن مستقبل مشروم، تكون صانبة في أغلب الأحيان، وكان هناك المحرر القانوني فيليب غونزالث توليدو، كاتب التحقيقات بالولادة. وقد سبق في أحيان كثيرة الفحريات الرسمية، في إن إحباط ضرر أو كشف النقاب عن جريمة. أما غيريرو لاناو الذي كان يغطي عدة زواوات، فقد حافظ على سر يقاذه طفلاً حتى آخر طراوة عود شيخوخته. وكان روجيليو إنشيبانزا، وهو شاعر من الكيار، مسزولاً عن الطبعة الصحفية، فلم تكن نراه أبداً على ضوء النهار. أما ابن عمي غونزالثو

غوثالث، يساقه الملقوفة بالجس، بسبب مباراة كرة قدم خيثة، فكان عليه أن يدرس، لكي يرد على أسئلة حول أي شيء. وانتهى به الأمر إلى التحول إلى اختصاصي في كل شيء. وعلى الرغم من أنه كان لاعب كرة قدم من الطراز الأول، في الجامعة، فقد كان يؤمن إيماناً غير محدود، بالدراسة النظرية، لأي شيء. أكثر من إيمانه بالتجربة العملية. وقد لدم لنا الدليل الباهر على صحة رأيه في بطولة البولو للصحفيين، عندما عكف على دراسة قواعد اللعبة من مرجع مطبوع. بدل أن يلعبها مثلاً في الملاعب حتى الفجر. وأحرز بطولة تلك السنة.

بمثل هذه القناعة، كانت ثقافة التحرير استراحة نسبية أبدية، خاضعة على الدوام لشعار داريو باوتيسا، أو فلبيه غوثالث توليدو: "من يتعهر بخوزق نفسه". جميعنا كنا نعرف الموضوعات التي يكتبها الآخرون، ويساعد بعضها بعضاً إلى حيث نطلب منا، أو إلى حيث تكون المساعدة ممكنة. وقد كانت المشاركة متبادلة إلى حد يمكن القول معه، إن العمل كان يجري بصوت عالي. ولكن عندما نشد وطأة العمل، لا يعود يُسمع أي نفس. ومن المنضدة الوحيدة المستعرضة في أقصى القاعة، كان طومسيه سالغار يُصدر الأوامر. وقد اعتاد أن يتجول بين المحررين، ليُعلم ويستعلم عن كل شيء. بينما هو يظن: روحه بعلاج بهلواني.

أظن أن اليوم الذي اقتادني فيه غيبيرمو كانتو من منتزدة إلى أخرى، على امتداد النقاعة، ليُقدمني إلى المجتمع، كان اعتباراً بالشارخجلي الذي لا مسبيل إلى تجاوزه، فقدت القدرة على الكلام وخارت ركبتي. عندما جأو داريو باوتيسا، دون أن ينظر إلى أحد، بصوته الراعد:

- لقد جاء العفري!

فلم يخطر لي سوى الدوران في نصف الثلاثة صريحة، مباداً ذراعي نحو الجميع. وقلت لهم أقل من خرج من روعي، طرفة:

- في خدمتكم جميعاً.

وما زلت حتى الآن، أعاني من صدمة السخريه الصامة. ولكنني أشعر كذلك، بالراحة للمعاندات والعبارات الطيبة التي قالها لكل واحد منهم. وهو يرحب بي. منذ تلك اللحظة، صرت واحداً من جماعة التصور المنسفة تلك، بصاقية وروح فريق لم تخس قط. فكل معلومة أحتاج إليها لمقائلي، مهما صغر شأنها، كنت أطلبها من المحرر المعني. ولم تكن تنأخر لحظة عن موعدها.

دري الكبير الأول في كتابة الريورتاجات، تلقينته من غيبيرمو كانتو. وعاشته قاعة التحرير بكامل أفرادها في مساء يوم، هطل فيه على بوغوتا زابل من المطر، أبقاها في حالة نهضان كوني طوال ثلاث ساعات دون توقف. سبل الماء الجارف في جادة خيميت دي كيباءا، جرف كل ما وحده في طريقه على السطوح، وظل في الشوارع آثار كارثة. ظلت السيارات مغلقة الأنواع، ووسائل النقل العام، مثبولة في الأماكن التي فاجأتها فيها حالة الطوارئ. والتجأ آلاف المارة مشغولين ومعتشرين، إلى العصابات القابلة حتى لم يبق لها متسع للمزيد، محررو الصحيفة الذين فاجأتهم الكارثة في لحظة إغلاق لمحرير الجريدة. راحوا يشأمون المشهد الكئيب من النوافذ، دون أن يدروا ما الذي يمكنهم عمله، مثل أطفال صباغيين يضربون أيديهم في جبهتهم، وغفأة، بما كما لو أن غيبيرمو كانتو قد استيقظ من حلم بلا ناع، والتفت نحو المحررين المشلولين وصرخ:

- هذا الوابل من الأمطار خيراً

كمان أسراً لم يُصدروه، وجرى تنفيذه في الحال. وكضنا، نحن المحررين، إلى مواقعنا القتالية لكي نحصل، عبر الهاتف، على المعلومات المستعجلة التي يطلبها منا خوسيه سالفار. لنكتب معاً وبالنجزمة، وبمورناًجاً صحفياً عن عاصفة القرن المطرية. مبارات الإسعاف ودوريات الشرطة اللاسلكية التي أصدعيت من أجل الحالات المستعجلة، فُكَّت حركتها بسبب السيارات العالقة في منتصف الشوارع. وكانت مجاري الصرف المنزلي ممدودة بالمياه. ولم تكف كل أظلم الإطفا. لدرء الخطر الطارئ. وتوجب إخلاء أحياء بكاملها، بالقوة، بسبب تصدع سدّ مدني مجاور. وفي أحياء أخرى، تفجرت المجاري. وكانت الأرضة مشغولة بمسكين مشلولين وأطفال مختلفين. ووسط تلك الفوضى، نظم خمسة من مالكي الزوراق ذات المحرك، تستخفم عادة للصيد في غطلة نهاية الأسبوع، سباقاً في جادة كاراكاس. أكثر شوارع المدينة اختنالاً. راح خوسيه سالفار يوزع هذه المغطيات المتجمعة للفتر، على المحررين الذين اتصكروا في إعمادها وصباغتها لطلبية الخاصة التي جرى أرفجها لها في سباق التصل. وعكف المصورون المبللون، على الرغم من مصاطفهم المطرية، على معالجة الصور على الساخن. وقبل الساعة الخامسة بقليل، كتب غييرمو كانو ملخصاً بأربعاً عن أشد العواصف المطرية التي تذكروها المدينة، دراماتيكية. وعندما توقف المطر أخيراً، كانت طبعه الاسبكتادور المرحلة قد صارت قيد التداول. كما في كل يوم، مع تأخير يكاد لا يزيد على ساعة واحدة.

علاقتي الأولية مع خوسيه سالفار، كانت الأصعب، ولكنها المخلقة

أكثر من أي علاقة أخرى. وأظن أنه كانت لديه مشكلة مناقشة لمشكلتي؛ فهو يحاول على الدوام، دفع كتاب التحقيقات في القسم، إلى إطلاق أعق صوت صدي، بينما كنت أتلطف إلى أن يضعني على الموجة الصحيحة. ولكن التزاماتي الأخرى مع الجريدة، كانت تقيدني. ولم يبق لي متسع من الوقت سوى في أيام الأحاد. أظن أن سالفار قد وضع عينه عليّ، لأكون كاتب محقيقات، بينما وضع آخرون عيونهم عليّ، لأتخصص في الكتابة السينائية، والتعليقات الاقتصادية، والتشوق الثقافية، لأتني عرفت دعماً كقصاص، ولكني كنت أحلم، منذ خطواتي الأولى في الساحل، أن أصير كاتب محقيقات. وكنت أعرف أن سالفار هو أفضل معلم، ولكنه كان يخلق الأبواب لي وجهي، ربما على أمل دفعي إلى محطمتها، والدخول عنوة. كنا نصل على أحسن وجه، بمودة وديناميكية. وكلما دعت إليه مادة صحفية، مكتوبة بالاتفاق مع غييرمو كانو أو حتى مع إدواردو نالاميا، يوافق عليها دون تأخير. ولكنه لم يكن يتسامح مع الإخلال بالظفوس. كان يقوم بحركة انتزاع سادة قارورة بالقوة، ويقول لي بعد أكبر مما يعتقد هو نفسه:

- إلى متى هذه الهجمة.

ولكنه لم يكن مع ذلك، عدوانياً قط، بل على العكس تماماً. كان رجلاً ودوداً، نصلب في ناز متأججة، ارتقى سلم الخدمة الجيدة، ابتداء من تقديم القهوة في المطبعة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، حتى التحول إلى رئيس تحرير بمنتج بأوسع سلطة مهنية في البلاد. اعتقد أنه لم يكن قادراً على أن يفخر لي إسرائي في البهلوانيات الضائية، في بلاد تفنقر إلى الكثير من كتاب التحقيقات الصدامية. أما أنا بالمقابل،

فكنت أفكر في أنه ليس هناك جنس صحفي أفضل من التحقيقات. للتعبير عن الحياة اليومية. ومع ذلك، فبأنني أعرف اليوم أن العناد الذي كنا نحاول به كلانا عمل ذلك هو أفضل حافظ توفّر لي من أجل تحقيق حلمي بأن أصير كاتب ريبورتاجات صحفية.

اعترضت الفرصة طويقي. في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة. من صباح التاسع من حزيران ١٩٥٤. بينما أنا راجع من زيارة صديق في سجن بوغوتا النملوجي. كانت هناك قوات من الجيش. مسلحة كما لو أنها في حالة حرب. نعتزض حشداً طلابياً في الشوارع السامع، على بعد كماترتين من الناحية التي جرى فيها قبل ستة سنوات، اغتيال خورخي إلسير غامبان. لقد كانت مظاهرة احتجاج على مقتل طالب، في اليوم السابق، على يد جنود من الفرقة الكولومبية التي دُبرّت من أجل الحرب في كوبا، وأول صدام في الشوارع يفرضه المدنيون ضد حكومة القوات المسلحة. ثم تكن تُسمع، من المكان الذي أنا فيه، سوى صرخات الجدال بين الطلاب الذين يحاولون مواصلة مسيرتهم حتى القصر الرئاسي، والعسكريين الذين يمنعونهم. ولم تتمكن. وسط الحشود، من فهم ما يقولونه صاويين، ولكن الثور كان مطموساً في البحر. والحجاة، وهون سابق إنذار، سُبّحت رشقة وصاح من بقية رشاة، ثم تلقها رشفتان أخريان. سقط عدد من الطلاب وبعض العابرين، قتلى على الفور، والأحياء الذين حاولوا حمل الجرحى إلى المستشفى، جرى إبعادهم بأعقاب البنادق. أخذت القوات العسكرية المنطقة، وأغلقت الشوارع. وأحسّت في صدمة خاطفة، استمرت بضع ثوان، بأنني أعيش ثانية، كل هول التاسع من نيسان، في الساعة نفسها والمكان نفسه.

صعدتُ راكباً، الكوارات الثلاث، في الطريق الصاعد بالهواء منى الايكتادور، ووجدت المحررين في معمة التأهب لمركة. روت بشقة، ما تمكنت من رؤيته في موقع الجزيرة. ولكن أهل المحررين اطلاعاً على ما جرى. بدأ، بسرعة خاطفة، في إعداد التقرير الأول عن هربة الطلاب التسعة القتلى، وعن حالة الجرحى في المستشفيات. كنت موقناً من أنهم سيظلون منى رواية الواقعة، لأنني الوحيد الذي شهدتها. لكن عهبرمو كانوا وخوبه مالفار كانا قد اتفقا على وجوب أن يكون التقرير جماعياً بضع فيه كل واحد ما لديه. وينولى المحرر المسؤل، فيليبي غونزالث توليدو. بعد ذلك، صباغة الوحدة النهائية للصوصوع. وقد قال لي فيليبي الغلق، لما لمسه من خيبة أعلى:

- اطمئن. للناس يصرفون أننا جسيبنا نعمل هنا في كل الموضوعات، وإن كانت لا تحمل توقبها.

وقد واساني أوليسيس، من جانب، بفكرة أنه يمكن للشعيلق الافتتاحي الذي يتوجب علي كتابته، أن يكون الأكثر أهمية، لأنه يتناول مشكلة خطيرة تتعلق بالأمن العام. وقد كان صحيحاً، ولكنه كان تعليقاً شديد انخاسبة وبالغ القويوط لسياسة الجريدة، فكُتب بعدة أيدي من أعلى المستويات. أظن أنه كان درساً عادلاً للجميع، ولكنه بدا لي قاسياً جداً. كانت تلك هي نهاية شهر الفصل، بين القوات المسلحة والصحافة الليبرالية. الذي بدأ قبل ثمانية شهور من ذلك، عندما تسلم السلطة الجنرال روخاس بينيا. وأتاح للسلاة إطلاق زفرة راحة بعد حمام دم الحكومتين المتعاقبتين المتنازعتين، واستمر حتى ذلك اليوم. وقد كان ذلك اليوم بالنسبة لي أيضاً اختباراً بالثار لأحلامي، ككاتب لتحقيقات عادي.

بعد وقت قصير من ذلك، نُشرت صورة جثة طفل بلا أهل لم يتمكنوا من التعرف عليه في مشرحة الطب الشرعي. وقد بدت لي مشابهة لصورة طفل آخر ضائع، نُشرت قبل أيام. عرضت الصورتين على مسؤول الصلحة القضائية، فيليب غونزالث توليدو، فاقبلت بأن الطفل الأول الضائع الذي لم يكن قد عُثر عليه بعد. وكانت تلك الواقعة درساً تعلمته إلى الأبد. فقد انتظرتنا أم الطفل، أنا وفيلبي، في فناء المشرحة. وبدت لي شديدة الفقر والفضالة إلى حد بدلت معه جهداً فائقاً من أعماق قلبي. كيلا تكون الحنة لطفها. وفي القبر الجليدي الطويل، تحت إضاءة قوية. كانت هناك حوالي عشرين طاولة مصفوفة، عليها جثث كأنها أكوام حجارة. تحت ملامات متسحنة. خفقا، نحن الثلاثة، بالحارس التجهم حتى المتضدة قبل الأخيرة. في أقصى القاعة، كان يبرز من تحت طرف الملاحة نعلا حذاء. كتبته، جذونا كعبه مستهلكان جداً من كثرة الاستعمال. تعرفت المرأة عليهما، فشعب لونها، ولكنها قاسمت بأخر نفس لديها إلى أن نزع الحارس الملاحة بحركة مصارع ثيران. كان الجسد ذو التسع سنوات، يمينه المضروحين والفاهلين، مرتدياً الملابس المزلة نفسها التي وجد بها ميتاً قبل عدة أيام. في سائبة إلى جانب الطريق. أطلقت الأم وليلة، وانهارت على الأرض، وهي تطلق الصويل والصراخ. ساعدهما فيلهبي على الوقوف، وهذا ما بهارات مواصلة هامة، بينما كنت أصابع عما إذا كان ذلك كله خلق بأن يكون العمل الذي أحلم به. وقد أكتد لي إدواردو ثلاثياً أن لا، إذ كان هو نفسه يفكر أيضاً، في أن التشارير الصحفية عن الجرائم والحوادث، المتجذرة جداً لدى القراء، هي اختصاص صعب يتطلب طبيعة خاصة، وقلباً فاسياً مجرباً. فلم أقرب ذلك العمل بعدها قط.

واقف آخر مختلف تماماً اضطرني إلى أن أصبر نالداً سينماتياً. لم يكن قد خطر لي من قبل، أنني قد أفعل ذلك. ولكنني في مسرح أولمبيا الذي كان يملكه دون أنطونيو داكوتشي لي أراكاتاكيا. بعد ذلك في مقبرة ألقارو مبيفا الجواله، أكتت بالعناصر الأساسية لكتابة ملاحظات توجيهية سينمائية، برؤية أكثر لماندة من الشائنة آنذاك، في كولومبيا. كان إرنستو فركلشتغ، وهو كاتب ونقاد أدبي ألماني كبير، استقر في كولومبيا منذ الحرب العالمية الثانية، يهث من الإذاعة الوطنية تعثيقاً حول العروض الانتحارية للأفلام، غير أن ما يهته كان مقتصرأ على جمهور مشخص من المستمعين. وكان هناك معلقون آخرون جدد، ولكنهم عارضون، حول المكتبي الكتلائي لوس فيثس، المستقر في بوغوتا، منذ الحرب الأهلية الإسبانية. وكان هو نفسه من أسس أول نادي سينماتي، بالتواطؤ مع الرسام إنريكي غراو والتناقد هيرنانفو سالدورو. وبمساع من الصحيفة غلوريا لالينثيا دي كاسانيو كاسنيو التي حصلت على بطاقة العضوية رقم واحد. كان هناك في البلاد، جمهور واسع لأفلام الحركة وأمسى الدموع. أما السينما النوعية، فكانت تقتصر على المثقفين الهواة. وكان أصحاب دور العرض يجازفون أقل فأقل، في عرض أفلام لا تستمر سوى ثلاثة أيام في اللاتعة. فكان انتشال جمهور جديد من هذا الحشد الفقير الذي بلا وجه، يتطلب تربية شاقة، إلا أنها ممكنة. من أجل تشجيع الزبائن على ارتياد أفلام نوعية، ومساعدة أصحاب دور العرض الراغبين في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون تمويله. كانت العلية الكبرى في أن أصحاب دور العرض يقرن التهديد بإلغاء إعلانات السينما، مسلطاً على الصحافة - وهي إعلانات تقتل

دخلاً كبيراً للصنف -، كعقوبة على النقد المضاد. وكانت الاسبيكتادور هي أول صحيفة تحملت المجازفة. وكلفتني بمهمة التعليق على عروض الأسبوع الأولى، كرسالة أولية بسيطة موجهة إلى هراء السينما. أكثر منها موعظة استعراضية. وكان الاحتياط الذي اتخذه باتفاق مشترك. هو عدم استخدام بطاقة دخول المجانية، كدليل على دخولي لمشاهدة العروض ببطاقة مشتركة من شبالة التماكر.

طمانت المقالات الأولى أصحاب دور العرض. لأنها تناولت أفلاماً من السينما الفرنسية الجيدة. وكان منها برتسيني Puccini. وهو استذكار مطول لحياة ذلك الموسيقي العظيم. وفيلم قسم مذهبة. وهو قصة بارعة عن المغنية شريس مور. وفيلم حفلة إترينكشا. كوميديا سلمية لجين دلاتري. وكان أصحاب دور العرض الذين نلتقي بهم لدى الخروج من الصالة. يحرمون لنا عن رضاهم عن مقالنا النقدي. أما الفارو سببينا بالمقابل. فقد أيلطني في السادة صباحاً. بكافة من بارانكيا. عندما علم بأمر جرائني. وصرخ بي على الهاتف. وهو بكاد يهت من الضحك.

- يا للجنة كيف تفكر في نقد الأفلام. دون إذن مني. بالرغم من جلاتك في ما يتعلق بالسينما!

لقد تحول. بالطبع. إلى مساعدتي الشايف. على الرغم من أنه لم يوافق. لقد. على فكرة أن الأمر ليس بتشكيل مدرسة نقدية. وإنما توجيه جمهور مبتدئ وبلا تكوين أكاديمي. ولم يكن شهر العمل مع أصحاب دور العرض كذلك حلواً كذلك. مثلاً طفتا في اليد. فعنعنا واجهنا السينما التجارية الخالصة والمجردة. شكاً حتى أكثرهم تفهماً. من قسوة

تطبيقاتنا. وقد امتلك إدواردو ثالاميا وغيبيرمو كانو ما يكفي من المهارة لإكثامهم عبر الهاتف. حتى أواخر شهر نيسان. عندما اتهمنا أحدهم. بخيلاً. زعيم. في رسالة مفتوحة. بأننا نفزع الجمهور لإلحاق الضرر بمصالحهم. بدا لي أن عقيدة المشكلة هي في أن كاتب الرسالة لا يعرف معنى كلمة "نفزع" (amadrugar). غير أنني أحسيت بأنني على حافة الهزيمة. لأنني لم أكن أظن. في ظل الأزمة المتعاهمة التي كانت تمتصها الصحيفة. أن دون غابرييل كانو سيتخلى عن الإعلانات السينمائية. في سبيل المتعة المصالية المحض. وفي يوم تلقي تلك الرسالة. دعا أنا و أوليس إلى اجتماع مستعجل. فاعتبرت أن موت زاوي السينمائية ودلتها صار أمراً واقعاً. ومع ذلك. ولدي مروره قبالة منضدي. بعد انتهاء الاجتماع. قال لي دون غابرييل دون أن يحدد الموضوع. وبدهاء جد عجوز:

- اطقن يا سبي.

وفي اليوم التالي. ظهر في زاوية "من يوم ليوم" الرد على المنتج. وقد كتبه غيبيرمو كانو بأسلوب أكاديمي منعقد. ونهايته تلخص كل شيء: "لا يوجد إضراف للجمهور. ولا أي ضرر بمصالح أحد. في نشر الصحافة لنقد سينمائي جدي ومسؤول. يتشابه قليلاً مع ما هو عليه في بلدان أخرى. ويكسر النماذج القدية والمؤدية في كبل المذيع المفرط لما هو جيد. وبالقدر نفسه لما هو سيئ". لم تكن تلك هي الرسالة الأخيرة التي تلقيناها. ولا ودنا هو الرد الأخير. كان العاملون في دور السينما يستقبلوننا بمطالب قاسية. وكنا نلقى مناقضة من قراء غافلين. ولكن كل ذلك كان بلا طائل: فقد عاش عمودي السينمائي إلى الوقت الذي ثم

يعد فيه النقد السينمائي أمراً عارضاً في البلاد، ويحول إلى تقليد في الصحافة والإذاعة.

منذ ذلك الحين، وخلال أقل من سنتين، نشرتُ خمساً وسبعين ملاحظة نقدية، لا بد أن يضال إليها الساعات المرفقة في مشاهدة الأفلام. فضلاً عن حوالي سبعة تعليقات اختصاني، وخبر موقع أو مغفل من التوقيع. وقد نُشرت المساهمات الأدبية، منذ ذلك الحين، في ملحق "مفاتيح الأحاد"، التابع للجريدة نفسها. وكان بينها عدة قصص قصيرة وسلسلة ريبورتاجات "لاسيبرمي" الكاملة، التي نوقش نشرها في مجلة الصباح بسبب خلافات داخلية.

كانت تلك هي أول فترة رخاء في حياتي، ولكن دون أن يتاح لي الوقت للاستمتاع بها. الشقة التي استأجرتها مفروشة، مع خنطة الفصيل، لم تكن سوى حجرة نوم مع حمام، وهاتف ولطوف في السرير، وثلاجة واسعة مع رذاذ المطر الأبلدي، في أكثر مدن العالم كآبة. لم أستخدمها إلا للنوم، منذ الساعة الثالثة فجراً، وبعد تحضية ساعة في القراة، حتى نشرة الأخبار الإذاعية الصباحية، لأعرف مستجدات اليوم الجديد.

لم أتوقف عن التفكير، بشيء من الفلق، في أنها أول مرة يكون لدي فيها مكان ثابت وخاص للعيش، ولكن دون أن يكون لدي وقت للملاحظة لذلك. كنتُ مشغولاً في تصريف شؤون حياتي الجديدة، إلى حد أن إنشائي الوحيد البارز كان يقتصر على زورق الإقناص الصغير الذي واظبت على إرساله بدقة، في نهاية كل شهر، إلى الأسرة. واليوم فقط، أنسيه إلى أنني كنت أجد الوقت الكافي للاهتمام بحياتي

الحاصّة. ربما لأنه كانت تعيش في داخلي فكرة الأمهات الكارهيّات، عن أن الفتيات الهوغوتيات يملن أنفسهن، دون حب، للشبان الساحليّين، ليجرد تحقيق حلمهن في العيش قبالة البحر. ومع ذلك، فقد توصلت في شقتي الأولى، كعازب، في بوغوتا، إلى تحقيق مرامي دون مجازفة، منذ أن سألت البواب عما إذا كانت زيارة الصديقات عند منتصف الليل، مسموحاً بها.

- إنها مجموعة يا سيدي، ولكنني لا أرى ما يجب عليّ ألا أراه.
في أواخر شهر آب، ودون إنذار مسبق، ظهر خوسيه سالغار أمام منضدتي. بينما أنا أكتب تعليقاً، ونظر إليّ بصمت طويل، قطعتُ الكتابة في منتصف جملة، ولدت له غلغلاً.
- ما المشكلة؟

لم يظفر له رمش. وكان يلعب بوليهو شعر مرني بقلمه الرصاص الأحمر. ويهيم إشاعة شيطانية تبدو نوابها مكشوفة. أوضح لي دون أن أسأله، بأنه لم يفوضني بكتابة ريبورتاج منبحة الطلاب في الشارع السابع، لأنه حبر صحب على شخص مخدّر. ولكنه عرض عليّ بالمقابل، بصورة مباشرة، إلما دون أدنى نية في التحدي، أن يمتحنني على عائقه وممؤلاته، ديلوم كاتب الريبورتاجات، إذا كنت قادراً على أن أتقبل اقتراحاً غائلاً منه:

- لماذا لا تذهب إلى ميغلين، وتروي لنا حقيقة اللعنة التي جرت هناك؟

لم يكن من السهل فهم ما يعنيه، لأنه كان يكلمني عن أمر حدث هناك، منذ أكثر من أسبوعين، مما يفسح المجال للظن بأنه يعرض عليّ

حدثاً باتناً لا خلاص لي منه. كان معروفاً أنه وقع في الثاني عشر من
نوز صباحاً، انهيار أرضي في "مهدى لونا"، وهو مكان وعمر شديد
الانهيار، إلى الشمال من ميدلين. ولكن الضجة التي أثارها الصحافة،
وتخطيط السلطة، وقلق المتضررين، تسببت في إشاعة هائلة إدارية
وإنسانية. حالت دون رؤية الواقع على حقيقته. لم يطلب مني سائقار أن
أحاول عرض ما حدث بأقصى ما يمكن من الدقة، وإنما أمرني مباشرة بأن
أذهب لإعادة بناء الحقيقة كلها على الأرض، ولا شيء آخر سوى
الحقيقة. وخلال أقصر وقت ممكن. ومع ذلك، فقد كان لي طريقته في
قول ذلك، شيء. دفعني إلى التفكير في أنه سبقت لي الضمان. أخيراً.

الشيء الوحيد الذي كان يعرفه العالم بأسره، عن ميدلين، حتى
ذلك الحين، هو أن المبنى الأرجنتيني كارلوس غارديل، قد مات فيها،
متطوعاً في كارثة جوية. وأنا كنت أعرف كذلك، أنها أرض كثبان
وشعراء كبار، وأنه توجد فيها مبنية "البرمونتانيون" التي بدأت
ميرثيديس بارتشا الدراسة فيها، تلك السنة. وحيال مهمة ذهنية إلى
ذلك الحد، لم أهدأ أشعر بأنه من غير الواقعي بأي حال، إعادة تصوير
المجزرة التي تسبب بها انهيار الجبل، قطعة فقطعة. وهكذا **حدث بي**
الطائرة في ميدلين، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وسط عاصفة
وهجة أرسلتني إلى التوهم بأن تكون آخر ضحايا الانهيار.

تركت حقيبتني في فندق نونسيارا، وفيها ملابس ليومين، ورسالة
عقل للطوارئ، والدفع إلى الشارع، في مدينة حافلة لا تزال تلفها
نتائج العاصفة وحصادها. رافقتي ألفارو مونتيس لمساعدتي في تجاوز
خوفي من الطائرة، ووفر لي عناوين أناس لهم مكانة جيدة في حياة

المدينة. ولكن الحقيقة الباعثة على القسرية، تثبت في أنه ليست لدي
أدنى فكرة من أين سأبدأ. مشيت على غير هدى في الشوارع المشرقة،
لحمت طحين الذهب الذي تربله الشمس المشعة بعد العاصفة، ثم
اضطريت. بعد ساعة، إلى أن ألوذ بأول متجر، لأن المطر عاد للمطول
على الرغم من الشمس المشرقة. وعندئذ بدأت أشعر في قلبي، بأول
خفقات الهلع. حاولت كبحها بمعادلة جدي السحرية وسط المعركة، ولكن
الخوف من الخوف انتهى إلى السيب في انهيار مغرباتي. أدركت أنني
لن أفكر قط، من إنجاز ما كُلفت به، ولم أجد الشجاعة للقول بذلك.
وأدركت حينئذ أن التصرف الوحيد العادل، هو كتابة رسالة شكر إلى
مهيررر كانت، والعودة إلى بارنكيلا، إلى حالة الرضى الراهبة التي كنت
عليها قبل ستة شهور.

والراحة الهائلة التي أحسست بها، لخروبي من المجمع، ركبت
سيارة تكسي، لأعود إلى الفندق. كانت نشرة أخبار الظهيرة تقدم تعليقاً
مطولاً، بصوتين متناوبين، كما لو أن الانهيار قد حدث بالأمس. فراح
السائق يفرج عن نفسه، بالصراخ تقريباً، ضد إهمال الحكومة ونهبائها،
وسر التصرف بالمساعدات للمتضررين. أحسست بأنني ملتب بطريقة
ما، ومسؤول عن غضبه العادل، ولكن المطر توقف عندئذ، من جديد،
وصار الهواء شفافاً يعقب بنفجر الزهر في حديقة بيرتو، وفجأة، دون أن
أدري كيف، أحسست بضربة مخالب الجنون. فقلت للسائق،

- قدم لي خدمة. قبل الذهاب إلى الفندق، خذني إلى موقع
الانهيارات.

فقال هو:

- ولكن لا يوجد هناك ما يستحق المشاهدة. لا شيء سوى الشوارع المظلمة فقط، والصلبان الصغيرة للموتى الذين لم يستطيعوا إخراجهم من بين الأنقاض.

وهكذا علمتُ أن الضحايا والتاجين على السواء، هم من أماكن مختلفة من المدينة. وأن هؤلاء قد اجتازوها في جموع غفيرة لإخراج أجساد من سقطوا في الانهيار الأول. وكانت النساء عندما ملأ الفضوليين المكان، والزقج جزء آخر من الجبل في انهيار جارف. وهكذا فإن الوجدنين الذين بإسكانهم رواية الحكاية، هم القلة الذين أفلتوا من الانهيارات المتتالية، وما يزالون أحياء في طرف آخر من المدينة. فقلتُ للسائق: وأنا أحاول السيطرة على ارتعاش صوتي:

- مفهوم. خلني إذن إلى حيث يوجد الأحياء، التاجين،

قام بالدوران في منتصف الشارع، وانطلق في الاتجاه العاكس. ولم يكن صمته نتيجة السرعة التي صار يضي بها الآن، وإنما نتيجة الأمل بإفناعي بمروراته.

بداية الخط كانت طفلين في الثامنة والحادية عشرة من عمرهما، خرجا من بينهما لقطع الخطب، يوم الثلاثاء ١٢ نوز، في الساعة السابعة صباحاً، وكانا قد اتبعنا نحو مئة متر، عندما أصابهم انهيار الأتربة والصخور التي اندفعت نحوهما من سفح الجبل. فكنا من الهرب بصعوبة. وفلت أخوانهم الثلاث محتجزات، في البيت، ومعهن أمهما وأخوهما حديث الولادة. وكان التاجيان الوجدنان هما الطفلان اللذان خرجا قبل قليل، ووب الأسرة الذي غادر باكراً، إلى عمله في معجر للرمل، على بعد عشرة كيلومترات عن البيت.

كان المكان قفراً موحشاً على الطريق العام، بين ميدلين وريونغرو. وفي الساعة الثامنة صباحاً، لم يكن قد بقي فيه مكان لسقوط مزيد من الضحايا. نشرت المحطات الإذاعية الخبر بمباشرة أوقفها بكثير من التفاصيل العامة، ونماذج مستحيلة جعلت أول المتطوعين يصلون قبل رجال الطاقى. وعند الظهر، حدث انهيار آخران، دون وقوع ضحايا، ففاقما حالة العصبية العامة، وأقامت محطة إذاعة محلية مركز بث مباشر من موقع الكارثة. وفي تلك الساعة كان قد احتشد هناك سكان القرى والأحياء المجاورة بمجموعهم تقريباً، فضلاً عن الفضوليين القادمين من كل أرجاء المدينة، عن اجتذبتهم نداءات الإذاعة، والمسافرين الذين كانوا يتجولون من حافلات السفر، ليسيروا عريضة أكثر مما يقدمونه من العيون. وإضافة إلى الأجساد القليلة التي طُرت في الصباح، كان هناك عندئذ ثلاثئة جثة أخرى سبقتها الانهيارات المتتالية. ومع ذلك، وقبل الغروب بقليل، كان لا يزال هناك أكثر من ألفي منظر عفوي، بلدميون مساعداً طائشة لتناجين. وعند الغروب، لم يجد هناك منسج للنقص، فقد كانت الحشود كثيفة وفوضوية في الساعة السادسة، عندما وقع انهيار ساحق آخر. فُقر بمتي ألف متر مكعب، ورافقه دوي هائل، وأوقع عدداً كبيراً من الضحايا، كما لو أنه لم يحدث في حديقة بيريو المزدهجة في ميدلين، وقد وقعت الكارثة بسرعة، إلى حد أن الدكتور خالسيير صورا، سكرتير الأشغال العامة في البلدية، وجد بين الأنقاض، جثة أرنوب لم يجد متسماً من الوقت للمهر.

بعد أسبوعين من ذلك، عندما وصلتُ إلى المكان، لم يكن قد أُخرج سوى أربع وسبعين جثة. وكان عدد كبير من التاجين قد أَسْعَفُوا وصاروا

بأمن. ولم يكن معظمهم ضحايا الانتهيارات. وإنما ضحية التهور والتضامن غير المنظم. ومثلما في الزلازل، لم يكن بالإمكان كذلك تقدير عدد الذين لديهم مشاكل خاصة، واستغلوا الفرصة للاختفاء دون أن يطلقوا أثراً، هرباً من الدين أو لاستبدال نساتهم. ومع ذلك، فقد أسهم حسن الخط بدور، أيضاً، إذ أثبت تحقيق تال أنه منذ اليوم الأول، بينما كانت تجري محاولات الإنقاذ، أوشكت على السقوط كتلة صخور أخرى، يمكن لها أن تسبب انهيار خمسين ألف متر مكعب. وبعد أكثر من خمسة عشر يوماً، وبمساعدة الناجين الذين استردوا عافيتهم، استطعت أن أعيد بناء القصة التي لم تكن روايتها ممكنة في حينها، بسبب غيبات الواقع واضطرابه.

لقد تلخصت مهمتي في استخلاص الحقيقة الضائعة، من بين خليط من الافتراضات المتناقضة، وإعادة تركيب المأساة الإنسانية. وفق التسلسل الذي جرت به، بعيداً عن أية حسابات سياسية أو عاطفية. وكان ألفارو موتيس له وضعني على الطريق القويم، عندما أرسلني مع صحيفة الإعلان سيسيليا وارين التي نظمت لي ما رجعت به من معلومات، من موقع الكارثة. نُشر الريبورتاج على ثلاث حلقات، وكانت له على الأمل ميزة إيقاظ الاهتمام بخبر منسي، بعد أسبوعين من التأخير، وإعادة ترتيب فوضى المأساة.

ومع ذلك، فإن أفضل ذكرياتي عن تلك الأيام، لم يكن ما فعلته. وإنما ما كتبت على وشك أن أفعله، بفضل المفيلة الهذيانبة لزميلي القديم في بارانكيثا، أورلاندو ريفيرا، الملقب "فيفوريتا"، الذي التقيت به فجأة، في إحدى محطات التنفس القليلة، أثناء البحث والتحريرات. كان

يعيش في ميدلين منذ بضعة شهور. وكان سعيداً ومتزويجاً حديثاً من سول سانتاماريا، وهي رابعة فاتنة وذات روح حرة، ساعدها على الخروج من دير مغلق، يعد أن أمضت هناك سبع سنوات من الفقر والطاعة والعفة. وفي واحدة من سكراتنا الشهيرة، كشف لي فيفوريثا عن أنه قد أعد مع زوجته، وعلى مسؤوليته، خطة محكمة لإخراج ميرثيديس بارتشا من مدرستها الداخلية. وأن كاهناً صديقاً له، مشهوراً بفنونه في عقد الزيجات، سيكون مستعداً لتزويجنا في أي وقت. وكان الحائق الوحيد بالطبع، هو أن توافق ميرثيديس نفسها، ولكننا لم نجد طريقة للاقتناع منها، وهي ضمن حدونا محبها الأربعة، واليوم، أكثر من أي وقت آخر، تنهشني الغضب لأنني لم أمضك المرأة لعيش دراما المسلات تلك. أما ميرثيديس، فلم تعلم بأمر الخطة، إلا بعد بضع وخمسين سنة من ذلك، حين قرأت مسودات هذا الكتاب.

كانت تلك واحدة من آخر المرات التي رأيت فيها "فيفوريثا". في كرنفال ١٩٦٠، وكان متفكراً بهيئة غر كوبي، انزلق من عربة الكرنفال التي كانت تعده إلى بيته في باوانوا، بعد مشاركته في معركة تقاذف الزهور. وقد عثقه على حجارة الشارع المبروشة بأنفاس ونفثات الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي في انتهيارات ميدلين، وجدت بانظاري في الفندق، محبرين من صحيفة الكولومبيانو - وكانا فنيين إلى حد أنها أكثر سياباً مني -، وقد صمما على إجراء مقابلة معي، حول قصصي المنشورة حتى ذلك الحين. لقد تكلفا جهداً في إقناعي، لأنه كان لدي منذ ذلك الحين، ولا يزال، حكم مسبق، وبما هو جائر، ضد المقابلات

الصحفية التي تجري على صورة جلسة أسئلة وأجوبة، حيث يبلق الطرفان جهداً لعقد محادثة كاشفة. لقد عانيت من هذا الحكم المسبق في الصحيفتين اللتين عملت فيهما، وعانيت بمخاصة في كرونيكا، حيث حاولت أن أنقل عدوى تحفظاتي إلى المشاركين الآخرين في تحريرها. ولكنني وافقت، مع ذلك، على تلك المقابلة الأولى مع جريدة الكولومبيانو، وكانت صريحة إلى حد انتحاري.

لا حصر اليوم للمقابلات التي كنت ضحية لها على مدى خمسين سنة، وعلى امتداد نصف العالم. ولم أفكن حتى الآن، من الاقتناع بفعالية هذا الجنس من الكتابة، بأي حال من الأحوال. الأكثرية الساحقة من المقابلات التي لم أستطع تفاديها، حول أي موضوع، يجب أن تُعتبر جزءاً هاماً من أعمالي التخيلية، لأنها ليست سوى هذا: تخيلات حول حياتي. ولكنني أرى بالمقابل، أنها ذات أهمية لا تُشَمَن، ليس للنشر، وإنما كمادة أولية للريپورتاج، وهو الجنس الكتابي الذي أقدره باعتباره الجنس الأبرز في أفضل مهنة في العالم.

لم تكن تلك الأثمنة مناسبة، على أي حال، للمهرجانات، فحكومة الجنرال روطاس بنينبا، وكانت قد دخلت في نزاع مفتوح مع الصحافة وجزء كبير من الرأي العام، توجت شهر أيلول بقراءها في تقسيم مقاطعة تشوكو، الثانية والنسبة، بين جاراتها الثلاث المزدهرة: أنتيوكيا، وكاليفاس، وبابي. ولم يكن الوصول إلى كيبكو، عاصمة المقاطعة، ممكناً إلى من ميدلين، عبر طريق باتجاه واحد، وبحالة بالغة السوء، مما يتطلب أكثر من عشرين ساعة، لقطع مئة وستين كيلومتراً. والظروف اليوم ليس بأفضل مما كانت عليه آنذاك.

وكنا نرى في المهرجة، كالمزق، أنه لا يمكن عمل الكثير، لمنع تقسيم المقاطعة الذي أقرته الحكومة دون اعتبار للصحافة الليبرالية. وقد أرسل برمو غيرو، مراسل الامبيكاتور المجرب في كيبكو، أخباراً في اليوم الثالث، عن أن مظاهرة شعبية لأسر بكاملها، من في ذلك الأطفال، قد احتلت الساحة الرئيسية، مع التصميم على البقاء هناك، تحت الشمس والندى، إلى أن تراجع الحكومة عن نواياها. راحت الصور الأولى، للأحداث المستدرات، وبين أذرعهن أطفالهن، تفسر مع مرور الأيام، بفعل الأضرار التي سببها سهر الأهالي في العراق، وكنا نحرز هذه الأخبار، كل يوم، في هيئة التحرير، بتعليقات افتتاحية أو بتصرّيات لمباسبين أو مثقفين من مقاطعة تشوكو، يقهقون في بونغونا. ولكن الحكومة بدت مصممة على كسب المعركة، بصم أذنيها وعدم المبالاة. وبعد عدة أيام مع ذلك، دنا خوسيه سالغار من منضدتي بقلعه الذي كميذان مُحرك الدفع، واقترح عليّ أن أذهب لأخبري عما يحدث فعلاً في تشوكو، حاولت أن أرفض، مستغلاً السلطة الضئيلة التي اكتسبتها بفضل ريبورتاج ميدلين، ولكن ذلك لم يفلني كثيراً، فقد صرخ غيرومو كاتو الذي كان يكتب مديراً لنا ظهره، دون أن ينظر إليّ: - اذهب يا غايو، فخصيت تشوكو أفضل من اللواتي كنت ترفض

في رؤيتهم في هابي! وهكذا ذهبت دون أن أتساءل حتى عن كيف يمكن لي كاتشابة ريبورتاج عن مظاهرة احتجاجية ترفض اللجوء إلى العنف، والفتى المصور غيرمر سانشيث الذي كان يضاهني منذ شهر، بهزوفة دعوتي إلى أن نقوم معاً بإعداد ريبورتاج عن الحرب. ولضجري من سماع ذلك منه، قلت له صراحة:

- يا للجنة، أية حرب تعني!

فأملت فجأة، الحقيقة في وجهي:

- لا تنظروا بالهيا، يا غايبر، فأنا أسمعك تردد منذ بعض الوقت.

أن هذه البلاد تعيش حالة حرب منذ الاستقلال.

حضر في فجر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من أيلول، وهو

يرتدي ملابس محارب، أكثر مما هي ملابس مصور تحقيقات صحفية.

وكان يحمل آلات التصوير، وتتدلى الجعب من كل أنحاء جسده، لكي

تذهب لتغطية أخبار حرب يلقها الصمت، وكانت المفاجأة الأولى أنه يمكن

الذهاب إلى تشوكو قبل مغادرة بوغوتا، عبر مطار ثانوي لا وجود فيه

لخدمات من أي نوع، بين أنقاض ساحات مهتة وطائرات صدمة، أما

طائراتنا فكانت لا تزال حية بقدره فنون السحر، فهي طائرة من طراز

كانالينا الأسطورية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية. وقد

أعادت شركة مدنية تأهيلها لاستخدامها في الشحن، لم تكن فيها

مقاعد، وكانت ضيقة وكالحة من الداخل، مع وجود نوافذ صغيرة مغطاة،

وحصول من حزم ألصاف تصنع منها المكائس. وقد كنا المسافرين

الوحيدين فيها. أشار لنا مساعد الطيار ذو القميص قصير الأكمام،

وهو شاب وأنيق مثل طياري السينما، بأن مجلس على حزم المحملة التي

بدت له أكثر راحة. لم يتعرف علي، ولكنني كنت أعرف أنه كان لاعب

بيسبول بارز في فريق لامبوتونا، في كارتاخينا.

كان الإقلاع مرعباً، حتى بالنسبة لمسافر محب للمجازفة، مثل

المصور غييرمو سانتشيث، بسبب دوي الحركات الرعدة، وقرقرة حبات

بدن الطائرة. ولكنها ما إن استقرت في سماء السهب الصافية، حتى

انساب بقوة محارب مجرب. ومع ذلك، وبعد أن تجاوزنا استراحة ميدلين،

قاربنا وأبل من المطر فوق غابة متشابكة بين سلسلتين جبليتين، واضطرونا

إلى دخول تلك العاصفة مواجهة، وربما عشنا عندئذ، ما لم يحدث إلا قلة

من البشر القانين: تسرب المطر إلى داخل الطائرة من خلال ثقوب بينها.

وجاء مساعد الطيار الصديق قافزاً بين حزم المكائس، حاملاً إلينا صحف

ذلك اليوم لتستخدمها كمظلات، فغطيت حتى وجهي بالصحيفة، ليس

لأحمي من الماء، وإنما للحيلولة دون أن يروني أبكي من الرعب.

بعد نحو ساعتين من الاستسلام للحظ والفقر، مالت الطائرة على

جانباها الأيسر، ونزلت في وضع الانقضاض على غابة كثيفة، ثم دارت

دورتين حول ساحة كبيدو الرئيسية. استعد غييرمو سانتشيث لكي

يلتقط، من الجو، صوراً للمظاهرة المستنفدة من الإنهاك والسهو، فلم يجد

سوى الساحة المقفرة. لاحظت الطائرة الهرمائية المقلعة بجولة أخيرة،

للتأكد من أنه لا وجود لصوائق حية أو صيحة في نهر أراتو الهادئ،

وأعلنت هبوطها السعيد في فبط الظهيرة.

كانت الكبسة المربعة بألوان خشبية، والمقاعد الإسمنتية الملوقة

ببقايا العصافير، وخلف بلا صاحب تلمط أغصان شجرة عملاقة، هي

الإشارات الوحيدة على الوجود البشري في الساحة المقفرة والمقفرة التي

لا تشبه شيئاً أكثر مما تشبه عاصمة أناريطية. كان هدفنا الأول التقاط

صور مستعجلة للمحشود المحتجزة، وإرسالها إلى بوغوتا في ثورة

العائدة، ريثما نجمع ما يكفي من المقومات الجديدة وغير المعروفة،

لنرسلها بريقاً، كي تُنشر في طبعة اليوم التالي. لم يكن بالإمكان عمل

شيء من ذلك، لأن شيئاً لم يكن يحدث.

اجتزنا، دون شهود، الشوارع الطويل جداً بموازة النهر. وكانت تحف به متاجر مغلقة من أجل الشتاء، وسيوت ذات شرفات خشبية وسقوف صلبة. لقد كان المشهد مناسباً تماماً، إنما كانت تنقصه الدواما، كان زميلنا الحظيبي يرمو غيريرو، مراسل الاسبيكبادور، بنام القيلولة دون، هم في أرجوحة نوم ريفية، تحت عريشة بيت، كما لو أن الصمت الذي يحيط به هو سلام المفاهيم، وما كان يمكن للصرخة التي أوضح لنا بها إهماله وتهاونه، أن تكون أكثر موضوعية، فيعد مظاهرات الألبام الأولى، تراخت حدة التوتر بسبب الافتقار إلى موضوعات. عندئذ قام بترتيب تميمة للقرية بأسرها، بتأنيات مسرحية، والتفتت بعض الصور التي لم تُنشر، لأنها بدت غير مألوفة، وألقيت الخطابات الوطنية التي هزت البلاد فعلاً، ولكن الحكومة ظلت على عدم مبالاتها. نجبر أن يرمو غيريرو، وبمرونة أخلاقية وبما يكون الرب نفسه قد سامحه عليها، ألقى الاحتجاجات حبة في الصحافة، بقدرة البرقيات وحدها.

كانت مشكلتنا المهيمنة بسيطة؛ فنحن لم نقم بتلك الرحلة الطرؤانية، لكي نخبر الجريدة بأنه لا وجه للخبر. وكانت في متناول يدينا، بالمقابل، الوسائل لكي يكون الخبر صحيحاً، ونجز الهدف منه. عندئذ اقترح يرمو شيرير أن ينظم مرة أخرى المظاهرة النكالة، ولم يخطر لأبي منا فكرة أفضل من تلك، وكان أكثر مساعدتنا في ذلك حساسة هو النقيب لويس آ. كاتر، الحاكم الجديد المعين بعد استقالة خلفه الساخطة. وقد كانت لديه المرأة على تأخير إقلاع الطائرة، لكي تلتقي الجريدة صور غيريرو سانتشيث، في الوقت المناسب. وهكذا انتهى الأمر بالخبر المختلق بدافع الحاجة، إلى أن يكون الخبر الوحيد الصحيح. فقد ضخمته الصحافة

والإذاعة في كل أنحاء البلاد؛ وسرعان ما تلقته الحكومة العسكرية لتنفذ وجهها. في تلك الليلة بالذات، بدأت تمينة عمادة للسياسيين المنتمين إلى مقاطعة تشوكو - وكان لبعضهم نفوذ في بعض قطاعات البلاد - فما كان من الجنرال روشاس بينياً، بعد يومين من ذلك، إلا الإعلان عن إلغاء قراره بتوزيع مقاطعة تشوكو بين جيرانها.

لم نرجع أنا وغيريرو سانتشيث إلى بوغوتا فوراً، لأننا أقمنا الجريدة بأن تسمح لنا بالتجوال في مناطق تشاكو الداخلية، لتتعرف بحق على واقع ذلك العالم الجبالي. وبعد عشرة أيام من الصمت، عندما دخلنا إلى قاعدة التحرير، ولد دبت الشمس جلدنا، ونحن نكاد ننهار من النعاس. استقبلنا خوسيه سالغار سعيداً، ولكن على طريفته، فقد سألنا بتأكيد حاسم:

- هل تعلمان منذ متى انتهى خبر منطقة تشاكو

وقد وضعني السؤال مواجهة، للمرة الأولى، أمام شرط الفناء الذي يحكم الصحافة. وبالفعل، لم يعد هناك من يهتم بمنطقة تشاكو، منذ أن نُشر القرار الرئاسي بإلغاء تقسيمها. ومع ذلك، فقد أهدني خوسيه سالغار في المجازفة بطهو ما هو ممكن من تلك السمكة الميتة.

ما حاولنا نطه في أربع حلقات طويلة، هو اكتشاف بلاد أخرى لا يمكن تصورها داخل كولومبيا، ولم تكن لدينا أية معرفة بها. فهناك وطن سحري، تسوده الأدغال المزهرة والفيضانات الأبدية، حيث يبدو كل شيء كنسخة غير معقولة من الحياة اليومية. كانت العقبة الكبرى التي تعترض شق طرق بريء، هي تلك الكمية الهائلة من الأنهار الجارية، غير أنه لم يكن هناك سوى جسر واحد في المنطقة كلها. وجدنا طريقاً معبدة

بطول خمسة وسبعين كيلومتراً، عبر الغابة العذراء، مقامة بكثافة باهظة من أجل وصل بلدة إسمينا ببلدة يوتو، ولكنها لا تمر من الأولى أو الثانية، كإجراء عقابي من المفاول الذي دخل في تنازعات قضائية مع عمدتي البلديتين.

في إحدى قرى المنطقة الداخلية، طلب منا وكيل البريد أن نعمل، إلى زميله في إسمينا، البريد المتراكم لديه منذ ستة أشهر. لقد كان ثمن علبة السجائر الوطنية هنالك، ثلاثين سنتاً، مثلما هو في بقية أرجاء البلاد. ولكن عندما تتأخر الطائرة الصغيرة الأسبوعية التي تخدم البلدة بالسجائر، يرتفع السعر عن كل يوم تأخير، إلى أن يجد الأهالي أنفسهم مضطرين إلى تدخين السجائر الأجنبية التي تصبح أرخص من الوطنية. أما كبس الرز، فيزيد سعره خمسة عشر فيزاً عما هو عليه في مناطق الزراعة، لأنهم يخلطونه عبر ثمانين كيلومتراً من الغابات العذراء. على متن البغال التي "تتشعب" كاللفظ على الدروب الجبلية الضيقة. وتعمل نساء أشد القوي فقراً في قرى الذهب والبلاتين في الأنهار. بينما ينصرف رجالهن إلى صيد السمك. وفي أيام السبت يبيعون للتجار المتجولين دزينة من الأسماك، وأربعة غرامات من البلاتين، بثلاثة بيروا، فقط.

كل هذا كان يحدث في مجتمع مشهور بلهفته إلى الدراسة والعلم. ولكن المدارس لليلة وستمائة. وعلى التلاميذ أن يقطعوا عدة فراسخ كل يوم، سيراً على الأقدام وفي الزواقي، من أجل الذهاب والإياب. وقد كانت بعض المدارس مزودة إلى حد أنهم كانوا يستخدمون البناء نفسه في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة للذكور، وأيام الثلاثاء والخميس

والسبت للإناث. وللمسب نفسه، كانت تلك المدارس هي الأكثر ديمقراطية في البلاد، لأن ابن الفسالة الذي يكاد لا يجد ما يأكله، يرتاد المدرسة نفسها التي يلعب إليها ابن الصدة.

لثة قليلة من الكولومبيين كانوا يعرفون آنذاك، أنه هناك في أودغال تشوكو، تنتصب أكثر مدن البلاد حداثة. إنها مدينة تدعى أنداغويا، تقوم عند التقاء نهري سان خوان وكوندنو. وكان فيها نظام اتصال هاتفية متقن الكمال، وأرصفت لاستقبال السفن والمراكب، تحده ملكيتها لمدينة نفسها التي تشقها شوارع فسحة ومشجرة. وكانت البيوت الصغيرة والنظيفة، ذات الأنفية الواسعة المسجدة والأدراج الخشبية البهية عند البوابات، تبدو مزروعة وسط العشب. وفي منتصف المدينة، كان هنالك كازينو فيه مطعم-كباريه، وبار تقدم فيه خمور مستوردة بأسعار أرخص من بقية أنحاء البلاد. إنها مدينة يلفظها أناس من كل أنحاء العالم، نسوا الحنين، ويمشون هناك أفضل مما في بلادهم. تحت السلطة الكلية للجنرال الفعلي لتشوكو باسينيكو، لقد كانت أنداغويا، في الحياة الواقعية، بلداً أجنبياً وملكة خاصة، مجرف كراكاته فيحان الأنهار الخرافية، تنهب الذهب والبلاتين، وتحمله في سفينة خاصة، تخرج به إلى العالم بأسره، دون مراقبة من أحد، عبر مصبات نهر سان خوان.

كانت تلك هي تشوكو التي أردنا كشفها للكولومبيين، ولكن دون أي نتيجة، لأن كل شيء عاد إلى ما كان عليه، بعد أن انفضى المهرب، وبقيت أكثر المناطق المنسية في البلاد. وأهنا أن السبب واضح وجلي، فكولومبيا كانت على الدوام بلداً كاريسي الهوية، مفتوحاً على العالم من

خلال حبس الخلاص الذي قفله بنما. وجاء اقتطاع بنما الإجباري وفصلها عن كولومبيا، ليحكم علينا بأن نكون ما نحن عليه اليوم: بلاداً أنديزية بالشروط المناسبة لكيلا تكون القناة بين المحيطين مثكاً لنا، وإغماً للولايات المتحدة.

كان يمكن لإقناع التحرير في الجزيرة، أن يكون قاتلاً لولا أمام الجمعية مساءً. بعد تحريرنا من راجباتنا، إذ كنا ننتقي في بار قندق كونتيننتال، على الرصيف المقابل، في جلسات تفريح عن النفس تستمر حتى الفجر. وقد عمد إدواردو ثلامها تلك الليالي باسم خاص: "الجمعية الثقافية". وكانت تلك الجلسات هي لروصتي الوحيدة لتبادل الحديث معه. كيلا يفوتني لطار مستجدات العالم الأدبية التي يتابعها لحظة بلحظة، بقدرته كقارئ غير عادي. أما المواطنون المتمسكون بسهرات المشروبات الكحولية غير المتناهية. «ذات النهايات غير المتوقعة تلك - فضلاً عن صديقي أو ثلاثة من أصدقائي - أوليسيس الأبديين -، فكاننا نحن المحررون الصغار الذين نخشى انتهاء الجلسة قبل حلول الفجر.

لقد لفت انتباهي على المواقم، أن ثلامها لم يقدم قط. أي ملاحظة حول تعليقاتي الصحفية، بالرغم من أن معظمها كانت مستوحاة من تعليقاته ومقالاته. ومع ذلك، عندما استقرت لقامات "الجمعية الثقافية"، أطلق العنان لأفكاره حول الزوايا الصحفية. وقد اعترف لي بأنه لا يتفق مع كثير من وجهات نظر تعليقاتي، واقتصر عليّ غيرها، ولكن ليس بنبرة المعلم لتلميذه، وإنما كاتب لكاتب.

ملاذ آخر كنا نتردد عليه بكثرة، بعد تأسيس النادي السينمائي.

هو السهرات حتى منتصف الليل، في شقة لويس فيثنس وزوجته نانسي، على بعد كودرات قليلة من الاسبينكادور. وكان هو، الذي ساهم فيما مضى، في الكتابة مع مارسيل كولون ويغال، وترأس تحرير مجلة "السينما الفرنسية" في باريس، قد بذل أبحاثه السينمائية، وتحول إلى مكتبتي جيد في كولومبيا، بسبب الحرب الأوروبية. كانت نانسي تنصرف كمصنفة سحرية، فادارة على تكبير غرفة طعام أربعة أشخاص، لتستوعب اثني عشر شخصاً. لقد تعارفا بعد وقت قصير من مجيئه إلى بوغوتا، سنة ١٩٣٧، خلال عشاء عائلي. لم يكن هنالك على المائدة، سوى مكان شاهير وحيد، إلى جانب نانسي، حين رأته برعب، ودخل لدعوى الأخير. بشعره الأبيض وبشرة متساقط الجبال الملوحه بالشمس، فقالت لنفسها: "يا لمسوء هذا! سيجلس الآن إلى جانبي هذا البولوني الذي لا يعرف حتى التكلم بالإسبانية". وكانت على صواب تقريباً، في ما يتعلق باللغة، لأن القادم الجديد كان يتكلم الإسبانية بكتاتبية نهضة، مختلطة بالفرنسية. وكانت هي المتحدرة من مقاطعة بويكا، متحدثلة اللغة وطليقة اللسان. ولكنهما تفاعلا على أحسن وجه، منذ تبادلتهما التوبة الأولى إلى حد أنهما بقيا لبعضاً معاً إلى الأبد.

سهراتهما كانت تُرجمَل بعد العروض السينمائية الافتتاحية الكبرى، في شقة مترعة بغليط من كل الفنون، حيث لم يكن هناك متسع لزبد من الرسامين المبدعين الكولومبيين، ممن سيصبح بعضهم مشهوراً في العالم بأسره. وكان المدعون مختارين من بين أبرز أهل الفنون والأدب، وقد تظهر شلة بارونكيا هنالك بين حين وآخر. دخلتُ إلى ذلك البيت، كما لو أنني في بيتي، منذ ظهور مقالتي الأولى في النقد السينمائي.

وعندما كنتُ أخرج من الجريدة قبل منتصف الليل، أقطع الكوارات الثلاث ماشياً، وأجبرهما على السهر حتى وقت متأخر. وقد كانت المعلمة نانسي - فضلاً عن أنها طاهية رائعة - ساعية زواج ضاوية، ترنجل ولاتم عينا، بريئة، لتعرفني على أكثر لغتيات عالم الفن جاذبية ومحرواً، ولم تغفر لي قط، عندما قلت لها، وأنا في الثامنة والعشرين، إن ميلي الحقيقى ليس أن أكون كاتباً ولا صحفياً، وإنما عازفاً لا يهزم.

في فصول الفراغ التي تسبق لألفارو مونس، من رحلاته حول العالم، غام بإدخاله إلى أعلى مستويات المجتمع الثقافي وتعرضي عليه. لمحكم وضعه كمدير علاقات عامة لشركة إسر الكولومبية، كان ينظم ولاتم غداء في أعلى المطاعم. وهو ما يوفر في الواقع، التأثير والوزن في عالم الفن والأدب، وكان مدعوه في أحيان كثيرة، ضيوفاً من مدن أخرى في البلاد. الشاعر خورخي غابشان ديزان الذي كانت تتسلط على ذهنه، فكرة إصدار مجلة أدبية كبرى، تتطلب نروة باهظة، حل الأمر جزئياً، من أروسة ألفارو مونس المخصصة لتشجيع الثقافة. وكان ألفارو

كاستانيو كاستيو وزوجته، غلوريا بالينبا، يحاولان منذ سنوات، تأسيس محطة بث إذاعي، مكرسة بالكامل للموسيقى الجيدة، ولبرامج ثقافية في متناول اليد. وكنا جميعاً نسخر من عدم واقعية مشروعاتهم، بلستنا - ألفارو مونس الذي بذل كل ما يمكنه لمساعدتهم، وهكذا أننا إذاعة JACK، "العالم في بوجوتا" بث قدرته 500 واط، وهي الطاقة الدنيا في ذلك الحين. ومع أن التلفزيون لم يكن قد وُجد بعد في كولومبيا، إلا أن غلوريا بالينبا اخترعت الأعجوبة الميافيزيقية بتدبيرها، عبر الإذاعة، برنامجاً عن عروض الأزياء.

الاستراحة الوحيدة التي كنت أبيعها لنفسي، في أيام الضيق تلك، هي أمسيات الأحاد في بيت ألفارو مونس الذي علمني الانسحاق إلى الموسيقى، دين أحكام طبقية مسبقة. كنا نستلقي على السجادة لنستمع بقلبتنا، إلى كبار الموسيقيين، دون تأملات نظرية حكيمة. وكان ذلك هو أصل شخصي بالموسيقى الذي بدأ في القاعة الخفية، في المكتبة الوطنية، ولم ينسأ قط. لقد استمعت اليوم إلى كل ما استطعت الحصول عليه من الموسيقى، ولا سيما موسيقى الهجرة الرومانسية التي اعتبرها ذروة الفنون. أما في مكسيكو، بينما كنتُ أكتب مئة عام من العزلة - في عاصي 1965 و 1966 - فلم يكن لدي سوى أسطوانتين اثنتين، استهلكتها لكثرة ما استمعت إليهما، الاستهلالات لديبوس، وبها لليلة ذلك اليوم لفرقة البيتلز. ولمى ما بعد، عندما امتلكت لي برشلونة الكثير من الأسطوانات، بقدر ما كنت أرغب على الدوام تقريباً، هذا لي أن المصنف الأجنبي تقليدي جداً، فاخترت من أجل راحتي الخاصة، اتباع ترتب يأخذ في الاعتبار الآلات الموسيقية: التشيلو، وهو المفضل لدي، من فيفالدي إلى براهمز، والكمان، من كوريلي حتى شوبرغ الكلايك والبيانو، من باخ حتى بارتوك. إلى أن اكتشفتُ معجزة أن كل ما يرن هو موسيقى، بما في ذلك الأطباق وأدوات الطعام في المجلى، ما دامت تؤوي وهم إشعارنا بالمسار الذي تقضي فيه الحياة.

كنت أعاني من محدودية عدم قدرتي على الكتابة، بوجود الموسيقى، لأنني أولي انتباهي إلى ما سمعته أكثر مما أوليته إلى ما أكتبته، وما زلت حتى اليوم لا أتروء إلا نادراً على المغلات الموسيقية، لأنني أشعر أنه يقرم، في مقعد الصالة، نوع من الخصمية الوقورة مع

جيران غرباء. ومع ذلك، مع مرور الزمن وتوفر الإمكانيات لسامع موسيقى جيدة في البيت، تعلمت الكتابة بوجود خلفية موسيقية تتوافق مع ما أكتبه؛ تكتورنات شويان للأحداث الهادئة، أو مداعبات براهمز للأحاسيس السعيدة. ولم أعد أستمع، بالمقابل، إلى موزارت لسنوات طويلة، منذ أن داهمتني الفكرة الشيطانية بأن موزارت غير موجود، لأنه عندما يكون جيداً فهو يتهوّن، وعندما يكون سيئاً يصير هائلاً.

لقد توصلت، في السنوات التي أستعصر فيها هذه الذكريات، إلى معجزة عدم الشعور بالضيق من أي نوع من الموسيقى، وأنا أكتب؛ وربما دون أن أهي فضاءاتها الأخرى؛ ذلك أن المفاجأة الكبرى جاءتني من موسيقيين كتالبيين، شابين ودؤوبين، يعتقدان بأنهما اكتشفا غشاهات مفاجئة بين خريف البطريرك، ورايتس السادسة، وكونشيرتو البهاتو الثالث لبيلا بارنوك. صحيح أنني كنت أستمع إلى هذا الكونشيرتو دون تولف، بينما أنا أكتب، لأنه كان يولد في حالة خاصة جداً من الحماسة، وغيرة بعض الشيء، ولكنني لم أفكر قط، في أنه يمكن لظلك الموسيقي أن تكون قد أثرت بي إلى الحد الذي تلمح به في كتابتي. ولست أدري كيف علم أعضاء الأكاديمية السويدية بنقطة ضعفي تلك، فوضحوها تلك الموسيقى نفسها، كخلفية، هند تعليمي جازتي، إنني أشكركم من أعماق روحي بالطلع، على تلك اللقطة، ولكن لو أنهم سألوني - مع كل اعتنائي واحترامي لهم ولبيللا بارنوك - لكتبت أحببت أن توضع إحدى منطوبات فرانزيسكو الرجل، الرومانسية الطبيعية التي كانت تعزل في طفولتي.

لم يكن هناك في كولومبيا، في تلك السنوات، مشروع ثقافي

يحقق، أو كتاب يكتب، أو لوحة ترسم، دون المرور قبل ذلك، من مكتب عتيق. لقد كنت شاهداً على حوار مع رسام شاب لديه كل شيء جاهز من أجل رحلته البحرية التي لابد منها إلى أوروبا، ولكنه كان يفتقر إلى النقود اللازمة للرحلة. لم يكن ألفارو قد استمع إلى قصته كلها، عندما أخرج حقيبته المعبأة من المنفعة، قائلاً له:

- ها هي ذكري السفر.

كنت أشهد مذهولاً، التفاتية التي يحقق بها تلك المصجزات، دون أدنى تفاخر ملطوي. ولهذا ما زلت أسأل عما إذا لم تكن له علاقة بالطلب الذي عرضه عليّ، في إحدى حفلات الكوكيتيل، سكرتير جمعية الكتاب والفنانين الكولومبيين، أوسكار ديلفادو. لكني أشاء في مسابقة وطنية للقصة القصيرة، يوشكون الإعلان عن حجب جازتها. ولقد قال ذلك بأسلوب بالغ الاستخفاف إلى حد بدا لي الاقتراح معه مشيناً، على أن أحدهم سمعه، فأكد لي أنه لا يمكن للمرء، في بلاد مثل بلادنا، أن يصير كاتباً دون أن يعرف أن المسابقات الأدبية ليست سوى مسرحيات إيمائية اجتماعية؛ بما في ذلك جائزة نوبل. أنهى كلامه بهذه العبارة دون أدنى قدر من الحث؛ فوضعتني منذ ذلك الحين، دون أن يكون قد فكر في الأمر، في حالة ناهب لاختلاف قرار خطير آخر اعترضني بعد سبع وعشرين سنة من ذلك.

ضمت لجنة الحكم مسابقة القصة القصيرة هيرناندو تيبث، وخوان لوثانو أي لوثانو، ويبدو غوميث فالديراما وثلاثة كتاب ونقاد آخرين من الوزن الثقيل. ولهذا لم أحسب حساباً للاعتبارات الأخلاقية والاقتصادية، وإنما أمضيت ليلة في التصحيح النهائي لقصة "يوم بعد

السبت" التي كنت قد كتبها في بارانكيا، في ضربة إلهام قاجأتني في مكاتب جريدة إناسيونال - وبعد نومها أكثر من ستة في الدرج، يدت لي قاذرة على إبهام لجنة تحكيم جيدة. وهذا هو ما حدث، فضلاً عن حصولي على مكافأة مالية هائلة: ثلاثة آلاف بيزو.

في تلك الأيام بالذات، ودون أي علاقة بالمسابقة، جاضي إلى المكتب دوين صامويل ليزمان باوم، الملحق الثقافي بسفارة إسرائيل. وكان قد افتتح لثو، مؤسسة للنشر بإصداره كتاب أشعار للمعلم ليرن دي شريف: "أوراق الفلستر الحامس المختلطة". كانت الطبعة حنة المظهر، والأخبار عن ليزمان باوم جيدة. وهكذا قدمت إليه نسخة مرقعة جداً من "عاصفة الأوراق"، وصرقته طيراً مع الوعد بأن نحدث في ما بعد. وبخاصة عن النقود. وكان هذا - بالفعل - هو الموضوع الوحيد الذي لم نحدث فيه أبداً. وقد رست سبيلها بروامس خلافاً متجدداً - لم تتمكن من تقاضي ثمنه كذلك -، مستندة إلى وصفي لشخصية الطفل، وصدعت ورشة الزنك وراف بصحيفة الاسيكنادور كلبشيات الغلال بأربعة ألوان، كهديّة.

لم أعد إلى معرفة أي شيء إلا بعد خمسة أشهر من ذلك، عندما اتصلت بي دار نشر ميبا في بوغوتا - ولم أكن قد سمعت باسمها من قبل - لتقول لي إن طبعة من أربعة آلاف نسخة جاهزة للتوزيع، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها، لأن أحداً لا يعرف أين هو ليزمان باوم. ولم يستطع حتى كتبة الريبورتاجات في الجريدة أن يعرفوا أي شيء عنه. ولم يجده أحد حتى شمس هذا اليرم. فعرض أوليسيس على المطبعة أن تتولى بيع النسخ للمكتبات، بالاستناد إلى الحملة الصحفية التي بدأها

هو نفسه، بمقالة لم أشكره عليها حتى الآن. كان التمدد رائعاً، لكن معظم الطبعة هل في المستودع، ولم يُعرف قط، عدد النسخ التي بيعت، كما أنني لم أتلق من أحد مستأجر واحد من حقوقي.

بعد أربع سنوات من ذلك، قام إدواردو كاهاييرو كالدرون، المشرف على سلسلة "المكتبة الأساسية للثقافة الكولومبية" بضم طبعة جيب من "عاصفة الأوراق" إلى مجموعة أعمال بيعت في أكشاك الشوارع، في بوغوتا ومن أخرى. وقد دفع لي الفرق المتفق عليها، وهي ضئيلة ولكن في موعدها المحدد. وكانت لها قيمة عاطفية لأنها أول نقود أحصل عليها مقابل كتاب. وقد تضمنت الطبعة، عندئذ، بعض التغيرات التي لم أنصرف عليها بأنها لي، ولم أهتم بعدم تضمينها في طبعات تالية، وبعد ثلاثة عشر عاماً تقريباً، عندما مررت بكولومبيا بعد إطلاق "حمة عام من العزلة" في بوينس آيريس، عثرت في أكشاك الشوارع، في بوغوتا، على أعداد من النسخ المنسوبة من الطبعة الأولى من "عاصفة الأوراق" بسعر بيزو واحد للنسخة. فاشتريت منها كل ما استطعت جملة. ومنذ ذلك الحين، وجدت كميات أخرى متفرقة، في مكتبات متعددة في أمريكا اللاتينية، يحاولون بيعها على أنها كتب تاريخية. وقبل نحو عامين، باع وكالة إنكليزية للمكتب القديمة، بثلاثة آلاف دولار، نسخة تحمل توقيع لي من الطبعة الأولى من "حمة عام من العزلة".

لم تحرفني أي واحدة من تلك الحالات، لحظة واحدة، عن انهماكي في الصحافة. فقد اضطرنا التبحر الأولي للتحقيقات الصحفية المتسلسلة، إلى البحث عن عطف لتقنية وحش نهم لا يشبع. وكان التوتر

الجمعي لا يُحتمل، ليس في تحديد الموضوعات والبحث عنها وحسب، وإنما كذلك في سياق كتابتها المهددة، على الدوام، بالافتتان بالخيال. لم تكن ثمة شكوك في الاسبكتادور، قلادة الأولية في المهنة يجب أن تكون الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، وكان ذلك يبتينا في حاله توتر دائم. وانتهى بنا الأمر، أنا وخوسيه سالفار، إلى حالة من الإدمان لا تتيح لنا لحظة سلام حتى في عطلة أيام الأحد.

شاع في عام ١٩٥٦ أن البابا يبر الثاني عشر يعاني من نوبة فواق يمكن لها أن تكلفه حياته. وكانت الحالة المماثلة الوحيدة سابقاً التي أتذكرها، هي قصة سومرست موم الرائعة "P.O."، التي مات بطلها وسط المحيط الهندي، بترية فواق، فضت عليه في حمله أيام، بينما كانت تصله من العالم بأسره، كل أنواع الوصفات الغريبة، لكنني اعتقد بأنني لم أكن أعرف القصة في ذلك الحين. لم تكن مجرّدة، في عطلة نهاية الأسبوع، على الذهاب بعيداً في رحلاتنا إلى قرى السبب، لأن الصحيفة كانت تستعد لإصدار طبعة امتثنائية خاصة إذا ما توفي البابا. وكنتُ أريد أن تكون لدينا طبعة جاهزة مسبقاً، تُبقي فيها فرائحات تملأ عند وصول أول البرقيات عن الوفاة. بعد سنتين من ذلك، وكنتُ قد صرحت مراسلاً في روما، كان العالم لا يزال ينتظر نهاية فواق البابا.

مشكله أخرى في الصحفية، لم يكن هناك سبيل لمقاومتها، هي الميل إلى قصر الاهتمام على موضوعات مشيرة، يمكن لها أن تجتذب مزيداً من القراء. وكان لديّ مبلي المتواضع بعدم فقدان جمهور آخر يفكر بالقلب فقط، ويتلقى قدرأ أقل من الاهتمام. وبين الموضوعات القليلة

التي قكتت من العثور عليها، ما زلت أتذكر الريبورتاج الأكثر بساطة، والذي شغني بصورة خاطئة من خلال نافذة الحافلة. فعلى باب بيت كولونبالي ببيع، في الرقم ٥٦٧ في الشارع الثامن، في بوغوتا، كان هناك إعلان يقلل من شأن نفسه: "مكتب متأخرات البريد الوطني". لا أتذكر بأنني فقتت شيئاً في تلك المتاهات، ولكنني تولت من حافلة الترام، وطرفت الباب. الرجل الذي فتح لي كان المسؤول عن المكتب مع ستة موظفين منهجيين، يغطيهم صدأ الروتين، تشملل مهمتهم الرومانسية في العثور على من أرسلت إليه أي رسالة غير واضحة العنوان.

كان بهنا جميلاً، ضحكاً ومعرفة، له أسقف عالية وجدران متأكلة، وممرات خافتة وردعات مترعة بأوراق لا صاحب لها. تدخله، وسطها، منه رسالة متأخرة كل يوم، عشر رسائل منها على الأقل. وضعت عليها الطوايح، ولكن المظف بقي أبيض لا يحمل حتى اسم المرسل، وكان رجال المكتب يسمونها "رسائل الرجل الخلفي". ولا يتوانون عن بذل جهدهم من أجل تسليمها أو إعادتها، لكن طفرس لمضجها للبحث عن مؤشرات، كانت عملية بيروقراطية صارمة وهجر مجدية، إلا أنها تستحق التقدير.

نشر الريبورتاج على صفحة واحدة، تحت عنوان "ساعي البريد بطرق الباب ألف مرة"، مع عنوان فرعي: "مقبرة الرسائل الضائعة". وقد قال لي سالفار عندما قرأه: "لا حاجة إلى ليّ عنق هذه الجملة، لأنها ولدت ميتة". ونشر الريبورتاج على المساحة اللازمة له بالضبط، لا أكثر ولا أقل، ولكن كان يبدو عليه الشعور بالملوحة مغلبي، لما كان يمكن للريبورتاج أن يكون عليه. أما روخيلير إنشياربياً، ربما لأنه شاعر، فقد احتفى به

بمزاج طيب، وبجملة لن أنساها أبداً: "السألة هي أن غابو يتصلك حتى بمسار ساخن".

شعرت بالقنوط، فقررت أن أتولى بنفسى، وعلى مسؤوليتى - دون أن أخبر سائقار بذلك - العثور على صاحبة رسالة استحققت منى اهتماماً خاصاً. كانت مرسلة من مصححة الجذام "أغوا دي دهرس"، وموجهة إلى "سيد الخفاء" الذى تذهب، كل يوم، إلى فلباس الساعة الخامسة في كنيسة لاس أغواس. بعد أن قمت بكل أنواع التحريات غير المجدية، مع كاهن الكنيسة ومساعديه، واصلت اللقاء، عدة أسابيع، مع المؤتمنين المواطنين على فلباس الخامسة، ولكن دون نتيجة. وقد فرجت بأن أكثر رواد الفلباس مواظبة، كن ثلاث متقدمات في السن، يأتين دائماً بلباس حذاء كامل، ولكن لا علاقة لأي واحدة منهن بمصححة الجذام "أغوا دي دهرس". كان إخفاقاً تطلب مجازة منى بعض الوقت، ليس بسبب الأمانة وحسب الذنات، ولا لأنى قمت بعمل أقرب إلى الإحسان وحسب، وإنما لأننى كنت واثقة من أن هنالك، رواد قصة امرأة الخفاء تلك، قصة أخرى مؤثرة.

وكلما كنت أغوص في مستنقعات الريبورتاج الصحفي، كانت علاقتى بمساهمة بارانكيّا تزداد رخصاً، لم تكن رحلاتهم إلى بوغوتا كثيرة، لكنى كنت أنقص عليهم هاتفياً في أي وقت، وحيث أني مشكلة، وبخاصة على خيرمان بارغاس، بسبب مفهومه التبروي للريبورتاج الصحفي. كنت أشتيرهم في كل مشكلة، وكانت المشاكل كثيرة، أو أنهم كانوا يتصلون بي لتهنئتي. لقد كنت أرى في ألفارو سيببينا زعيلاً يجلس على الكرسي المجاور. وبعد السعريات الودية

المتبادلة التي كانت تقلباً صارماً ضمن الجماعة، كان يُخرجني من المستنقع الذي أغوص فيه، ببساطة تشير دهشى على الدوام. أما استشاراتي مع ألفونسو فوينيامور بالمقابل، فكانت أدبه أكثر من أي شيء آخر. فقد كان يمتلك القدرة الساحرة الصائبة على إنقاذ من كل ورطة، بأفئلة من كبار الكتاب، أو لمبلي على القياس منقذاً من ترسانة معلومة التي لا قرار لها. وكانت دعابته الكبرى، حين طلت منه عنواناً لقائمة عن باعة الطعام في الشوارع الذين تطاردهم السلطات الصحية، فقد أفلت ألفونسو إجابته القوية:

- من يبيع الطعام لا يموت جوعاً.

شكرته من كل أعماق روحي. وبدا لي العنوان مناسباً إلى حد لم أستطع معه منع نفسى من سؤاله عن لائله فأولفني ألفونسو، فجاءه بالحقيقة التي لم أكن أتذكرها:

- إنها لك يا معلم.

وبالفعل، كنت قد ارتحلت تلك الصبابة في زاوية صحفية دون توقيع، ولكنى نسيتها. وقد جرى تداول هذه الحكاية لسنوات عديدة، بين الأصدقاء في بارانكيّا الذين لم أستطع إقناعهم بأنها لم تكن دعابة على الإطلاق.

شغلتنى لبضعة أيام، رحله عارضة قام بها ألفارو سيببينا إلى بوغوتا، وأخرجتنى من دوامة الأخبار اليرمية. جاء حاملاً فكرة إنجاز فيلم لم يكن لديه منه سوى العنوان: "الجرادة الزرقاء". كان خطأ صائباً، لأن لويس بيشينس وإيرميكي غرار والمصور نيريو لوبيث أخفوا الأمر على محمل الجدل. لم أعد أعرف شيئاً عن المشروع، إلى أن أرسل لي بيشينس

مسودة السيناريو لكي أضيف شيئاً مني إلى القاعدة الأصلية التي وضعها الفارو. وقد أضفت شيئاً لم أجد أذكره اليوم. لكن القصة بدت لي ممثلة، وتضمن جرعة كافية من الجنون، لتبدو معها أنها من بينات أذكارتنا.

لقد قدم كل واحد منا قليلاً من كل شيء، لكن أها العمل الحقيقي. وصاحب الحق فيه، هو لويس بيشنس الذي فرض الكثير من الأشياء المتبقية لديه من بدايات تعلمه في باريس. أما مشكلتي، فتمثلت في أنني كنت مشغولاً بأحد تلك التحليلات الصحفية المسببة التي لا تترك لي وقتاً للنفس. وعندما تمكنت من الانتهاء منه، كان الفيلم في أوج عملية التصوير في بارانكيا.

لقد كان عملاً بدائياً، ميزته الكبرى، كما يبدو، هي سيطرة الذاكرة التي ربما كانت الملاك الرصي على الفارو سيبيدا. ففي أحد عروض الفيلم المنزلية المتحدة في بارانكيا، حضر المخرج الإيطالي انريكو فولكونوني، وفاجأنا بمدى تعاطفه: بدا له الفيلم جيداً. ومفضل تبناً سانوتاس، زوجة الفارو، وعنادها الحسيد، جال ما تبقى من ٢٠ المجرأة الزرقاء العالم لعرض في مهرجانات سينمائية جريئة.

كانت تلك الأمور تشغلنا أحياناً عن واقع البلاد، وهو واقع رهيب. لقد كانت كولومبيا تعتبر طالية من رجال حرب العصابات، منذ أن استقرت القوات المسلحة على السلطة، تحت راية السلام والوفاق بين الأحزاب. لم يخامر الشك أحداً في أن شيئاً تغير، إلى أن وقعت مجزرة الطلاب في الشارع السابع. فالعسكريون المزعزون، لأبواب خاصة بهم، أرادوا أن يشبهوا لنا، نحن الصحفيين، بأن هناك حرباً مختلفة عن تلك

الحرب الأزلية بين الليبراليين والمحافظين، وكنا في تلك الأجواء، عندما دنا خوسيه سالغار من مكتبتي، بوحدة من أفكاره المربعة: - استعد للتعرف على الحرب.

وكنا، نحن المدعوين للتعرف عليها، دون كثير من التفصيل، دقيقين بالمحضور في الساعة الخامسة فجراً، للذهاب إلى قرية لبيارنكا، على بعد مئة وثلاثة وثمانين كيلومتراً من بوغوتا. وكان الجنرال روجاس يميناً ينتظر زيارتنا، في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته الكبيرة في قاعدة ميغلار العسكرية. وكان قد وعد بعقد مؤتمر صحفي ينتهي قبل الساعة الخامسة مساءً، مما يتيح لنا وقتاً كافياً للمعدة بصيرة وأخبار طازجة.

كان معوثو التسمو هم راميرو الفرادي والمصور خيرمان كاميشيدو، إضافة إلى أربعة آخرين لم أستطع تذكرهم: رداثيل رودريغيث وأنا من الاسكتادور. بعضنا كان يرتدي ملابس الميدان، إذ جرى تنبيهنا إلى أننا قد نضطر إلى التوغل بضع خطوات في الأدغال.

ذهبنا بالسيارة حتى ميلغار. وهناك توزعنا على ثلاث طائرات هيلوكبتر أخذتنا عبر عمر جهلي ضيق ومضول في سلسلة الجبال الوسطى، محيط به غم شائعة وحالة الخراف. وكان أكثر ما أثر بي، مع ذلك، هو توتر الطيارين الشباب الذين كانوا يتفادون مناطق معينة، أسقط فيها رجال حرب العصابات، في اليوم السابق، طائرة هيلوكبتر وأصابوا أخرى. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة من التوتر، هبطنا في ساحة قيساريكا الفسحة والمظفرة، وبدا كما لو أن سجادة أرضها الترابية غير قادرة على تحمل ثقل الطائرة. كانت هناك في محيط الساحة، بيوت من

الحشب، فيها متاجر متحولة إلى أطلال، ومنازل لا يسكنها أحد. بأشعثا، منزل واحد حديث الطلاء، كان فندق القرية إلى ما قبل أن يسود الرعب.

وكانت تُلعب قبالة الهيولوكتر، المرتفعات المنخفضة الموازية لسلسلة الجبال، وسقف من التوتيا، البيت الوحيد الذي يكاد لا يرى في ضبابية السطح البعيد. وهناك، وفق ما قاله لنا الضابط المرافق، كان رجال حرب العصابات، ومعهم أسلحة لادوة على إصابتنا. ولهذا علينا أن نركض حتى الفندق بصورة مضطربة، ونحن نحني جذوعنا، كاحتياط أولي لتجنب إمكانية إصابتنا بطلقات تأتي من الجبال. ولم نكتشف أن الفندق قد تحول إلى ثكنة عسكرية، إلا بعد أن وصلنا إليه.

كان هناك عقيد برزي وأمنعة الهفان، له وشافة فنان سينمائي، ولطف ذكي، أوضح لنا دون تهويل، بأن طبيعة رجال حرب العصابات تتواجد منذ عدة أسابيع، في ذلك البيت الذي على سلسلة الجبال، وأنهم حاولوا عدة مرات، انطلاقاً من هناك، القيام بغارات ليلية على القرية. وكان الجيش واثقاً من أنهم سيحاولون عمل شيء عندما يرون طائرات الهليكوبتر في الساحة، وكانت قوات الجيش على أعبء الاستعداد، ومع ذلك، وبعد حوالي ساعة من الاستفزازات، بما في ذلك، التحديدات التي استخدم الجيش فيها مكبرات الصوت، لم يبد رجال حرب العصابات ما يشير إلى وجودهم. عندئذ أرسل الكولونيل، وقد أصيب بالإحباط، دورية استطاع للتأكد من أنه لا يزال هناك أحد في البيت.

خفت حدة التوتر. وخرجنا، نحن الصحفيين، من الفندق، واستطلعنا الشوارع المجاورة. بما في ذلك أقلها حماية حول الساحة. بدأنا أنا

والمصور، مع آخرين، في الصعود إلى الجبل، عبر درب بغال وعمر، وعند أول منعطف، كانت هناك جماعة من الجنود المنطعين بين الشجيرات في وضعية الرمي. نصحبنا أحد الضباط بالصعود إلى الساحة، لأنه يمكن حدوث شيء ما. لكننا لم نوله اهتماماً. فقد كان هناك الصعود إلى أن نلتقي بطليعة متقدمة من رجال حرب العصابات، تنقذ يومنا بخير كبير. لم ينجح لنا الوقت. فقد سمعت فجأة عدة أوامر متزامنة، وتلا ذلك مباشرة إطلاق نار من جانب العسكريين. انبطحنا أرضاً قرب الجنود، وفتح هؤلاء النار باتجاه البيت الذي على الجبل، وفي الفوضى الأتية، غاب عن نظري المصدر ووديعيث الذي أسرع للبحث عن موضع استراتيجي لأتة تصويره. استمر إطلاق النار لوقت قصير، ولكنه كان كثيفاً جداً، ثم حل بعد ذلك صمت قاتل.

كنا قد رجعنا إلى الساحة، عندما رأينا دورية عسكرية تخرج من الغابة حاملة جسداً على نقالة. ولم يسمح لنا قائد الدورية الهانج بالنقاط الصور. بحثت بنفري عن ووديعيث، ورأيت يظهر على بعد خمسة أمتار إلى يميني، وآلة تصويره جاهزة لالتقاط صورة. لم تره الدورية، عندئذ عشت أشد اللحظات توتراً، مرزوعاً بين الضحك في أن أصبح به، طالباً منه عدم التقاط الصورة، خوفاً من أن يطلقوا عليه النار سهواً. وبين الغريزة الئيمية لالتقاط الصورة، مهما كان الثمن، لم ينجح لي الوقت للاحتياط، فقد سمعت في تلك اللحظة نفسها، صرخة قائد الدورية المروية:

- ممنوع التقاط هذه الصورة.

أزُل ووديعيث آلة التصوير ببطء، واقترب مني. مرّ موكب الجنود

على مقربة شديدة منا، أحسنا معها بوميض المראה المنبعث من الأجساد، وصمت الجسد الميت، وبعد أن مرروا، همس رودريغيث في أذني:

- لقد التقطت الصورة.

وكان ذلك صحيحاً، لكن الصورة لم تنتشر قط. وقد انتهت تلك الدعوة بكارثة، فقد كان هناك جريحان آخران بين الجنود، وقتل اثنان على الأقل من رجال حرب العصابات، سُحبت جثتاها إلى الخفاء. بذلك العميد حالته المعنوية مبدئياً ملامح الأسى. وأخبرنا ببساطة بأن الزهارة قد ألقيت، وأن لدينا نصف ساعة لتناول الضياء، ثم العودة بعد ذلك مباشرة، إلى ميلغار عبر الطريق البري، لأن طائرات الهليكوبتر محجوزة لنقل الجرحى والجثث. ولم يكتفِ عدد تلك الجثث وأولئك الجرحى قط.

لم بعد أحد إلى ذكر المؤتمر الصحفي المقرر عقده مع الجنرال ووخاس بهنياً. مررنا أمام بيته في ميلغار، ونحن في سيارة جيب تتسع لستة أشخاص. ووصلنا إلى بوخوتا بعد منتصف الليل. كانت هيئة التحرير يكاملها بانتظارنا في قاعة المحررين. فقد اتصلوا بهم من مكتب الإعلام والصحافة التابع لرئاسة الجمهورية ليخبروهم، دون مزيد من التفصيل، بأننا سنصل برأ، لكنهم لم يحددوا إذا ما كنا سنصل أحياناً أم صبيحة.

كان تدخل الرقابة العسكرية الوحيد، حتى ذلك الحين، هو الذي جرى عند مقتل الطلاب في وسط بوخوتا. ولم يكن هناك رقيب في قاعة التحرير، بعد أن استقال آخر رقيب للحكومة السابقة وهو يكاو ييكي، عندما تم بعد قادراً على تحمل الأخبار الزائفة ومكائد المحررين

الساهرة. كنا نعرف أن مكتب الإعلام والصحافة لم يكن يرفض شيئاً عنا. وكثيراً ما كانوا يرسلون إلينا عبر الهاتف، محذيرات ولصائح أبوية. أما العسكريون الذين أُنشعوا في بداية حكومتهم، مودة أكاديمية مع الصحافة، فتمحلوها إلى غير مرتبين أو متكئين. وضع ذلك، فإن طرف خيط مفلت ظل ينمر وجيهاً بصمت، وأنشاع تأكيداً لم يُقْبَته ولم ينغم أحد قط. بأن زعيم بؤرة حرب العصابات تلك، في توليها هو شاب في الثانية والعشرين، حقق شهرة في مبدائه، وأن اسمه الذي لم يستطع أحد أن ينغمه أو يؤكده هو: مانويل مارولاندا فيلث أو بيدرو انطونيو مارين. الشهير بلقب "مروغفو"، بعد أربعين سنة من ذلك، عندما سُلِّ مارولاندا عن هذه المفوضة، في مصكرة الخرس، أجاب بأنه لا يتذكر في الواقع، إذا ما كان هو نفسه.

لم يكن ممكناً الحصول على خبر آخر. فكنيت أحوال مثلها، أن اكتشفه منذ هودني من بيباريكا، ولكنني لم أجد باباً يوصلني إليه. فقد كان مكتب الإعلام والصحافة الملحق برئاسة الجمهورية محظوراً علينا، بينما بقيت واقعة بيباريكا غير السارة، فليح مدفونة تحت التكتم العسكري. كنت أعقد آمالي على سلة المهملات، عندما ظهر خوسيه سالغار أمام منصتي، متظاهراً ببرد أعصاب لم يمتلكه قط. وأبرز لي برقية تلقاها للتو، وقال لي:

- ستجد هنا ما لم تره في بيباريكا.

لقد كانت مأساة حين من الأطفال الذين انتزعهم القنارات المسلحة من قراهم وداكرهم، دون خطة مسبقة، ودون موارد لإعالجتهم، من أجل تسهيل حرب الإبادة ضد رجال حرب العصابات في توليها. لقد فصلوهم

عن آبائهم، دون أن يتاح الوقت لمعرفة أبنائهم من هم، ولم يكن كثيرون منهم يعرفون نطق أسمائهم. وقد بدأت للأسف بتجميع حشد من ألف ومئتي بالغ، اتسبوا إلى قرى عديدة في من توليها، بعد زيارتنا لميلفاو، وجرى إسكانهم كبقعنا اتفق، والتخلي عنهم بعد ذلك لرحمة ■. كان عدد الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم لاعتبارات لوجيستية محض، ووزعوا على عدة ملاجئ في أنحاء البلاد، يصل إلى حوالي ثلاثة آلاف طفل، من مختلف الأعمار والظروف. ولم يكن بينهم سوى ثلاثين من أيتام الأب والأم، وبين هؤلاء توسان لم يضر على موطنهما سوى ثلاثة عشر يوماً. وقد جرت عملية جمع الأطفال بسرعة مطلقة، في كتب الرقابة على الصحافة، إلى أن أرسل إلينا مراسل الإيسيكافور، أول الإشارات من أمهالينا التي تبعد عنني كيلومتر عن بيباريكا.

عشرنا، خلال أيلول من ست ساعات، على ثلاثمائة قاصر تفل أعمارهم عن خمس سنوات، في ملجأ "حماية الأطفال" في بوغرتا. وكان كثيرون منهم مجهولي الهوية. وقد تمكن هيلي رودريغيث، وكان في الثانية من عمره، من التلطف باسمه بصعوبة. لم يكن يعرف شيئاً عن أي شيء، ولا أين هو موجود، أو لماذا هو موجود هناك، ولم يكن يعرف اسمي أبويه، ولم يستطع توفير أي إشارة تتيح العثور عليهما. عزاؤه الوحيد هو أن له الحق بالبقاء في الملجأ، إلى أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره. وكانت ميزانية الملجأ تتحمل ستمائة مئة ألف شهرياً لكل طفل، نفقها حكومة الإقليم المحلية. وكان عشرة من أولئك الأطفال قد هربوا خلال الأسبوع الأول، وفي نيتهم التسلل مجاناً إلى النظارات المنوجهة إلى توليها، ولم نعتز لهم على أثر.

لقد أجري لكثيرين منهم تفصيل إداري، فأطلقت عليهم أسماء وكتبنا من تلك القائمة في المنطقة، من أجل التمكن من تمييزهم، ولكنهم كانوا كثيرين، وشديدي التشابه والحركة، بحيث يصعب التمييز بينهم في باحة الاستراحة، ولا سيما في شهور البرد، عندما يكون عليهم تدفئة أجسادهم بالجرى في الممرات وعلى السلاط. وكان مستحيلاً ألا تدفعني تلك الزيارة المؤلمة إلى التساؤل إذا ما كانت جماعة حرب العصابات التي نلت الجندي في المعركة، قد استطلعت أن تلحق كل ذلك الأذى بأطفال بيباريكا.

نشرت قصة تلك العملية اللوجستية الحقاء في عدة حلفاء مثالية، دون استشارة أحد. احتفظت الرقابة بالصمت، ورد العسكريون بالتفسير الشائع: أحداث بيباريكا هي جزء من تحرك شيوعي واسع النطاق ضد حكومة الفرات المسلحة. وهذه القوات مضطرة إلى التصرف باستخدام الوسائل الحربية. وكانت فزاة سطر واحد من ذلك الإبلاغ، كافية لأن تدفعني إلى التفكير في الحصول على معلومات مباشرة من غيلبيرتو طيورا، الأمين العام للحزب الشيوعي الذي لم أكن قد رأيته من قبل.

لست أتذكر إذا ما كنت قد قصت بالخطوة التالية، بتلويض من الجريدة. فم أنني قعلت ذلك بمبادرة خاصة مني. ولكنني أذكر جيداً أنني قصت بضع عديده، غير مجددة، لتتوصل إلى اتصال مع لبادي في الحزب الشيوعي السري، يمكنه أن يطلعني على الوضع في بيباريكا. كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني هي أن النظام العسكري كان يفرض حصاراً غير مسبوق على الشيوعيين السريين. عندئذ قمت

باتصالات مع صديق شيوعي. وبعد يومين من ذلك، ظهر أمام منطقتي بائع الساعات الذي كان يبحث عني ليتقاضى مني الدفوعات التي لم أتمكن من دفعها في بارانكييا. دفعت له ما استطعت دفعه، وقلت دون مبالاة إنني بحاجة إلى التحدث، بصورة مستعجلة، مع أحد قادة الكبار؛ ولكنه رد علي بالصيغة المعروفة قائلاً إنه ليس الوسيلة للبرغ ذلك، وليس بإمكانه أن يوصلني إلى من يمكنه تحقيق طلبي. غير أنني فوجئت في ذلك المساء بالذات، ودون إنذار مسبق، بصوت متناغم وغير لائق، يقول لي على الهاتف:

- مرحباً غابرييل، أنا غيلبرتو فييرا.

وبالرغم من أنه أحد مؤسسي الحزب الشيوعي، إلا أن فييرا لم يكن قد تعرض، حتى ذلك الحين، للحظة واحدة من النفي أو السجن. ومع ذلك، وبالرغم من إمكانية أن يكون كلا الهاتفين مراقباً، فقد أعطاني عنوان بيته السري، لكي أؤوره في ذلك المساء بالذات.

كان البيت شقة مؤلفة من صالة صغيرة، حجرة مكتب سياسية وأدبية، وغرفتي نوم في طابق سادس؛ حيث الأدراج شديدة الانتصاب ومظلمة، يصل المرء - ولقد فقد أنفاسه، ليس بسبب الارتفاع فقط، وإنما ليقينه بأنه يدخل إلى أحد أكثر الأماكن سرية في البلاد، كان فييرا يعيش مع زوجته سيسيليا، وابنة حديثة الولادة. ولأن الزوجة لم تكن في البيت، فقد كان يبقي مهد الطفلة في متناول يده. وبهذه هزاً خفيفاً كلما علا البكاء، خلال المعترضات الطويلة التي تخللت محادثتنا، وهي محادثة سياسية وأدبية على السواء، ولكنها تخلو إلى حد كبير من حس السخفية. كان من المستحيل تصور أن ذلك الأرميني المتورّد

والأصمغ، ذا العينين الخضراوين الماحتين، والكلمات الدقيقة، هو الرجل الذي تبحث عنه الأجهزة السرية في البلاد، أكثر من أي رجل آخر.

لاحظت منذ البداية، أنه كان مطلعاً على حياتي أولاً بأول، منذ أن اشتريت الساعة في جريدة إناسبونال في بارانكييا، وكان يقرأ ريبورتاجاتي في الأسبكتادور، ويعترف على مقالتي التي بلا توقيع، في محاولة لاستكشاف ما تخفيه بين السطور. ومع ذلك، فقد كنت متفقاً معه على أن أفضل خدمة يمكن لي، أن أقدمها إلى البلاد، هي في حقلها على الخط الذي أمضي فيه، دون أن أتورط مع أحد، بأي نوع من الانتماء السياسي.

وما إن أصبحت لي فرصة الكشف له عن سبب زيارتي، حتى دخل في الموضوع فوراً. لقد كان مطلعاً على الوضع في بيجاريكا، كما لو أنه موجود هناك، وهو الوضع الذي لم نستطع أن ننشر عنه سطوراً واحداً بسبب الرقابة الرسمية. ومع ذلك، فقد لدم لي معطيات مهمة لفهم أن ذلك الوضع، ما هو إلا تورطه لحرب مزمنة، بعد قرن من المناوشات العابرة. وكانت مادة لغته في ذلك اليوم، وذلك المكان، تتضمن من خبرتي إليسار غامبتان أكثر مما تتضمن من ماركس الذي يحتفظ به قرب وسادته، من أجل التوصل إلى حل لا يبدو أنه استيلاء الهوليتاري على السلطة، وإنما هو نوع من تحالف المسيحيين الهائسين ضد الطبقات المهيمنة. ولم يكن الجيد في تلك المقابلة هو توضيح ما كان يجري وحسب، وإنما التعرف على منهج لفهمه بصورة أفضل. وهكذا أوضحت الأمر لكل من غييرمو كانتو وثالاميا، وتركزت الباب موازياً، على أمل أن أجد في أحد الأيام، نهاية ما لذلك الريبورتاج غير المكتمل. ولا حاجة إلى القول إنني

توصلت إلى علاقة صداقة جيدة مع فيبرا. مسهل اتصالاتنا حتى في أشد أزمته مرهنة قصرة.

وفي أثناء ذلك، كانت تنفّاقم، تحت السطح، مسألة أخرى لاثناس بالفين، مما لبثت الأثنا - السبحة أن كشفت النقاب عنها، في شباط ١٩٥٤، عندما نُشر في الصحافة أن صحارياً سابقاً، ممن شاركوا في حرب كوريا، قد رهن أوسمته لكي يأكل. لقد كان واحداً فقط، من أكثر من أربعة آلاف جُنْدواً كبقما اتفق، في واحدة أخرى من لحظات تاريخنا غير المعقولة، عندما كان يمكن لأي مصير أن يكون أفضل من لا شيء.. في نظر الفلاحين الذين طردوهم العنف الرسمي، بالرماس، من أرضهم. لم تكن المدن المكتظة بالمبسمدين عن قراعم، توفر أي بارقة أمل. لقد كانت كولومبيا، مثلما كان يتروده كل يوم تقريباً في التعلقات الافتتاحية، وفي الشوارع، والمقاهي، والأحاديث العائلية، جمهورية لا يمكن العيش فيها. فكانت الحرب الكورية في نظر الكثير من الفلاحين المبسمدين، والعديد من الشبان الذين بلا أفق، هي الحل الفردي. وإليها ذهب خليط من كل نوع، دون أي تمييز محدد، اللهم إلا الحالة المحسنة، وهو ما يشبه، تقريباً، الظروف التي جاء بها الإنسان لاكتشاف أميركا. ولدى عودة أولئك المجندين إلى كولومبيا، نظرة قطرة - صبار لتلك الجماعة غير المتجانسة. نسبة مشتركة في نهاية المطاف: الكوريون القدماء. وكان يكفي أن يشبك أحدهم في مشاهرة، حتى تقع جبهة سلوكه على الجميع. لقد أوسدت الأبواب لمي وجوههم، بالفرصة السهلة القائلة إنه لا حق لهم في العمل، لأنهم أصبح مبتزّين عقلياً. ولم تكن هناك بالمقابل، دموع كافية ليكا. الكثيرين الذين رجعوا منحولين إلى ألفي وظل من الرماد.

خبر المحارب الذي رهن أوسمته، بدأ متناقضاً بصورة قاسية غير آخر، نُشر قبل عشرة شهور من ذلك، عندما رجعت آخر دفعة من أولئك المحاربين إلى البلاد، ومعهم قرابة مليون دولار نقداً، أدت لدى تحريكها في المصارف، إلى انخفاض قيمة الدولار، في كولومبيا، من ثلاثة بيزوات وثلاثين سنتافو إلى بيزوين اثنين وتسعين سنتافو. ومع ذلك، كانت سمعة المحاربين تنزدي أكثر كلما ازدادت مواجهتهم لواقع البلاد، فقبل عودتهم، نُشرت قصص متنوعة عن أنهم سيطلقون منحا خاصة لتأهيلهم في مهنة منحة، وأنهم سيحصلون على تقاعد مدى الحياة، وتسهيلات تتيح لهم البقاء في الولايات المتحدة، والعيش فيها. ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك؛ لبعد قليل من عودتهم، جرى تسميعهم من الجيش، والنسي. الوحيد الذي تبقى في جيوب الكثيرين منهم، هو صود خطبائهم اليابانيين الفزائي بقين ينتظرونهم في معسكرات اليابان، حيث كانوا بأخفونهم للاستراحة من الحرب.

كان من المستحيل ألا نذكرني تلك المسألة الوطنية، بجدي الكولونيل ماركيز، في انتظاره الأيدي لتقاعده، كمحارب قديم، وتوصلت إلى التفكير في أن ذلك الإذلال، ما هو إلا عقوبة موجهة إلى كولونيل نايغ من الحرب الدامية ضد هجمة المحافظين. أما الناجون من حرب كوريا بالمقابل، فقد حاثوا عند قضية الشيوعية، والمصلحة جنس الولايات المتحدة الإمبريالي، ومع ذلك، لم تكن أخبارهم تظهر، بعد عودتهم، في صفحة المجتمع، وإنما في صفحة الجرائم. لقد أقدم أحدهم على قتل شخصين برتين، باطلاق الرصاص عليهما. وقد قال للقضاة: "لقد قتلت في كوريا مئة شخص، فلماذا لا يمكنني قتل عشرة في بوغوتا؟".

هذا الرجل، مثل مجرمين آخرين، كان قد وصل إلى الحرب، بعد أن جرى توقيع الهدنة. ومع ذلك، فإن كثيرين مثله كانوا ضحية حس الذكورة الكولومبي الذي تبدي في الشكر بقتل محارب سابق في كوريا. فلم تكذب قضى ثلاث سنوات على عودة الدفعة الأولى منهم، حتى تجاوز عدد من لقي، من أولئك المحاربين، مصرعه بصورة عنيفة، اثني عشر شخصاً. وقد قُتل عدد منهم، لأسباب مختلفة، في مشاجرات تافهة بعد وقت قصير من عودتهم. فقد مات أحدهم مطعوناً في مشاجرة لآخه كرو الأغنية نفسها، عدة مرات، في صندوق الموسيقى في إحدى الحانات. أما الرقيب كانثور الذي شُرِك اسمه بالفناء والعزف على الجيتار، في استراحات الحرب، فمات ملتولاً بالصاع بعد أسابيع من عودته. ومات محارب آخر، طعنًا بـكين أبيضاً، في بونغونا، وقد اضطر الجيران، من أجل دغته، إلى جمع التبرعات ليعما بينهم. والمحارب آنخل فايرو غوس الذي فقد عيناً وذراعاً في الحرب، قتله ثلاثة مجرمين، ثم يُلقى القبض عليهم لظ.

أذكر - كما لو أن ذلك حدث يوم أمس - أنني كنت أكتب الفصل الأخير من سلسلة التحقيقات تلك عن المحاربين القدماء، عندما رنَّ الهاتف على مكتبي، وتصرعتُ فوراً، على صوت صارتينا فونسيكا المشرق.

- ألو؟

تركتُ الهاتف في منتصف الصفحة، بسبب طفرات قلبي، واحتزت الشارع لالتقي بها في فندق كونتيننتال، بعد اثنتي عشرة سنة دون رؤيتها. لم يكن من السهل التعرف عليها، من الباب، وهي بين النساء.

الأخريات اللواتي يتناولن الفناء، في قاعة الطعام الزخمة، لو لم ترمي لي هي نفسها، بقاذرها، كانت ترتدي ملابسها بذوقها الشخصي المعهود: معطف من زمن سابق، ولمر لعلب ذاو على كتفها، وقبعة صباد. وقد بدأت السنون تُلاحظ بوضوح على بشرة الخوخ، المتأثرة بالشمس، والعينين المتطفنتين. وبدأت مشقاته بأول ملامح شيخوخة جائرة. كان لا بد لكلينا أن يدرك أن اثنتي عشرة سنة ليست بالأمر القليل في مثل سننا، ولكننا تحمّلناها على أحسن وجه. لقد حاولتُ تسيع قاذرها، خلال سنواتي الأولى في بارانكيا، إلى أن عرفت أنها تمشي في بنما، حيث صار قبطنها يعمل دليلاً لتوجيه السفن في القناة. ولم يكن نظري لهذه النقطة يدافع المفارقة، وإلا المحجل.

أظن أنها كانت قد تناولت الفناء مع أحد تركها وحيدة، لتلتقي بي على انفراد. تناولنا ثلاثة لناجين قهوة لائلة، ودخنا معاً نصف شايه حبات ثقيلة، باحثين، باللمس، عن طريق تبادل الحديث دون كلام، إلى أن تجمرات هي على سؤالي إذا ما كنت قد فكرتُ لبها يوماً. وعندئذ فقط أخبرتها بالحقيقة: لم أنسها قط، إلا أن وداعها لي كان لأسباب، بحيث بذلك طريقتي في الوجود. وكانت هي أكثر راحة مني:

- لا يمكنني أن أنسى أبداً أنك كنت مثل ابن بالنسبة لي.

كانت قد قرأت مقالاتي الصحفية، ولخصي القصيرة، وروايتي الوحيدة، وحدثني عن كل ذلك بعد نظر لا يخلو من فطنة وصرامة، ولا يمكن أن يكون النافع إليه إلا الحقد، أما أنا فلم أفعل شيئاً، مع ذلك، سوى تجنب أحابيل الحنين، بذلك الجين المكسب الذي لا يقدر عليه غيرنا نحن الرجال. وعندما تمكنتُ أخيراً من تخفيف التوتر، تجمرات على

سؤالها عما إذا كانت قد ألحقت الابن الذي كانت ترغب فيه. فقالت بسعادة:

- لقد وُكِّد، وهو ينهي الآن المرحلة الابتدائية.

فألتفتا بالسكينة التي تميز القبرة:

- وهل هو أسود مثل أبيه؟

فلجأت هي إلى حسن حسها النائم، وقالت: "هل أبيض مثل أمه.

أما أبوه فلم يكن من البيت، مثلما كنتُ أخشى، وإنما هو شخص أقرب إليّ." وبعال اختلاقي الواضح، أكدت لي طنوني، وهي تبتسم قائلة:

- لا تقلقي إنه منه. وكذلك ابتتان متشابهتان، كما لو أنهما واحدة.

أبدت مساندتها فجيتي، واستوقفتني ببعض الذكريات التي لا علاقة لي بها. وراودني غرور التفكير في أنها تنتظر مني رداً أكثر حميمية، غير أنني، مثل كل الرجال، أنطأْتُ أيضاً في الزمان والمكان. نظرت إلى ساعة يدها، عندما طلبت القهوة، للمرة الرابعة، وعجلة سجانٍ أخرى، ونهضت والفة دون مقدمات.

- حسن يا صغيري، أشعر بالسعادة لأني رأيتك. - قالت ذلك، ثم أنهت كلامها، - لم أكن قادرة على تحمل قراءة كتاباتك دون أن أعرف كيف صرت الآن.

ففسحرتُ على سؤالها:

- وكيف أنا الآن؟

ضجعت من أعماق روحها:

- آه، لا، هنا لن تمرقه أبداً.

عندما استحدثت أنفاسي قبالة الآلة الكاتبة فقط، انتهت إلى مدى اللهجة التي كانت تسيطر عليّ دوماً لرؤيتها، وإلى الرعب الذي تمنعني من البقاء معها طوال ما تبقى من حياتنا. إنه الرعب القابع على الكتابة نفسه الذي عدت إلى الإحساس به، مرات كثيرة، كلما رنَّ الهاتف، منذ ذلك اليوم.

بدأ رأس سنة ١٩٥٥، بالنسبة للمصحفين، في الثامن والعشرين من شباط، بتقرير يقول إن ثمانية بحارة من المدمرة كالفاس الناهية للأسطول الوطني، قد سقطوا في البحر، واختفوا خلال عاصفة، حين لم يكن قد تبقى سوى أقل من ساعتين للوصول المضمرة إلى كارتاخينا. وكانت قد أبحرت قبل أربعة أيام من مريبيل، في ألاباما، بعد أن أمضت عدة شهور هناك، من أجل إصلاحات روتينية.

بينما كانت هيئة التحرير يكاملها تستمع بصمت إلى التقرير الإذاعي الأول عن الكارثة، استدار غيرمو كانو، في كرسيه الدوار بانحياض، وبقي ينظر إليّ، وهو يوشك أن يصدر أمراً عليّ طرف لسانه، وتوقف كرسيه سالفاً أيضاً، وهو في طريقه إلى المشغل، قبالي، بأعصاب صليها الغبر. كنتُ قد رجعت قبل ساعة من ذلك من بارانكيلا، حيث أعددت تقريراً حول الدراما الأبدية في بوكاس دي ثينيشا. وقد بدأت أصلاً مرة أخرى عن الساعة التي تفلح بها الطائرة الصالبة إلى منطقة الساحل، لكي أكتب باكورة تحقيقاتي عن الغرض الثمانية، ومع ذلك، سرعان ما تبين، في التقرير الإذاعي، أن المدمرة ستصل إلى كارتاخينا في الساعة الثالثة بعد الظهر، دون أي أخبار جديدة؛ ذلك أنهم لم يتمكنوا من العثور على البحارة الثمانية الغرقى، فخاب أمل غيرمو كانو. وقال:

- يا للخطيئة يا غايبو. لقد راحت علينا.

اخترلته الكارثة إلى سلسلة من البيانات الرسمية، وأعطت الأخبار بالترقيم الصارم للمشهداء الذين سقطوا أثناء المجزعة، ولا شيء سوى ذلك. غير أن البحرية كشفت النقاب، في أواخر ذلك الأسبوع، عن أن واحداً منهم، ويدعى لويس أليخاندرو بيلاسكو، قد وصل متوهكاً إلى شاطئ في منطقة أورايا، مصاباً بجراحة شمس، ولكن بالإمكان إنقاذه. بعد أن أمضى عشرة أيام تتقاذفه الأمواج، بلا طعام ولا شراب، في طوف دون مجاذيف، وقد اتفن رأينا جميعاً على أنه يمكن له أن يكون ريمونتاج السند، إذا ما قبض لنا الاستفراد به، ولو لنصف ساعة.

لم يكن ذلك ممكناً، فقد ألقته البحرية معزولاً، دون اتصال، وبمنا يستعيد عافيته، في مستشفى البحرية في كارتاغينا. وهناك التقى به، للعضات عابرة، محرر ساكر من جريدة إل تيمبو، هو أنطونيو مونتانيا الذي تملل إلى المستشفى متذكراً كطبيب، ومع ذلك، وبالنظر إلى النتائج، فإنه لم يحصل من الناجي من الضرق إلا على بعض الرسوم، بقلم الرصاص، حول المكان الذي كان فيه عندما طوحت به العاصفة، وبعض التصريحات غير المترابطة، اتضح منها أن لديه أواصر بالآبروي حكايات، وقد صرح بيلاسكو بعد أيام من ذلك: لو كنت أعرف أنه صحتي لمساعدته، وبعد أن استعاد عافيته، وكان لا يزال في كتف البحرية، وافق على إجراء مقابلة مع لانيديس أروشكو. مراسل الاسبكتادور في كارتاغينا، الذي لم يستطع الوصول إلى ما نرغب في معرفته، عن كيف أمكن لهية ربح أن يسبب مثل تلك الكارثة التي أدت إلى موت سبعة بحارة.

وبالفعل، كان لويس أليخاندرو بيلاسكو خاضعاً لالتزام حديدي، يمنعه من التحرك أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في بوغوتا. وكان الملازم غييرمو فونسيكا يتولى الرد، بنوده حميم ومتقن، على أي تساؤل تقني أو سياسي يخطر لنا. ولكنه كان يتجنب، بالتهذب نفسه، أية معلومات جوهرية حول الشيء الوحيد الذي كان يهمنا آنذاك: حقيقة تلك المفارقة، ومن أجل كسب الوقت فقط، كتبت سلسلة تعليقات عن أجواء عودة الناجي من الغرق إلى بيت أبويه، عندما معني وقاله في الزي، مرة أخرى، من التحدث إليه، بينما كانوا يسمعون له بمقابلة وحيدة مع إذاعة محلية. بدأ واضحاً عندئذ، أننا بين أيدي أسئلة في فنون شهد الحبر. وهزتي لأول مرة، فكرة أنهم يظفون عن الرأي العام شيئاً خطيراً بشأن الكارثة. وأنا أتذكر الآن ذلك اليوم، كما لو أنه نبوءة أكثر منه ارتياباً.

كان شهر آذار بحصف برياح بطيئة. وكان رذاذ المطر المختلط بالفجار يزيد من شحنة إحساسي بتأنيب الضمير. وقبل أن أواجه لاعة التحرير، وأنا مشغل بالهزيمة، التفت إلى فندق كورنيتشال المجاور، وظلت كأساً مضاعفة عند كوتشوار النهار المنقر. كنت أتناول الشراب في رشقات بطيئة، دون أن أخلع معطفي السبك، عندما سمعت صوتاً غنياً يقول في أذني تقريباً:

- من يشرب جيداً يت وحيداً.

- فليستجب الله للفولك يا جيلني - أجبتها وروحي بن شغفي.

مقتناً بأنها عاريتنا فونسيكا.

خلف الصوت في الهواء، أثر أزهار ناردين دافئة، ولكنها لم تكن

هي. رأيتهما تخرج من الباب الدوار، وتعتفي بظلماتها الصفراء التي لا تنسى. في الشارع الملتفح برقة المطر الموحل. وبعد أن تناولت كأساً أخرى. اجتزت الشارع بدوري، ووصلت إلى قاعة التحرير في الجريدة. مستنداً إلى قوة الكالس الأولين. رأيي غير مرمو كانوا. وأنا أدخل. فأطلق صرخة بهجة موجهة إلى الجميع:

- فلتر أي خير يحمله إلينا غابو العظيم!

فأجبت بالحقيقة:

- لا شيء أكثر من سمكة ميتة.

وانتهت. عندئذ. إلى أن دعايات المحررين القاسية. قد تحولت إلى التوردة. عندما رأيوني أمر بصمت وأنا أهرجر معظفي المليل. ولم يطاوع قلب أحد منهم البتة. بالسخرية المبهودة.

واصل لويس أليغاندرو بيلاسكو التمتع بأمجاده المقموعة. فلم يسمح له موجهوه بالانغماس في كل أنواع الضلال الدعائي فقط. بل وفروا له الرعاية في ذلك. فقد تلقى خمسمئة دولار وساعة جديدة. مقابل تحديثه في الإذاعة عن حقيقة نعمل ساعة معصمه تسوة الأحوال الجوية العاتية. ودفع له مصنع للأحذية الرياضية. ألف دولار لكي يتحدث عن متانة حذاءه الذي لم يستطع تزيقه ليلهي جوعه بصنع قطعة منه. وكان يلقي في أحد الاحتفالات، خطبة وطنية. ويسمع ملكة جمال بأن تغبطه. ويُعرض على الأتسام. باعتماره فردجاً ومثالاً للأخلاق الوطنية. وكنت قد بدأت بنسيانته في اليوم التالي الذي أخبرني فيه غيريهم كانوا بأنه موجود في مكتبه. وأنه مستعد لتوليح عقد لكي يبري مغامرته كاملة. أحست بالخلفة والإهانة. وقلت بإصرار:

- لم يعد الآن سمكة ميتة. وإنما متعلقة.

ورفضت. لأول مرة. القيام بعمل للصحيفة. وهو من صلب واجبي. استسلم غيريهمو كانوا للواقع. وصرف التاجي من الفرق دون أي تفسير. وقد أخبرني فيما بعد. بأنه بعد أن ودعه في مكتبه. بدأ يفكر في الأمر. ولم يستطع أن يفسر لنفسه ما الذي فعله. عندئذ أمر الجواب بأن يعيد إليه التاجي من الفرق. ثم اتصل بي هاتفياً لتبليغي. بقرار لا يقبل الاستئناف. بأنه قد اشترى الحقوق المحصورة للقصّة الكاملة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى. ولن تكون الأخيرة. التي يصر عليها غيريهمو على قضية خاسرة تنتهي في آخر الأمر. إلى إظهار أنه على حق. نهته بضيق. ولكن بأفضل أسلوب ممكن. إلى أنني سأعجز الرهبوناج. انصياعاً لواجبي في العمل فقط. ولكنني لن أولعه باسمي. ودون أن أكون قد فكرت في الأمر. خرج من ذلك القرار بصورة تلقائية عارضة. ولكنه كان سائماً من أجل الرهبوناج! إذ إنه يضطرنني إلى رواية القصّة على لسان المتكلم البطل. بأسلوبه الخاص وبأفكاره الشخصية. وتوقيع الرهبوناج باسمه. هذا يعني أن التحقيق الصحفي سيكون متروكاً داخلياً عن مغامرة فردية. بكل معنى الكلمة. مثلما جرت في الحياة. لقد كان قراراً إيجابياً. █ تكشف بيلاسكو عن رجل ذكي. ذي حساسة وتهذب لا يُسيان. ويتمتع بعن سخرية في الوقت والمكان المناسبين. وكل هذا خاضع. لحسن الحظ. لشخصية متماكة بلا شروخ.

كانت المقابلة طويلة. دقيقة. استغرقت ثلاثة أسابيع كاملة ومنهكة. وقد أجريتها وأنا أعرف أنها لن تُنشر كمادة خام. وإنما ستظهرني قدر

ثانية، قدر الريبورتاج الصحفي. بدأتها بقليل من سوء النية، محاولاً دفع الناجي من الفرق إلى الوقوع في تناقض، لكي أكتشف حقائقه المستترة. ولكنني سرعان ما تأكدت من أنه ليس لديه ما هو مستتر. لم أضطر إلى الضغط عليه. وبدا لي الأمر كما لو أنني أتمنى في مرج من الزهور، مع تمنّي يطلق الحربة في اختيار ما أقضله منها. كان بيلاسكو دقيقاً في المجيء إلى موعد اللقاء، الساعة الثالثة مساءً، في مكتبي في قسم التحرير، فراجع معاً الملاحظات السابقة، وتواصل تشيخ خيط الأحداث وفق تسلسلها الزمني. وكل فصل يروي لي. أقوم أنا بكتائبه في الليل، ويُشر في مساء اليوم التالي. لقد كان من الأسهل والأظنن، كتابة المغامرة بكاملها أولاً، ثم نشرها بعد ذلك، منفحة، بكل تفاصيلها الموثقة تماماً. ولكن لم يكن هناك منزع عن الوقت. فقد كان الموضوع ينفذ أنيته في كل لحظة، ويمكن لأي خبير صاحب آخر أن يلوحه.

لم تكن نستخدم آلة تسجيل، لأن آلات التسجيل كانت قد اخترعت حديثاً. والجريدة منها كبيرة الحجم وثقيلة كانت ألة كتابة، وشرطيها الممغنط يشابهك مثل طوي "غزل البنات". وكان تفريغ التسجيل بعد ذائه مألوفة. وبالرغم من أننا نعرف اليوم أن آلات التسجيل مفيدة جداً للتذكر. إلا أنه يجب عدم التخلي أبداً عن الاهتمام بلامع وجه من نقابله؛ إذ يمكن لهذا أن تعبر أكثر من الصوت بكثير، والعكس بالعكس أحياناً. كان عليّ أن أكتفي بالأسلوب التقليدي في تدوين ملاحظات على دفتر مدرسي. وليكني بفضل هذا الأسلوب، لم أضيع، على ما أعتمد، كلمة واحدة، ولا أي نبرة من المعاداة، واستطعت

التصق بصورة أفضل في كل خطوة. لقد واجهنا صعوبة في اليومين الأولين، لأن الناجي من الفرق أراد أن يروي كل الأشياء معاً. ومع ذلك، فقد تعلم بسرعة كبيرة، من خلال ترتيب أسئلتي ومداها، وكذلك من غريزته الخاصة كراي، ومن السهولة الفطرية التي يتمتع بها في فهم جرفية المهنة.

ولكني نويتُ القارئ، قبل أن نللي به إلى الماء، قرئنا بدء القصة من الأيام الأخيرة التي أمضاها البحار في موبيل. كما اتفقنا كذلك، على ألا ننهي القصة عند لحظة بلغه الهامسة، وإنما عند وصوله إلى كارناخينا، وسط معانات الحشرة، وهي النقطة التي يمكن لقراء منها، متابعة خيط القصة التالي بأنفسهم، من خلال المعلومات المنشورة مسبقاً. وكان ذلك يتيح لنا كتابة أربعة عشر فصلاً للحفظ على التشويق طوال أسبوعين.

نُشر الفصل الأول في الخامس من نيسان ١٩٥٥. وقد نفذت طبعة الإيبينكتادور، وكان قد أعلن عنها في الإذاعة، خلال ساعات قليلة. وفي اليوم الثالث، طرحت العقدة المتفجرة، عندما قرروا كشف السبب الحقيقي للكارثة، بعد أن كانت الرواية الرسمية تدهي أنه عاصفة. عليّ أثناء بحثي عن تفاصيل محددة وأكثر دقة، طلبتُ من بيلاسكو أن يروي ما جرى بكل تفاصيله، وكان قد تألف منذئذ مع منهجنا المشترك، فلمحتُ في عينيه وميض خبث قبل أن يجيبني:

- المشكلة هي أنه لم تكن هناك عاصفة.

ما حدث - قال صمدو - هو عشرون ساعة من الرياح القوية. وهي رياح مصروقة في المنطقة. خلال تلك الفترة من السنة. ولكن المسؤولين

عن المرحلة لم يأخذوها في الاعتبار. كان البحارة قد تلقوا روايتهم عدة شهور متأخرة قبل الإبحار، فأنفقوها في آخر لحظة، بشره كل أنواع الأجهزة المنزلية، لحملها إلى بيوتهم. وكان الأمر مرنجولاً إلى حد أن أحداً لم يعترض عندما تجاوزت الحمولة الأماكن الداخلية الشاغرة في السفينة، وريطوا على السطح الصناديق الكبيرة؛ ثلاثيات، عائلات كهربائية، مدافن. وهي حمولة ممنوعة في سفينة حربية، وفي أماكن شغلت مساحات حيوية من السطح. ربما جرى التفكير في أنه يجب عدم التعامل بصرامة مبالغ فيها، ما قامت الرحلة ليست ذات طابع رسمي، ومدتها أقل من أربعة أيام، ووسط تهبّات جوية ممنازة، كم من المرات فعلوا مثل ذلك، وما زالوا يفعلونه دون أن يحدث أي شيء؟ وكان سوء حظ الجميع هو أن رياحاً أقوى قليلاً من التنبؤات، حركت البحر تحت شمس راتعة، فأماك السفينة أكثر مما هو متوقع بكثير، ونقطعت أحزمة تقبيل الحمولة سيئة التوضيب، ولو لم تكن السفينة متينة مثلما هي "كالفايس"، لقاصت بكاملها إلى الأعماق دون رحمة، ولكن ثمانية من بحارة الحراسة على السطح، سقطوا عن الحافة، وهكذا فإن السبب الرئيسي للحادثة، لم يكن عاصفة، مثلما أصدرت المصادر الرسمية منذ اليوم الأول، بل ما صرح به بيلاسكو في روبرتاجه: الحمولة الزائدة من الأجهزة المنزلية سيئة التوضيب، على سطح سفينة حربية.

كان هناك أمر آخر احتفظ به تحت الطاولة، ألا وهو نوع الأطواف التي كانت في متناول يد من سقطوا في البحر، الذين لم ينتج منهم سوى بيلاسكو. من المفروض أن يكون في السفينة نوعان من الأطواف النظامية، وأن تكون قد سقطت معهم أطواف من القلن وقماش الحياض.

طول الواحد منها متران، وعرضه متر ونصف، في منتصفه سطح آمن ومزود بمزونة، وما - للشرب، ومجاذيف، وعلية إسعافات أولية، وأدوات صيد وملاحة، ونسخة من الكتاب المقدس، ويمكن في هذه الحالة لعشرة أشخاص البقاء على متنها طوال ثمانية أيام، حتى دون أدوات الصيد. ومع ذلك، فقد كان على متن السفينة "كالفايس"، فرق ذلك، حمولة من الأطواف الصغرى، غير المزودة بأي مؤونة. وقد تبين من خلال أحاديث بيلاسكو أن طرفة كان خالياً من أية وسائل أو مؤن. والسؤال الذي بقي دون جواب إلى الأبد، هو كم من الغرقى قكتوا من الإمساك بأطواف أخرى لم تصلهم إلى أي مكان.

لقد كانت هذه هي، دون شك، الأسباب الأكثر أهمية التي أخرجت التوضيحات الرسمية لحادثة الفرق، إلى أن تبينوا أنه لا بد من تقديم توضيح، لأن بغية أفراد طاقم السفينة صاروا في بيوتهم، وهم يروون القصة في كل أنحاء البلاد. أصدرت الحكومة حتى النهاية، على روايتها عن العاصفة، وأضفت عليها طابعاً رسمياً في تصريحات حاسمة، تضمنها بيان رسمي، لم يبلغ الأمر بالرقابة، حد حظر نشر الفصول المتبقية. ولد حافظ بيلاسكو من جانبه، إلى المدى الذي استطاعه، على محض عوالم، ولم يعرف قط إذا ما كانوا قد ضلّطوا عليه كيلا يكشف الحقائق. كما أنه لم يطلب منا ولم يمنحنا من الكشف عنها.

بعد الفصل الخامس، جرى التفكير في إصدار طبعة إضافية للفصول الأربعة الأولى، استجابة لطلب القراء الراغبين في جمع لصور القصة كاملة. أما دون غابرييل كانتو الذي لم تكن قد رأيتاه في قاعة التحرير، خلال أيام العمل المحموم تلك، فقد نزل من عرش حاتم، وجاء مباشرة إلى حيث منتدتي ليسالني:

- قل لي يا سمبي: من كم فصل ستكون قصة الفريق؟

كما قد وصلنا إلى الحديث عن اليوم السابع، عندما أكل بيلاسكو بطاقة تمريق كان يحملها، لأنها الطعام الوحيد المتوفر له، ولم يستطع تمزيق حذائه بأسنانه ليحصل على شيء يصفه. أي أن ما تبقى لنا هو سبعة لفصول أخرى، فاستنكر دون غايبريل ذلك، وقال بتشجيع:

- لا يا سمبي، لا، يجب أن تكون القصة من خمسين فصلاً على الأقل.

قدمتُ إليه حججاً، لكن حججه كانت تستند إلى أن مبهعات الجريدة على وشك أن تتضاعف، ويمكن لها حسب تقديراته أن تبلغ رقماً لا سابق له في الصحافة المحلية. أرجل اجتماعاً لهيئة التحرير، ودرست التفاصيل الاقتصادية، والفنية، والصحافية، وتم الاتفاق على حد معمول من عشرين فصلاً، أي بإضافة ستة فصول إلى ما كان مقرراً.

على الرغم من أن توقيعني لم يكن يرد في الفصول المطبوعة، إلا أن منهج العمل المنبع كان قد شاع وانتشر. وفي إحدى الليالي، حين ذهبت لإنجاز واجبي كناقد سينمائي، جرت في يدي مسألة السينما مناقشة حامية حول قصة الناجي من الفرق، وكان معظم المتحاورين أصدقاء، ممن أتبادل وإياهم الرأي من أجل مقالتي النقدي السينمائي. بعد العروض السينمائية، كانت آراؤهم تساعدني في توضيح آرائني من أجل مقالتي النقدية الأسبوعية. وبالنسبة لقصة الفريق، كانت هناك رغبة عامة - مع استثناءات قليلة جداً - في إطالة القصة أكثر مما يمكن.

وأحد تلك الاستثناءات كان رجلاً ناشطاً ومهيباً، يرتدي معطفاً بدعياً من وير الجمال، ويحتمر قميصه من اللبد، لحن به حوالى أربع

كوادرات من المسرح، بينما أنا راجع بفردي إلى الجريدة. كانت ترافقه امرأة باهرة الجمال، ترتدي ملابس لا تقل بلياً عن ملابسها، ومعهما صديق أقل منهما تألقاً، خلع قميصه ليجبينى. وقد نفسه باسم لم ألتقطه منه، ثم قال لي، دون صرامة، إنه لا يستطيع أن يوافق على اليهوديات عن الفريق، لأنه مملأه مكشوفة للشيوعية. فأوضحت له دون كبير مبالغة، أنني لست سوى ناقل القصة التي يرويها بطلها نفسه. ولكن كانت لدى الرجل أفكاره الخاصة، وكان يرى أن بيلاسكو ليس سوى متسلل إلى القوات المسلحة، بلدعة الاتحاد السوفيتي. فمضتُ عندئذٍ بأنني أبحث مع ضابط كبير من الجيش أو البحرية، واستشارتني فكرة الحصول على توضيح منه. ولكنه كان يريد، كما يبدو، أن يقول لي ذلك وحيد. وقد أضل:

- أنا لا أعرف إذا ما كنت تفعل هذا، برعي أم دون وهي، ولكن مهما يكن الأمر، فإنك تسيء إلى البلاد، لمصلحة الشيوعيين. أوصأت زوجته المبهمة بإمالة دعر، وحاولت التباه من ذراعه، متوسلة **ببعض** خافت جداً: "أرجوك يا روجيه، فأنت هي هو كلامه بالتهذيب نفسه الذي بدأ به:

- أرجوك أن تصدق بأنني أسمع لنفسني بقول هذا، تفديراً مني لكتابتك.

كانت تلك أول حادثة من سلسلة حوادث دُعيتنا إلى التفكير، جدياً، بأخطار الشارع. ففي حانة بانسة ورا، مكاتب الجريدة، يرتادها حتى الفجر، عمال من الحي، حاول شخصان مجهولان قبل يومين من ذلك، الاحتكاك دون سبب. على غوتزالو غوتزالو حين كان يتناول هناك

فنجان قهوته الأخير، في تلك الليلة. لم يستطع أحد أن يتصور الأسباب التي دفعتهما إلى التهاجم على الرجل المسالم أكثر من كل الرجال المسالين في العالم، إلا كونهم أخطؤوا به معتقدين أنه أنا، بسبب تشابه أسلحتنا ومظهرنا الكارهي، وتكرر حرف الـ "غ" في اسمه المستعار "غوغ". وقد نهضت أمن الصحيفة على أي حال، إلى أنه عليّ عدم الخروج وحيداً في الليل، في مدينة كانت تصعب أكثر فأكثر خطراً. غير أنني، على خلاف ذلك، كنتُ أجِد طمأنينة في الذهاب ماشياً إلى شقتي، بعد انتهاء عملي في الجريدة.

في فجر أحد أيام التوتر تلك، أصبحت بأن ساعتي قد أوقعت حين تساقط غمات زجاج سببت طيرة ألقبت من الشارع، على نافذة غرفة نومي. كان الطاعل هو أليخانبرو أويريفوف، فقد أضاع مفاتيح بيته، ولم يجد أصدقاء مسنقطين أو مكاناً شاغراً في أي فندق، وبعد أن تعب من البحث عن مكان يتام فيه، ومن قرع جرس شقتي المعطل، حل أمر ليلته تلك بقطعة أجر من ورشة البناء المجاورة، وعندما فتحت له الباب، اكتفى بتوجيه محبة سريعة إليّ، كهلاً بولطني قاصداً، ثم استلقى على الأرض العارية لينام حتى الظهيرة.

كان الإزعاج لشراء الجريدة، عند أبواب الاستبيكتادور، قبل أن تخرج إلى الشارع، بتزايد أكثر فأكثر. وكان الموظفون في مركز المدينة التجاري يتأخرون، في الذهاب إلى بيوتهم، بعد خروجه من العمل، لكي يشتروا الجريدة ويقرأوا الفصل اليومي في الحافلات. وأظن أن اهتمام القراء بدأ لأسباب إنسانية، واستمر لأسباب أدبية. ثم لاعتبارات سياسية في النهاية. ولكنه كان يستند على الدوام، إلى زخم القصة

الداخلي. لقد روى لي بيلاسكو مقاطع راودني الشك في أنه اختلقها، وعشر على معان رمزية أو عاطفية لبعض الوقائع، كما هو شأن طائر النورس الأول الذي لم يشأ الابتعاد عنه. وكانت واقعة الطائرات التي راح يحصيها - ذات جمال سينمائي خالص، لقد سألتني أحد الأصدقاء كيف أمكن لي أن أعرف عالم البحر، بكل تلك الدقة، فأجبتني بأنني لم العمل أكثر من استنساخ ملاحظات بيلاسكو حرفياً. وابتداءً من نقطة معينة، لم أعد مضطراً إلى إضافة شيء لما يرويه.

قيادة البحرية لم تكن تتمتع بالمزاج نفسه، فقبل قليل من انتهاء المحادثات، وجهت إلى الصحيفة رسالة احتجاج، لأنها تعاملت بشيء من المتوسطية، وبصورة قليلة التهذب، مع مسألة يمكن لها أن تحدث في أي مكان تعمل فيه وحدات بحرية، وجاء في الرسالة: "على الرغم من الحقد والحزن اللذين يلتقيان بعبء بيوت كولومبية، ورجال الأسطول كلهم، لم تتورع الجريدة عن النفاذ إلى حد نشر قصة سلسلة لكتاب مبدئين في الموضوع، تغشى بكلمات ومصطلحات تطلو عن الدقة التقنية والمنطقية، وتوضع على لسان البحار المعطوط والمجدير الذي استطاع إتقان حياته بشجاعة" ولهذا السبب طالبت قيادة الأسطول بتدخل مكتب الإعلام والصحافة في رئاسة الجمهورية، لكي يوقف - بمساعدة ضابط بحري - ما ينشر من الحادث في المستقبل. ولحسن الحظ أننا كنا قد وصلنا، عند تلقي الرسالة، إلى الفصل ما قبل الأخير، فتظاهروا بعدم معرفتنا بأمرها حتى الأسبوع التالي.

ولمجرد إمكانية نشر النص كاملاً بصورة نهائية، كنا قد طلبنا من الناجي من الفرق أن يساعدنا بتقديم قائمة من الصور التي التقطوها

خلال الرحلة. كانت هناك صور من كل نوع، ولكن معظمها لجماعات على سطح السفينة. وفي خلفيتها تظهر صناديق الأدوات المنزلية - ثلاثيات، طافى، غسالات - وعليها ماركة الشركات الصانعة بصورة واضحة. فكانت ضربة الحظ هذه كافية لتكذيب التكتيحات الرسمية. كان رد فعل الحكومة فوراً وحاسماً، وقد تجاوز توزيع الملحق كل التوقعات، وكل الطبعات السابقة. غير أنه لم يورق غيرمو كانو وخوسيه سلفار، المنيعين، سوى سؤال واحد:

- الآن، أي لعنة يمكننا عملها؟

في لحظة دوار المجد تلك، لم يكن لدينا جواب على السؤال. فكل الموضوعات بدت لنا تافهة.

بعد خمس عشرة سنة من نشر القصة في الإسبكتادور، قامت دار نشر توسكيتس في برشلونة بإصدارها في كتاب ذي غلاف مُذهب، بيع كما لو أنه مادة للأكل. وروحي من إحساسي بالعدالة، وتقديراً لاني للبحار البطل، كتبت في نهاية المقدمة: "هناك كتب ليست لن يكتبها، وإنما هي لن يهاتها. وهذا الكتاب هو واحد منها. وبالتالي فإن حقوق المؤلف متكرين لن يستحقها: مواطني المجهول الذي كان عليه أن يماني على طرف، طوال عشرة أيام، دون أن يأكل أو يشرب، لكي يكرم هذا الكتاب محنتاً".

لم تكن عبارة في الفراغ. إذ قامت دار النشر توسكيتس، وبترجيبي مني، بدفع حقوق الكتاب كاملة إلى لويس ألينكاندرو بيبلاسكو. طوال ثلاث عشرة سنة. إلى أن أقنعه المعامي غيرمو ثيّا غيرتاندت، في بوغوتا، بأن حقوق المؤلف هي من حقه قانونياً. مع أنها لم تكن كذلك، إلا بقرار مني. تقديراً لبطولته، وموهبته في السرد، وصداقته.

وُفعت الدعوى ضدي في محكمة الجزاء المدنية الثالثة والعشرين، في دائرة بوغوتا القضائية. عندئذ أصدر محامي وصديقي ألفونسو غوميث مينديث الأمر إلى دار نشر توسكيتس، بحذف الفقرة الأخيرة من المقدمة في الطبعات التالية، وعدم دفع سنناليو واحد من حقوق المؤلف إلى خوسيه ألينكاندرو بيبلاسكو، إلى أن يحسم العدالة الأمر. وكان هذا ما حدث. فبعد سنوات طويلة، تضمنت أدلة وثائقية، وتقنية، وشهادات، قررت المحكمة أن مؤلف العمل الوحيد هو أنا. ولم تستجب للدعوى التي رفعها محامي بيبلاسكو. وبالتالي، لم تعتبر الطبعات التي نقاضاها حتى ذلك الحين، يتنازل مني، دليلاً على الاعتراف بالبحار كمؤلف مشاؤك، وإنما نتيجة قرار إرادي وحر من كتب الكتاب. وهكذا تحولت حقوق المؤلف، منذ ذلك الحين، ويتنازل مني أيضاً، كتمسرح إلى مؤسسة تعليمية.

لم يكن بإمكاننا المشور على قصة مثل تلك، لأنها لم تكن من القصص التي يمكن اختلاصها على الورق. فالحياة هي التي نختلصها، وبصورة مفاجئة على الدوام. لقد أدركنا ذلك في ما بعد، عندما حاولنا كتابة سيرة حياة ألدراف العظيم رامون هوبوس، وكان قد توج في تلك السنة، بطلاً وطنياً للمرة الثالثة. أطلقنا الـهيويتاج بضجة دعائية كنظك التي تعطيناها من هيويتاج البحار، وأطلقناه حتى تسعة عشر فصلاً، قبل أن ننتبه إلى أن الجمهور يفضل رؤية رامون هوبوس يصعد جبلاً يصل قبل غيره، إلى خط النهاية. ولكن في الحياة الواقعية.

وقد لمحنا بارقة أمل خفيفة في مساء أحد الأيام، عندما اتصل بي سلفار، هاتفياً، لكي أذهب للقاء به لروا في بار غنلق كوتشينيتال.

وقد وجدته هناك، ومعه صديق قديم وجدي، كان قد انتهى للتر من تعريفه على مرافقه، وهو أميق بالكامل، ويرتدي ملابس عامل. لشعره وحاجبيه لون شديد البياض إلى حد يبدو معه جهوراً، حتى في عتمة البوار الخفيفة. وقد قدمه صديق سلفار، وهو رجل أعمال معروف، على أنه مهندس مناجم، يقوم بحفريات تنقيب في أرض خلاء، على بعد مئتي متر عن الأسبكتادور. بحثاً عن كنز خرافي كان يملكه الجنرال سيمون بوليفار. وأكد لنا مرافقه - وهو صديق مقرب من سلفار، مثلما صار صديقاً لي منذ ذلك الحين - صحة القصة. لقد كانت القصة مزيفة بسبب بساطتها: عندما كان بطل التحرير يستعد لمواصلة رحلته الأخيرة من كارتاخينا، مهزوماً ومحتضراً، يفترض أنه فضل ألا يعمل معه كنز الشخص الضخم الذي جسمه في عوز حروبه، كاحتياط يستحقه من أجل شبوخة لائقة. وعندما كان يستعد لمواصلة رحلته المزمرة - ولم يعرف قط إذا ما كان يريد الذهاب إلى كاراكاس أم إلى أوروبا - تعدد ترك ذلك الكنز مخبأ في بوشونا، تحت حراسة نظام رموز الشفرة واسعة السبر في زمنه؛ لكي يجده عندما يحتاج إليه، ومن أي مكان في العالم. لقد تذكرت هذه الأخبار بلهفة لا تقاوم، بينما أنا أكتب "الجنرال في مناجمه"، حيث يمكن لقصة الكنز أن تكون أساسية؛ ولكنني لم أتوصل إلى ما يكفي من المعلومات لكي أجعلها قابلة للتصديق، وبدت لي بالقبيل أنها قصة في التخيل الروائي. وكانت تلك الشبهة الحرفية التي لم يستمعها صاحبها، هي ما يبحث عنه الباحث بعدد وصير. لم أدر لماذا كشفتنا ذلك السر، إلى أن أوضح لي سلفار بأن صديقه المتأثر جداً بقصة الفريق، أراد أن يقدم لنا الحيشات والمقدمات،

لكي نواصل عملية البحث يوماً بيوم، إلى أن يصبح نشرها ممكناً مثل ذلك الانتشار.

ذهبنا إلى قطعة الأرض المعنية. وكانت الأرض الخلاء الوحيدة إلى الغرب من حديقة الصحفيين، وقريبة جداً من شقتي الجديدة. وقد شرح لنا الصديق، على خريطة من العهد الاستعماري، إحداثيات الكنز بتفاصيل دقيقة في رابتي مونتسيرات وغوادالوبي. لقد كانت القصة فائقة، وجائزتها ستكون خبيراً متفجعراً مثل خير الناجي من الغرق، وبانتشار عالمي أوسع.

واصلنا زيارة المكان بين حين وآخر، لكي نسقي مطلعين على ما يحدث. وكنا نستمع إلى المهندس طوال ساعات لانهائية، ونحن نتناول الحمر المزوج بالبيسون، ونشعر في مرة بأننا نبتعد أكثر فأكثر عن الممجرة، إلى أن مرّ وقت طويل، لم يبق معه لدينا حتى مجرد الحلم، والارتباب الوحيد الذي خاضرنا في ما بعد، هو أن قصة الكنز ليست سوى مشارة لاستغلال منهم مادة ثمينة ما، في وسط العاصمة، وربما تكون هذه الشكوك نفسها مجرد ستارة أخرى أيضاً، للحفاظ على سرية كنز بطل التحرير.

ثم تكن تلك هي أفضل الأوقات للحلم، فقد تصحوني، منذ قصة الفريق، بأن أذهب إلى خارج كولومبيا لبعض الوقت، ربما بهذا الوضع بسبب التهديدات بالموت، المراقبة أو المتخيلة، التي كانت تصلنا عبر وسائل متعددة. وكان هذا هو أول ما فكرت فيه عندما سألتني لويس غابرييل كاتو، دون مقدمات، عما أنوي عمله يوم الأربعاء القادم. وما أنه لم يكن لدي أي مشروع محدد، فقد طلب مني بفتوره المعهود، أن

أهين أوراقي من أجل السفر. كمنعوت خاص من الجريدة. إلى مؤقر
الأربعة الكبار الذين سيجمعون الأسبوع التالي في جنيف.

أول ما فعلته هو الاتصال. هاتفياً. بامي. بدا لها الخبر عظيماً.
حتى إنها سألتني إذا ما كنت أعني مزوجة ما تسمى "جنيف". فقلت
لها: "إنها مدينة سويسرية". ودون أن تبدي تأثراً. يهدونها غير المحدود
في استيعاب شطط أبنائها الذي لا يخطر على بال. سألتني إلى متى
سأبقى هناك. فأجبتها بأنني سأعود بعد أسبوعين على أبعد تقدير.
الحقيقة أنني كنت ذاهباً لأربعة أيام. هي المدة التي سيستغرقها
الاجتماع. ومع ذلك. وللأسباب لا علاقة لها بزيادتي. لم أتأخر
أسبوعين. وإنما قرابة ثلاث سنوات. وعندئذ صرت أنا هو من يحتاج إلى
زورق تهديف صغير. ولو من أجل التمكن من الأكل مرة واحدة. ولكنني
توطيت عدم إشعار أسرتي بذلك. لقد حاول أحد أصدقائي في إحدى
المناسبات. أن يستشير أُمي من خيانة ابنها الذي يعيش مثل أمير في
باريس. بعد أن خدعها بالقول إنه لن يبقى هناك أكثر من أسبوعين.
فقلت له بالبنامة بريئة:

- شابهتو لا يخدم أحدًا. وكل ما في الأمر أن الرب نفسه يضطر
أحياناً إلى جعل الأسابيع سبعة.

لم أكن قد أحسست قط. بأنني شخص مجهول الهوية. بصورة
بالغة الواقعية. مثل ملايين المهجرين بفعل العنف. لم أكن قد شاركت
بالقصص في أي انتخابات. لأنني لا أملك بطاقة الهوية الشخصية.
ففي هارتكيا. كنت أثبت شخصيتي ببطاقتي كمحرو في جريمة
التهريب الدو. وكان تاريخ ميلادي فيها مزوراً. لكي أتهرب من الخدمة

العسكرية التي تخلّفت عنها منذ عدة سنوات. وكنت أثبت شخصيتي
في حالات الطوارئ. ببطاقة يريد قدمتها إليّ موظفة الدلفراف في
تشيكاكيرا. وضعتني صديق وقرته العناية الإلهية. على اتصال بمعقب
معاملات في إحدى وكالات السفر. ووعد بأن يمكنني من الصعود إلى
الطائرة في الموعد المحدد. على أن أدفع مقدماً مبلغ منتي دولار. وأن
أضع توقيعني في ذيل عشر أوراق بيضاء مخترومة. وهكذا عرفت.
بالمصادفة. أن حسابي المصرفي قد بلغ رقماً مفاجئاً. لأنني لم أكن أجد
الوقت للإلتاق. بسبب انشغالي في كتابة التحقيقات الصحفية. وكانت
التفقات الوحيدة. فضلاً عن حاجاتي الشخصية التي لا تتجاوز نفقات
طالب فقير. تقتصر على الدفعات الشهرية التي أرسلها كزورق لجها
صغير للأسرة.

عشية السفر. رد معقب معاملات وكالة السفر. أمامي. اسم كل
وثيقة وهو يضعها فوق المكتب. لكيلا أخلط بينها. بطاقة الهوية
الشخصية. دفتر الخدمة العسكرية. إيصالات براءة النعمة من مكتب
الضرائب. وثائق اللقاح ضد الجدري والحصى الصفراء. وطلب مني أخيراً.
إكرامية خاصة لفني هزيل أعطى له اللقاحان باسمي. مثلما كان يجري
بومياً. منذ سنوات. تليف الزبائن الستمجلين.

سافرت إلى جنيف في الوقت المحدد لافتتاح مؤقر إيزنهاور.
وبولفانتين. وإيدمين. وفاور. دون معرفتي لأي لغة أخرى سوى الإسبانية.
وبدقة مالية من الجريدة تكفي للإقامة في فندق من الدرجة الثالثة.
غير أنني كنت أتمد جيداً إلى حسابي المصرفي الاحتياطي. كان مقدراً
لي أن أعود بعد حوالي خمسة أسابيع. ولكنني لا أعرف ما هو الهاجس

الغريب الذي دفعني إلى أن أوزع على الأصدا.. كل ممتلكاتي في الشقة، بما في ذلك مكتبة سينمائية جيدة، كنت قد جمعتها على احتداد ستين، بمساعدة من ألفارو ميبينا ولويس فيلبس.

جاء الشاعر خورخي غابرييل دوران لوداعي، عندما كنت أقرأ أوراقاً لا لزوم لها، فدخله الفضول إلى تخصص سلة المهملات، لعله يجد شيئاً ينفع للشعر في مجلده. أخرج ثلاث أو أربع ورقات ممزقة من منتصفها، وقرأها بسرعة خاطفة، بينما هو بعيد تركيب أجزائها على المتضدة. سألتني من أين أتت تلك الأوراق، وأجبته بأنها "مونولوج إيزابيل وهي ترقى طول المطر في ساكوندو"، وأنتي قد حطفتها من المسودة الأولى لرواية عاصفة الأوراق. تبهته إلى أنها قد نشرت سابقاً في كرونيكا وفي ملحق "مفازين الأحد" في الاسبيكتادور، بالعنوان نفسه الذي اخترته أنا، وبغضوب لا أتذكر أنني لمدمته على عجل في مصعد ما. لم يهتم غابريال دوران بكل ذلك، ونشرها في العدد التالي من مجلة "ميتو".

الوداع في بيت غيبيرمو كافو، عشية سفري، كان صاخباً إلى حد أنني لم أصل إلى المطار إلا بعد مغادرة الطائرة الموجهة إلى كارتاخينا، حيث سألتني تلك الليلة كي أودع الأسرة. ولكنني لحقت لحسن الحظ بطائرة أخرى عند الظهر. وقد أحسنت صنعاً، لأن تورم الجرح الممزق قد تراخي عما كان عليه في المرة الأخيرة، وكان أبواي وأخوتي يشعرون بأنهم قادرون على العيش دون زورق النجاة الذي ساكون بحاجة إليه، أكثر منهم. في أوروبا.

سافرت إلى بارنوكيا برا، في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر.

لكي ألحق بالطائرة المغادرة إلى باريس، في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي محطة حافلات كارتاخينا، التفتت بلاثيديس، بواب "تأطحة السحاب" الذي لا يتنى، ولم أكن قد رأته منذ تلك الأيام. اندفع نحوي في عنق حقيقي، وبعينين ممتلئتين بالدموع، دون أن يدري ما يقول، أو كيف يعاملني. وبعد تبادل عبارات مستعجلة، لأن حافله قد جاء، وحالفتي تشرف على الانطلاق، قال لي بحماسة أصابت أعماق روحي: - ما لا أفهمه يا دون غابرييل، هو لماذا لم تخبرني من تكون.

فأجبته، وأنا أكثر تألماً منه:

- آه يا عزيزي لاثيديس، لم أكن قادراً على أن أخبرك، لأنني أنا نفسي ما زلت حتى اليوم لا أعرف من أكون.

بعد ساعات، بينما أنا في سيارة الأجرة التي أقلتني إلى مطار بارنوكيا، تحت السماء المجردة، والأكثر شفافية من أي سماء أخرى في العالم، انتهت فجأة إلى أنني في جادة العشرين من تموز، وبحركة لا شعورية، صارت جزءاً من حياتي منذ نحو خمس سنوات، نظرتُ باتجاه بيت ميرثيديس بارتشا. وهناك كانت هي، تمهل أمام البوابة مثل فقال، تحيلة وثابتة، دقيقة في سيطرة أنباء السنة، يشرب الأخضر موشى بنظر ذات مذهبة، والشعر مقصوص على شكل أجنحة الباتونوا وبالهو. المتوتر فن يتنهر أهدأ لن يأتي. لم أستطع تغادي صوت مدور في داخلي، بأنني سأفقدُها إلى الأبد، في ساعة مبكرة من يوم خميس تموزي، فسفرتُ للحظة بإيقاف سيارة التاكسي كي أودعها، ولكنني قضت ألا أحمدي، مرة أخرى، قدراً شديداً اللاتباس والنبات مثل قدري.

بقيتُ أعاني، في الطائرة المعلقة، آلام المعص والقدم، وكانت ما

تزال شائعة آنذاك، العادة الحميدة بوضع شيء، على ظهر كل مقعد، يُسمى بغنائية طيبة: "أدوات كتابة"، مكونة من أوراق رسائل صغيرة ذات حواش مذهبة، ومغلف من الورق نفسه، بلون وردي، أو سكري، أو أزرق، ومعطر في بعض الأحيان. كنتُ أستخدم تلك الأوراق، في رحلاتي القليلة السابقة، لكتابة قصائد وداع أحوكها إلى طيارات ورقية، وأُلقف بها لتطير متهادية عند نزولي من الطائرة. اخترت ورقة زرقاء سماوية، وكتبت أول رسالة رسمية موجهة إلى ميرثيديس، الجالسة عند بوابة بيتها في الساعة صباحاً، بغستان عروس أخضر، وشعر على شكل سنونو غير مؤكدة؛ حتى إنني لم أفكر من أجل من ارتدت تلك الملابس، منذ الصباح. كنت قد كتبت إليها من قبل، ملاحظات متعابرة أخرى، ارتجلتها كيفما اتفق، ولا أتلقى على الدوام، عندما نلتقي مصادفة، سوى إجابات شفهية ومتهرة. لم يكن ما كتبته أكثر من خمسة سطور، لأطلعها رسمياً على خبر سفري. ومع ذلك، فقد أضفت في نهايتها ملاحظة أبهرتني مثل وميض برق في الظهيرة، في لحظة التوقيع: "إذا لم أتلق جواباً على هذه الرسالة، قبل مرور شهر، فسوف أبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد". لم أكد أتيح لنفسي الوقت للتفكير في الأمر مرة أخرى، قبل أن ألقى الرسالة، في الساعة الثانية فجراً، في صندوق بريد مطار موتيو باي. وكان يوم الجمعة قد حلّ. وفي يوم الخميس من الأسبوع التالي، عندما دخلتُ إلى الفندق في جنيف، بعد جولة أخرى غير مجدية من عدم الوفاق الدولي، وجدت الرسالة الجوابية.